

التفسير الموضوعي

للسور القرآنية المكية

إعداد

مجتبى بن عليّ أوّابيّ وعلماء القرآن

بإشراف

أ. د. يحيى سراج

جامعة الشارقة

المجلد الأول

الفائتة - الأعلان

٥١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة





الإصدار رقم

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي

هاتف: (+971-6-5050550)، فاكس: (+971-6-5050555)

E-mail: pb@sharjah.ac.ae

مَحْفُوظَةٌ
جَمِيعُ حَقُوقِ

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م



جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

هاتف: (+971-6-5585000)، فاكس: (+971-6-5585099)

Web site: <http://www.sharjah.ac.ae>

إِلَهِيَّةُ السَّقِيذِيَّةِ الْمَشْرُوعِ

- | | |
|----------------------------------|---------------|
| أ. د. بَهْطَلِي مَسْلَمِي | بِرَأْسِيَّةً |
| أ. د. عِيَادَةُ الْكَبِيصِي | بِعَضْوَةٍ |
| أ. د. أَحْمَدُ الْبَدَوِي | بِعَضْوَةٍ |
| أ. د. عَبْدُ اللَّهِ الْخَطِيبِي | بِعَضْوَةٍ |
| د. مُحَمَّدُ عَصَا الْقِضَاةِ | بِعَضْوَةٍ |
| د. قَاسِمُ مَسْعُودَا | بِعَضْوَةٍ |
| د. عَوَادُ الْخَلْفَا | بِعَضْوَةٍ |



الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

١. د. مصطفى مسلم محمد
١. د. عيادة أيوب الكيسي
١. د. أحمد محمد الشقاوي
١. د. ناصر سليمان العمس
١. د. أحمد عباس البدوي
١. د. محمد أحمد عيد الكردي
١. د. مساعد مسلم آل جعفر
١. د. شحادة احميدي العمري
١. د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب
١. د. أبو بكر علي الصديق
١. د. أحمد شحروري
١. د. أحمد محمد نور إبراهيم
١. د. أحمد محمد مفلح القضاة
١. د. جمال أبو حسان
١. د. طه ياسين ناصر الخطيب
١. د. عبد الحق عبد الدائم القاضي
١. د. عبد الرحمن حيدر الزقفة
١. د. عبد الله محمد سلقيني
١. د. عدنان عبد الرزاق الحموي
١. د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان
١. د. عطية محمد عطية
١. د. عفاف عبد الغفور حميد
١. د. محمد السيد محمد يوسف
١. د. محمد عبد اللطيف مرجب عبد العاطي
١. د. محمد عبد الرحمن الشايع
١. د. محمد عصام القضاة
١. د. محمد عيادة الكيسي
١. د. نايل ممدوح أبو زيد
١. د. نشأت محمود الكوجك
١. د. هارون نوح علي سليمان
١. د. يوسف الشامسي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مقدمة الكتاب

تقديم: أ. د. مصطفى مسلم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين، سيد الأولين والآخرين، وآل بيته الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن التفسير الموضوعي نوع من أنواع التفسير الذي بدأت أصوله تترسخ، ومناهجه تتضح منذ نصف قرن من الزمن، وأقر تدريسه في الجامعات، فهو إلى جانب التفسير التحليلي والإجمالي والمقارن أصبح يشغل حيزا في الدراسات القرآنية المعاصرة، إلا أن جانب التطبيق العملي غلب على الدراسات التأصيلية وبخاصة الموضوع القرآني، فهناك مئات بل ألوف الدراسات التي تناولت حقول المعرفة الإنسانية من خلال القرآن الكريم، وسجلت الرسائل العلمية في الدراسات العليا، في القضايا المختلفة، وبذلت جهود هائلة لإثارة الموضوعات العلمية التطبيقية والدراسات الاجتماعية، والنفسية، والتاريخية، والفلسفية، والعقدية،... من خلال القرآن الكريم.

وحظي هذا اللون -الموضوع القرآني- باهتمام الدارسين بل صار يخيل لكثير من طلبة العلم أنه اللون الوحيد للتفسير الموضوعي ولا زال.

أما اللونان الآخران -المصطلح القرآني- والتفسير الموضوعي للسورة القرآنية، فقد تناوها الباحثون، ولكن ليست على مستوى الدراسات التي حظي بها الموضوع القرآني. وكُتبت دراسات متفرقة هنا وهناك عن المصطلح القرآني، وفسرت سور متفرقة هنا وهناك أيضا. ولا أظن أحدا وضع في خطته أن يقوم بتفسير لجميع سور القرآن الكريم على منهج التفسير الموضوعي، وكان حلما يراودني مذ توليت تدريس هذه المادة في الجامعات منذ خمسة وثلاثين عاما. إلى أن قيض الله سبحانه وتعالى لهذه المهمة مجموعة بحوث الكتاب والسنة

التي أنشئت عام ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م في جامعة الشارقة، حيث تبنت المجموعة القيام بهذا العمل الرائد غير المسبوق.

ولما كانت مناهج الباحثين مختلفة في تفسير السورة تفسيراً موضوعياً. فقد رأت المجموعة أن تدعو إلى ندوة من أهل الاختصاص للتشاور حول الخطوات المنهجية والخطوات التنفيذية لإبراز هذا المشروع.

وبعد دراسة مستفيضة من المجتمعين، حول الخطوات المنهجية، تم الاتفاق على (مبادئ للسير في مشروع التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم).

حيث يبدأ المفسر بحثه باتباع المنهج التالي:

أولاً: بين يدي السورة

تذكر في هذه المقدمة الأمور التالية:

أ - اسم السورة أو أسماؤها إن كان لها أكثر من اسم.

ب- فضائل السورة إن وجدت.

ج - مكية السورة أو مدنيتهما.

د - عدد آيات السورة والاختلاف بين القراء في العدد وسببه.

هـ- محور السورة (المحور هو: الأمر الجامع الذي يجمع موضوعات السورة وجزئياتها في نسق واحد).

و - المناسبات في السورة، وأهمها الأنواع الستة من المناسبات مع مراعاة عدم التكلف في ذلك:

١ - المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

٢ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

٣ - المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها.

٤ - المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

٥ - المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

٦ - المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.

ب

وتذكر المناسبة بين كل مقطع والمحور في نهاية كل مقطع أثناء تفسير السورة، وإن أراد الباحث أن يتعرض للمناسبة بين المقطع والمقطع السابق له، فمكان ذلك بداية كل مقطع. ملحوظة: يكون التعرض للفقرات السابقة في التمهيد أو المقدمة أو ما سميناه: بين يدي السورة بإيجاز من صفحتين إلى خمس صفحات حسب الحاجة.

ثانياً: التفسير الإجمالي للمقطع:

يفسر كل مقطع بعد وضع عنوان له تفسيراً إجمالياً يراعى فيه الأسلوب الأمثل في تفسير القرآن، وهو:

- أ. تفسير القرآن بالقرآن والإشارة إلى الآيات التي لها علاقة مباشرة بالمقطع.
- ب. تفسير المقطع بالأحاديث النبوية الشريفة التي تلقي ضوءاً على ذلك.
- ج. في القضايا العقدية (الأسماء والصفات) يلتزم رأي السلف، وإن كان هناك إجماع على التأويل يورد في ذلك قول أئمة التفسير، على سبيل المثال: الطبري، ابن كثير، أئمة المذاهب الأربعة، وابن تيمية.
- د. في القضايا الفقهية: يكتفى بالرأي الراجح الذي يراه الباحث مع ذكر الأدلة التي جعلته يرجح هذا القول دون سواه.
- هـ. تجتنب القضايا اللغوية أو البلاغية، وإن كان هناك ضرورة لذكر بعضها لارتباطها الوثيق بالمعنى فيكون ذلك في الهامش، وكذلك القراءات القرآنية المتواترة التي لها تأثير في توجيه معنى الآيات.
- و. عند تكرار الموضوعات في بعض مقاطع السور كالقصص وغيرها يفسر المقطع في موضعه بما يتناسب مع محور السورة التي ذكر فيها وجو السورة العام من الإيجاز أو الإطناب.
- ز. الربط بين هدايات الآيات وواقع الأمة، والرد على الشبهات التي تثار حول القرآن الكريم والسنة النبوية، وعظمة التشريعات الإسلامية وصلاحيتها لكل زمان ومكان، كل ذلك عند ورود مناسباتها في تفسير الآيات المتعلقة بذلك.

ح. الاقتصار على الحقائق العلمية عند تفسير الآيات الكونية وتجنب النظريات العلمية.

ثالثاً: الهدايا المستنبطة من المقطع، وتشمل:

- أ. القضايا العقدية.
- ب. الأحكام الشرعية.
- ج. الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية.
- د. الجوانب التربوية.

رابعاً: مبادئ وقواعد عامة:

أ. توضع الآية بين قوسين مزهرين ثم يذكر اسم السورة ورقم الآية المستشهد بها بعد الآية مباشرة وليس في الحاشية، مثال ذلك: (إننا نحن نزلنا الذكر وإناله لحافظون) الحجر / ٩.

ب. تخريج الحديث بذكر اسم المصدر ورقم الحديث، فمثلاً الجامع الصحيح للبخاري، أو صحيح البخاري الحديث رقم (٢٦٥)، إن وجد الحديث في الصحيحين أو أحدهما يكتفى به، وإلا فينص على خلاصة تخريجه ودرجته.

ج. الالتزام بالأحاديث الصحيحة والحسنة في التفسير وأسباب النزول وغيرها.

د. توثيق الأقوال والمنقولات بالإشارة إلى اسم الكتاب ثم المؤلف ثم الجزء والصفحة على النسق التالي: الجامع لأحكام القرآن الكريم، القرطبي ١ / ٢٢٠، وترك بقية المعلومات إلى فهرس المراجع والمصادر، وتكون على النسق التالي: الجامع لأحكام القرآن الكريم، محمد بن عبد الله القرطبي، ت (.....)، تحقيق:.....، (مكان النشر، تاريخ النشر، رقم وتاريخ الطبعة).

هـ. ترقيم الحواشي يكون بأرقام متسلسلة لكل صفحة على حدة.

و. الالتزام الكامل بالفواصل والنقط وإشارات الاستفهام والتعجب وسائر علامات الترقيم.

ز. إذا كان للسورة سبب نزول واحد يذكر في فقرة بين يدي السورة أما إذا وجد أكثر من سبب نزول لآيات متعددة في السورة فيشار إليها في فقرة بين يدي السورة،

وترك تفاصيلها إلى المقاطع الخاصة.

ح. يتراوح حجم التفسير الإجمالي للمقطع مع الهدايات، من (5-7) خمس إلى سبع صفحات لكل صفحة من المصحف.

وبعد إقرار المبادئ، تم إرسالها إلى أهل الاختصاص من أساتذة التفسير في الجامعات الإسلامية. وتلقت المجموعة اقتراحات وآراء كثيرة. وتم تعديل المبادئ والخطة على ضوء ما وصل من الاقتراحات.

وللبدأ بالتنفيذ تم تقسيم سور القرآن الكريم على عدد من أساتذة الجامعات ممن عُرفوا بالكفاءة العلمية من خلال مؤلفاتهم في تفسير القرآن الكريم وعلومه بعد أخذ موافقتهم على الكتابة. وجميع الذين استكتبوا من الحاصلين على شهادة الدكتوراة في التفسير وعلوم القرآن، ومن مارس التدريس الجامعي. وهناك قائمة بأسمائهم في نهاية الكتاب. وبدأت الخطوات التنفيذية حيث شكلت لجنة للإشراف والمتابعة برئاسة منسق المجموعة، ووضع للمشروع ستان لانتهاء من طباعته.

ولكن عقبات واجهت المشروع مما أدى إلى تأخيره إلى هذا الوقت.

ومن أهم العقبات:

أولاً: اعتذار بعض المستكبين:

فبعد أخذ موافقة كل مستكتب على الكتابة في السورة التي حددت له خطياً، وأخذ موافقته الخطية على ذلك وتزويده بمبادئ المشروع والمدة الزمنية المطلوبة لإنجازه. وبعد مضي المدة المحددة فوجئت لجنة الإشراف باعتذار بعضهم عن الكتابة.

وكانت لجنة الإشراف تذكروهم كل ثلاثة أشهر. بل وصل الأمر إلى أن يطلب أحدهم تمديد المدة له ثلاثة أشهر إضافية ولما انتهت المدة الإضافية كان الاعتذار مجدداً.

ثانياً: عدم الالتزام بالخطة المرسومة للسير في المشروع:

قدم بعض الباحثين تفسير السورة أو السور المكلف بها، وفوجئنا بمنهج مختلف لتفسير السورة. علماً أننا أرسلنا لكل مستكتب مع خطاب التكليف نسخة من مبادئ السير في

مشروع التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم مما اضطرنا أن نعيد البحث إلى صاحبه للتغيير والالتزام. وقد التزم كثير منهم بالملحوظات التي كتبت له، ولكن آخرين لم يلتزموا مما فوت علينا الوقت والجهد، وأجبرنا على سحب التكليف منه وإسناده إلى باحث آخر.

ثالثاً: التفاوت في الأساليب:

إن الأسلوب البياني وطريقة التعبير عن الأفكار والقضايا جزء من الشخصية العلمية لكل فرد، وهذا التفاوت في الأساليب لم نستطع تجاوزه. فعلى الرغم من المبادئ الواضحة للمشروع والنقاط المحددة، وعلى الرغم من الالتزام بها. فقد كان هنالك تباين واضح في الأساليب سواء في المعنى الإجمالي لآيات المقطع أو الربط بين مقاطع السورة أو الربط بينها وبين محور السورة وهذا الأمر لا أظن أن يتجاوز في المستقبل ما دامت الشخصيات العلمية متعددة.

ولكن خروج المشروع بهذه الصورة وبهذا المنهج المحدد سابقة لا مثيل لها. لعلها تفتح الآفاق أمام أهل العلم من المتخصصين في التفسير وعلوم القرآن، وخاصة الطاقات الشابة أن يستفيدوا من هذا العمل ليقوم أحدهم بتفسير كامل للقرآن الكريم بغية توحيد الأسلوب والمنهج. ويبقى لمجموعة بحوث الكتاب والسنة في جامعة الشارقة فضل السبق والريادة لهذه الخدمة المباركة في خدمة كتاب الله تعالى.

ومن باب من لم يشكر الناس لم يشكر الله، فإننا نتقدم بجزيل الشكر لإدارة جامعة الشارقة ممثلة بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي وعميدها الأستاذ الدكتور عدنان العتوم في حرصها على تبني المشروع والإنفاق عليه وتحمل تكاليف طباعته، أرجو الله أن يجعل ذلك في ميزان حسناتهم.

والله من وراء القصد

والحمد لله أولاً وآخراً

رئيس اللجنة التنفيذية للمشروع

أ. د. مصطفى مسلم

الشارقة: ٦ صفر ١٤٣٠ هـ / ١ / ٢ / ٢٠٠٩ م

الاستعاذة

من رحمة الله تعالى بأمة محمد ﷺ، أن أرشدهم إلى ما يصلح دنياهم وأخراهم، وعلمهم كيف يحافظون على مصالحهم، وما يقاومون به أعداءهم، ولما كان أكبر أعدائهم هو إبليس، فقد علمهم كيف يحفظون أنفسهم وأموالهم وذراريهم من شره. فقد جاء في أكثر من آية تعليمهم الاستعاذة منه، كما في قوله تعالى ﴿ وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٠٠) الأعراف، فعند إثارته للغضب، وإغراءاته بالسوء يلتجأ إلى الله سبحانه وتعالى منه.

فقد جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ (١١) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ (١٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (١٨) المؤمنون، وكذلك في التعامل مع المبغضين المعادين كما ورد في قوله تعالى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣٤) وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) [فصلت].

ولتجنب وساوس الشيطان وخواتمه الصارفة لتدبر القرآن أمرنا أن نلتجأ إلى الله عز وجل من وساوس الشيطان، وذلك قبل البدء بالقراءة، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (١٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (١٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (٢٠) [النحل].

وكذلك الالتجاء إلى الله تعالى عند الصلاة لإبعاد الشيطان ووساوسه، فقد جاء في صحيح مسلم عن عثمان بن أبي العاص الثقفي أنه أتى النبي ﷺ فقال يارسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها علي، فقال له رسول الله ﷺ: ذاك شيطان يقال له خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتقل عن يسارك ثلاثاً. قال ففعلت فأذهب الله عني. (١)

كما تستحب الاستعاذة عند النزول في منزل أثناء السفر، فقد روى أبو داود بسنده من

(١) صحيح مسلم، الحديث رقم ٢٢٠٣.

حديث ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل عليه الليل قال: يا أرض ربي وربك الله أعوذ بالله من شرِّ ما خلق فيك ومن شرِّ ما يدب عليك، ومن أسد وأسود ومن الحية والعقرب ومن ساكني البلد ووالد وما ولد^(١).

وتستخدم رقية لما يجده المؤمن من ألم في جسده، فقد جاء في حديث عثمان ابن أبي العاص الثقفي رضي الله عنه أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل: باسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر^(٢).

وفي كل الأحوال ينبغي أن يكون المرء ذاكرًا لله سبحانه وتعالى بالالتجاء إليه في دفع الضر من شياطين الإنس والجن، وبسؤاله إعانته على الطاعات.

صيغ الاستعاذة:

وردت عدة صيغ للاستعاذة عن رسول الله ﷺ، منها:

١ - (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) وهي الموافقة للفظ الأمر الرباني في الآية الكريمة ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل].

وقد ورد في الصحيحين عن سليمان بن صرد قال: استب رجلان عند النبي ﷺ فجعل أحدهما يغضب ويحمر وجهه وتنتفخ أوداجه فنظر إليه النبي ﷺ فقال: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذاعته: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقام إلى الرجل رجل سمع النبي ﷺ، فقال: هل تدري ما قال رسول الله ﷺ أنفأ؟ قال: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقال الرجل: أجمنوناً تراني^(٣).

(١) سنن أبي داود، الحديث رقم (٢٦٠٤).

(٢) صحيح مسلم الحديث رقم (٢٢٠٢).

(٣) صحيح البخاري الحديث رقم (٥٧٦٤) صحيح مسلم الحديث رقم (٢٦١٠).

٢- (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم)

٣- (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) :

وهذه الصيغة وردت في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قام إلى الصلاة استفتح، ثم قال: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه)^(١). والاستعاذة ليست آية من القرآن الكريم إجماعاً.

وقت الاستعاذة:

ذهب الجمهور إلى أن وقت الاستعاذة قبل القراءة، وقبل البدء بالعمل، وقدرُوا في الآية ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي إذا أردت القراءة، كقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا...﴾ أي إذا أردتم القيام، وذلك لدفع وسوسته أثناء القراءة والعمل.

وذهب داود الظاهري ومن تبعه إلى أن وقت الاستعاذة بعد الانتهاء من القراءة والعمل لدفع وسائسه عن التشكيك في الأداء والقبول، أخذاً من ظاهر النص، والفاء تدل على التعقيب.^(٢)

حكم الاستعاذة:

ذهب الجمهور إلى أن الاستعاذة مندوبة غير متحتمة، ودليلهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعلم الأعرابي - المسيء في صلاته - الاستعاذة في جملة أعمال الصلاة، وتأخير البيان عن وقته غير جائز. وذهب عطاء وتبعه أهل الظاهر إلى أن الاستعاذة واجبة، لظاهر الأمر (فاستعذ) والأمر للوجوب ما لم يصرف عن ظاهره، ولمواظبة رسول الله صلى الله عليه وسلم على الاستعاذة.^(٣)

(١) سنن أبي داود، الحديث رقم (٧٧٥).

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١٤.

(٣) المحلى لابن حزم الظاهري ٣/ ٢٤٧. دار الآفاق الجديدة، بيروت.

المعنى الإجمالي للاستعاذة:

أمر الله سبحانه وتعالى عباده باللجوء إليه لحفظهم من مكائد عدوهم الأكبر ووساوس إبليس المطرود من رحمة الله سبحانه وتعالى، فإنه يحاول صرفهم عن تدبر القرآن الكريم، بإلقاء الخواطر والشبهات عند أداء العمل، فمن لجأ إلى ربه حماه من شر أعدائه.

سورة الفاتحة

البسملة

قرآنياتها:

- أجمع العلماء على أن البسملة بعض آية في سورة النمل، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [النمل].
- وجزم قراء مكة والكوفة بأنها آية من الفاتحة ومن كل سورة.
- وينسب هذا القول إلى ابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير، وأبي هريرة، وعلي رضوان الله عليهم جميعاً وبه قال الشافعي، وأحمد في رواية له^(١).
- وذهب قراء المدينة والبصرة والشام إلى أنها ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، قالوا وإنما كتبت للفصل بين السور وتبركاً، وبهذا القول قال أبو حنيفة ومالك، ورواية عند أحمد.
- وينسب للشافعي قول آخر: إنها آية من الفاتحة لا من غيرها.
- وينسب إلى أبي حنيفة قول آخر: إنها آية مستقلة في كل موضع ذكرت فيه في بدايات السور، للفصل بينها.
- وللقراء والفقهاء أدلتهم التفصيلية على ما ذهبوا إليه، تراجع في مظانها، لا يتسع المجال هنا لذكرها.

فضائلها:

- روى الإمام أحمد بسنده عن عاصم قال: سمعت أبا تيممة يحدث عن رديف النبي ﷺ قال: عشر بالنبي ﷺ، فقلت: تعس الشيطان، فقال النبي ﷺ: لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت: تعس
- (١) فتح القدير للشوكاني ١/١٧، دار المعرفة، بيروت.
- (٢) مسند أحمد (٢٠١٩٥) وقال الهيثمي في المجمع (ج ١٠ ص ١٨٦) "رواه أحمد بأسانيد ورجالها كلها رجال الصحيح".

الشیطان تعاضم وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب^(٢).

- روى أبو هريرة قال: كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بيسم الله فهو أجذم^(٣).

كما ورد عنه أيضاً مرفوعاً (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بيسم الله فهو أبت)^(٤).

مواضع استحبابها:

تستحب البسمة في كل موضع يعمل فيه عمل مباح أو مشروع، كما ورد في قوله تعالى:

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ أَزْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَعَلَهَا مَرَسَةً إِنْ رَزَقْنَاهُ رِزْقًا رَجِيمًا ﴾ [هود].

وثبت عن رسول الله ﷺ الأمر بها في مواضع منها ما رواه الإمام البخاري في صحيحه

(... أغلق بابك واذكر اسم الله، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله، وخر إناك واذكر اسم الله،

وأوك سقائك واذكر اسم الله...) ^(٣)، وورد في الصحيحين (... لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي

أهله قال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في

ذلك لم يضره شيطان أبداً) ^(٤).

(١) قال النووي في الأذكار (ج ١ ص ١١١): "روينا هذه الألفاظ كلها في كتاب الأربعين لعبدالقاهر

الرهاوي وهو حديث حسن".

(٢) رواه الخطيب البغدادي في كتابه الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/٦٩)، وروي بلفظ

"أقطع" بدلاً من "أبت". قال النووي في الأذكار (١/٩٤): "وقد روي موصولاً ومرسلاً ورواية

الموصول جيدة الإسناد".

(٣) الحديث رقم (٣٠٣٨).

(٤) صحيح البخاري، الحديث رقم (١٣٨). وصحيح مسلم الحديث رقم (٢٥٩١).

بين يدي السورة :

أولاً- أسماؤها :

كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، وقد وردت أسماء كثيرة لسورة الفاتحة، منها مائبت بالنص ومنها ما استنبط من خلال ما قيل عنها، وسنقتصر على مائبت من أسماؤها بالنص الصحيح.

١-٢- الفاتحة أو (فاتحة الكتاب):

أخرج مسلم في صحيحه، والنسائي في سننه من حديث ابن عباس رضي الله عنها قال: بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً فوقه، فرجع جبريل بصره إلى السماء فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ حرفاً منها إلا أعطيته^(١).

وقيل في تعليل هذه التسمية لأنها أول ما يفتح به الكتاب، فهي أول ما يكتبه الكاتب من المصحف، وأول ما يتلوه التالي من القرآن العظيم.

وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ؓ أن رسول الله ﷺ قال: لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب^(٢).

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج- يقولها ثلاثاً-^(٣).

(١) صحيح مسلم الحديث رقم (١٨٢٧) سنن النسائي الصغرى الحديث رقم (٩١٠) واللفظ له.

(٢) صحيح البخاري، الحديث رقم (٧٥٦)، وصحيح مسلم، الحديث رقم (٣٩٤).

(٣) الحديث رقم (٣٩٥).

٣- أم الكتاب:

ورد في سنن أبي داود والترمذي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الحمد لله رب العالمين) أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني^(١).

قال الإمام البخاري في أول كتاب التفسير: (وسميت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة^(٢)).

قال ابن جرير: والعرب تسمي كل جامع أمر أو مقدم لأمر إذا كانت له توابع تتبعه (أماً)^(٣).

٤- أم القرآن:

في صحيح البخاري: (أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم)^(٤)، وأخرج مسلم والنسائي من حديث أبي هريرة: (من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج، ثلاثاً، غير تامة)^(٥).

٥- السبع المثاني:

أخرج البخاري وأحمد وابن ماجه والنسائي من حديث أبي سعيد بن المعلى أن رسول الله ﷺ قال له: (لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد، قال: فأخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن، قال: نعم، الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته)^(٦)، قالوا: سميت بذلك لأنها تتلى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة.

- (١) سنن أبي داود (١٤٥٨) وسنن الترمذي (٣٢٣٥) وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.
- (٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير باب ما جاء في فاتحة الكتاب (ج٤ ص١٦٢٢).
- (٣) جامع البيان، للطبري ج١ ص٣٦، ط دار المعرفة، بيروت.
- (٤) صحيح البخاري (٤٥٨٥).
- (٥) مسلم (٨٢٩) وسنن النسائي الكبرى (٧٩١٩).
- (٦) البخاري (٤٣٦٠) والمسند (١٧٥١٨) وسنن ابن ماجه (٣٨٦٨) وسنن النسائي (٧٩١٩) ومسند أبي داود الطيالسي (١٢٦٧).

٦- سورة الصلاة:

روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قال الله عزوجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبي ما سألت، فإذا قال العبد ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال العبد ﴿ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ ﴾ (٢) قال الله: أنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿ يَاكَ تَبْتُ وَيَاكَ نَسَيْتُ ﴾ (٣) قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبي ما سألت فإذا قال: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٤) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (٥) قال هؤلاء لعبي ولعبي ما سألت (١).

٧- سورة الرقية:

في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري قال: كنا في مسير لنا فنزلنا فجاءت جارية، فقالت: إن سيد الحي سليم، وإن نفرنا غيب فهل منكم راق؟ فقام معها رجل ما كنا نأبئه (٢) برقية فرقاه فبرأ، فأمر له بثلاثين شاة، وسقانا لبناً، فلما رجع، قلنا له أكنت تحسن رقية أو كنت ترقى؟ قال: لا ما رقيت إلا بأم الكتاب، قلنا لا تحدثوا شيئاً حتى نأتي ونسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: (وما كان يدريه أنها رقية أقسموا واضربوا لي بسهم) (٣).

ثانياً- فضائل سورة الفاتحة:

أغلب الأحاديث التي ذكرت أسماء الفاتحة تدل على فضائلها فمن هذه الفضائل:

١- سورة الفاتحة أعظم سور القرآن الكريم وقد تقدم حديث أبي سعيد المعلى عندما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد... ثم ذكر له أنها

(١) صحيح مسلم الحديث رقم ٨٢٩.

(٢) نأبئه: أي ما كنا نعلم أنه يرقى فنعيه بذلك، والأبئ: التهمة، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٣٣/١، ط دار المعرفة- بيروت. ت خليل شيحا.

(٣) صحيح البخاري، الحديث رقم (٢٢٤٢)، وصحيح مسلم، الحديث رقم (٥٦٨٧).

سورة الحمد لله رب العالمين وهي السبع المثاني والقرآن العظيم^(١).

٢- لا مثيل لسورة الفاتحة في الكتب المنزلة فقد أخرج أحمد والترمذي وصححه من حديث أبي ابن كعب أن النبي ﷺ قال له: (أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها؟ ثم أخبره أنها الفاتحة^(٢)).

٣- سورة الفاتحة نور: وتقدم الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه... فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفاً منها إلا أوتيته^(٣).

٣- سورة الفاتحة: رقية وعلاج ودواء وشفاء للأسقام المادية والمعنوية، وتقدمت الأحاديث في ذلك، عندما رقى الصحابي اللديغ بالفاتحة^(٤)، وكذلك الحديث الذي أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم وصححه عن خارجة ابن الصلت التميمي عن عمه: أنه أتى رسول الله ﷺ ثم أقبل راجعاً من عنده، فمر على قوم وعندهم رجل مجنون موثوق بالحديد، فقال أهله: أعندك ما تداوي به هذا؟ فإن صاحبكم قد جاء بخير، قال: فقرأت عليه فاتحة الكتاب ثلاثة أيام في كل يوم مرتين غدوة وعشية، أجمع بزاقني ثم أتفل فبرأ فأعطاني مائة شاة، فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فقال: كل فلعمري من أكل برقية باطل فقد أكلت برقية حق^(٥).

- (١) تقدم تخريج الحديث في البخاري.
- (٢) انظر مسند الإمام أحمد الحديث رقم (٩٢٣٤) والسنن الكبرى للنسائي (١١١٠٠) والجامع الصحيح للترمذي الحديث رقم (٢٩٥٣) وقال حديث حسن صحيح.
- (٣) تقدم تخريجه ص ٧.
- (٤) تقدم تخريجه ص ٩.
- (٥) المسند رقم الحديث (٢١٤٥٧) سنن أبي داود رقم الحديث (٣٤٢١) سنن النسائي الحديث رقم (٧٥٣٥).

ثالثاً- عدد آيات الفاتحة :

- أجمع العلماء على أن فاتحة الكتاب سبع آيات^(١)، إلا أنهم اختلفوا في الآية السابعة، فمن جعل البسملة أولى آياتها^(٢)، قال: إن قوله تعالى: ﴿ صِرَطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾^(٣) آية واحدة وهي السابعة، ومن لم يجعل البسملة آية من الفاتحة^(٤) قال ﴿ صِرَطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ.. ﴾ الآية السادسة و﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾^(٥) الآية السابعة^(٤).

- قال الخازن: وهي سبع آيات بالاتفاق، وسبع وعشرون كلمة، ومائة وأربعون حرفاً^(٥).

رابعاً- وقت نزولها :

- قال جمهور العلماء: نزلت سورة الفاتحة بمكة، ولهم أدلة على ذلك، منها:

- ١- أخرج أبو بكر بن الأنباري في المصاحف عن عبادة قال: فاتحة الكتاب نزلت بمكة.
- ٢- وأخرج الواحدي في أسباب النزول عن علي قال: نزلت فاتحة الكتاب بمكة عن كنز تحت العرش.
- ٣- وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن رجل من بني سلمة قال: لما أسلمت فتيان بني سلمة... فسأله فقرأ عليه: الحمد لله رب العالمين، وكان ذلك قبل الهجرة.
- ٤- وقالوا: لم تكن صلاة في الإسلام بدون فاتحة الكتاب، ومن المعلوم أن الصلاة شرعت في

(١) انظر تفسير القرطبي ١ / ١٠٨ وفتح القدير للشوكاني ١ / ١٤.

(٢) وهم قراء الكوفة ومكة وبه أخذ الإمام الشافعي ورواية عند أحمد.

(٣) وهم قراء المدينة والبصرة والشام وبه أخذ الجمهور أبو حنيفة ومالك وأحمد.

(٤) من أراد أدلة كل فريق فليراجع أحكام القرآن للجصاص، وأحكام القرآن لابن العربي وتفسير آيات الأحكام للسايس. ومفاتيح الغيب للرازي.

(٥) انظر تفسيره المسمى لباب التأويل ١ / ١١.

الأيام الأولى من البعثة، وفرضت الصلوات الخمس في ليلة الإسراء والمعراج، وكانت قبل الهجرة بثلاث سنوات^(١).

- وقال مجاهد: إنها نزلت في المدينة، واعتبر بعض العلماء أن هذا القول كقوة جواد من مجاهد، والرواية التي استندوا عليها هي ما أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف^(٢)، وأبو سعيد ابن الأعرابي في معجمه والطبراني في الأوسط^(٣) من طريق مجاهد عن أبي هريرة: رنَّ إبليس حين أنزلت فاتحة الكتاب، ونزلت بالمدينة، ولا تقوم بهذه الرواية حجة.

- وقيل نزلت مرتين، مرة في مكة حين فرضت الصلاة، ومرة في المدينة حين حولت القبلة، ولذلك سميت مثنائي، قاله البنوي، وأيضاً هذا القول لا دليل عليه، وفي القول بنزول بعض السور أو الآيات مرتين نظر.

والراجع القول الأول- أي أنها سورة مكية، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَاتِ الْعَظِيمِ﴾^(٤) وهذه الآية في سورة الحجر، وسورة الحجر مكية بالإجماع، وقد صح في الحديث قول الرسول ﷺ عن الفاتحة إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته^(٥).

خامساً- موضوعات سورة الفاتحة :

قال جلة من علماء التفسير: إن سورة الفاتحة اشتملت على أغراض القرآن الأساسية، فمن الموضوعات في سورة الفاتحة:

١- الألوهية: التوحيد بأنواعه: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، فأخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٦) ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٧).

(١) انظر قول الجمهور في التحرير والتنوير لابن عاشور ١/ ١٣٥، ط دار سحنون.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٢٥٨٧٥) عن مجاهد عن أبي هريرة بلفظ: "أنزلت فاتحة الكتاب بالمدينة"

(٣) مجمع الزوائد (١٠٨١٣) عن أبي هريرة وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط وهو شبيه بالمرفوع ورجاله رجال الصحيح.

(٤) صحيح البخاري (٤٣٦٠).

٢- اليوم الآخر: هو يوم الدين الذي يلقي العبد فيه حسابه على ما قدمت يداه في الحياة الدنيا، وكل ما يكون بعد الموت يتعلق بيوم الدين، فالحياة البرزخية والبعث بعد الموت، والحشر والحساب والميزان والصراط، والاستقرار في الجنة أو النار، كلها من متعلقات يوم الدين، اليوم الآخر، فأخذ ذلك من قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ١﴾ .

٣- عبادة الله سبحانه وتعالى، والإخلاص لله تعالى فيها، العبادة بمفهومها الواسع وتدخل الشعائر التعبدية من صلاة وزكاة وصوم وحج وجهاد وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، في مفهوم العبادة الواسع دخولاً أولاً، فإن حياة المؤمن ومماته على منهج الله وفي طاعته كلها عبادة كما تشير الآية الكريمة ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٣٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَيَذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ١٣٣﴾ الأنعام، وهذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَاكَ تَعْبُدُ ..﴾ .

٤- الاستعانة بالله وحده في كل الأمور وجميع شؤون الحياة، ما تعلق منها بالمعاش وما تعلق منها بالتوفيق لصالح العمل والإخلاص فيه، والقبول عند الله في كل ما يعمله العبد وما يدع، فالله الموفق لصالح العمل المعين على أدائه المتفضل بقبوله، وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَاكَ نَسْتَعِينُ ٥﴾ .

٥- الالتزام بالصراط المستقيم بعد الاهتداء إليه فضل عظيم من الله تعالى يوفق عباده المخلصين إليه، وللصراط المستقيم دلالة واسعة يشمل كل ما جاء من الله سبحانه وتعالى وأنزله على أنبيائه ورسله من لدن آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد ﷺ، الذي اشتملت رسالته على جميع الرسالات وهداياتها، كما أشارت الآية الكريمة ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ٤٨﴾ المائدة/٤٨، وكل ذلك في قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ .

٦- صراط المنعم عليهم: من عباد الله المصطفين المخلصين، الذين جاء ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ٦١﴾ النساء، وهذا الصراط بمفهومه المديد عبر تاريخ البشرية يشمل معتقدات المنعم عليهم، وأساليبهم في دعوة الأقسام إلى الخير الذي

التزموا به، والعظائم والعبر التي أخذت من الحوادث التي مرت بهم، وما خلفوه وراءهم من سير عطرة، وحضارات ربانية بقيت منارات ومعالم يبتدى بها على مر العصور.

٧- تجنب صراط المغضوب عليهم والضالين: وهما نموذجان من البشر: الأول عرف الحق ثم عاداه وتكذب طريقه، بسبب الحسد أو العناد أو اتباعاً للهوى، وعلى رأس هذا النموذج اليهود، والثاني: فئات الضلال، ولا تحصى هذه الفئات فمنهم من أضل الطريق فلم يبتد إلى الحق، ومنهم من ضل في متاهات الأفكار البشرية، ومنهم من انحرف عن منهج الحق وجادة الصواب، وكلما استجدت أفكار وأحداث استجدت فئات الضلال، وعلى رأس هؤلاء الضالين النصارى.

وقد ورد في الحديث النبوي تمثيل هذين النموذجين (المغضوب عليهم اليهود والضالون النصارى) كما في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه ^(١).

ولو رجعنا إلى أغراض القرآن المكي لوجدناها تدور حول (التوحيد، اليوم الآخر، النبوات، أمهات العبادات والأخلاق) ولو رجعنا إلى أغراض القرآن المدني لوجدناها تدور حول (بناء المجتمع الإسلامي بتشريع العبادات والمعاملات، وحمايته من مكائد الأعداء والمنافقين من الخارج والداخل، وصيانتها من الانحرافات والأخطاء).

وكل هذه الأغراض في السور المكية والمدنية تعود إلى الأغراض المذكورة في الفاتحة، ولعلنا ندرك بعد هذا البيان الحكمة من وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم لسورة الفاتحة أنها (أم الكتاب وأم القرآن)، فهي كالأم ومن الأم تتوالد الذرية وتتكاثر، وإلى الأم يرجع في الانتساب فمن موضوعات سورة الفاتحة المجملة تأتي التفصيلات في السور الأخرى، وكل أغراض السور القرآنية ترجع إلى هذه الأساسيات المجملة في سورة الفاتحة.

(١) مسند أحمد (١٩٠١٧) وصحيح ابن حبان (٦١٣٧) ومجمع الزوائد (١٠٣٥٢) (ج ٦ ص ٣٠٦) ومعجم الطبراني الكبير (٢٣٧) ومسند أبي داود الطيالسي (١٠٤١) (ج ١ ص ٥٨٣).

وهل يمكننا بعد هذا البيان أن نفهم من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٨٧) الحجر، ومن قول رسول الله ﷺ عن الفاتحة إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته.

إن الفاتحة سبع آيات اشتملت على سبعة أهداف، وهذه الأهداف تشي في سور القرآن الكريم وتكرر من خلال محاور السور وأغراضها؟؟؟.

سادساً- محور سورة الفاتحة :

يمكن أن يقال إن لسورة الفاتحة محوراً واحداً هو (بيان طريق العبودية لله وحده) كما يمكن أن يقال إن للفاتحة عدة محاور، هي المحاور التي يدور عليها القرآن الكريم كله بسوره المكية والمدنية.

ولعل إشارة ابن مسعود إلى هذا الجانب الأخير، فقد أخرج عبد بن حميد عن إبراهيم قال: كان عبد الله بن مسعود لا يكتب فاتحة الكتاب في المصحف، وقال: لو كتبتها لكتبت في أول كل سورة^(١)، وكأنه يرى أن كل سورة تفصل جانباً أو محوراً مما اشتملت عليه سورة الفاتحة، وهذا ما أطلقنا عليه عنوان (موضوعات سورة الفاتحة)، وسيأتي تفصيله فيما بعد.

وفصل محمد بن جزي الكلبي ذلك وكأنه شرح لكلام ابن مسعود بقوله: (سميت أم القرآن) لأنها جمعت معاني القرآن كله، فكأنها نسخة مختصرة، وكأن القرآن كله بعدها تفصيل لها، وذلك لأنها جمعت:

- الإلهيات في ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾.
- والدار الآخرة في ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿١﴾﴾.
- والعبادات كلها من الاعتقاد والأحكام التي تقتضيها الأوامر والنواهي في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾.

(١) انظر فتح القدير للشوكاني ١٥/١.

- والشريعة كلها في ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ١ ﴾ .
 - والأنبياء وغيرهم في ﴿ .. الَّذِينَ آمَنَتْ عَلَيْهِمْ .. ﴾ .
 - وذكر طوائف الكفار في ﴿ .. غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٧ ﴾ ^(١) .
- ولو أضاف أمراً سابعاً أو محوراً سابعاً وهو (طريق العبودية إلى الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ أَهْدِينَا. ﴾) لاكتملت المحاور السبعة، ولألقى ضوءاً أعلى سر تسميتها بالسبع المثاني والقرآن العظيم).
- سابعاً: التفسير الإجمالي للفاتحة:**

سورة الحمد أفضل سورة في القرآن، اشتملت على آداب وحكم ومواعظ في غاية الشمول والعموم والدقة والروعة والجمال.

ففيها براعة الاستهلال، وحسن الثناء على خالق الكون ومدبر أمره، الذي خلق ورزق، ولطف بعموم رحمته وعميم فضله، وإليه مصير الخلائق للحساب جزاء وفاقاً.

وفي هذه السورة تعليم العباد بالتوجه إلى بارئهم بتقديم الوسائل التي شرعها لهم ربهم، والتقرب إليه بخالص النيات لتثبتهم على شرائع الإسلام بالتمسك بالعروة الوثقى، وحبل الله المتين، الذي تمسك به عباده المنعم عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين، والذي طرفه من عند الله وطرفه الآخر في جنات النعيم، وأن يجنبهم الزلل في المعتد والانحراف في السلوك، كما كان حال ملل عرفت الحق فتنكبته عن عمد وسبق إصرار فاستحقوا غضب الله ومقته، وملل تاهت عن الحق فضلت سبيل الهداية، فهم في كل وادٍ يهيمون.

إن هذه المعاني التي اشتملت عليها سورة الفاتحة من الثناء على الله سبحانه وتعالى واللجوء إليه في الدعاء، رمز هذه العبودية التي يتقرب بها المؤمن إلى الله عز وجل، فيتعلق قلبه بربه رب العالمين، ويحاسب نفسه في تلك المحطات التي يقف فيها بين يديه ليستشعر عظمة مالك يوم الدين فيعيد النظر فيما قدمه بين الصلاتين من قول أو عمل ليدرك في أي كفتي الميزان توضع، وليدرك أن لا

(١) انظر التسهيل في علوم التنزيل لابن جزري الكلبي ١١/١.

توفيق ولا فلاح إلا من وفقه الرحمن الرحيم وأخذ بناصيته إلى الخير والطاعة وثبته عليها، وأن من سلك سبيل الغي واتبع هواه وانساق وراء أهل الزيغ والضلال فنهايته إلى غضب الله وعذابه. فليدرك المؤمن هذا الاستشعار والتوجه في أعماقه وهو يقف بين يدي ربه في صلواته ودعائه، وليقل بعد قراءة هذه السورة العظيمة الجامعة (أمين) أي استجب يا ربنا لدعائنا.

ثامناً- الهدايات والحكم والآداب فيها:

- ١- تسميتها بفاتحة الكتاب: يدل على فضلها وشرفها، لأن الابتداء بالشيء يدل على أهميته، وتقدمه على غيره، وفي سورة الفاتحة براعة الاستهلال وجمال الابتداء.
- ٢- تسميتها بأب الكتاب وأم القرآن، لأنها مشتملة على أغراض القرآن الأساسية، فسور القرآن الكريم كالتفصيل لما ورد في الفاتحة من الإجمال، فصارت كالأصل والأم، تشبيهاً بالأم التي هي منشأ الولد، من حيث ابتداء الظهور والوجود.
- ٣- تسميتها بالسبع المثاني: لأنها سبع آيات تثنى -تكرر- في الصلوات، أو تكرر معانيها في سور القرآن الكريم.
- ٤- يسن للقارئ بعد فراغه من الفاتحة أن يقول (أمين) مفصلاً عنها بسكتة، ويقولها المأموم أيضاً، في صحيح البخاري: أن الإمام إذا قرأ غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فقولوا: آمين، فإن الملائكة تقول: آمين، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه^(١)، وأخرج أحمد وابن ماجه والبيهقي بسند صحيح عن عائشة أن النبي ﷺ قال: ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين^(٢).

(١) صحيح البخاري (٧٧٢) ومسلم (٨٦٦) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أمن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه" قال ابن شهاب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "أمين".

(٢) سنن ابن ماجه (٨٨٦) والأدب المفرد للبخاري (٢٩٢)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٧٣٤): رواه ابن ماجه بإسناد صحيح وابن خزيمة وأحمد بألفاظ أخرى وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٣١٦): إسناد صحيح احتج مسلم بجميع رجاله.

- ٥- استحباب التوسل إلى الله عز وجل قبل الدعاء بأسمائه الحسنی وصفاته العلی والثناء علیه وتمجيده، فهو أرجى للإجابة.
- ٦- الله جل جلاله المستحق للعبادة وحده، ومنه وحده تطلب المعونة على أدائها، وسائر شؤون الحياة.
- ٧- لزوم المداومة على الدعاء بالثبات على الدين القويم والالتزام بشرائع الله سبحانه وتعالى (إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصفه حيث يشاء)^(١)، ومن دعاء رسول الله ﷺ: (اللهم يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك)^(٢).
- ٨- استحباب الدعاء بصيغة الجمع ليضم دعاءه إلى دعاء الصالحين فهو أدمى للقبول، وكأنه يقول: إنني العبد المذنب المقصر أرفع حاجتي مع حاجات عبادك الصالحين، فشفعهم في، فلا يليق بجناب الكريم أن يقضي بعض الحاجات ويرد بعضها، وقد رفعت مجتمعة.
- ٩- الاقبال على الله سبحانه وتعالى عنوان السعادة وجملة الخير والفلاح والإعراض عن الله تعالى والبعد عن شرائعه رأس المفسد والمعاصي والآفات والخذلان في الدنيا والآخرة وذلك لأن أول الفاتحة اشتمل على الحمد لله والثناء عليه، وآخرها في ذم المعرضين عن الإيمان وتنكب شرائعه وطاعته^(٣).
- ١٠- شأن المؤمن أن يكون من الرجاء والخوف، فهما كجناحي الطائر ليعتدل طيرانه، فإن اختل أحدهما لم يستقم أمره، وكذلك المؤمن في سيره إلى الله تعالى فيدعو ربه ليهديه إلى طريق المنعم عليهم ويرجو ذلك ويتطلع إليه، ويستعيذ بالله من أن يكون مع المغضوب عليهم والضالين، فهو يخاف أن ينضم إلى فئاتهم ويحشر معهم.

(١) أخرجه مسلم (٦٧٠١) وأحمد (٦٥٥٣).

(٢) انظر سنن الترمذي، كتاب الدعوات، الحديث رقم (٣٥٢٤)، ومسند أحمد ٤/ ١٨٢.

(٣) مفاتيح الغيب للرازي ١/ ٢٦٢.

سورة البقرة

بين يدي السورة

أ- اسم السورة:

اسم السورة: سورة البقرة، وقد ورد في أكثر من حديث صحيح، منها قوله ﷺ: (الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه)^(١). ومنها قول ابن مسعود: (هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة)^(٢).

وذهب جماعة إلى انه لا يقال سورة البقرة ولا غيرها من السور، وإنما يقال: السورة التي يذكر فيها البقرة، واستدلوا بما روى عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تقولوا: سورة البقرة، ولا سورة آل عمران، ولا سورة النساء، وكذا القرآن كله، ولكن قولوا: السورة التي يذكر فيها البقرة، والتي يذكر فيها آل عمران، وكذا القرآن كله"^(٣). ولكن الحديث منكر فلا يحتاج به.

وكان خالد بن معدان (ت: ١٠٣هـ) يسميها: فسطاط القرآن^(٤)، قال المناوي: "أي مدينته الجامعة لاشتمالها على أمهات الأحكام ومعظم أصول الدين وفروعه، والإرشاد إلى كثير من مصالح العباد ونظام المعاش ونجاة المعاد"^(٥).

(١) رواه البخاري في صحيحه/ ٤٧٥٣ ومسلم في صحيحه/ ٨٠٧ عن أبي مسعود الأنصاري.

(٢) رواه البخاري في صحيحه/ ١٦٦٠، ومسلم في صحيحه/ ١٢٩٦.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٥٧/٧: وفيه عبيس بن ميمون وهو متروك، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٢٥٨٢) من طريق عبيس وقال البيهقي: "عبيس ابن ميمون منكر الحديث: وهذا لا يصح، وإنما روى عن ابن عمر من قوله، وقال العقيلي في الضعفاء ٤١٨/٣: منكر. وقال أحمد بن حنبل: حديث منكر. العليل ومعرفة الرجال ٤٥٨/٣.

(٤) رواه عنه الدارمي في سننه/ ٣٣٧٦، وروى في حديث مرفوع عن أبي سعيد الخدري عند الديلمي في مسند الفردوس/ ٣٥٥٩، وفيه وضاع كما في: التيسير بشرح الجامع الصغير ٧٣/٢.

(٥) فيض القدير بشرح الجامع الصغير للمناوي ١٤٩/٤.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن لكل شيء سناماً وسنام القرآن البقرة)^(١). والسنام الرفعة، ومنه سنام البعير لارتفاعه، قال ملا على القاري: "سنام القرآن سورة البقرة إما بطولها واحتوائها على أحكام كثيرة، أو لما فيها من الأمر بالجهاد وفيه الرفعة العظيمة"^(٢). والظاهر أن هذين وصفان جليان للسورة؛ لكثرة أحكامها، وعظيم فضلها، وثواب قراءتها، لكنها ليسا اسمين من أسمائها التوقيفية والله أعلم.

وقد ورد وصفها أيضاً بالزهراء؛ وذلك في حديث (أقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران) وسيأتي.

ب- فضائل السورة:

١- فضائل السورة منفردة:

من قرأها على عهد النبي كان ينادى بها:

عن العباس قال: "كنت مع الرسول ﷺ يوم حنين ورسول الله ﷺ على بغلته التي أهداها له الجذامي فلما ولي المسلمون قال لي رسول الله ﷺ: يا عباس ناد: يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة وكنت رجلاً صيتاً فقلت: يا أصحاب السمرة يا أصحاب سورة البقرة"^(٣).

وقد استمر هذا الأمر بعد وفاة النبي ﷺ حتى لكأن السورة صارت علماً لأهلها؛ فقد ورد عن عروة بن الزبير أنه قال: "كان شعار أصحاب النبي ﷺ يوم مسيلمة يا أصحاب سورة

(١) رواه الترمذي في سننه / ٢٨٧٨ وقال: حسن غريب، والحاكم في المستدرک برقم / ٣٠٢٧ وصححه على شرط الشيخين وعبد الرزاق في المصنف / ٦٠١٩ وعن سهل بن سعد رواه ابن حبان في صحيحه / ٧٨٠ وأبو يعلى في مسنده / ٧٥٥٤ والطبراني في المعجم الكبير / ٥٨٦٤ وله طرق عن ابن مسعود، فالحديث حسن بمجموع طرقه.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لملا على القاري ٥ / ٦٤.

(٣) رواه بلفظه ابن أبي حاتم ١٠٢٣٢ والحديث عند مسلم برقم ٣٣٢٤ بدون ذكر لفظ البقرة.

البقرة»^(١).

من قرأها أنسته في قبره:

عن أبي عمران أنه سمع أبا الدرداء يقول: إن رجلاً ممن قد قرأ القرآن أغار على جار له فقتله وأنه أقيد منه فقتل، فما زال القرآن ينسل منه سورة سورة حتى بقيت البقرة وآل عمران جمعة ثم إن آل عمران انسلت منه فأقامت البقرة جمعة. فقيل لها: ﴿ مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيْ وَمَا أَنَا بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩] قال: فخرجت كأنها السحابة العظيمة^(٢) قال أبو عبيد: يعني أنها كانتا معه في قبره تدفعان عنه وتؤنسانه فكانتا من آخر ما بقي معه من القرآن.

الشیطان ينفر من البيت التي تقرأ فيه:

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لا تجعلوا بيوتكم مقابر؛ إن الشيطان ينفر من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة)^(٣).

أنها سنام القرآن:

عن سهل بن سعد الساعدي قال " قال رسول الله ﷺ إن لكل شيء سناماً وسنام القرآن سورة البقرة من قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاث ليال^(٤).

- (١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه رقم/٢٩٠٨ وابن أبي شيبه في المصنف برقم/ ٣٣٥٧٢ وعبد الرزاق في المصنف رقم/ ٩٤٦٥، وسنده صحيح.
- (٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ١٦٧ بسند حسن، ومثله لا يقال بالرأي.
- (٣) أخرجه مسلم / ٧٨٠ والترمذي/ ٢٨٧٧ بلفظ: وإن البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان".
- (٤) أخرجه أبو يعلى ١٣/٤٦٥ وابن حبان ٢/١٠٩ والبيهقي في الشعب ٢/٤٥٣. وسنده حسن، انظر: صحيح الترغيب والترهيب ٢/٨٧.

٢- فضائلها مع آل عمران مجتمعتين:

تأنيان نوحاجان عن صاحبها:

عن أبي أمامة الباهلي قال " سمعت رسول الله ﷺ يقول: (اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين : سورة البقرة وسورة آل عمران فإنها يأتيان يوم القيامة كأنهما غيايتان وكأنهما غمامتان أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبها، اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة)^(١).

وعن نواس بن سمعان قال " سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمهم سورة البقرة وآل عمران، قال: وضرب لها رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال : كأنها غمامتان أو كأنها غيايتان أو كأنها ظلتان سوداوان بينهما شرف أو كأنها فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبها)^(٢).

وعن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ: (تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة، ثم سكت ساعة ثم قال : تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنها الزهراوان يظلان صاحبها يوم القيامة كأنها غمامتان أو غيايتان أو فرقان من طير صواف..)^(٣).

فيها اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب:

عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: (اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في سور ثلاث؛ في البقرة وآل عمران وطه_ يعني: الحي القيوم_)^(٤).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم / ٨٠٤.

أخرجه مسلم في صحيحه برقم / ٨٠٥.

(٢) أخرجه أحمد ٣٤٨/٥ والدارمي في سننه برقم / ٣٣٩١ والبغوي في شرح السنة برقم / ١١٩٠، قال

(٣) الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٧/ ١٥٩.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم / ١٨٦٧ وابن ماجه في سننه برقم / ٣٨٥٦ ورجاله ثقات. مصباح

الزجاجة في زوائد ابن ماجه للبوصيري ٤ / ١٤٤.

من قرأهما عُدَّ من الصحابة عظيمًا:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا^(١).
يعني عَظُم.

فضائلها مع السبع الطوال:

وهي سور: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة
معا أو يونس على قول آخر. وقد ورد في فضل هذه السبع عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال:
(من أخذ السبع الأول من القرآن فهو حبر)^(٢) والحبر العالم؛ وذلك لكثرة ما فيها من أحكام
وشرائع والله أعلم.

وورد عنه ﷺ أنه قال: (أعطيت مكان التوراة السبع الطوال وأعطيت مكان الزبور المثين
وأعطيت مكان الإنجيل المثاني وفضلت بالمفصل)^(٣).

ج- مدنية السورة:

سورة البقرة مدنية بالإجماع، بل ورد أنها أول سورة نزلت بالمدينة، وفي هذا عدة آثار عن الصحابة
والتابعين؛ فقد ورد من عدة طرق عن عبد الله بن عباس قال: "نزلت بالمدينة سورة البقرة"^(٤).

(١) أحمد ٣/١٢٠ وابن حبان ٢/٨٦ والبخاري في شرح السنة ١٣/٣٠٥ وسنده صحيح.

(٢) رواه الحاكم في المستدرک برقم/ ٢٠٧٠ وصححه على شرطهما، وأحمد في مسنده ٦/٧٢ واللفظ
له، والبخاري في شرح السنة برقم/ ١٢٠٣، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/١٦٢: ورجاله رجال
الصحيح.

(٣) رواه أحمد في مسنده ٤/١٠٧ والطبراني في المعجم الكبير ٢٢/٧٥ وسنده حسن.

(٤) أخرج ابن الضريس في فضائل القرآن ص ٧٥، وأبو جعفر النحاس في النسخ والمنسوخ ص ٤١٦،
وقال السيوطي: "وإسناده جيد؛ رجاله كلهم ثقات. الإتيان في علوم القرآن ١/٣٧، والبيهقي في دلائل
النبوّة ٧/١٤٤ وقال: ولهذا الحديث شاهد صحيح. وأخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن برقم/ ٨١٣
عن علي بن أبي طلحة، وبنحوه أبو عمرو الداني في البيان في عد آي القرآن ص ١٣٤.

قال ابن حجر: "واتفقوا على أنها مدنية وأنها أول سورة نزلت بها"^(١). ولكن هذا لا يعنى أن كل آياتها أول ما نزل بالمدينة، فقد دلت أدلة كثيرة على أن آيات كثيرة بالسورة نزلت متأخرة. قال ابن تيمية: "والبقرة وإن كانت مدنية بالاتفاق، وقد قيل: إنها أول ما نزل بالمدينة فلا ريب أن هذا في بعض ما نزل وإلا فتحريم الربا إنما نزل متأخراً، وقوله: ﴿ وَأَتَقُوا يَوْمَ تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١] من آخر ما نزل، وقوله ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ نزلت عام الحديبية سنة ست باتفاق العلماء"^(٢).

د- عدد الآي واختلاف العلماء في ذلك:

عدد آيات سورة البقرة مائتان وخمس وثمانون في عدّ المدني والمكي والشامي، ومائتان وست وثمانون في العدّ الكوفي، ومائتان وسبع وثمانون في العدّ البصري.

واختلافهم في أحد عشرة آية: ﴿ آتِ ﴾ [البقرة: ١] عدها الكوفي ولم يعدها الباقون، ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٠] عدها الشامي ولم يعدها الباقون، ﴿ مُصَلِّحُونَ ﴾ [البقرة: ١١] لم يعدها الشامي وعدها الباقون ﴿ إِلَّا خَافِيَاتٍ ﴾ [البقرة: ١١٤] عدها البصري ولم يعدها الباقون، ﴿ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة: ١٧٩] لم يعدها المدني الأول والمكي وعدها الباقون، ﴿ مِنْ خَلْقٍ ﴾ [البقرة: ٢٠٠] عدها الباقون، ﴿ لَمَّا كُنْتُمْ تَنْفَكُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٩] عدها المدني الأول والمكي ولم يعدها الباقون، ﴿ لَمَّا كُنْتُمْ تَنْفَكُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٩] عدها المدني الأخير والكوفي والشامي ولم يعدها الباقون، ﴿ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [البقرة: ٢٣٥] عدها البصري ولم يعدها الباقون، ﴿ الْحَى الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] عدها المدني الأخير والمكي والبصري ولم يعدها الباقون ﴿ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] عدها المدني الأول ولم يعدها الباقون.^(٣)

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١٦٠/٨.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٧/١٩٣.

(٣) البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو الداني/ ١٤٠، وقد اختلف في عدد الآي أهل المدينة ومكة والشام =

هـ - محور السورة :

معلوم أن سورة البقرة أطول سورة في القرآن، ومع هذا فإن الوحدة الموضوعية للسورة الكريمة واضحة تمام الوضوح وإن اختلفت عبارات المفسرين في الظاهر.

قال الإمام الرازي في ختام تفسيره لسورة البقرة: "ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير متبهرين لهذه الأسرار، وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل:

والنجم تستصغر الأبصار صورته... والذنب للطرف لا للنجم في الصغر.^(١)
وسوف نذكر أولا بعض أقول المفسرين في محور السورة:

= والبصرة والكوفة. وتفصيل ذلك كالتالي:

أ- عدد أهل المدينة عددان: عدد أول وهو عدد أبي جعفر يزيد بن القعقاع وشيبة بن نصاح، وعدد أخير وهو عدد إسماعيل بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري.

ب- عدد أهل مكة فهو مروى عن عبد الله بن كثير عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب.

ج- عدد أهل الشام رواه هارون بن موسى الأخفش وغيره عن عبد الله بن ذكوان وأحمد بن يزيد الحلواني وغيره عن هشام بن عمار. ورواه ابن ذكوان وهشام عن أيوب بن تميم الزماري. ورواه عبد الله بن عامر وغيره عن أبي الدرداء.

د- عدد أهل البصرة مداره على عاصم بن العجاج الجحدري.

هـ - عدد أهل الكوفة مضاف إلى حمزة بن حبيب الزيات وأبي الحسن الكسائي وخلف بن هشام. قال حمزة: أخبرنا بهذا العدد ابن أبي ليل عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب.

وانظر في ذلك: الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ١٨٣، ١٨٢، المحرر الوجيز في عدّ آي الكتاب العزيز لعبد الرزاق إبراهيم موسى / ٦٧.

(١) التفسير الكبير للرازي ٧/ ١١٢. والبيت لأبي العلاء المعري. انظر: الحماسة المغربية ٢/ ١٢٦٧.

ذهب أبو جعفر بن الزبير الغرناطي إلى أن السورة بأسرها: "بيان الصراط المستقيم على الاستيفاء والكمال أخذاً وتركاً، وبيان شرف من أخذ به وسوء حال من تنكب عنه"^(١).

وقال برهان الدين البقاعي: "مقصودها: إقامة الدليل على أن الكتاب هدى ليتبع في كل ما قال، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب، ومجمعه الإيمان بالآخرة؛ فمداره الإيمان بالبعث التي أعربت عنه قصة البقرة، التي مدارها الإيمان بالغيب"^(٢).

وقال الطاهر بن عاشور: "ومعظم أغراضها ينقسم إلى قسمين: قسم يثبت سمو هذا الدين على ما سبقه وعلو هديه وأصول تطهيره النفوس، وقسم يبين شرائع هذا الدين لأتباعه وإصلاح مجتمعهم"^(٣).

ويكاد يتفق جمهور المعاصرين على أن محور السورة يدور حول الخلافة في الأرض ومقوماتها وأهلها^(٤).

(١) البرهان في تناسب سور القرآن لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي ص ٨٨.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. لبرهان الدين البقاعي ١، ص ٥٥ وقريب منه ما ذكره الشعراوي في تفسيره ٩٥/١.

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١/٢٠٣.

(٤) قال سيد قطب: "هذه السورة تضم عدة موضوعات، ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد مزدوج، يترابط الخطان الرئيسان فيه ترابطاً شديداً؛ فهي من ناحية تدور حول موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة، واستقبالهم لها ومواجهتهم لرسولها وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها، وسائر ما يتعلق بهذا الموقف بما فيه تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة، وبين اليهود والمشركين من جهة أخرى.

وهي من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة الإسلامية في أول نشأتها، وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض، بعد أن تعلن السورة نكول بني إسرائيل عن حملها، ونقضهم لعهد الله بخصوصها، وتجريدهم شرف الانتساب الحقيقي لإبراهيم صاحب الحنيفية الأولى، وتبصير الجماعة المؤمنة وتحذيرها من العثرات التي سببت تجريد بني إسرائيل من هذا الشرف العظيم، وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور المزدوج". في ظلال القرآن ١/٢٨ =

وهذا يتفق مع مضمون السورة إلى حد كبير؛ ولذلك توطأ عليه بعض القدامى وجمهرة المعاصرين؛ ذلك أن السورة استفتحت بالحديث عن القرآن موقف الناس حياله، ثم تحدثت بعد ذلك عن خلافة آدم، وتحدثت حديثاً مطولاً عن بني إسرائيل وذكرت طرفاً من مثالبهم، مما كان داعياً إلى ألا ينالوا عهد الله، ثم انتقل الحديث إلى المسلمين ليخاطبهم بموجبات الخلافة. ومما سبق وباستعراض أقوال العلماء وتدبر السورة وموضوعاتها نستطيع أن نقول إن محور السورة يدور حول: "منهج خلافة الله في الأرض بين من أضاعوه ومن أقاموه".

وهذا المحور يتناسب مع موضوعات السورة ومع ملابسات نزولها؛ فسورة البقرة أول سورة نزلت بالمدينة كما سلف، وقد صار للمسلمين عندئذ دولة وأرض، فناسب أن يخاطبوا لوراثة الاستخلاف الإلهي لهم. أما تناسب المحور مع موضوعاتها فسياًتيك تفصيله.

والناظر في السورة الكريمة يجد أن خطابها وموضوعاتها تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: خطاب لليهود أو عن اليهود وهذا يمثل الشطر الأول في السورة تقريباً.

أما القسم الثاني في السورة: فإنه يتوجه للمسلمين بالخطاب ويكلفهم بجملة من أحكام العبادات والمعاملات المالية والأسرية والدولية. ثم تتوج السورة بختامها العظيم الذي يبين استجابة المؤمنين لأمر ربهم وتضرعهم له أن يتم عليهم أمرهم في خاصة شؤونهم وعامها. ولوضوح هذا الأمر فقد أشار إليه غالب من كتب في موضوعات هذه السورة المباركة^(١).

= ويقول د/ صلاح الخالدي: هي سورة الخلافة والخلفاء. التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ص ٧٣. ويقول د/ مصطفى مسلم: موضوعها: القوامة على دين الله سلب وإسناد. بحث: المناسبات وأثرها ص ١٨، ويتشابه هذا مع ما ذكره البقاعي في خاتمة السورة حيث قال: "بداية هذه السورة هداية وخاتمتها خلافة، فاستوفت تبين أمر النبوة إلى حد ظهور الخلافة فكانت سناماً للقرآن". نظم الدرر للبقاعي ١٨٧/٤.

(١) ذكر السيد رشيد رضا في تفسير المنار أن ما يناهز نصف السورة وهو شطرها الخاص بأمة الدعوة، والشطر الثاني قد وجه لأمة الإجابة. تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار ١٠٧/١. وهو=

والذي استخلصته من كلام أهل العلم ومن التدبر مليا في السورة أن عنوانها السابق ينتظمه محوران مع مقدمة وخاتمة.

أما المقدمة فتشمل مقصدين مترابطين:

يتحدث المقصد الأول عن هداية القرآن، وموقف الناس منها، وهذا المقصد يتحدث أولاً عن المنهج، وانقسام الناس حياله.

وجاء المقصد الثاني في المقدمة ليتحدث عن الأمر للناس باتباع المنهج، وليذكرهم بأصوله وغاياته، وليضرب لهم نموذج الاستخلاف الأول في الكون.

= موافق لكلام الشيخ محمود شلتوت حيث قال: " السورة تهدف في جملتها إلى غرضين هما: توجيه الدعوة إلى بني إسرائيل ومناقشتهم فيما كانوا يثرونه حول الرسالة المحمدية من تشكيكات وشبه... أما الغرض الثاني فهو التشريع الذي اقتضاه تكوين المسلمين جماعة متميزة على غيرها في عبادتها ومعاملاتها وعاداتها. تفسير القرآن الكريم لمحمود شلتوت ص ٥١، ٥٢. وقريب من هذا ما ذكره سيد قطب في تفسيره: في ظلال القرآن ١/ ٢٨ وقد سبقت الإشارة إليه، وذكره محمد قطب في: دراسات قرآنية ص ٢٧٧، ود/ مصطفى مسلم في كتابه: مباحث في التفسير الموضوعي ٤٨، ٤٩. ود/ زاهر عواض الألمعي في كتابه: دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ص ١١٤. وراجع: التفسير الوسيط للدكتور سيد طنطاوي ١/ ٣٢.

أما الدكتور محمد عبد الله دراز فقد قسمها إلى مقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة؛ فالمقدمة في التعريف بشأن القرآن (١-٢٠) والمقصد الأول في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام وعود على بدء (٢٥-٣٩) وهذا معاً قد أدمجها رشيد رضا معاً في مقدمة تحت عنوان (دعوة الإسلام العامة) المنار ١/ ١٠٥. والمقصد الثاني: دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول في دين الحق (٤٠-١٦٢). والمقصد الثالث: عرض شرائع هذا الدين تفصيلاً (١٧٨-٢٨٣) وقبله مدخل إلى المقصد (١٦٣-١٧٧).

المقصد الرابع: ذكر الوازع الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع (٢٨٤). أما الخاتمة ففي التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة وبيان ما يرجى لهم في عاجلهم وآجلهم (٢٨٥-٢٨٦).

وكان المحور الأول بعنوان: بنو إسرائيل ومبررات عزهم عن القوامة والخلافة.

وفيه مقدمة وأربعة مقاطع:

والمقدمة بعنوان: (تذكير وعتاب) [٤٠-٤٨] ذكّرت بني إسرائيل بنسبهم الكريم، وبنعمة الله عليهم، ثم بينت لهم العهد الذي أخذه الله عليهم، وعاتبتهم على أمرهم الناس بالبر ونسيانهم أنفسهم، وذكرتهم ثانيةً بالنعمة، ثم حذرتهم من يوم القيامة، وكل هذا تذكير لهم وعتاب.

والمقطع الأول عنوانه: (أحوال بني إسرائيل مع موسى عليه السلام) [٤٩-٧٩] وفيه تفاصيل نعم الله عليهم وقت أن كانوا في مصر وبعد أن خرجوا منها، وجاءت النعم مفصلة على قسمين: حسية بالإنجاء، ومعنوية بقبول التوبة. ثم عاد إلى ذكر النعم الحسية من الطعام والشراب وعقب بذكر مخالفتهم من الاعتداء في السبت وقصة البقرة وما حدث فيها من مخالفات. ثم اختتم المقطع بذكر عاقبة أعمالهم وهي قسوة قلوبهم.

وجاء المقطع الثاني ليتحدث عن: (مواقف اليهود المعاصرين للنبي ﷺ) [٧٥-١٢٣].

وجاءت في أوله تبييس المسلمين من إيمانهم بسبب ما كان منهم قديماً وما يكون منهم بعد ذلك؛ فذكرت الآيات كثيراً من أخلاقهم، وردت عليهم افتراءاتهم، وبينت حقدهم وحسدهم، ثم ختم المقطع بدعوتهم إلى الإيثار بأسلوب هادئ يجذب مشاعرهم.

وتحدث المقطع الثالث عن: (دعوة إبراهيم وتبرؤها من ادعاءات السابقين) [١٢٤-١٤١].

وتحدث عن إمامة إبراهيم، وأبطل حججهم في الانتساب إليه، لأنه ليس مجرد نسب مادي بل هو نسب روحي، وما كان إبراهيم إلا مسلماً، وما أوصى ذريته إلا بالإسلام، وكذلك كان يعقوب، فهم بريئون ممن كان على غير الإسلام، فإذا أردتم أن تتبعوهم فادخلوا في الإسلام، وتحدث المقطع عن بناء الكعبة وما صحب ذلك من دعوات خاشعة تمهيداً لما سيأتي بعد.

أما المقطع الرابع فعنوانه (انتقال القبلة والإمامة في الدين لأمة سيد المرسلين) [١٤٢-١٦٢].

وتحدث عن تحويل القبلة، وبينت الآيات أن تحويل القبلة إيدان بتحويل الخلافة لأهلها المستحقين لها، وقد ردّت الآيات على شبهات اليهود وأبطلتها كلها، وقوّت قلوب المؤمنين ومهدت لهم طريق المواجهة، ثم انتقل آخر المقطع لخطاب المؤمنين وإعدادهم لحمل الأمانة الكبرى بالجهاد والصبر، وبينت لهم أن الصدّ ليس عن المسجد الحرام وإنما عما حوله أيضاً كشعائر الحج.

المحور الثاني: مقومات استحقاق أمة الإسلام للقوامة والخلافة.

انتقل الحديث في المحور الثاني لمخاطبة المؤمنين وتكليفهم لحمل الأمانة العظمى في الكون، وقد تدرج هذا المقطع في خطاب المسلمين تدرجاً حكيماً نعرفه من مطالعة مقاطع هذا المحور:

فابتدأ المقطع بتمهيد يعد مدخلاً اعتقادياً يربط المسلمين بالتوحيد، ثم تحدث عن تخلص منهج التلقي لله رب العالمين؛ وذلك ببيان أنه وحده المتفرد بالتحليل والتحريم مع ذكر أمثلة على ضلال السابقين في هذا الجانب، وبهذا تهيأت النفوس لتلقي الأوامر فجاءت آية البر التي كشفت ضلال السابقين، وأنارت طريق الهداية للمسلمين.

ثم جاءت تفاصيل هذا المحور في ستة مقاطع وهاك بيانها بإيجاز:

- ١- المقطع الأول: تفصيل بعض أمور البر [١٧٨-٢٠٣].
- ٢- المقطع الثاني: نماذج بشرية ومواعظ إلهية [٢٠٤-٢٢٠].
- ٣- المقطع الثالث: تفاصيل أحكام الأسرة [٢٢١-٢٤٢].
- ٤- المقطع الرابع: قصص الإحياء والإماتة والعبرة منها [٢٤٣-٢٦٠].
- ٥- المقطع الخامس: الإنفاق؛ آدابه والمستحقون له. [٢٦١-٢٧٤].
- ٦- المقطع السادس: حفظ الأموال عن الحرام وعن الإضاعة [٢٧٥-٢٨٣].

وفي ثنايا البحث تفصيل الروابط بين هذه المقاطع، لتشكل معاً مجمل التكاليف التي بها صلاح الأمة وإصلاح الدنيا. ثم جاءت خاتمة السورة؛ وفيها رد لآخرها على أولها، والشهادة للأمة بالإيمان واللجوء إلى الله.

و: المناسبات في السورة:

١- مناسبة اسم السورة لمحورها:

سميت سورة البقرة بهذا الاسم لورود قصة بقرة بني إسرائيل فيها، ولم ترد أي إشارة إلى هذه القصة في أي سورة غيرها.

وقصة البقرة تكشف عدة قضايا أساسية لها تعلق قوي بمحور السورة؛ فإن من وجوه العبرة في القصة ما يلي:

أ- الحرص على نقاء العقيدة وعدم تقديس أي معبود من دون الله.

ج- بيان تلكؤ بني إسرائيل في تنفيذ الأمر الإلهي.

د- معاندة الأنبياء والاستهزاء بهم وعدم التسليم لهم.

هـ- بيان أن من طبيعتهم سفك الدماء والتنصل من الجريمة.

و- إحياء الله للموتى^(١).

ولكل من هذه الأمور تعلق قوي بمحور السورة؛ فأمر التوحيد والإيمان قد افتتحت به السورة واختتمت به، وجاء الأمر به وذكر ما يسوغ الإيمان بالواحد الأحد في تضاعيف السورة.

والإيمان بالبعث بعد الموت من العلامات البارزة في محور السورة؛ وقد جاء في السورة عدة شواهد عملية على البعث بعد الموت، وهي إحياء بني إسرائيل بعد صعقهم، وإحياء الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت فقال لهم الله موتوا، وقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها

(١) وقد أشار إلى معظمها الشيخ أحمد مصطفى المراغي في: تفسير المراغي ١/ ٨١.

فأماته الله مائة عام ثم بعثه، وبعدها قصة إبراهيم مع إحياء الطير، وهنا قصة إحياء القليل.
قال ابن تيمية: "فهذه خمس قصص في إحياء الأدميين وقصة في إحياء البهائم وقصة في إبقاء الطعام والشراب وقصة في إحياء الطير"^(١). وهذا مرتبط بالإيمان بالغيب الذي جاء أول وصف للمتقين في السورة، ومرتبط أيضاً بالحديث عن بني إسرائيل الذين صبوا اهتمامهم على الماديات دون الأمور الغيبية.

وأخلاق بني إسرائيل وطباعهم مثلتها قصة البقرة أتم تمثيل:

- ١- فهم يميلون إلى سفك الدماء حتى مع الأنبياء، وفي قصة البقرة إشارة إلى قتل نفس، ولا شك أن القتل لا تصلح معه الخلافة؛ وقد استبعد الملائكة وجود خليفة في الأرض يسفك الدماء.
- ٢- وهم مجادلون لا يمثلون للأمر بسهولة، وقد جادلوا موسى في أمر البقرة أكثر من مرة، واستهزؤوا به وكان لازم كلامهم نسبته إلى الجهل.
- ٣- وهم وثنيون لم يتغلغل التوحيد في نفوسهم، ولذلك عبدوا العجل عندما ذهب موسى لربه، فجاء الأمر بالذبح ليهون عندهم ما كانوا يعتقدون من تعظيمه.
- ٤- والتعقيب القرآني على القصة يثبت مساواة قلوبهم بحيث لم يعد فيها خير، ثم يصل ذلك بنفي طمع المسلمين في إيمانهم.

وبهذا يتضح لنا أن هذه القصة تمثل محاور السورة بوضوح تام؛ فقد تحدثت عن طرفي الإيمان؛ مصدر التكليف (إن الله يأمركم) وغاية التكليف وهو الإيمان بالآخرة. ثم تحدثت عن أسباب سلب الخلافة عن بني إسرائيل؛ وقد سبق بيانها.

ومما سبق يظهر وجه تسمية السورة بهذا الاسم، ويكشف كذلك صحة ما قاله الأقدمون:
"ينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بها سميت به"^(٢).

(١) درء تعارض العقل والنقل ٤/ ٦٠.

(٢) الإتيقان في علوم القرآن للسيوطي ١/ ١٥٦.

٢- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمها:

من الأمور التي تجذب اهتمام السامع براعة الاستهلال في فاتحة الكلام، وهذا أمر ملحوظ في سور القرآن الكريم، ولا يقتصر الأمر على براعة الاستفتاح، بل إن للخواتم موقعها من الحسن أيضاً، يقول الزركشي: "وهي مثل الفواتح في الحسن لأنها آخر ما يقرع الأسماع؛ فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة مع إيدان السامع بانتهاء الكلام حتى يرتفع معه تشوّف النفس إلى ما يُذكر بعد"^(١).

وللتناسب بين افتتاحية سورة البقرة وخاتمها أوجه كثيرة؛ من أهمها ما يلي:

١- قال الرازي: "بدأ في السورة بمدح المتقين الذين يؤمنون بالغيب وقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون، ويبيّن في آخر السورة أن الذين مدحهم في أول السورة هم أمة محمد ﷺ فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [٢٨٥] وهذا هو المراد بقوله في أول السورة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [٣].

ثم قال ههنا ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وهو المراد بقوله في أول السورة ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [٣].

ثم قال ههنا: ﴿عَفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [٣٨٥] وهو المراد بقوله في أول السورة ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [٤] ثم حكى عنهم ههنا كيفية تضرعهم إلى ربهم في قولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] إلى آخر السورة وهو المراد بقوله في أول السورة: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [٥] فانظر كيف حصلت الموافقة بين أول السورة وآخرها"^(٢).

٢- قال الإمام البقاعي في ختام سورة البقرة: "وأما مناسبتها لأول السورة رداً للمقطع على

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/ ١٨٢.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٧/ ١١١.

المطلع فهو أنه لما ابتدأ السورة بوصف المؤمنين بالكتاب الذي لا ريب فيه على الوجه الذي تقدم ختمها بذلك بعد تفصيل الإنفاق الذي وصفهم به أولها على وجه يتصل بما قبله من الأوامر والنواهي والاتصاف بأوصاف الكمال أشد اتصال، وجعل رأسهم الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام تعظيماً للمدح وترغيباً في ذلك الوصف فأخبر بإيمانهم بما أنزل إليه بخصوصه وبجميع الكتب وجميع الرسل ويقولهم الدال على كمال الرغبة وغاية الضراعة والخضوع فقال استئنافاً لجواب من كأنه قال: ما فعل من أنزلت عليه هذه الأوامر والنواهي وغيرها؟ ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ﴾^(١).

٣- قال أبو جعفر بن الزبير: "ولما بين سبحانه أن الكتاب هو الصراط المستقيم، وذكر افتراق الأمم كما شاء، تناول أحوال الزائغين والمنتكبين تحذيراً من حالهم، ونهياً عن مرتكبهم، وحصر قبيل المتروك بجملته، وانحصار التاركين، وأعقب بذكر مستلزمات المتقين وما ينبغي لهم امتثاله والأخذ به من الأوامر والأحكام والحدود أعقب ذلك بأن الإيذان يجب أن ينطوي على ذلك، وأن يسلم الأمر لملكه، فقال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ﴾ [٢٨٥] فأعلم أن هذا إيذان الرسول ومن كان معه على إيمانه، وأنهم قالوا: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ﴾ [٨٥] لا كقول بني إسرائيل: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النساء: ٤٦] وأنه أثناهم على إيمانهم برفع الإصر والمشقة والمواخذة بالخطأ والنسيان عنهم فقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [٢٨٦]"^(٢).

٤- ومن أوجه المناسبة بين البدء والختام أن أول السورة فيه مدح للمؤمنين بصفتين هما: إقامة الصلاة والإنفاق، وفي خاتمة السورة ذكّر الأمرين مع بيان حسن العاقبة في كلتا الآيتين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٢٧٧].

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي ٤/ ١٦٨.

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي ص ٨٨.

٥- جاء الحديث في أول السورة عن الإيمان، وكذلك في آخرها؛ فقد جاء في أول السورة وصف المتقين بالإيمان بالغيب، وفي آخر آيات السورة إثبات الإيمان للرسول والمؤمنين.

وجاء في أول السورة الإيمان بكل ما نزل على الرسل في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [٤]، وجاء في آخرها الإيمان بجميع الأنبياء في قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ [٢٨٦]، وفي وسطها جاء قوله تعالى: ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا... وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [١٣٦]: قال ابن تيمية: "فتحتها - أي سورة البقرة - بالإيمان الجامع، وختمها بالإيمان الجامع، ووسطها بالإيمان الجامع" (١).

٦- جاء في أول السورة بيان هداية القرآن ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) والإيمان بالقرآن في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ وكذلك في آخرها ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ ﴾ وفي وسط السورة حديث طويل عن القرآن لبيان أنه دستور الخلافة الإنسانية في الأرض وأن قيمة الأمة في التمسك به، وأن ضلال بني إسرائيل كان بسبب تفریطهم في الكتاب، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اٰخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [١٧٦].

٧- قال الشيخ الشعراوي: "في أول السورة ضرب الله المثل بالكافرين والمنافقين، وفي ختامها يقول الحق دعاءً على لسان المؤمنين: ﴿ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [٢٨٦] هذا القول يدل على استدامة المعركة بين الإيمان والكفر، وأن المؤمن يأخذ أحكام الله دائماً لينازل بها الكفر، أيا وجد ذلك الكفر، ويثق المؤمن تمام الثقة أن الله متوليها، لأن الله مولى الذين آمنوا، أما الكافرون فلا مولى لهم" (٣).

وهذا يبين طبيعة الصراع بين الحق والباطل؛ وقد أشارت السورة في أكثر من موطن إلى

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٩/١٠٨.

(٢) تفسير الشعراوي للشيخ محمد متولي الشعراوي ٢/١٢٤٩.

أن سنة المدافعة من سنن الله الكونية التي تصلح الحياة وتمنع الفساد وسفك الدماء، ولن تقوم هذه السنة إلا على يد الجماعة المؤمنة.

٨- وفي ذكر المتقين بأوصافهم أول السورة ثم دعاؤهم آخرها بالنصر على الكافرين إشارة واضحة إلى أن التقوى سبب من أسباب النصر؛ فمن حصّل التقوى كان من أهل النصر، ولذلك فإن معية الله للمتقين جاءت في وسط آيات الأمر بالقتال قال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [١٩٤].

٩- جاء وصف المتقين في أول السورة بأنهم بالآخرة يوقنون، وجاء في آخر السورة التذكير باليوم الآخر، قال تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [٢٨١] ثم جاء في آخر آيتين في السورة حديث عن الحساب يوم القيامة، وطلب المغفرة والرحمة.

٣- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

المناسبة بين افتتاحية البقرة وخاتمة الفاتحة واضحة تمام الوضوح، وقد أشار إليها جمع كبير من العلماء، ونذكر منهم الخويبي حيث قال: "وأوائل هذه السورة مناسبة لأواخر سورة الفاتحة؛ لأن الله تعالى لما ذكر أن الحامدين طلبوا الهدى، قال: قد أعطيتكم ما طلبتم: هذا الكتاب هدى لكم فاتبعوه، وقد اهتديتم إلى الصراط المستقيم المطلوب المسئول.

ثم إنه ذكر في أوائل هذه السورة الطوائف الثلاث الذين ذكرهم في الفاتحة، فذكر الذين على هدى من ربهم وهم المنعم عليهم، والذين اشتروا الضلالة بالهدى وهم الضالون، والذين باؤوا بغضب من الله وهم المغضوب عليهم"^(١).

(١) أسرار ترتيب القرآن لجلال الدين السيوطي ص ٦٧.

٤- المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها :

أ- جاء في الحديث النبوي الشريف لفت النظر والاهتمام بشأن الفاتحة وخواتيم البقرة، وذلك في الحديث الوارد عن ابن عباس قال: "بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه فقال هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته^(١).

وهذا يشير إلى وجود مناسبة قوية بين الموضعين؛ ففي كليهما حمدٌ وثناء على الله تعالى بما هو أهل له، وفيهما دعاء بطلب الهداية والمغفرة، ولذلك فإن سورة الفاتحة تختم بقول: آمين. وفي آخر الفاتحة تبرؤ من طريق المغضوب عليهم والضالين، وفي ختام البقرة إشارة إليهم في قوله تعالى: ﴿لَا نُفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [٢٨٥].

ب- في سورة الفاتحة دعاء من المؤمنين أن يسلكهم الله في طريق من أنعم عليهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ① صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة ٦، ٧] وقد أجاب الله دعائهم في سورة البقرة، وأسبغ عليهم من فضله فآتم النعمة وقال: ﴿وَلَا تُؤْمِنُ يَتَمَتَّى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة/ ١٥٠].

ج- تضمنت سورة الفاتحة الإقرار بالربوبية والالتجاء إليها في دين الإسلام والابتعاد عن سبيل أهل الكتابين، وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين وآل عمران مكملة لمقصودها؛ فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم، وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم.

فأوجب الحج في آل عمران وأما في البقرة فذكر أنه مشروع وأمر بإتمامه بعد الشروع فيه، وكان خطاب النصارى في آل عمران كما أن خطاب اليهود في البقرة أكثر لأن التوراة أصل والإنجيل فرع لها. والنبي ﷺ لما هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم وكان تعامله مع النصارى في آخر

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٨٠٦.

الأمر، كما كان دعاؤه لأهل الشرك قبل أهل الكتاب؛ ولهذا كانت السور المكية فيها الدين الذي اتفق عليه الأنبياء فخطب به جميع الناس، أما السور المدنية فيها خطاب من أقر بالأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين فخطبوا ب: (يا أهل الكتاب) (يا بني إسرائيل) (يا أيها الذين آمنوا).

د- ذكر بعض العلماء أن سورة البقرة قد اشتملت على تفصيل ما أجملته الفاتحة:

١- فقوله: ﴿الْحَسْبُ اللَّهِ﴾ تفصيله ما وقع فيها من الأمر بالذكر في عدة آيات ومن الدعاء في قوله: ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] الآية وفي قوله ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦] وبالشكر في قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٢].

٢- وقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تفصيله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢] وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢٩]. ولذلك افتتحها بقصة خلق آدم الذي هو مبدأ البشر وهو أشرف الأنواع من العالمين وذلك شرح لإجمال رب العالمين.

٣- وقوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قد أوما إليه بقوله في قصة آدم: ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤] وفي قصة إبراهيم لما سأل الرزق للمؤمنين خاصة بقوله: ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ﴾ [البقرة: ١٢٦] فقال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ﴾ [البقرة: ١٢٦] وذلك لكونه رحماناً، وما وقع في قصة بني إسرائيل ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ [٥٢] إلى أن أعاد الآية بجملتها في قوله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣] وذكر آية الدين إرشاداً للطالبيين من العباد ورحمة بهم، ووضع عنهم الخطأ والنسيان والإصر وما لا

طاقة لهم به، وختم بقوله: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

٤- وقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] تفصيله ما وقع من ذكر يوم القيامة في عدة مواضع ومنها قوله: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [٢٨٤] والدين في الفاتحة الحساب في البقرة.

٥- وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] مجمل شامل لجميع أنواع الشريعة الفرعية، وقد فصلت في البقرة أبلغ تفصيل؛ فذكر فيها الطهارة والحيض والصلاة والاستقبال وطهارة المكان والجماعة وصلاة الخوف وصلاة الجمع والعيد والزكاة بأنواعها كالنبت والمعادن والاعتكاف والصوم وأنواع الصدقات والبر والحج والعمرة والبيع والإجارة والميراث والوصية والوديعة والنكاح والصداق والطلاق والخلع والرجعة والإيلاء والعدة والرضاع والنفقات والقصاص والديات وقتال البغاة والردة والأشربة والجهاد والأطعمة والذبائح والأيمان والنذور والقضاء والشهادات والعتق.

٦- وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] شامل لعلم الأخلاق؛ وقد ذكر منها في هذه السورة التوبة والصبر والشكر والرضا والتفويض والذكر والمراقبة والخوف وإلانة القول. وقد استنبط بعض أهل السلوك من هاتين الآيتين جميع منازل السائرين ومدارج السالكين إلى رب العالمين.

٧- وقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] إلى آخره تفصيله ما وقع في السورة من ذكر طريق الأنبياء ومن حاد عنهم؛ ولهذا ذكر في الكعبة أنها قبلة إبراهيم فهي من صراط الذين أنعم عليهم وقد أضل الله عنها السابقين؛ ولذلك قال في قصتها: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [١٤٢] تنبيهاً على أنها الصراط الذي سألو الهداية إليه.

ثم ذكر ﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ [١٤٥] وهم المغضوب عليهم والضالون الذين حادوا عن طريقهم، ثم أخبر بهداية الذين آمنوا إلى طريقهم ثم قال: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وأيضاً قوله أول السورة: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢] إلى آخره في وصف الكتاب إخبار بأن الصراط الذي سألو الهداية إليه هو ما تضمنه الكتاب وإنما يكون هداية لمن اتصف بما ذكر من صفات المتقين، ثم ذكر أحوال الكفرة ثم أحوال المنافقين وهم من اليهود وذلك تفصيل لمن حاد عن الصراط المستقيم.

وكذلك قوله هنا: ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِن قَبْلِهِ وَإِذْ نُنزِّلُ الْوَحْيَ لَكَ قُرْآنًا نُّزُلًا وَمَا يُخَالِفُ بِحُكْمِهِ أُلُوهًا مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ الَّذِينَ يَرْتَابُونَ أَنَّ الْوَحْيَ لَنَا بَشَرًا أَوَّلًا وَأَوَّلًا يُكْفَرُونَ بِهِ وَيُقِرُّونَ بِمَا هُمْ كَاذِبُونَ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُصَدِّقُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ وَقَوْمُهُمْ لِيُحْجَبُوا لِيُضِلَّ اللَّهُ سَبِيلَهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِحُكْمِ رَبِّهِمْ فَهُمْ فِي أَعْيُنِنَا لِيُذَيِّبَهُمُ اللَّهُ وَيُخَذِّلَهُمُ فِي الْأُمَمِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِحُكْمِ رَبِّهِمْ فَهُمْ فِي أَعْيُنِنَا لِيُذَيِّبَهُمُ اللَّهُ وَيُخَذِّلَهُمُ فِي الْأُمَمِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِحُكْمِ رَبِّهِمْ فَهُمْ فِي أَعْيُنِنَا لِيُذَيِّبَهُمُ اللَّهُ وَيُخَذِّلَهُمُ فِي الْأُمَمِ ﴾ [البقرة: ١٣٦] الآية فيه تفصيل النبيين المنعم عليهم وقال في آخرها: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ [١٣٦] تعريفاً بالمغضوب عليهم والضالين الذين فرقوا بين الأنبياء ولذلك عقبها بقوله: ﴿ فَإِن ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا ﴾ [١٣٧] أي إلى الصراط المستقيم صراط المنعم عليهم كما اهتديتم.

٨- أن الحديث والإجماع على تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى، وقد ذكروا في سورة الفاتحة على حسب ترتيبهم في الزمان فعقب بسورة البقرة وجميع ما فيها من خطاب أهل الكتاب لليهود خاصة وما وقع فيها من ذكر النصارى لم يقع بذكر الخطاب، ثم عقب البقرة بسورة آل عمران وأكثر ما فيها من خطاب أهل الكتاب للنصارى؛ فإن ثمانين آية من أولها نازلة في وفد نصارى نجران كما ورد في سبب نزولها، وختمت بقوله ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران/ ١٩٩] وهذا وجه بديع في ترتيب السورتين؛ لأنه لما ذكر في الفاتحة الفريقين قص في كل سورة مما بعدها حال كل فريق على الترتيب الواقع فيها ولهذا كان صدر سورة النساء في ذكر اليهود وآخرها في ذكر النصارى.

- أن سورة البقرة أجمع سور القرآن للأحكام والأمثال ولهذا سميت في أثر "فسطاط القرآن" الذي هو المدينة الجامعة فناسب تقديمها على جميع سوره.

- أنها أطول سورة في القرآن وقد افتتح بالسبع الطوال فناسب البداية بأطولها^(١).

(١) تناسق الدرر في تناسب الآيات والسور ص ٧٨ وما بعدها. بتصرف.

مقدمة السورة: (١-٣٩) هداية القرآن، وخلافة الإنسان

﴿الذَّٰرِئَاتُ ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَيَا لآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخٰذِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخٰذِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَا بِكُ سَيِطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت بِإِحْدَانِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ضُمُّ بَيْتِكُمْ عَمَىٰ فَعَمَىٰ فَهْمٌ لَّا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَنُقُورٌ يُجْعَلُونَ أَصْدِعُكُمْ فِي ءَادَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَتْ لَهُمْ مَشْأُو فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ عُٰبِدُونَ وَرَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِن الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلٰكِن تَقْعَلُوا فَأْزَقُوا النَّارَ الَّتِي وُقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأَنُؤْتَا بِهِ مِثْلَهَا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۚ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۗ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۙ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۙ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٢﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَيَمْحُو نُسُجُوحَ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٥﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَتَّكِدُمْ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٨﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٩﴾ وَقُلْنَا يَتَّكِدُمْ أَتَىٰكَ أَنْتَ وَرَوْجِكَ الْجَنَّةَ ۗ كَلَّا مِنْهَا رَعَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرٰبًا هٰذِهِ الشَّجَرَةُ فَتُكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤١﴾ فَلَقَىٰ ءَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۗ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۚ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۗ هُمْ فِيهَا خٰلِدُونَ ﴿٤٤﴾

البقرة: [١ - ٣٩].

التفسير الإجمالي للمقطع:

تبدأ سورة البقرة بهذه الحروف المقطعة ﴿آلر﴾ وللعلماء فيها أقوال شتى، والراجح أنها أدوات تنبيه على غير ما ألف العرب، جاءت بهذه الكيفية للتحدي والإعجاز، والمبالغة في قرع أسمعهم، ولفت انتباههم إلى القرآن الذي يهربون عند سماعه، وليعلموا أنه من جنس كلامهم

لكنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثله.

وقد كان المشركون يهربون عند سماع القرآن، فإذا سمعوا هذه الفواتح وقفوا مشدوهين ينتظرون ما يكون بعدها، فإذا هو القرآن الذي يفرون منه يأتيهم وبهذا تقوم الحجة عليهم في سماع الحق الذين يصمون آذانهم عنه.^(١)

قال الرازي: "الحروف تنبيهات قُدِّمَتْ على القرآن، ليبقى السامع مقبلاً على استماع ما يرد عليه، فلا يفوته شيء من الكلام الرائق والمعنى الفائق".^(٢)

وهناك مناسبة بين ورود هذه الحروف وبين الحديث بعدها عن القرآن، وقد لحظها ابن كثير فقال: "كل سورة تبتدئ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب"^(٣).

وجاء بعد هذه الحروف الإشارة إلى القرآن ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾ أي أن ذلك هو الكتاب الكامل، الذي يستحق أن يسمى كتاباً، وليس في الكون كله ما يصلح أن يسمى كتاباً بالقياس إليه، ثم جاء بعد ذلك ما يؤكد هذا الحكم ويستدل له وهو قوله تعالى: ﴿ لَا رَبَّ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ والريب شك مع تهمة، ونفي الريب دليل على أن القرآن ليس محلاً لأن يرتاب فيه عاقل متدبر، فإذا استقر ذلك في النفس اهتدت بهداه الذي لا ينتفع به إلا من اتقى نفسه وصانها من عذاب الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت: ٤٤].

(١) وهذا القول عليه جمهور أهل اللغة والتفسير والحديث، ويميل إليه أهل العلم المعاصرون. انظر في ذلك: فواتح سور القرآن للدكتور حسين نصار ص ٣٦ وما بعدها.

(٢) التفسير الكبير للرازي ١٢٦/٢٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٤٢٨. وقريب من ذلك ما ذكره الرازي في التفسير الكبير ٢٤/٢٥، واستثنى من ذلك سور مريم والعنكبوت والروم وبين حكمة ذلك. وأضاف الشيخ شلتوت سورة الروم. تفسير القرآن الكريم ص ٦٢. وانظر: إعجاز القرآن للباقلاني ص ٨، والبرهان للزركشي ١٧٠، وتفسير المنار لرشيد رضا ٨/٢٩٦.

وبعد هذا الوصف البليغ للقرآن الكريم وهدايته، تتشوف النفس إلى معرفة أثر هذا القرآن على الناس، واستجابتهم لهده، فجاء التفصيل القرآني ليبين انقسام الناس إلى ثلاث طوائف: مؤمنين، وكافرين، ومنافقين.

وجاء الوصف القرآني متصلًا بالحديث عن هدايته للمتقين وذكر خمسة أوصاف لهم: أولها: أنهم يصدقون تصديقاً جازماً بكل ما غاب عن حواسهم، ويشمل ذلك الإيمان بالله وملائكته واليوم الآخر.

وثاني أوصافهم: أنهم يؤدون الصلاة في أوقاتها مستوفية لأركانها وآدابها وخشوعها، مع استحضار جلال الله فيها.

وثالث أوصافهم: أن كل ما انتفعوا به من رزق يخرجون بعضاً منه، والتعبير بالمضارع يفيد الدوام، والإنفاق من أقوى علامات الإيمان بالغيب، قال ﷺ: (والصدقة برهان)^(١) أي برهان على صدق إيمان صاحبها، وتصديقه بموعود ربه.

ثم ذكرت الآيات وصفاً رابعاً للمتقين وهو أنهم يؤمنون بالقرآن الذي أنزل إلى النبي ﷺ ويؤمنون كذلك بالكتب السماوية السابقة، والظاهر أن هذه الآيات في وصف مؤمني أهل الكتاب، وقد ذهب إلى ذلك جماعة من أهل العلم^(٢).

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم / ٢٢٣.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري ١/ ٢٣٨ والمحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٨٦، والجواهر الحسان للثعالبي ١/ ٣١، والبحر المحيط لأبي حيان ١/ ١٧٠ ورجحه إسماعيل حقي في تفسيره: روح البيان ١/ ٤٠. ويشهد لهذا القول أن الصالحين من أهل الكتاب جاء وصفهم بهذه الصفات في آيات أخرى كقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿وَكَتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ قَالُ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦] وقد وصفهم القرآن في عدة آيات بالمسارعة إلى الإيمان بالإسلام.

وذكرت الآيات خامس صفاتهم وهي أنهم يوقنون يقيناً جازماً مطابقاً للواقع بالدار الآخرة وما فيها من بعث وحساب وثواب وعقاب، مما يدفعهم إلى عمل الخيرات وترك المنكرات. وهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات متمكنون على الهدى الكامل الذي وهبهم الله إياه بالقرآن، وأولئك هم ولا أحد غيرهم أهل الفلاح والفوز الحقيقي.

ولأن الآيات وصفت القرآن بأنه هدى للمتقين، وبين موقف المتقين من هداية القرآن، جاء الكلام على هؤلاء الذين لم ينتفعوا بهدايته إجابة على سؤال مقدر: إذا كان القرآن هو الحق الواضح الذي لا مرية فيه فلم لا يؤمن الناس جميعاً؟

فذكرت الآيات أن هناك من الناس من عمى وصم فلم ينتفع بأي وعظ أو هدى وهم الكفار، والكفر في اللغة الست^(١)، والذين كفروا من لم يؤمنوا بما يجب الإيمان به بعد دعوتهم إليه، وهؤلاء سواء عليهم الأمران الإنذار وعدمه؛ لأنهم في كلتا الحالتين لا يؤمنون.

والآيات مرتبطة بما قبلها؛ فالأوصاف الأولى لمؤمني أهل الكتاب، وهذه الأوصاف لكفارهم، قال الطبري: "أن قول الله جل ثناؤه ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] عَقِيبَ خَبَرِ اللَّهِ جَلِ ثَنَاؤُهُ عَنِ الْمُؤْمِنِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَعَقِيبَ نَعْتِهِمْ وَصِفَتِهِمْ وَثَنَائِهِ عَلَيْهِمْ بِلِيَانِهِمْ بِهِ وَبِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ. فَأَوْلَى الْأُمُورِ بِحِكْمَةِ اللَّهِ، أَنْ يُتْلَى ذَلِكَ الْخَبَرَ عَنِ كُفَّارِهِمْ وَنُعُوتِهِمْ، وَذَمِّ أَسْبَابِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، وَإِظْهَارَ شَتْمِهِمْ وَالْبِرَاءَةَ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّ مُؤْمِنِيَهُمْ وَمَشْرِكِيَهُمْ - وَإِنْ اخْتَلَفَتْ أَحْوَالُهُمْ بِاخْتِلَافِ أَدْيَانِهِمْ - فَإِنَّ الْجَنْسَ يَجْمَعُ جَمِيعَهُمْ بِأَنَّهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ".^(٢)

ثم بينت الآيات المانع الذي يحول بينهم وبين الاهتداء وهو أن الله تعالى ختم على قلوبهم؛ قال القرطبي: "والختم مصدر ختمت الشيء ختماً فهو مختوم ومختَّم، شدد للمبالغة، ومعناه:

(١) المفردات للراغب الأصفهاني ص ٤٣٤.

(٢) جامع البيان للطبري ١/٢٥٣.

التغطية على الشيء والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء.. والختم يكون محسوساً كما في ختم الكتاب والباب.. وقد يكون معنى كالتختم على القلوب^(١) وقد ختم الله على قلوبهم التي هي مصدر العلم والفهم، وعلى أسماعهم التي توصل للقلوب، وجعل أبصارهم لا تهتدي للاعتبار والتدبر فصارت كأن عليها غشاوة تحول بينها وبين الرؤية، وليس في هذا أي ظلم لهم، فهذا فعل الله فيهم بسبب ظلمهم لأنفسهم وإعراضهم عن الحق والهدى بعد معرفته^(٢)، قال تعالى ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة: ٨٨] وقال ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء: ١٥٥]، ثم بين سبحانه ما يستحقونه من عذاب بسبب كفرهم فقال ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي أنهم بسبب سوء عملهم أصابهم العذاب الموجه المؤلم لأبدانهم.

وبعد أن تحدث القرآن عن مؤمني أهل الكتاب وكافريهم وموقفهم من هداية القرآن وعاقبة أمرهم جاء الحديث الطويل عن منافقيهم ومن كان على شاكلتهم من منافقي العرب^(٣)؛ ولأن هذه السورة أوائل ما نزل بالمدينة، جاء التحذير القرآني من النفاق والمنافقين؛ ذلك لأن النفاق ما كان موجوداً بمكة، وإنما وجد بالمدينة بعد أن صار للإسلام دولة وكان للمسلمين على المشركين في بدرِ صولة، فلما رأى بعضهم انتصار المسلمين أظهروا الدخول في الدين مع إخفاء الكفر. وقد حذر القرآن من المنافقين، وكشف سرهم، وأظهر دخائلهم، وورد ذكرهم في سبع عشرة سورة مدنية من جملة ثلاثين سورة، وأولها نزولاً البقرة وآخرها التوبة.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٨٤ / ١ باختصار.

(٢) قال الماتريدي: "والأصل في ذلك أنه ختم الله على قلوبهم لما تركوا التأمل والتفكير في قلوبهم فلم يقع، وختم على سمعهم لما لم يسمعوا قول الحق والعدل خلق الثقل عليه، وخلق على أبصارهم الغطاء لما لم ينظروا في أنفسهم ولا في خلق الله". تأويلات أهل السنة لأبي منصور الماتريدي ١٦ / ١.

(٣) روى أبو صالح عن ابن عباس قال: إنها نزلت في منافقي أهل الكتاب. زاد المسير لابن الجوزي ٢٩ / ١.

وتبدأ الآيات ببيان أن من أصناف الناس أناساً يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ويدعون أنهم مؤمنون بالله واليوم الآخر، ولكنهم كاذبون في دعواهم، فما هم من أهل الإيمان في الحقيقة وإن تظاهروا بذلك.

وإن الذي دفعهم إلى ادعاء الإيمان المخادعة؛ فصورة فعلهم صورة الخداع والإيهام لله، لكنه سبحانه يعلم أمرهم، ويخدعون المؤمنين ويظهرون لهم أنهم إخوانهم في الدين بينما يتربصون بهم الدوائر، والحق أنهم لم يخادعوا ربهم لعلهم بسريرتهم وعلانيتهم، ولم يخادعوا المؤمنين لأن الله يدفع عنهم، إنما يخدعون أنفسهم؛ لأن ضرر الخداع والإخفاء راجع إليهم لكنهم لا يشعرون بذلك لانطماس بصيرتهم.

ثم بينت الآية علة خداعهم وهي أنهم في قلوبهم فساد متمكن من قلوبهم هو مرض الشك والشبهات والجحود فزادهم الله نفاقاً جزاءً على كفرهم قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥] ولهم العذاب الموجه في الآخرة بسبب كذبهم^(١).

وقد بينت الآية أن سبب نفاقهم مداومتهم على الكذب؛ فالكذب أصل النفاق وأساسه، وقد ورد: "إياكم والكذب فإن الكذب مجانب للإيمان"^(٢).

(١) قرأ عاصم وحمة والكسائي وخلف (يكذبون) أي في قولهم آمنا وما هم بمؤمنين، وقرأ الباقون (يكذبون) بالتشديد أي: يكذبون بآيات الله والرسول. قال مكي بن أبي طالب: "والقراءتان متداخلتان ترجع إلى معنى واحد؛ لأن من كذب رسالة الرسل وحجة النبوة فهو كاذب على الله، ومن كذب على الله وجحد تنزيله فهو مكذب بما أنزل الله". الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ٢٢٨/١.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٥/١ والبيهقي في سننه ١٩٦/١٠ موقوفاً على أبي بكر، وحسن الحافظ العراقي سنده مرفوعاً. المغني عن حمل الأسفار ٨٠٥/٢.

ولم يقف هؤلاء عند حد الكذب والمخادعة، بل أضافوا إلى ذلك السفاهة وتبرير الإفساد؛ فإذا نصحهم ناصح ألا يفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي وإلقاء الشبه بالغوا في نفي الفساد عن أنفسهم وقصروا أنفسهم على الإصلاح وأكدوا ذلك بالجملة الإسمية التي تدل على الثبات والرسوخ، قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر : ٨] لكن القرآن رد عليهم، وأثبت كذبهم وأكد أنهم هم المفسدون، وقصره عليهم، لكنهم لا يشعرون بذلك مع أن أثره ظاهر وذلك لاستحكام الفساد في مداركهم مما أدى لاختلال آلة الإدراك عنهم فجعلهم يرون المنكر معروفاً.

وبعد أن أمرهم المسلمون بالتخلي عن الفساد نصحوهم بالتخلي بالإيمان؛ وذلك بأن يؤمنوا إيماناً كلياً الناس الصادقين، فكانوا يردون مستنكرين: أنؤمن كما آمن ضعفاء الرأي؟ وكان قولهم هذا فيما بينهم لكن القرآن سجله عليهم، وأخبر أنهم هم السفهاء في الحقيقة وحصر السفاهة فيهم، ولكن لا يعلمون حقيقة جهلهم.

وقد زادوا على سفاهتهم الخداع والتمويه؛ فكانوا إذا استقبلوا المؤمنين وكانوا قريباً منهم تظاهروا أمامهم بالإيمان الصادق، وإذا انفردوا مع شياطينهم من اليهود^(١) قالوا إنا معكم، وما نحن إلا بمستهزئين بالمؤمنين ساخرين منهم في ادعاء الإيمان، فلكل منهم وجهان؛ وجه يلقي به المؤمن، ووجه آخر ينقلب به إلى إخوانه الضالين، وله لسانان؛ لسان صدق زائف يعامله المسلمون بظاهره، ولسان كذب وخداع يظهر به خفايا نفسه ويكشف عما أضمره فؤاده من الكفر بالله والحقد على أولياء الله.

ولكن الله يغار على عباده المؤمنين، فيجازى المنافقين بنفس عملهم؛ ويظهر لهم من عصمة أموالهم ودمائهم في الدنيا خلاف الذي أعد لهم في الآخرة من العذاب. ويمد لهم ويمليهم في كفرهم ومجاوزتهم الحد ويمكنهم من المعاصي حال كونهم يعمون عن الهدى ويتحIRON بين

(١) رواه الطبري في جامع البيان ١/٣٩٧ عن عبد الله بن عباس بسند حسن.

الكفر والإيمان، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُكَلِّمُ لَهُمْ لِيَزِدُوا إِشْمًا ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وما كان أيسر الهدى على كل هؤلاء الضالين من الكفار والمنافقين، لكنهم استبدلوا الضلالة بالهدى، وكان ذلك عن رغبة في الضلال عن الطريق المستقيم، وزهداً في الهداية إلى الصراط القويم فهم كالمشتري الذي يرغب في المبيع، لكنهم لم يحصلوا من اشتراء الضلالة إلا الخسارة، فما ربحت تجارتهم بل خسروا، وما كانوا مهتدين بل ضلوا. وكما بينت الآيات في ختام خصال المتقين وصفهم بالفلاح بينت هنا عاقبة الطائفتين الآخرين وهي الخسارة وبوار التجارة.

وبعد أن ذكرت الآيات الطوائف الثلاث قربت المعقول للمحسوس بمثلين ضرباً للطائفتين الأخيرتين.

فالمثل الأول للكفار^(١)، وهو يشبه حالهم بحال رجل استوقد النار للقافلة التي كانت

(١) ذهب الشيخ محمد عبده إلى أن المثل الأول في منافقي اليهود والمثل الثاني في المنافقين. انظر: تفسير المنار لرشيد رضا ١/١٦٨ وما بعدها، وهو قريب مما ذكره الدكتور محمد عبد الله دراز في النبأ العظيم حيث قال: "إذا رجعت بنفسك إلى أي أجزاء المثليين ستري معنا أن المثل الأول ينطبق تمام الانطباق على الأوصاف التي ذكرها الله للكافرين، وأن الذي ينطبق على صفات المنافقين إنما هو المثل الثاني وحده، فهؤلاء القوم الذين: ﴿ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَكَّاهُمْ فِي ظُلْمَتٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴾ (١٧) ﴿ صُمُّ بِكُمْ عَمَىٰ فَهْمٌ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (١٨) [١٧، ١٨] أليسوا هم أولئك القوم الذين ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً ﴾ [٧] وهذه الظلمات الثابتة المستقرة التي ليس فيها بصيص من نور وليس فيها تقلب ولا تدبذب، هل ترى فيها تصويراً لألوان النفاق ووجوهه المختلفة باختلاف الأحوال؟ إنك لا تجد هذه الصورة إلا في المثل الثاني حيث يتعاقب فيه الظلام والنور والوقوف والمسير، وكذلك ترى في المثل الثاني قوماً لهم أسماع وأبصار لم يذهب الله بها ولو شاء لذهب، وهذا مناسب لقوله في المنافقين ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ فوصفهم بالمرض ولم يصفهم بالختم الكلي على القلب. النبأ العظيم هامش ص ٢١٠. وقد رجح هذا الرأي جماعة من المعاصرين، قال د/ سيد طنطاوي: وهو رأي مستساغ يتمشى مع روح الآيات وأهداف السورة. التفسير الوسيط ١/ ٧٠. ونقله مستحسناً: الدكتور محمد سبحاني في كتابه: البرهان في نظام القرآن ص ٩٩. أقول: وليس الاختلاف في تأويل المثل الأول بمؤثر؛ ولا يغير شيئاً في التأويل؛ فالمنافق كافر، بل ربما يكون أشد خطراً وضرراً منه.

في تيه الظلمة، فلما أضاءت النار ما حوله من الأماكن وتمكنوا من الانتفاع بضوئها، لم ينتفعوا بدعوته لهذا النور، وظلوا في دياجير الظلام لا يبصرون من نور الحق شيئاً؛ فالنور نور الإيمان، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]. وذهاب النور يكون في الدنيا بالعمى والجهل والتخبط في أودية الضلال.

وإنما قال الله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ للدلالة على أنه سبحانه كان معهم بمعونته وتوفيقه عندما استوقدت لهم النار فأضاءت، فلما أعرضوا عن النور غرقوا في ظلمات بعضها فوق بعض، وأمثال هؤلاء لا يرجى لهم اهتداء ابتداءً؛ لأنهم سدوا على أنفسهم مفاتيح الخير، قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٨) فهم لا يسمعون الوعظ ولا يطلبون بياناً ولا يبصرون فيعتبروا أو ينزجروا. فقد فقدوا كل وسائل التعقل؛ ولذلك فإنهم لا يرجعون عن الجهالة ولا يهتدون من الضلالة، فكيف لتائه ضل الطريق عامداً وهو لا يسمع ولا يبصر ولا ينطق كيف له أن يرجع؟

وهذا المثل يتطابق مع حال اليهود وأشباههم الذين عرفوا الحق وعرفوا داعيه، لكنهم استحبوا العمى على الهدى، وقد كان عندهم نور من بقايا وحي السماء لكنهم رفضوا ما أتاهم من نور القرآن فذهب الله بما عندهم من نور وتركهم في ظلمات يتخبطون.

ثم جاء المثل الثاني ليبين حال المنافقين مع هدايات القرآن؛ فمثلهم كمثل مطر من السحاب فيه ظلمات داجية، وصوت رعد قاصف، وضوء برق خاطف، حتى إنهم ليجعلون أصابهم في آذانهم من شدة الصواعق المحرقة خوفاً على أنفسهم من الموت^(١)، ولن ينفعهم ذلك؛ فالله محيط بهم علماً وقدرة.

ويكاد البرق لشدة لمعانه أن يأخذ قوة البصر المودعة في أعينهم فإذا صادفوا من البرق

(١) قال الفراء: قيل: إن الرعد إنما ذكر مثلاً لخوفهم من القتال إذا دُعوا إليه. ألا ترى أنه قد قال في موضع آخر: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي يظنون أنهم أبداً مغلوبون. معاني القرآن للفراء ١/ ١٧.

وميضاً انتهزوا فرصة ذلك الوميض ومشوا فيه خطوات قليلة، وإذا خفت بريقه، واختفى لمعانه وقفوا في مكانهم خائفين لشدة حرصهم على النجاة، ولو شاء الله لزداد في قصف الرعد فأصمهم وذهب بسمعهم ولو شاء لزداد في ضوء البرق فأعماهم وأذهب أبصارهم، فإنه تعالى على كل شيء قدير، ومن جملة ذلك أن يذهب بأسماعهم وأبصارهم متى يشاء.

والمثل يشبه حظهم من الحياة والنور بحظ صاحب المطر الصيب الذي هو في حقيقته حياة للأرض الميتة، وشبه الهدى به لأنه يجي القلوب الميتة كما تحيي الأرض بالمطر، وتنبت به ثمرات العبادة ومحاسن الأخلاق. لكن المنافق لا نصيب له من الصيب إلا الظلمات والرعد والبرق، أما النفع الحقيقي بالمطر فإنهم عنه بمعزل.

وحالهم مع الدين قائم على مبدأ النفعية؛ فإن كان ثمة خير عاجل لزموا الدين ومشوا فيه واطمأنوا به، وإن وجدوا فتنة تصيبهم في أنفسهم وأموالهم قاموا وتركوا الهدى، قال تعالى في وصف حالهم: ﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنْ اللَّهِ فَالُوا اللَّهَ نَكُنَّ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ فَأَلَوْا اللَّهَ فَسَخَرُوا عَلَيْكُمْ وَنَمَنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء/ ١٤١]، فهذا دأبهم وتلك طبيعتهم، قال ابن مسعود: "كلما صلحت أحوالهم في زروعهم ومواشيهم وتوالت عليهم النعم قالوا: دين محمد دين مبارك، وإذا نزلت بهم مصيبة أو أصابتهم شدة سخطوه وثبتوا في نفاقهم"^(١).

كان هذا هو المقصد الأول في المقدمة، وهو يتحدث عن هداية القرآن، وموقف الناس منها، وهذا المقصد يتحدث أولاً عن المنهج، وانقسام الناس حياله.

فمنهج القيام بالخلافة في الأرض له دستور، هذا الدستور هو القرآن الكريم، وقد جاء ذكره أولاً لبيان أنه هو الصراط المستقيم، ثم انتقل الحديث إلى موقف من قاموا بحقه، ومن

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ١٠٣. قال النحاس: وهذا قول حسن. انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٣٣٨.

علموا الحق وتركوه، ثم من عرفوا الحق ظاهراً وتركوه باطناً.
وجاء المقصد الثاني في المقدمة ليتحدث عن الأمر للناس باتباع المنهج، وليذكرهم بأصوله
وغاياته، وليضرب لهم نموذج الاستخلاف الأول في الكون.

وقد بدأت آياته ببدء قوي موجه إلى جميع الناس بثلاثة مطالب:
أولها: أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً.

وثانيها: أن يؤمنوا بالقرآن الذي نزل على نبيه محمد ﷺ.

وثالثها: أن يرهبوا شديد عقابه ويرغبوا في واسع ثوابه.

وهذه أركان العقيدة الإسلامية، ابتدأت بالإيمان بالله وهو مبدؤها وختمت بطرفها
وهو الإيمان باليوم الآخر، ثم جاء في الوسط الحديث عن الوساطة وهو الإيمان بالكتاب
وبالرسول.

وتبدأ الآيات بأمر الناس جميعاً أن يعبدوا ربهم الذي رباهم على موائد كرمه سبحانه،
ثم بينت الآية موجبات استحقاقه سبحانه العبادة وتدرجت في ذلك من خلق الأنفس إلى
الآفاق، وجمعت بين دليلي الاختراع والعناية؛ فهو سبحانه الذي أخرج العباد جميعاً من العدم
إلى الوجود وكما أوجد المخاطبين فإنه أوجد المتقدمين أيضاً، وبدأ بالمخاطبين لأن علم الإنسان
بحال نفسه أوضح من علمه بحال غيره، وعبادة الله المأمور بها تجعل الإنسان على رجاء أن
يكون من المتقين. وهذا من أدلة الاختراع التي نعلم بها أن هناك موجداً للحياة ومنعماً بها هو
الله تعالى^(١).

ثم انتقلت الآيات بعد ذلك إلى أدلة العناية بالإنسان الموجودة في العالم السفلي والعالم
العلوي؛ فبينت أن مما يحمل الناس جميعاً على عبادة الله وحده أنه جعل لهم مهاداً كالبساط

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٩/٣٢٣.

المفروش، فصارت مذلة سهلة للمعيشة، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَتَشَوْا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾ [الملك: ١٥] وقال: ﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَا فَنِعْمَ الْمَهْدُونَ ﴾ (٤٨) [الذاريات/ ٤٨] فالأرض في سهولة العيش عليها ويسر التقلب فيها كمهاد الصبي^(١).

وبعد أن ذكر خلق الأرض التي هي أقرب للإنسان ذكر خلق السماء التي هي كالسقف والبناء للأرض^(٢)، قال تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء: ٣٢] فالسماء محكمة البناء، ينزل من سحابها الماء المبارك الذي يخرج به من أنواع الثمرات بعض ما يكون رزقاً للعباد وحياةً للبلاد، قال تعالى: ﴿ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۚ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۚ فَأَبْنَا فِيهَا حَبًّا ۚ وَبَعَثْنَا فِيضًا ۚ وَزَيَّنَّاهَا وَمَجَلَّلْنَا ۚ وَحَدَّيْنَاهَا عُلْبًا ۚ وَحَدَّيْنَاهَا عُلْبًا ۚ وَفَكَهَمْنَا وَابًّا ۚ وَمَنَعْنَا لُكُومًا ۚ وَفَلَاحِيكُمَا ۚ ﴾ [عبس: ٢٥: ٣٢]

ومن كانت هذه أفعاله، وكان هذا صنعه وتدبيره فهو جدير بأن يفرد وحده بالعبادة،

(١) وقد أثبت العلم أن الأرض لم تكن في بداية تكونها فراشاً أو مهاداً وقراراً يمكن أن تنشأ عليها حياة، ثم صارت بعد ذلك كذلك وتحقق كونها فراشاً ومهاداً بتكون السطح الصخري الخارجي لها من سهول وهضاب وجبال، وجعل الله سبحانه وتعالى هذا السطح بهيئة منبسطة مسطحة ممهدة، وجعل لها سهولاً واسعة الامتداد تصلح للحياة التي قدرها فيها ممهدة للسير والحراث والزرع والنماء والحياة. انظر: مجلة الإعجاز التي تصدرها هيئة الإعجاز العلمي برابطة العالم الإسلامي. العدد رقم (٤) وبهذا يكون الجعل بمعنى التصيير والله أعلم.

(٢) وصف السماء بالبناء يتوافق مع ما أثبتته العلم من أن السماء المحيطة بالكرة الأرضية مكونة من طبقات متعاقبة ومترابطة معاً بالأرض؛ حيث تقوم الأرض بجذب هذا الغلاف السماوي إليها ومنعه من التبدد والزوال بخلاف ما كان عليه الحال عند بداية تكون الأرض وقبل استقرار سطحها، كما بين العلم الحديث أن طبقات هذا الغلاف الجوي المحيط بالأرض تحمي الحياة والأحياء فوقها من أخطار كونية كالنيازك والأشعة الكونية وكهارب الرياح الشمسية التي تتعرض لها الأرض على مدار اليوم والليل كما أثبت العلم أيضاً أن هذا البناء المحكم حول الأرض يوفر أسباب الحياة عليها وفق سنن محكمة فهو مخزن هائل للغازات الضرورية للحياة كالأكسجين والنيتروجين، وهو منظم لدرجات الحرارة الملازمة للحياة فوق الأرض وناقل للسحب وموزع للرياح والماء. انظر: المرجع السابق.

ولا يليق بعاقل أن يجعل له أمثالاً وشركاء يعبدونها ويطيعونها من دونه، ويعتقد أنها تنفعه وتضره وهو يعلم أنها لا تصلح أن تكون أنداداً لله، قال مجاهد: "وأنتم تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل"^(١). وفي الصحيح: (وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشرکوا شيئاً)^(٢). قال ابن كثير: " وهذه الآية دالة على توحيدته تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع"^(٣).

وبعد أن قررت الآية الوجدانية بأبلغ لفظ وأحكمه انتقلت إلى إثبات صدق نبوة محمد ﷺ، فخاطبت كل كافر قائله إن ارتبتم في أمر القرآن الذي نزل مفرقاً على عبدنا محمد فأتوا بأقل ما يطلق عليه لفظ سورة من مثله واستعينوا على ذلك بكل من يمكنه معونتك متجاوزين لله إن كنتم صادقين في قدرتك على المعارضة، كما قالوا في آية أخرى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١].

وفي الآية تحدٍ للعرب وللناس أجمعين أن يأتوا بسورة تقارب أو تداني أقصر سورة منه وهي سورة الكوثر.

وإعجاز القرآن الكريم في نظمه وأسلوبه، وبلاغته التي لا يمكن لأساطين البلاغة أن يجاروها، وقد نزل القرآن على العرب وهم أهل الفصاحة والبيان فانقطعوا عن معارضته ولم يستطيعوا، وقد نزلت عدة آيات متدرجة في تحدي العرب، قال أبو بكر الجصاص: " وقد

(١) أخرجه الطبري عنه بسند صحيح رقم/ ٤٩٠ وهذا يشير إلى أن هذه الآيات خطاب لأهل الكتاب، وهم داخلون في العموم لكن كما قال الطبري: وإن كان الخطاب لكفار أهل الكتاب الذين كانوا حواري دار هجرة رسول الله ﷺ، وأهل النفاق منهم، وعن بين ظهرانيهم ممن كان مشركاً فانتقل إلى النفاق بمقدم رسول الله ﷺ. جامع البيان للطبري ١/ ٣٧٣.

(٢) رواه الحاكم في مستدرکه برقم/ ١٥٣٤ وصححه على شرطها، وابن خزيمة في صحيحه برقم/ ٩٣٠، وابن حبان برقم ١٢٢٢ موارد، وأحمد في مسنده ٤/ ١٣٠ عن الحارث الأشعري مرفوعاً في حديث طويل، وسنده صحيح.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ١٩٧.

تحدى الله الخلق كلهم من الجن والإنس بالعجز عن الإتيان بمثل القرآن بقوله تعالى: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [٨٨] ﴿ [الإسراء: ٨٨] فلما ظهر عجزهم قال: ﴿ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ ﴾ [هود: ١٣] فلما عجزوا ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٤] فتحدهم بالإتيان بمثل أقصر سورة منه^(١).

فأفحموا عن الجواب، وتقطعت بهم الأسباب، وعدلوا إلى الحروب والعناد ولو قدروا على المعارضة لكان أهون كثيراً وأبلغ وأشد تأثيراً هذا مع كونهم أرباب البلاغة واللمح، وعنهم تؤخذ الفصاحة واللسان^(٢).

وفي القرآن أوجه كثيرة تثبت صدق النبي ﷺ لكن لم يقصد بها التحدي للعرب؛ وذلك مثل الأخبار بالأمر الغيبية، وأوجه التشريع الحكيمة، ودلائل الإعجاز العلمي التي تثبت أن القرآن هو الحق.

وبعد أن أثار القرآن حماسهم، وعرض بعدم صدقهم حتى تتوفر دواعيهم على المعارضة أكد لهم أنهم لن يستطيعوا، وفي هذه الكلمة: ﴿ وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ إعجاز مستقل؛ حيث أثبت أنهم لم يعارضوا، ولن يستطيعوا ذلك لا هم ولا من سيأتي بعدهم، فهذا تحدٍ بالأخبار عن الغيب المستقبل. وحيث ظهر العجز: فليس أمامهم إلا التصديق بالقرآن، وإن لم يؤمنوا فليس إلا العناد وبهذا يستحقون النار التي توقد بالناس والأصنام التي كانت تُعبد من دون الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴾ [الأنبياء/ ٩٨] وهذه النار الشديدة أعدها الله وهياها للكافرين، فهي نار مختصة بهم لا يشاركهم فيها غيرهم.

(١) أحكام القرآن للجصاص ١ / ٣٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١ / ١٢١.

وبهذه الجملة الأخيرة انتقل الحديث من الإيمان بالقرآن إلى الإيمان باليوم الآخر، وجاء بعد تخويف المشركين من النار الأمر ببشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم عند ربهم جنات بها أشجار كثيفة تجري من تحتها الأنهار، وإن سكان الجنة كلما قدمّت لهم ثمرة من ثمراتها وجدوها شبيهة بسابقتها قالوا: هذا مثل الذي رزقناه فيها من قبل، فأشجار الجنة متماثلة في حسن المنظر وحلاوة الطعم بحيث لا تفاضل بين واحدة وأخرى، وجيئوا بهذه الثمار يشبه بعضها بعضاً في الحسن ويختلف في اللذة والطعم، قال ابن عباس: "ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء"^(١).

وإن هؤلاء المؤمنين في الجنة أزواجاً من الحور العين اختصاص بهم، مطهرات من كل دنس وقدر حسي أو معنوي، قال تعالى: ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ لَهُنَّ نِسَاءٌ فَتَاهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن/ ٥٦]، ولما ذكر الله نعيم المؤمنين في الجنة من المسكن والمطعم والنكاح ولا ينغص على النفس بعد الكمال إلا الزوال أعقب القرآن ذلك بالتأكيد على الخلود والنعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول.

وبعد أن ذكرت الآيات أمثلة العذاب والنعيم في الآخرة عادت إلى بيان أن هذه طريقة القرآن في هدايته؛ يضرب الأمثال وبين الحقائق لا يبالي أن يتناول عظام الأمور أو سفاسفها، وقد نعى اليهود على المسلمين ذلك الأمر؛ فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: "لما ضرب الله سبحانه هذين المثليين للمنافقين؛ يعني قوله: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِينَ اسْتَوْفَدُوا نَارًا ﴾ وقوله: ﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ قالوا: الله أجل وأعلى من أن يضرب الأمثال فأنزل الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ﴾"^(٢).

ووردت عدة روايات أن القائلين هم المشركون والمنافقون، قال ابن عاشور: "وكون القائلين هم اليهود هو الموافق لكون السورة نزلت بالمدينة، وكان أشد المعاندين فيها هم اليهود، ولأنه الأوفق بقوله تعالى: ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾^(٣) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ﴾ وهذه صفة

(١) رواه الطبري في جامع البيان ١/ ٣٩٢ برقم/ ٥٣٥ عن ابن عباس ورواه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن

العظيم ١/ ٦٦ برقم ٢٦٠.

(٢) أسباب النزول للواحد ص ٦ وسنده ضعيف، انظر العجائب في بيان الأسباب لابن حجر ١/ ٢٤٦.

اليهود^(١)”. ويحتمل أن يكون الكل قد تظاهر على ذلك، وهذا ما رجحه جمع من المفسرين.^(٢)
ومعنى الآية أن الله لا يستنكف^(٣) أن يضرب أيّ مثل كان بأي شيء كان حتى ولو كان من المخلوقات الصغيرة كأبي بعوضة فيما دونها في الصغر^(٤)، وليس هذا بمستغرب؛ فالمثل لتقريب المعقول بشيء محسوس تأنس به النفوس، والله تعالى أن يمثل الأصنام وحقارة شأنها بأهون شيء وأحقره كالذباب وغيره.
والناس في موقفهم من هذه الأمثال فريقان:

فريق مؤمن يعلم أن هذا المثل هو الحق الكامل الوارد عند الله. أما الفريق الثاني وهم الكفار فإنهم يستفهمون منكربين: ما الذي أراد الله بهذا المثل؟
فردّ الله عليهم وبين أن هذا المثل يكون سبباً في زيادة هؤلاء ضلالاً على ضلالهم؟ لأنهم كذبوا بما علموه، وفي المقابل يزداد المؤمنون إيماناً؛ لأنهم صدّقوا بما علموه حقاً؛ قال تعالى:

(١) التحرير والتنوير ١/٣٥٨.

(٢) انظر: التفسير للكبير للرازي ٢/١٢٢ والبحر المحيط لأبي حيان ١/٢٦٤ وفي ظلال القرآن لسيد قطب ١/٥٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٢٠٧.

(٤) قال الرازي: والمحققون مالوا إلى هذا القول. التفسير الكبير ٢/١٢٥، وذهب بعضهم إلى أن معنى ما فوقها أي أكبر منها. انظر: معاني القرآن للفراء، ج ١، ص ٢٠.

فائدة: ومع أن ذكر البعوضة للتمثيل إلا أن خلقها فيه من عجائب صنع الله؛ فعلى الرغم من ضآلة حجمها إلا أنها المسبب الرئيس لمرض الملاريا والفلاريا المعروف بداء الفيل والحمى المخية وحمى الوادي المتصدع وغير ذلك، ومن إشارات اللفظ أن اللفظ جاء بصيغة التأنيث والحقيقة العلمية تثبت أن الأنتى وحدها هي التي تتغذى على الدم فقط وتنقل الأمراض دون الذكر. وهناك ما دونها مثل الفيروسات وغيرها مما لا يرى بالعين بالمجردة ومع هذا فإن فيه من القوة ما يهلك الإنسان، فسبحان من هذا كلامه. وللتفصيل انظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ليوסף الحاج أحمد ص ٦٨٤ وما بعدها.

﴿لَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِقَوْلِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [المدثر: ٣١، ٣٢].

ثم بينت الآية الكريمة أن علة إضلال هؤلاء هو خروجهم عن طاعة الله وأوامره فزادهم الله ضلالاً على ضلالهم، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥] وذكرت ثلاثة أوصاف لهؤلاء الفاسقين:

أولها: أنهم يتقصون ويحلون العهد والميثاق الذي أخذه الله عليهم بعد أن أكدوه ووثقوه وذلك العهد هو ما فطره الله في النفوس من توحيد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وتحتمل ما أخذه الله على أهل العلم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

ثانيها: أنهم يقطعون كل ما أمر الله به أن يوصل، ومن ذلك قطيعة الرحم، قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢] ومنه قطع بعض الرسل عن بعض، بأن يؤمن ببعضهم دون البعض الآخر، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمُنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [١٥٠] أولئك هم الكافرون حقاً [النساء: ١٥٠، ١٥١].

ثالثها: الإفساد في الأرض؛ وذلك بالشرك، والدعوة إلى الكفر، وإلقاء الشبهات في وجه الدين الحق.

وأصحاب هذه الصفات هم الذين نقصوا أنفسهم حقها من الخير قال الطبري: "والخاسرون جمع خاسر، وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم من رحمة الله بسبب معصيتهم له" (١).

(١) جامع البيان للطبري ٤١٧/١.

ويلاحظ أن هذه الصفات التي اتصف بها الفاسقون جاءت على عكس ما اتصف به المتقون في أول السورة:

* فالفاسقون ينقضون عهد الله لهم، أما الأولون فإنهم يوفون بعهد الله ويؤمنون بما أنزل إلى محمد ﷺ وما أنزل من قبله.

* والفاسقون يقطعون ما أمر الله بوصله، والمتقون يصلون ما أمر الله بوصله فيقيمون الصلاة التي هي الصلة بين العبد وربّه.

* والفاسقون يفسدون في الأرض ولا يقومون بواجب الخلافة، أما المتقون فإنهم يحرصون على عمارتها وينفقون من كل ما رزقهم الله في سبيل ذلك.

ولذلك استحق المتقون أن يكونوا هم المفلحين، قال تعالى: ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [٥]، أما الفاسقون فكان جزاؤهم موافقاً لعملهم فكانوا من الخاسرين، قال تعالى: ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [٢٧].

وبعد أن بينت الآيات أقسام الناس إزاء هداية القرآن، وبينت أوصاف الضالين وسوء مصيرهم. جاء الخطاب القرآني بالتعجيب والإنكار من كفرهم رغم أنعم الله الواسعة فهذا عود على بدء إلى المقصد الأول في هذه المقدمة؛ حيث بين أولاً هداية القرآن وأقسام الناس إزائها، وأعاد الكلام هنا من وجه آخر وبأسلوب جديد؛ فقد أمرت الآيات هناك بعبادة الله وذكر النعم مجملة، ثم نهت هنا عن الكفر بالله وذكرت النعم بشيء من التفصيل. وذكرت الأولى مبدأ الخلق، أما هذه فتحدثت عن منتهى ورجوع كل عبد لمولاه.

وابتدأت الآية بصيغة الاستفهام الإنكاري التوبيخي، والتفت بالخطاب إلى الكافرين مواجهةً وذلك لزيادة التعجب من غرابة أحوالهم، وقلة علمهم، فقد كانوا معدومين فخلقهم الله وأخرجهم من العدم إلى الوجود، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ ﴾ [الإنسان: ١].

وبعد أن ذكّرهم بالنشأة الأولى جاء ذكر أطوار انتقال الإنسان من حياته الدنيا إلى الموت وقبض الأرواح عند انقضاء الأجل فهذه ثلاثة أمور مشهودة، ثم ذكر الأمر الرابع الموعود به وهو الإحياء والبعث بعد الموت والرجوع إلى الله تعالى الذي يجمع الناس ويقضي بينهم بحكمة سبحانه، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَعِينُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦].

وبعد أن ذكر الله الأدلة من الأنفس أعقب ذلك بذكر الأدلة من الآفاق وذلك ببيان أنه تعالى خلق للإنسان جميع ما في الأرض من معادن ونباتات وحيوان وغير ذلك، ثم علا وارتفع وقصد إلى السماء من غير تشبيه ولا تكليف فسوى السموات السبع^(١) على هذه الصورة الحكيمة التي تدل على إحاطته سبحانه بكل شيء علماً. وفي خلق الأرض تمهيد للحديث عن الخلافة في الأرض.

وهذه الآية التي معنا تشير إلى أن خلق الأرض مقدم على خلق السموات، ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَيْتَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسٍ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِبِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَسْوَأَ إِلَى الْأَسْمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَنْتِنَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَنْتِنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

وإذا كانت الآية في المقصد الأول قد تحدثت عن نبوة سيدنا محمد ﷺ بعد الحديث عن وحدانية الله، فإن هذا المقصد بعد أن نهى عن الشرك تحدث عن النبوة الأولى، ومهد لها بحديث شائق عن تلك النشأة، وما جرى في شأنها مع الملائكة ثم انتقل إلى الحديث عن حسد إبليس وما نشأ عنه المعصية ومن ثم الابتلاء في الأرض.

(١) الظاهر أن السواوات السبع هي تحديد للنوع مما خلق الله سبحانه فوقنا من هواء وشهب ونيازك وأقمار ومذنبات وكواكب وشموس يعلو بعضها بعضاً، ويتألف منه عوالم الكون أو طباق السواوات. انظر: الله والكون للدكتور/ محمد جمال الدين الفندي ص ٢٤٣.

فالحديث الأول كان خاصاً بالقائد الأعظم محمد ﷺ الذي ختم الله به الرسل، أما هنا فالحديث عن أبي البشر، والخليفة الذي قام بعمارة الأرض وإقامة حدود الله. فبينها الاتصال بين المبدأ والمختتم، وبين الوراثة والخلافة، وبين الملة الأولى والآخرة.

وتبدأ القصة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي: واذكر يا محمد وقت أن قال الله لمخلوقاته النورانية العابدة المسبحة بحمده إنني متخذ في الأرض خليفة يعمرها، ويقيم العدل فيها، وهو آدم وذريته الذين يخلفونه من بعده، وقد أخبرهم الله بذلك لأجل ما ترتب عليه من سؤاها عن الحكمة وليس على سبيل مشورتهم، فتعجب الملائكة وتساءلوا: أتجعل في الأرض خليفة، وفيهم من يخرج من الاعتدال والصلاح إلى الفساد، والقتل وإراقة الدماء ظلماً وبغياً، والحال أننا ننزهك عما لا يليق بجلالك تنزيهاً متلبساً بحمدك والثناء عليك، ونظهرك عما لا يجوز فهلا وقع الاكتفاء بنا؟

وسؤاها هذا إنما هو سؤال استعلام واستكشاف لا سؤال حسد واعتراض، وكأنهم علموا بذلك من جهة الوحي، أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس فيما يقع بينهم من المظالم ويرد عنهم المحارم والمآثم.^(١)

وقد أجابهم الله تعالى عن سؤاها: إنني أعلم من المصلحة الراجحة في استخلافه مما تجهلون؛ فبهم تعمر الأرض، وتظهر الحكمة الإلهية في إرسال الرسل.

ثم أظهر الله لهم جانباً من حكمة خلق آدم، وأظهر كذلك عجزهم من استحقاق الخلافة؛ فعلم آدم أبا البشر أسماء كل ما خلق الله تعالى من الأشياء والأجناس، وعلمه كذلك المسميات ويفهم هذا من ضمير العقلاء في ﴿عَرَضُهُمْ﴾ ولم يقل: عرضها؛ لأن من المسميات ما هو عاقل كالبشر والملائكة، ومن أدلة العموم حديث الشفاعة الطويل وفيه: (فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس، خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء)^(٢). وعندما عرض

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٢١٦.

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن أنس مرفوعاً، ورقمه/٤٢٠٦.

الله المسميات على الملائكة، قال لهم -على سبيل الإفحام-: أخبروني بأسماء هذه الأشياء إن كنتم صادقين في إدعائكم أنكم أحق بالخلافة، فنفوا عن أنفسهم أن يعلموا شيئاً غير ما يعلمهم الله. ومن جملة هذا النفي العام الاعتراف بعدم معرفة الأسماء التي سئلوا عنها. ثم ختموا كلامهم بقولهم: إنك يا رب العليم بكل شيء، الحكيم في خلقك وأمرك.

وتوجه الخطاب الإلهي بعد ذلك إلى آدم عليه السلام بالإذن ليخبر الملائكة بالأسماء التي عجزوا عن معرفتها، ليعلموا فضله، ويوقنوا بأحقية في الخلافة، فلما أنبأهم آدم بها خاطبهم الله معاتباً: ألم أقل لكم إني أعلم ما غاب عنكم في السموات والأرض، وما حضر من باب أولى، وما تبدوونه بأستكم من قول: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ وما تكتُمونه مما تنطوي عليه ضمائرهم؟

ثم ذكرت الآيات فضيلة أخرى من فضائل آدم وهي أمر الله تعالى للملائكة بالسجود له، والسجود الخضوع والتذلل، وليس سجود الملائكة لآدم سجود عبادة، وهذا مما أجمع عليه المسلمون،^(١) وذهب الأكثرون إلى أنه كان سجود تحية وتعظيم كالسلام منهم عليه، وقد كانت الأمم السابقة تفعل ذلك كما حدث مع أخوة يوسف لأخيهم^(٢)، ولكن إبليس لم يسجد لآدم؛ فامتنع مستكبراً، وكان من جملة الكافرين العاصين.

وإبليس من الجن على ما هو الراجح؛ لأنه عصى ربه، أما الملائكة فإنهم مفطورون على الطاعة، ولأنه قد صرح في آية أخرى بأنه خلق من نار، قال تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٢] وقد ورد أن رسول الله ﷺ قال:

(١) انظر: مفاتيح الغيب للرازي ٢ / ١٩٤.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب سابق. وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ٢٣٢ والتفسير الوجيز للواحدى ١ / ١٠٠ ومدارك التأويل للنسفي ١ / ٣٧ وتفسير القرآن الحكيم ١ / ٦٥ والتحرير والتنوير لابن عاشور ١ / ٤٢٢.

(٣) رواه مسلم في صحيحه برقم / ٢٩٩٦ عن عائشة.

(خلقت الملائكة من نور وخلق الجن من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)^(٣)، والقرآن يصرح بذلك؛ قال تعالى: ﴿وَلَجَّانَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (٣٧) [الحجر: ٢٧] واستثناؤه من الملائكة من قبيل الاستثناء المنقطع، وإدخاله في خطابهم لأنه كما قال ابن كثير: "وإن لم يكن من عنصرهم إلا أنه كان قد تشبه بهم وتوسم بأفعالهم فلهذا دخل في الخطاب لهم"^(١) والله أعلم.

ولم تذكر الآيات هنا سبب استكباره، ولكن ورد في مواضع أخرى منها قوله تعالى: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَنْسُونٍ﴾ (٣٣) [الحجر: ٣٣]، وهذا قياس خاطئ منه، ولذلك كان الحسن وابن سيرين يقولان: "أول مَنْ قَاسَ إبليس"^(٢)، يعنيان بذلك: القياس الخطأ.

وبعد أن كَرَّمَ الله آدم فأمر الملائكة بالسجود له أمره أن يسكن الجنة وزوجه، واسمها حواء كما ورد في الصحيح^(٣)، وكان خلقها بعد آدم، قيل: منه اتباعاً لظاهر قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتَقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَظَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] وقيل: منها أي: من جنسها. وقد جاء الخطاب في الآية لآدم وحواء بإباحة الأكل من ثمار الجنة أكلاً هنيئاً واسعاً في أي مكان من الجنة أرادا، ثم نهاهما الله عن الأكل من ثمار الجنة، والنهي عن القرب مبالغة في النهي عن الأكل، وجعل عدم اجتناب الأكل من الشجرة ظلماً، والجنة هي جنة الخلد، وهي دار ثواب المؤمنين في الآخرة، كما هو المشهور عند أهل السنة والجماعة خلافاً للمعتزلة وجماعة^(٤). وأما نوع الشجرة فلم يرد في القرآن ولا في السنة الصحيحة، وليس في معرفته كبير

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢٣٠.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري ١٢/ ٣٢٧، وصحح إسنادهما ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٩٣.

(٣) صحيح البخاري برقم/ ٣١٤٧ ومسلم برقم/ ٢٦٧٣.

(٤) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٤/ ٦٩، ومفتاح دار السعادة لابن القيم ١/ ٨ وما بعدها حيث استفاض في عرض المسألة، ومن أقوى أدلة الجمهور ما رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة مرفوعاً وفيه: "فيقولون يا آدم، استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم. ورقمه/ ١٩٤.

فائدة، قال الطبري " ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين"^(١).

ثم بينت الآيات بعد ذلك ما وقع فيه آدم وحواء حيث أزلهما الشيطان أي: أذهبها^(٢) عن الشجرة، فأوقعهما في الزلة بسببها، فأخرجهما من النعيم الذي كانا فيه، وقد جاء تفصيل إغواء الشيطان لهما في آيات أخرى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِرٍ ﴿٢١﴾ فَدَلَّهُمَا بِقُرْبِهِ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٢] وقوله تعالى: ﴿ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٣٠﴾ ﴾ [طه: ١٢٠].

وقد أشارت مواضع أخرى من القصة أن إبليس قد طرد من الجنة بعد أن أبى السجود لآدم قال تعالى ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ [ص: ٧٥: ٧٨] ولهذا بحث العلماء في كيفية وسوسته لآدم وهو مطرود من الجنة، وذكروا في ذلك عدة احتمالات. فقالوا: إنما منع من الدخول على وجه التكريم كما يدخلها الملائكة، ولم يمنع من الدخول للوسوسة وقيل: قام عند الباب فناداهما، وقيل: أرسل بعض أتباعه فأزلهما.. والعلم عند الله^(٣).

وذهب جماعة من المفسرين إلى أن آدم ظن أن النهي كان على شجرة بعينها وليس على الجنس كله، والظاهر أنه أكل من الشجرة ناسياً النهي عن الأكل منها، وغافلاً عن استحضار

(١) جامع البيان للطبري ١/ ٢٣٣.

(٢) قرأ الجمهور (فأزلها) وقرأ حمزة فأزلها الشيطان عنها بالألف أي نحاها عن الحال التي كانا عليها من قول

القاتل أزال فلان فلاناً عن موضعه إذا نحا عنه وزال هو. انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص ٩٤.

(٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ١/ ٩١.

النهي، ولم يتعمد المخالفة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (١١٥) [طه: ١١٥] قال ابن عباس في تفسيرها: إنما سُمِّيَ الإنسان لأنه عهد إليه فَنَسَى (١).

ثم أمر الله آدم وحواء بالنزول من الجنة إلى الأرض، وكتب بينهما وبين إبليس العداوة المستمرة إلى آخر الزمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٦) [فاطر: ٦] ثم ختمت الآية ببيان أن الأرض منزل الكل وموضع استقرار وتمتع بالعيش إلى أن يحين الأجل.

وما إن وقعت المعصية، وحدث التعري، وعاتبها ربها بقوله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الْأَشْجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢] ما إن حدث هذا إلا وبادر آدم بطلب المغفرة من ربه، فألهمه الله كلمات قالها هو وزوجته وأيقنا بها وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّنَا تَغْفِرٌ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

والتوبة الندم، والإقلاع عن الذنب، والعزم على عدم العود، وقد تاب الله على آدم فقبل توبته؛ فهو سبحانه الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويكثر الرحمات، سبحانه.

ثم أعاد الأمر بالإهباط ليعلق عليه ما ترتب على هذا الهبوط من انقسام أحوال المخاطبين إلى ضالين ومهتدين، فإن جاء الهدى من الله على لسان رسوله فمن تبعه فلا يناله في الآخرة فزع على ما هو آت ولا حزن على ما فات، أما الذين لم يرفعوا بذلك رأساً ولم يقبلوا هدى الله بأن كفروا وكذبوا بآيات الله المتلوة المسطورة وآياته في الكون المنظورة فأولئك هم الملازمون للنار ملازمة لا تنقطع.

وقد ابتدأ المقطع ببيان أن القرآن هدى للمتقين، وختم ببيان أن الهدى يأتي من عند الله، وجاء وصف المستمسكين بكتابه بأنهم على هدى من ربهم، فدل ذلك على أن الخلافة في الأرض غايتها الهدى، وبدونها تكون إفساداً.

(١) رواه عنه الطبري في جامع البيان ١٦ / ٢٢١ بسند حسن.

قال سيد قطب: لقد اقتضت رحمة الله بهذا المخلوق أن يهبط إلى مقر خلافته مزوداً بهذه التجربة التي سيتعرض لمثلها طويلاً، استعداداً للمعركة الدائبة وموعظة وتحذيراً^(١).

والملاحظ أن هذا هو الموضوع الوحيد في قصة آدم الذي يأتي فيه تفاصيل الاستخلاف؛ وسبب ذلك - والله أعلم - أن هذا هو الموضوع الوحيد في قصة آدم الذي جاء في سورة مدنية؛ فناسب أن يأتي ذكر الخلافة مع تكليف المسلمين بأمانة الخلافة، وهذا مما يؤكد صحة استنباط محور السورة، والله أعلم.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ - القضايا العقديّة:

- أن من طبع الله على قلبه، وحققت عليه كلمة الله بسبب فعله، لا يدخل في الإيمان أبداً، ولن تجدي معه أي موعظة، ولن يفيء إلى هدى، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس ٩٦ - ٩٧] وما ذلك إلا بسبب أنه أغلق منافذ الهداية من نفسه، فصار لا يستفيد قلبه بموعظة ولا تتفجع عينه وأذنه بذكرى.

- الإيمان ليس مجرد إقرار باللسان وحسب؛ فالمنافقون أقرروا بالإيمان بألسنتهم، ومع هذا فما هم بمؤمنين، والذي عليه جمهور أهل السنة والجماعة أن الإيمان حقيقة مركبة من التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح. قال النووي: "مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص". إلى أن قال: "فالمعنى الذي يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين هو إتيانه بهذه الأمور الثلاثة: التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح"^(٢).

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/٥٩.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١/١٤٧.

- نفى الله الإيذان عن المنافقين في قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾، ولكن هل يقال إنهم مسلمون؟

قال أبو الحسن الأشعري: المنافق مسلم غير مؤمن؛ لأنه مستسلم في الظاهر غير مصدق في الباطن^(١)، ولكن هذا الإسلام لا ينفعه يوم القيامة ولا يثاب عليه، لأنه استسلام ظاهري للخوف من إجراء أحكام الكفار عليه في الدنيا، لكنه لا ينفعه في معاده، قال تعالى في حق المنافقين: ﴿ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ [التوبة/ ٧٤].

- جاء في الآيات الإخبار عن فعل الله بالمنافقين من الاستهزاء بهم، وهذا إخبار مقيد عن صفة من صفات الأفعال، وباب الأفعال أوسع من باب الأسماء؛ فلا يجوز أن يشتق منها اسم من أسماء الله؛ قال ابن حزم: "ولا يحل لأحد أن يشتق لله تعالى اسماً لم يسم به نفسه. برهان ذلك أنه تعالى قال: ﴿ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ﴾ وقال: ﴿ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ وقال تعالى: ﴿ خَيْرُ الْمَكْرِيحِينَ ﴾. ولا يحل لأحد أن يسميه البناء ولا الكياد ولا الماكر ولا المتجبر ولا المستكبر لا على أنه المجازي بذلك ولا على وجه أصلاً ومن ادعى غير هذا فقد أُلْحِدَ في أسائه تعالى وتناقض وقال على الله تعالى الكذب وما لا برهان له به"^(٢).

- النار موجودة الآن؛ قال تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ وكذلك الجنة قال تعالى: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقد عرضتا على النبي ﷺ؛ فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: (عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَلَمْ أَرْ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ)^(٣). قال القرطبي: "لا إحالة في إبقاء هذه الأمور على ظواهرها، لاسيما على مذهب أهل السنة في أن الجنة والنار قد خلقتا ووجدتا، فيرجع إلى أن الله قد خلق لنبية إدراكاً خاصاً به أدرك الجنة والنار على حقيقتها"^(٤).

(١) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه ١/ ٥٢٠.

(٢) المحلى لابن حزم ١/ ٣٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم / ٥١٥ ومسلم في صحيحه واللفظ له برقم / ٢٣٥٩ عن أنس.

(٤) نقله عنه ابن حجر في فتح الباري ٢/ ٥٤١.

- نهي الله تعالى أن نجعل له أنداداً؛ وهذا يقتضي أن يكون المرء حذراً من أي مدخل يؤدي إلى الشرك، فإن بعض أبواب الشرك خفية، ومن ذلك ما ورد عن عبد الله بن عباس في تفسير الآية حيث قال: الأنداد هو الشرك، أخفى من ديب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول: والله، وحياتك يا فلانة، وحياتي، ويقول: لولا كلبه هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً؛ فإن هذا كله به شرك^(١).

- الهداية والإضلال بيد الله؛ قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِئْسَ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾.

- الهداية والإضلال تبع للحكمة؛ فلا يضل الله إلا من كان أهلاً لذلك بسبب خروجه عن طاعة ربه؛ قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾.

- في حديث القرآن عن قصة استخلاف آدم، وفي تفصيل خلقه الوارد في سورة الأعراف والحجر وص ردُّ على أصحاب نظرية النشوء والارتقاء؛ وكان الباحث الإنجليزي: دارون قد نشر عام ١٨٥٩م كتابه: (أصل الأنواع) الذي يدور حول أن أصل الحياة كانت خلية في مستنقع، وأن الطبيعة وهبت بعض الكائنات عوامل البقاء فأدى ذلك إلى تحسن نوعي نتج عنه أنواع راقية مثل القرد وأرقى مثل الإنسان، فصار البقاء للأنسب. وهذه النظرية في مجملها تناقض ما ورد في القرآن بل والتوراة من قصة آدم وحواء؛ والآيات في قصة الخلق لا تحتاج إلى بيان^(٢).

- دل قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على أن علم الغيب لله وحده، أو لمن ارتضى من رسول، فليس للكهان ولا لغيرهم معرفة الغيب.

- دل قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على أن الجن مكلفون بالأوامر والنواهي كبنی آدم، وهذا متفق

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم برقم/ ٢٢٩.

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: الدراويينية.

عليه بين الأمة^(١)، ومتفق كذلك على تعذيب عاصيهم، أما إثابة المطيع منهم ففيها خلاف. والآيات في ذلك كثيرة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْعِجْنِ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف/ ٢٩].

ب- الأحكام الشرعية :

- إجراء الأحكام الدنيوية مبني على ما يظهر من أمر الإنسان وليس على الباطن المجهول؛ لأن الباطن لا يعلمه إلا الخالق سبحانه، قال الطبري: "جعل الله تعالى الأحكام بين عباده على الظاهر، وتولى الحكم في سرائرهم دون أحد من خلقه، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر، لأنه حكم بالظنون، ولو كان ذلك لأحد كان أولى الناس به رسول الله ﷺ، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا، ووكّل سرائرهم إلى الله. وقد كذب الله ظاهرهم في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] ^(٢).

- الأصل في الأشياء الإباحة إلا ما نص الدليل على تحريمه^(٣). وهذه قاعدة جليّة استنبطها الفقهاء والأصوليون من استقراء أدلة كثيرة في الشرع كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾. حيث ذكرها الله في معرض الامتنان على بني الإنسان. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية/ ١٣] وقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف/ ٣٢].

- في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ دليل على وجوب اتخاذ خليفة للمسلمين؛

(١) ونقل الإجماع ابن عبد البر في التمهيد ١١٧/١١، وانظر: البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي/١/٣٠٩.

(٢) نقله عنه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١/٣٠٤.

(٣) وهي قاعدة متفق عليها. ونسب الشافعية إلى الأحناف أنهم يقولون الأصل في الأشياء التحريم. الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٦٠، لكن الثابت عن الأحناف أنهم يقولون بهذه القاعدة. انظر: غمز عيون البصائر للحموي ١/٢٢٣.

قال القرطبي: " هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة يُسمع له ويُطاع؛ لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به أحكام الخليفة. ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة ولا بين الأئمة" (١).

قال الشيخ الشنقيطي معلقاً: "من الواضح المعلوم من ضرورة الدين أن المسلمين يجب عليهم نصب إمام تجتمع به الكلمة وتنفذ به أحكام الله في أرضه. ولم يخالف في هذا إلا من لا يعتد به... وأكثر العلماء على أن وجوب الإمامة الكبرى بطريق الشرع كما دلت عليه الآية المتقدمة وأشباهها وإجماع الصحابة رضي الله عنهم. ولأن الله تعالى قد يزعم بالسلطان ما لا يزعه بالقرآن" (٢).

- في جواز إطلاق لفظ (خليفة الله) اختلف العلماء؛ فذهب جماعة إلى جواز الإطلاق، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وبقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل/ ٦٢] وبقول علي رضي الله عنه: "أولئك خلفاء الله في أرضه" (٣).

وذهب آخرون إلى المنع؛ قالوا: لأن الخليفة عمن غيب ويخلفه غيره، والله لا يغيب، والله هو الخليفة على عباده المؤمنين، يخلفهم في أهليهم بخير. قال البغوي: "ولا يسمى أحد خليفة الله بعد آدم وداود عليهما السلام" (٤).

والظاهر التفصيل؛ فإن قصد أنه خليفة الله القائم بتنفيذ شرعه فهذا لا بأس به، لأن الله قد استخلف الناس في الدنيا، ولا يراد بها معنى أن الخليفة يخلف الله أو يعينه عياداً بالله (٥).

ج- الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- اليقين من أعظم منازل المؤمنين، وقد اختص الله بالهدى والفلاح من كان بالآخرة موقناً،

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٣٩٥.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١/ ٢٣.

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق الكبير ٥٠/ ٢٥٥.

(٤) شرح السنة للبغوي ١٤/ ٧٥.

(٥) وانظر للتفصيل: فيض القدير للمناوي ١/ ٣٦٣، ومغنى المحتاج للشربيني ٤/ ١٣٢، وحاشية ابن

عابدين ٥/ ٣٦٧.

وأخبر عن أهل النار بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نُنظَرُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ﴾ [الجاثية / ٣٢].

- خطورة الكذب، وقبح أثره في الدنيا والآخرة؛ ففي الدنيا يكتب صاحبه عند الله كذاباً، كما ورد: (عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)^(١)، وفي الآخرة له العذاب الأليم؛ قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ مَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة / ١٠].

- وجوب الوفاء بعهد الله، والتحذير من نقضه، وقد وصف الله الفاسقين بأنهم ﴿الَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾، وقد بينت آيات أخرى أن نقض العهد مع الله من أسباب قساوة القلوب في الدنيا والطرده من رحمة الله في الآخرة، قال تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَنَاسِيَةً﴾ [المائدة / ١٣].

- تعظيم شان سفك الدماء، قال تعالى على لسان الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ فسفك الدماء داخل في الإفساد في الأرض لكنه جاء معطوفاً عليه للاهتمام بشأنه، وبيان خطورة سفك الدماء؛ فهي أول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة، وقد قال النبي ﷺ: (لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً)^(٢)، وقال عبد الله ابن عمر: "إن من ورطات الأمور التي لا تخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله"^(٣).

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم / ٥٧٤٣، ومسلم في صحيحه برقم / ٢٦٠٧، واللفظ له، عن عبد الله بن مسعود مرفوعاً.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم / ٦٤٦٩ عن عبد الله بن عمر مرفوعاً.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم / ٦٤٧٠ عن عبد الله بن عمر موقوفاً عليه.

- خطورة الكبر؛ فمعصية إبليس كان سببها الكبر، قال تعالى: ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾، فالكبر خلق باطني يجعل صاحبه يرى نفسه فوق المتكبر عليه، وبذلك يغلق على نفسه كل أبواب الخير، ويفتح أمامها جميع أبواب الشر، قال أبو حامد الغزالي: «فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزه، فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه»^(١).

- التأدب ونسبة العلم لله، فعلى الإنسان إذا لم يكن يعلم أن يكل العلم إلى خالقه؛ فالملائكة عندما جهلوا أسماء الأشياء قالوا: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ وهذا أدب وخلق عظيم حافظ عليه سلفنا الصالح؛ فكان مالك بن أنس إذا جلس مجلسه لا ينطق بشيء حتى يقول: ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾^(٢).

- الإقدام على المحرمات واقترافها ظلم، وقد حذر الله آدم وزوجه من الاقتراب من الشجرة المنهي عنها، وجعل الاقتراب منها دخول في جملة من ظلموا أنفسهم فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾.

د- الجوانب التربوية:

- الإيمان بالغيب هو الإيمان النافع، أما الإيمان بالشهادة فكل أحد يؤمن، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾^(٣) فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ [غافر/ ٨٤، ٨٥]، وعندما تظهر علامات القيامة لا يغني الإيمان، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنْتَ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام/ ١٨٥]، والتربية الإسلامية قائمة على تأصيل مبدأ الإيمان بالغيب، لذلك جاء أول

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ٣/ ٣٤٥.

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح الحنبلي ٢/ ١٠٣.

وصف للمتقين في القرآن الكريم.

- التقوى جماع كل خير، ومن حصّلها فقد استمسك من الدين بالعروة الوثقى، وأهلها هم المنتفعون بهداية القرآن حقا، ومن أفضل ما جاء في تعريفها ما ورد عن طلق بن حبيب: "التقوى عمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله، والتقوى ترك معصية الله مخافة عقاب الله على نور من الله"^(١). وقد تكرر أمر التقوى في السورة كثيرا، وما ذاك إلا لأنها رأس الأمر وصلاح القلب، وأعظم ما يعين على امتثال التكاليف.

- ليس على الداعي إلا البلاغ، أما هداية التوفيق فهي من الله وحده، وكم من أناس يستوي عندهم الإنذار وعدمه، وكم من أنبياء دعوا أقوامهم ولم يؤمن أحد قال رسول الله ﷺ: (عُرِضَتْ عَلَى الْأُمَمِ فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ)^(٢).

وفي ذلك تسلية من الله للنبي ﷺ ولكل من سلك دربه في الدعوة إلى الله، ألا يجزن أو يأسى على غير المهتدين، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَبُرَ الْكُفْرُ فَتَمَثَّلَ لَكُمْ سَوَارِكُ الْعِزَّةِ وَمَا أُولَئِكَ إِلَّا لِقَاءُ رَبِّكَ فَارْجِعْ ﴾ [الكهف/ ٦].

- القلب هو ملك الجوارح، فإن صلح صلح سائر البدن، وإن فسد حلّ الفساد على كل البدن، وقلوب المنافقين أساس بلائهم.

- خطورة النفاق وأهله على المجتمع المسلم؛ فهم العدو الحقيقي، وقد حذر القرآن منهم في كثير من السور المدنية؛ وذلك لتعرف الأمة خطرهم، وتقي شرهم.

- من خدع فعاقة خداعه راجعة إليه، وبخاصة إذا حاول خداع من لا يخدعه أحد.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم/ ٣٥١٦٠ وهناد في الزهد برقم/ ٥٢٣. قال ابن القيم: وهذا

أحسن ما قيل في حد التقوى. الرسالة التبوكية ص ١٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٥٣٧٨ ومسلم في صحيحه برقم/ ٢٢٠ عن عبد الله بن عباس.

- المخادعة والاستهزاء والإفساد في الأرض وادعاء الإصلاح، وعدم الشعور. كلها من صفات المنافقين، فليحذر المسلم الصادق منها.
- في قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ تعليم للناس وتربية لهم على أدب التعفف عن السؤال، وبيان لأهمية العمل للتكسب، قال ابن عطية: "وهذه الآية تعطي أن الله تعالى أغنى الإنسان بنعمه هذه عن كل مخلوق، فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا، فقد أخذ بطرق من جعل الله نداءً، عصمنا الله تعالى بفضله وقصر آمالنا عليه بمنه وطوله، لا رب غيره"^(١).
- إذا ترك الإنسان داءه ولم يتعده بالرعاية زاد بلاؤه وضوعفت أداؤه، قال تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾.
- الدعوة إلى الله مع جميع الناس حتى المنافق؛ فهؤلاء المنافقون وجدوا من ينصحهم بعدم الفساد، ومن يأمرهم بالإيمان، رغم صدور الكفر منهم.
- من الأساليب التربوية القرآنية، ضرب المثل؛ فالمثل القرآني يبرز المعقول في صورة المحسوس، ويجعل المسلم يعاين تفاصيل المثل بتدبره وتعقله فيهتدي بهداه، يقول الحكيم الترمذي: "اعلم بأن ضرب الأمثال لمن غاب عن الأشياء وخفيت عليه الأشياء؛ فالعباد يحتاجون إلى ضرب الأمثال لما خفيت عليهم الأشياء، فضرب الله لهم مثلاً من عند أنفسهم لا من عند نفسه ليدركوا ما غاب عنهم"^(٢).
- من سنن الله في خلقه أنه يتلى عباده بآياته وأحكامه؛ لتمييز الخبيث من الطيب، ويُعرف المحق من المبطل والصادق من الكاذب؛ فقد جعل الله المثل بالبعوضة فتنة ليضل بها قوم ويهتدي بها آخرون، وكذلك نزول السورة يكون للمؤمنين زيادة إيمان واستبشار، أما المنافق

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١/١٠٦.

(٢) الأمثال من الكتاب والسنة للحكيم الترمذي ص ١٤.

فإنها تزيده رجساً وضللاً، ومثل هذا في عدة أصحاب النار وما يلقي الشيطان وحادثة الإسراء والمعراج؛ حيث كانت فتنة لبعض الناس، والمؤمن الحق هو من يفقه حكمة الابتلاء فيسلم الله في حكمه.

- الاستدلال بالأمر العقلي والمشاهدات الحسية في القضايا الإيانية أمر مفيد في الدعوة ومحاجة المنكرين، قال الجصاص: "قد تضمنت هذه الآيات مع ما ذكرنا من التنبيه على دلائل التوحيد وإثبات النبوة الأمر باستعمال حجج العقول والاستدلال بدلائلها، وذلك مبطل لمذهب من نفى الاستدلال بدلائل الله تعالى واقتصر على الخبر بزعمه في معرفة الله والعلم بصدق رسول الله؛ لأن الله تعالى لم يقتصر فيما دعا الناس إليه من معرفة توحيده وصدق رسوله على الخبر دون إقامة الدلالة على صحته من جهة عقولنا"^(١).

- الإشارة بالثواب الأخروي وسيلة من وسائل الترغيب والتحفيز. فهذا أبلغ في نشاط المدعو ومثابرتة على العمل.

- إثبات عداوة الشيطان لآدم وبنيه، وتحذير الناس منها، وبيان منشئها وأصلها، وأنها عداوة لا يرجى لها انتهاء إلى يوم الوقت المعلوم، وما ذكرت قصة إبليس إلا لتحذير الناس من إبليس وجنده وحزبه.

- بينت الآيات فضيلة العلم وأهله، وأنه سبب تفضيل آدم على الملائكة، قال رسول الله ﷺ: (وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم)^(٢)، وقد قالوا في سبب ذلك: "لأنه سبحانه وتعالى أزمها ذلك في آدم عليه السلام لما أخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة، فسألته على جهة الاستعظام لخلقه أن خلقاً يكون منهم الفساد وسفك الدماء: كيف يكون خليفة؟ فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقال لآدم عليه السلام: أنبئهم بأسائهم. فلما أنبأهم

(١) أحكام القرآن للجصاص ١/٣٥، ٣٦.

(٢) أخرجه أبو داود برقم/ ٣٦٤١ والترمذي في سننه برقم/ ٢٦٨٢ وابن ماجه برقم/ ٢٢٣ وسنده حسن.

تصاغرت الملائكة فرأت فضل آدم، فألزمها الخضوع والسجود لفضل العلم، فسجدت فتأدبت، فكلما ظهر علم في بشر خضعت له^(١).

- لإهباط آدم وزوجه إلى الأرض حكم جليلة وغايات عظيمة؛ فبه حدث التكليف، ولتتخذ الله من ذريته أولياء يحبهم ويحبونه، ولتظهر آثار أسماء الله الحسنى فيهم؛ فهو الغفور الرحيم التواب، وليؤمنوا بالغيب بعد أن كانوا من أهل المشاهدة، وليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الطيب في دار كرامته، وليظهر علمه الذي أخبر به ملائكته حيث يقوم بنو آدم بواجب الخلافة لله كما أمر. ولن تظهر في الأرض أدلة ربوبيته وإلهيته إلا بوجود الخلق فيها فكان إهباطهم إليها.

- المسؤولية في الإسلام مشتركة بين الرجل والمرأة؛ فقد أكل آدم وحواء من الشجرة المحرمة معاً، وتابا معاً، فلم تكن حواء سبب ضلال آدم، وإنما كان الأمر بينهما مشتركاً، والتوبة كذلك.

- وكل إنسان في الإسلام مسؤول عن فعله؛ فعندما خالف آدم الأمر وأكل من الشجرة تلقى من ربه كلمات التوبة فلهج بها لسانه هو وزوجه فتاب الله عليهم، أما الزعم بأن المسيح عليه السلام صلب من أجل خطيئة آدم ليرفع عن الدنيا الشقاء فهذا كلام يتناقض مع العقل والنص والتاريخ؛ ذلك أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن الصلب لن يجعل الله يعفو عن البشر جميعاً، إن القاعدة المستقرة في الفطر السليمة أن كل إنسان محاسب عن عمله.

المناسبة بين المقدمة ومحور السورة:

سبق أن ذكرنا أن المقدمة تنقسم إلى مقصدين رئيسين، وقد أثرنا إدماجهما لقوة الصلة بينهما؛ ولأن في المقصد الثاني عودة إلى قضايا القصد الأول. وفي كليهما صلة بمحور السورة.

فقد استفتحت السورة بالحديث عن القرآن الكريم وموقف الناس تجاهه، وقسمت

(١) انظر: فيض القدير للمناوي ٢/ ٣٩٢ والجامع لأحكام القرآن ١/ ٤٣٠.

الناس إلى ثلاث طوائف: مؤمنين وكافرين ومنافقين، وقد رجحنا في ثنايا التفسير أن الحديث في كل كان عن أهل الكتاب مؤمنهم وكافرهم، وهذا يعد توطئة للحديث المطول عن منافقيهم وكفارهم في المقطع الأول من السورة.

وقد نزلت السورة في بداية الهجرة وقيام الدولة المسلمة واحتكاكها باليهود لأول مرة، وكذلك مع بروز ظاهرة النفاق بعد بدر مما يستلزم تحذير الجماعة الناشئة من هؤلاء.

والحديث عن القرآن وهدايته له تعلق قوي بخط السورة؛ فلن يكون هناك خلافة إلا بهداية، ولن تكون هداية إلا بالمنهج، وهذا هو المنهج؛ ولذلك تكرر الحديث عنه في المقدمة من حيث بيان هدايته ومواقف الناس منها، ومن حيث نفي الريب عنه أولاً وإثبات ذلك بالدليل الذي يتحداهم به ثانية، وجاء ذلك مرتبطاً بالحديث الموثق عن القرآن في آيات السورة. فهو الكتاب المصدق لما معهم كما في آية [٨٩] ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم آية [١٠١]، وإن منهم لفريقاً يتلون حقه تلاوته ويؤمنوا به آية [١٢١]، وهذا الكتاب هو الحق الذي نزل بالحق، آية [١٧٦]، وهو دستور الخلافة الذي يهدى المختلفين للحق آية [٢١٣]، وتلاوة القرآن على الرسول بالحق آية [٢٥٢]. وهذا الكتاب موصول الصلة بمواعظ الأنبياء الأولين، ودعوة أبي الأنبياء لآمة الوراثة في الدين آية [١٢٩]، ولذلك دعا أهل الكتاب للإيمان به آية [٤١] وبين أن هذا هو طريق الاهتداء لهم في آية [١٣٧] ثم ختمت السورة بالإيمان به في آية [٢٨٥].

ولن تتحقق هداية القرآن إلا للمتقين كما جاء في أول الآيات، وقد بينت الآية أوصافهم ثم ذكرت في المقصد الثاني أوصاف الفاسقين الذين ابتعدوا عنها وجانبوها، والتقوى هي وصية الله لبني إسرائيل آية [٤١]، وخوف الله من ارتاب في القرآن وحذره باتقاء النار، وبين أن عبادته سبحانه توصل للتقوى في آية [٢١] وهي أيضاً متكررة في السورة تكرراً واضحاً مع الأوامر الربانية للمسلمين، وهذا يدل على أن هداية القرآن وتطبيق أحكامه لن تكون إلا للمتقين.

وحديث القرآن عن خلافة آدم هو التطبيق العملي والنموذج الأول للخلافة في الأرض، وقد ناسب هنا أن يأتي الحديث عن الخلافة لا عن تفصيل بدء الخلق الذي تكفلت به آيات

أخرى؛ لأن هذا هو المناسب لمحور السورة، وذكرت الآيات أن الخلافة لا يستقيم معها الإفساد في الأرض، وارتبط هذا بما جاء في أول السورة من وصف المنافقين بأنهم المفسدون وبالتالي فلا يصلحون لإقامة منهج الله في الأرض.

وجاء الحديث في ثنايا القصة عن العلم، وهو رمز الخلافة وعنوانها؛ فبالعلم كان تفضيل آدم على الملائكة، وقد جاء وصف الله بالعلم في السورة في أكثر من آية كما في آيات [٩٥] و[١١٥] و[١٢٧] و[١٥٨] و[١٨١] و[٢١٥] و[٢٢٤] وغيرها كثير؛ وذلك ليعلم المؤمن أنه لن يصل إلى العلم إلا بتعليم الله إياه، كما قالت الملائكة، وليوقن أنه لن يحيط بشيء من علمه تعالى إلا بما شاء هو كما في آية الكرسي. وقد نعت الآيات على اليهود علمهم الذي لم ينتفعوا به فكتموا الحق وهم يعلمون، وبينت في هذا المقطع أن منافقيهم لا يعلمون، ولذلك عندما أمرت المؤمنين قرنت الأمر بالعلم مع الأمر بالتقوى كما في آيات [١٩٤] و[١٩٦] وغيرها.

وأصول العقيدة المذكورة في هذه المقدمة من الإيمان بالله وعبادته وعدم اتخاذ الأنداد معه، والإيمان برسوله وبالكتاب الذي نزل عليه وباليوم الآخر والغيب عموماً مرتبط كل هذا بمقاصد السورة من حيث بيان النموذج السلبي الذي كفر بالله وعاند في الغيبات ولم يؤمن بالكتاب الحق ولا بالرسول الذي جاء بالحق، وفي مقابل ذلك الأوامر الاعتقادية التي كلف بها أهل الإيمان في هذه السورة.

المحور الأول: بنو إسرائيل ومبررات عزلهم عن القوامه والخلافة

وفيه مقدمة وأربعة مقاطع.

المقدمة (تذكير وعتاب) من الآية (٤٠) إلى الآية (٤٨)

قال تعالى: ﴿يَبْنَئِ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَازِهْبُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْرَوْا بِعَاهِدِي فَمِنَّا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْسِنُوا أَلْحَقَ بِالْبَاطِلِ وَتَكُونُوا أَلْحَقَ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ * أَنَا مُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَسْؤُونَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَتَلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَىٰ رَجْعَتِهِمْ ﴿٤٦﴾ يَبْنَئِ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَإِنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

تحدث المقطع السابق عن استخلاف آدم وذريته، ونعم الله عليهم في الدنيا بإتيان الهداية منه سبحانه، ثم ابتدأت الآيات تذكر تفاصيل استخلاف بني إسرائيل؛ حيث إنهم من ورثة الوحي، وقد أورثهم الله الأرض ليعمروها ويقوموا بواجب الخلافة فيها، ولذلك فإن هذا المقطع يذكرهم بعهدهم الذي عاهدوا الله عليه، وبنعمة الله عليهم، وتفضيله لهم، وتدعوهم للوفاء بعهدته وتذكر لهم تفاصيله، مع ترغيب في الوفاء وتخويف من المخالفة.

وقال الألوسي في مناسبة خطاب بني إسرائيل لما قبله: "وجعله سبحانه بعد قصة آدم، لأن هؤلاء بعد ما أوتوا من البيان الواضح والدليل اللائح، وأمروا ونهوا وحرصوا على اتباع النبي الأمي الذي يجذونه مكتوباً عندهم ظهر منهم ضد ذلك، فخرجوا عن جنة الإيوان الرفيعة، وهبطوا إلى أرض الطبيعة، وتعرضت لهم الكلمات إلا أنهم لم يتلقوها بالقبول ففات

منهم ما فات، وأقبل عليهم بالنداء ليحركهم لسماع ما يرد من الأوامر والنواهي^(١).

التفسير الإجمالي للمقطع:

يبدأ هذا المقطع بتذكير بني إسرائيل بنعم الله الكثيرة التي أنعمها عليهم وبيان موقفهم منها، وذلك في عرض تاريخي لما كان منهم مع أنبياء الله ورسله وما كان منهم من اجترأ على الله تعالى.

وإسرائيل هو نبي الله يعقوب^(٢) وهو مركب من: (إسرا) وهو العبد أو الصفوة أو الإنسان أو المهاجر، و(ايل) اسم من أسمائه تعالى^(٣)، وقد ذكّرهم الله تعالى باسم أبيهم الذي هو عنوان فخرهم ومجدهم، وعادة ما يأتي النداء بـ(بني إسرائيل) في مقام الترغيب والتذكير بالنعم والأصل النبوي.

والآيات تستجيش فيهم روح الإيمان والانتساب إلى النبي الكريم ابن الكريم ابن الكريم وتذكّرهم بنعم الله إجمالاً وبما يترتب على ذلك من الوفاء بالعهد الذي في كتبهم من عبادة الله وحده والإيمان برسوله، وفي مقابل هذا فإن الله يوفي لهم بما وعدهم من النصر والعلو ليكون خوفهم منه وحده لا من بعضهم البعض.

وقد ورد هذا الوعد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ

(١) روح المعاني للألوسي ١/ ٢٤١.

(٢) أخرجه عبد بن حميد في تفسيره عن ابن مسعود وحسنه ابن حجر في الفتح ٦/ ٣٧٣، وعليه إجماع المفسرين والمؤرخين.

(٣) انظر: روح المعاني للألوسي ١/ ٢٤١.

سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ [المائدة: ١٢]

ثم انتقل بهم إلى الحديث على عهد خاص وهو الإيمان بالقرآن الذي نزل - كما قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨] وحذّرهم من أن يكونوا أول الكافرين مسارعة إلى الكفر فيصيروا قدوة لغيرهم. ثم خص العلماء بالألا يستبدلوا بآيات الله عرضاً يسيراً من أعراض الدنيا؛ فإنه وإن كثر فهو بجوار نعيم الآخرة قليل، وأمرهم بأن يتقوه وحده، وألا يفعلوا واحداً من أمرين بهما إضلال الناس:

أولها: إظهار الباطل في صورة الحق، والخلط بينهما وذلك بتأويل النصوص وإلقاء الشبه.

ثانيها: كتمان الحق وجحده وإخفاؤه مع العلم به، فقد كانوا يكتُمون صفة النبي ﷺ.

ثم دعاهم إلى الصلاح بإقامة الصلاة حق الإقامة والإصلاح بأداء الزكاة كما يصلي المسلمون ويزكون ويركعون ويسجدون.

وخاطب القرآن علماءهم موبخاً لهم في أمرهم للناس بالخير واتباع النبي ﷺ ونسيان أنفسهم؛ فقد كان الواحد منهم يقول لصهره ولذوي قرابته ولمن بينه وبينه رضاع من المسلمين: اثبت على هذا الدين وما يأمرك به محمد فإنه حق، فكانوا يأمرون بذلك ولا يفعلونه^(١)، وهذا يدل على خلل في العقل.

وإذا كانوا يرون أن هذه التكاليف شاقة على أنفسهم بسبب إدمان الشهوات فإن الآيات تبين لهم طريقة تقوية عزمهم وذلك بالاستعانة بالصبر والصلاة؛ فبالصبر يحجزون أنفسهم عن الحرام، وبالصلاة ينتهون عن المنكر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] والصلاة شكر، والإيمان صبر وشكر، وإن إقامة الصلاة ذات

(١) انظر: العجائب في بيان الأسباب لابن حجر/ ١/ ٢٥٢.

الخسوع والخضوع لشديدة شاقة إلا على الخاشعين، ويجوز أن يكون لجميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل ونهوا عليها من قوله ﴿أذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾^(١).

ثم ذكرت الآيات أوصاف هؤلاء الخاضعين الخاشعين وهم الذين يوقنون ويعتقدون لقاء ربهم به يوم العرض عليه، وأنهم عائدون لينالوا ثواب عملهم.

وتعود الآيات مرة أخرى تذكرهم بنعم الله على سبيل التفصيل بعد الإجمال فتكرر لهم نفس النداء، ويذكرهم بالنعم الجزيلة عليهم، وفي النداء الأول طالبهم بالعبادة والوفاء بالعهد، أما النداء الثاني فطالبهم بشكر النعمة التي أنعم بها عليهم؛ حيث فضّلهم على عالمي ذلك الزمان^(٢)، فجعل فيهم النبوة والملك وآتاهم ما لم يؤت أحد من كانوا في وقتهم.

ثم أمرهم باتقاء يوم القيامة الذي لا تقضي أي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل من الكفار شفاعة لأي أحد، ولا يؤخذ من أي نفس كافرة فداء، قال تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ٧٠] ولا تجد من ينصرها، وبهذا تُسدّد أمامها كل الأبواب قال أبو السعود: "وكأنه أريد بالآية نفي أن يدفع العذاب أحد عن أحد من كل وجه محتمل"^(٣).

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقدية:

- أهل الكتاب من اليهود والنصارى مطالبون بالإيمان بسيدنا محمد ﷺ وبكل ما جاء به، ولو آمنوا بالله واليوم الآخر ولم يؤمنوا بالنبي محمد فلا فائدة في إيمانهم؛ وقد آتاهم الله البينات على صدقه في كتبهم، وقد أكد الرسول ﷺ هذا الحكم بالقسم فقال: (والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة؛ يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن

(١) انظر: الكشاف للزمخشري ١/ ١٦٣.

(٢) رواه عبد الرزاق في التفسير بسند صحيح عن قتادة ١/ ٤٥، ورواه عنه: الطبري ٢/ ٢٤.

(٣) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ١/ ٩٩.

بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار^(١).

- ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ يدل على عدم قبول أي شفاعاة يوم القيامة، ولكن وردت آيات أخرى تفيد أن الشفاعاة المنفية هي الشفاعاة للكفار، والشفاعة بدون إذن المولى تبارك وتعالى. قال تعالى في حق الكفار: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر/٤٨]، وفي الشفاعاة بدون إذن قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [٢٥٥]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ أِذْنُ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه/١٠٩].

أما الشفاعاة للمؤمنين بعد إذن المولى ورضاه فهي ثابتة لنبيينا محمد ﷺ ولإخوانه من الرسل، ومنها ما اختص به وحده، والشفاعة ثابتة أيضاً لبعض المؤمنين والشهداء وغيرهم، والنصوص في ذلك كثيرة.

ب- الأحكام الشرعية :

- دل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآبَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ على حرمة طلب العلم الديني من أجل الدنيا؛ فهذا من قبيل الاشتراء بآيات الله ثمناً قليلاً، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: (من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة)^(٢).

- وقد فرّع المفسرون على هذه المسألة الكلام على حكم أخذ الأجرة على تعليم القرآن؛ فمذهب مالك والشافعي وأحمد في رواية: جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، ودليلهم قول النبي ﷺ: (إن أحق ما أخذتم عليه أجرأ كتاب الله)^(٣).

ومذهب أبي حنيفة ورواية عن أحمد عدم جواز الاستجار على الطاعات كالإمامة والأذان

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ١٥٣.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه برقم/ ٧٨، وأحمد في مسنده برقم/ ٨٤٣٨، وأبو يعلى في مسنده برقم/ ٦٣٧٣، وأبو داود في سننه برقم/ ٣٦٦٤، وابن ماجه في سننه برقم/ ٢٦٠، قال الحافظ العراقي في تحريج الإحياء: إسناده جيد. المغنى عن حمل الأسفار في الأسفار ١/ ٣٨.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٥٧٣٧.

وتعليم القرآن ووافقهم عطاء وإسحق والزهري، إلا أن متأخري الأحناف أجازوا أخذ الأجر؛ قال في الهداية "وبعض مشايخنا استحسنا الاستئجار على تعليم القرآن اليوم؛ لأنه ظهر التواني في الأمور الدينية ففي الامتناع تضييع حفظ القرآن، وعليه الفتوى"^(١).

- في قوله: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ دليل على فرضية الزكاة؛ لأن الأمر في أصل إطلاقه يفيد الوجوب. وقد جاء الأمر بإيتائها مجملاً لكن فصلت السنة مقاديرها وأصنافها.

- استنبط جماعة من الفقهاء من قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ أن الإيتاء الذي هو تملك الفقير شرط لصحة الزكاة، وبالتملك تنقطع صلة المزكي بالمال، قال الكاساني: "وعلى هذا يخرج صرف الزكاة إلى وجوه البر من بناء المساجد، والرباطات والسقايات، وإصلاح القناطر، وتكفين الموتى ودفنهم أنه لا يجوز؛ لأنه لم يوجد التملك أصلاً، وكذلك إذا اشترى بالزكاة طعاماً فأطعم الفقراء غداء وعشاء ولم يدفع عين الطعام إليهم لا يجوز لعدم التملك"^(٢).

- استدل بعض العلماء بقوله تعالى: ﴿وَأَزْكُوا مَعَ الزَّكَاةِ﴾ على وجوب صلاة الجماعة؛ قال ابن تيمية: "وأما الجماعة فقد قيل: إنها سنة، وقيل: إنها واجبة على الكفاية، وقيل: إنها واجبة على الأعيان. وهذا هو الذي دل عليه الكتاب والسنة فإن الله أمر بها في حال الخوف في حال الأمن أولى وأكد. وأيضاً فقد قال تعالى ﴿وَأَزْكُوا مَعَ الزَّكَاةِ﴾ وهذا أمر بها"^(٣).

على أن جماعة من الفقهاء منهم الحنفية في قول والشافعية في قول وأكثر المالكية إلى أن الجماعة سنة مؤكدة، والرواية الأخرى عند الحنفية والشافعية أنها واجبة وجوب عين، وهذا مذهب الحنابلة^(٤).

(١) الهداية للمرغيناني ٣/ ٢٤٠.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني ٢/ ٣٩.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٣/ ٢٣٩.

(٤) انظر: حاشية ابن عابدين ١/ ٤٥٧، حاشية الجمل على شرح المنهج ١/ ٤٩٩، حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ١/ ٣١٩، شرح منتهى الإرادات للبهوتي ١/ ٢٥٩.

- الركوع من فرائض الصلاة، لقوله تعالى: ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [الحج / ٧٧].

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية :

- كتمان العلم كبيرة من الكبائر^(١)، قال رسول الله ﷺ: (من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة)^(٢)، والظاهر أن ذلك ليس على وجه العموم وإنما يرتبط بالمصلحة في الكتمان أو الإظهار، لكن الأصل إظهار العلم إلا لمصلحة.

- خلق الصبر مما يعين على الشدائد، وقد جاء في القرآن مقروناً بالصلاة في كثير من المواضع، والصبر مع الصلاة من أعظم ما يعين على مصالح الدنيا والدين؛ قال تعالى: ﴿وَأَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّكِرِينَ﴾ (١١٤) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١١٥)﴾ [هود / ١١٤، ١١٥].

- الخشوع روح الصلاة، وهو في الأصل من أعمال القلب ومعناه السكون، ويظهر أثر خشوع القلب على الجوارح فتسكن، وصلاة بلا خشوع لا تؤثر، وقد علق الله الفلاح على الخشوع في الصلاة فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)﴾ [المؤمنون / ١، ٢].

د- الجوانب التربوية :

- الوعيد الشديد على من يأمر الناس بالطاعة والخير وينسى نفسه، وفي الحديث: (مثل العالم الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه)^(٣).

- (١) ذكره الهيثمي في الزواج عن اقتراف الكبائر. الكبيرة الرابعة والأربعون / ١٧٤.
- (٢) رواه الحاكم في المستدرک برقم / ٣٤٦ وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، ورواه ابن حبان في صحيحه برقم / ٩٦ عن عبد الله بن عمرو بن العاص.
- (٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم / ١٦٨١. قال الهيثمي: ورجاله موثوقون. مجمع الزوائد / ١ / ١٨٥ وحسنه المناوي في التيسير / ٢ / ٣٧١.

ومخالفة القول للفعل عظيمة من العظائم. ولهذا جاء التعقيب القرآني على هؤلاء ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ وذلك دليل على أن الذي يخالف قوله فعله لا عقل له.

- مسؤولية العالم أشد من الجاهل؛ فإنه إن فرط يلحقه الذم أكثر من الجاهل، قال تعالى:

﴿ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾.

- الصلاة من أعظم ما يعين على مكابدة الأمور؛ إذ هي الصلة بالله التي تهون على العبد كل مصاعب الحياة وقد ورد: (وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى)^(١). والآيات الواردة تدل على تعظيم قدر الصلاة؛ فقد كانت مفروضة على جميع الأمم، وكانت أول ما أوصى به الله نبيه موسى عند تكليفه بالوحي فقال: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه/ ١٤].

- تذكير الناس بنعم الله يقوي داعي الشكر في النفس، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ لَكَانُوا فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم/ ٥] وأيام الله نعماءه^(٢)، وامثل موسى عليه السلام للأمر وذكر قومه بنعم الله عليهم من الإنجاء من آل فرعون ثم قال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم/ ٧] فدل هذا على أن المقصود بالتذكير هو القيام بواجب الشكر لله واهب النعم.

- دل قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ على أن من علامات أهل العصيان أن تكون الطاعة كبيرة وثقيلة عليهم، وشاهد هذا من كتاب الله قوله تعالى: ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الشورى/ ١٣] فمن ثقل عليه ما يحبه الله فهو في معرض الذم.

(١) رواه أبو داود في سننه برقم/ ١٣١٩، وأحمد في مسنده برقم/ ٢٣٣٤٧ عن حذيفة وحسن الحافظ ابن حجر إسناده في فتح الباري ٣/ ١٧٢.

(٢) وقد ورد هذا في نص حديث رسول الله الذي ذكر فيه قصه موسى والخضر وهو بلفظه عند مسلم في صحيحه برقم/ ٢٣٨٠.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

سبق بيان أن محور السورة يدور حول أمرين؛ أولهما: مبررات عزل بني إسرائيل عن القوامة والاستخلاف في الأرض، وهذا المقطع مرتبط بالمحور الأول ارتباطاً وثيقاً؛ فهو يتحدث عن نقض اليهود العهد مع الله، وعن أمرهم الناس بالبر ونسيانهم أنفسهم، وهي وغيرها أمور تبين أنهم لم يعودوا جديرين بحمل الأمانة.

وهو مرتبط أيضاً بالمقطع الثاني في السورة ارتباط الضد بال ضد؛ فمن صفات أهل البر والتقوى أنهم يوفون بعهدهم إذا عاهدوا، والتقوى لا تجعل كلام المرء مخالفاً لفعله.

والصبر والصلاة أيضاً من صفات أهل البر، والرجوع إلى الله يوم القيامة جاء التأكيد عليه في أول السورة وفي آخرها، وفي آخر نزلت في السورة كلها، ليكون ذلك يقيناً في قلب كل مؤمن.

المحور الأول: بنو إسرائيل ومبررات عزلهم عن القوامة والخلافة

المقطع الأول: أحوال بني إسرائيل مع موسى عليه السلام (٤٩-٧٤)

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُم سَوَاءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُم الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُم وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَقَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَتَقَرَّبُ إِلَيْكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ يَا تُخَاذِكُمْ الْعِجْلُ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْنَاكُم بِالصَّعِقَةِ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَلْنَا عَلَيْكُمُ الْعَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلًّا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاذْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَارِعُوا إِلَىٰ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْمِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَنْتُمْ تُبَدِّلُونَ الَّذِي هُوَ آدَنُ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِعَصَابِ مِنَ اللَّهِ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكُمْ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَسْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ مِنَ ءَٰمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلْ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ

ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَلْنَهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنَنْجِدْنَا هُرُوقًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا آذِغْ لَنَا رَبِّكَ بَيْنَ يَدَيْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَكَ ذَلِكَ فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا آذِغْ لَنَا رَبِّكَ بَيْنَ يَدَيْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا آذِغْ لَنَا رَبِّكَ بَيْنَ يَدَيْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْعَى الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْكَنَ جِثَّتْ بِالْحَقِّ فَذَبُّوْهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَاهُ ثُمَّ فِيهَا وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُعْجِبُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لِمَا يُنْفَجِرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لِمَا يَشْفِقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لِمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴿

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

هذا المقطع بطوله يتحدث عن نعم الله على بني إسرائيل بشكل مفصل، بعد أن ذكرهم بها إجمالاً في المقطع السابق في قوله: ﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [٤٠] و [٤٧]، وخوفهم من عاقبة كفرانها في قوله: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةً وَلَا يُؤَخِّدُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [٤٨] [٤٨].

وجاء في هذا المقطع ذكر النعم تفصيلاً من أول الآية [٤٩] حتى الآية [٥٨] ثم تكلم عن موقفهم من نعم الله وتبديلها في قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [٥٩]. وجاء بعد ذلك تفصيل كفرانهم للنعم، ومخالفاتهم مع نبي الله موسى، وتباطؤهم في تنفيذ الأمر الإلهي، واتهامهم للنبي بالجهل مما كان سبباً في قساوة قلوبهم وقد أخذ هذا القدر من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَى مُوسَى

﴿لِقَوْمِهِ﴾ [٦٠] إلى نهاية الربع في قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [٧٤]. فهذا المقطع تفصيل للإجمال الوارد في المقطع السابق.

التفسير الإجمالي للمقطع:

بدأت الآيات بالحديث تفصيلاً عن جملة نعم الله على بني إسرائيل الأولين، وقد امتن الله بها على المتأخرين، وكما يقول السعدي: "نعمة الله على المتقدمين منهم، نعمة واصله إلى المتأخرين، والنعمة على الآباء، نعمة على الأبناء، فخطبوا بها، لأنها نعم تشملهم وتعمهم"^(١)، وبيان هذه النعم على النحو التالي:

١ - أن الله تعالى نجى آباءهم من فرعون مصر وجنده؛ حيث كانوا يذيقونهم ويديمون عليهم العذاب الشديد، وذلك بتذبيح الأبناء لقطع النسل واستبقاء النساء ليصرن خدماً لأهل مصر، وفي كلا الأمرين: العذاب والإنجاء بلاء عظيم، قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

٢- وثاني هذه النعم فلق البحر الأحمر لهم ليعبروا من مصر في أمن وسلامة وليغرق فرعون وجنده حين عبورهم وهم يشاهدون غرقه، قال تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٣]، وكان ذلك يوم عاشوراء^(٢).

٣- ومع رؤيتهم لهذه النعمة العظمى إلا أنهم عبدوا العجل الذهبي الذي صنعه السامري وقت أن كان موسى ذاهباً للقاء ربه في طور سيناء ليتلقى عنه التوراة، فظلموا أنفسهم بعبادة غير الله ولكن من الله عليهم ومحا جرمهم لكي يشكروه.

٤- ومن النعم الدينية أيضاً إنزال التوراة مكتوبة في ألواح ليفرقوا بها بين الحق والباطل فيهدتوا قال

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن سعدي ص ٥٣.

(٢) والحديث في ذلك رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٣٧٢٧ ومسلم في صحيحه برقم/ ١١٣٠. عن ابن عباس.

تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ عَآئِنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذُكْرًا لِلْمُنْقِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٨] (١).

٥ - ومنها أيضاً العفو عنهم، وهذه نعمة أخرى غير السابقة؛ إذ أنهم بعبادتهم العجل قد ظلموا أنفسهم فمن الله عليهم بنعمة أخرى وهي قبول توبتهم، وذلك بأن يقتل بعضهم بعضاً حتى يكون لهم الخيرية عند الله يوم القيامة؛ حيث يتقبل توبتكم ويعفو عن بقيتكم بعفوه وكرمه سبحانه.

٦ - ومن نعم الله عليكم ما حصل لكم عندما ربطتم إيمانكم بالله برؤيته جهرة فأصابتكم من ذلك صاعقة أهلكتكم وطفق الأحياء ينظرون للموتى، لكن الله بعثكم (٢) وأحياكم لتقوموا بواجب الشكر له.

٧ - واذكروا وقت أن صار الغمام ظلّة عليكم وقت التيه أربعين سنة ليقمكم الحر، وكذلك أنزل المولى المن وهو طعام حلو مثل العسل، والسلوى وهو طائر طيب الطعم يشبه الساني، وقال لهم الله كلوا الطيب واشكروا. فأكلوا وما شكروا، فما ظلموا بذلك إلا أنفسهم بانقطاع الفضل عنهم.

٨ - واذكروا إذا أمركم الله بدخول بيت المقدس وقال: اطعموا ما شئتم وادخلوا بابها ساجدين لله داعين له أن يحط عنكم خطاياكم فإنه يزيد المحسنين من فضله، لكنكم بدلتهم وخالفتهم فنزل عليكم العذاب من السماء بسبب فسقكم، عن أسامة قال: قال رسول الله ﷺ (الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل) (٣).

(١) فالفرقان معطوف على التوراة من باب عطف الصفات. انظر: معاني القرآن للزجاج ١/ ١٣٤.

(٢) الإحياء عند جمهور المفسرين على حقيقته، ويرى آخرون أن المراد بالبعث كثرة النسل، أي أنه بعد أن وقع فيهم الموت بشتى الأسباب وظنّ أنهم سينقرضون، بارك الله في نسلهم ليُعيد الشعب بالبلاء السابق للقيام بحق الشكر على النعم التي تمتع بها الآباء الذين حل بهم العذاب بكفرهم لها. انظر: تفسير المراغي للشيخ أحمد مصطفى المراغي ١/ ٧١.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٦٥٧٣ ومسلم في صحيحه - واللفظ له - ورقمه/ ٢٢١٨.

٩ - ثم ذكرتهم الآية بنعمة أخرى وقت أن كانوا عطاشى في التيه، و" ضرب لهم موسى الحجر فصار فيه اثنتا عشرة عيناً من ماء، لكل سبط منهم عين يشربون منها"^(١) وأمرهم الله أن يأكلوا المن والسلوى ويشربوا من هذا الماء ولا يتهادوا في الفساد.

١٠- ومع هذا الرغد من العيش فإنهم تبطروا وملّوا وطلبوا الأدنى من الطعام قائلين لن نصبر على طعام واحد، وطلبوا البقول مثل القثاء والثوم والعدس والبصل، فعجب موسى عليه السلام من طلبهم واستنكر أن يطلبوا الأنواع الدنيئة ويتركوا الطعام الطيب ثم أمرهم بالنزول إلى أي مصر زراعي ليجدوا فيه طلبهم.

وقد عاقبهم الله على كفرهم النعم واستهزائهم بآيات الله وذلك بأن حاق بهم الذل من خارجهم والهوان من داخل نفوسهم ورجعوا بغضب من الله بسبب أربعة أمور مرتبة على شناعتها؛ الأشد فالشديد:

وأولها: كفرهم بآيات الله المكتوبة، وكفرهم بآلائه ونعمه التي أنعم بها عليهم.

وثاني هذه الأمور: قتلهم الأنبياء بلا خطأ أو تأويل أو شبهة، بل كانوا عامدين عالمين بشناعة هذا الجرم وقبحه، وثالثها العصيان وفعل المحظورات وتعدي المأمورات وظلم النفس، ثم ختم جرائمهم باعتدائهم المستمر على الناس.

وليس هذا العذاب خاصاً ببني إسرائيل فحسب، بل إن سنة الله الكونية اقتضت أن: المؤمنين بالنبي محمد ﷺ واليهود والنصارى والذين تركوا دينهم وأسلموا لا خوف عليهم في الآخرة ولا يجزون على ما في الدنيا طالما آمنوا وعملوا الصالحات. قال تعالى ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ [النساء/ ١٢٣]. فلو تابوا وعملوا الصالحات لتاب الله عليهم، والآية تفتح لهم ولغيرهم أبواب الأمل في رحمة الله تعالى.

(١) رواه الطبري في تفسيره عن ابن عباس ٢/ ١٢٠ بسند صحيح.

ولكي لا يصابوا باليأس والقنوط بسبب ما توعدهم الله من العذاب على جرائمهم فإن الله ذكرهم ببعض ما استحقوا بسببه العقوبة لولا رحمته؛ فقد أخذ الله منهم الميثاق فأبوا فرجع الطور أمامهم قال تعالى ﴿ وَإِذْ نَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ [الأعراف: ١٧١] ثم أمرهم الله تعالى أن يأخذوا التوراة بقوة واجتهاد في العمل، وأن يتدبروا ما فيها كي يصلوا إلى التقوى لكنهم عرضوا عن القبول، ولولا فضل الله ورحمته لهلكوا في الدنيا.

وقد علموا ما كان من شأن آبائهم حيث فرض الله عليهم الراحة في يوم السبت إحياء للدين في نفوسهم وتخفيفاً لشدة نهمهم في الدنيا، لكنهم ارتكسوا في حماة المعاصي وتحايلا على النهي فصاروا كالقردة والخنازير في الصغار والذلة والمنزلة^(١) فكان ذلك عبرة زاجرة لمعاصريهم ولمن جاء بعدهم، وهداية للمتقين الذين يتنفعون بالعظات.

وما كان أمر الاعتداء في السبت هيناً؛ إذ هو اعتداء على محارم الله، وتفريط في كتاب الله الذي أمروا بأن يتفرغوا له يوم السبت ويقوموا بحقه، لكنهم فرطوا، فجاء ذكر القصة هنا مخوفاً من مغبة التفريط في كتاب الله، والناظر إلى آيات قصة السبت في سورة الأعراف يجد الارتباط بينها وبين آيات الكتاب حيث جاء بعدها مباشرة قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يَمَسُكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾[❖] وَإِذْ نَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ

(١) قال مجاهد: لم يمسخوا قردة، ولم تمسخ صورهم، وإنما مسخت قلوبهم، فلا تقبل وعظاً، ولا تعي زجراً، وهو مثل ضرب الله لهم، كما مثلوا بالحمار يحمل أسفاراً، في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة: ٥]. رواه الطبري عنه. والجمهور على أن مسخوا قردة وخنازير حقيقة ثم ماتوا بعد ثلاثة أيام. انظر: جامع البيان الطبري ١٧٣/٢ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٧١/٢ وروح المعاني للألوسي ١/٢٨٣.

نُفُقُونَ ﴿٧١﴾ ﴿[الأعراف: ١٦٩-١٧١].

ثم تذكر الآيات أمر البقرة التي تقص طرفاً من مواقفهم مع نبي الله موسى مما يبين قسوتهم واستهزائهم وتنطعهم في الدين ومخالفة الأمر، وتبدأ بتذكيرهم بأمر موسى لأسلافهم أن يذبحوا بقرة، فاستهزؤوا به ورموه بالسفه فقال: أعوذ بالله أن الجأ إلى السخرية في أمر وارد عن الله تعالى!

فلما رأوا الأمر كذلك ألحفوا في السؤال فسألوا عن وصفها، فأجابهم بأنها ليست كبيرة مسنة ولا صغيرة بكرة بل هي وسط بين هذا وذاك وأمرهم بالامتنال بلا تكؤ، لكنهم سألوا مرة أخرى عن لونها فأجابهم بأنها شديد الصفرة تسر من نظر إليها. ومع هذا التحديد الدقيق فإنهم لم يكتفوا بل طلبوا أوصافاً أخرى معتذرين باشتباه البقر واختلاطه عليهم، وبينوا أنهم سيهتدون إن شاء الله فأجابهم بأنها بقرة ليست مدللة بالعمل في حرث الأرض وسقيها، وهي سالمة من العيوب لا لون فيها إلا الصفرة، فعندئذ قالوا: الآن جئتنا بالحقيقة الظاهرة فذبحوها بعسر وقلة مبادرة وتشبيط لأمر الله. قال ابن عباس "لو ذبحوا أي بقرة أرادوا لأجزائهم، ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم"^(١).

لماذا الأمر بذبح البقرة تحديداً؟

أشار جمع من المفسرين إلى علة الأمر بذبح البقرة وحكمة ذلك، ومن هؤلاء الإمام الماوردي حيث قال: وإنما أمر - والله أعلم - بذبح البقرة دون غيرها، لأنها من جنس ما عبده من العجل، ليهون عندهم ما كانوا يرونه من تعظيمه، وليعلم بإجابتهم زوال ما كان في نفوسهم من عبادته"^(٢).

(١) رواه الطبري ٩٨/٢ وابن أبي حاتم ٢١٥/١، قال ابن كثير: إسناده صحيح، وقد رواه غير واحد عن ابن عباس. وكذا قال عبيدة، والسدي، ومجاهد، وعكرمة، وأبو العالية وغير واحد. تفسير القرآن العظيم ٢٩٨/١.

(٢) النكت والعيون للماوردي ١٣٧/١.

وقريب من هذا ما ذكره أبو حيان بقوله: "وإنما اختص البقر من سائر الحيوانات لأنهم كانوا يعظمون البقر ويعبدونها من دون الله، فاختبروا بذلك، إذ هذا من الابتلاء العظيم، وهو أن يؤمر الإنسان بقتل من يحبه ويعظمه"^(١). وهذا ما استظهره ابن القيم حيث قال: "الظاهر: أن هذه القصة كانت بعد قصة العجل؛ ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرق والسقي لا يصلح أن يكون إلهاً معبوداً من دون الله تعالى وأنه إنما يصلح للذبح والحرق والسقي والعمل"^(٢).

وبذلك نفهم أن المعنى المقصود من ذبح البقرة أن تُذبح قداستها من نفوسهم، وأن يعلموا أنها حيوان لا ينفع ولا يضر، وأنها لا تستحق أن تُعبد وإنما تستحق أن تُذبح وتؤكل، ونفهم أيضاً أن قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ بسبب صعوبة ذلك على نفوسهم لا بسبب غلاء ثمنها كما قال بعض المفسرين، والله أعلم.

وإذا كانوا قد تلاكأوا في امتثال الأمر بذبح البقرة وتشددوا في أوصافها حتى ما كادوا ينفذوا ذلك الذبح، فإنهم في الجانب الآخر تجرؤوا على قتل نفس بريئة وكاد حق القتل أن يضيع لولا أن الوحي نزل ببيان الوسيلة التي يعرفون بها القاتل.

وبيان ذلك أنهم قتلوا شخصاً- وقد أسند القتل للجميع لأنهم أمة واحدة كالشخص الواحد- فلما قتلوه تدافعوا في شأنه ليدرء كل منهم التهمة عن نفسه، فأخرج الله ما كان مخبوءاً من أمرهم فأمرهم أن يضربوا القاتل بعض أجزاء البقرة فأحياه الله، قال عكرمة: "لما ضرب بها عاش، وقال: قتلني فلان. ثم عاد إلى حاله"^(٣). ومثل هذا دليل على إحياء الموتى يوم القيامة، وهو آية من آيات الله الظاهرة الدالة على قدرته وعلى صدق نبيه ﷺ لكي يتأتى منهم الفقه والتزام الأوامر.

(١) البحر المحيط لأبي حيان ١/ ٤١٤.

(٢) إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان لابن القيم ٢/ ٣١٧.

(٣) رواه الطبري في جامع البيان ٢/ ٢٣٠ برقم ١٣١١، وصحح إسناده الشيخ شاکر.

وفي هذه الآية الكريمة دلالة على قدرته تعالى على البعث، رآها هؤلاء القوم المنكرون بأعينهم؛ فإنهم -بطبيعتهم- لا يعترفون إلا بالمادة ولا تخضع عقولهم إلا لما تراه عيونهم، فأراهم الله آية واضحة تدل على إحياء الموتى.

ومع كل هذه الآيات الباهرات من انفجار الماء ونتق الجبل وإحياء الموتى فإنهم ما ازدادوا إلا قسوة وعناداً، وقوله: ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ يشير إلى بداية القسوة، لكن لم يحدد لها نهاية، فكأنها مستمرة لا حد لها، فصارت قلوبهم كالحجارة في صلابتها بل هي أشد من الحجارة؛ لأن الحجارة قد يتفجر منها الأنهار، ومنها ما يتشقق فيخرج منه ماء يسير، ومنها ما يسقط من أعالي الجبال تصدعاً وتخشعاً، أما هؤلاء فلا يأتي منهم خير ولن يذهب ما عملوه بلا حساب، فالله مطلع عليهم ويجازيهم عليه.

وكانت هذه الآية بمثابة الخاتمة والنتيجة الحتمية لكل ما اقترفته أيديهم، فإذا ما قست قلوبهم فلا فائدة من توجيه الحديث إليهم، وإنما بقي أن يتوجه الخطاب للمؤمنين كي يأخذوا حذرهم.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقدية:

- يبتي الله عباده بالسراء والضراء؛ فالسراء تُظهر الشاكر وتبين منزلته عند ربه، أما الضراء فإنه يتميز بها من صبر ممن جزع، قال تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء/ ٣٥].

- دل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ﴾ على أن الشرك أظلم الظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان/ ١٣].

- دل قوله تعالى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ مع قوله: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء/ ١٥٣] على أن رؤية الله في الدنيا جهرة غير واقعة، قال

رسول الله ﷺ: (تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه عز وجل حتى يموت)^(١)، وقد اتفق جمهور أهل السنة على جواز رؤية الله مناماً؛ قال ابن تيمية: "فالصحابة والتابعون وأئمة المسلمين، على أن الله يرى في الآخرة بالأبصار عياناً وأن أحداً لا يراه في الدنيا بعينه؛ لكن يرى في المنام، ويحصل للقلوب - من المكاشفات والمشاهدات - ما يناسب حالها"^(٢).

- قدرة الله تعالى على البعث بعد الموت؛ فقد أهلك بني إسرائيل بالصعقة، ثم أحياهم بعد موتهم.
- الله تعالى هو الرزاق الذي يرزق عباده من الطيبات، فهو وحده صاحب المنة والفضل، قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾.

- اللجوء إلى الله عند الشدائد، والافتقار إليه، وطلب السقيا منه أمر محمود، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾.

- اختلف الناس كثيراً في شان الصابئين، والذي حققه ابن تيمية أنهم ليسوا نوعاً واحداً فقال: "الصابئة نوعان: صابئة حنفاء موحدون وصابئة مشركون؛ فالأولون هم الذين أثنى الله عليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰرِئِينَ وَالصَّٰنِئِينَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٦) فأثنى على من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً من هذه الملل الأربع المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين، فهؤلاء كانوا يدينون بالتوراة قبل النسخ والتبديل، وكذلك الذين دانوا بالإنجيل قبل النسخ والتبديل، والصابئون الذين كانوا قبل هؤلاء كالتابعين لملة إبراهيم إمام الحنفاء... قبل نزول التوراة والإنجيل.. ثم إن الصابئين ابتدعوا الشرك فصاروا مشركين"^(٣).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم / ٢٩٣٠ عن بعض أصحاب رسول الله.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢/ ٣٣٦.

(٣) الرد على المنطقيين لابن تيمية ص ٢٨٨، وانظر: الملل والنحل للشهرستاني ٢/ ٥.

- دلّ قوله تعالى: ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ على نفي الأوصاف السلبية لله تعالى، وهي التي تنفي معنى التقص عنه سبحانه، ومن ذلك أيضا: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت/ ٤٦] ونفي هذه الصفات السلبية يثبت لله ضدها الذي يحمل صفة مدح وكمال.

ب- الأحكام الشرعية :

-المباشر ينسب إليه الفعل، فمن أمره ظالم بقتل أحد، فقتله المأمور فهو المحاسب، ودليل ذلك أن الله نسب التعذيب والقتل إلى من يقومون به وهم: (آل فرعون) مع أنهم المباشرون لأمر فرعون.

- في قوله: ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ إباحة للطيب بالمنطوق، وتحريم للخبث بالمفهوم.

- في قوله: ﴿ وَأَذْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ إشارة إلى سجود الشكر عند تجدد نعمة.

- في قوله تعالى ﴿ بَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ دليل على حرمة تبديل النصوص؛ قال ابن العربي في تفسير الآية: "إن الأقوال المنصوص عليها في الشريعة لا يخلو أن يقع التعبد بلفظها، أو يقع التعبد بمعناها؛ فإن كان التعبد وقع بلفظها فلا يجوز تبديلها، وإن وقع التعبد بمعناها جاز تبديلها بما يؤدي ذلك المعنى، ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه، ولكن لا تبديل إلا باجتهاد"^(١).

- استسقى موسى لقومه، وسنة الاستقاء في شرعنا صلاة ركعتين، قبلها خطبة، وقد ورد عن عبد الله بن زيد أن النبي ﷺ خرج إلى المصلى فاستسقى فاستقبل القبلة وقلب رداءه وصلّى ركعتين^(٢).

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٣٥.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٩٦٦، ومسلم في صحيحه برقم/ ٨٩٤.

- في قوله: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ دليل على جواز التوسل بدعاء الأحياء. وهذا من جملة شرع ما قبلنا الذي أقره شرعنا، فقد ورد عن أنس قال: "جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: هلكت المواشي وتقطعت السبل. فدعا، فمطرنا من الجمعة إلى الجمعة.." (١).

- في قوله تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ دليل على إباحة أكل الطعام المستلذ الطيب، وليس في هذا أي حرج؛ فقد كان النبي ﷺ يحب الطعام الطيب ويأكله، فعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل (٢).

- جواز أن يقال هذا طعام أدنى وهذا طعام خير.

- تحريم التحايل على شرع الله بالحيل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾، وقد حذر النبي أمته من سلوك منهج بني إسرائيل فقال: (لا تتركبوا ما ارتكب اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل) (٣).

- يؤخذ من قوله تعالى ﴿تَذَبَّحُوا بُقَرَةً﴾ أن الأولى في البقر الذبح لا النحر، قال الشافعي: "وكل ما كان مأكولاً من طائر أو دابة فإن يذبح أحب إلي، وذلك سنته ودلالة الكتاب فيه، والبقر داخله في ذلك لقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذَبَّحُوا بُقَرَةً﴾ وحكايته فقال: ﴿فَذَبَّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ إلا الإبل فقط فإنها تنحر لأن رسول الله ﷺ نحر بدنه" (٤).

- أعظم ما يتقرب به إلى الله الوسط الذي ليس بالكبير ولا بالصغير، وشاهد هذا من كتاب الله قوله تعالى: ﴿لَا فَاْرِضْ وَلَا يَكْرَهُ عَوَانُ بَيْتِكَ ذَلِكَ﴾.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٩٧٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٥١١٥، ومسلم في صحيحه برقم/ ١٤٧٤.

(٣) رواه ابن بطه في كتاب: إبطال الحيل ص ٤٧ وقال ابن كثير: هذا إسناد جيد. تفسير القرآن العظيم ٢٩٣/١.

(٤) الأم للشافعي ٢/ ٢٣٩. ونحر النبي للبدنة ورد في حديث صلح الحديبية الطويل عند البخاري برقم/ ٢٥٨١.

- يجوز استخدام البقر للحرث والسقي. قال ابن قدامة: "ويجوز كراء الدابة للعمل لأنها منفعة مباحة خلقت الدابة لها فجاز الكراء لها كالركوب، وإن اكرى بقرًا للحرث جاز لأن البقر خلقت للحرث"^(١).

- استدل جمع من الفقهاء بآيات الأمر بذبح البقرة على جواز السلم في الحيوان^(٢)؛ لأن الحيوان مضبوط الصفة. وكل ما أمكن ضبط صفته جاز السلم فيه.

- جواز الأمر بالشيء المبهم إذا كان يمكن امثاله، ومثال ذلك الأمر بضرب القتل ببعض البقرة دون تحديد، قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا أَصْرِيُوهُ يَبْعَضَهَا﴾.

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- من الأخلاق التي ينبغي أن يحرص عليها المسلم والداعية على وجه الخصوص: التلطف مع الناس، والتحبب إليهم؛ فذلك أدعى أن يقبلوا توجيهه، ويحرصوا على الاستفادة من نصائحه، ونأخذ هذا من خطاب موسى لقومه بلفظ (يا قوم)، فهو ينسب نفسه إليهم.

- إذا ورد الناس الماء أو اجتمعوا لأي شأن عام فالأولى والأفضل لهم جميعاً أن يكون بينهم شيء من النظام وحسن الترتيب حتى يسقى الجميع ويقضوا أمرهم بلا اختلاف فيما بينهم، قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِيَهُمْ﴾.

- ترك الاستفصال وكثرة السؤال في الأمور التي تأتي مطلقة حتى لا يؤدي ذلك إلى الإثقال والتشديد.

- الاستهزاء بالناس من الجهالة؛ ولذلك لما قال بنو إسرائيل لموسى ﴿أَتَذِدُنَا هُزُؤًا﴾ رد عليهم قائلاً: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

- يجب على المرء فعل ما يؤمر به، قال تعالى: ﴿فَأَفْعَلُوا مَا تَأْمُرُونَ﴾.

(١) المغني لابن قدامة ٣٠٣/٥.

(٢) انظر: الحاوي الكبير للمهاوردي ٤٠٠/٥. والسلم ما قدم من الثمن على المبيع.

د- الجوانب التربوية :

- في قوله تعالى على لسان موسى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمْ الْوَعْدَ الَّذِي لَكُمْ بِرَبِّكُمْ﴾ دليل على أن المربي إذا ذكر الداء فلا يكتفي بتشخيصه، بل يحرص على ذكر الدواء؛ فمن أذنب فإنه ينصح بالتوبة، ومن ظلم ينصح بردّ المظلمة وهكذا.
- من سنن الله الكونية المعالجة بالعقوبة في الدنيا؛ وقد تكون العقوبة بالإهلاك كما حدث مع الأمم البائدة، وقد تكون عقوبة جزئية ليتعظ المعذبون ويشكروا نعمة ربهم إذا خفف عنه العذاب وليتضرعوا إليه عند البأساء، قال تعالى ﴿فَأَخَذْتُمُ الْعَصْفَةَ﴾.
- في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ إشارة إلى أن ضرر المعصية راجع إلى صاحبها، فإن الله لن تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين.
- الأصل أن نعم الله تقابل بالشكر، وشكرها ألا تستعمل في معصية الله، قال تعالى: ﴿كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ قال بعض الحكماء: أقل ما يجب للمنعم بحق نعمته أن لا يتوصل بها إلى معصيته^(١).
- لا بد مع الإيمان من العمل؛ قال تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.
- من سنن الله الكونية المساواة وعدم المحاباة؛ فالله لا يجامل أحداً من خلقه وكل الأمم عنده سواء؛ فمن آمن بالله ورسوله وعمل الصالح الذي أمره به ربه كان له جزاء الضعف بما عمل سواء كان مؤمناً أو يهودياً أو نصرانياً أو صابئاً..
- عدم الخوف من المستقبل وعدم الحزن على الفائت نتيجة طبيعية للإيمان والعمل الصالح، ويشير هذا إلى أن الحزن لا يتقرب به إلى الله، بل هو من الشيطان؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا

(١) أدب الدنيا والدين للمهاوردي (١/٤٣٨).

النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴿ [المجادلة : ١٠].

- من الجوانب المهمة أن يحرص الإنسان على أخذ شرع الله بقوة، قال تعالى: ﴿ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ ولا يكتفي بمجرد القراءة، بل لا بد من صدق الإرادة بالعزم، وصدق العمل بالجد وبذل الجهد بلا تراخ أو فتور أو تردد.

- في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ حكمة بالغة؛ فإن تدافع بني إسرائيل في شأن القتل لم ينفعهم في كتابه، بل أخرج الله ما كانوا يكتُمون، وكل عاص له من ذلك نصيب، فلا يظن ظان أن كتابه لأمر ما سيحجبه عن العيون، كلا فإن الله مخرج ما يكتُمون. وفي الحديث الصحيح: (لو أن رجلاً عمل عملاً في صخرة لا باب لها ولا كوة لخرج عمله إلى الناس كائناً ما كان)^(١).

- العقوبة من الله لها جانبان: جانب تأثير على إصلاح المفسدين، وجانب هداية وعظة للمؤمنين، قال تعالى: ﴿ جَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾^(١٦). وقد فقحت السيدة عائشة هذا الأمر فقالت: "إذا استحلوا الزنا، وشربوا الخمر بعد هذا، وضربوا المعازف؛ غار الله في سمائه، فقال للأرض: تنزلني بهم، فإن تابوا ونزعوا، وإلا؛ هدّمها عليهم. فقال أنس: عقوبة لهم؟ قالت: رحمة وبركة وموعظة للمؤمنين، ونكالاً وسخطة وعذاباً للكافرين"^(٢).

- آيات الله الكونية إذا تدبرها الناس فإنها تكون سبباً في تعقلهم قال تعالى: ﴿ وَرُبِّكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه برقم/ ٧٨٧٧ وصححه على شرطها ووافقه الذهبي، وأخرجه ابن حبان في صحيحه برقم/ ٥٦٧٨، وأحمد في مسنده ٢٨/٣، وأبو يعلى في مسنده برقم/ ١٣٧٨، وحسن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٢٥.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم/ ٨٥٧٥ وصححه على شرط مسلم، وتعقبه الذهبي.

- إذا لم يستفد الناس من آيات الله المشاهدة فإن قلوبهم تقسو، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ وقست في اللغة غلظت وييست وعست. وتأويل القسوة في القلب: ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه^(١).

والقاسية قلوبهم هم أقرب الناس للفتن يتسارعون إليها، قال تعالى: ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج/ ٥٣] ولو جاءتهم كل آية فإنهم لا يؤمنوا، ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنعام/ ٤٣].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

اتصال المقطع بمحور السورة واضح؛ فالحديث عن نعم الله المتوالية على بني إسرائيل ثم بيان موقف الكنود والجحود الذي اعتادوا عليه هو من أعظم أسباب سلبهم الخلافة والقوامة على العالمين، مما يؤذن بإفساح المجال لقيادة أخرى تصلح ما أفسده هؤلاء.

وفي بداية المقطع تذكير لبني إسرائيل بنعم الله عليهم، وما قابلوا به هذه النعم، ثم انتقل إلى ذكر المخالفات التي قاموا بها مع بيان لبعض العقوبات التي حلت بهم.

وقد سبق أن ذكرنا في مقدمة السورة أن قصة البقرة لها تعلق قوي بمحور السورة العام؛ فهي تكشف كثيراً من طبائع اليهود وأخلاقهم الرديئة وتبين أن سلب القوامة منهم بسبب إفسادهم وسفكهم الدماء وعبادة غير الله^(٢).

وقد أشارت الآيات إلى أن الإيمان والعمل الصالح يجعل أصحابه في مأمن من الخوف والحزن، وقد سبق هذا الوعد في نهاية قصة آدم لمن اتبع هدى ربه، وسيأتي لاحقاً جزاء لمن أسلم وجهه لله وهو محسن، ومن تصدق بلا من وفي كل وقت، وهذا من حسن الجزاء لمن اتبع

(١) تهذيب اللغة للأزهري ٩/ ١٨٠.

(٢) انظر ص ١٢، ١٣.

المنهج، وقد جاء مجملاً في قصة آدم، ثم جاءت تفاصيل اتباع الهداية في ثنايا السورة لتبين للناس حسن موعود الله لهم إن اتبعوا منهجه.

وقد عدد هذا المقطع من مبررات عزهم عن القوامة ما يلي: ١- اتخاذ العجل إلهاً من دون الله، ٢- قولهم لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، ٣- تبديل قول غير الذي قيل لهم عند دخول القرية، ٤- قولهم لموسى لن نصبر على طعام واحد، ٥- ضربت عليهم الذلة لكفرهم بآيات الله، ٦- قتلهم الأنبياء بغير حق، ٧- توليهم بعد أخذ الميثاق منهم ورفع الطور فوقهم، ٨- الاعتداء في السبت، ٩- سوء الأدب مع موسى، ١٠- مماراتهم في تعيين البقرة هرباً من التكليف الشرعي، ١١- قسوة القلب بعد رؤية الآيات الدالة على عظمة الخالق^(١).

(١) المحاور والمناسبات لسور القرآن الكريم. د. مصطفى مسلم ص ٦٠ نقلاً عن: المناسبات وأثرها.

المقطع الثاني: مواقف اليهود المعاصرين للنبي ﷺ (٧٥-١٢٣)

﴿ أَنْظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَنُحَدِّثُوكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ قَوْلِيلَ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْ رَأْيَ بِهِ ءَمْنًا قَلِيلًا قَوْلِيلَ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ءَأَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَظَّتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّكَارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَإِلَّا لَوْلَئِنَّ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هُنَّ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تَقْتُلُوهُمْ وَهِيَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ

مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨١﴾ بِشِكْمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِعَضْبٍ عَلَى غَضْبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِشِكْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَنْ يَسْتَمْتُوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَنَجْذِئَهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْسِيهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٩﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٠﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩١﴾ أَوْ كَلِمَاتٍ عَلَهُدًا وَعَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْذَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَئِنَّ الشَّيْطَانَ لَعَفُورٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَرَوْحِهِ وَمَا هُمْ بِبَصِيرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٩٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ

ءَامِنُوا وَاتَّقُوا لِمُؤَبَّةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١١٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامِنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا لِلشَّرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّمَّهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١١٨﴾ وَذَكَرْنَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَرُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّىٰ بَاتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٢٠﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٢١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٢٤﴾ وَاللَّهُ الشَّرِيفُ الْوَعْدُ فَإِنَّمَا تَوَلَّوْا فَمَنْ وَجَّهَ اللَّهُ إِلَيْكَ اللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ ﴿١٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَدِيرٌ ﴿١٢٦﴾ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٢٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١٢٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١٢٩﴾ وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ

اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ
 آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۗ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَبْنِي
 إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ
 نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴿

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

- هذا المقطع يصل اللاحقين بالسابقين، قال الرازي: "اعلم أنه سبحانه لما ذكر قبائح أفعال أسلاف اليهود إلى هنا، شرح من هنا قبائح أفعال اليهود الذين كانوا في زمن محمد ﷺ" (١).
 وفيه تفصيل لبعض الإجمال الوارد في المقطع السابق؛ فقد جاء ذكر العهد هناك مجملاً في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾ [٦٣]، وجاء هنا تفصيل ذلك العهد والميثاق في الآيات (٨٣-٨٦).

قال سيد قطب: "ولقد سبقت الإشارة إلى الميثاق في معرض تذكير الله لبنى إسرائيل بإخلاف موقفهم معه في الدرس الماضي. فهنا شيء من التفصيل لبعض نصوص هذا الميثاق" (٢).
 وقد جاء التفصيل لفضح علمائهم وتذكير الأميين منهم حتى يفيثوا إلى ربهم.

ثم جاءت الآيات [٨٨-١٠٣] لتتحدث عن موقفهم من ميثاق الله ورسله، وموقفهم من القرآن الذي نزل مصداقاً لما معهم؛ فجاء تفصيل موقفهم من النبي موسى ومن جاء بعده، وموقفهم من نبي الله سليمان، وموقفهم من نبي الله محمد الذي جاءت بشاراته في كتبهم.

ثم انتقل السياق إلى الحديث عن المؤمنين ليحذرهم من التشبه بهم، ويبين لهم حقدهم وحسدهم تجاه المسلمين، ثم ذكرت أموراً يشترك فيها أهل الكتاب مع المشركين كمنع المساجد ونسبة الولد لله وطلب الآيات المستحيلة، وقد سبق ذلك ولحقه بيان ما تشابهت قلوب أهل

(١) التفسير الكبير للرازي ١٢١/٣.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٨٧/١.

الكتاب من زعمهم دخول الجنة وغير ذلك.

ثم يختتم المقطع بتوجيه الخطاب لهم لكنه في هذه المرة خطاب هادئ يستثير فيهم النسب الكريم، والنعم العظيمة، وهذا متصل بما قبله حيث وجه لهم الخطاب مباشرة، ثم أعاده لهم هنا حتى تقوم عليهم الحجة بتنوع أساليب التذكير.

التفسير الإجمالي للمقطع:

يتوجه الخطاب إلى النبي ﷺ والمؤمنين قاطعاً طمعهم في إيمان هؤلاء القوم ومستبعداً حصوله منهم فيخاطبهم: أترجون برغبة وتعلقون بقوة أن يستجيب لكم هؤلاء والحال أن علماءهم يسمعون كلام الله الذي نزل على نبيه موسى لكنهم يحرفوه ويؤولوه تأويلاً فاسداً رغم فهمهم وضبطهم المعنى، لكنهم عامدون، ويعلمون أنهم على كذب ويعلمون ما أعد الله للكاذبين.

وإن هؤلاء ليلقون المؤمنين بوجه الإيذان فإذا أوى بعضهم إلى بعض وانفرد به قال مستنكراً: أتخبرون المؤمنين بما أعلمكم الله من صحة دينهم لكي يقيموا الحجة عليكم عند ربكم في الآخرة؟ أفلا تتأملون فتعقلون ولا تتكلموا!! أولم يفهم هؤلاء أنهم إن كتّموا وصف النبي ﷺ أو أعلموه فإن الله عالم به؟

وبعد أن تحدثت الآيات عن علمائهم تحدثت عن طائفة أخرى وهم الجهال الأميون الذين لا يعلمون من كتابهم إلا تلاوة يتلوها باللسان بلا فقه، أو لا يعلمون إلا أماني باطلة وأكاذيب تلقفوها من أهل الإضلال، وما هم إلا على الظن فكيف يتأتى من هؤلاء إيمان؟ فاليهود المعاصرون للبعثة ينقسمون إلى قسمين: إما عالم سوء يحرف الكلم عن مواضعه، أو جاهل مغرور يتلو كتابه بلا فهم ويعيش على وهم النجاة!

ثم تتوعد الآيات أولئك الذين كتبوا الكتاب المحرف ثم نسبوا هذا التحريف لله لكي يعظموا شأنه في قلوب عوامهم، وإنما فعلوا هذا لكي يأخذوا عرضاً قليلاً من أعراض الدنيا

الزائلة. ثم فصلت الآيات سبب الويل الذي أصابهم بأنه من أمرين: كتابتهم الباطل ومن استمرار تكسبهم به.

والظاهر أن من جملة هذا التحريف ما خدعوا به جهالهم من أنهم لن يدخلوا النار إلا أياماً قلائل تُعدُّ، وهذا من جملة أماني الأميين الكاذبة حيث ادعوا أنهم لن يدخلوا النار في الآخرة إلا أياماً معدودة والتعبير بمعدودة يفيد القلة، لأن القليل يُعدُّ بخلاف الكثير، قالوا: سندخل النار أربعين يوماً بعدد أيام عبادة العجل^(١)، أو سبعة أيام على أن الدنيا سبعة آلاف سنة فيكون لكل ألف يوماً^(٢) وقد ورد في صحاح الأحاديث أنهم صرحوا بهذا الزعم فعندما سأهم رسول الله ﷺ: من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها. فقال النبي ﷺ: اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبداً^(٣).

وبعد أن ذكرت الآية زعمهم رده عليهم وأنكرت قولهم ولقنت النبي ﷺ حجته تجاههم بأن يقول لهم توبيخاً وتبكيثاً: هل أخذتم من الله وعداً مؤكداً ألا تمسكم النار؟ وعندئذ لن يخلف الله هذا العهد أم أن الأمر لا يعدو إلا أن يكون دعوى بلا برهان وقول على الله بلا علم؟ فهذه قضية غيب لا تُعرف إلا بالوحي فإذا لم يكن معكم وحي فليس إلا الكذب حينئذ.

إن الأمر ليس كما تظنون؛ فهناك سنن كونية تحكم الجميع ومنها سنة العقاب والثواب الأخروي، ومؤداها أن من فعل كبيرة توجب للعذاب واستولت عليه وصارت كالحائط الذي يحيط به من كل الجهات وهو محبوس ومحصور فيه فإنه بهذا الفعل يكون من الملازمين للنار ملازمة دائمة. وبهذا قلب القضية عليهم؛ لأنهم نقضوا العهد وغيروا وبدلوا فاستحقوا الخلود في النار.

(١) رواه عبد الرزاق في التفسير ١ / ٥١ عن قتادة بسند صحيح.

(٢) رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ١ / ١٥٥ برقم / ٨١٣.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم / ٢٩٣٣.

أما الصنف الآخر هم المؤمنون المصدقون بما جاء من عند الله وعملوا بالطاعات فهؤلاء هم أهل الجنة الذين لا يتحولون عنها ولا يزولون.

وبعد أن تحدثت الآيات السابقة عن النعم الحسية على بني إسرائيل جاء الحديث عن لون آخر من النعم ألا وهو الحديث عن نعمة التكليف وكيف أنهم ما استجابوا وما انتصحوا، فبينت الآيات أن الله قد أخذ العهد المؤكد على بني إسرائيل وقال لهم وذكرهم بثمانية أشياء^(١):

أولها: أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً.

وثانيها: أن يحسنوا إلى الوالدين إحساناً بكل أوجهه الممكنة الحسية والمعنوية، قال تعالى: ﴿ وَقَصَّ رَبُّكَ أَنَّا عِبَدُوا آلَاءَ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء: ٢٣] ثم انتقل بهم إلى دائرة أوسع وهي ما جاء في الوصية الثالثة: بالإحسان إلى القرابة من جهة الأبوين وهذا الإحسان " كالتابع لحق الوالدين، لأن الإنسان إنما يتصل به أقرباؤه بواسطة اتصالهم بالوالدين"^(٢).

والوصية الرابعة: الإحسان إلى كل من مات أبوه وهو دون سن البلوغ، وذلك لأن النفس في الغالب لا تميل إلى الإحسان لمثل هذا لعدم ترجي نفع من ورائه.

الوصية الخامسة: الإحسان إلى الذين أسكنهم الفقر فلم يجدوا شيئاً.

الوصية السادسة: إذا لم يتيسر الإحسان الفعلي لعجز أو ضعف فلا أقل من الإحسان القولي، بأن يكون القول طيباً ليناً.

أما الوصية السابعة والثامنة: فهما إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهما دعامة صلاح الإنسان؛

(١) والوصية بعبادة الله وحدة في التوراة. سفر التثنية إصحاح ٥ رقم ٧، والإحسان للوالدين في رقم ١٦ والنهي عن القتل رقم ١٧.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٣/ ١٥٢.

إذ بهما إصلاح ما بين العبد وربّه وما بينه وبين الناس.

ولكن، هل امثّل بنو إسرائيل لهذه الوصايا الحكيمّة؟ لقد أعرّض غالب المتقدّمين عنها وشاركهم الحكم من أتى بعدهم إلى عهد الإسلام وهم على حال من الإعراض بالقلب بعد الرّفص الحسي.

وبعد أن تكلمت الآيات عن المأمورات تكلمت عن المنهيات ومنها أن الله قد أخذ عليهم العهد الموثق ألا يقتلوا إخوانكم وعبر بالنفس عن الأخوة بياناً لأن من قتل أخاه فقد قتل نفسه لشدة الاتصال ووحدة الأمر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا﴾ [الحجرات / ١١] وقوله: ﴿أَوَّلًا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور / ١٢] وجاءت نفس الصيغة في النهي عن إخراج إخوانهم من الديار، وفي ذلك يقول ابن عطية "ولما كانت ملتهم واحدة وأمرهم واحداً وكانوا في الأمم كالشخص الواحد، جعل قتل بعضهم بعضاً ونفي بعضهم بعضاً قتلاً لأنفسهم ونفياً لها"^(١) ومن ذلك قوله عليه السلام "ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم"^(٢).

وقد أقر القوم بهذا الميثاق وشهدوا عليه واستمرت شهادتهم، لكنهم ما استمروا على الالتزام فحاطبهم الله: ثم أنتم يا هؤلاء المعاصرون تفعلون هذه الأفعال المنهية فتقتلون إخوانكم وتجلوهم من ديارهم على وجه من العلو والمعونة مع المعتدين بالإثم والاعتداء بغير حق. فإن أسرتموهم في القتال فاديتموهم.

قال المفسرون: "كانت قريظة حلفاء الأوس والنضير حلفاء الخزرج، وكان بين الأوس والخزرج حروب، فكانت بنو النضير تقاتل مع حلفائهم وبنو قريظة تقاتل مع حلفائهم فإذا غلب أحد الفريقين أخرجوهم من ديارهم وخربوها، وكان إذا أسر رجل من الفريقين جمعوا له مالاً يفدونه به فعيّرتهم العرب وقالوا: إنا نستحي أن نذل حلفاءنا"^(٣).

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ١٧٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم / ٣١٧٩ ومسلم في صحيحه برقم / ٣٣٢٧.

(٣) الكشاف للزحشري ١/ ١٨٨.

وإنه لتناقض عجيب أن يعملوا بأمر واحد من الأوامر وهو فداء الأسرى ويكفروا باثنين منها وهما تحريم القتل والإخراج من الديار فمثل هذا عبودية بالهوى، وإيمان ببعض الكتاب وكفر ببعضه، وإن عقاب أصحابها أن يتعرضوا في الدنيا للذل والهوان ويذوقوا في الآخرة أشد العذاب لأن الله محيط بعملهم ويراقبهم ولا يغفل عنهم.

ثم أكد الله ذلك الوعيد وبيّن سبب استحقاقهم له بأنهم اختاروا الدنيا مع خساستها على الآخرة مع نفاستها فاشترى القريب وزهدوا في الآجل، ومثل هؤلاء لا يهتدون عليهم العذاب في وقته ولا في قوته ولا يمنع أحد عنهم عقاب الله بشفاعة أو نصره.

وليست مصيبة هؤلاء القوم في قلة الإنذار؛ كلا فقد أرسل الله لهم موسى عليه السلام بالتوراة، ثم أتبعه برسل كثيرين على شريعة موسى، ومن هؤلاء عيسى بن مريم الذي جاءهم بآيات ومعجزات واضحات منها قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِتَايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران/ ٤٩] وقد أيدته الله عز وجل وقواه بالروح القدس المطهر - وهو جبريل على الراجح - الذي يقدس النفوس ويزكيها ويقويه على عدوه، فماذا فعل القوم مع كل هؤلاء؟

لقد أنكرت الآيات عليهم اتباعهم الهوى مع أنبيائهم وسلوكهم طريق الكبر والعلو فلم يخل حالهم معهم من أمرين: إما أن يكذبوا بما جاؤوا به أو يقتلوهم كما فعلوا مع يحيى عليه السلام.

وقد أجملت هذه الآية كل مساوئهم وانحرافهم منذ بداية عهد موسى معهم إلى أن جاءهم عيسى بن مريم مروراً بتاريخ الأنبياء الطويل؛ وفي الصحيح من حديث أبي هريرة مرفوعاً: (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي)^(١).

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٣٢٦٨، ومسلم في صحيحه برقم/ ١٨٤٢.

وقد حاولوا أن يعتذروا عن عدم إيمانهم بأنهم ذوي قلوب عليها غلاف يمنع من وصول الحق وهذا عذر باطل، لأن قلوبهم لم تكن كذلك لفطرة فطرت عليها إنما أصابهم الطرد والإبعاد عن رحمة الله بسبب كفرهم فلم يؤمن منهم إلا قليل، ولم يؤمنوا إلا بقليل من التكاليف، قال تعالى: ﴿فَمَا نَقِضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَكُفِّرْهُمْ بَرَائِهِمْ وَتَجَعَلْ قُلُوبَهُمْ غُفُوفًا ۚ بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَىٰهَا بَكْفُرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء/ ١٥٥].

وكان موقفهم من الكتب السماوية السابقة تمهيداً لموقفهم من القرآن؛ فهم ما آمنوا بكتبهم إلا قليلاً، فلما جاءهم القرآن الذي يتفق مع كتبهم في العقائد وأصول الأخلاق والتشريع ويصدق ما جاء فيها من البشارة بنبي الله محمد ﷺ وكانوا ينتظرون مبعث نبي بكتاب عندهم أماراته ويستنصرون به على العرب الكافرين وعندما جاءهم النبي بما يعرفون ويوقنون كفروا فاستحقوا اللعن بسبب كفرهم.

وفي سبب نزولها يقول ابن عباس: "إن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء: يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال سلام بن مشكم: ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذي كنا نذكر لكم! فأنزل الله في ذلك من قولهم: (ولما جاءهم...)^(١).

وهذا الموقف يكشف تناقضهم واتباعهم الهوى؛ فإذا كانوا قد استفتحوا به فكيف ينكرون نبوته؟ لقد كانوا يستفتحون به ولم يروه فالأولى أن يؤمنوا به بعد أن صار المعلوم واقعاً حياً أمامهم.

(١) رواه ابن إسحق في السيرة ١/٥٤٦ وعنه الطبري في جامع البيان ٢/٢٣٣ وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٣٢٦.

ثم تذكر الآيات سبب كفرهم وتذمهم وتوبخهم على ما اختاروا لأنفسهم من الكفر على الإيمان، فقد باعوا أنفسهم، وياله من بيع لا قيمة له، وقد يكون اشتروا بمعنى الشراء، يقول الرازي: "ولما كان الغرض بالبيع والشراء هو إبدال ملك بملك صلح أن يوصف كل واحد منهما بأنه بائع ومشتري لوقوع هذا المعنى من كل واحد منهما"^(١).

وكان سبب غبنهم هذا بغيبهم وعدوانهم وحسدتهم أن ينزل فضل الله على الأمين، فاستحقوا أن يعودوا بغضب مضاعف بسبب كفرهم أولاً بنبيهم وكفرهم ثانياً بنبي الإنسانية محمد ﷺ وإن لهم عند الله عقوبة ذات إهانة وإذلال.

ثم ذكرت الآيات شبهة أخرى لهم في عدم الإيمان وأبطلتها، ألا وهي أنهم إذا دعوا إلى الإيمان بالقرآن قالوا إرضاء لأنفسهم: إنما نؤمن بالتوراة المنزلة علينا، ونكفر بما سواها وما عداها وهو القرآن الحق الذي يصدق ما معهم من الحق فكلاهما من عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلم تقتلون الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي معكم؟ وهذا معناه أنكم كافرون بالقرآن وبالتوراة معاً؛ لأن الذي يكفر بالحق دل على أن إيمانه الأول لم يكن حقاً.

وتحضي الآيات لتفضيح هذه الدعوى وتفندها؛ فتاريخهم يقول بخلاف ذلك، إن التوراة التي تزعمون أنكم آمنتتم بها قد جاءكم موسى بها وبغيرها من الآيات فلم تردكم إلا كفراً؛ فقد اتخذتم من بعد مجيء الآيات البينات العجل إلهاً وأنتم في ذلك معتدون، قال تعالى: ﴿ وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَّهُ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ [الأعراف: ١٤٨] بل إنهم جعلوا أن الأصل عبادة العجل وأنه كان الإله لكن موسى نسي، قال البخاري: يقولون: أخطأ الرب^(٢).

(١) مفاتيح الغيب للرازي ٣/ ١٦٧.

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير، تفسير سورة طه.

ويأتي نفس المعنى بصيغة أخرى ليذكرهم بالعهد الذي أخذ عليهم وبموقفهم منه، وبجبل الطور الذي رفع عليهم إرهاباً وتهديداً فأروه كأنه ظلة فأمر أن يهتموا ويجدوا وينشطوا في تلقي أوامر الله وأن يسمعوا سماع قبول لكنهم قالوا بأفواههم سمعنا وعصوا بأفعالهم، وامتزج في قلوبهم وسرى حب العجل الذهبي الذي صنعوه ليعبدوه وهنا يلقن الله النبي الحجة عليهم: إن كنتم صادقين في إيمانكم بما أنزل عليكم فأين هذا الإيمان عندما عبدتم العجل؟ هل أمركم إيمانكم بالشرك؟ بشس الإيمان إيمان يأمر أصحابه بالوثنية وقتل الأنبياء!

ولأن أثر الإيمان الحقيقي لم يظهر في الدنيا، فإنه أيضاً لن تظهر ثمرته في الآخرة والدليل على ذلك أن النبي ﷺ يتحداكم إن كان لإيمانكم ثمرة أخروية وترون أنه سيهبكم الثواب والنعيم الخالص من دون الناس فاطلبوا حصول ومجيء الموت لكم إن كنتم صادقين في دعواكم حتى تنعموا بما تظنون؟ لأن الحائل بينكم وبين النعيم بزعمكم هو الموت فاطلبوه.

وهذا تحد قرآني لهم ومعجزة نبوية؛ فلم يتمنوا؛ وقد ورد عن عبد الله بن عباس قوله: "لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار"^(١) ولن يتمنوا؛ وذلك لأنهم يعرفون جيداً أنهم عصاة فسقة ارتكبت أيديهم القتل والتحريف وغيره والله تعالى عالم بما صنعوا.

وإن حالهم في حب الدنيا لعجيب؛ فهم أشد الناس طمعاً في الحياة بأي كيفية كانت هذه الحياة، وجاءت حياة منكرة لإفادة التحقير، يقول سيد قطب "أية حياة، لا يهم أن تكون حياة كريمة ولا حياة مميزة على الإطلاق! حياة فقط حياة بهذا التنكير والتحقير... حياة والسلام، إنها يهود، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها سواء"^(٢).

(١) رواه أحمد في مسنده ١/٢٤٨ وأبو يعلى في مسنده برقم /٢٦٠٤، والنسائي في السنن الكبرى التفسير برقم /١١٠٦١ وهو صحيح. انظر: مجمع الزوائد ٨/٢٨٨.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٩٢.

ومن العجيب أن اليهود أحرص على الحياة من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة ولا بالنار، فدل ذلك على أنهم يعرفون حقيقة مصيرهم في الآخرة جيداً، ولذلك: فإنه غاية أمانهم أن يزداد في عمرهم إلى ألف سنة، ولن يفيدته تعميره شيئاً في النجاة من العذاب بل سيكون زيادة في تعذيبه وقد سئل النبي أي الناس شر؟ فقال: (من طال عمره وساء عمله)^(١).

ثم تحتتم الآية بتهديدهم بأن الله عالم بكل ما يفعلون.

وبعد أن بينت الآيات السابقة عداوتهم لصفوة البشر من الأنبياء ذكرت عداوتهم لصفوة الملائكة وهو جبريل، وفي ذكر هذه العداوة بعد بيان استحقاتهم للعذاب ذكر سبب من أسباب عذابهم.

وفي سبب نزولها ورد أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: إنه ليس نبي من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة والوحي، فمن صاحبك حتى نتابعك؟ قال: جبريل، قالوا: ذلك الذي ينزل بالحرب والقتال، ذاك عدونا، لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالقطر والرحمة تابعنك، فأنزل الله الآيتين^(٢).

وهذا إجماع من المفسرين على أن الآية نزلت جواباً لليهود، ونقل هذا الإجماع الطبري في تفسيره^(٣).

والآية تبين أن من اتخذ جبريل عدواً فإنه يعادي الوحي، لأنه لا سبب لعدواته فالظاهر أنهم يعادونه من أجل القرآن الذي نزل على قلبك وهو لا يستوجب عداوتهم لأنه مصدق لما جاء في الكتب السابقة، وهداية من الضلال، وبشارة للمؤمنين، فكيف يعادي؟!

- (١) رواه الحاكم في المستدرک برقم / ١٢٥٦، والترمذي في سننه برقم / ٢٣٣٠ وأحمد في مسنده ٤٧/٥، عن أبي بكر، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢٠٣: وإسناده جيد.
- (٢) رواه أحمد ١ / ٢٧٨ والنسائي في الكبرى ٥ / ٣٣٧ قال الهيثمي في المجمع ٨ / ٤٣٦: رجاله ثقات.
- (٣) جامع البيان للطبري ٢ / ٣٩٤.

إن الحكم القاطع أن من عادى الله بالكفر بما أنزل، وعادى الملائكة بكراهيتهم، وعادى الرسل بتكذيب وقتلهم، وعادى جبريل وميكائيل الذي يدعون محبته، من عادى كل هؤلاء فإن الله يعادي من عاداهم لأنهم كافرون.

وبعد أن خوفتهم الآيات من معاداة القرآن ومن نزل به، عادت وعفتهم على نبذ العهد، ذلك الخلق السيئ الذي دفعهم لرفض التوراة أولاً والقرآن ثانياً، فخاطب الله نبيه مبيّناً أن هذه الآيات التي نزلت عليك لا تحتاج إلى دليل صدق؛ فهي بينة واضحة لا يكفر بها إلا المعاند الخارج عن طاعة الله. فلا تقنطن مما ترى من جحودهم فذلك دأبهم: نبذ العهد ونبذ الإيمان فهم كفروا بالآيات، وكلما عاهدوا الله أو رسله عهداً نقضه فريق منهم، ولا يظنن أحد أن هؤلاء الناقضين قلة، بل نقضه أكثرهم ولم يؤمنوا به، وكذلك نقضوا ونبذوا ما عرفوا لما جاءهم النبي محمد ﷺ مرسلًا من عند ربه، بيده ما يصدق كتبهم، نبذ علماءهم القرآن نبذاً حتى كأنهم لن يلقونه وتركوه كأنهم لا يعلمون أنه كتاب الله.

وعندما تركوا كتاب الله استبدلوا به الباطل، وعندما لم يشغلوا أنفسهم بالحق شغلتهم بالسحر فاتبعوا السحر، واتبعوا ما كانت تكذب به الشياطين في عهد سليمان وأيام ملكه ونبوته.

وقد كان سليمان بن داود نبياً ملكاً، وهبه الله ملكاً لم ينبغ لأحد من بعده، وسخر له الريح والجن، قال تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ ۝٣٧ وَأَخرينَ مُقرِّنينَ في الأَصْفَادِ ۝٣٨ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩ ﴾ [ص: ٣٦-٣٩] وقال تعالى: ﴿ وَلسليمنَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ ۚ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۚ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بإِذْنِ رَبِّهِ ۚ وَمَن يَرْغَبُ مِنْهُم عَن آمْرِنَا نُدَاقُها مِن عَذابِ السَّعِيرِ ۝١٢ يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشَاءُ مِن مَّحْرَبٍ وَنَسْجِلُ وَحِفافٍ كالأجوابِ ۚ وَقُدُورِ راسياتٍ أَعْمَلُوا ءآلَ داوودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ۝١٣ ﴾ [سبأ: ١٢، ١٣] وقد كذب اليهود على نبي الله سليمان في نسبتهم السحر له، وقد نسبوا إليه السحر تزييناً لما يفعلون هم، لكن الله برأه من السحر،

ووصفهم مع شياطينهم بالكفر لأنهم يعلمونهم السحر.

والسحر في اللغة هو كل شيء خفي سببه، أما في اصطلاح الشرع فهو النفث في العقد، والتأثير من خلاله في أفعال الناس، وغالبه من أمور التخيل والخداع قال تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِبَاهُهُمْ وَرِصَصُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ [طه: ٦٦] ومنه حديث سحر النبي ﷺ (حتى كان يخيل أنه صنع شيئاً ولم يصنعه)^(١) وجزء قليل منه يكون باتصال السحرة ببعض الشياطين.

اتبع اليهود الشياطين في تعلم السحر وزعموا أن سليمان ساحر. وما كان سليمان ساحراً بل إن التوراة نهت عن السحر^(٢)، وكانت بابل - وهي من بلاد العراق - موطناً لهؤلاء السحرة، فلما كثروا واختلط على الناس الأمر فلم يفرقوا بين المعجزة والسحر نزل من السماء ملكين هما هاروت وماروت ليعلمان الناس السحر كي يعرفوه فقط، وكانا يحذران من العمل به ويبينان أنها ابتلاء من الله للناس فلا يكفروا بالعمل بالسحر، ورغم هذا التحذير فإنهم افتتنوا وتعلموا ما يفرقون به بين الزوجين وهذا من أفعال الشيطان ومع هذا فإنهم جميعاً لا يملكون إلحاق الأذى والضرر بأحد إلا بإذن الله الكوني بإلحاق ضرر بهم لا فائدة منه.

وإنهم لعلى يقين أن من يختار السحر فلا نصيب له في الآخرة من خير. وبئس التجارة تجارة تفقد صاحبها نصيبه عند الله يوم القيامة ولو آمن اليهود إيماناً حقيقياً بكتابتهم وبما فيه من إثبات نبوة محمد ﷺ لأنابهم الله مشوبة كبرى جزاء من ربك عطاء بما آمنوا لكنهم لم

(١) رواه البخاري ٢٩٣٩ / مسلم / ٤٠٥٩ بنحوه عن عائشة.

(٢) في سفر الثنية لإصحاح ١٨ "إذا دخلت الأرض التي يعطيك الرب إلهك لا تتعلم أن تفعل مثل رجس أولئك الأمم لا يوجد فيك من يزج ابنه أو ابنته إلى النار ولا من يعرف عرافة ولا عائف ولا متقاتل ولا ساحر ولا من يرقى رقية ولا من يسأل جان أو تابعه ولا من يستشير الموتى لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب "أ.هـ.

يعلموا علماً ينفعهم وينجيهم.

وبعد أن ذكرت الآيات السابقة حجج اليهود في عدم الإيمان بالنبى ﷺ وأبطلتها عليهم وبين فسادهم وضلالهم جاءت هذه الآيات خطاباً للمؤمنين وتوجيهاً لهم في أمور مشتركة بينهم وبين اليهود، ولتتهامهم عن التشبه بهم، فعرضت الآيات لما يلي :-

- ١- النهي عن التشبه بهم في اللفظ الذي يوهم السوء.
- ٢- بيان حكمة النسخ وفائدته، وإبطال مزاعم اليهود فيه.
- ٣- نهي المؤمنين عن التشبه بهم في السؤال وتبديل الكفر بالإيمان.
- ٤- بيان المانع لأهل الكتاب من الإيمان ومحبتهم لارتداد المؤمنين.
- ٥- إبطال ادعائهم بأن اللجنة لهم من دون الناس وبيان السنة الجامعة في ذلك.
- ٦- إبطال ادعاء اليهود والنصارى أن كلاً منهم على ضلال.
- ٧- بيان خطورة ما قام ويقوم به أعداء الإسلام من تخريب المساجد.
- ٨- بطلان ادعائهم الولد لله تعالى.
- ٩- النهي عن اتباع أهوائهم.
- ١٠- ثم تعود الآيات لتذكرهم بنعم الله تعالى وتبين لهم أن يوم القيامة لن ينفع فيه إلا العمل الصالح.

والآن إلى تفاصيل هذه الآيات:

- ١- خاطبت الآيات الكريمة المؤمنين ونهتهم عن مشابهة اليهود وذلك في قولهم للنبي ﷺ راعنا، وهي عند اليهود لها معنى قبيح من الرعونة أو الشر، فنهاهم القرآن عن النطق بهذه اللفظة وأمرهم بقول لفظة مساوية لها في الحروف لكن معناها مختلف وهي قول: انظرنا أي: أمهلنا، ثم أمرهم بسماع القبول والإجابة، وبين أن الكفار

من اليهود و مشركي العرب وغيرهم لهم عذاب مؤلم. قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَّأُ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي آلِ الْبَيْنِ﴾ [النساء: ٤٦].

وإذا خالفتموهم فلا تبالوا بعدائهم، فإنهم لا يجبون أن يتنزل عليكم أي خير من ربكم حسداً من عند أنفسهم، وما دروا أن الله يخص بالنبوة والرحمة والفضل من يريد من عباده، فهو ذو الفضل العظيم.

٢- ولما تكلم اليهود في أمر النسخ وأنكروا أن يقع النسخ بين الشرائع، بين الله حكمة النسخ فقال: ما ننسخ من آية نقيمها دليلاً على نبوة نبي من الأنبياء أي نزيلها وترك تأييد نبي آخر بها، أو ننسها الناس لطول العهد بمن جاء بها فإن لنا أن نأتي بخير منها في إثبات النبوة لأن لنا القدرة على كل شيء فنرفعه^(١).

والنسخ الإزالة، والمقصود به: رفع حكم شرعي بطريق شرعي لحكمة التدرج، وزيادة الأجر، ثم تخاطب الآية النبي والمراد المؤمنين وتثبت لهم أن الله قادر على كل شيء ومن جملة ذلك النسخ وغيره.

والظاهر أن المقصود بالآية الرد على ما أنكره اليهود من نسخ شريعتهم بشريعة الإسلام، وفي ذلك يقول الطبري: " وهذا الخبر وإن كان من الله عز وجل خطاباً لنبية محمد صلى الله عليه وسلم على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة وجحدوا نبوة عيسى، وأنكروا محمداً ﷺ، لمجيئها بما جاء به من عند الله بتغيير ما غير الله من حكم التوراة. فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانها، فإن الخلق أهل مملكته وطاعته، عليهم السمع له والطاعة لأمره ونهيه، وأن له أمرهم بما شاء ونهيمهم عما شاء، ونسخ ما شاء، وإقرار ما شاء، وإنشاء ما

(١) انظر: تفسير القرآن الحكيم لرشيد رضا ١/٤١٧.

شاء من أحكامه وأمره ونهيه^(١).

وإذا كان الله تعالى ينسخ الأحكام ويأتي بالشرع فذلك لأنه المالك، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] له التصرف في السموات والأرض، وما للعباد من دونه من ولي ولا ناصر ولن يضركم غيره شيئاً.

٣- وللتحذير من وراثة أفعال اليهود توعد الله من يسأل إعناتاً وكبراً فقال: أتريدون أن تسألوا نبيكم كما سأل اليهود نبيهم فقالوا: ﴿أَرَأَيْتُمْ أَنَّا نَسْأَلُ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] إن من فعل هذا فقد رضي بالكفر بدلاً عن الإيمان وضل السبيل الوسط. ولعل هذا التحذير للمسلمين مقدمة لمسألة القبلة؛ حيث سيكثر فيها الخوض واللجاج، مما يدفع بعض ضعفاء الإيمان إلى الشك وكثرة الأسئلة.

٤- ولم يكتف اليهود بكفرهم بل وُدوا لو صرفوكم عن دينكم لتعودوا كفاراً، ليس حباً في دينهم، وإنما حسداً ناشئاً عن فساد نفوسهم بعد ما ظهرت علامات الحق بآيات القرآن^(٢)، فاتركوا عقابهم واطووا عنهم صفحاً حتى يأتي قدر الله بالنصر أو أمره بالجهاد وإنه على كل شيء قدير.

دعوهم وشأنهم وانصرفوا لتحقيق أدوات النصر من إصلاح الفرد بالصلاة وإصلاح المجتمع بالزكاة، وليس في هذا إصلاح الدنيا فقط بل إصلاح الآخرة؛ فإن كل ما تقدمونه من خير تلقونه يوم القيامة إن الله بصير بما تعملون.

٥- لقد اغتر الفريقان بما هم عليه وظهر حقدهما معاً تجاه الإسلام فقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا يهودي، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا نصراني. وهذا من جملة

(١) جامع البيان للطبري ٢/ ٤٨٨.

(٢) عن ابن عباس قال: كان حبي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود العرب حسداً إذ خصهم الله برسوله، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا فأنزل الله فيهما (ود كثير) رواه ابن أبي حاتم في التفسير ١/ ٢٠٤ برقم/ ١٠٨١.

أمانيتهم الباطلة، ويلقن الله نبيه الرد عليهم: هاتوا دليلكم على صحة هذه الدعوى إن كنتم صادقين.

ثم تأتي: (بلى) التي تضرب عما قبلها لتبطل أمانيتهم وتذكر قاعدة عامة تشمل جميع الأمم والأجناس وهي: أن من انقاد لله بوجهه وأحسن في عبادته وعمله فله الأجر من الله ولا خوف عليه فيما يستقبل ولا حزن فيما فاته.

٦- وقد ادعى كل فريق منهم أن صاحبه ليس على شيء، وأنه أحق برحمة الله منه،^(١) مع أن اليهود يتلون التوراة وهي أصل الإنجيل، والنصارى يتلون الإنجيل الذي جاء ليتمم ما جاءت به التوراة، إن تعصبهم هذا وثيق الصلة بتعصب المشركين حيث زعموا أن المسلمين ليسوا على شيء، والكل أهل هوى وسيردون إلى ربهم فيحكم بينهم بالقسط فيما كانوا فيه يختلفون، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ [سبأ: ٢٦]

٧- وكيف يدعي هؤلاء أنهم على شيء وهم يصدون عن بيوت الله ويمنعون ذكره في بيته سبحانه؛ فاليهود يصدون المسلمين عن التوجه للكعبة^(٢)، والنصارى خربوا بيت المقدس، والمشركون صدوا المسلمين عن دخول المسجد الحرام بإيعاز من يهود، لقد

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٣١٩.

(٢) انظر: التفسير الكبير للرازي ٤/ ١٠، حيث ذكر أقوال المفسرين في المسألة ثم قال: "وعندي فيه وجه خامس وهو أقرب إلى رعاية النظم: وهو أن يقال: أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة شق ذلك على اليهود فكانوا يمنعون الناس عن الصلاة عند توجيههم إلى الكعبة، ولعلمهم سعوا أيضاً في تخريب الكعبة بأن حملوا بعض الكفار على تخريبها، وسعوا أيضاً في تخريب مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم لثلاث يصلوا فيه متوجهين إلى القبلة، فعابهم الله بذلك وبين سوء طريقتهم فيه، وهذا التأويل أولى مما قبله، وذلك لأن الله تعالى لم يذكر في الآيات السابقة على هذه الآية إلا قبائح أفعال اليهود والنصارى، وذكر أيضاً بعدها قبائح أفعالهم فكيف يليق بهذه الآية الواحدة أن يكون المراد منها قبائح أفعال المشركين في صددهم الرسول عن المسجد الحرام.

سعى الكل في التخريب المعنوي للمساجد بمنع العبادة فيها والتخريب الحسي بالهدم وما كان لهم أن يدخلوها إلا وهم على أسوأ حال من الذلة والمهانة بخلاف ما يلقونه يوم القيامة من العذاب الأليم.

وإذا لم يتمكن المسلم من الصلاة وقتئذ فله الأرض كلها، فليصل حيث كان إذ الجهات كلها لله، والله واسع الرحمة على عباده لا يضيق عليهم عليهم بما ينفعهم، وعن ابن عمر قال: " كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه، وفيه نزلت ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا﴾ ^(١). ففيه تسليه للرسول وأصحابه الذين أخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومصلاهم. ^(٢)

٨- وما زالت الآيات تعدد مخازي أهل الكتاب؛ فقد ادعى بعض اليهود أن عزيزاً ابن الله، وادعت النصارى أن المسيح ابن الله، أما المشركون فقد زعموا أن الملائكة بنات الله. وقد تقدس الله تعالى وتنزه عن كل هذا.

ثم ذكرت الآيات ثلاثة أدلة على استحالة أن يكون له ولد؛ أولها: أن الكون كله عابد له ولا يمكن للعابد أن يتصل بنسب للمعبود، قال تعالى: ﴿إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿١٣﴾﴾ [مريم: ٩٣] وأكد ذلك بأن الكل له عابد طائع؛ فهم مخلوقون ليس فيهم من يصلح أن يكون ولداً أو شريكاً.

الثاني: أنه سبحانه انفرد بإنشاء السموات والأرض بلا مثال سابق، مع ما فيها من الخلق العظيم، فكيف له أن يحتاج بعد ذلك إلى ولد؟ قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لَهُ، وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام/ ١٠١].

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٧٠٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٣٩٠.

الثالث: أنه إذا أراد أمراً قضاها بالكاف والنون فهو المالك، الغني، القدير، الذي لا يحتاج لأحد فكيف يحتاج إلى ولد؟

٩- ومن جملة الشبه التي يحتاج بها اليهود وغيرهم طلبهم أن يكلمهم الله مباشرة أو عن طريق ملك كما يكلم النبي أو يأتيهم دليل على صحة نبوة محمد ﷺ، قال ابن عباس: قال رافع بن حريملة لرسول الله: إن كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله: يكلمنا حتى نسمع كلامه، فأنزل الله في ذلك: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ... ﴾^(١).

ولئن كانت الآية نازلة في اليهود بدلالة السياق وسبب النزول فإن اللفظ يندرج فيه النصراني ومشركوا العرب، وقد ذكر القرآن كثيراً من هذه الأسئلة التي لا تفيد إلا التعنت مثل ما ذكر القرآن على لسان المشركين في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقوله: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَنزِلَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا مَّاءً ﴾ [الإسراء: ٩٠] وليسوا بدع في هذا القول فقد قاله مشركو الأمم السابقة مع أنبيائهم فكأنهم تواصلوا جميعاً بهذا الإفك، وما ذاك إلا من تشابه أحوالهم في الطغيان، ولم يكن الله ليترك رسوله بل بين الأدلة وأوضحها لمن أراد الاستنارة بنور الحق، فلا عليك أيها الرسول منهم؛ لا تحزن ولا تغتم بسبب إعراضهم، ولا يضيغن صدرك من مسارعتهن إلى الكفر؛ لقد أرسلك الله بالحق الثابت الذي لا يتأثر بشبهاتهم لكي تبشر به المتقين وتنذر به المعاندين ولن يسألك الله عن تكذيب المكذبين وعناد أصحاب الجحيم.

١٠- وقد مر بيان بعض ما تشابهت فيه قلوب اليهود والنصارى، ومن جملة هذه المشابهة أنهم لن يرضوا عن النبي حتى يتبع ما هم عليه من الضلال، فرد الله ضلالهم ولقن النبي ﷺ حجته؛ وهي أن الهدى الحق هو الذي نزل به أنبيأؤه وليس ما أضافه القوم

(١) أخرجه الطبري في جامع البيان ٢/ ٥٥١ برقم/ ١٨٦٢، وابن أبي حاتم ١/ ٢١٥ برقم/ ١١٤٠ وسنده حسن.

بأهوائهم، ولئن أردت استرضاءهم واتبعت ضلالهم بعد ما جاءك من اليقين بالوحي المبين فإن الله لن ينصرك، فلن يكون اتباع الهوى موصلاً للهدى. وقد ورد اتباع الهوى بصيغة الشرط ومعلوم أن الشرط لا يقتضي وقوع ذلك من النبي ﷺ.

١١- وبعد أن بينت الآيات كثيراً من ضلالهم استدركت وأوضحت أن منهم من يرجى خيره وهم الذين يتلون الكتاب حق تلاوته فيفهمون ويتدبرونه وهؤلاء يدركون الحق^(١)، أما من كفر به من المعاندين أو المقلدين فهو التاركون للسعادة والسيادة.

وبعد هذا المقطع الذي أقام القرآن فيه الحجة عليهم يذكرهم المولى بنعمه الدينية والدنيوية عليهم، وإنه فضلهم على عالمي زمانهم وحذرهم من يوم القيامة الذي لا يصلح فيه الاعتذار بصلاح الآباء، فلن تجزي نفس عن نفس شيئاً ولن يؤخذ فدية من الكافرين ولن تنفعهم شفاعة الشافعين بل لن يكون هناك أي رجاء في النصرة من دون الله.

ويلاحظ أن هاتين الآيتين قد جاءتا واسطة عقد بين ما قبلها وما بعدها؛ فقد سبق قبلها تعداد كثير من أخطاء بني إسرائيل، وبيان أخطائهم في حق الله تعالى وحق رسله، وموقفهم من النبي الخاتم وأتباعه، كل ذلك عرضه القرآن في أسلوب من الشدة، حتى وصل إلى حدّ جردهم من كل حجة ومعذرة.

ثم عاد السياق في هاتين الآيتين لأسلوب اللين، تمهيداً لما سيأتي بعده من قطع الصلة المزعومة بينهم وبين أبي الأنبياء إبراهيم؛ فقد ناسب ذلك أن يمهد بهذا التمهيد الذي يحذرهم من نسيان النعم ويذكرهم بالتفضيل الإلهي لهم، بأسلوب حانٍ رقيق، حتى لا يقنطوا ولا يياسوا من روح الله، ولكي تستعد نفوسهم لتلقي ما يأتي بعد ذلك، وهذا من أساليب القرآن الحكيمة في سوق النفوس إلى الحق.

(١) وقد جاء لفظ (الذين آتيناهم الكتاب) في ثمانية مواضع من كتاب الله كلها في معرض المدح على الراجح، ومواقعها في البقرة (١٢١) و(١٤٦) والأنعام (٢٠) و(٨٠) و(١١٤) والرعد (٣٦) والقصاص (٥٢) والعنكبوت (٤٧).

الهدايات المستنبطة من المقطع

أ- القضايا العقيدية :

- في قوله تعالى: ﴿يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ إثبات صفة الكلام لله رب العالمين، ومذهب أهل السنة والجماعة في ذلك ما ذكره الإمام الطحاوي حيث قال: "إنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وهو يتكلم به بصوت يُسْمَع، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المُعَيَّن قديماً، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة"^(١).

- دل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ على إثبات التحريف الواقع في الكتب السابقة، وهو إما بالتأويل أو بالزيادة والنقص. وقد ذكر العلماء في المسألة أقوالاً؛ فقال بعضهم: حرفت كلها. وهذا الرأي مبالغ فيه. وقيل: وقع التحريف في معظمها، وقيل: وقع في اليسير منها، وقيل: وقع التبديل في المعاني لا في الألفاظ^(٢). وأمثلها الثالث والله أعلم.

- صفة النبي محمد ﷺ معلومة في التوراة والإنجيل، وقد أثبت القرآن ذلك في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾. وقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف/ ١٥٧].

والناظر في العهدين: القديم والجديد يجد أدلة ذلك واضحة، وسنذكر طرفاً من ذلك؛ ففي التوراة: (قال لي الرب: قد أحسنوا في ما تكلموا. أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه). سفر التثنية باب (١٨) أرقام ١٧-١٩. والنبي الذي جاء من بني عمومة موسى هو محمد ﷺ، وقول: (أجعل كلامي في فمه) إشارة إلى أن النبي ﷺ لا يقرأ من كتاب، والذي كلم الناس بكل ما أوصى به ربه هو نبينا محمد ﷺ.

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص ١٨٠.

(٢) انظر في هذه الأقوال: إغاثة اللهفان لابن القيم ٢/ ٣٥١ وما بعدها، فتح الباري لابن حجر ١٣/ ٥٢٤.

ومن البشارات الواردة في العهد الجديد قول عيسى عليه السلام: (لكني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم. ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة، أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي، وأما على بر فلأنني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضاً، وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين.

إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذلك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمر آتية، ذلك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم) [إنجيل يوحنا: ١٦/ ٧-١٤].

وفي هذا الكلام السابق إشارات عديدة لنبينا محمد ﷺ؛ فهو الذي مجّد المسيح، وهو الذي بلغ كل ما أمر به، وهو الذي أخبر بالغيوب المستقبلية.

وقد أوردنا من كل كتاب مثلاً، وإلا فالإشارات بالنبي ناطقة، والبشارات بمقدم الأُمّي صادقة، بل إن المعرفة به من أحبارهم واضحة للعيان لا تحتاج إلى بيان^(١).

- إثبات معرفة الله لما يسر المرء وما يعلن قال تعالى ﴿أُولَٰئِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (٧٧).

- دل قوله تعالى ﴿وَمَنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٧٨) على ذم التقليد واتباع العقائد الموروثة حتى لو كانت خطأ. قال الشيخ محمد عبده: "أما الأمانى ففسرت بالقراءات والتلاوات، أي لا يعلمون منه إلا أن يتلوه وإذا ظنوا أنهم على شيء مما دعا إليه فهو عن غير علم بها أو دعه وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه ديناً"^(٢).

(١) وللتفصيل انظر: شرح المقاصد في علم الكلام للفتاوي ١٩٨/٢، الإعلام بما في دين النصارى من الأوهام للقرطبي ص ٢١٩، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم ص ٥، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ٣/ ١٤٥، وغيرها، وإظهار الحق للشيخ رحمت الله الهندي فقد ذكر ثمان عشرة بشارة. المجلد، ص ١١١٦، وما بعدها.

(٢) رسالة التوحيد لمحمد عبده ص ٨٤.

- ترتب الجزاء على العمل إن خيراً وإن شراً، قال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَانَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ .

- دل قوله تعالى: ﴿ فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ﴾ على أن العهد والوعد من الله لا يخلف، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْعَيْدَ ﴾ [الرعد/ ٣١]. واختلفوا في جواز إخلاف الوعيد بالعذاب؛ فأجازه قوم. قال التفتازاني: "والمذهب جواز الخلف في الوعيد بالألا يقع العذاب"^(١)، ومنعه المعتزلة ولم يجوزوه.

- من أحاطت به خطيئته فإنه كافر يخلد في النار، أما من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فحكمه حكم عصاة المسلمين؛ فأمره مفوض إلى ربه إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء/ ٤٨]. قال البيهقي: "أخبر أن التخليد في النار إنما هو لمن أحاطت به خطيئته، والمؤمن صاحب الكبيرة أو الكبائر لم تحط به خطيئته؛ لأن رأس الخطايا هو الكفر وهو غير موجود منه فصح أنه لا يخلد في النار"^(٢).

- دل قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٨٦) على أن المؤمنين مخلدون في الجنة، وأن هذا الخلود أبدي، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ حَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ (٧) ﴿ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ (٨) [البينة/ ٧، ٨].

- ودلت نفس الآية على أن الإيمان يشترط له العمل الصالح.

- ودلت أيضاً على أن العمل لا بد أن يكون صالحاً، أي صواباً، قال تعالى: ﴿ فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ

(١) شرح المقاصد ٢/ ٢٢٧. وانظر في تقرير مذهب المعتزلة: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار

(٢) ص ١٣٥، ١٣٦. ولازم قول المعتزلة نفي الشفاعة وعفو الرحمن عن العصاة يوم القيامة.

شعب الإيمان للبيهقي ١/ ٢٧٤.

رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ ﴿الكهف/ ١١٠﴾.

- دل قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ على أن جميع الأمم مطلوب منها العبادة الحقة الخالصة لله رب العالمين، قال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة/ ٥].

- عذاب يوم القيامة بعضه أشد من بعض، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾. وقد ورد في القرآن ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر/ ٤٦] وفي السنة التخفيف عن أبي طالب، وهذا دليل على أن جهنم دركات.

- أثبت الآيات نبوة موسى بالنص ونبوة من جاء بعده على وجه الإجمال، قال تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴾.

- لكل رسول آية بينة تدعو إلى صدقه؛ قال تعالى: ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ [الحديد/ ٢٥].

- دل قوله تعالى: ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ على إبطال ألوهية عيسى عليه السلام، لأن الله أيده بروح القدس، ولو كان إلهاً لما احتاج إلى تأييد من أحد.

- يستفاد من قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ أن سيدنا محمداً ﷺ مبعوث إلى أهل الكتاب، وهذا يشير إلى عموم رسالته، ويكذب ادعاء اليهود أنه نبي العرب فقط.

- الأنبياء معصومون من الكفر، وقد نزه القرآن أنبياء الله عن كل نقیصة، وأعلها الكفر فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ وهذا بخلاف ما ادعته عليه اليهود؛ حيث ذكرت التوراة عنه أنه: "كانت له سبع مائة من النساء السيدات، وثلاث مائة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه، وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى،... وعمل سليمان الشر في عيني الرب، ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه،... فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى

فلم يحفظ ما أوصى به الرب»^(١).

- اتفق الفقهاء على أن تعلم تعليم السحر وتعلمه حرام، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ ، قال ابن قدامة : "لا نعلم فيه خلافاً بين أهل العلم"^(٢)، وقال جمع من الفقهاء بكفر من تعلم السحر.

- حكم الساحر أنه كافر طالما استعان بالشياطين وتوسل بها على مقصوده، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ .

- كل ما يصيب المؤمن من ضرر أو أذى فإنه بإذن الله الكوني القدرى، ولن يستطيع ساحر أو غيره أن يؤذى أي أحد إلا بإذن الله تعالى.

ب- الأحكام الشرعية :

- تحريم أن يكتب الإنسان من عند نفسه ثم ينسب ذلك إلى الله، قال تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ .

- تحريم التبديل في الشرع، قال تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ قال القرطبي: "في هذه الآية والتي قبلها التحذير من التبديل والتغيير والزيادة في الشرع، فكل من بدل وغير أو ابتدع في دين الله ما ليس منه ولا يجوز فيه فهو داخل تحت هذا الوعيد الشديد، والعذاب الأليم"^(٣).

- قال الشافعي: "ولو أوصى أن يعطى الرهبان والشامسة ثلثه جازت الوصية لأنه قد تجوز الصدقة على هؤلاء، ولو أوصى أن يكتب بثلثه الإنجيل والتوراة لدرس لم تجز الوصية لأن الله عز وجل قد ذكر تبديلهم منها فقال: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ

(١) العهد القديم. سفر الملوك الأول. الإصحاح / ١١ أرقام / ٣، ٤، ٦، ٩، ١٠.

(٢) المغني لابن قدامة ٩ / ٣٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢ / ٢٢٣.

هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿^(١)﴾.

- تحريم سفك الدماء، وبيان أنه مما أجمعت الشرائع عليه.

- تحريم إخراج الإنسان من بلاده إلا بمسوغ شرعي.

- قال ابن قدامة: "ويجب فداء أسرى المسلمين إذا أمكن، وبهذا قال عمر بن عبد العزيز ومالك وإسحق"^(٢).

- تحريم الإيثار ببعض الكتاب وترك بعضه.

- تجنب الألفاظ المحتملة التي فيها التعريض للتقويض والغضب، ويخرج من هذا فهم القذف بالتعريض، وذلك يوجب الحد عند المالكية خلافاً للأحناف والشافعية؛ فعندهم: التعريض محتمل للقذف وغيره، والحد مما يسقط بالشبهة.

- تحريم مخاطبة رسول الله بالألفاظ الموهمة التي تحتل الحق والباطل، قال تعالى: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾.

- ذهب المالكية وغيرهم إلى الأخذ بقاعدة سد الذرائع؛ وهي المسألة التي ظاهرها الإباحة ويتوصل بها إلى فعل المحذور. ومن جملة أدلتهم على ذلك قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ فقد نهاهم سبحانه أن يقولوا هذه الكلمة مع قصدهم بها الخير لئلا يكون قولهم ذريعة إلى التشبه باليهود في أقوالهم وخطابهم فإنهم كانوا يخاطبون بها النبي ﷺ ويقصدون بها السب^(٣).

- دل قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ

(١) الأم للشافعي ٢١٣/٤.

(٢) المغني ٢٢٨/٩ وذكر القرطبي الوجوب عند تفسيره لقوله تعالى (وإن يأتوكم أسارى فتادوهم) ٢٤٢/٢.

(٣) انظر: الموافقات للشاطبي ٣/٣٠٠، وإعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم ٣/١٣٧.

﴿ مَنْ حَبَّرَ مِنْ رَيْبِكُمْ ﴾ على أن كراهة نزول الخير للمؤمنين حرام.

- النسخ ممكن عقلاً لا يترتب على وقوعه مستحيل، واقع في الشرع، وقد حدث بين الشرائع، ومن أمثلة ذلك في التوراة أن زواج الأخ بأخته كان جائزاً في زمن آدم عليه السلام، وهذا واضح في قصة قابيل وهابيل. بل في كتبهم أن هذا الزواج كان في عهد إبراهيم عليه السلام حيث قال: (وبالحقيقة أيضاً هي أختي ابنة أبي، غير أنها ليست ابنة أُمِّي. فصارت لي زوجة) "سفر التكوين. الإصحاح العشرون. رقم ١٢". ثم نسخ هذا الحكم بعد ذلك وصار هذا النوع من الزواج محرماً في الشريعة الموسوية؛ ففي سفر التثنية الإصحاح السابع والعشرين رقم ٢٢: (ملعون من يضطجع مع أخته بنت أبيه أو بنت أمه).

ومن أمثلته في الشريعة نفسها ما ورد في إنجيل متى الإصحاح الخامس عشر رقم ٢٤: (لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة) وهذا بأسلوب القصر: النفي والاستثناء، وجاء في إنجيل مرقس الإصحاح السادس عشر رقم ١٥: (اذهبوا إلى العالم أجمع وكرزوا بالإنجيل للخليفة كلها). فهذان نصان لا بد أن يكون أحدهما ناسخاً للآخر.

وقد نسخت شريعة الإسلام ما قبلها كما سبق، وحدث النسخ في بعض الأحكام على خلاف بين العلماء المضيقين والموسعين في عدد حدوثه، لكن جمهور الأمة متفقون على وقوع النسخ.

- تحريم سؤال التعنت؛ قال تعالى: ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ ﴾ ١٠٨.

- في قوله تعالى: ﴿ فَأَعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ ١٠٩ بيان لحكم منسأ، أي مؤخر إلى غاية وأمد وهو حكم قال المشركين، فالآيات التي تأمر بالعتف والصفح لها غاية وهي قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ ١٠٩.

- من لم يتبين الحق ويعلمه فهو معذور بجهله، أما إذا علم المرء الحق وتبينه فلا عذر له، قال تعالى في معرض ذم اليهود ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا نَبَّأْنَاهُمْ لَحَقُّ ﴾ ١٠٩.

- حرمة منع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه. وحرمة السعي في خرابها.
- استدلال الحنفية بالآية على كراهة إغلاق باب المسجد لأنه يشبه المنع من الصلاة، وقيل: لا بأس به إذا خيف على متاع المسجد.^(١)
- عدم جواز منع النساء من الذهاب للمساجد، قال رسول الله: (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله)^(٢). وقال بعضهم إن النهي للتنزيه لا للتحريم^(٣).
- استدلال بعض الفقهاء بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ على أن الكافر لا يجوز له دخول المسجد بحال. وأجازه أبو حنيفة مطلقاً والشافعي بإذن المسلمين. فيها عدا مكة.
- قال الصنعاني في الآية: "ولا يتم بها دليل على تحريم المساجد على المشركين؛ لأنها نزلت في حق من استولى عليها وكانت له الحكمة والمنعة كما وقع في سبب نزول الآية الكريمة.. أما دخوله من غير استيلاء ومنع وتخريب فلم تفده الآية الكريمة"^(٤).
- لا ينبغي أن تستغل المساجد في غير ذكر الله، كالبيع والشراء، وقد كرهه جمهور أهل العلم^(٥). قال رسول الله ﷺ (إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد، فقولوا: لا ربح الله تجارتك، وإذا رأيتم من ينشد فيه الضالة فقولوا: لا رد الله عليك)^(٦).
- إذا صلى إلى جهة مجتهداً معتقداً أن هذه الجهة هي القبلة فإن صلاته تصح. وهو مذهب جماعة

(١) البحر الرائق لزبن الدين الحنفي ٣٦/٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٨٥٨ ومسلم في صحيحه برقم/ ٤٤٢ عن عبد الله بن عمر.

(٣) المجموع للنووي ١٧١/٤.

(٤) سبل السلام للصنعاني ١٥٤/١.

(٥) انظر: تبين الحقائق للزيلعي ٣٥١/١ والمجموع للنووي ٢٠٠/٢ ونيل الأوطار للشوكاني ١٦٧/٢.

(٦) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه برقم/ ١٣٠٥، والحاكم في المستدرک برقم/ ٢٣٣٩ وصححه على شرط

مسلم، والترمذي برقم/ ١٣٢١ وحسنه.

من التابعين وأبي حنيفة وأحمد ومالك، إلا أن مالك قال يعيد استحساناً؛ ودليلهم ما ورد عن عامر بن ربيعة قال: "كنا مع النبي ﷺ في سفر في ليلة مظلمة، فلم ندر أين القبلة، فصلى كل رجل منا على حياله، فلما أصبحنا، ذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ فنزل: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَؤُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾^(١).

- يجوز للمصلي أن يصلي النافلة على دابته حيث توجهت به؛ لحديث عبد الله بن عمر: "قال كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه، قال: وفيه نزلت (فأينما تولوا فثم وجه الله)^(٢).

- استدلال الأحناف والشافعية بقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَبَيَّنَ لَكُم مَلَّتَهُمْ﴾ على أن الكفر كله ملة واحدة؛ فلم يقل مللهم وبذلك يكون قد جعلهم ملة واحدة؛ وعلى هذا فإن اليهودي يرث النصراني والعكس، وكذا المجوسي. لأن الأصل إسلام وكفر ولا ثالث بينهما^(٣).

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية :

- الرد على القول الخاطئ يكون بكشف شبهته وبيان فساده، ويكون ذلك بالحجج المنطقية كطريقة السبر والتقسيم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا الْكَاذِبُ إِلَّا أُنْيَامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَمْخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤). ويكون أيضاً بالحجج التي تفحم الخصم، فلما ادعى اليهود أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم فقط رد الله قولهم وأبطل دعواهم بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

(١) أخرجه الترمذي في سننه برقم/ ٣٤٥، ٢٩٥٧ وقال: ليس إسناده بذلك، لكن يشهد له حديث جابر في نفس معناه عند الحاكم برقم/ ٧٤٣ فيصير هذا الحديث حسناً. وانظر فتح الباري لابن حجر ٤/ ١٤٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ٧٠٠.

(٣) انظر: المبسوط للسرخسي ٣٠/ ٣١، والحاوي الكبير للهاوردي ٨٠/ ٨. وخالفهم في ذلك مالك فلم يجز توارثها. وانظر الاستذكار لابن عبد البر ٥/ ٣٧٠.

- من أخلاق اليهود الرديئة التي سجلتها عليهم الآيات: الكذب والاجترار على الغيب كما في قولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَنْتِنَا مَا مَعْدُودَةٌ﴾، والقول على الله بلا علم، قال تعالى: ﴿أَمْ نَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فعلى المسلم أن يحذر هذه الأخلاق وإلا كان مشابهاً لليهود في بعض أوصافهم.

- وجوب الإحسان إلى الوالدين وبرهما، والتحذير من عقوقهما، وقد فصلت الآيات أبواب الإحسان إلى الوالدين، ومن ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَبَلِّغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء/ ٢٣، ٢٤].

- الإحسان إلى ذي القربى أجره مضاعف؛ إذ فيه أجران: أجر صلة الرحم وأجر الإحسان، والإحسان إليهما إحسان للأبوين من جهة. والإحسان إليهم مطلوب حتى لو كانوا يضمرون العداوة، قال رسول الله ﷺ: (أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح)^(١).

- الإحسان إلى اليتامى وكفالتهم أمر مرغوب فيه، وقدمهم الله على المساكين لأنهم لا يستطيعوا رد المعروف فالنفس لا تميل إليهم، وقد اقترن اليتيم والمسكين في الإعطاء في أكثر من آية؛ منها قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد/ ١٤-١٦] والإحسان إليهما سبب لركة القلب؛ فعن أبي هريرة أن رجلاً شكاً إلى النبي ﷺ فسوة قلبه فقال: (امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين)^(٢).

- من أخلاق الإسلام: الإحسان إلى المساكين بالقول والفعل، وتفقد أحوالهم ورعايتهم،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم/ ١٤٧٥ وصححه على شرط مسلم، وابن خزيمة في صحيحه برقم / ٢٣٨٦ عن أم كلثوم بنت عقبة. قال الحافظ المنذري: ورجاله رجال الصحيح. الترغيب والترهيب / ١٨/٢. ومعنى الكاشح: الذي يضم العداوة. غريب الحديث للخطابي / ١/ ٧١٤.

(٢) رواه أحمد في مسنده / ٢/ ٣٨٧ عن أبي هريرة. قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد / ٨/ ١٦٠.

وحبهم، والسعي في قضاء حاجاتهم؛ قال رسول الله ﷺ: (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم الليل والصائم النهار)^(١).

- القول الحسن خلق حسن مع الناس عموماً مؤمنهم وكافرهم. قال ابن عباس: "لو قال لي فرعون: بارك الله فيك قلت: وفيك"^(٢). وفي أدب هذه الآية يقول القرطبي: "فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس ليناً ووجهه منبسطاً طلقاً مع البر والفاجر، والسني والمبتدع، من غير مدهانة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضي مذهبه، لأن الله تعالى قال لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ [طه/ ٤٤] فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه"^(٣).

- من الأخلاق القرآنية العظيمة خلق الإنصاف، وعدم التعميم في إطلاق الأحكام، وبيان ذلك أن القرآن عندما ذم اليهود بنقض العهد لم يعمم الحكم عليهم، وإنما وصم به فريقاً منهم فقال: ﴿أَوْكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [آل عمران: ١١٣] وهذا غاية الإنصاف والعدالة.

- خلق الحسد من الأخلاق الذميمة، ومعناه تمني زوال النعمة من الغير، وقد اتصف به اليهود، فحسدوا المسلمين على فضل الله، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤] وقد دفعهم حسدهم إلى حجة إضلال المسلمين.

- حسد اليهود المسلمين فأمرهم الله أن يعفوا ويصفحوا، وهذا خلق إسلامي طيب مع الحاسد وغيره، وقد حسد يوسف أخوته فعفا عنهم، وحسد قابيل أخاه هابيل فلم يؤذ، فالأولى للمحسود أن يعفو ويصفح، ويستعين بالله على هؤلاء حتى يكفهم عن أذاه.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٥٠٣٨ ومسلم في صحيحه برقم/ ٢٩٨٢ بنحوه عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير برقم/ ١٠٦٠٩ وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد . ١٨٢/٨

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٢٣٣.

- من الآداب الإسلامية مطالبة الخصم بالحجة والبرهان، وعدم الحكم قبل معرفة حجة الخصم، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١] و[النمل: ٦٤]، وقال: ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ [الأنعام: ١٤٨].
- صاحب اليقين الصادق هو الذي ينتفع بالقرآن حقاً، قال تعالى ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾، واليقين هو حياة القلب وقوته، وقد أثنى الله على أهله في أول السورة، وإذا كانت آيات الله المسطورة لا ينتفع بها إلا الموقنون فكذلك آياته المنظورة في الكون؛ قال تعالى ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجن: ٤] أما ضعيف اليقين فإن الآيات القرآنية والكونية لن تزيده إلا ضلالاً على ضلاله.

- تلاوة القرآن حق التلاوة أمر ديني. وأصل الكلمة في اللغة تعني الاتباع: قال ابن منظور: وتلا إذا تبع فهو تال أي تابع^(١). فالمقصود من التلاوة الجانب اللفظي، والأشرف منه والأعظم جانب الاتباع والعمل، وبهذا فسر السلف الآية؛ قال الطبري: "والصواب من القول في تأويل ذلك أنه بمعنى: يتبعونه حق اتباعه، من قول القائل: ما زلت أتلو أثره، إذا تبع أثره؛ لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن ذلك تأويله"^(٢). وعلى هذا فللسان حظ من التلاوة بالنطق، وكذا العقل بالفهم والقلب بالاتعاظ والتدبر والجوارح بالعمل، والله الموفق.

د- الجوانب التربوية:

- ثبت من كلام الله أن بني إسرائيل حرفوا كتابهم الذي نزل عليهم، وهذا يستلزم من المسلمين أن يكونوا حذرين فيما يأخذونه منهم، وقد أضر العقل المسلم بسبب كثرة الإسرائيليات التي تسللت إلى بعض كتب الأقدمين، وغالبها مما لا فائدة منه، وقد كان الصحابة الكرام حريصين على نقاء منهجهم التربوي فلم يردوا هذه الكتب، ويشهد لذلك ما ورد عن

(١) لسان العرب مادة (تلا).

(٢) جامع البيان للطبري ٢/ ٥٦٩. قال الماوردي: وهذا قول الجمهور. النكت والعيون.

عبدالله بن عباس رضي الله عنهما حيث قال: "يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي أنزل على نبيه ﷺ أحدث الأخبار بالله تقرؤونه لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا ﴿ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْ رُؤَا بِوَيْءٍ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم! ولا والله ما رأينا منهم رجلا قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم"^(١).

- القراءة بلا فهم لا فائدة منها، وقد ذم الله أقواما من أهل الكتاب ووصفهم بأنهم أميون فقال: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي ﴾، أي تلاوة. وهذا أحد أوجه تفسير لفظة الأمانى. ومثل هذه القراءة لا تفيد صاحبها شيئا؛ لأنه لم يفقه ما قرأ، وإذا كان الله قد ذم الأولين ففي هذا تحذير للآخرين، عن سعيد بن جبير، قال: "من قرأ القرآن ثم لم يُفسره، كان كالأعمى"^(٢).

- من الأساليب التربوية تأكيد الشيء بما هو معلوم، قال تعالى: ﴿ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾. كل ثمن يأخذه الإنسان في الدنيا نتيجة التحريف والتبديل فهو قليل لا قيمة له بجوار الآخرة ونعيمها.

- انحراف العالم أشد من انحراف غيره، لأنه فعل ذلك عن عمد؛ فهو قد عرف وأنكر، قال الجصاص: " وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ، مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يدل على أن العالم بالحق المعاند فيه أبعد من الرشد وأقرب إلى اليأس من الصلاح من الجاهل؛ لأن قوله تعالى: ﴿ أَفَنْظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا ﴾ يفيد زوال الطمع في رشدكم لمكابرتهم الحق بعد العلم به"^(٣).

- الاقتران بين الترغيب والترهيب، وذكر المؤمنين بعد الكافرين منهج تربوي قرآني. فهو يُعرَّف

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم / ٢٥٣٩. ومعنى لم يشب أي لم يخلط؛ لأنه لم يتطرق إليه تحريف ولا

(٢) تبديل بخلاف التوراة. عمدة القاري للعيني ٧٥ / ٢٥.

أخرجه عنه الطبري في جامع البيان ١ / ٨١ برقم / ٨٧ وصحح الشيخ شاکر إسناده.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٤٦ / ١. ونقله عنه الرازي في التفسير الكبير ٣ / ١٢٥.

القارئ حال الفريقين ومآلهم، ومن فوائده أنه يجعل المؤمن يتقلب بين الخوف والرجاء، وهذه قاعدة تربوية قرآنية؛ قال الشاطبي: "إذا ورد في القرآن الترغيب قارنه الترهيب في لواحقه أو سوابقه أو قرائنه وبالعكس، وكذلك الترجية مع التخويف وما يرجع إلى هذا المعنى مثله. ومنه ذكر أهل الجنة يقارنه ذكر أهل النار وبالعكس؛ لأن في ذكر أهل الجنة بأعمالهم ترجية وفي ذكر أهل النار بأعمالهم تخويفاً، فهو راجع إلى الترجية والتخويف"^(١).

- التخويف من اختيار الدنيا على الآخرة، واستبدال الآخرة بالدنيا؛ فمن باع دينه بعرض من دنياه فقد عرض نفسه للفتن، وأتى باباً من أبواب كبائر الذنوب.

- ما يصيب الإنسان من المرض المعنوي في قلبه إنما هو أثر من آثار ذنبه، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ وقال رسول الله ﷺ: (إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه. فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلق قلبه فذلکم الران الذي ذكر الله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]^(٢).

- العناد يورث الكفر؛ فإذا أنكر العالم ما يعلم وجحدته أداه ذلك إلى الكفر، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾ وليس هذا بأول مخارق بني إسرائيل؛ فقد فعلوا ذلك مع نبيهم موسى، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ [الصف: ٥] وفي حق عيسى قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦].

- التعصب بالباطل من سمات اليهود، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾. وكذلك أيضاً عدم الاستجابة للبينات، فعندما تأتيهم البينات على

(١) الموافقات للشاطبي ٣/ ٣٥٨. وقد ذكر بعدها أمثلة تطبيقية للقرآن المدني من سورة البقرة وللمكي من سورة الأنعام.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم / ٣٩٠٨ وصححه على شرطها، والترمذي في سننه برقم / ٣٣٣٤ وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه برقم / ٤٢٤٤.

الحق يتخذوا العجل لها!

- إذا أعرض الإنسان عن الحق دخل في قلبه الباطل، قال تعالى: ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ فبسبب محبتهم لعبادة العجل أن نفوسهم فارغة عن الحق، وقديما قيل: النفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك عن الحق^(١).

- أعلى درجات السمع: القبول والاستجابة لما يُسْمَع، وأسوأ مراتب السمع: السمع والعصيان. وقد وردا معا في قوله تعالى: ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾.

- ذم القرآن حرص اليهود على الحياة الدنيلة؛ قال تعالى: ﴿ وَلَسَجَدَتُّهُمُ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ ﴾ والحياة إن لم تكن لهدف وقيمة فلا خير فيها ولا فائدة من عمر يمر سبهلا^(٢).

- دل قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِمُرْجِحِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ﴾ على أن التعمير "طول العمر" لا يفيد صاحبه شيئا إذا لم يصحبه تقوى وإيمان، فقد سئل رسول الله ﷺ: أي الناس شر؟ فقال: من طال عمره وساء عمله^(٣).

- من أساليب القرآن في مواجهة المعاندين، أسلوب التحدي، وقد تحدى القرآن المشركين أن يأتوا بسورة من مثله وبين عجزهم عن ذلك بقوله: ﴿ وَكَنْ تَفْعَلُوا ﴾، وتحدى اليهود في أكثر من موطن؛ منها قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ وبين عجزهم في قوله: ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾.

- يبين الله تعالى للمؤمنين في كثير من الآيات أن الكافرين ليسوا فقط أعداء للمؤمنين، وإنما هم

(١) وتنسب هذه المقولة إلى الحلاج: كما في تاريخ بغداد ٨/ ١١٤، وتاريخ الإسلام للذهبي ٢٣/ ٤٧.

(٢) أي فارغاً لا في عمل دنيا ولا آخرة. تاج العروس للزبيدي ٢٩/ ١٧٤.

(٣) رواه الحاكم في المستدرک برقم/ ١٢٥٦ والبيهقي في سننه الكبرى برقم/ ٦٣١٨ و الترمذي في سننه برقم/ ٢٣٣٠ وقال: حسن صحيح، والدارمي في سننه برقم/ ٢٧٤٢ واحمد في مسنده ٥/ ٤٠، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٣: إسناده جيد.

أعداء لله تبارك وتعالى؛ قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾، وقال: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَنْخِذُوا عَدُوِي وَعَدُوَكُمْ ءَأُولِيَاءِ ﴾ [المتحنة/ ١] وهذا تربية للمؤمنين وتعليم لهم أن يكونوا على ثقة من معية الله ومن نصرته لهم.

- ينبغي على المعلم أن يوجه المتعلم التوجيه الصحيح؛ فالملك ان اللذان نرلا الأرض ليعلما الناس السحر كانا يعرفان الناس حكم تعلمه، قال تعالى: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَقًّا يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ وبهذا أوضحا للناس أنها فتنة للعباد، وأوضحا للمتعلم أنه قد يكفر إذا تعلم السحر وعمل به.

- من أساليب القرآن الحكيمة في توجيه المؤمنين نداؤهم بالوصف المحبب إليهم، وهو وصف الإيمان.

- من الأمور التي ربي القرآن عليها أتباعه عدم مشابهة الكافرين عموماً، وأهل الكتاب خصوصاً في أهوائهم، والآيات في ذلك كثيرة. قال تعالى: ﴿ وَلَئِن أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ فهذا نهي للأمة عن اتباع أهواء أهل الكتاب، ومن المواقف العملية في ذلك قوله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا ﴾.

- مما يحرص عليه المربي الناجح أن يوفر البديل الحلال إذا ذكر شيئاً محرماً، فالقرآن عندما نهي المؤمنين عن ذكر لفظ راعنا، أعطاهم البديل المشروع وهو قوله تعالى: ﴿ وَقُولُوا أَنْظِرْنَا ﴾ فهذا بديل عن اللفظ المحرم، يعين على التخلص من الحرام، ويغني الأتباع عن إتيانه ومقارفته.

- تعريف الأعداء، وكشف باطلهم، وبيان ما يكونونه للمؤمنين من شر، منهج قرآني ربي الحق المسلمين عليه؛ حتى يحذروا من مكر الماكرين، ولا يغتروا بمعسول القول وليّن الحديث.

- النسخ أسلوب تربوي حكيم، يصلح الأفراد، ويخفف عنهم، وفي حكمة النسخ بالأخف يقول الإمام الشافعي: "إن الله خلق الخلق لما سبق في علمه مما أراد بخلقهم وبهم، لا

معقب لحكمه وهو سريع الحساب، وأنزل عليهم الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وفرض فيه فرائض أنبتها وأخرى نسخها، رحمة لخلقها: بالتخفيف عنهم، وبالتوسعة عليهم، زيادة فيما ابتدأهم به من نعمة، وأثابهم على الانتهاء إلى ما أثبت عليهم: جنته، والنجاة من عذابه فعمتهم رحمته فيما أثبت ونسخ. فله الحمد على نعمه^(١)

وهذا الكلام واضح في مسألة النسخ بالأخف، أما في النسخ بالأتقل فإنه أسلوب تربوي حكيم يأخذ الناس بالتدرج في الأحكام حتى يألفوا الأمر ويهون عليهم فعله بلا مشقة، وتلك سياسة حكيمة تسوس الناس إلى الخير برفق حتى يسلس قيادهم، ولو نزل الحكم ثقيلاً من أوله فلربما قالوا: لا ندع فعله أبداً.

- التدرج في معاملة الكفار منهج قرآني لتربية الجماعة المؤمنة؛ فقد ابتدأت الآيات بالعفو والصفح ثم تدرج الحكم إلى الأمر بقتال من قاتل المسلمين، ثم انتقل إلى المرحلة الثالثة وهي قتال المشركين كافة.

- تشابه القلوب يؤدي إلى تشابه الأقوال وكذا الأفعال، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ وقد تشابهت أقوال وأفعال المكذبين؛ قال تعالى: ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدِ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [فصلت: ٤٣] وقال في حق أهل الكتابين: ﴿ يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ [التوبة: ٣٠].

- مهمة المربي المقتدي بالنبي ﷺ أن يكون مبشراً للطائعين ومنذراً للعاصين، قال تعالى مخاطباً نبيه عليه السلام: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾.

- من ضلَّ فإنما يضل على نفسه، ولن يضر الداعي أو المربي شيئاً، لأنه لن يُسئل عن النتائج، قال تعالى: ﴿ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾.

(١) الرسالة للإمام الشافعي ص ١٠٦.

- التفاضل وارد بين الأمم وحتى بين الأنبياء، قال تعالى ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران/ ١٦٣].

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

- تحدث هذا المقطع عن مواقف بني إسرائيل مع النبي ﷺ وأصحابه ومع القرآن الكريم وقد عدت الآيات كثيرا من مواقف اليهود ونجملها فيما يلي:

- ١- سماع كتاب الله المنزل ثم تحريفه وهم يعلمون، ٢- لوم بعضهم البعض على نشر العلم الموجود في كتبهم، ٣- كتابة الكتاب بأيديهم ونسبته إلى الله لنيل بعض أعراض الدنيا، ٤- زعمهم أن النار لن تمسهم سوى أيام، ٥- تركهم أوامر التوراة من التوحيد والإحسان إلى الوالدين والقول الحسن وغير ذلك، ٦- مخالفتهم الميثاق بعدم سفك الدماء حيث سفكوا دماء بعضهم وأخرجوا بعضهم من ديارهم، ٧- تناقضهم؛ فبعد أن قتلوا وأخرجوا فادوا أسراهم، ٨- كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون، ٩- عندما دعوا لكتاب الله قالوا إن قلوبهم غلف، ١٠- كفرهم بالقرآن المصدق لما معهم ١١- كانوا يستفتحون على الكفار بالنبي المبعوث، ١٢- استبعاد الإيمان بالكتب المنزلة من غير أنبيائهم، ١٣- قولهم سمعنا وعصينا عندما أمروا بالعمل بما في التوراة، ١٤- ادعوا أن الآخرة خالصة لهم ثم رفضوا تمني الموت وهذا تناقض عجيب، ١٥- حرصهم الشديد على طول الحياة في الدنيا بأي وضع كان، ١٦- ادعائهم عداوة أمين الوحي جبريل، ١٧- نقض فريق منهم عهودهم مع الناس، ١٨- نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم واتباعهم السحر، ١٩- تعلمهم السحر للإفساد بين الرجل وزوجه، ٢٠- إمالتهم الكلام للنبي محمد ﷺ بقصد الإساءة والسب بقول (راعنا)، ٢١- حسدهم المؤمنين وتمنيهم ألا ينزل عليهم خير من ربهم، ٢٢- محبتهم أن يرتد المسلمون كفاراً حسداً من بعد معرفتهم بالحق الذي مع المسلمين، ٢٣- ادعائهم أنه لن يدخل الجنة غيرهم، ٢٤- منعهم مساجد الله أن يذكر فيها اسمه والسعي في خرابها، ٢٥- قولهم: اتخذ الله ولداً، ٢٦- عدم رضاهم عن المسلمين حتى

يتبعوا ملتهم^(١).

ولم يكتف القرآن بدمغهم بهذه المواقف المسجلة عليهم؛ بل ردَّ عليهم باطلهم من زعمهم أنهم لن يدخلوا النار سوى أيام معدودة؛ فطالبهم بالبرهان، وبين سنة الله في الكون من تعذيب العاصي وإثابة المطيع، ثم أثبت لهم أنهم قد أحاطت بهم خطاياهم فلا مطمع في نجاتهم. وكذلك ردَّ عليهم في زعمهم أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم فقط، وردَّ عليهم زعمهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وزعمهم أن الله ولدأ، وأثبت تناقضهم في أكثر من موطن. وما سبق متصل بمحوري السورة بأكثر من وجه؛ فهو يعلم المسلمين كيفية مجادلة هؤلاء القوم وإفحامهم، ويعدّهم للمواجهة معهم، ويحذرهم من اتباعهم ولو في مجرد اللفظ الذي يوهم السوء. وذلك حتى يتسنى ذروة العلا بلا شائبة مشابهة لمن خلا.

(١) انظر: المحاور والمناسبات لسور القرآن الكريم للدكتور مصطفى مسلم مخطوط ص ٦٠، ٦١. بحث: المناسبات وأثرها: ص ٤٠ بتصرف.

المقطع الثالث: دعوة إبراهيم وتبرئتها من انتساب اليهود والنصارى إليها

[١٢٤-١٤١]

﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشَّرِّتِ مَنْ ءَامَنَ مِنهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٧﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٩﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٣٠﴾ وَمَنْ يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣١﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٢﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَؤِي إِنَّا اللَّهُ أَصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَحَدًّا وَنَحْنُ لَهُ مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٤﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٥﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٦﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٧﴾ إِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٨﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٩﴾ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ آعْمَلْنَا وَلَكُمْ آعْمَلْنَا وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٤٠﴾ أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَرِ اللَّهُ وَمَنْ

أَظْلَمُ مِمَّن كَتَرَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ حَلَّتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ [البقرة: ١٢٤-١٤١]

مناسبة المقطع لما قبله :

بعد أن بيت الآيات السابقة نعم الله على اليهود، وذكرت بغيبهم وعنادهم، توجهت الآيات بالاحتجاج عليهم وعلى المشركين، وكلا الفريقين يزعم الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام. فبينت الآيات الكريمة إمامة إبراهيم، وأوليته في الإسلام وبناء بيت التوحيد في الأرض وذكرت من يستحق وراثته بحق، ومن أولى الناس.

ويظهر التناسب واضحاً بين هذه الآيات والتي قبلها؛ فقد ادعى اليهود والنصارى أنهم أصحاب الجنة فقالوا ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانِيًّا ﴾ [١١١] فردَّ الله هنا على هذا الادعاء وبين أنه لن ينال أحد منزلة عنده إلا بعد الابتلاء، وبين أيضاً أن مجرد الانتساب إلى إبراهيم لا يفيد صاحبه شيئاً؛ فعندما دعا إبراهيم بالإمامة لذريته قال له ربه ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [١٢٤].

وإذا كان المقطع السابق قد كشف أن اليهود ومن إليهم قد حاولوا أن يمنعوا المسلمين من الصلاة في المسجد الحرام، فإن هذا المقطع أوضح بجلاء أن هذا البيت المبارك آمن للناس وموئل للتوحيد لا مكان للشرك فيه بحال، وأظهر بقعة في الدنيا لا يصح تدنيسه بالأصنام ولا بأي مظهر من مظاهر الشرك.

وقد ادعى هؤلاء لله الولد، وهذا دليل على انقطاع نسبهم الروحي بإبراهيم؛ لأنه دعا ربه أنه يهبه ذرية مسلمة.

ولم يظهر شرك هؤلاء في أمر الإلهيات فقط، بل أنكروا أمر النبي الخاتم وكفروا به، ولو صدقوا في نسبتهم لإبراهيم عليه السلام لعلموا أنه قد دعا ربه قائلاً: ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾ [١٢٩].

ولم يكن الأمر قاصراً على إبراهيم وحده، فإذا كانوا زعموا في المقطع السابق الإيذان بها أنزل عليهم فقالوا: ﴿ تُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ [٩١] فإن أنبيائهم كانوا على نفس النهج، قال تعالى: ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ [١٣٣] وليس أنبياء بني إسرائيل بدعاً من الأمر، فكل المرسلين كانوا على نهج التوحيد، قال تعالى: ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ [١٣٦].

ومن أوجه المناسبات إعادة التذكير ببعض القضايا الواردة في المقطع السابق بأسلوب آخر وذلك مثل قوله تعالى ﴿ وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ وقوله: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تَهْتَدُوا ﴾.

التفسير الإجمالي للمقطع:

يذكر الله تعالى نبيه محمداً بتاريخ أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام فيقول: اذكر إذ عامل الله نبيه وخليله إبراهيم معاملة المختبر بأن ابتلاه بكلمات شرعية هي مجموع التكليف والأوامر والنواهي^(١) فأداهن وأتمهن كما قال تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم/ ٣٧] فاستحق بذلك عظم المنزلة ورفعة القدر بأن يكون إماماً يأتهم ويقتدي به الناس جميعاً.

فدعا ربه قائلاً: واجعل بعضاً من ذريتي يا رب أئمة للناس، ونظيره دعاؤه لربه: ﴿ رَبِّ

(١) ذكر المفسرون هنا أقوالاً عدة؛ فمن قائل: إنها خصال الفطرة، وقيل: ثلاثون خصلة من خصال الإسلام، في سورة براءة، والأحزاب، والمؤمنون، وقيل: ما جاء بعد الآية من الإمامة وتطهير البيت، قال الطبري معلقاً على هذه الأقوال: "ولا يجوز الجزم مما ذكره منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع" ومن بلاغة القرآن أنه ذكرها مجملة لأن الغرض ليس تفصيل شريعته ولا بسط قصته عليه السلام وإنما الغرض بيان فضله. انظر التحرير والتنوير لابن عاشور: ٧٠٣/١.

أَجْعَلَنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴿ [إبراهيم: ٤٠] فأجابه الله إلى دعائه، لكنه مقيد بالصالحين فلن ينال وعد الله المؤكد بحراسة الدين وسياسة الدنيا من ظلم نفسه بالشرك.

ثم ذكرت الآية أعظم أثر لإمامة إبراهيم للناس وهو بناء البيت الحرام الذي خلق الله في قلوب الناس محبته والشوق إليه استجابة لدعوة أبي الأنبياء في قوله ﴿ فَأَجْعَلْ أَقْتِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَىٰ إِلَهُهِمْ ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فما من موحد إلا ويثوب أي يرجع إليه بقلبه في صلاته. ومنهم من يرجع إليه للحج والعمرة، والكل يثاب بالثبوت إليه؛ إذ هو الأمن الذي يأمن أهله والناس من حولهم يتخطفون قال تعالى: ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَكَمًا ءَامِنًا وَيَتَخَفَتِ النَّاسُ مِّنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٦٧] ويأمن الناس فيه على أموالهم ودمائهم حتى إن أشجاره لتأمن من أن يصيبها القطع.

ومن اتصال اللاحقين بالسابقين أن الله أمر المؤمنين أن يتخذوا الموضع الذي قام عليه إبراهيم لبناء الكعبة مصلى لهم، وقد يكون المعنى على العموم فيراد مكان قيامه للعبادة فيشمل مكة وأماكن الحج كلها، وقد امتثل النبي محمد الأمر فلما فرغ من الطواف تقدم إلى مقام إبراهيم وقرأ الآية وصلى ركعتين^(١). والعموم أولى^(٢)، وقد فسر النبي العام ببعض ما ورد فيه، وقد كان إبراهيم عليه السلام هو الأمين على هذا المكان؛ وقد أوصاه الله وصية مؤكدة بأن يقوم هو وولده إسماعيل بتطهير بيت التوحيد من كل نجس ورجس حسي أو معنوي ليكون مهياً لمن يطوف به أو يقيم به للعبادة والصلاة المعبر عنها بأعظم أركانها وهو الركوع والسجود.

وقد تتابعت منن الله على أهل المكان ببركة دعاء إبراهيم حيث سأل ربه أن يكون هذا المكان القفر بلداً مسكوناً ويكون آمناً أهله من الجبارين والمستأصلين وأن يهبهم الله من كل

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم / ٢٩٥٠ عن جابر.

(٢) قال سيد قطب: مقام إبراهيم يشير هنا إلى البيت كله وهذا ما نختاره في تفسيره؛ فاتخاذ البيت قبله للمسلمين هو الأمر الطبيعي، الذي لا يثير اعتراضاً. وهو أولى قبله يتوجه إليها المسلمون. في ظلال القرآن ١/ ١١٣.

الثمرات فاستجاب الله دعائه، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنَ لَهُمْ حَرَمَاءُ آمِنًا يُجِيبُونَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ وَّرِزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

وقد قاس إبراهيم عليه السلام الرزق على الإمامة فقيده في طلبه بالمؤمنين فقط تأدباً مع الله، لكن الله عمم عطائه للجميع مؤمنهم وكافرهم، قال تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدِّدُ هَتُولَاءِ وَهَتُولَاءِ مِّنْ عَطَائِكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] لكن الكافر يمتع في الدنيا فقط، وهو متاع لو يعلمون قليل، فإذا جاءت الآخرة ذهب بغير اختياره إلى العذاب المؤلم ويئس المرد والمرجع، قال تعالى: ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٧].

وبعد أن بينت الآيات النعم الحسية على العرب من أبناء إسماعيل ذكرتهم بالنعم المعنوية من بناء البيت، وجاء التذكير بصيغة المضارع (يرفع) ليستحضر القارئ والسامع صورة البناء ويتمثلها أمامه وقت أن رفع إبراهيم الأساس وولده إسماعيل معه يعاونه، وهذا استحضار جميل لهذا المشهد الرائع نراه متمثلاً أمامنا، مما يصل حاضر الأمة بإحياها.

وكانت قواعد البيت من قديم الزمان، قال تعالى: ﴿وَلِذَٰ بَوَائِكَ لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦] وعن ابن عباس قال: "القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك" (١)، وكان إبراهيم وإسماعيل وقت بنائهما يتضرعان إلى ربهما أن يقع عملها منه موقع الرضا والقبول وذلك لأنه السميع لكلامهما العليم بأحوالهما.

ثم أكد ارتباط البيت بملة الإسلام فدعوا الله ربهما قائلين: ربنا ثبتنا على الإسلام وأدم علينا نعمة الانقياد واجعلنا خاضعين منقادين لأحكامك، واجعل هذا الخير باقياً في أعقابنا، فهم أولى الناس بدعوتنا، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْماً أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦] وعلمنا يا رب مناسك الحج وشرائع الدين كلها تعليماً واضحاً كالرؤية (٢)، وإنا مع كل هذا يا ربنا لا غنى

(١) تفسير عبد الرزاق ١ / ٥٩ وصححه الحافظ في فتح الباري ٨ / ١٧٠.

(٢) قال الشيخ محمد أبو زهرة: "واني أميل إلى تعميم مدلول المناسك ليشمل كل العبادات الشرعية".

زهرة التفاسير ١ / ٤٠٧.

لنا عن رحمتك، فندعوك ضارعين أن تتوب علينا من تقصيرنا مما هو مقتضى طبع البشر، يقول أبو حامد الغزالي: "وقد كان ﷺ لا يرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى في الأولى بعداً بالإضافة إلى الثانية، فكان يستغفر من الأولى ويرى ذلك نقصاً في سلوكه وتقصيراً في مقامه"^(١). هذا هو اللائق بمقام الأنبياء إذ ليست توبتهم كتوبة العصاة والمذنبين.

وفي دعائهما بهذا المكان تعليم للناس جميعاً أن هذا مكان التوبة والدعاء بالمغفرة، ثم عللا رجاءهما في قبول التوبة بأن الله تعالى هو عظيم التوبة واسع الرحمة بعبادة.

وظاهر هذا الدعاء أنه يخص العرب، إذ الحديث عن نعمة الله عليهم، ثم إن ذرية إبراهيم وإسماعيل معاً هم العرب وحسب، ثم أكملوا دعاءهم لذريتهم بأن يتفضل الله عليهم ويبعث في العرب إلى الدنيا كلها رسولاً منهم يكون أعرف بحالهم وليبين لهم فيشرفوا به ويقوم بثلاث مهام:

أولها: تلاوة آيات الله الكونية والشرعية عليهم.

وثانيها: يعلمهم الكتاب تلاوة ومعنى، ويفقههم في أسرار الأحكام. وإذا كان نبي الله عيسى قد امتن الله عليه وورد في حقه: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران/ ٤٨] فإن الأمة كلها قد بين خليل الرحمن أنها مقصودة بتعلم الكتاب والحكمة لعموم أفرادها، وهذا شرف وتكريم ما بعده تكريم.

وثالثها: وهي ثمرة الأولين وشرط قبولهما، ألا وهي تطهيرهم من أدران الشرك ورديء الخلق، بتزكية نفوسهم وطهارتها، وهذا إشارة إلى المقصود الأصلي لبعثة نبينا محمد الوارد في قوله ﷺ: (بعثت لأتمم صالح الأخلاق)^(٢).

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ٨٧/٤.

(٢) رواه عن أبي هريرة: الحاكم في المستدرک برقم/ ٤٢٢١ وصححه على شرط مسلم، والبيهقي في السنن الكبرى ١٠/١٩٢، وأحمد ٢/٣٨١ بلفظ: إنها بعثت. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/١٨٨: ورجاله رجال الصحيح.

وأعظم به من شرف أن ترث أمتنا خليل الرحمن وأن نكون أولى الناس به، وأن نتحقق فينا دعوته كما قال النبي ﷺ: (أنا دعوة أبي إبراهيم)^(١).

وبعد هذا العرض القرآني لسيرة أبي الأنبياء خليل الرحمن في بناء البيت ودعائه وتضرعه، يأتي ذكر النتيجة القرآنية لما سبق، والمعنى: من من العقلاء يزهد ويربأ بنفسه عن ملة أبيه إبراهيم؟

إنه لا يفعل ذلك إلا من استخف نفسه وامتهنها فأهلكها؛ لأن الله تعالى رفع درجته في الدار الأولى والآخرة؛ أما في الدنيا فقد جعله صفوة الأنبياء وإمامهم؛ عن أنس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا خير البرية، فقال ﷺ: (ذاك إبراهيم)^(٢)، وفي الآخرة فإنه من جملة أهل الصلاح والطاعة، قال تعالى في حقه: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٢].

وكان هذا الاصطفاء من الله لإبراهيم الخليل وقت أن قال له ربه استسلم فأجاب على الفور: أسلمت وجهي للذي خلقني ورزقني، ولم يكتف بهذا الفضل لنفسه وإنما أشرك معه بنيه، فوصى بهذه الكلمة بهذه الكلمة وبهذا الدين بنيه، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨] فسر ابن زيد قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ فقرأ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٣] وقال: جعل هذه باقية في عقبه، قال: الإسلام، وقرأ: ﴿هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج/ ٧٨] فقرأ: ﴿وَأَجَعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾^(٣).

وكما وصى إبراهيم عليه السلام وصى يعقوب ليفهم بنو إسرائيل ذلك، فقال لبنيه: إن الله

- (١) رواه الحاكم في المستدرک برقم/ ٣٥٦٦ وصححه على شرطها، وابن حبان في صحيحه برقم / ٦٤٠٤، وأحمد في مسنده برقم/ ١٧١٩٠. قال ابن كثير في البداية والنهاية ٢/ ٣٢٣: إسناده جيد.
- (٢) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٢٣٦٩.
- (٣) جامع البيان للطبري ٢١/ ٥٩٠.

أعطاكم صفوة الأديان وشرعه وارتضاه لكم فداوموا عليه في كل وقت فإذا جاءكم الموت في أي لحظة وعلى أي حال كنتم من المسلمين لله رب العالمين.

وبعد أن ذكرت الآيات وصية يعقوب لبني إسرائيل يتوجه الخطاب إلى اليهود منكرًا عليهم زعمهم أن يعقوب كان على اليهودية فيخاطبهم: أكنتم حاضرين إذ حضرت مقدمات الموت ومبادؤه يعقوب وعلمتم كيف سأل أبناءه سؤال تقرير وتثبيت: ما تعبدون بعد موتي؟ فأجابوا جميعاً: إنا على نهجك سائرون ولطريقتك وطريق آبائك مقتدون، فلن نعبد إلا من توجهتم له بالعبادة، هذا هو سبيل أبيك إسحق وجدك إبراهيم وعمك إسماعيل، ومعلوم أن العم يقال له أب، قال عليه السلام: (عم الرجل صنو أبيه)^(١) لقد توجه هؤلاء جميعاً إلى الله بالعبادة ونحن أيضاً نخصه وحده بالعبادة إلهاً واحداً لا شريك ونحن له مستسلمون.

لماذا يدعي اليهود إذن النسبة إلى هؤلاء القوم الصالحين وهم ليسوا منهم في شيء؟ هل يحسبون أن مجرد النسب ينفعهم؟ كلا، فقد ذهب يعقوب وبنوه وأبناؤهم بخير عملهم فلم ينتفع من بعدهم بهم، وكذلك أنتم لن ينفعكم إلا ما عملتم وقدمتم، ولن تُستلوا عن عملهم، قال تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يَلْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَا نَزَرْنَا نَارًا وَزَاخَرْنَا ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَن سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النجم: ٣٦-٤١].

وبعد أن ردت الآية على زعمهم أن يعقوب على ملتهم ردت عليهم كذلك ما أرادوه من دعوة الناس إلى دين اليهودية والنصرانية وأبطلت قول اليهود: كونوا هوداً تهتدوا، وكذلك قول النصارى: كونوا نصارى تهتدوا. فأبطلت كلامهم أولاً بحرف (بل) الذي يفيد معنى إبطال الكلام^(٢)، وأعطت للنبي الحجة عليهم: وهي الانتساب إلى ملة إبراهيم الذي يتشرف

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٩٨٣ عن أبي هريرة.

(٢) قال أبو القاسم الزجاجي: بل تأتي لتدارك كلام غلط فيه تقول رأيت زيداً بل عمراً، وتكون لترك شيء من الكلام وأخذ في غيره وهي في القرآن بهذا المعنى كثير. حروف المعاني ص ١٥.

الكل بالانتساب إليه؛ فقد كان خليل الرحمن مائلاً عن كل دين باطل، فلا يغتر المشركون بهذا فإنه ما كان من المشركين. وهو الأولى بالاتباع مما دعوا إليه.

ورود أن عبد الله بن صوريا - وهو يهودي - قال للنبي: ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك فنزلت الآية^(١).

ثم وصلت الآيات للمؤمنين منهج وحدة الدين الإسلامي في كل عصر، وفصلت لهم ملة السابقين، ووجهتم إلى تحقيق وحدة العقيدة والدعوة فأمرتهم أن يقولوا: آمنا بالله وحده وآمنا بكتابه المنزل إلينا، وكذلك آمنا بكل ما نزل على السابقين وما تعبدنا الله من صحف إبراهيم وما نزل إلى يعقوب وإلى بنيه الاثني عشر ناصحاً لهم وموجهاً، وكذلك ما أوتي موسى من التوراة وما أوتي عيسى من الإنجيل، وعلى وجه العموم: كل ما جاء به الأنبياء السابقون، وليس في إيماننا هذا أي انتقاص من أحد، بل كلهم في الإيمان على قدم سواء، لا نفرق بين أحد منهم، فهم قادة مسلمون لله ونحن على هديهم مسلمون.

ولأن هذه الآية قد جمعت أصول الإيمان، وبينت وحدة اتصال دعوة الإسلام بكل ما جاء من عند الله، لهذا فإن النبي كان كثيراً ما يقرأ بها في الركعة الأولى من سنة الفجر^(٢).

هذه هي عقيدتنا وهذا منهجنا، فإن آمن السابقون إيماناً مثل إيماننا فقد حققوا الخير والهدى لأنفسهم، وإن أبو إلا الإعراض والمخالفة والمنازعة فلن يكونوا إلا منغمسين في العداوة والإيذاء وشق الصف وعندئذ فإن الله سيكفي عباده المؤمنين ضررهم وأذاهم، إذ هو السميع لكلامهم العليم بأحوالنا وأحوالهم.

لئن ظن السابقون أن تعميد الطفل وغمسه في الماء المقدس يصبغه ويجعله على دينهم فإننا

(١) قال ابن كثير ١/ ٢٤٤ وسنده حسن.

(٢) رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عباس برقم / ٧٢٧، رواه أبو داود في سننه عن أبي هريرة برقم / ١٢٥٩.

مؤمنون، وقد صبغنا الله صبغة لا تزول أبداً^(١)، ولا أحسن من هذه الصبغة، قال ابن عطية: "وسمى الدين صبغة استعارة من حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين كما يظهر الصبغ في الثوب وغيره"^(٢). فقد صبغنا بهذا الدين وتوجهنا بالعبادة لله وحده لا للأحبار ولا للرهبان.

أيا من تزعمون أنكم أبناء الله وأحباؤه وتجادلوننا في دين الله وفي اصطفاء الله لنا كيف تحاجوننا في الله ونحن وأنتم منتسبون إليه؟ وليس أحد الجنسين بأولى من الجنس الآخر، ولا يقرب عنده سبحانه إلا العمل الصالح؛ فلنا أعمالنا ولكم أعمالكم، وإن أعمالنا ليزكيها الإخلاص وطلب الثواب منه وحده سبحانه، ولا نزع أن الأولين كانوا على اليهودية والنصرانية، فما كان إبراهيم ولا بنوه إلا مسلمين، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران/ ٦٧] وما كانت التوراة والإنجيل إلا من بعده هو وإسما عيل وإسحق ويعقوب وبنوه، وإن كان عندكم من علم بغير ذلك فأجيئونا: أنتم أعلم بهذا أم الله الذي خلقنا وخلقهم؟ إنه لا أحد أظلم منكم لكتمانكم شهادة الحق على الأنبياء جميعاً وشهادة الحق لنبي الهدى محمد ﷺ.

ولما وصل السياق إلى هذا الحد آن أن يظهر التمايز؛ فقد بان أن هؤلاء القوم لا خير يرتجى منهم فلتبدأ صفحة جديدة من صفحات التاريخ، تطوى فيها سيرة هؤلاء ليحل محلهم من يسير على الجادة، قال محمد قطب: "ثم يختتم السياق بصيغة المفاصلة التي تفصل بين الأمتين، وتعلن انتهاء عهد الأمة الأولى لبدأ عهد الأمة الثانية، ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [١٤١]."

(١) وصبغة هنا مؤكد منصوب بتوكيده لنفسه، قال سيويه في الكتاب: باب: ما يكون المصدر فيه توكيداً لنفسه نصباً ١/ ٣٨٠.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٢١٦.

(٣) دراسات قرآنية لمحمد قطب ص ٢٩٩.

الهدايا المستنبطة من المقطع

أ- القضايا العقديّة :

- في قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ دليل على عصمة الأنبياء؛ لأن العهد هو الإمامة. قال سعد الدين التفتازاني: "لو صدر عنهم - أي الأنبياء - الذنب لزم أمور كلها منتفية... ومنها: عدم نيلهم عهد النبوة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فإن المراد به النبوة أو الإمامة التي دونها"^(١).

- التوسل والدعاء إلى الله يكون بأسمائه الحسنى، وقد سأل إبراهيم ربه التوبة ولذلك توسل في دعائه باسم التواب، فقال ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

- الهداية الحقة ليست مع اليهودية ولا مع النصرانية، وإنما تكون باتباع ملة إبراهيم الذي ورثها محمد ﷺ وصار هو وأمه أولى الناس بها.

- استدل بعض العلماء بقوله تعالى ﴿وَالْأَسْبَاطُ﴾ على نبوة إخوة يوسف جميعاً، قال ابن كثير: وليس الاستدلال بها بقوي^(٢). وقال في تفسيره: "واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر. ويحتاج مُدعي ذلك إلى دليل، ولم يذكر واسمى قوله تعالى: ﴿قَوْلُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِذْ بَرَّهْتَهُ وَاسْتَجِيلَ وَإِشْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطُ﴾ [البقرة: ١٣٦]، وهذا فيه احتمال؛ لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم: الأسباط، كما يقال للعرب: قبائل، وللعجم: شعوب؛ يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم

(١) شرح المقاصد في علم الكلام للتفتازاني ٢/ ١٩٤. وقال عضد الدين الإيجي: فإن حمل ما في الآية على عهد النبوة فذاك، وإن حمل على عهد الإمامة فبطريق الأولى؛ لأن من لا يستحق الأدنى لا يستحق الأعلى. المواقف ٣/ ٤٢٩.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١/ ١٩٨.

إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقيم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم، والله أعلم^(١).

- في قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ دليل على إثبات الكسب للعبد، وأن العمل ينسب للإنسان الذي هو فاعله بقدرة أو دعها الله فيه، قال شارح الطحاوية: "فالحاصل: أن فعل العبد فعل له حقيقة ولكنه مخلوق لله تعالى ومفعول لله تعالى ليس هو نفس فعل الله. ففرق بين الفعل والمفعول والمخلوق، وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله بقوله: وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد. أثبت للعباد فعلاً وكسباً وأضاف الخلق لله تعالى والكسب: هو الفعل الذي يعود على فاعله منه نفع أو ضرر"^(٢).

- وجوب الإيثار بآيات الأنبياء عموماً، وقد ثبت لدينا أن لكل نبي آية؛ وذلك بقول رسول الله: (ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر)^(٣).

- دل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ على وجوب اتباع دين الإسلام من أصحاب الديانات السابقة، وأنه لا تحصل الهداية إلا بذلك.

- دل قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ على أن العبد يلزمه أن يصف الله بما وصفه به نفسه؛ قال الشنقيطي: "الإيمان بكل ما وصف الله به نفسه في كتابه، أو وصفه به رسوله ﷺ لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة/ ١٤٠]، ولا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله ﷺ الذي قال فيه: ﴿وَمَا يَطُّقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (٢) **﴿٤﴾** [النجم: ٣-٤] فمن نفى عن الله وصفاً أثبتته لنفسه في كتابه العزيز، أو أثبتته له رسوله ﷺ زاعماً أن ذلك الوصف يلزمه ما لا يليق بالله جل وعلا، فقد جعل نفسه أعلم من الله

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٣٧٢

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص ٥٠٢.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم / ٤٦٩٦، ومسلم في صحيحه برقم / ١٥٢.

ورسوله بما يليق بالله جل وعلا^(١).

ب- الأحكام الشرعية :

- لا يجوز تولي الظالم الإمامة في الدين أو الدنيا، قال الزمخشري: "قالوا: في هذا دليل على أن الفاسق لا يصلح للإمامة. وكيف يصلح لها من لا يجوز حكمه وشهادته. ولا تجب طاعته، ولا يقبل خبره، ولا يقدم للصلاة..... وعن ابن عيينة: لا يكون الظالم إماماً قط. وكيف يجوز نصب الظالم للإمامة، والإمام إنما هو لكف الظلمة؟^(٢).

وقال ابن خويز منداد: وكل من كان ظالماً لم يكن نبياً ولا خليفة ولا حاكماً ولا مفتياً، ولا إمام صلاة، ولا يقبل عنه ما يرويه عن صاحب الشريعة، ولا تقبل شهادته في الأحكام، غير أنه لا يعزل بنفسه حتى يعزله أهل الحل والعقد^(٣).

- وقد استنبط الفقهاء من الآية أن إمام الصلاة (الإمامة الصغرى) لا يجوز أن يكون ظالماً؛ قال الجصاص: "وهذا يدل أيضاً على أن أئمة الصلاة ينبغي أن يكونوا صالحين غير فساق ولا ظالمين؛ لدلالة الآية على شرط العدالة لمن نصب منصب الائتام به في أمور الدين؛ لأن عهد الله هو أو امره، فلم يجعل قبوله عن الظالمين منهم وهو ما أودعهم من أمور دينه وأجاز قولهم فيه وأمر الناس بقبوله منهم والافتداء بهم فيه^(٤).

- في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا﴾ دليل على أن الأمن غير مختص بالبيت الحرام فقط، وإنما يشمل مكة كلها، وذلك كقوله تعالى: ﴿هُدًى بَلِّغْ أَلْكَعْبَةَ﴾ [المائدة/ ٩٥] والمقصود الحرم كله، ويؤكد ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [١٢٦].

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي ١٨/٢.

(٢) الكشاف للزمخشري ٢١١/١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٧٠/٢.

(٤) أحكام القرآن للجصاص ٨٦/١.

- استدل الأحناف وجماعة بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا ﴾ على عدم قتال البغاة في الحرم، وكذلك الحربي وكل مباح الدم، لكن يمنع عنهم الطعام والشراب حتى يخرجوا. وذهب الشافعية وجماعة إلى جواز قتالهم، وإنما الممنوع أن ينصب عليها الحراب كغيرها من البلاد^(١).

- استنبط الفقهاء من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ حكمة عدم تملك لقطة مكة؛ قال الخطيب الشربيني: "ويلزم اللاقط الإقامة للتعريف أو دفعها إلى الحاكم؛ والسرف في ذلك أن حرم مكة ماثبة للناس يعودون إليه مرة بعد الأخرى، فربما يعود مالکها من أجلها أو يبعث في طلبها، فكانه جعل ماله به محفوظاً عليه"^(٢).

- استنبط بعض الفقهاء من قوله: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ﴾ استحباب المجاورة بمكة، وكرهه أبو حنيفة رحمه الله لمخافة قصور الناس عن القيام بحق المكان^(٣).

- في قوله تعالى: ﴿ وَأَتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ رَبِّهِمْ مَّصَلًى ﴾ حمل الحنفية والمالكية هاتين الركعتين على الوجوب اتباعاً لظاهر النص القرآني، وذهب غيرهم إلى الندب؛ فإن الفريضة تجزئ عنها كما في تحية المسجد^(٤).

- استدل الأحناف والشافعية بقوله تعالى: ﴿ أَن طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِرِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ على جواز صلاة الفرض والنفل داخل الكعبة، قالوا: والآية دليل على جواز الصلاة فيه؛ إذ لا معنى لتطهير المكان لأجل الصلاة وهي لا تجوز في ذلك المكان^(٥). وقال

(١) راجع: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني ١١٤/٧، ومختصر خلافات البيهقي ٣٥٦/٤.

(٢) الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع للخطيب الشربيني ٣٧٥/٢.

(٣) حاشية ابن عابدين ٥٢٤/٢.

(٤) راجع: شرح فتح القدير لابن الهمام ٤٥٦/٢، المغني لابن قدامة ١٩١/٣، ومغني المحتاج ٤٩٢/١، والتاج والإكليل ١١٠/٣.

(٥) انظر: تبين الحقائق بشرح كنز الدقائق. ٢٥٠/١.

مالك: لا يصلي فيه الفرض.

- في قوله: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ سئل عبد الله بن عباس عن الطواف أفضل أم الصلاة؟ فقال: أما أهل مكة فالصلاة، وأما أهل الأمصار فالطواف^(١). قال الجصاص: "وهو على قول من تأول قوله الطائفين على الغرباء يدل على أن الطواف للغرباء أفضل من الصلاة؛ وذلك لأن قوله ذلك قد أفاد لا محالة الطواف للغرباء؛ إذ كانوا إنما يقصدونه للطواف"^(٢).

- الأمر بتطهير البيت الحرام وكل المساجد.

- مشروعية الطواف بالبيت العتيق، وهو أنواع: طواف القدوم، طواف الزيارة، طواف الوداع، طواف العمرة، طواف النذر، طواف تحية المسجد الحرام، طواف التطوع.

- مشروعية الاعتكاف في المسجد الحرام.

- دل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ على أن شريعة إبراهيم شريعة لنا إلا ما نسخ منها^(٣). وقد استدل بهذه الآية جمع من الأصوليين القائلين بأن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ^(٤).

- اعتبار قول المحتضر مادام ذاكراً وواعياً لما يقول.

- استدل جماعة من أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم بقوله تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف برقم/ ١٥٠٤٢.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٩٤/١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤٠٦/٢.

(٤) انظر: المستصفي للغزالي ١/١٦٧، والإحكام للأمدى ٤/١٥٢، والإبهاج في شرح المنهاج للسبكي ٢/٢٧٨. والقول بهذا المذهب هو اتجاه الأحناف، أما الجمهور فقد ردوا على استدلال الأحناف بهذه الآية وبغيرها. انظر المراجع السابقة.

ءَابَايَكَ إِزْرِهَعَمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهَامَا وَجَدَا ﴿ على أن الجدد بمنزلة الأب في الميراث وغيره، قال السرخسي: "والدليل عليه أن الجدد عند عدم الأب يستحق اسم الأبوة قال الله تعالى: ﴿يَنْبَغِي ءَادَمَ﴾ [الأعراف/ ٣١] ومن كنت ابنه فهو أبوك، وقال جل جلاله: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَايَكَ إِزْرِهَعَمَ﴾ وكان إبراهيم جدًّا. وقال عز وجل: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَايَ إِزْرِهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف/ ٣٨] وكانا جدَّين له، وكذلك أيضاً في الحكم؛ فالجد له من الولاية عند عدم الأب ما للأب حتى أن ولايته تعم المال والنفس جميعاً بخلاف الإخوة والخلافة في الإرث نوع وولاية"^(١).

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- من الآداب العظيمة التي نستفيد منها من قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: الإنابة إلى الله والتضرع إليه، وعدم الإعجاب بالعمل. قال تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل ﴿رَبَّنَا نَقْبَلْ مِنَّا﴾.
- إذا دعا شخص وأمن الآخر فإن الدعاء يكون منهما ولهما معاً، فإبراهيم دعا وإسماعيل آمن، كما في قصة موسى وفرعون ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩].
- كل إنسان مطالب بأن يسأل ربه التوبة؛ فقد قال إبراهيم: ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا﴾، وقال قال الله في حق خير خلقه محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة/ ١١٧].

(١) المبسوط للسرخسي ١٨٢/٢٩، وهو قول أبي بكر الصديق وعائشة وعبد الله بن عباس وأبي بن كعب وأبو موسى الأشعري وعمران بن الحصين وأبو الدرداء وعبد الله بن الزبير ومعاذ بن جبل رضوان الله عليهم أجمعين أن الجدد عند عدم الأب يقوم مقام الأب في الإرث والحجب حتى يجنب الإخوة والأخوات من أي جانب كانوا وهو قول شريح وعطاء وعبد الله بن عتبة وبه أخذ أبو حنيفة. انظر السابق ١٧٩/٢٩، ١٨٠.

- قال تعالى: ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾. فالإخلاص روح العبادة وثمرتها، ومعناه: تخلص النية من كل شائبة، وإفراد الله وحده بالوجهة والعمل. قال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة/ ٥] قال الفضيل: "ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منها"^(١).

د- الجوانب التربوية :

- الإمامة لا تكون إلا بعد الابتلاء؛ فقد ابتلى الله إبراهيم بكلمات، فلما أتمهن جعله إماماً للناس، وقد فقه الشافعي هذا الأمر فلما سئل: أيهما أفضل: الصبر أو المحنة أو التمكين؟ فقال: "التمكين درجة الأنبياء، ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة فإذا امتحن صبر وإذا صبر مكّن. ألا ترى أن الله عز وجل امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكّنه، وامتحن موسى عليه السلام ثم مكّنه، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكّنه، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكّنه وآتاه ملكاً، والتمكين أفضل الدرجات؛ قال الله عز وجل: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [يوسف/ ٥٦] وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مكّن، قال الله تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ [الأنبياء/ ٨٤] الآية"^(٢).

- متاع الدنيا قليل، ولن ينفع الكافر تمتعه في الدنيا إذا انقلب إلى الآخرة فذاق العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۖ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ۗ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ ۗ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ الشعراء/ ٢٠٥-٢٠٧] وقال ﷺ: (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم ٩١/٢.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي ٢٦/١.

يا رب ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط^(١).

- كمال سعادة العبد في أن يكون مسلماً لأحكام الله تعالى وقضائه وقدره، وألا يكون ملتفت الخاطر إلى شيء سواه، ويستفاد هذا من الحصر في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ أي لك لا لغيرك^(٢).

- الحرص على قبول العمل ينبغي أن يكون أكثر من الحرص على العمل ذاته، فلا فائدة في العمل إذا لم يتقبله ربنا تعالى. وقد ورد عن السلف حرصهم على قبول العمل أكثر من العمل؛ فعن عبد الله بن مسعود قال: "وددت أني نسبت إلى روثه وأن الله تعالى تقبل مني حسنة واحدة من عملي"^(٣). وقال فضالة بن عبيد: "لأن أكون أعلم أن الله تقبل مني مثقال حبة من خردل أحب إلي من الدنيا وما فيها؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة/ ٢٧]"^(٤).

- على الداعي أن يحرص للدعاء لذريته، وليكن قدوته في ذلك نبي الله إبراهيم؛ فقد دعا لذريته من بعده فقال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ وقد تكرر هذا الأمر منه فدعا أيضاً لذريته بالحرص على إقامة الصلاة فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم/ ٤٠].

- وكما يحرص المرء على الدعاء لذريته فإنه يقتدي كذلك بأبينا إبراهيم ويوصي ذريته بالدين كما وصى إبراهيم بنيه وكما وصى يعقوب بنيه؛ فإن المرء مطالب بأن يكون اهتمامه بأمر الدين لبنيه أكثر من أي أمر آخر، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم/ ٦].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ٢٨٠٧ عن أنس.

(٢) انظر: التفسير الكبير للرازي ٥٦/٤.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٥٠٣ برقم ٨٤٦.

(٤) رواه عنه ابن المبارك في الزهد ١٩/٢.

- البيت الحرام هو مهوى الأفئدة ومثابة الناس، تتعلق كل القلوب بمحبته وتعظيمه؛ فتعظيمه تعظيم للدين، بل إن ذهاب تعظيمه من النفوس أمانة وعلامة على ضياع الدين. وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لا تزال هذه الأمة بخير ما عظموا هذه الحرمة حق تعظيمها فإذا ضيعوا ذلك هلكوا)^(١).

- من مهام الرسالة: تزكية الناس وتطهير النفوس من أدرانها، وتحليتها بالأخلاق والأقوال والأفعال الطيبة، وقد دعا إبراهيم ربه بذلك لمن يأتي في ذريته من الأنبياء فقال: ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ وقد استجاب الله هذا الدعاء، قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة/ ٢]

- السفاهة هي في البعد عن الطريق المستقيم.

- مما يجب أن يحرص عليه المسلم: دعاء ربه أن يرزقه الثبات على الدين إلى أن يلقاه، وكان إبراهيم وبنوه حريصين على الدعاء بهذا؛ وكان نبينا محمد يدعو بهذا وهو النبي المعصوم؛ فعن أنس أن رسول الله ﷺ كان يقول: (اللهم يا ولي الإسلام وأهله ثبتني به حتى ألقاك)^(٢).

- اعتبار القدوة العملية؛ فهي أمر ضروري للتربية، ولذلك فإن أبناء يعقوب قد اعتبروا به وانتفعوا بما رأوه منه فقالوا: ﴿ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَايَكَ ﴾ فالابن يتأثر بأبيه، وينتفع بما يراه منه قبل أن يسمعه.

- قوله: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾ يبين أثر التربية الإسلامية في النفوس، وأنها تصبغ النفوس والأرواح

(١) رواه ابن ماجة في سننه برقم/ ٣١١٠، وأحمد في مسنده ٣٤٧/٤ عن عياش بن أبي ربيعة. قال ابن حجر: وسنده حسن. فتح الباري ٣/ ٤٤٩.

(٢) رواه الضياء في الأحاديث المختارة برقم/ ٢٢٩٠ والطبراني في المعجم الأوسط برقم/ ٦٦١، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٧٦: ورجاله ثقات.

والأجسام بالصبغة الربانية التي لا تزول. قال ابن الأنباري: العرب تقول: فلان يصبغ فلاناً في الشيء إذا أدخله فيه وألزمه إياه، كما يجعل الثوب لازماً للصبغ^(١). ودلالة لفظ الصبغة أيضاً تفيد معنى الوضوح والظهور كما يظهر اللون المصبوغ؛ فكذا صبغة الدين تظهر آثارها على أهلها، قال تعالى: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح/ ٢٩].

- دل قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ على أنه لا قيمة للنسب عند الله يوم القيامة، وما ينفع المرء إلا عمله الصالح، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه.

- ودلت الآية أيضاً على أن المسؤولية في الإسلام فردية، وأن الجزاء فردي؛ فكل إنسان مسؤول عن فعله، وسيحاسب وحده عليه، قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مِمَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٣٦].

- إذا ردّ القول على صاحبه فعلى الراد أن يأتي بالصواب، ولا يكفي برد القول الباطل؛ فإن من تمام إبطاله أن يأتي بالبديل الصالح. ومثال ذلك من الآيات أن الله لما أبطل قول اليهود والنصارى: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ ذكر القول الصواب بعده وهو قوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ - المنهي عنه اتباع أهواء أهل الكتاب، أما الحق الذي عندهم فلا حرج من اتباعه، وقد أجاز الرسول ﷺ للأمة أن تنقل عن بني إسرائيل الأخبار الصادقة التي يروونها فقال: (وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج)^(٢).

- من أشد المحرمات كتمان الشهادة، ومن أظلم الظلم كتمان الشهادة التي هي من عند الله، فمن كتم ما أنزل الله من الهدى والبيّنات استحق اللعنة من الله ومن الناس.

(١) التبيان في تفسير غريب القرآن لابن الهائم ص ١١٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٣٢٧٤ عن عبد الله بن عمرو.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

اتصلت آيات هذا المقطع فيما بينها اتصالاً وثيقاً حتى قال أبو حيان: "وجاءت هذه الجمل من ابتداء ذكر إبراهيم إلى انتهاء الكلام فيه، على اختلاف معانيه وتعدّد مبانيه، كأنها جملة واحدة، في حسن مساقها ونظم اتساقها، مرتقية في الفصاحة إلى ذروة الإحسان، مفصحة أن بلاغتها خارجة عن طبع الإنسان"^(١).

وهذا المقطع مرتبط تمام الارتباط بمحوري السورة معاً؛ فبعد أن انتهى الحديث في المقطع السابق عن بني إسرائيل وبين فساد مسلكهم واعوجاج طريقتهم جاء هذا المقطع ليدعوهم إلى طريق إبراهيم.

وقد أوضح هذا المقطع بجلاء أن الصلة قد انقطعت بين بني إسرائيل وبين نسبهم الروحي؛ فأبوهم إبراهيم الذي يشرفون بالنسبة إليه ما كان إلا مسلماً، وما أوصى بنيه إلا بالإسلام. بل إن أباهم الأقرب يعقوب قد أوصى بنيه بنفس الوصية، وما أوصى باليهودية ولا بالنصرانية.

وإبراهيم حينما أعطاه الله الإمامة طلبها لذريته، وقد بينت الآيات أن الإمامة مرتبطة بالبيت الحرام، وأن الوراثة الدينية ستنتقل إلى أمة الإسلام؛ فهم أولى الناس بإبراهيم، وهم أصحاب البيت والقائمون بأمره، وهم الذين تحققت فيهم دعوة خليل الرحمن بإرسال النبي الخاتم فيهم..

فالبيت الحرام أعظم مظاهر إمامة إبراهيم، وهذا البيت وضع للناس على منهج الإسلام؛ ولذلك فإن الآيات تذكر وقت أن بنى إبراهيم وولده إسماعيل البيت وتبين دعاهما بالثبات على الإسلام لهما ولذريتهما من بعدهما، وذلك دلالة واضحة على ارتباطنا بملة أبينا إبراهيم حنيفاً، وارتباط الإمامة بالقبلة، وارتباط المسلمين بالقبلة.

(١) البحر المحيط لأبي حيان ١/ ٥٩٠.

ويبين هذا المقطع بوضوح أمر الوحدة الدينية بين الأنبياء والرسل؛ فهم جميعاً يدعون إلى إله واحد والكل يسلم وجهه إليه، وبهذا يعلم الجميع أن الإسلام إن هو إلا حلقة أخيرة في سلسلة طويلة امتدت زماناً منذ بدء الخليقة، وكان محورها إبراهيم عليه السلام الذي اتفقت كل الأمم على تعظيمه حتى أهل الشرك، وهذا مرتبط بدعوة أهل الكتاب إلى دين الحق بلا تفریق بين الأنبياء، ويعلم المؤمن أيضاً إسلام وجههم لله رب العالمين في كل وقت وحين.

المقطع الرابع: انتقال القبلة والإمامة في الدين لأمة سيد المرسلين

(١٦٢-١٤٢)

قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِن آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِن آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مَوْلَاهَا فَاَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فََوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فََوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمِ يَنْعَمِي عَلَيْكُمْ وَلَمَلِكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَادْكُرُوا آذَانَكُمْ وَأَسْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَنَبِّئُوهُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ

وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّقَهُمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۖ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٦٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٢﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٣﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

كان الحديث في المقطع السابق عن إبراهيم وبنائه البيت الحرام، ودعائه أن يبعث الله من ذريته من يبعث للناس ويعلمهم الكتاب والحكمة.

وبين المقطع السابق أن إبراهيم وبنيه كانوا على ملة الإسلام وقد أوصوا ذريتهم بالثبات عليه، ثم ذكرت الآيات أن بني إسرائيل نكصوا ولم يحملوا الأمانة التي كلفوا بها، ولم يتوجهوا إلى قبلة أبيهم، وإنما عادوها وعادوا أهلها.

جاء هذا المقطع بعده ليين رجوع أمر القبلة إلى مكة، مما يؤذن بإمامة ملة إبراهيم في بلد الله الحرام، ولتكون هذه الأمة هي أمة الشهود التي جاءت استجابة لهذه الدعوة القديمة، وإذا كان المقطع السابق قد ذكر على لسان إبراهيم غاية بعثة النبي محمد فقد جاء هذا المقطع ليؤكد استجابة الدعاء.

وقد ذكرت الآيات أن من رغب عن ملة إبراهيم فهو سفيه وقد أكدت أول آية هذا المقطع أن اليهود والمشركين الذين رغبوا عن ملته هم السفهاء.

وفي ارتباط هذا المقطع بما قبله يقول ابن القيم: " ولما كان أمر القبلة وشأنها عظيماً وطأ سبحانه قبلها أمر النسخ وقدرته عليه وأنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله، ثم عقب ذلك بالتوبيخ لمن تعنت رسول الله ﷺ ولم يتقَد له. ثم ذكر بعده اختلاف اليهود والنصارى وشهادة

بعضهم على بعض بأنهم ليسوا على شيء، وحذر عباده المؤمنين من موافقتهم واتباع أهوائهم ثم ذكر كفرهم وشركهم به وقولهم: إن له ولداً. سبحانه وتعالى عما يقولون علواً، ثم أخبر أن له المشرق والمغرب وأينما يولي عباده وجوههم فثم وجهه وهو الواسع العليم فلعظمته وسعته وإحاطته أينما يوجه العبد فثم وجه الله.

ثم أخبر أنه لا يسأل رسوله عن أصحاب الجحيم الذين لا يتابعونه ولا يصدقونه، ثم أعلمه أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم وأنه إن فعل وقد أعاده الله من ذلك فماله من الله من ولي ولا نصير. ثم ذكّر أهل الكتاب بنعمته عليهم وخوفهم من بأسه يوم القيامة، ثم ذكّر خليله باني بيته الحرام وأثنى عليه ومدحه وأخبر أنه جعله إماماً للناس يأتهم به أهل الأرض، ثم ذكّر بيته الحرام وبناء خليله له، وفي ضمن هذا أن باني البيت كما هو إمام للناس فكذلك البيت الذي بناه إمام لهم، ثم أخبر أنه لا يرغب عن ملة هذا الإمام إلا أسفه الناس، ثم أمر عباده أن يأتموا برسوله الخاتم ويؤمنوا بما أنزل إليه وإلى إبراهيم وإلى سائر النبيين، ثم رد على من قال: إن إبراهيم وأهل بيته كانوا هوداً أو نصارى.

وجعل هذا كله توطئة ومقدمة بين يدي تحويل القبلة ومع هذا كله فقد كبر ذلك على الناس إلا من هدى الله منهم وأكد سبحانه هذا الأمر مرة بعد مرة بعد ثلاثة وأمر به رسوله حيثما كان ومن حيث خرج وأخبر أن الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم هو الذي هداهم إلى هذه القبلة وأنها هي القبلة التي تليق بهم وهم أهلها لأنها أوسط القبل وأفضلها وهم أوسط الأمم وخيارهم فاختر أفضل القبل لأفضل الأمم^(١).

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ﷺ لابن القيم ٣/ ٥٩.

التفسير الإجمالي للمقطع:

أخبر الله بما سيقوله ضعفاء الرأي الذين رغبوا عن ملة إبراهيم وهم اليهود ومن نحا نحوهم من مشركي العرب^(١) والمنافقين، حيث أرادوا بث الأراجيف في المجتمع المسلم بسبب تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، فقالوا: ما الذي حولهم وصر فهم عن القبلة الأولى؟ فرد الله عليهم بأن المشرق والمغرب كله لله، وأي قبلة يأمر عباده بها فعليهم أن يمثلوا أمره؛ فكما صليتم للقبلة الأولى بأمره صليتم كذلك للقبلة الثانية بأمره، وهو سبحانه الذي يرشد من شاء إلى السبيل الحق، وفي هذا تركية للقبلة التي انتقلوا إليها. روى البخاري عن البراء قال: لما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة، فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يجب أن يتوجه نحو الكعبة، فأنزل الله تعالى: ﴿ قَدْ زَرَى تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ [البقرة: ١٤٤] فقال السفهاء من الناس وهم اليهود ﴿ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ ﴾ فقال الله تعالى ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾^(٢).

ثم خاطب الله المؤمنين مبيناً فضلهم: كما أنعمنا عليكم بالهداية للدين وللقبلة الوسط حسياً ومعنوياً^(٣) مننا عليكم بجعلكم الأمة العدول خيار الأمم كلها مما يؤهلكم للشهادة على

(١) روى البخاري في صحيحه برقم/ ٤٠ عن البراء أنهم اليهود، وروى الطبري في جامع البيان ١٣١/٣ عن مجاهد، وعن السدي أنهم المنافقون، وعن الحسن إنهم المشركون ورجحه الزجاج في معاني القرآن ٢١٨/١. وقد وصف الله المنافقين في هذه السورة بالسفاهة فقال تعالى ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ﴾ [آية: ١٣] ولما ادعى المشركون واليهود نسبتهم لإبراهيم عليه السلام بين القرآن أنهم رغبوا عنها فصاروا سفهاء قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [آية: ١٣٠] وعلى هذا فمن الإعجاز القرآني أن اللفظ يشمل هؤلاء جميعاً، والله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٣٩٠.

(٣) وقد أثبتت بعض البحوث العلمية مؤخراً أن مكة المكرمة تقع في قلب اليابسة تماماً، وأنها وسط الدنيا من الناحية الجغرافية والجيولوجية، وقد أثبت هذا بالدلائل العلمية الدكتور حسين كامل في بحثه القيم: (الإسقاط المكي للعالم). بمجلة البحوث الفقهية، الجامعة الإسلامية بالمدينة، العدد السادس =

الناس جميعاً بحسن البلاغ وصدق الأداء.

ومن معاني الشهادة ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً: (يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقال له: هل بلغت ما أرسلت به؟ فيقول نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أنا من نذير، فيقال له: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته. فيشهدون أنه قد بلغ، فذلك قوله جل ذكره (وكذلك جعلناكم.. الآية^(١)).

ومن معانيها أيضاً: الشهادة في الدنيا على الناس، قال رسول الله ﷺ: (من أثنيت عليه خيراً وجبت له الجنة ومن أثنيت عليه شراً وجبت له النار. أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض)^(٢).

ومن معاني الشهادة البلاغ ونقل الوحي والدين إلى الناس كما تعلموه من رسول الله^(٣). وكذلك يشهد الرسول على الأمة أنهم صدقوه وآمنوا به، وقد ورد أن أعمال الأمة تعرض عليه، ومن ذلك قوله ﷺ: (أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة فإن صلاتكم معروضة علي)^(٤)، فعلى هذا يكون شهيداً عليهم في حال حياته وبعد مماته^(٥).

إن هذه الشهادة اجتناء واصطفاء من الله لهذه الأمة، وأمانة غالية تتطلب منهم أعباء

= ص ٢٤٠ وما بعدها.

ومن العجيب أن بعض المفسرين المتقدمين قد ذكر هذا الأمر؛ ففي تفسير هذه الآية يقول القرطبي: "وكما أن الكعبة وسط الأرض، كذلك جعلناكم أمة وسطاً" الجامع لأحكام القرآن ٤٣٣/٢.

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/٤٢١٧.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/١٣٠١ ومسلم في صحيحه برقم/٩٤٩ واللفظ له.

(٣) انظر: البحر المحيط لأبي حيان ٥٩٥/١.

(٤) رواه الحاكم في المستدرک برقم/١٠٢٩ وصححه على شرط البخاري، وابن حبان في صحيحه برقم/٩١٠، وابن خزيمة في صحيحه برقم/١٧٣٣، وأبو داود في سننه برقم/١٠٤٧. وصححه سننه النووي في الأذكار ص ١١٥.

(٥) انظر: أحكام من القرآن الكريم للشيخ محمد بن عثيمين ٣٨٢/١.

وجهاد، ولذلك جاءت مقترنة بتكاليف يلزمهم أن يتحملوها حتى يكونوا أهلاً لها، قال تعالى ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج/ ٧٨].

وجاءت الآية لتؤكد للمسلمين أنهم على الحق في أمر القبلة وغيره من الأمور، وما شرع الله القبلة الأولى إلى بيت المقدس إلا ليعامل الناس معاملة المختبر فيظهر من يتبع الرسول حيث توجه ممن ينقلب على عقبه وإن كان أمر القبلة الأول لشاقاً إلا على من هداهم الله^(١)، وهذه حكمة تشريع القبلة الأولى. أما الذين ماتوا وهم يصلون تجاه بيت المقدس فما كان الله ليضيع ثواب ما عملوا فهو سبحانه رؤوف في رفع الضر رحيم في الإحسان والإنعام^(٢).

وبعد هذا التمهيد الذي يوطن النفوس جاء الأمر بتحويل القبلة باعتباره أثراً من آثار رحمة الله بالمؤمنين، ولما كان النبي ﷺ كثيراً مما يردد نظره جهة السماء انتظاراً للوحي وترقباً لما يتوقعه فإن الله أعلمه وأجابه إلى مراده الذي لم يصرح به ووجهه للقبلة التي يرتضيها وأمره أن يولي وجهه تلقاء المسجد الحرام وليس الحكم خاصاً به ﷺ ولا خاصاً بمكان دون مكان وإنما هو عام للمؤمنين جميعاً حيث كانوا يولوا وجوههم تلقاء^(٣) المسجد الحرام أما هؤلاء

(١) ذلك أن نفوس الصحابة كانت تشوف للصلاة إلى بيت الله الحرام، قبله الدنيا وموئل عزمهم وفخرهم، فكان أمر القبلة الأول ثقيلاً عليهم، لكن الله جلت حكمته أراد أن يصرهم عنه فترة لتتخلص مشاعرهم إليه وحده فلا يكون المقصد من الصلاة للبيت الحرام اعتزازاً ببيت العرب المقدس، بل لا بد أن يكون لله. انظر: في ظلال القرآن ١/ ١٢٦. ورجوع لفظ: (كبيرة) إلى قبلة بيت المقدس جوزة ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٢٢٠ وابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٥٥، والزخشي في الكشاف ١/ ٢٢٣، وهو الأقرب والله أعلم.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٤/ ٩٩.

(٣) ورد في معنى شطر: تلقاء عن قتادة عند الطبري في جامع البيان ٣/ ١٧٦.

اليهود المعاندون فإنهم يعلمون يقيناً أن تحويل القبلة حق من عند الله، لكنها معرفة ذهنية مجردة لا تغير في سلوكهم شيئاً، وإن الله لمطلع عليهم وسيجازيهم على إنكارهم^(١).

وحتى لا يتوهم متوهم باستجابتهم بعد معرفتهم بين الله لئيبه أن امتناعهم ليس امتناع مشتببه يطلب اليقين، بل هو امتناع جاحد مستكبر؛ فلو أتى لليهود والنصارى بآيات متتابعة وحجج قاطعة لما تبعوا قبلته عناداً واستكباراً، وما كان للنبي ﷺ أيضاً أن يتبع قبلتهم لضلالهم، ولو اتفقوا على رفض قبلكم فهم مختلفون ولن يترك أحدهم قبلته ليتبع قبلة الآخر فقد اختلفت قلوبهم، ولئن اتبع النبي ﷺ أهواهم بعد هذا البيان ووضوح البرهان فإنه والحال هذه من الظالمين لنفسه، وحاشاه ﷺ أن يفعل ولكنه تحذير للأمة جاء بأسلوب الشرط الذي لا يقتضي تحقق الوقوع.

وإن طعن اليهود في القبلة ما هو إلا واحد من طعنهم على الإسلام ونبي الإسلام ﷺ، فهؤلاء يعرفون النبي بأوصافه كما يعرفون أبناءهم، لكن الفريق الذي لم يؤمن بكتمة الحق الذي يعرفه مع علمه بالحق وبعقوبة الكتمان، وهذا الذي يكتومونه هو الحق، فلا تكن أمتك من الشاكين المتردين في أنه من ربك وفي كونهم كاتمين.

ثم جاءت الآيات بحجة أخرى على أهل الكتاب في شأن القبلة وهي أن لكل أمة من الأمم وجهة تتوجه إليها في صلاتها، فإذا كان الأمر كذلك فلم الاعتراض على قبلة المسلمين؟ إن الأولى بالانشغال أن يتسابق الكل بالحرص على فعل الخير، فاستبقوا الخير أيها المسلمون فكما جمعكم الله للقبلة أينما كنتم، فكذلك يجمعكم ليوم الجمع أينما تكونوا، قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ فَاحِشًا بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

(١) قرأ ابن عامر وحمة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب في رواية روح: (عما تعملون) بتوجيه الخطاب للمؤمنين، فيكون وعداً لهم بالحسنى، ويستلزم ذلك أن يكون وعيداً للأخرين. انظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص ١١٧.

لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتَانِكُمْ فَاسْتَقِيمُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ [المائدة/ ٤٨] فالكل راجع إلى ربه أينما كان وعندها سيحاسب الجميع على عملهم فهو القادر الذي لا يعجزه شيء.

ثم أعاد الأمر باستقبال القبلة من أي مكان خرج المرء وفي أي موطن حل ليعلم الجميع أن هذا الحكم لا يختص بمكان دون مكان وهذه التولية حق من الله لا تنسخ، أما المعاندون والمجادلون فإن الله سيحاسبهم وما ريك بغافل عن أعمالهم.

وجاء الأمر الثالث بتولية الوجه نحو المسجد الحرام وفيه الجمع بين خطاب النبي ﷺ وخطاب المؤمنين لبيان حكم التحويل وهي ثلاث:

أولها: لثلا يكون للمجادلين في أمر القبلة حجة على المسلمين، فاليهود يعلمون من كتبهم أن قبلة المسلمين الكعبة، والمشركون من ورائهم يرون أن النبي الذي يحيي ملة أبيه إبراهيم لا يستقبل غير بيت ربه الذي بناه وكان يصلي هو وإسماعيل إليه^(١)، لكن الظالمين أنفسهم يحتجون بالحجة الباطلة^(٢) جهلاً أو عناداً فلا تخشوهم لتهافت كلامهم واخشوا ربكم واتبعوا ما أمركم به.

والعلة الثانية للتحويل: إتمام نعمة الله على المسلمين بتفرد قبلتهم في بيت ربهم المحرم. مثابة الناس، ومهوى الأفتدة، وموئل عز العرب وشرفهم.

وإذا كانت الآيات السابقة قد ذكرت بني إسرائيل بنعم الله عليهم فيما مضى وذلك في قوله تعالى: ﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [٤٠] و[٤٧] و[١٢٢] فإن هذه الآية الكريمة قد بينت أن الله قد أتمم بالقبلة النعمة على المسلمين، وأعطاهم ما لم يؤت بني

(١) انظر: تفسير القرآن الحكيم لرشيد رضا ٢/ ٢٤.

(٢) وكونها حجة لا يقتضي أنها صواب، فالحجة مطلق الاحتجاج بما هو حق أو باطل، وفي نفس السورة نقرأ قوله تعالى: ﴿لَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبراهيمَ فِي رَبِّهِمْ﴾ [٢٥٨] ومعلوم أن حجته باطلة.

إسرائيل، ولذلك فإنهم كانوا يحسدون المسلمين على نعمة القبلة، قال رسول الله ﷺ: (إنهم لا يحسدونا على شيء كما يحسدونا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وصلوا عنها وعلى القبلة التي هدانا الله لها وصلوا عنها وعلى قولنا خلف الإمام آمين)^(١).

والعلة الثالثة للتحويل: أن تحصل للمؤمنين الهداية إلى ما ضلت الأمم عنه وأن تكون هذه الأراجيف عوناً للمؤمنين على معرفة الحق ونبذ التقليد.

ثم اتصلت الآية بالتي قبلها اتصالاً وثيقاً؛ فإذا كان الله قد حول القبلة للمسلمين إتماماً لنعمة عليهم ولهدايتهم مثل إتمام نعمته بإرسال رسول كريم ﷺ منهم يتلوا عليهم آيات القرآن الكريم التي فيها هدايتهم وصلاتهم ويطهرهم من أرجاس الشرك الأليم وذنس الخلق الذميم ويعلمهم القرآن والحكمة المانعة من الوقوع في الخطأ ويعلمهم ما لا طريق إلى معرفته إلا بالوحي كأخبار الماضين من سير الأنبياء والمعاندين وغيرها من الأمور؛ فعن أبي ذر قال: (تركنا رسول الله وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكّرنا منه علماً)^(٢) وذلك استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ [البقرة: ١٢٩]

وما جزاء هذه النعم إلا أن تذكروا ربكم بالقلب واللسان والجوارح فيكون ثوابكم أن يذكركم ربكم وهو الغني عنكم، وفي الصحيح يقول الله تعالى: (من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه)^(٣)، وأمرهم كذلك بأن يشكروا له نعمه ولا يكفروا بها.

وهذه الآية تجديد لعهد الإيوان الذي اندرس عند بني إسرائيل؛ فقد عاهدهم الله ولم

(١) رواه أحمد في مسنده ١٣٤/٦ عن عائشة وهو صحيح.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم/ ١٦٤٧ والبخاري في مسنده برقم/ ٣٨٩٧. وسنده حسن.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٦٧٩٠ ومسلم في صحيحه برقم/ ٦٧٥.

يوقُوا، قال تعالى: ﴿يَنْبَغِي إِسْتِرْهَابَ أَدْرُكُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِي يَهْدِكُمْ﴾ [٤٠] فانتقل العهد الرباني لتقوم به هذه الأمة، وذلك بأن تذكر ربها وألا تكفر بنعمه عليها، وهذا مرتبط بنعمة القبلة؛ فهي النعمة الكبرى، وهي العهد الذي تكون ترجمته بالقيام لله في الصلاة، كما جاء في أول أوصاف المؤمنين في السورة، وكما ورد في الآية التي تليها من الاستعانة بالصبر والصلاة.

ثم بين الله تبارك وتعالى للمؤمنين أن أعظم ما يعينهم على الثبات في مواجهة الافتراءات والشبهات إنما هو الصبر الذي يشحذ الهمم ويقوي العزائم ويجعل أهله المتخلفين به في معية الله وحفظه ونصره وكذلك الصلاة ذات الخشوع والخضوع أعظم معين على تقوية النفس ومجاهدة الكربات، ومن أوجه الصبر المطلوبة تقبل الشهادة في سبيل الله ومعرفة أن المؤمن الذي يقتل في سبيل إعلاء كلمة الله ليس بميت على الحقيقة، فلا تقولوا: هم أموات. لأنهم أحياء في العالم العلوي ولكنكم لا تشعرون بحياتهم، قال ابن مسعود "أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل"^(١).

وبعد أمر الله عباده بالاستعانة بالصبر والصلاة على حصول المكروه أعقب ذلك بذكر الابتلاء وبيان أنه ضرورة للتمحيص وللقيام بوراة أول المسلمين إبراهيم عليه السلام؛ فإذا كان إبراهيم عليه السلام قد ابتلى ثم صار التمكن والإمامة في الدين فالأمة التي تحمل ملته ستعرض للتمحيص وللابتلاء بجملة من المكروه لا بد لها فيها من الاستعصام بالصبر قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ بِأَخْبَارِكُمْ﴾ (محمد/ ٣١).

ومن هذه الابتلاءات الاختبار بقليل من الغم لتوقع مكروهه، وتعذر تحصيل الطعام ونقص من الأموال بتلفها، ومن الأنفس بموتها، ومن الثمرات بقلتها، وذكر ذلك لتوطن النفوس وتتهيأ لما قد يصيبها، ولتتميز النفوس، ثم أردف ذلك بذكر عاقبة الصبر مخاطباً بنبيه ﷺ وكل

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم / ١٨٨٧.

من يتأتى منه البشارة أن يبشر الصابرين الذين إذا أصابهم ألم في نفوسهم بسبب الشدائد قالوا: إنا لله، يتصرف فينا كيف يشاء، فالعبد وما ملكت يده لسيدته، وإنا لراجعون إليه فيجازينا على أفعالنا، فهؤلاء لهم من الله الثناء الحسن والمغفرة والرحمة الواسعة والعطاء الجزيل. وهم المهتدون للصرط المستقيم حقاً المسلمون أمورهم لله صدقاً.

وقد امتثل النبي الأمر فبشر الصابرين بالخلف من الله فقال: (ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: (إنا لله وإنا إليه راجعون) اللهم أجرني في مصيبي واخلف لي خيراً منها إلا أخلف الله له خيراً منها^(١)).

ثم أكد البشارة وذكر بعض مناسك الحج إيماء إلى أن صد هؤلاء القوم ليس عن القبلة والحرم فقط وإنما صد عما حوله من الشعائر فقال: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾، ثم أكد أمر هاتين الشعيرتين على نحو ما أكد أمر القبلة بالتعريض بأهل الكتاب الذين يعرفون أصلها في تاريخ إبراهيم ولكنهم يكتمون ما أنزل الله من البيئات وهم يعلمون^(٢).

والصفا والمروة جبلان بمكة دخلا في توسعة الحرم مؤخراً وهما من مناسك الحج وعلامات الدين، وعلى هذا فمن قصد الحج أو الاعتار فلا حرج عليه أن يطوف ويسعى بينهما فهما من الطاعات ولا يلتفت لما كان يحدث فيهما من أمور الشرك قالت عائشة رضي الله عنها: (أنزلت في الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل فكان من أهل يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فقالوا: يا رسول الله: إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة فأنزل الله تعالى هذه الآية^(٣)).

فالسعي بينهما من مناسك الحج، ومن تطوع وزاد على الواجب بأن أتى بالحج والعمرة

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٩١٨ عن أم سلمة.

(٢) انظر: النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٢٣٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٥٦١.

مرة بعد مرة. أو غير ذلك من أنواع القربات فإن الله يجزيه الجزاء الأوفى فهو شاكر يجزي على الإحسان، عليم بكل ما يفعله الإنسان.

وبين التنويه بشأن الصابرين وما جاء بعده من الأمر بالسعي بين الصفا والمروة صلة؛ فالصفا كان مسكن إبراهيم وإسماعيل، والمروة هو المكان الذي حدث فيه ابتلاء إبراهيم بذبح ولده، وكان هذا الابتلاء أروع مثال للصبر على أمر الله، وقد أشار القرآن إلى هذا الجانب عند التعرض لقصة الذبح في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَاءِ آيَةً أَدَّبُكَ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرْجُو ۗ قَالَ يَا أَبَتِ أَفَعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الصافات/ ١٠٢] (١).

ثم عاد السياق للكلام على إنكار أهل الكتاب لشعائر الدين وكتماهم أمر النبي ﷺ وقد بين هنا جزاء من كتّموا الحق؛ فأخبر أن من كتّموا ما أنزل الله من الدلائل الواضحة والهدايات من بعد ما أظهرناه وأوضحناه للناس في الكتب المنزلة ومن هذه البيّنات دلائل صدق نبوة محمد ﷺ، إن هؤلاء الذين حرّموا أنفسهم وغيرهم من النور يلعنهم الله بطردهم من رحمته الخاصة بالمؤمنين ويستحقون لعنة من يتأتى منه اللعن من الملائكة وغيرهم. واستثنت الآيات من هذا الوعيد من تاب عن الكتمان وأصلح عمله وبين ما كان يكتمه أو بين إصلاحه وإظهاره ليكون قدوة صالحة فهؤلاء يقبل الله توبتهم ويفيض عليهم من رحمته ومغفرته، إنه هو التواب كثير قبول التوبة ونشر الرحمة.

وبعد أن بينت الآية السابقة استحقاق الكاتمين وأن من تاب تاب الله عليه بينت هذه الآية أن مستحق اللعنة هو من مات على هذا الكتمان فبين أن الذين كفروا النعمة بكتماها وظلّوا على هذا حتى ماتوا هؤلاء عليهم اللعنة المستمرة من الله، وكذلك يدعو عليهم الملائكة والناس أجمعون مؤمنهم وكافرها كما قال تعالى ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ ۗ

(١) انظر: البرهان في نظام القرآن للدكتور محمد عناية الله ص ٢١٥.

بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴿ [العنكبوت/ ٢٥] وهم ماكثون في النار مكثاً مؤبداً لا يمهلون ليتوبوا ولا يخفف عنهم فيموتوا.

الهدايات المستنبطة من المقطع

أ- القضايا العقدية :

- هداية التوفيق من الله، قال تعالى: ﴿ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وليست هذه الهداية لأحد ولو كان نبياً مرسلأ، قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [٢٧٢] وهذه المشيئة مقرونة بالحكمة الإلهية؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٣٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤٠﴾ [الإنسان/ ٢٩، ٣٠].

- جواز تسمية الأعمال إيماناً، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة الذين يعتقدون أن الإيمان قول وعمل؛ فقد سمى الله الصلاة إيماناً وهي من الأعمال. وقد ذكر شراح حديث تحويل القبلة أن من فوائده: الرد على المرجئة في إنكارهم تسمية الأعمال إيماناً^(١).

- في قوله تعالى ﴿ قَدْ رَزَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ دليل على إثبات صفة العلو لله رب العالمين، قال ابن تيمية: "الإشارة إلى فوق إلى الله في الدعاء وغير الدعاء باليد والأصبع أو العين أو الرأس أو غير ذلك من الإشارات الحسية قد تواترت به السنن عن النبي ﷺ واتفق عليه المسلمون وغير المسلمين. قال تعالى: ﴿ قَدْ رَزَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلتَوَلَّيْتَكَ قِبْلَةً رَضْنَهَا قَوْلَ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾^(٢).

- في قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ دليل على أن نعت النبي محمد موجود في الكتب السابقة، وقد سبق بيان بعض الأمثلة من كتبهم.

(١) انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ١/ ٩٨.

(٢) بيان تليس الجهمية (٢/ ٤٣٩).

- في قوله تعالى: ﴿ أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ جواز الاستعانة بغير الله فيما يكون سبباً للعون، أما الاستعانة المطلقة المتعبد بها فلا تكون إلا لله، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْلَفُوا سَمْعًا وَلَا تُسَمِعُوا بِأَنفُسِكُمْ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾ (١١).
- استنبط علماء العقيدة من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾ دليلاً على عذاب القبر؛ قالوا: إذا جاز أن يحيا الشهداء في قبورهم قبل الآخرة ليتنعموا جاز أن يحيا الكفار في قبورهم ليعذبوا، قال ابن حزم بعد أن ذكر الآية: "فصح أن النفس منها ما يعرض على النار قبل يوم القيامة فيعذب، ومنها ما يرزق وينعم فرحاً ويكون مسروراً قبل يوم القيامة"^(١٢).
- أمور الآخرة لا يشعر أحد بها، قال تعالى: ﴿ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ .
- وعيد الكافر بالنار لا يكون إلا لمن مات على الكفر، وعلى هذا يحمل المطلق الوارد في آيات أخرى على التقييد هنا بحالة الموافقة على الكفر. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٣).

ب- الأحكام الشرعية :

- في تحويل القبلة دليل ظاهر على مشروعية النسخ، وعلى وقوعه في الإسلام، فقد كانت القبلة تجاه بيت المقدس فنسخت إلى الكعبة وهذا باتفاق، قال ابن عبد البر: "وقد أجمع العلماء على أن أول ما نسخ من القرآن شأن القبلة وأجمعوا على أن ذلك كان بالمدينة وأن رسول الله ﷺ إنما صُرف عن الصلاة إلى بيت المقدس وأمر بالصلاة إلى الكعبة بالمدينة"^(١٤).
- قال الجصاص في آية تحويل القبلة: "هذه الآية يحتج بها من يجوز نسخ السنة بالقرآن؛ لأن النبي عليه السلام كان يصلي إلى بيت المقدس، وليس في القرآن ذكر ذلك، ثم نسخ بهذه الآية"^(١٥).

(١) انظر: أحكام من القرآن الكريم للشيخ محمد بن عثيمين ١/ ٤١٠.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ٥/ ٥٨.

(٣) الاستذكار لابن عبد البر ٢/ ٤٥٢.

(٤) أحكام القرآن للجصاص ١/ ١٠٦، وانظر أحكام القرآن للكنيا الهراسي ١/ ٢٠.

- استدلل الأصوليون بقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ على حجية الإجماع باعتباره مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي، والإجماع: اتفاق المجتهدين من هذه الأمة في عصر من العصور على أمر من الأمور^(١). وفي دلالة الآية على حجية الإجماع يقول الرازي: الله تعالى أخبر عن كون هذه الأمة وسطاً، والوسط من كل شيء خياره. فيكون الله عز وجل أخبر عن خيرية هذه الأمة؛ فلو أقدموا على شيء من المحظورات لما اتصفوا بالخيرية، وإذا ثبت أنهم لا يقدمون على شيء من المحظورات وجب أن يكون قولهم حجة^(٢).

- وجوب استقبال القبلة من أي مكان في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ سَطْرَهُ ﴾ وهذا متفق عليه بين المسلمين، قال ابن عبد البر: "وأجمع العلماء أن القبلة التي أمر الله نبيه وعباده بالتوجه نحوها في صلاتهم هي الكعبة البيت الحرام بمكة، وأنه فرض على كل من شاهدها وعابنها استقبالها، وأنه إن ترك استقبالها وهو معاين لها أو عالم بجهتها فلا صلاة له، وعليه إعادة كل ما صلى كذلك. وأجمعوا على أنه من صلى إلى غير القبلة من غير اجتهاد حمله على ذلك أن صلاته غير مجزئة عنه وعليه إعادتها إلى القبلة كما لو صلى بغير طهارة.... وأجمعوا أن على كل من غاب عنها أن يستقبل ناحيتها وشطرها وتلقاها، وعلى أن على من خفيت عليه ناحيتها الاستدلال عليها بكل ما يمكنه من النجوم والجبال والرياح وغير ذلك مما يمكن أن يستدل به على ناحيتها"^(٣).

- الواجب استقبال جهة المسجد الحرام لا عينه لمن كان بعيداً عنه، وهذا مذهب جمهور الفقهاء. قال القرطبي: "وهو الصحيح لثلاثة أوجه: الأول: أنه الممكن الذي يرتبط به التكليف.

(١) انظر: كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي لعلاء الدين البخاري ٣/٣٣٧.

(٢) المحصول للرازي ٤/٨٩، ٩٠.

(٣) التمهيد لابن عبد البر ١٧/٥٤.

الثاني: أنه المأمور به في القرآن، لقوله تعالى: ﴿قَوْلَ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ يعني من الأرض من شرق أو غرب ﴿قُولُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾.

الثالث: أن العلماء احتجوا بالصف الطويل الذي يعلم قطعاً أنه أضعاف عرض البيت^(١).

- دل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ على تعليل الأحكام الشرعية. وأن أفعال الله كلها معللة، وأن البحث في علل الأحكام لا بأس به على الراجح. قال الشاطبي في الموافقات: "وأما التعاليل لتفاصيل الأحكام في الكتاب والسنة فأكثر من أن تحصى؛ كقوله بعد آية الوضوء ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة ٦٤]، وقال في الصيام: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِمَلَكُمْ تَنَفُّونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [١٨٣] وفي الصلاة ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنَهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت/ ٤٥] وقال في القبلة: ﴿قُولُوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [١٥٠]^(٢).

- النهي عن القول لمن يقتل في سبيل الله؛ إنه ميت؛ لأنه ليس بميت في الحقيقة، بل هو حي حياة برزخية لا يعلمها إلا الله.

- استشهد الفقهاء بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتًا﴾ وبقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتًا بَلْ أَحْيَاءُ﴾ [آل عمران/ ١٦٩] على أن الشهيد لا يغسل وهذا قول الجمهور. ولا يصلح عليه عند الأكثرين خلافاً للحنفية، لأنه بمنزلة الحي.^(٣)

- جواز التوكيد بالقسم كما في قوله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ فالتقدير: والله لنبلونكم.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٤٤٤.

(٢) الموافقات في أصول الشريعة ٧/ ٢.

(٣) انظر: كشاف القناع للبهوتي ٢/ ٩٩، والحاوي الكبير للماوردي ٣/ ٣٤. وأحكام القرآن لابن

العربي ١/ ٦٨.

- السعي بين الصفا والمروة من شعائر الحج. وهو واجب عند الأحناف وقول عند الحنابلة والمالكية يجبر تركه في الحج بدم، وعند جمهور الفقهاء هو ركن من أركان الحج لا يتم الحج إلا به^(١).

- دلت الآية على لزوم البدء بالصفا، وأكد الأمر ما رواه جابر في صفة حجة النبي قال: "... ثم خرج من الباب إلى الصفا فلما دنا من الصفا قرأ: ﴿ إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ أبدأ بما بدأ الله به. فبدأ بالصفا، فرقى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده). ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات ثم نزل إلى المروة"^(٢).

- استدلل الشافعي بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ على فرضية الترتيب في أعضاء الوضوء فقال: "فمن بدأ بيده قبل وجهه أو رأسه قبل يديه أو رجله قبل رأسه كان عليه عندي أن يعيد حتى يغسل كلاً في موضعه بعد الذي قبله وقبل الذي بعده لا يجزيه عندي غير ذلك، وإن صلى أعاد الصلاة بعد أن يعيد الوضوء. ومسح الرأس وغيره في هذا سواء. فإذا نسي مسح رأسه حتى غسل رجله عاد فمسح رأسه ثم غسل رجله بعده. وإنما قلت يعيد كما قلت وقال غيري في قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ فبدأ رسول الله ﷺ بالصفا وقال: (نبدأ بما بدأ الله به) ولم أعلم خلافاً أنه لو بدأ بالمروة ألغى طوافاً حتى يكون بدؤه بالصفا، وكما قلنا في الجمار إن بدأ بالآخرة قبل الأولى أعاد حتى تكون بعدها، وإن بدأ بالطواف بالصفا والمروة قبل الطواف بالبيت أعاد، فكان الوضوء في هذا المعنى أوكد من بعضه عندي والله أعلم"^(٣).

- (١) انظر: بدائع الصنائع للكاساني ٢/ ٢٢٧، وشرح العمدة لابن تيمية ٣/ ٦٠١، ومغنى المحتاج للخطيب الشربيني ١/ ٥١٢، وبداية المجتهد لابن رشد ١/ ٢٥١، والجامع لحكام القرآن للقرطبي ٢/ ٤٧٧.
- (٢) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ١٢١٨.
- (٣) الأم للشافعي ١/ ٣٠. والترتيب فرض عند الشافعية وظاهر مذهب الحنابلة. انظر: الكافي ١/ ٣١.

- حرمة كتان ما أنزل الله من البينات والهدى من بعد ما بينه الله للناس في الكتاب، ولذلك فإن أبا هريرة رضي الله عنه استشهد بهذه الآية على وجوب التبليغ فقال: "لولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً ثم يتلو: (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات.. إلى قوله الرحيم)"^(١).

قال ابن العربي: "وللآية تحقيق هو أن العالم إذا قصد الكتان عصي، وإذا لم يقصده لم يلزمه التبليغ إذا عرف أن معه غيره... ومن سئل فقد وجب عليه التبليغ لهذه الآية"^(٢).

- في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [١٦١] دليل على جواز لعن الكافر جزاء له على كفره، وإظهاراً لقبح فعله، وتنفيراً عنه وتحذيراً منه، وهذا على الكفار غير المعين، قال الأعرج: ما أدركت الناس إلا وهم يلعنون الكفرة في رمضان^(٣). وكذلك المسلم العصي غير المعين؛ فقد لعن رسول الله ﷺ أكل الربا وغيره من أهل المعاصي.

أما الكافر المعين إذا كان حياً ففي جواز لعنه خلاف؛ فذهب جمهور الفقهاء من الحنفية والشافعية والحنابلة في الصحيح إلى أنه لا يجوز لعنه؛ لأننا لا نعلم حاله عند الوفاة، وقد شرط الله تعالى في إطلاق اللعنة الوفاة على الكفر وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(٤). وهذا هو الراجح والله أعلم؛ لوضوح القيد في الآية بالوفاة على الكفر.

وذهب القاضي أبو بكر بن العربي إلى جواز اللعن فقال: "والصحيح عندي جواز لعنه لظاهر حاله كجواز قتاله وقتله"^(٥).

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم / ١١٨ ومسلم في صحيحه برقم / ٢٤٩٢.

أحكام القرآن لابن العربي / ١ / ٧٢.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ برقم / ٢٥٣، والبيهقي في سننه الكبرى برقم / ٤٤٠١، وعبد الرزاق في المصنف برقم / ٧٧٣٤.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي / ١ / ٧٤.

(٤) رواه مسلم في صحيحه برقم / ١٦٩ عن أبي هريرة.

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية :

- الوسطية ليست فقط خلقاً أو أدباً إسلامياً، ولكنها منهج كامل يميز النظام الإسلامي، ويشمل الوسطية المكانية في العالم، والوسطية الزمانية وقت اكتمال العقل البشري، ويشمل كذلك وسطية التفكير، ووسطية الاعتقاد، بلا إفراط ولا تفريط، ووسطية التكليف بلا مشقة ولا تهاون، وبالجملة فالوسطية شعار المنهج الإسلامي في كل أموره.

- الامتراء والشك من الأمور التي تناقض اليقين؛ والمسلم مطالب بأن يوقن بكل ما جاء عن الله ولا يكن في صدره أي شك أو مرية، وقد نهى الله نبيه عن الامتراء والمقصود بالنهي الأمة.

- المسارعة إلى الخيرات، والحرص على المبادرة بها شعار المسلم، وهو أمر إلهي قال تعالى: ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ وتوكيد نبوي، قال رسول الله ﷺ: (بادروا بالأعمال..)^(١)، وذلك قبل تغير أحوال المرء، أو تغير أحوال الزمان.

- بعد أن أخبر الحق جل وعلا عن اختلاف المناهج والوجهات بين أن مرجع الناس جميعاً إليه؛ فعند الاختلاف في الطرائق والمذاهب والشرائع والقبل يكون أقربها إلى الحق ما كان أدل على الله وأوصل إليه؛ لأن مرجع الجميع إليه يوم القيامة وحده وإن اختلفت أحوالهم وأزمتهم وأمكنتهم فمرجعهم إلى رب واحد وإله واحد. فهكذا ينبغي أن يكون مرد الجميع ورجوعهم كلهم إليه وحده في الدنيا فلا يعبدون غيره ولا يدينون بغير دينه إذ هو إلههم الحق في الدنيا والآخرة^(٢).

- إذا حاجَّ المبطلون المسلمين فعلى المسلم ألا يخاف من حججهم، ولا يخشى إلا الله؛ فقد حذرنا الله الخشية من الظالمين قال تعالى ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾.

(١) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم ٩٦٨/٤.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه ٦٣٢/٢ بسند صحيح.

- الأمر بالذكر؛ قال تعالى: ﴿ فَادْكُرُوا فِي آذَانِكُمْ ﴾ وهو مستحب استحباباً شديداً؛ فقد أمر به في كثير من الآيات، ونهى عن ضده من الغفلة والتسيان، وعلّق الفلاح بدوامه وكثرته، وأثنى على أهله وجعلهم أهل الانتفاع بآياته، وبين أنهم أولو الألباب، وأخبر عن خسران من انشغل عن الذكر بغيره، وجعل ذكره تعالى لأهله جزاء ذكرهم له كما في الآية التي في هذا المقطع، وأخبر أنه أكبر من كل شيء، وجعله قرين الأعمال الصالحة، وجعله مفتتحها ومختتمها. وقد يكون الذكر واجباً كما في تكبيرة الإحرام.

- الشكر ضد الكفر، وشكر نعمة الله واجب على كل مؤمن؛ فقد أمر الله به، وقرنه بذكره في هذه الآية، ووصف به أنبيائه، وجعله الله سبباً للمزيد من فضله، واشتق لأهل الشكر اسمين من أسماؤه فهو الشاكر الشكور، ورضي عن أهله فقال: ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر/ ٧].

- الاستعانة بالصبر على كل شدة، قال تعالى: ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾، فالصبر على المصائب واجب، ويجب أن يكون عند الصدمة الأولى. وقد ورد أن عبد الله بن عباس نعي إليه أخوه وهو في سفر فنزل فصلى ركعتين أطال فيها الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ (١).

وقد وعد الله الصابرين بالثناء الحسن منه وبالرحمة وكافأهم بالاهتداء، وعن عمر بن الخطاب قال: "نعم العدلان ونعم العلاوة" ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (١٥٦) ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ نعم العدلان ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ نعم العلاوة (٢)، وقال رسول الله ﷺ: (من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبتة وأحسن عقباه وجعل له خلفاً يرضاه) (٣).

(١) أخرجه البخاري تعليقاً ٣/١٧٢ ووصله الحاكم في المستدرک برقم/ ٣٠٦٨ وصححه على شرط الشيخين والبيهقي في السنن الكبرى ٤/٦٥، قال ابن حجر في تغليق التعليق ٢/٤٧٠: هذا إسناد صحيح.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم/ ١٣٠٢٧. قال الهيثمي: وإسناده حسن. مجمع الزوائد ٦/٣١٧.

- فضيلة القتل في سبيل الله؛ فقد أوضحت الآية الكريمة أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.
- من تاب من ذنب معين فلا بد أن يأتي بما يقابل هذا الذنب ويضاده، فمن كتم العلم وتاب فلا بد أن يبين للناس وإلا كانت توبته ناقصة، قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا﴾.

د- الجوانب التربوية:

- السفاهة خلق يوجد مع البعد عن منهج الله، ومن أعراضه: الخوض فيما لا طائل من ورائه، والتكلم في أمور المشيئة الإلهية بجهل وضلال.
- لقد اقتضت حكمة المولى تبارك وتعالى أن تكون تولية الوجوه لبيت المقدس أولاً، وذلك لإصلاح النفوس وتهذيبها وتربيتها على معالم الوحي، ولا بأس هنا أن ننقل - في هذا الجانب - كلام سيد قطب بطوله، وذلك لنفاسته؛ فقد قال: ".. كان العرب يعظمون البيت الحرام في جاهليتهم، ويعدونه عنوان مجدهم القومي.. ولما كان الإسلام يريد استخلاص القلوب لله، وتجريدها من التعلق بغيره، وتخليصها من كل نعرة وكل عصبية غير المنهج الإسلامي المرتبط بالله مباشرة، المجرد من كل ملابسة تاريخية أو عنصرية أو أرضية على العموم.. فقد نزعهم نزعاً من الاتجاه إلى البيت الحرام، واختار لهم الاتجاه - فترة - إلى المسجد الأقصى، ليخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية، ومن كل ما كانت تتعلق به في الجاهلية، وليظهر من يتبع الرسول اتباعاً مجرداً من كل إجماع آخر، اتباع الطاعة الواثقة الراضية المستسلمة، ممن ينقلب على عقبيه اعتزازاً بنعرة جاهلية تتعلق بالجنس والقوم والأرض والتاريخ؛ أو تلبس بها في خفايا المشاعر وحنايا الضمير أي تلبس من قريب أو من بعيد..

حتى إذا استسلم المسلمون، واتجهوا إلى القبلة التي وجههم إليها الرسول ﷺ وفي الوقت ذاته بدأ اليهود يتخذون من هذا الوضع حجة لهم، صدر الأمر الإلهي الكريم بالاتجاه إلى المسجد الحرام. ولكنه ربط قلوب المسلمين بحقيقة أخرى بشأنه. هي حقيقة الإسلام. حقيقة أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون خالصاً لله، وليكون تراثاً للأمة المسلمة التي نشأت

تلبية لدعوة إبراهيم ربه أن يبعث في بنيه رسولاً منهم بالإسلام، الذي كان عليه هو وبنوه وحفدته^(١).

- للتكرار أهميته التربوية. وقد تكرر قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ أكثر من مرة وفي كل مرة فائدة كما سبق. يقول محمد قطب: "وكل من مارس التربية مع صغير أو كبير يعلم إلى أي مدى يحتاج من يتلقى التربية إلى التذكير الدائم حتى يستقيم على الأمر المطلوب، ومن ثم يستطيع أن يقدر الهدف التربوي من عملية التكرار في القرآن"^(٢).

- المعرفة والعلم بل حتى القول، كل هذا لا يكفي لاتباع الحق؛ فأهل الكتاب كما قال الله ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ [١٤٤]، فلا بد مع المعرفة الذهنية من برهان عملي وسلوكي، والنماذج القرآنية أمامنا تؤكد ذلك؛ فإبليس كان عالماً، واليهود كان يعلمون، والمشركون كانوا يقرون الله بالخلق والتدبير، بل كان فرعون وقومه موقنين بالرسالة، قال تعالى ﴿ وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ﴾ [النمل/ ١٤] لكن العبرة دائماً بثمرة المعرفة، وهي العمل.

- لن يتبع أهل الكتاب قبلتنا، ولن يدخلوا بأجمعهم في الدين الإسلامي، وهذا تنبيه على حتمية الصراع، وأخذ الحذر من المشابهة لهم والاتباع، وحتى لو حاول هؤلاء المشركون أن يفتنوا المسلمين أو يضللوهم فإن الله يوصي جند الحق قائلاً: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ ﴾ [١٥٠] حتى تتم نعمة الله على المؤمنين.

- لن تكون التزكية بالمناهج المستوردة أو التربية الخالية من نور الوحي، فالتزكية قد حدد القرآن منهجها: لن تكون إلا بتلاوة الكتاب وتدبره، قال تعالى: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ

(١) في ظلال القرآن سيد قطب ١/ ١٢٦.

(٢) دراسات قرآنية لمحمد قطب ص ٢٥٣.

رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴿١٥١﴾.

- أهمية تعلم الكتاب والحكمة.

- جزاء الذائر أن يذكره ربه، وهذا جزاء من جنس العمل.

- إن منزلة الشهادة هي منزلة عالية رفيعة، ولذلك فهي محض اختيار وتفضل إلهي، قال تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران / ١٤٠] وقال النبي ﷺ في بعض أنواع الشهداء: (رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقي العدو وقتلهم حتى يقتل فذلك الشهيد المتحن في جنة الله تحت عرشه لا يفضله النبيون إلا بفضل درجة النبوة)^(١) وهذا دليل على عظيم هذه المنزلة، ولن تنال هذه الدرجة إلا بتربية طويلة وجادة للنفس، مع دعاء صادق أن يبلغ المرء هذه المنزلة.

- من مقاصد بعثة النبي: تبشير المؤمنين، ومن جملة من ورد الأمر بتبشيرهم: الصابرون. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾.

- بين الله في الكتاب كل ما يحتاجه الناس مما يصلح أمور دينهم ودنياهم، قال تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاكَ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

- إن المتدبر في حادثة تحويل القبلة ليعلم أنه ليس حدثاً عادياً، وإنما هو بمثابة الإعلان العملي على استجابة دعوة إبراهيم التي دعاها وهو يرفع القواعد من البيت؛ فقد دعا ربه لذريته، فجاءت إجابة الدعاء في هذا المقطع وحملت في ثناياها مهمة الأمة وهي الشهادة على الأمم جميعاً.

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم / ٤٦٦٣، وأحمد في مسنده / ٤ / ١٨٥ عن عتبة السلمي، وقال الحافظ المنذري: إسناده جيد. الترغيب والترهيب / ٢ / ٢٠٨.

وإذا كان المقطع السابق قد كشف محاولات السابقين كي يتبعهم المسلمون وأبطل عليهم تلك المحاولات بإثبات أن الملة الحنيفية التي أرساها إبراهيم هي الحق الذي يلزمنا اتباعه. فإن هذا المقطع قد أبطل محاولات اليهود في التشكيك في أمر القبلة، والتأثير على ضعفاء المسلمين.

وقد بين هذا المقطع أن أمر القبلة هو الحق الذي يعلمه اليهود ويكتمونونه، وذلك في أكثر من آية؛ قال تعالى ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ [١٤٤] وقال: ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [١٤٦] وقال ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [١٤٧] وقال: ﴿ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [١٤٩].

وهذه الآيات واضحة الدلالة أن أمر القبلة هو الحق الذي كتبه اليهود وحاولوا إخفائه والتمويه على المسلمين بشأنه. لكن الآيات القرآنية ردت على شبهتهم وبينت حكمة التوجه الأول إلى بيت المقدس، وحكمة التوجه الدائم إلى الكعبة؛ فهي القبلة الوسط التي يرضاها النبي ويشهد الله أنها الحق.

وبوضوح أمر القبلة وانتقالها إلى بيت الله الحرام تنتقل القيادة الدينية عملياً إلى مكانها الرئيس، وتبدأ مرحلة جديدة يطوى فيها الحديث عن المعاندين، ليبدأ الحديث عن مقومات استحقاق هذه الأمة للخلافة الدينية والدينية حتى تنصلح بهم الدنيا، ويقوم بهم الدين. وما سبق يتضح اتصال موضوع القبلة بمحوري السورة معاً؛ فهو إنهاء لمرحلة مؤقتة وابتداء مرحلة جديدة بها تحمله من تشريعات وأحكام.

وَأَتَى الزُّكُورَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ البقرة: [١٦٣-١٧٧].

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

تحدث المقطع السابق عن تحويل القبلة، وانتهى الحديث إلى أن المؤمنين تبوءوا القبلة الوسط والشريعة الوسط التي تؤهلهم لقيادة الدنيا والشهادة على الناس جميعاً. وجاء هذا المقطع بمثابة التمهيد الذي يمهد للمسلمين تلقي الأوامر والتكاليف، وهو مرتبط بما قبله ارتباطاً وثيقاً.

ذلك أن الآيات السابقة قد بينت أن يعقوب قد دعا بنيه للتوحيد، لكن ذرياتهم لم يمتثلوا بل حاربوا الدين الجديد بكل ما أوتوا من قوة، فجاء هنا الأمر بالتوحيد وبيانه لتتخذ أمة الإسلام منهجاً لها.

وجاءت قضية التحليل والتحریم بشيء من التفصيل لتبين أن بني إسرائيل قد خالفوا المنهج الإلهي في التشريع فحري بالأمة الجديدة أن توحّد مصدر تلقيها الشرعي وألا تحلل أو تحرم بالهوى أو التشهي. وقد جاء المثال على ذلك بالأطعمة والمكاسب وهي مما افتري فيها السابقون على الله الكذب فحللوا وحرّموا افتراء عليه وقولاً بلا علم.

قال الدكتور دراز: "وما زاد موضعه حسناً أن مجيئه في سياق ذكر التوحيد وقع عدلاً لمجيء حكم القبلة في سياق ملة إبراهيم، فكلاهما فرع عظيم يتصل بأصل عظيم، ألا ترى كيف ختم الكلام في شأنه بمثل ما ختم به هناك من وعيد المعاندين الذين يكتمون ما أنزل الله؟ أولاً ترى كيف أن الإسلام جعل مسألتي القبلة والذبح كليهما من الشعائر التي يميّز بها المسلم عن غيره، كما يميّز بالشهادة والصلاة: (من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله ورسوله)^(١).

(١) النبا العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٢٤٠، ٢٣٩، والحديث: أخرجه البخاري في صحيحه برقم / ٣٨٤.

وقد ابتدأ المقطع بآيات إثبات التوحيد ثم ثنى بأدلة الوحدانية، ولهذا صلة بما قبله؛ قال القرطبي: "لما حذر تعالى من كتان الحق بين أن أول ما يجب إظهاره ولا يجوز كتانه أمر التوحيد، ووصل ذلك بذكر البرهان، وعلم طريق النظر، وهو الفكر في عجائب الصنع، ليعلم أنه لا بد له من فاعل لا يشبهه شيء" (١).

وقد جاء في نهاية المقطع السابق ذكر الكفار وعاقبة أمرهم، فابتدأ المقطع هنا بالأمر بما يصاد الكفر وهو الأمر بتوحيد الله وذكر الأدلة على وحدانيته. ثم عاد الحديث إلى ذم الكفار الذين يقلدون بلا بينة أو برهان وبيان حالهم مع متبوعيههم يوم القيامة.

وأمر التحليل والتحريم مرتبط بآيات التوحيد؛ ذلك أن التحليل والتحريم بالهوى اعتداء على حق الله في التشريع، وإشراك به فيما لم يعطه لأحد من البشر، قال تعالى ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى / ٢١].

ثم عاد المقطع للحديث عن اليهود وكتانهم، وهذا مرتبط بما قبله؛ فقد تحدث المقطع السابق في أكثر من موطن عن كتانهم للحق، ثم جاء هذا المقطع ليفصل جزاء من كتتم ما أنزل الله من الكتاب. واستبدله بعرض من أعراض الدنيا.

وآية البر الجامعة مرتبطة أيضاً بما قبلها؛ فهي ترد عليهم شبهاتهم حول القبلة الوسط، وتبين أن البر الحقيقي ليس في التمسك بقشور الأمور وترك لبابها، قال تعالى ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ ثم نزعت الآية عنهم فضيلة البر وأرست أصولها وبينت من هم أحق بها وأهلها.

التفسير الإجمالي للمقطع:

ابتدأت الآيات بتقرير وحدانية الله تعالى في ربوبيته وإلهيته، فقال تعالى: ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ أي الإله المستحق للعبودية هو الواحد الأحد الفرد الصمد لا إله غيره ولا معبود بحق سواه، وهو واسع الرحمة ومسديها لعباده فلا تطلب من غيره.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤٨٩/٢.

ولما نزلت هذه الآية عجب المشركون وقالوا: إن كان هكذا فليأتنا بآية فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ^(١)، فجاءت هذه الآيات دليلاً على الوجدانية؛ فخلق السموات والأرض آية على الوجدانية والقدرة؛ قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَيْنَنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِوْسًا وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٦-٨] واختلاف الليل والنهار وتعاقبهما آية من آيات الله تعالى، قال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَكْرَمًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِيَّاهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧٢-٧٣]، والسفن التي تجري في البحر بما يرفع الناس في أسفارهم وتجارتهم آية، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى: ٣٢: ٣٣]

وإنزال الله المطر من السحاب آية؛ قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَرَّيَ الْوُدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [الروم: ٤٨]

وهذا المطر يجيي الأرض الميتة بالنبات وينتشر بسببه في أرجاء الأرض الأحياء التي تدب على وجهها. ومن دلائل قدرته ووجدانيته تدير الرياح وتوجيهها على وفق الحكمة والنظام الكوني، فمنها الحارة والباردة ومنها العقيم ومنها الملقحة للنبات.

والآية السابعة والأخيرة تسخير السحاب ونقله من موضع إلى موضع فينزل بذلك المطر، ولولا تصريف السحاب لنزل المطر في البحار، لأن ماء المطر يتبع من تكاثف بخار الماء الموجود في المسطحات المائية، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِلُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا

(١) رواه الطبري في جامع البيان ٣/ ٢٦٨ برقم/ ٢٣٩٩، وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم برقم/ ١٤٦١ عن أبي الضحى.

فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ خَلِيلِهِ ﴿ [النور: ٤٣] وفي هذا دلائل واضحة على وجود الله وقدرته ووحدانيته لمن عقل وتدبر.

ومع كل هذه الدلائل الباهرة فإن من الناس أناساً يتجاوزن الله ويتخذون أنداداً مماثلين له، وهم كما يقول أبو السعود: "رؤساؤهم الذين يتبعونهم فيما يأتون وما يذرون، لاسيما في الأوامر والنواهي كما يفصح عنه ما سيأتي من وصفهم بالتبري من المتبعين وقيل: هي الأصنام"^(١)، وهؤلاء يطيعون رؤسائهم ويحبونهم كحب الله فيشركون مع الله.

ومن أظهر صور المحبة الطاعة في التحليل والتحريم؛ عن عدي بن حاتم قال: "أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: يا عدي، اطرح عنك هذا الوثن. وسمعته يقرأ في سورة براءة: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه"^(٢).

أما المؤمنون فإنهم أشد حباً لله من كل ما سواه؛ فهو حب خالص لا شرك فيه، لكن هؤلاء المشركين غافلون؛ إذ لو رأى هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالشرك عذاب الآخرة وعاینوه بأبصارهم لعلموا أن القوة جميعها لله وأنهم لن تغني عنهم الأرباب وستقطع بهم الأسباب ولن ينجيهم شيء من العذاب.^(٣)

وقتنئذ سيبالغ المتبعون في البراءة من أتباعهم بعد أن رأوا العذاب وتقطعت الروابط

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ١/ ١٨٥.

(٢) رواه الترمذي في سننه برقم/ ٣٠٩٥ وقال: حسن غريب، والبيهقي في سننه ١٠/ ١١٦.

(٣) هذا المعنى على قراءة الجمهور (ولو يرى) وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب (ولو ترى الذين ظلموا) على الخطاب لنبينا محمد والمعنى: لو ترى هؤلاء الظالمين حال رؤيتهم للعذاب لعلمت ما حل بهم من نكال. ويحتمل: ولو ترى لعلموا أن القوة لله تعالى. انظر النشر لابن الجزري ١/ ٢٢٤، والبحر المحيط لأبي حيان ١/ ٦٥٤.

والمنافع التي كانت تربط بينهم في الدنيا، فلا خير يرتجى ولا شر يندفع فيمضي التابعون بحسرة ما بعدها حسرة، ويتمنوا أن لو كان لهم رجعة إلى الدنيا ليتصلوا من رياستهم أو ليتبعوا الحق ثم يعودوا للآخرة فيتبرؤوا منهم^(١)، كذلك يريهم الله ويظهر لهم أعمالهم الدنيوية الفاسدة وقد صارت سبباً لحسرتهم وشدة ندامتهم، ولن يخرجوا من النار ليعودوا للدنيا تائبين ولا للجنة منعمين.

ومن أوجه اتخاذ الأنداد من دون الله ما درج عليه اليهود ومشركو العرب من التحليل والتحریم للأطعمة بزعمهم افتراء على الله، فبين الله للناس جميعاً أنه أباح لهم ما في الأرض بشرط أن يكون طيباً غير خبيث فلا يتبعوا إغواء الشيطان ووسوسته في التحريم، ففي الحديث القدسي: (واني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم)^(٢)، فالتحليل والتحریم بالهوى اتباع للشيطان مع أن عداوته بينة واضحة.

ثم ذكرت الآية تفاصيل إغواء الشيطان للناس وذلك بأن يزئ بكل ما يسوء فعله وبكل ما عظم قبحه وفحش أمره ويأمرهم كذلك بالقول على الله بالتحليل والتحریم من غير علم، وذلك من أكبر الكبائر. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا قَوْلَ لَهُ ﴾ [الأعراف: ٣٣] وإن هؤلاء المكذبين من اليهود والمشركين إذا جوبهوا بما هم عليه من الباطل وأمروا باتباع الحق أضربوا عن قول الناصحين واعرضوا قائلين: بل تتبع ما وجدنا عليه آباءنا، وهذا أمر مستنكر؛ أيتبعون آباءهم وما كانوا يعقلون شيئاً من الدين ولا يهتدون للصراط المستقيم.

ثم ضربت الآيات مثلاً يقبح من شأن كفرهم ويبين حالهم مع الهداية وأنهم-كأسلافهم-

(١) اقتصر على الوجه الأول البيضاوي في تفسيره ٤٤٤/١ وذكر الوجه الثاني أبو حيان في البحر المحيط ٦٤٧/١.

(٢) رواه مسلم في صحيحه عن عياض بن حمار المجاشعي برقم/ ٢٨٦٥.

يعيشون في عماية، فمثلهم مع الداعي كمثل الراعي^(١) الشفيق على من يرعاه، يذودهم عن موارد الهلكة، ويرشدهم إلى الخير والنفع، فهو ينعق وينادي بالدعوة، والكفار كالمنعوق به من البهائم التي لا حظ لها إلا السماع بلا تعقل أو فهم أو قبول^(٢).

فكما أن البهائم لا نصيب لها من صوت الداعي إلا السماع، فكذلك الكفار لا نصيب لهم من دعوة النبي إلى الإيمان إلا السماع؛ إذ هم غافلون وعن سماع القبول معرضون. والذي أوصلهم إلى ذلك أنهم صم عن سماع أي خير، بكم فلا ينطقون بمعروف، لا يعقلون ما يتلى عليهم، قد ألغوا عقولهم وأصموا آذانهم وأصروا على ما هم عليه تقليداً وعناداً.

ثم جاءت الآيات للرد على هؤلاء الذين يجللون ويمجرون من تلقاء أنفسهم ونهت المؤمنين أن يسلكوا طريقهم، فأمرتهم أن يأكلوا مما طاب لهم من رزق الله، قال عليه الصلاة والسلام: "إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾^(٣)". كما أمرتهم أن يشكروا ربهم على ما أولاهم من فضله إن كانوا مقرين لله وحده بالخلق والأمر فلا يجعلوا له أنداداً في التحليل والتحريم.

ولما كان اليهود والمشركون قد حرموا على أنفسهم ما أحل الله لهم فإن الله قد بين للمسلمين فساد مسلكهم وفصل لهم ما حرم؛ فلم يحرم ربنا إلا الميتة من غير ذبح شرعي، والدم السائل،

(١) قال سيويه: لم يشبهوا بالناعق، وإنما شبهوا بالمنعوق به؛ وإنما المعنى: ومثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناقع والمنعوق به الذي لا يسمع إلا دعاء، ولكن جاء سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى". الكتاب ١/ ١٠٨.

(٢) وهذا اختيار الفراء في معاني القرآن ١/ ١٠٠، والزجاج في معاني القرآن وإعرابه ١/ ٢٤٢، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٢٣٨، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٣/ ١٩، وغيرهم.

(٣) رواه مسلم في صحيحه ١٠١٥.

ولحم الخنزير، وما رُفِعَ الصوتُ عند ذبحه لغير الله، وهذا على الغالب ويعم كل ذبح لغير الله ولو كان بغير رفع صوت، قال تعالى: ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

إعجاز علمي^(١) :

وفي إتيان هذه المحرمات مخالفة للفطرة السليمة، وأضرار صحية؛ فإن الحيوان إذا مات فإنه يموت بسبب ميكروبات وُجدت فيه فتغلبت عليه، وبموته تنشط بكتريا التعفن حتى يصبح كل جزء من الحيوان يحتوي على مئات الألوف من البكتريا التعفن التي تصيب بالسل والتسمم الغذائي والحمرة الخبيثة والتهاب الكبد الوبائي والأمراض الطفيلية وغير ذلك.

والدم يجوي سموماً و فضلات كثيرة و مركبات ضارة؛ و ذلك لأن إحدى وظائفه الهامة هي نقل الفضلات و السموم مثل حمض البوليك و الكرياتين، كما يحمل الدم بعض السموم التي ينقلها من الأمعاء إلى الكبد لتعديلها؛ فهو أصلح وسط لنمو شتى أنواع الجراثيم و لتكاثرها.

والخنزير حيوان قذر يعيش على النفايات، و يبلغ عدد الأمراض التي تصيبه (٤٥٠) مرضاً و يختص الخنزير بمفرده بنقل (٢٧) مرضاً و بانياً للإنسان و من أكثر ما يصيب آكله: الدودة الشريطية و الصداع و آلام المفاصل و العمود الفقري.

فمن أَلجأته الضرورة وهي شدة الجوع كما قال تعالى ﴿ فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣] من فعل ذلك غير قاصد الطعام لذاته

(١) انظر: الوجيز في الطب الإسلامي د/ هشام إبراهيم الخطيب ص ٢٢٥، الإسلام والطب د/ محمد وصفي ص ١٩٩، الإعجاز التشريعي في تحريم الخنزير للدكتور / فهمي مصطفى محمود. ص ٧ من بحوث المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي.

ولا متعدد قدر الضرورة فلا ذنب عليه، فالله واسع المغفرة لمن ارتكب الحرام للضرورة عظيم الرحمة به إذ جعل له في شرعه مخرجاً.

ولا تزال الآيات متواصلة في الحديث عن رهبان اليهود؛ فبعد أن تحدثت عن تشريعهم من عند أنفسهم وتحريمهم الحلال ونقضت أحكامهم وبينت ما يحل وما يحرم عادت الآيات ثانية لتتحدث عن حكم كتان ما أنزل الله من الكتاب على وجه العموم سواء كان ذلك بكتان نقطة أو بإخفاء معناه بضرب من التأويل والتحريف ليستبدلوا بذلك عرضاً من أعراض الدنيا القليلة فإنهم بذلك ما يأكلون في بطونهم إلا ما يوصلهم إلى نار الله يوم القيامة^(١)، ولا يكلمهم الله يوم القيامة كلام محبة ولا يزيكهم ويظهرهم مما ولغوا فيه بالمغفرة ولا يزيكهم بالثناء عليهم لأنهم كتموا التزكية عن الناس، ولهم عذاب مؤلم لأبدانهم.

وهناك صلة أخرى بين هذه الآية والتي قبلها؛ فقد تحدثت الآيات السابقة عن الأطعمة المحرمة وتحدثت هذه الآية أيضاً عن الطعام المحرم الذي يأكله علماء السوء في بطونهم من الرشوة على كتان الحق؛ فهو من جنس ترك المباحات وأكل المحرمات أيضاً.

وما كان ذلك إلا بسبب أفعالهم فهم الذين اشتروا العدول عن الطريق المستقيم بالهداية إليه في الدنيا وترتب عليه أن اشتروا في الآخرة العذاب بدلاً عن مغفرة الله فيا لطول صبرهم على النار! وهذا تعجيب للمؤمنين من حالهم وتخويف وإلا فأنى لهم أن يصبروا على العذاب المقيم؟ وما استحقوا هذا إلا بسبب ظلمهم لأنفسهم؛ لأن الله أنزل الكتاب بالحق الثابت الذي جاء للهداية ونبذ الفرقة في اختلاف بعيد عن الحق.

ولما أكثر أهل الكتاب من الخوض في شأن القبلة وطال لجأهم فيها بين الحق جل وعلا أن أمر القبلة ليس هو البر المقصود؛ فليس الخير الذي يتقرب به المرء إلى ربه في التوجه إلى جهة

(١) وهذا القول اختاره أكثر المفسرين؛ انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤٩/٣. والوجيز للواحيدي ١/١٤٥، وفتح القدير للشوكاني ١/١٧١، والتسهيل في علوم التنزيل لابن جزي ١/٦٩، وغيرهم.

المشرق أو المغرب، ولكن البر الحقيقي الذي هو وصف جامع لخصال الخير كلها إنما يتكون من عدة أمور وجوانب تشمل الاعتقادات والعبادات والأخلاق والمعاملات، فالاعتقادات تشمل الإيمان بالله وحده واليوم الآخر وهما جماع كل خير، وأساس كل بر وهما الغايات الأصلية، ثم جاءت الغايات الوسيطة وهي التصديق بالملائكة وبجنس الكتب المنزلة من السماء، وبكافة النبيين بغير تفريق بين أحد منهم.

وبعد أصول الإيمان جاء ذكر إتفاق المال على حب المؤتي للمال كما قال تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وسئل رسول الله ﷺ: أي الصدقة أعظم أجراً؟ فقال: (أن تصدق وأنت صحيح صحيح، تحشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان)^(١).

والظاهر أن المقصود به التطوع لأن الزكاة سيأتي ذكرها في الآية، ثم ذكرت الآية المستحقين وأولهم قرابة الشخص، قال تعالى: ﴿وَمَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦] وقال ﷺ: (الصدقة على ذي الرحم اثنتان صدقة وصلة)^(٢)، وكذلك إيتاء اليتيم الذي فقد والده وهو صغير، والمسكين الذي أسكنه الفقر فلا يسأل الناس والمسافر الذي انقطع به الطريق فصار ملازماً له فسمي بـ (ابن السبيل) والمحتاجين الذين يسألون الناس، وإعطاء المال أيضاً للمساعدة في تخليص الرقاب من الرق والأسر، ثم قال (وأقام الصلاة) أي أداها كاملة تامة كما أمر الله وأتى الزكاة المفروضة.

ثم انتقل إلى الأخلاق التي هي ثمرة العبادة فذكر أصولها وهي الوفاء بالعهد إذا عاهد الإنسان، قال تعالى ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] والعهد هنا يشمل الدين كله؛ إذ هو مما يعاهد عليه المرء ربه، قال رسول الله: (لا إيمان لمن لا أمانة له ولا

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٣٥٣، ومسلم في صحيحه برقم/ ١٠٣٢ عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٥٦٥ عن أبي هريرة.

دين لمن لا عهد له)^(١)، والتحلي بحلية الصبر في وقت الشدة والفقر ووقت المرض والضر ووقت البأس أي قتال العدو، قال تعالى ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨] أولئك الموصوفون بهذه الصفات الذين صدقوا في إسلامهم وإيمانهم وأولئك هم المتقون لربهم حقاً. وقد جمعت هذه الآية الخير كله، فذكرت أصول العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق، وهي واسطة العقد بين محوري السورة.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقديّة:

- تحريم شرك المحبة، وذلك بأن يشرك مع الله غيره في محبته، وهذا أقبح أنواع الشرك وأشدّها، يقول ابن القيم: "وهؤلاء المشركون يحبون أوثانهم وأصنامهم وأهتهم مع الله كما يحبون الله فهذه محبة تأله وموالاته يتبعها الخوف والرجاء والعبادة والدعاء، وهذه المحبة هي محض الشرك الذي لا يغفره الله ولا يتم الإيثار إلا بمعاداة هذه الأنداد وشدة بغضها وبغض أهلها ومعاداتهم ومحاربتهم. وبذلك أرسل الله جميع رسله، وأنزل جميع كتبه، وخلق النار لأهل هذه المحبة الشركية، وخلق الجنة لمن حارب أهلها وعاداهم فيه وفي مرضاته"^(٢).

- طالما أن المحبة تتفاضل وهي من الإيمان، فالإيمان كذلك يتفاضل.

- التحليل والتحريم حق خالص لله تعالى، وكما لا يشاركه أحد في الخلق فكذلك لا يشاركه أحد في الأمر، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف/ ٥٤] بل إن النبي ﷺ لا يجلل أو يحرم إلا بالوحي الصريح على الراجح، قال النبي: (أيها الناس إنه ليس بي تحريم ما أحل الله لي)^(٣).

(١) رواه ابن حبان في صحيحه برقم/ ١٩٤، والضياء في المختارة برقم/ ١٦٩٩، وسنده حسن. التيسير

بشرح الجامع الصغير ١/ ٣٩١.

(٢) الروح لابن القيم ص ٢٥٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ٥٦٥.

- من أمور البر: الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين، وهي أصول العقيدة الإسلامية، وإذا كانت الأحاديث النبوية قد زادت الإيمان بالقدر كما في حديث جبريل^(١)، فإنه لا يعد زيادة على ما في الآية؛ لأن القدر في حقيقته داخل في جملة الإيمان بالله، لأنه صفة من صفاته؛ قال عمر رضي الله عنه: "القدر قدرة الله"^(٢).

ب- الأحكام الشرعية:

- في قوله تعالى: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ﴾ دليل على إباحة ركوب البحر في التجارة والجهاد وغيرهما للرجال والنساء، لا كراهة في ذلك ولا حرمة.

وما ورد من نهي عن بعض الصحابة فمحمول على الاحتياط والخوف على الأرواح المؤمنة، وما ورد عن مالك في نهي النساء عن ركوب البحر تأوله بعض أصحابه أن السفن بالحجاز صغار وإن النساء لا يقدرن على الاستتار عند الخلاء فيها لضيقها وتزاحم الناس فيها وكان الطريق من المدينة إلى مكة على البر ممكناً فلذلك كره ذلك مالك. قال: وأما السفن الكبار نحو سفن أهل البصرة فليس بذلك بأس^(٣).

- يجب أن يكون كسب الإنسان حلالاً طيباً اتباعاً لظاهر النص القرآني.

- تحريم القول على الله بغير علم قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ وجعله الله قرين الشرك والفواحش وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف/ ٣٣]. وعلى هذا فلا يجوز لأحد أن يحلل أو يحرم من تلقاء نفسه ما لم يأذن به الله، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم / ٨ عن عمر.

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية برقم / ١٥٦٢.

(٣) انظر: التمهيد لابن عبد البر ١ / ٢٣٣.

أَذِنَ لَكُمْ أَنْ عَلَى اللَّهِ تَقَرُّونَ ﴿٥٩﴾ [يونس/ ٥٩].

- تحريم أكل الميتة التي خرجت روحها من غير ذبح، وقد جاء تفصيل بعض أنواع الميتة في قوله تعالى: ﴿وَالْمُنْحَنَةَ وَالْمَوْفُوذَةَ وَالْمَرْدِيَّةَ وَالنَّطِيحَةَ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة/ ٣]. وقد خصصت السنة العموم الوارد في الآية فأباحته أكل نوعين من الميتة وهما الواردان في حديث النبي: (أحلت لنا ميتتان: السمك والجراد)^(١).
- الانتفاع بالميتة على وجه العموم لا يجوز، عن جابر قال: "قيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنها تطلى بها السفن، وتدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس؟ فقال: "لا هو حرام"^(٢). وقد خص الدليل منها الجلد المدبوغ، لأن في دباغة طهارته كما ورد.
- تحريم الدم، قال ابن العربي: "اتفق العلماء على أن الدم حرام نجس لا يؤكل ولا ينتفع به"^(٣). وقد اتفق أهل العلم على أن المحرم هو الدم المسفوح أي السائل، لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا آجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام/ ١٤٥] أما الدم الذي في العروق واللحم فمعضو عنه ولا شيء فيه.
- تحريم لحم الخنزير بكل حال سواء ذبح أو لم يذبح، ويحرم كذلك شحمه وجلده. وأجاز بعض أهل العلم الخرازة بشعره^(٤).
- تحريم أكل ما ذكر عليه اسم غير اسم الله، ومن هذا القبيل ذبائح المشركين والمجوس ومن لا دين لهم.

(١) أخرجه ابن ماجه برقم/٣٢١٨ واحمد ٩٧/٢، والبيهقي برقم/١١٢٩ مرفوعاً وموقوفاً على ابن عمر وقال في الموقوف: هذا إسناد صحيح وهو في معنى المسند. وانظر: فتح الباري ٩/٦٢١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/٢١٢١ ومسلم في صحيحه برقم/١٥٨١.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١/٧٩.

(٤) وهو قول مالك وأبي حنيفة وغيرهما. وقيد الأحناف بالضرورة انظر: حاشية ابن عابدين ٥/٧٢ كفاية الطالب الرباني ١/٧٣٤.

- تحريم ما قصد غير الله به، مثل أن يذبح للأصنام أو لبعض المشاهد الشركية.
- إذا علمنا أن الذابح من أهل الكتاب لم يذكر اسم الله على ذبيحته، فذكر اسم المسيح ﷺ مثلاً فالراجح عند جمهور الفقهاء عدم إباحة الأكل منها لأنها مما أهل به لغير الله. وتكره فقط عند المالكية^(١).
- أجمع العلماء على أن المضطر سواء كان مسافراً أم مقيماً يباح له أن يأكل الميتة ويأكل بقدر ما يسد رمقه ويبعد عنه الخطر، ولا يتعدى ذلك إلى ما فوق الشبع، وهل يباح له الشبع أم لا؟ قولان لأهل العلم، أظهرهما الأول. والله أعلم^(٢).
- استدل جمع من الفقهاء بمفهوم الآية على أن المسافر سفر معصية لا يباح له الرخصة. وهذا قول الحنابلة والشافعية في أصح القولين، وذكروا في ذلك قاعدة وهي أن الرخص لا تناط بالمعاصي.
- أما أبو حنيفة فإنه يرى أن حكم الرخصة ثابت لكل مضطر سواء كان في طاعة أو معصية، ورجح القرطبي هذا القول لأن إتلاف المرء نفسه في سفر المعصية أشد معصية مما هو فيه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء/ ٢٩]^(٣).
- الأكل من الميتة وغيرها من المحرمات للضرورة الظاهر أنه واجب لاستبقاء النفس وليس برخصة، وعلى هذا فلو تركه ومات كان عاصياً. قال الكيا الطبري: "وليس أكل الميتة عند الضرورة رخصة بل هو عزيمة واجبة، ولو امتنع من أكل الميتة كان عاصياً"^(٤).

(١) الأم للشافعي ٢/ ٢٣١ والمبسوط للسرخسي ١١/ ٢٤٦، منح الجليل ٢/ ١٣٣. أحكام أهل الذمة لابن القيم ١/ ٥١٧.

(٢) انظر: المغني لابن قدامة ٩/ ٣٣٠. وبداية المجتهد لابن رشد ١/ ٣٤٩.

(٣) انظر في المسألة: أحكام القرآن للجصاص ١/ ١٥٦، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٤٦.

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ١/ ٤٢. وانظر: المجموع للنووي ٩/ ٣٦، وهو ظاهر الرواية عند الأحناف كما في المبسوط ٢٤/ ٤٨ ومذهب المالكية كما في الفواكه الدواني ٢/ ٢٨٦.

- استفاد الفقهاء والأصوليون من هذه الآية قاعدة ذهبية وهي: الضرورات تبيح المحظورات. وهي من القواعد الفقهية الكبرى، قال ابن تيمية: "ومن استقرأ الشريعة في مواردها ومصادرها وجدها مبنية على قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة/ ٣] فكل ما احتاج الناس إليه في معاشهم ولم يكن سببه معصية هي ترك واجب أو فعل محرم لم يجرم عليهم لأنهم في معنى المضطر الذي ليس بيباغ ولا عاد"^(١).

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية :

- محبة المؤمنين لله أكمل المحاب وأخلصها. وهي روح الدنيا ولذة المؤمنين الذين يجدون بها حلاوة الإيثار. ومحبه تعالى تكون بأمرين هما دافع كل محبة: أولهما: مطالعة أسمائه وصفاته ومعرفة نعوته الجليلة مما يورث القلب محبة وإناية. وثانيها: معرفة آلائه ونعمه الحسية والمعنوية وتقديرها حق قدرها فهذا مما يورث في القلب محبته جل في علاه.

والمحبة عند المحققين على نوعين: فرض وفضل؛ أما الفرض فهي المحبة المستلزمة لأداء الأوامر واجتناب النواهي. والفضل الترقى في النوافل والتوقي عن صغير الرذائل.

- ذم التقليد، والسير على نهج الآباء بلا بينة، وهو أشد قبحاً في أمور الاعتقاد؛ إذ قد يؤدي بالمرء إلى الكفر.

- أهمية شكر النعمة، قال تعالى ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ .

- إيتاء المال على حبه أبلغ في الإيثارة، وأدعى لنيل البر، قال تعالى: في وصف الأبرار ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامًا عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [الإنسان/ ٨].

- استدلال بالآية من قال إن في المال حقاً سوى الزكاة؛ ذلك لأن الآية ذكرت إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ثم ذكرت إيتاء المال على حبه فهذا دليل على هذا الإيتاء ليس بزكاة، ومما يشهد لهذا ما

(١) القواعد النورانية الفقهية لابن تيمية ص ١٤٣.

روي عن فاطمة بنت قيس عن النبي ﷺ أنه قال: "في المال حق سوى الزكاة، وتلا هذه الآية: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ﴾ إلى آخر الآية^(١).

- الإحسان إلى ابن السبيل باب من أبواب الخير، وابن السبيل مصرف من مصارف الزكاة، لكن الآية عامة في كل صدقة، وقد جاء في الحديث الاقتران بين إعطاء اليتامى والمساكين وابن السبيل الذي يخرج في طلب العلم وغيره من الأمور المباحة فقال رسول الله ﷺ عن المال: (فنعلم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل)^(٢).

- الإحسان إلى السائلين، وإعطائهم من أموال التطوع، ولو كان شيئاً يسيراً؛ وعن أم بجيد رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله، السائل يأتيني وليس عندي ما أعطيه؟ فقال لها رسول الله ﷺ: (لا تردني سائلك ولو بظلف)^(٣).

- فضل إعتاق الرقاب، وبيان عظيم أجره.

- فضل الوفاء بالعهد والثناء على أهل الوفاء، وفيه تعريض بمن كان الغدر وعدم الوفاء ديدنهم.

- فضل الصبر في الفقر والمرض والحرب، وعظيم أجره وثوابه، ويكفي أن معية الله بالنصر والحفظ والتأييد والمعونة تكون مع الصابرين.

د- الجوانب التربوية:

- العاقل حقاً من يحسن التعامل مع الكون بالنظر في آيات الله متفكراً متدبراً، فإن التدبر في مخلوقات الله يدل على حكمة أفعاله وجلال صفاته الحسنی، ويدل أيضاً على تصديق رسله

(١) أخرجه الترمذي برقم / ٦٥٩ وقال: حسن غريب والبيهقي في السنن الكبرى ٤ / ٨٤ وضعفه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم / ١٣٩٦ عن أبي سعيد.

(٣) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه برقم / ٢٤٧٢، وبنحوه عند الترمذي وابن حبان وغيرهم. وهو صحيح.

ووحيه، قال تعالى ﴿ سَأُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت/ ٥٣]، ويفتح الأفاق لمكتشفات العلم، وبالجملة فالتدبر والنظر بعين الفكر باب كل خير، ومفتاح أبواب البر.

- التبعية تعني انقياد الإنسان لغيره انقياداً تاماً، وقد تكون محمودة إذا قصد بها اتباع أمر الله ورسوله، وقد تكون مذمومة إذا قصد بها اتباع الباطل أو تقليد الآباء الضالين، وقد جمع بينهما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [١٧٠]. وقد بينت الآيات الكريمة أن التبعية لأهل الباطل من السادات والكبراء في الأوامر والنواهي الظالمة جزاؤها في الآخرة أن تتقطع كل العلاقات ويتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضاً حتى يقرن بينهم جميعاً في نار جهنم. جزاء وفاقاً لما صنعوا. والمؤمن الحق لا يكون إمعة لكل ناعق، بل يتبع الحق وأهله أين كانوا.

- ورد النهي عن اتباع خطوات الشيطان في أربع آيات من القرآن الكريم^(١)، وهذا أيضاً من التبعية المذمومة، وخطوات الشيطان آثاره وأعماله وتزيينه للعباد، والمؤمن المخاطب بهذه الآيات ينهاه إيمانه أن يتبع خطوات الشيطان لأنها توصله إلى شقاء الدارين، ولأن الشيطان أيضاً بتنكر لأتباعه يوم القيامة.

- لا رهبانية في الإسلام، ولا تحريم لما أحل الله، ومن فعل ذلك فهو راغب عن هدي النبي ﷺ غير مستجيب لهدي القرآن في الأكل من كل الحلال الطيب، متبع للشيطان في خطواته المضلة.

- التزكية معناها التطهر من كل دنس وسوء، وقوامها أمران: جهد بشري باتباع هدي النبي المبعوث لتزكية الناس، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ [الشمس/ ٩] وتوفيق من الله، ومن فعل ما يغضبه سبحانه فإنه لا يزكيه.

(١) في البقرة آية ١٦٨، وآية ٢٠٨. والأنعام ١٤٢ والنور ٢١.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

جاء المقطع كمدخل للتشريعات الجامعة التي ستلقى على المسلمين فلازم أن يبدأ بتقرير الأصل الاعتقادي وهو أفراد الله بالوحدانية في ذاته وصفاته، وذلك ليعلم المسلم ويوقن بوحدة مصدر التلقي، ثم دلفت الآيات من ذلك إلى تقرير الوحدة التشريعية؛ وذلك بأن يعتقد المسلم اعتقاداً جازماً أن الله وحده هو الذي يشرع لعباده وقرر ذلك ببيان ما حرم عليهم من الأطعمة، وقد تصير المحرمات هذه حلالاً عند الاضطرار، وهذا من رحمة الله بعباده، أما الشياطين فإنهم يأمرون بكل فاحشة، وكذلك الآباء المتبوعون لا يعقلون ولا يهتدون. وبهذا يتصل هذا الجزء بكل ما سيأتي بعده من تشريعات وحدود يبينها الله وحده، واتصل كذلك بسابقه لما علمنا من افتراء اليهود والمشركين على الله في التحريم والتحليل.

ثم ذكرت آية البر أوصاف الخير الجامعة وبينت أن هذه الخصال هي مما يحافظ عليها المسلمون، وقد سبق في المقطع الأول أن بني إسرائيل قد تركوا البر وأمروا به الناس، قال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَتَكُنُونَ مِنَ الْكٰذِبِينَ ﴾ [٤٤] فقد تحملوا هم عن البر وأثبته الله للمسلمين.

وذكرت آيات السورة في محورها الأول أن بني إسرائيل لم يوفوا بعهودهم مع الله، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ [٢٧] وقال: ﴿ أَوْ كَلِمَاتٍ عَنْهُمْ حَنَافٍ وَنِدَاءً مَعْرُوفًا ﴾ [١٠٠] وجاء تذكيرهم بالوفاء بالعهد في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَالْعَمَلُ سَابِقٌ لَكُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّابِقَاتُ سَابِقَةٌ لَكُمْ بِالسَّيِّئَاتِ ﴾ [١٧٧] وبذلك تتسق هذه الآيات مع المحور العام للسورة؛ حيث نكث اليهود عهدهم فسلبت منهم القوامه ووفى المؤمنون بعهدهم فاستحقوا أن يكونوا هم المتقين الصادقين.

المقطع الأول: تفصيل بعض أمور البر [١٧٨-٢٠٣]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْمُ بِالْحَرْمِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَلْيَبِيعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أَجَلَ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنكُم كُنتُمْ تَخْتَاوُنَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَشِّرُوهُنَّ وَابْتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصِّيَامَ إِلَى الْبَيْتِ وَلَا تَبَشِّرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَدِيقُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لِنَّاسٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَآ إِلَى الْمَعْكَامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِّلنَّاسِ وَالْحَجُّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِن أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

﴿١٧٨﴾ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٧٩﴾
وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ نَفَقْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ وَأَلْفَنَّهُ أَشَدَّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
حَيْثُ يَقْتُلُونَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٨١﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾
وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ
بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْمُرْمَتِ إِصْصَافٌ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٤﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٨٥﴾ وَاتَّبِعُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى تَبْلُغَ الْهَدْيُ
مَحَلَّهُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أذى مِنَ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ
بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ
ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٨٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ
مَعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوفَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ
يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَكْرَدُوا فَإِنَّ حَيْرَ الرَّادِ النَّفْوَى وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٨٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ
عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٨٨﴾
ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٩﴾
النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿١٩٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ
يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ
نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٢﴾ * وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَجَلَّى
فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴿

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

ابتدأ هذا المقطع بذكر الدية في القتل، وبين ما يجب على ولي القتل وما يجب على القاتل من الاتباع بالمعروف والأداء بإحسان، ثم جاء ذكر الوصية قبل الموت للوالدين والأقربين بالمعروف حتى ينال كل نصيبه من الخير وهذا كله متصل بما قبله اتصالاً وثيقاً.

ذلك أن الآيات السابقة تحدثت في شأن إطابة المطعم في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٧٨﴾ وقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٩﴾ ونهت عن بعض الأطعمة المحرمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ثم نددت بأكل الرهبان أموال الناس حراماً في بطونهم وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾

واتصل الحديث هنا عن أكل الأموال وعدم أدائها في الديات في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [١٧٨] وكذلك أداء الوصايا وعدم تضييع الحقوق وأكل أموال الناس بالباطل.

ثم جاء حديث مفصل عن الصيام وبعض أحكامه وآثاره، وهذا متصل بما قبله من الحديث عن أكل الحرام؛ لأن في الامتناع عن الطعام والشراب الحلال تدريباً على الامتناع عن الحرام من باب أولى، وتشجيعاً على إطعام المساكين كما أمرت آيات الصوم، وتعويداً على الجود والكرم في تلك الأيام المباركة.

وبعد آيات الصيام مباشرة جاء النهي عن أكل السحت والرشوة، واتصاله بما قبله لا يحتاج إلى بيان.

ثم جاء الحديث عن الأهله وارتباطها بشعيرتي الصيام الحج، فكان الحديث عن الأهله رابطاً يصل بين العبادتين وبين الجهاد كذلك لارتباطه بالشهور القمرية، وهذا هو محور الحديث في الآيات المتبقية في هذا المقطع.

وقد ابتدأت الآيات بالحديث عن الجهاد والأمر به وبين غايته، ثم جاءت الإشارة إلى جهاد المال بعد جهاد النفس، وانتقل الحديث بعد ذلك إلى الحج وتفصيل أحكامه.

والحج لون من ألوان الجهاد، وفي كليهما تفصيل لجانب من جوانب البر المذكورة في آية البر السابقة؛ إذ أن في كليهما الصبر، ويختص الحج بالصبر في البأساء لأن فيه إنفاقاً، ويختص الجهاد بالصبر حين البأس، أما الصوم فإنه صبر على الجوع والعطش فيعد صبراً على الضراء، فبذلك يكون هذا المقطع بأكمله إجمالاً وتفصيلاً لبعض أمور البر المذكورة في المقطع السابق.

التفسير الإجمالي للمقطع:

بين تعالى أنه فرض القصاص الذي يفيد معنى المساواة والمهاتلة^(١)، وقد ذهب جمع من المفسرين أن المقصود بذلك أن يُقتلَ القاتل المتعمد كما قتل، فيقتل الحرُّ بالحر، وقاتل العبد يقتل بالقتيل العبد، وكذلك الأثنى إذا قتلت قاتلها تقتل، وهذا إبطال لعادات العرب في الجاهلية، روى ابن حاتم عن ابن عباس قوله: وذلك أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة، ولكن كانوا يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة^(٢).

وذهب الشعبي إلى سبب نزول آخر فقال: "كان بين حين من العرب قتال فقتل من هؤلاء ومن هؤلاء، فقال أحد الحيين: لا نرضى حتى نقتل الرجل بالمرأة، وبالرجل الرجلين، وارتفعوا إلى النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: (القتل بواء) أي سواء، فاصطلحوا على الديات،

(١) قال ابن تيمية: "والقصاص مصدر قاصه يقاصه مقاصه وقصاصاً ومنه مقاصه الدينين أحدهما بالآخر" مجموع الفتاوى ٧٤/١٤.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره عنه بسند حسن ٢٩٤/١ برقم/١٥٧٨.

ففضل لأحد الحيين على الآخر، فهو قوله تعالى: ﴿كُذِّبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ إلى قوله ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ قال سفيان: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ يعني: فمن فضل له على أخيه شيء فليؤده بالمعروف^(١).

وقد رجح ابن تيمية هذا الوجه؛ وذلك لعدة أسباب:

أولها: إذا فسرناها بالقتل فالقصاص لا إلزام فيه، وإنما غايته أنه مباح، والآية جاءت بلفظ ﴿كُذِّبَ﴾ الذي يفيد الإلزام والوجوب.

وثانيها: لم يكتب على الأمة استيفاء القتل من القاتل، لأنه حق لولي الأمر، وهذه الآية خطاب للأمة.

وثالثها: أنه تعالى قال في القتلى ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ﴾ و معلوم باتفاق المسلمين أن العبد يقتل بالعبد وبالحر، والأنثى تقتل بالأنثى وبالذكر، والحر يقتل بالحر والأنثى أيضاً عند عامة العلماء. وإذا كان كذلك فالآية تدل على مقاصدة الحر بالحر ومعادلته به ومقابلته به وكذلك العبد بالعبد والأنثى بالأنثى، وهذا إنما يكون إذا كانوا مقتولين فيقابل كل واحد بالآخر وينظر أيتعادلان أم يفضل لأحدهما على الآخر، أما في القتلى فلا يختص هذا بهذا باتفاق المسلمين.

ورابعها: أن لفظ ﴿عَفَىٰ﴾ هنا قد استعمل متعدياً، فإنه قال: ﴿عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ ولم يقل عفا شيئاً، فالعفو عن القتل يقال فيه عفوت عن القاتل، فدلالة اللفظ توحى باستعماله في الدية لا في العفو عن القاتل^(٢).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم/ ٢٧٩٧٣. وذكره الجصاص في أحكام القرآن ١/ ١٨٥. ثم قال: فأخبر الشعبي عن السبب في نزول الآية، وذكر سفيان أن معنى العفو هنا الفضل وهو معنى يحتمله اللفظ، قال الله تعالى: (حتى عفوا) يعني كثروا، وقال عليه السلام: (أعفوا للحي) فتقدير الآية على ذلك: فمن فضل له على أخيه شيء من الديات التي وقع الاصطلاح عليها فليتبعة مستحق بالمعروف، وليؤد إليه بإحسان. وذكره الكيا الطبري في كتابه: أحكام القرآن ١/ ٥٥.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٧٣-٧٧. بتصرف كثير.

والظاهر رجحان ما ذهب إليه ابن تيمية رحمه الله؛ لقوة أدلته ووجاهتها. وعلى هذا يكون تأويل الآية: يا من تحلّيتم بحلية الإيمان، وجب عليكم المكافأة والمائلة في ديات القتلى؛ الحر له دية الحر، والعبد له دية العبد، وكذلك الأنثى إذا قُتلت لها دية الأنثى، وبهذا تكون المساواة والتكافؤ، قال رسول الله ﷺ: (المسلمون تتكافأ دماؤهم)^(١) وهذا دليل على أن الإسلام دين المساواة ولا طبقية فيه.

وبعد أن ذكرت الآية فريضة العدل اتبعتها بفضيلة العفو؛ فمن عفا له أخوه في الدين عن شيء من الدية فيتبع الولي القاتل بالمعروف في أمر الدين فلا يُكَلَّفُ القاتل شططاً قال تعالى في دية القتل الخطأ: ﴿وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَيْهِمْ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ [النساء: ٩٢] وعلى القاتل أن يؤدي الدية بإحسان بلا مظل أو نقصان وهذا الحكم من المولى تبارك وتعالى تخفيف ورحمة بعد أن كانت التوراة تلزم بالقصاص^(٢).

فمن تعدى بعد ذلك بأن قتل بعد أخذ الدية أو طلب ما لا زائداً أو آذاهم بسبب ما بينهم من دم فله من الله العذاب المؤلم يوم القيامة.

ثم ذكرت الآيات علة مشروعية القصاص وهي أنه حياة للأنفس ولا يفقه ذلك إلا أولوا العقول الخالصة منهم، بهذا يتقون ربهم ويتحرزون عن سفك الدماء وكل اعتداء.

وإذا كان أمر المساواة والمائلة في الدية مما يصلح حال المجتمع كله ومن فهم حكمته

(١) رواه أبو داود في سننه برقم/ ٢٧٥١، وابن ماجه في سننه برقم/ ٢٦٨٥ والبيهقي في سننه الكبرى ٢٨/ ٨ وأحمد في مسنده ٢/ ٢١٥ كلهم عن عبد الله بن عمرو، والحديث صحيح وله طرق. انظر: تلخيص الحبير لابن حجر ٤/ ١١٨.

(٢) كما في الفصل التاسع عشر في سفر الخروج، والعشرين من التثنية وروى البخاري في صحيحه برقم/ ٤٢٢٤ عن ابن عباس قال "كان في بني إسرائيل القصاص ولم تكن فيهم الدية، فقال الله تعالى لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْخُرِّ بِالْخُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد".

وصل إلى التقوى فإن هناك أيضاً ما يوصل إلى التقوى ويصلح حال المجتمع الصغير والأسرة، وهو تشريع الوصية الذي فرضه الله أيضاً كما فرض القصاص؛ فإذا حضر المسلم أسباب الموت وظهرت أماراته وكان ذا مال كثير فليوص بشيء من ماله للوالدين ولأهل قرابته بالوجه المعروف الذي لا يضر الورثة وهو الثلث كما بينته السنة في حديث سعد بن أبي وقاص حيث قال: يا رسول الله: أوصي بمالي كله؟ قال: لا قال: فالثلث؟ قال: لا قال: الثلث؟ قال: الثلث كثير،^(١) وهذه الوصية حق على المتقين لله.

ومن حِكَم الوصية تحصيل الذكر الحسن في الدنيا، ونوال الثواب والدرجات العلا في الآخرة، لذلك شرعها الشارع استدراكاً للعمل الصالح قبل الموت وإجراء للثواب على المرء بعد موته، ومكافأة لمن أسدى للمرء خيراً، وصلةً للرحم للأهل والأقارب غير الوارثين، وسداً لحاجة المحتاجين، وتخفيفاً للكرب عن الفقراء والمساكين. قال ﷺ: (إن الله تصدق عليكم عند وفاتكم بثلث أموالكم زيادة لكم في أعمالكم)^(٢).

فمن غيّر في الوصية أو بدل بعد ما سمعه من الموصي وتحقيق منه فإنما إثمه على من بدل لا على من كتب وأوصى والله يسمع أقوال عباده ويعلم أحوالهم وأفعالهم فلا يخفى عليه جنف الموصين وتبديل المتعدين.

فمن خاف من الموصي ميلاً فأصلح بين الورثة والموصي كما شرع الله ففي هذه الحالة لا إثم عليه لأنه أراد المصلحة، ولهذا فإن الله غفور له رحيم به.

وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن هذه الآية نسخت بأية الموارث ويقول ﷺ: (إن الله قد أعطى لكل ذي حق حقه فلا وصية لوارث)^(٣)، وذهب الطبري إلى أن الآية غير منسوخة فقال:

(١) صحيح البخاري كتاب: الوصايا باب: أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس (٢٧٤٢).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٠/ ٥٤، وقال الهيثمي: إسناده حسن. مجمع الزوائد ٤/ ٢١٢.

(٣) رواه أبو داود في سننه برقم/ ٢٨٧٠، والترمذي في سننه برقم/ ٢١٢٠ وابن ماجه في سننه برقم/

٢٧١٣ عن أبي أمامة. قال ابن حجر: وهو حسن الإسناد. تلخيص الحبير ٣/ ٩٢.

”هي محكمةٌ غيرُ منسوخة. وإذا كان في نسخ ذلك تنازع بين أهل العلم، لم يكن لنا القضاء عليه بأنه منسوخٌ إلا بحجةٍ يجب التسليم لها، إذ كان غير مستحيل اجتماع حكم هذه الآية وحكم آية الموارث في حال واحدةٍ على صحة، بغير مدافعةٍ حكم إحداهما حكم الأخرى“^(١). وحملها على الوصية للوالدين والأقربين الذين لا يرثون بسبب اختلاف دين أو غير ذلك، وعلى هذا تكون آية الموارث والحديث مخصّصين للعموم الوارد هنا ولا نسخ.

آيات الصيام:

وإذا كان تشريع القصاص والمائلة يصلح المجتمع كله، وتشريع الوصية يصلح المجتمع الأسري الصغير، فإن تشريع الصيام الذي جاء أيضاً بلفظ ﴿كُتِبَ﴾ يصلح الفرد ويجعله من المتقين ولهذا خاطب ربنا المؤمنين بالخطاب المحبب إلى نفوسهم مبيناً أنه شرع وفرض عليهم الصيام كما فرضه على الأمم السابقة لكي يتحصل لهم التقوى. وتلتزم نفوسهم مراقبة المولى.

والحديث في الصوم موصول بما قبله وما بعده من النهي عن أكل أموال الناس بالباطل، وقد سبق بيان وضوح هذا الخط في الآيات السابقة، وجاء اللحاق لينهى عن أكل أموال الناس بالباطل، وبين هذين جاء الحديث عن الصوم الذي هو تقوية لإرادة الخير في النفوس المؤمنة، وبذل وإعطاءً وصدقةً فطر وجودٌ وكرمٌ حتى تتخلص النفوس من نوازع الحرص والشح والإمساك وطلب الحرام من باب أولى.

من حكم الصوم:

فرض الله على عباده الصوم، وهو أدرى بما يصلح أحوالهم، فهو الحكيم في أمره، وإذا أحببنا أن نتلمس بعض حكم الصيام فإننا نوجزها فيما يلي:

١- الصوم من أبواب شكر النعمة؛ فهو حبس النفس عن نعم الأكل والشرب والجماع. والامتناع عنها زامناً معتبراً يعرف قدرها، فرتابه النعمة تنسي ذكر المنعم، أما إذا فقد المرء

(١) جامع البيان للطبري ٣/ ٣٨٥.

- فترة عرف قيمتها فأدى شكرها، قال تعالى في آية الصيام: ﴿وَلَمَّا كُمُتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .
- ٢- الصّوم وسيلة إلى التقوى؛ لأنه إذا انقادت نفس للامتناع عن الحلال طمعاً في ثواب الله تعالى، وخوفاً من عقابه، فأولى أن تنقاد للامتناع عن الحرام، فكان الصّوم سبباً لا لقاء محارم الله. قال تعالى في آخر آية الصّوم ﴿لَمَّا كُمُتُمْ تَتَّقُونَ﴾ .
- ٣- أن في الصّوم قهر الطّباع وكسر الشهوة؛ فالتفلس إذا شبعتم تمت الشهوات، وإذا جاعت امتنعت عما تهوى، ولذا قال النبيّ يا معشر الشباب: (من استطاع منكم الباءة فليتزوّج؛ فإنّه أغضّ للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصّوم؛ فإنّه له وجاء)^(١) فكان الصّوم ذريعة إلى الامتناع عن المعاصي.
- ٤- أنّ الصّوم دافع للرحمة والعطف على المساكين؛ فالصائم إذا ذاق ألم الجوع في بعض الأوقات، ذكر من هذا حالهم في غالب الأوقات، فتسارع إليه الرّقة عليهم، والرّحمة بهم بالإحسان، فينال بذلك ما عند الله تعالى من حسن الجزاء. وقد روي أن يوسف عليه السلام كان يكثر من الصوم وهو على خزائن أرض مصر، فلما سئل عن ذلك قال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع^(٢).
- ٥- في الصّوم موافقة الفقراء، بتحمّل ما يتحمّلون أحياناً، وفي ذلك رفع حاله عند الله تعالى^(٣).
- ٦- في الصّوم قهر للشيطان؛ فإنّ وسيلته إلى الإضلال والإغواء: الشهوات، وإنّما تقوى الشهوات بالأكل والشّرب. وفيه تقوية للإرادة وصفاء للذهن .
- ٧- والصّوم يعلم المسلم انضباط المواعيد ويشعره بوحدة المسلمين جميعاً في الصوم والفطر.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٧٧٩ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٤٠٠ عن عبد الله بن مسعود.

(٢) في رحاب التفسير للشيخ عبد الحميد كشك ١/ ٣٣٤.

(٣) شرح فتح القدير للكمال بن الهمام ٢/ ٣٠١.

٨- والصوم يربي خلق الصبر؛ فإنه يرى ما يشتهي ولا يتمكن منه.

أضف إلى هذا فوائده الصحية التي كتب فيها الأطباء بحوثاً طبية طيبة^(١).

وقد كان الصوم مشروعاً في كل الديانات السابقة، وهذا من التخفيف على المسلمين حين يعلمون أنهم ليسوا بدعاً من الناس في الصوم؛ فقد كان الصوم معروفاً في الديانات السابقة لكن على هيئات مختلفة، فالتشبيه هنا تشبيه فرضية فقط والله أعلم.

وقد ذكرت الآية الحكمة المرادة من تشريع الصوم وهي حصول التقوى؛ وذلك إنها يكون بسلك منهج المراقبة الذي يفرضه الصوم؛ إذ هو عبادة لا يطلع عليها أحد، ولذلك فإنها تقوى ملكة مراقبة الله وتقواه.

ثم جاء التخفيف الآخر وهو قوله تعالى: ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ وهذا يدل على قلتها، لأن الشيء إذا قل فإنه يُعَدُّ، ومن التخفيف أيضاً: أن من كان مريضاً بمرض يشق معه الصوم بتأخير شفائه أو كان مسافراً سافراً يقصر الصلاة فعليه إن أفطر صوم عدة أيام المرض والسفر من أيام آخر غير شهر رمضان، وجاءت الأيام مطلقة فلا يلزم التتابع.

ومن التخفيف أيضاً: أن على من أطاق الصيام بمشقة إن أفطروا أن يفدوا عن كل يوم طعام مسكين، قال ابن عباس في الآية: "ليست بمنسوخة؛ هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً"^(٢)، ويرجح هذا الوجه أن الإطاقة في اللغة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة، وذلك تشبيه بالطوق المحيط بالشيء^(٣). ويشهد له أيضاً قراءة ابن عباس: يطوَّقونه، وقد وردت في الحديث المذكور قبل قليل. ويدخل في جملة هؤلاء الحامل والمرضع؛ فإن لهما أن يفطرا ويقضيا.

(١) انظر: موسوعة الإعجاز العلمي ص ٩٤٨ ومجلة الإعجاز التابعة لرابطة العالم الإسلامي.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٢٣٥.

(٣) المفردات للراغب الأصفهاني ص ٣١٢.

فمن تطوع بأن زاد في الإطعام فهذا خير له وأفضل، والصوم خير قربة لمن علم ثواب الصيام وعظيم أجره.

ثم فصلت الآيات وقت الصيام وبينت أن شهر رمضان الذي ابتدأ فيه نزول القرآن هداية للناس جميعاً إلى الدين القويم ودلائل واضحة تهدي للصراط المستقيم وتفرق بين سبيل المؤمنين والكافرين. قال تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۗ ﴾ [القدر: ١] فمن حضر الشهر فإنه يلزمه صومه متى كان مكلفاً، قال ﷺ: (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته).^(١)

ثم أعادت الآيات ذكر الرخصة للمريض والمسافر احتراًساً؛ لأن القارئ للآيات عندما يعرف عظيم فضل الصيام وخيريته وبركات رمضان قد يظن أن الصوم هو الأفضل للمسافر والمريض بكل حال.

ثم ختم هذه التخفيفات بأنه تعالى يريد بعباده اليسر، قال تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨] وقال ﷺ: (إن خير دينكم أيسره)^(٢)، ثم بين علة الأمر بمراعاة العدد وهي لإكمال عدة الصوم، أما علة الأمر بالتكبير فهي لما علمنا سبحانه من كيفية القضاء والخروج من عهدة الفطر، وقوله: ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ علة الترخيص والتيسير.^(٣)

والتكبير مشروع بعد اكتمال عدة الصيام وانقضاء العبادة.

وقوله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ﴾ قال الراغب: "هذه الآية من تمام الآية الأولى؛ لأنه لما حث على تكبيره، وشكره على ما قيضه لهم من تمام الصوم، بين أن الذي يذكرونه ويشكرونه قريب منهم، ويجب لهم إذا دعوه، ثم تم ما بقي من أحكام الصوم"^(٤)، والمعنى: وإذا سألك

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٨١٠ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٠٨١ عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد في مسنده ٤٧٩/٣، قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٦١/١.

(٣) الكشاف للزمخشري ٢٥٢/١ بتصرف.

(٤) انظر: محاسن التأويل للقاسمي ٩١/٣.

عبادي عني فإني قريب منهم بإجابة دعائهم، وحقق ذلك بقوله تعالى: ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ فليطلبوا إجابتي لهم إذا دعوني أو فليجيبوا لي إذا دعوتهم للإيمان والطاعة كما أني أجيبهم إذا دعوني لقضاء حوائجهم.^(١) فإذا استجابوا كانوا على رجاء حصول الرشد وهو الاهتداء لمصالح الدين والدنيا.

ومجيء آيات الدعاء وسط آيات الصوم يلفت النظر لأهمية دعاء الصائمين وأنه أهل لأن يستجاب له، قال ﷺ: (إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد)^(٢)، وفي الآية إيناس للمؤمنين وتلطف في الخطاب لهم؛ فقد نسبهم الله تعالى إليه بالعبودية الخاصة، ولم يأت لفظ فقل لهم إني قريب، وإنما جاء الرد مباشرة بلا واسطة، وجاء الرد على السؤال بصيغة الإجابة مباشرة للدلالة على السرعة. كل هذا مما يستجيش في المؤمن مشاعر الحب والإنابة ويدفعه للإقبال على ربه والاستجابة لأمره.

ثم تعود الآيات لبيان تخفيف الله على الصائمين وذلك بإباحة الجماع لهم في ليلة الفطر، فالرجل ستر ولباس لزوجه يمنع أن يظهر منها سوء وكذلك المرأة لزوجهما، كما يمنع اللباس صاحبه أن تبدو منه سواه، وحكمة هذا التشريع أن الله يعلم أنكم كنتم تخونون أنفسكم وتنقصون حقها من الخير فقبل توبتكم وخفف عنكم، فهذا الزمان قد صار يباح فيه المباشرة بالجماع واطلبوا ما كتب الله وقضى لكم من التحصين والولد.

قال البراء: لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يخونون أنفسهم، فأنزل الله: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾^(٣).

ثم أباح لهم بعد ذلك الأكل والشرب حتى يظهر ويتضح بياض النهار من سواد الليل في

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٥٤/٢.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم/ ١٥٣٥ وابن ماجه في سننه برقم/ ١٧٥٣ عن عبد الله بن عمرو، قال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه ٨١/٢.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٢٣٨.

الفجر، وعن سهل بن سعد قال: أنزلت ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾ ولم ينزل ﴿ مِنْ الْفَجْرِ ﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما، فأنزل الله بعده ﴿ مِنْ الْفَجْرِ ﴾ فعلموا أنها يعني الليل والنهار.^(١)

ثم أمر بإتمام صوم كل يوم حتى تغرب الشمس قال رسول الله ﷺ: (إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم)^(٢)، واستثنى سبحانه من المباشرة ليلة الفطر حالة المعتكف في المسجد إذا رجع بيته لقضاء حاجة له فلا يباح له حينئذ أن يقرب أهله. وفي الآية إشارة إلى فضيلة الاعتكاف؛ وهو المكث في المسجد بنية التقرب إلى الله؛ فهو مما يفرغ الإنسان من شواغل الدنيا فيصفو قلبه بالانقطاع إلى العبادة وملازمة بيت الله، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، وتحري ليلة القدر، ومداومة قراءة القرآن والذكر.

وما سبق من الأحكام المتعلقة بالصيام هي أوامر الله التي تحجز بين الحلال والحرام فمن اقترب منها وقع فيها، ومثل ذلك البيان الذي سبق ذكره يبين الله تعالى آياته وفرائضه للناس لكي يكونوا على رجاء تقواه وخشيته.

وجدير بمن امتنع عن الطعام والمباشرة في نهار رمضان تعبداً لله جديرٌ وحريٌّ به ألا يأكل أموال الناس بالباطل وألا ينفقها بالباطل بأن يتوصل بها إلى الحكم على سبيل الرشوة ليأكل طائفة من أموال الناس متلبساً بالإثم مع العلم بسوء عاقبة هذا الفعل.

وفي مناسبة النهي عن الرشوة لما قبله قال أبو حيان: "ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة؛ وذلك أن من يعبد الله تعالى بالصيام فحسب نفسه عما تعودته من الأكل والشرب والمباشرة

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٨١٨، ومسلم في صحيحه برقم/ ١٠٩١، وورد في روايات عند البخاري/ ١٨١٧ ومسلم/ ١٠٩٠ أن من هؤلاء عدي بن حاتم، وقد حدث هو عن نفسه بذلك.
(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٨٥٣، ومسلم في صحيحه برقم/ ١١٠٠ عن عمر بن الخطاب.

بالنهار، ثم حبس نفسه بالتقييد في مكان تعبد الله تعالى صائماً له ممنوعاً من اللذة الكبرى بالليل والنهار جدير أن لا يكون مطعمه ومشربه إلا من الحلال الخالص الذي ينور القلب ويزيده بصيرة ويفضي به إلى الاجتهاد في العبادة، فلذلك نهى عن أكل الحرام المفضي به إلى عدم قبول عبادته من صيامه واعتكافه، وتحلل أيضاً بين آيات الصيام آية إجابة سؤال الداعي وسؤال العباد الله تعالى، وقد جاء في الحديث: (إن من كان مطعمه حراماً وملبسه حراماً ومشربه حراماً ثم سأل الله أتى يستجاب له)^(١) فناسب أيضاً النهي عن أكل المال الحرام^(٢).

ولما كان توقيت الصيام والحج وشيء من أحكام الجهاد مرتبطاً بأهلة الشهور جاء الحديث عن الأهلة إجابة لسؤال من بعض الصحابة؛ عن أبي العالية قال: بلغنا أنهم قالوا: يا رسول الله، لم خلقت الأهلة؟ فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ يقول: جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدة نسائهم ومحل دينهم^(٣)، ولكن ليس في الآية ما يفيد عن أي شيء سألوها في الأهلة.

والمشهور أنهم سألوها عن أحوال الهلال وتغيره ولهذا جاء بصيغة الجمع ﴿الْأَهْلَةُ﴾ فكانت الإجابة أن الأهلة أوقات ترتبط بها مصالح الناس وعباداتهم، وقد يكون سؤالهم مرتبطاً بما سيأتي بعد من الحديث عن النسيء الذي كان يفعله المشركون، قال القرطبي: "وقيل: إنه النسيء وتأخير الحج به، حتى كانوا يجعلون الشهر الحلال حراماً بتأخير الحج إليه، والشهر الحرام حلالاً بتأخير الحج عنه"^(٤). وبذلك يكون سؤال الصحابة عن الأهلة التي تعرف بها الشهور، وعن النسيء الذي يقوم به المشركون.

(١) هو جزء من حديث عند مسلم في صحيحه برقم/ ١٠١٥ عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٦٢/٢.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم ٣٢٢/١ عن أبي العالية، وعند الطبري عن قتادة وفي بعض الروايات الضعيفة أن السائل معاذ بن جبل وثعلبة بن غنيمه. انظر: الدر المنثور، السيوطي ٤٩٠/١.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/١٨٩، وذكره الماوردي في: النكت والعيون ١/٢٥٠ عن ابن بحر. وهذا الوجه ينسجم مع ما سيأتي بعد من أحكام الحج والجهاد والقتال في الأشهر الحرم.

ثم صحح الله لهم مفهوم البر، وأنه ليس في إتيان البيوت وكل الأمور من ظهورها كعادة الجاهلين، ولكن البر الحقيقي في تقوى الله واجتناب نواهيه والتزام أوامره، فأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لتكونوا على رجاء الفلاح.

عن البراء: قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾^(١)، هذا هو سبب النزول الوارد، ومعلوم أن عموم اللفظ لا يخصصه سبب النزول، ولذلك فإن الرازي ذكر لفظة طريفة في صلة شطر الآية الثاني بما قبله حيث قال: "جعل إتيان البيوت من ظهورها كناية عن العدول عن الطريق الصحيح، وإتيانها من أبوابها كناية عن التمسك بالطريق المستقيم، وهذا طريق مشهور في الكناية؛ فإن من أرشد غيره إلى الوجه الصواب يقول له: ينبغي أن تأتي الأمر من بابه، وفي ضده يقال: إنه ذهب إلى الشيء من غير بابه."^(٢)

ولأن الأهله مرتبطة بالجهاد كما سبق، حيث تحريم القتال في الأشهر الحرم، فقد جاء بعد الآية الحديث عن قتال المشركين، فقد روي أن النبي صُد عن البيت في الحديبية ثم صالحه المشركون فرضي على أن يرجع عامه القابل ويخلوا له مكة ثلاثة أيام، فلما كان العام القابل تجهز هو وأصحابه لعمرة القضاء وخافوا ألا تنفي لهم قريش وأن يصدوهم عن المسجد الحرام بالقوة ويقاتلوهم، وكره أصحابه قتالهم في الحرم والشهر الحرام فأنزل الله ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾^(٣).

وذكر الربيع بن أنس أن هذه الآية أول آية في الإذن للمسلمين في قتال المشركين، وسياق الآيات يشهد لصحة قوله^(٤)، فأذن الله للمؤمنين أن يقاتلوا من قاتلهم وذلك لتكون كلمة

(١) رواه البخاري في صحيحه / ٤٥١٢ ومسلم في صحيحه بنحوه / ٣٠٢٦

(٢) التفسير الكبير للرازي / ١٠٨/٥.

(٣) أخرجه الواحدي من طريق الكلبي عن ابن عباس ص ١٣

(٤) انظر: العجائب في بيان الأسباب لابن حجر / ١/ ٤٦٦.

الله العليا، وألا يعتدوا بالبدء أو بقتال من لم يقاتل كالنساء والصبيان^(١) والعجزة أو يتلفوا المزروعات وغير ذلك فإن الاعتداء محرم لا يجب الله أهله.

فإذا نشب القتال فاقتلوهم أينما أدركتموهم، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا تَشَفَّهْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ ﴾ [الأنفال: ٥٧] وأخرجوهم من المكان الذي أخرجوكم منه كما أخرجوكم؛ فلتنكس همتكم متوجهة إلى قتالهم وإخراجهم كما أن همتهم متوجهة إلى قتالكم وإخراجكم، ثم بين سبحانه العلة بقوله: ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ أي أن فتنتهم للمسلمين بالإيذاء والصد عن سبيل الله أشد من القتل ثم استثنى من الأمر بقتالهم في المحاربين في كل مكان المسجد الحرام سوءاً؛ فمن دخل منهم الحرم فهم آمن، إلا إذا قاتل المسلمين، ولأن الله تعالى يعلم تخرج المسلمين من ذلك فأكدته بقوله ﴿ فَإِن قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ ﴾ ومثل هذا الجزاء ما سيصيبهم في الآخرة بسبب كفرهم.

فإن انتهوا عن قتالكم وتوقفوا أو تابوا عن الكفر وأسلموا فإن الله غفور لما أسلفوا رحيم بمن أحسن. قال تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَأَجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٦١]

وإذا كانت الآيات السابقة قد بينت مبتدأ القتال فإن الآية اللاحقة قد بينت غايته وهي الأمر بقتالهم لكي لا تكون منهم فتنة تصيب المؤمنين وتمنعهم من إظهار الدين، ولكي يكون الدين كله خالصاً لله بلا أثر من إكراه أو غيره، أو حتى يكون دين الله الإسلام هو العالي على جميع الأديان. فإن انتهى المشركون عما كانوا عليه فلا عدوان عليهم طالما لم يظلموا، فالعدوان إنما يكون على الظالمين.

ولثلا يتحرج المسلمون من قتالهم في الأشهر الحرم إذا قاتلهم المشركون قال تعالى ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ ﴾ فالأمور بالمقاصة، ومن انتهك الشهر الحرم وما يجب

(١) وقد نهى النبي عن قتل النساء والصبيان كما في البخاري كتاب: الجهاد باب: قتل النساء في الحرب بيقم (٣٠١٥) وهو عند مسلم في كتاب الجهاد باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب برقم (١٧٤٤).

احترامه فعليه تدور الدوائر ويقتصص منه بمثل ما فعل، ثم أيدَ الحكم بأن من اعتدى على المسلمين فليعتدوا عليه بقدر ما اعتدى بلا زيادة ولا نقصان، ثم أمر بعد ذلك بتقوى الله فلا يعتدوا على أحد ولا يظلموا أحداً بالزيادة في الإيذاء، وليعلم المؤمنون أن الله مع أهل التقوى بالمعونة والنصرة وحسن العاقبة.

ولما كان الجهاد الذي هو بذل الأنفس لا يقوم إلا ببذل الأموال أمر الله المسلمين أن ينفقوا في سبيل إعلاء كلمة الله وألا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة وذلك: "بالإسكاف عن النفقة في الجهاد أو تركه"^(١)، فإذا ترك المسلمون الجهاد والنفقة والاستعداد تسلط عليهم غيرهم. ثم أمر الله المؤمنين أن يحسنوا في كل أقوالهم وأفعالهم فإن الله يحب أهل الإحسان.

وكانت آيات القتال هذه وصلاً بين آيات الصيام والحج، ذلك أن الحج تأتي أشهره بعد الصيام، ثم إن أسباب النزول تشير إلى وجوه مناسبات أخرى؛ فقد سبق بيان أن المسلمين خافوا أن يصددهم المشركون عن المسجد الحرام فسألوا عن النسيء، ثم بعد ذلك حرضهم القرآن على القتال وأمرهم بعد ذلك بإتمام الحج والعمرة لله ولا يتخوفوا من مواقف المشركين، فإن حصل لهم حصر من العدو فعليهم الهدى.

أمر تبارك وتعالى بأداء الحج والعمرة بمناسكهما المشروعة لوجه الله تعالى، ثم بين حكم الحاج أو المعتمر إن حبسه عدو عن إتمامها وأراد التحليل فعليه ما تيسر من الهدى الذي يهدى إلى فقراء الحرم من بدنة أو بقرة أو شاة لينحر، وعليه ألا يملق رأسه تحلاً من الإحرام إلا إذا بلغ الهدْيُ موضعه الذي ينحر فيه وهو موضع الإحصار، ومن حكمة التحليل: التخفيف ودفع الحرج؛ فلو لم يشرع له التحلل لظل محرماً إلى أن يزول المانع وفي هذا ما فيه من المشقة، فخفف الله على من احصر بالهدى.

ومن كان منكم أيها المحرمون مريضاً مرضاً يحتاج معه إلى الحللق، أو كان به أذى من رأسه

(١) تفسير الجلالين للمحلي والسيوطي ص ٤٠.

كجراحة أو قمل فعليه إن حلق فديه من صيام أو صدقة أو نسك، وعن كعب بن عجرة قال: "حملت إلى النبي ﷺ والقمل يتناثر على وجهي، فقال: ما كنت أرى أن الجهد قد بلغ بك هذا!! أما تجد شاة؟ قلت: لا. قال: صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام واحلق رأسك، فنزلت في خاصة وهي لكم عامة".^(١)

ثم انتقل إلى حكم الأمن بعد حكم الإحصار فقال: إذا كنتم آمنين من أول الأمر أو صرتم بعد الإحصار آمنين، فمن تمتع بإحرامه بالعمرة في أشهر الحج ليستفيد الحل حين وصوله للبيت ويستمر متمتعاً بالإحلال إلى وقت الإحرام بالحج فعليه ما تيسر من الهدى لأنه تمتع بالنسكين معاً ﴿ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ ﴾ من الحل، فإذا لم يجد الهدى فعليه بعد الإحرام أن يصوم ثلاثة أيام قبل الفراغ من أعمال الحج وإذا رجع إلى بلده بعد الفراغ من الحج فعليه أن يصوم سبعة أيام، ثم أجمل التفصيل فقال: تلك عشرة كاملة؛ لثلاثتهم متوهم أن الكلام على التخيير بين الأمرين بل مجموع الصوم بدل عن الهدى، وهذا الحكم من الهدى أو بدله عن فقدته لمن كان أهله غائبين عنه، أما من كان من أهل مكة وأهله حاضرين فإن الله يجبره بفضله منه، واتقوا الله ولا تجنوا على الإحرام واعلموا أن الله شديد العقاب لمن جنى على إحرامه.

ثم بين سبحانه وقت الحج وأنه أشهر معلومات وهي شوال وذو القعدة وذو الحجة، وعبرت الآيات عن الأشهر بأنها معلومات لأن العرب كانت تعرف أشهر الحج منذ عهد إبراهيم فجاء الإسلام مُقرّاً لما علموا، أو أنها معلومة مؤقتة بوقت معين لا يتقدم ولا يتأخر. فمن أوجب عن نفسه الحج بالشروع فيه فلا يقرب الجماع ومقدماته ولا يخرج عن حدود الشرع بفعل محظور ولا يجال أو يباري مع رفقاته؛ لأن في هذا كله خروجاً عن مقصد الحج من التطهر والتذكر، قال رسول الله ﷺ: (من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)^(٢).

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم / ٤٢٤٥ ومسلم في صحيحه برقم / ١٢٠١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم / ١٧٢٣ ومسلم في صحيحه برقم / ١٣٥٠.

فإن تخلى الناس عن هذه الأمور، فعليهم بالتحلي بالطاعات وكل ما يفعلونه من قربات فإن الله يعلمها فليتزودوا من كل خير مادي^(١) ومعنوي، وخير زاد يحصله المرء التقوى فليحرص عليها أولاً العقول الخالصة الذين يعقلون عن الله ما أمر.

ولأن التزود بالأعمال الصالحة والحرص عليها هو ديدن الحاج فجاءت الآيات مستدركة لما يتوهمه أحد من البعد عن التزود المادي، فبين تعالى أنه لا إثم ولا ذنب على من طلب فضل الله في التجارة، قال تعالى ﴿وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠] وهو ربح التجارة، وقد كان بعض الناس يتحرج من ذلك كما ورد عن ابن عباس قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في المواسم، فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ . في مواسم الحج.^(٢) والمراد بإباحة التكسب في أيام الحج، والحرص على التزود من كل فضل ديني ودنيوي، فيشمل التجارة ويشمل كذلك ما يفعله الإنسان وهو يرجو به فضل الله ورحمته من كل أفعال الخير^(٣)، ومن جملة ذلك وأعظمه الوقوف بعرفات.

فإذا اندفعتم أيها الحاج مفيضين من جبل عرفات بعد الوقوف به يوم التاسع فلتتجهوا إلى المشعر الحرام بمزدلفة ذاكرين الله بالتكبير والتهليل والتلبية، واذكروا الله ذكراً كثيراً مماثلاً لهديته إياكم أو لأجل هديته لكم، وإنكم كتتم من قبل هداية الله لمن الضالين عن الصراط المستقيم.

ثم أمرهم الله أن يفيضوا بعد ذلك من مزدلفة إلى منى كما فعل أبوهم إبراهيم حتى يظلوا على إرثه في هذه العبادة العظيمة، قال ابن عباس: "ثم ليدفعوا من عرفات إذا أفاضوا منها حتى يبلغوا جمعاً الذي يُتَبَرَّرُ فيه ثم ليذكروا الله ذكراً كثيراً، أو أكثروا التكبير والتهليل قبل أن

(١) كما في حال أهل اليمن؛ فعن عبد الله بن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون:

نحن متوكلون، ثم يقدمون فيسألون الناس. فنزلت. رواه البخاري في صحيحه برقم / ١٤٥١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم / ٤٢٤٧.

(٣) انظر: البحر المحيط لأبي حيان ١٠٤/٢.

تصبحوا، ثم أفيضوا فإن الناس كانوا يفيضون، وقال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (٣١) حتى ترموا الجمرة^(١).

ثم أوضحت الآيات أن الذكر لا يكون مقتصرأ على وقت دون وقت، بل يحرص الإنسان على أن يتبع الطاعة بالطاعة، فإذا أدبتم أيها الحجيج نسلككم في عرفات ومزدلفة فاذكروا الله كما كنتم تذكرون آباءكم في الجاهلية بل اذكروه أكثر، فهو المنعم المتفضل؛ عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يقفون في المواسم فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحملات ويحمل الديات ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله على نبيه محمد ﷺ ﴿ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ ﴾ يعني: ذكر آبائهم في الجاهلية أو أشد ذكراً.^(٢)

والعبارة على المبالغة في الأمر بالذكر؛ ذلك لأن الناس يتفاخرون بأبائهم ويحرصون على ذلك، فجاء التشبيه ليؤكد لهم أن ذكر الله أولى من كل ذكر.

ثم بينت الآيات أن الذين يذكرون ربهم ويدعونه فريقان: فريق يسأل ربه من أمر الدنيا ويجعلها أكبر همه ومبلغ علمه، وليس له في الآخرة من حظ أو نصيب، وعن ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللهم اجعله عام خصب وعام ولاد حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله فيهم الآية^(٣).

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٥٢١. والقول بأن المقصود بالآية الإفاضة من مزدلفة ذهب إليه الضحاك ورواه عنه الطبري في تفسيره ١٨٩/٤ وصححه سنده الشيخ أحمد شاكر، واختار هذا الوجه عبد الرحمن بن سعدي في تيسير الكريم الرحمن ص ٩٢، ورجحه رشيد رضا في تفسير المنار فقال: والمتبادر أن المراد بالإفاضة هنا الدفع من مزدلفة؛ لأنه ذكر الدفع من عرفات في خطاب المؤمنين كافة، وهو لا يكون إلا بعد الوقوف، فعلم أنهم سواء في الوقوف بعرفة وفي الإفاضة منها إلى المزدلفة، وبعد أن أمرهم بما يتوقع أن يغفلوا عنه فيها عند المشعر الحرام ذكر الإفاضة منها، وقوله (ثم) يفيد أن الإفاضة من مزدلفة يجب أن تكون مرتبة على الإفاضة من عرفات ومتأخرة عنها. تفسير المنار ٢/ ٢٣٤.

(٢) رواه ابن حاتم في تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٥٥ برقم ١٨٧٠ والضياء في المختارة برقم/ ١٠٨ وسنده حسن.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٥٥ برقم ١٨٦٩ وسنده حسن.

أما الفريق الآخر فإنه يسأل ربه من خيري الدنيا والآخرة، وجاء لفظ: ﴿حَسَنَةً﴾ نكرة ليفيد عموم كل ما يحسن حياة المرء في دنياه وأخراه، ويسألونه أيضاً أن يجعل بينهم وبين عذاب النار وقاية، أولئك الموصوفون بهذه الصفات لهم حظ من جنس ما سألوا في الدنيا والله يوفي كل عامل عمله في الآخرة بلا إبطاء.

ثم عاد الحديث عن مناسك الحج على الترتيب، فتحدثت الآيات عن أيام التشريق الثلاثة بعد يوم النحر العاشر من ذي الحجة، وهي أيام منى، وأمرت بذكر الله فيهن وأباحن التعجل ومغادرة منى بعد رمي الجمرات في يومين بعد يوم النحر، ومن تأخر إلى اليوم الثالث فلا شيء عليه ما دام متقياً لله في كل أحواله، ثم أمرت بالتقوى وأن يكون الناس على علم يقيني بأنهم راجعون لله تعالى يوم القيامة.

الهدايا المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقدية:

- إثبات التحسين والتقيح العقليين، أي أن للعقل مدخلاً وشأناً في معرفة حسن الأشياء وقبحها، وهو مذهب المعتزلة والأحناف وجماعة من الفقهاء وانتصر له ابن تيمية وابن القيم، وخالفهم في ذلك الأشاعرة فقالوا بالتحسين والتقيح عن طريق الشرع فقط. ومن جملة الأدلة التي ذكرها الأولون قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٣١) ففي القصاص مصلحة للعالم وإبقاء لحياة الناس وهذا أمر يدرك حسنه أو لو الأبواب^(١).

- استدل بعض علماء الكلام بقوله تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ على أن الله ليس في السماء؛ قالوا: ولو كان تعالى في السماء أو فوق العرش لما صح القول بأنه تعالى قريب من عباده^(٢). لكن هذه

(١) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم ٢/ ٩٨. ولتفصيل مذهب الأشاعرة انظر: المواقف للإمامي ٣/ ٢٧٥.

(٢) أساس التقديس في علم الكلام للرازي ص ٣١.

الآية وغيرها من الآيات التي تدل على قربه تعالى ومعيته لعباده لا تنافي علوه على عباده؛ فإنه سبحانه ليس كمثل شئ، وقربه قرب علم، وهو عليٌّ في دنوه قريب في علوه.

ب- الأحكام الشرعية :

- وجوب المائلة في الديات؛ فمن قتل حراً دفع ديته وكذلك من قتل عبداً أو امرأة أدى ديتها.

- قتل الحر بالحر*، ويقتل بالعبد على ما هو الراجح عند الأحناف وجماعة، ولا يستفاد هذا من الآية، ولكن من أدلة أخرى؛ كما ورد عن سمرة أن النبي ﷺ قال: (من قتل عبده قتلناه ومن جدع عبده جدعناه)^(١). ولأن الحكمة من شرع القصاص الحياة؛ والحر والعبد فيها سواء، ولأن الحياة لا تدخل تحت القهر المتعرض له الرق^(٢). والله أعلم.

- الأنثى تقتل بالأنثى وبالذكر، والذكر كذلك.

- إذا قتل المسلم ذمياً يقتل به، وهذا قول الأحناف وجماعة، وحملوا النفي الوارد في ذلك كقول رسول الله ﷺ: (لا يقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده)^(٣) حملوه على قتل المحارب، قال

* وقد رجحنا في التفسير الإجمالي أن القصاص معناه المائلة والمساواة، لكن ذكرنا هنا- بإيجاز- بعض الأحكام الفقهية التي يذكرها المفسرون عند تفسير هذه الآية، وذلك من باب تكميل الفائدة، ولأن بعض هذه الأحكام مما تدل عليه الآية بالمفهوم. وانظر مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٨٠.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم/ ٨٠٩٨، وأبوداود في سننه برقم/ ٤٥١٥، والترمذي برقم/ ١٤١٤ وقال: حسن غريب. والحديث إسناده للحسن صحيح، وسماع الحسن من سمرة مختلف فيه وقد اعتد به وصحح الحديث: علي بن المديني، والبخاري وأخذ بهذا الحديث انظر: الاستذكار لابن عبد البر ١٧٧/ ٨ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٧٢.

(٢) انظر: المبسوط للسرخسي ٢٦/ ١٣٠.

(٣) أخرجه الحاكم برقم/ ٢٦٢٣ وصححه على شرطهما، وأبوداود في سننه برقم/ ٤٥٣٠، وأحمد ١/ ١١٩ عن علي. وسنده صحيح. الدراية في تخريج أحاديث الهداية لابن حجر ٢/ ٢٦٢.

الطحاوي: "إنما مراده فيه والله أعلم لا يقتل مؤمن ولا ذو عهد في عهده بكافر فقدم وأحر فالكافر الذي منع أن يقتل به المؤمن هو الكافر غير المعاهد"^(١).

- اختلف العلماء في أخذ الدية من قاتل العمد، فقيل: إن شاء الولي أخذ الدية وإن لم يرض القاتل. وقيل: ليس للولي إلا القصاص، فإن أراد الدية لزم رضا القاتل. ويشهد لصحة الأول قوله ﷺ (من قتل له قتيل فهو بخير النظرين إما أن يؤدي وإما أن يقاد)^(٢).

- إذا عفا أحد الأولياء عن القصاص يسقط القصاص في حق الجميع. ولم يتبق لهم سوى الدية. دل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُم مِّنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ على أن دية العمد على القاتل^(٣). ولا مدخل للعائلة فيها بخلاف الديات الأخرى.

- حكم الوصية للأقربين الاستحباب وذلك عند جمهور الفقهاء من الأئمة الأربعة وغيرهم، قال ابن عبد البر: "وقد أجمع العلماء على أن الوصية غير واجبة على أحد إلا أن يكون عليه دين أو تكون عنده ودعة أو أمانة فيوصي بذلك. وفي إجماعهم على هذا بيان لمعنى الكتاب والسنة في الوصية، وقد شذت طائفة فأوجبت الوصية لا يعدون خلافاً على الجمهور"^(٤).

- دل لفظ ﴿حَيْرًا﴾ في الآية على أن الموصي إن كان ذا مال يسير فالأفضل له ألا يوصي، وعن عائشة قال لها رجل: إني أريد أن أوصي؛ قالت: كم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف قالت: فكم عيالك؟ قال: أربعة. قالت: فإن الله يقول ﴿إِنْ تَرَكَ حَيْرًا﴾ وإنه شيء يسير فدعه لعيالك فإنه أفضل^(٥).

(١) شرح معاني الآثار للطحاوي ٣/ ١٩٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم / ٦٤٨٦ عن أبي هريرة. ووجه الدلالة منه ظاهر.

(٣) أحكام القرآن للكنيا الهراسي ١/ ٥٦.

(٤) التمهيد لابن عبد البر ١٤/ ٢٩٢.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم / ٣٠٩٤٦. وقال الأحناف: إن كان ماله قليلاً وله ورثة فقراء فالأفضل أن لا يوصي. بدائع الصنائع للكاساني ٧/ ٣٣٠، وتكره عند المالكية في المال القليل. الذخيرة للقرافي ٧/ ٩. وقال الشافعية: إن كان ورثته فقراء نقص عن الثلث. روضة الطالبين للنووي ٦/ ١٢٢.

- أخذ بعض العلماء بمفهوم المخالفة في قوله تعالى: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْأَقْرَبِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ فلم يجز الوصية لغيرهما؛ ولو أوصى لغير قرابته ردت على قرابته غير الوارثين. وهو قول الحسن وطاووس. وقال جمهور الفقهاء: إن أوصى لأجنبي وترك أقاربه المحتاجين فقد أثم لكن تنفذ وصيته لمن أوصى له سواء كان مؤمناً أو كافراً^(١).
- اعتبار العرف في الأحكام الشرعية. وهذا ثابت في مسائل كثيرة في الشرع، ومنها الوصية للوالدين والأقربين، وغيرها من الأحكام الواردة في السورة. قال السيوطي: "اعلم أن اعتبار العادة والعرف رجع إليه في الفقه، في مسائل لا تعد كثرة"^(٢). وذكر لذلك أمثلة عديدة منها: تقدير ألفاظ الواقف والموصي.
- تحريم تغيير الوصية، وذلك بأن يغيرها الشاهد فعليه هو الإثم لا على الميت، وإن غيرها الوصي فهو المسؤول، ولا يلحق الميت شيء. ونظير ذلك أن يوصي الميت بسداد دينه فيصير في ذمة الوصي، قال ابن العربي: "وهذا إنما يصح إذا كان الميت لم يفرط في أدائه، وأما إذا قدر عليه وتركه، ثم وصى به فإنه لا يزيله عن ذمته تفريط الولي فيه"^(٣).
- إن خالف الموصي ما أمره الشرع كأن يقصد حرمان الورثة أو بعضهم فإنه يبوء بإثم ذلك، قال ابن عباس: "الإضرار في الوصية من الكبائر"^(٤). ونص عليه العلماء^(٥).
- لا حرج على من غير الوصية إن كان بها إثم أو ظلم. قال ابن عبد البر: "فإن أوصى بها لا يجوز

(١) انظر: الذخيرة للقرافي ٧/٧ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ١٨٠.

(٢) الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٩٠.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ١٠٥.

(٤) أخرجه الطبري عنه موقوفاً برقم / ٨٧٧٨ وصحح إسناده الشيخ شاکر في التعليق، وأخرجه البيهقي في سننه الكبرى ٦/ ٢٧١ وقال: هذا هو الصحيح أنه موقوف.

(٥) الكبائر للذهبي. الكبيرة السابعة والستون ص ٢٣٤، والزواجر للهيتمي الكبيرة العشرون بعد المائتين ٥٠٠/١.

- مثل أن يوصى بخمر أو خنزير أو بشيء من المعاصي فهذا يجوز تبديله ولا يجوز إمضاؤه^(١).
- لا بد في الصلح من موافقة الطرفين.
- دلت الآيات على فرضية الصوم على كل مكلف، ومن جحد فرضيته فهو كافر.
- المرض من الأعذار المبيحة للفطر في نهار رمضان، وهو كل ما أخرج الإنسان عن حد الصحة، قال ابن قدامة: "أجمع أهل العلم على إباحة الفطر للمريض في الجملة. والأصل فيه قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾"^(٢).
- وضابط المرض تكلم فيه الفقهاء باستفاضة ونستخلص من كلامهم أن المريض الذي يزيد مرضه بالصوم له أن يفطر، قال النووي: "ولا يشترط أن ينتهي إلى حالة لا يمكنه فيها الصوم، بل قال أصحابنا: شرط إباحة الفطر أن يلحقه بالصوم مشقة يشق احتياها... وأما المرض اليسير الذي لا يلحق به مشقة ظاهره فلم يجوز له الفطر، بلا خلاف عندنا، خلافاً لأهل الظاهر"^(٣).
- للمسافر أن يؤخر صومه، ويشترط له عند الجمهور مسافة قصر الصلاة، قال ابن رشد: "وأما المعنى المعقول من إجازة الفطر في السفر فهو المشقة، ولما كانت لا توجد في كل سفر، وجب أن يجوز الفطر في السفر الذي فيه المشقة، ولما كان الصحابة كأنهم مجمعون على الحد في ذلك، وجب أن يقاس ذلك على الحد في تقصير الصلاة"^(٤).
- ويلزم أن يكون في مدة القصر، وأن يكون في سفر طاعة عند الجمهور خلافاً للأحناف، ولا يفطر في بلده، وأن يبدأ السفر قبل الفجر؛ فإن سافر خلال النهار بعد أن أصبح صائماً لزم أن يتم صومه عند الجمهور خلافاً للحنابلة الذين استدلوا بحديث جابر: أن رسول الله ﷺ

(١) التمهيد لابن عبد البر ١٤/٣٠٨.

(٢) المغنى لابن قدامة ٣/٤١.

(٣) المجموع للنووي ٦/٢٥٧.

(٤) بداية المجتهد لابن رشد ١/٢١٧.

خرج إلى مكة عام الفتح فصام حتى بلغ كراع الغميم، فصام الناس، ثم دعا بقدر من ماء فرفعه حتى نظر الناس إليه ثم شرب، فقليل له بعد ذلك إن بعض الناس قد صام، فقال: أولئك العصاة^(١).

- والصوم أفضل عند جمهور الفقهاء إذا لم يجهده السفر ويضعفه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ولأن إكمال العدة عزيمة، والعزيمة خير من الرخصة، والصحيح عند الحنابلة أفضلية الفطر في السفر. وقد احتج كل من الفريقين بأحاديث نبوية؛ قال النووي: "والجواب عن الأحاديث التي احتج بها القائلون بفضل الفطر إنها محمولة على من يتضرر بالصوم، وفي بعضها التصريح بذلك... ولا بد من هذا التأويل ليجمع بين الأحاديث والله أعلم"^(٢).

- دل إطلاق قوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ على أن من أخر قضاء ما فاته من رمضان حتى دخل رمضان لا شيء عليه، وهو مذهب أبي حنيفة والحسن وإبراهيم النخعي وغيرهم، وأيده البخاري فقال: "ويذكر عن أبي هريرة مرسلًا وابن عباس أنه يطعم. ولم يذكر الله الإطعام إنما قال: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾"^(٣).

- للشيخ الكبير الذي يشق عليه الصوم أن يفطر ويفدي عن كل يوم بإطعام مسكين.

- وللحامل والمرضع كذلك أن يفطرا ويقضيا، وفي الفدية خلاف؛ فقال الحنفية: وقال الشافعية والحنابلة: إن خافتا على أنفسهما أفطرتا ولا فدية، وإن خافتا على ولدهما أفطرتا وعليهما الفدية^(٤).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم / ١١١٤ ..

(٢) المجموع للنووي ٦/ ٢٦٧. وانظر فيما سبق: شرح فتح القدير، الكمال بن الهمام ٢/ ٣٥٢، وبداية المجتهد لابن رشد ١/ ٢١٧، وكشاف القناع للبهوتي ٢/ ٣١٠.

(٣) صحيح البخاري كتاب الصوم باب ٣٩- ٦٨٨/٢. وقال ابن حجر: "ولم يثبت فيه - أي الإطعام- حديث مرفوع". فتح الباري ٤/ ١٩٠.

(٤) بدائع الصنائع للكاساني ٢/ ٩٧، والأم للشافعي ٢/ ١٠٣، والكافي لابن قدامة ١/ ٣٤٤.

- يجب صوم رمضان برؤية الهلال ليلة الثلاثين، فإن لم ير الهلال فيجب إكمال عدة شعبان ثلاثين يوماً، قال ابن رشد: "وروي عن بعض السلف أنه إذا أغمي الهلال، رجع إلى الحساب بمسير القمر والشمس، وهو مذهب مطرف بن الشخير، وهو من كبار التابعين. وحكى ابن سريج عن الشافعي أنه قال: من كان مذهبه الاستدلال بالنجوم ومنازل القمر، ثم تبين له من جهة الاستدلال أن الهلال مرئي، وقد غمَّ، فإن له أن يعقد الصوم، ويجزيه"^(١).

- من رأى هلال رمضان وحده، وردت شهادته، لزمه الصوم وجوباً، عند جمهور الفقهاء (الحنفية والمالكية والشافعية والصحيح من مذهب الحنابلة)؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾^(٢).

- تأول بعض أهل العلم قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ على أن من حضر أول الشهر في بلده فعليه أن يكمل صيامه سواء سافر أو أقام في بقية الشهر.

والجمهور على أن من دخل عليه شهر رمضان وهو مقيم جاز له أن يسافر ويفطر^(٣).

- استدلال المالكية بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ على أن الصائم لا يجب عليه تجديد النية كل ليلة، قالوا: تناول الأمر صوماً واحداً هو صوم الشهر، فصار من أوله لآخره عبادة مستقلة، فتكفي نية واحدة عن الشهر كله في أوله، والجمهور على تجديد النية لكل يوم من أيام الصوم؛ لأن كل يوم عبادة مستقلة^(٤).

- شروط وجوب الأداء الذي هو تفرغ ذمة المكلف عن الواجب في وقته المعين له هي الصحة

(١) بداية المجتهد لابن رشد ١/٢٠٧.

(٢) انظر: الهداية للمرغيناني ١/١٢٠، وروضة الطالبين للنووي ٢/٣٧٨، والمدونة الكبرى للمالك ١/١٠٣ الإنصاف للمرداوي ٣/٢٧٧.

(٣) المبسوط للسرخسي ٣/٩١، والمجموع للنووي ٦/٢٦٣، وانظر للمذهب الأول: المحلى لابن حزم ٦/٢٤٧.

(٤) الثمر الداني للأزهري ص ٢٩٥، بدائع الصنائع للكاساني ٢/٥٨.

والإقامة لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾. قال ابن جزى: "وأما الصحة والإقامة، فشرطان في وجوب الصيام، لا في صحته، ولا في وجوب القضاء، فإن وجوب الصوم يسقط عن المريض والمسافر، ويجب عليهما القضاء إن أفطرا إجماعاً، ويصح صومهما إن صاماً"^(١).

- مشروعية التكبير عند اكتمال عدة الشهر، ويكون من ليلة الفطر حتى صلاة العيد،

قال ابن تيمية: "التكبير.. مشروع في عيد الفطر: عند مالك والشافعي وأحمد. وذكر ذلك الطحاوي مذهبا لأبي حنيفة وأصحابه... والتكبير فيه هو المأثور عن الصحابة رضوان الله عليهم، والتكبير فيه أؤكد من جهة أن الله أمر به بقوله ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. والتكبير فيه: أوله من رؤية الهلال، وآخره انقضاء العيد وهو فراغ الإمام من الخطبة على الصحيح"^(٢).

- الفطر بالأكل والشرب في نهار رمضان إجماعاً، قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْيَلِّ﴾ فقد مد الأكل والشرب إلى وقت تبين الفجر ثم أمر بالصيام عنهما.

- ومما تستلزمه الآية إباحة صوم الجنب، فإنه يجوز له أن يباشر إلى طلوع الفجر، وهذا يستلزم أن يصبح جنباً. ويطلق علماء الأصول على هذا: دلالة الاقتضاء^(٣).

- واستدل جمهور الفقهاء بالآية على أن من أكل أو شرب ظاناً غروب الشمس أو عدم طلوع الفجر فظهر خلاف ظنه أنه يجب عليه الإعادة، وهو قول أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد. قالوا: حددت الآية وقت الأكل إلى الفجر وهذا أكل في النهار^(٤).

(١) القوانين الفقهية لابن جزى ص ٧٨.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٤ / ٢٢١.

(٣) المحصول للرازي ١ / ٣٢٠.

(٤) مجمع الأنهر لشيخه زاده ١ / ٣٥٨، المجموع للنووي ٦ / ٣١٧.

- استدلال الأحناف والمالكية بقوله تعالى ﴿ تَدْرَأْتُمْوَالصَّيَامَ إِلَى الْبَيْتِ ﴾ على أن من أفطر في التطوع أنه يجب عليه أن يقضي يوماً مكانه؛ لأن الآية تقتضي عموم الفرض والنافلة^(١).
- استدلال المالكية بالآية على أن من أفطر ناسياً فعليه قضاء يوم مكانه، قالوا: أمر الله في الآية بصيام اليوم على التمام بلا تفريط، ومن أكل ناسياً لم يأت بالصوم على التمام^(٢).
- لكن قوله ﷺ: (من أفطر في رمضان ناسياً فلا قضاء عليه ولا كفارة)^(٣) حجة قوية لمذهب الجمهور.
- استدلال العلماء بالآية على النهي عن الوصال في الصوم؛ لأنها جعلت غاية الصوم إلى الليل. وصح عن عائشة أنها قالت: "أتموا الصيام إلى الليل، يعني: أنها كرهت الوصال"^(٤).
- من القواعد الفقهية المستقرة: اليقين لا يزول بالشك ومن جملة شواهد هذه القاعدة قوله تعالى ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ فالأصل بقاء الليل، فلا ينتقل عنه إلا بيقين، وهو التبين الوارد في الآية الكريمة^(٥).
- دلت الآية على مشروعية الاعتكاف، وهو سنة إلا إذا نذر فيلزمه الوفاء، قال ابن المنذر: "وأجمعوا على أن الاعتكاف لا يجب على الناس فرضاً إلا أن يوجه المرء على نفسه فيجب عليه"^(٦).

(١) تبين الحقائق للزيلعي ١/ ٣٣٩، والاستذكار لابن عبد البر ٣/ ٣٥٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٢٠٠.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم/ ١٥٦٩ وصححه على شرط مسلم، وابن حبان برقم/ ٣٥٢١، وابن خزيمة برقم/ ١٩٩٠ عن أبي هريرة. قال ابن حجر: فأقل درجات الحديث أن يكون حسناً فيصلح للاحتجاج به. فتح الباري ٤/ ١٥٧.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره برقم/ ٣٠٢٧.

(٥) انظر: الفروق للقرافي ٢/ ٣١١.

(٦) الإجماع لابن المنذر ص ٤٧ برقم/ ١٣٠.

- لا اعتكاف إلا في مسجد، وهذا متفق عليه بين جمهور أهل العلم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ﴾ وَأَنْتُمْ عَنكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ ﴿١﴾ .
- ودل عموم الآية على صحة مذهب الجمهور في جواز الاعتكاف في أي مسجد، خلافاً لمن قصره على المساجد الثلاثة.
- مباشرة النساء تبطل الاعتكاف؛ فالآية قد نهت عن المباشرة نهياً صريحاً، قال ابن المنذر: "أجمعوا على أن المعتكف ممنوع من المباشرة. وأجمعوا على أن من جامع امرأته وهو معتكف عامداً لذلك في فرجها أنه مفسد لاعتكافه"^(١).
- استدل بالآية الأحناف والمالكية على أن من نذر الاعتكاف فلا بد له من صوم، قالوا: ذكر الله الاعتكاف مع الصيام في الآية، وهذا يقتضي أن الاعتكاف لا يكون إلا بصوم، ولأن الآية اشترطت أحد ركني الصوم وهو الإمساك عن المباشرة فكذلك الركن الآخر وهو الإمساك عن الطعام والشراب^(٢). وروى مالك أن القاسم بن محمد ونافعاً مولى عبد الله بن عمر قالوا: لا اعتكاف إلا بصيام؛ يقول الله تبارك وتعالى في كتابه: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْآيِلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ﴾ وَأَنْتُمْ عَنكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ ﴿٣﴾ فإنما ذكر الله الاعتكاف مع الصيام. قال مالك: وعلى ذلك الأمر عندنا: أنه لا اعتكاف إلا بصيام^(٣).
- حرمة أكل أموال الناس عموماً مؤمنهم وكافرهم بغير حق.
- قال الجصاص: "وأكل المال بالباطل على وجهين: أحدهما: أخذه على وجه الظلم والسرقة

(١) السابق ص ٤٨ برقم ١٣٤، ١٣٣.

(٢) تحفة الفقهاء للسمرقندي ١/ ٣٧٢ والمدونة لمالك ١/ ٢٢٥، أما اعتكاف النفل فيجوز عند الأحناف من غير صوم. المبسوط ٣/ ١٧٧.

(٣) الموطأ لمالك برقم/ ٦٨٨. وللمخالفين ردود على هذه الأدلة لا تطيل بذكرها فلتراجع في المجموع للنووي ٦/ ٤٧٨.

والخيانة والغصب وما جرى مجراه. والآخر: أخذه من جهة محظورة نحو القمار وأجرة الغناء والقيان والملاهي والنائحة وثمر الخمر والخنزير والحرو وما لا يجوز أن يملكه وإن كان بطيئة نفس من مالكة^(١).

- حكم الحاكم وقضاء القاضي لا يُغيّران الحرام إلى الحلال؛ لأنها يقضيان بالظاهر فقط، قال ابن رشد: "أجمعوا على أن حكم الحاكم الظاهر الذي يعتريه لا يحل حراماً ولا يجرم حلالاً، وذلك في الأموال خاصة"^(٢).

- المواقيت المعتبرة شرعاً هي الأهلة. وذلك في أبواب مواقيت الزكاة ودخول الصوم والكفارات والحج وأجل الطلاق وأجل الديون والعدة والإجارة والسلم ووضع الخراج على الأرض والجزية وتقدير السن وغير ذلك من أبواب الشرع...

- استدل جمهور الفقهاء بإطلاق الآية على صحة الإحرام بالحج في أي وقت من أوقات السنة وينعقد الحج مع الكراهة؛ لأن الله جعل الأهلة كلها ظرفاً للحج. وذهب الشافعية إلى عدم انعقاد الحج قبل هلال شوال، وينعقد عمرة^(٣).

- أمرت الآية بقتال من قاتل المسلمين. ومفهوم المخالفة يقتضي عدم قتال من قاتلنا، فمن كان بيننا وبينه عهد فإنه يجب علينا الوفاء بعهدة قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة/ ٧].

- تحريم الاعتداء من المسلم على الغير حتى في حال الحرب. ومن أجل ذلك ذكر الفقهاء ما يلي:

(١) أحكام القرآن للجصاص ٣١٢/١.

(٢) بداية المجتهد لابن رشد ٣٤٥/٢.

(٣) البحر الرائق لابن نجيم ٣٩٦/٢، والحاوي الكبير للهاوردي ٢٨/٤، ومنح الجليل للشيخ عليش ٢٢٣/٢، ونيل الأوطار للشوكاني ٢٩/٥.

١- حرمة القتال قبل بلوغ الدعوة، فلا بد من دعوتهم للإسلام أولاً. قال الكاساني: "فإن كانت الدعوة لم تبلغهم فعليهم الافتتاح بالدعوة إلى الإسلام باللسان؛ لقول الله - تبارك وتعالى ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل/ ١٢٥] ولا يجوز لهم القتال قبل الدعوة"^(١).

٢- عدم جواز التمثيل بقتلاهم، قال رسول الله ﷺ: (أَعْفُ النَّاسَ قَتْلَهُ أَهْلُ الْإِيمَانِ)^(٢).

٣- لا يجوز قتل الصبيان والمجانين.

٤- لا يجوز قتل المرأة والشيخ الكبير والأعمى والراهب طالما لم يقاتلوا.

٥- لا يجوز الإحراق بالنار طالما أمكن التغلب عليهم بدونها.

٦- لا يجوز قتل الأجراء والفلاحين الذين لا ينصبون للحرب، وهم المدنيون بالمصطلح المعاصر.

ويشهد لذلك كله: حديث بريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: (اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال - أو خلال - فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم"^(٣). ونهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان^(٤).

(١) بدائع الصنائع للكاساني ٧/ ١٠٠.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم/ ٢٦٦٦، وابن ماجه/ ٢٦٨١ وأحمد/ ١/ ٣٩٣ عن عبد الله بن مسعود. قال المناوي: ورجاله ثقات. فيض القدير ٧/ ٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ١٧٣١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٨٥٢ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٧٤٤ عن عبد الله بن عمر.

وأوصى أبو بكر أحد قواد جيشه إلى الشام فقال: "إني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرمأً، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تحرقن عامراً ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا للمأكلة، ولا تحرقن نخلاً ولا تفرقنه، ولا تغلل ولا تجبن"^(١). وقال عمر: "لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تملوا، ولا تقتلوا وليدأً، واتقوا الله في الفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب"^(٢).

- لا يجوز القتال في المسجد الحرام إلا إذا كان دفاعاً عن النفس، اتباعاً لظاهر الآية، وهو قول الأحناف. وقال الشافعية: الحكم منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة/ ٥]^(٣). والراجح قول الأحناف لقوة دليلهم، وللأحاديث الواردة في تحريم القتال بمكة^(٤).

- اتفق العلماء على مشروعية الدفاع عن النفس والعرض والمال، لقوله تعالى ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾ وتعرف هذه المسألة بدفع الصائل. وليس على المدافع ضمان فيما أتلّف إذا لم يكن هناك طريق أخف^(٥).

- استدل الشافعية والمالكية والحنابلة في قول بالآية على وجوب المماثلة في القصاص؛ فالقاتل يُقتل بما قتل به، وذهب الحنفية والحنابلة في الأصح إلى أنه لا يكون القصاص في النفس إلا بالسيف^(٦).

(١) أخرجه البيهقي في سننه ٨٩/٩ ومالك في الموطأ برقم/٩٦٥، وعبد الرزاق في المصنف برقم/٩٣٧٥.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه برقم/٢٦٢٥. والبيهقي ٩١/٩ بلفظ مقارب.

(٣) انظر لرأي الأحناف بدائع الصنائع للكاساني ٧/١١٤. ولرأي الشافعية: الحاوي الكبير للمهاوردي ١١٠/١٤.

(٤) ورجحه القرطبي فقال: "وهو الذي يقتضيه نص الآية، وهو الصحيح من القولين". الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/٢٤٢. وانظر: أحكام القرآن للجصاص ١/٣٢١، وأحكام القرآن لابن العربي ١٥٣/١.

(٥) إعانة الطالبين للدميطي ٤/١٧٠.

(٦) شرح الزركشي ٣/١٩، المغني لابن قدامة ٨/٢٤٠، شرح الشيخ عليش ٨/١٥.

- استدل العلماء بالآية على وجوب ضمان المثل على من غصب حق إنسان، فإن تعذر المثل وجب ضمان القيمة^(١). ومثل الغصب الإلتلاف؛ لأنه في كونه اعتداءً وضرراً فوق الغصب.
- استدل جمع من أهل العلم بهذه الآية على مسألة الظفر بالحق، وخلاصتها أن من كان له حق على غيره، ولم يتمكن من استيفائه، فإن له أن يأخذ حقه بغير إذنه، على تفاصيل وشروط تراجع في كتب الفقه المطولة^(٢).
- استدل الحنابلة بالآية على القصاص في اللطمة والضربة، والجمهور على عدم القصاص لتعذر المساواة^(٣).
- استدل بعض الفقهاء بالآية على أن من شتم غيره بدون قذف فإن للمشتوم أن يرد عليه، والأفضل أن يرفع أمره للحاكم ليعزر^(٤).
- يجب دفع الصائل المعتدي حفاظاً على النفس، وقال الشافعية بياح، وقول الجمهور أرجح لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(٥).
- يجب إتمام الحج والعمرة لمن شرع فيها؛ فمن أحرم بنسك وجب عليه ألا يفسخه، لأن ظاهر الآية يقتضي الإتمام بعد الشروع، ولهذا قال: (فإن أحصرتم) ولا إحصار قبل الشروع^(٦).
- استدل الشافعية والحنابلة بقوله تعالى ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾ على وجوب العمرة؛ قالوا: الأمر في الآية للوجوب والأصل التساوي بين المعطوف والمعطوف عليه^(٧)، ورد استدلالهم

(١) البحر الرائق لابن نجيم الحنفي ٨/ ١٢٥، المغني لابن قدامة ٥/ ١٩٣.

(٢) حاشية ابن عابدين ٤/ ٩٥، الأم للشافعي ٥/ ١٠٤، المغني لابن قدامة ١٠/ ٢٧٦، منح الجليل لمحمد عيش ٧/ ٤٣.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٤/ ١٦٣.

(٤) كشف القناع للبهوتي ٦/ ١٢٧. والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٢٥٥.

(٥) الروض المربع للبهوتي ٣/ ٣٣٢. كفاية الأخيار تقي الدين الدمشقي ص ٤٨٩.

(٦) مواهب الجليل لمحمد عبدالرحمن المغربي ٣/ ٢٠٢، المغني لابن قدامة ٣/ ٨٩.

(٧) الأم، الشافعي ٢/ ١٣٢، والكافي لابن قدامة ١/ ٣٧٧. وانظر للرد على استدلالهم: بدائع الصنائع

للكاساني ٢/ ٢٢٦. بداية المجتهد لابن رشد ١/ ٢٣٦.

بأن الأمر هنا للإتمام بعد الشروع. ولأن الأحاديث المشهورة الثابتة في تعدد فرائض الإسلام لم تذكر العمرة.

- استدل جمهور العلماء (الحنفية والشافعية والحنابلة) بالآية على أن من فسد حجه بالوطء وجب عليه أن يتمه ويقضيه في العام المقبل؛ لأنه لم يأت به على النحو المطلوب. وقال المالكية: يفسخ الحج إلى عمرة^(١).

- استدل الأحناف بالآية على أفضلية القران (أي الجمع بين الحج والعمرة بإحرام واحد) لما ورد في معنى الإتمام: أن تحرم بهما من دويرة أهلك^(٢). ورد استدلالهم بأن الآية لم تفد أكثر من جمعها في الذكر فلا يفيد هذا جمعها في الفعل^(٣). والحق أن الأنسك الثلاثة (القران والتمتع والإفراد) جائزة، والصحيح من أقوال أهل العلم أنه ﷺ حج قارناً.

- استدل جمهور العلماء بالآية على أن الحج واجب على الفور؛ فمن ملك الاستطاعة وجب عليه التعجيل؛ فالأمر في الآية يقتضي الفور، وذهب الشافعي إلى أن الحج واجب على التراخي؛ لأنه فرض بعد الهجرة ولم يحج النبي ﷺ بأزواجه وأصحابه إلا سنة عشر^(٤).

ومذهب الجمهور أرجح؛ لأن تأخير النبي ﷺ كان بسبب مظاهر الشرك حول البيت، فلما تم أمر التوحيد نودي ألا يحج بعد العام مشرك، ولأنه ﷺ كان يعلم بقاء حياته إلى أن يعلم الناس مناسكهم تكميلاً للتبليغ^(٥).

- من أحصر عن الحج بعدو أو نحوه لزمه الهدي، قال ابن عمر: "خرجنا مع رسول الله ﷺ

(١) الإقناع للخطيب الشربيني ١/ ٢٦٢، المغني لابن قدامة ٣/ ١٧٨.

(٢) أخرجه الحاكم برقم/ ٣٠٩٠ وصححه على شرطهما، والبيهقي ٤/ ٣٤١، وابن أبي شيبة برقم/ ١٢٦٨٩ عن علي. وقال ابن حجر: إسناده قوي. تلخيص الحبير ٢/ ٢٢٨.

(٣) البحر الرائق لابن نجيم الحنفي ٢/ ٣٨٤ وانظر المجموع للنووي ٧/ ١٣٨.

(٤) المجموع للحنفي ٧/ ٧٢.

(٥) المبسوط للسرخسي ٤/ ١٦٤. وحاشية ابن عابدين ٢/ ٤٥٥.

فحال كفار قريش دون البيت، فنحر النبي ﷺ هديه وحلق رأسه^(١).

- الإحصار عند الجمهور يكون بالعدو، وعند الأحناف يتحقق بكل حصر وحبس سواء بمرض أو بهلاك نفقة ونحو ذلك، لأنه وإن كانت الآيات نازلة في إحصار العدو، إلا أنه يقاس عليها كل حصر. ومما يؤيد قولهم ما ورد عن الحجاج بن عمرو الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: (من كسر أو عرج فقد حلّ، وعليه الحج من قابل)^(٢).

- وقد استشهد الحنفية بالحديث على أن من حصر فعليه القضاء، وذهب مالك والشافعي إلى عدم وجوب القضاء، واستدلوا بالآية فقالوا: لم تزد الآية عن الهدي ولم تذكر القضاء^(٣).

- ﴿فَأَسْتَيْسِرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ هو ما يهدى إلى بيت الله الحرام، وهو إما شاة أو ماعز، أما البدنة فتكفي سبعة.

- وفي الآية دليل على مذهب الجمهور الذي أوجب ذبح الهدي على المحصر، أما المالكية فقد ذهبوا إلى أنه سنة، وهم محجوجون بنص الآية^(٤).

- استدلل الأحناف بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ على أن الهدي محله الحرم، ولأنه قرينة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ١٧١٣.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم/ ١٧٢٥ وصححه على شرط البخاري، وأبوداود برقم/ ١٨٦٢، والترمذي برقم/ ٩٤٠ وابن ماجه برقم/ ٣٠٧٨، وسنده صحيح. وقد قال عز الدين بن عبد السلام: "والذي ذكره مالك والشافعي لا نظير له في الشريعة السمحة التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، وقال فيها: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾، فإن من انكسرت رجله وتعذر عليه أن يعود إلى الحج والعمرة يبقى في بقية عمره حاسر الرأس متجرداً من اللباس محرماً عليه النكاح والإنكاح، وأكل الصيود والتطيب والأدهان، وقلم الأظفار وحلق الشعر ولبس الخفاف والسراويلات، وهذا بعيد من رحمة الشرع ورفقه ولطفه بعباده. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، عز الدين بن عبد السلام ١١/٢.

(٣) المجموع للنووي ٨/ ٢٣١.

(٤) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير ٢/ ٩٣.

- فلا بد لها من مكان. وذهب الشافعية وغيرهم إلى أن المحصر يذبح الهدى حيث أحصر؛ لأن النبي ﷺ ذبح الهدى في الحديبية وهي في الحل لا في الحرم^(١).
- استدلل الجمهور (أبو حنيفة والشافعي وأحمد في الراجح) بإطلاق الآية على أن الذبح لا يتقيد بوقت؛ لأن الآية جاءت مطلقة عن الزمان، فلا تخصص إلا بدليل قطعي ولا دليل^(٢).
- استدلل الأحناف بإطلاق قوله تعالى ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ على أن المحصر لا يلزمه الحلق أو التقصير، واستدل الشافعية بمفهوم الغاية في قوله تعالى ﴿وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ على لزوم الحلق أو التقصير، والمعنى فإذا بلغ الهدى محله فاحلقوا. ويؤيده فعل النبي ﷺ وأصحابه^(٣).
- لا يحلق المحصر رأسه حتى ينحر الهدى لقوله تعالى ﴿وَلَا تَحْلِفُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾.
- من كان مريضاً أو به أذى في رأسه فحلق فعليه الفدية بالتخيير بين ثلاثة أشياء: الصوم ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، أو النسك بشاة.
- من لم يكن مريضاً وحلق رأسه فعليه دم فقط ولا تخيير عند أبي حنيفة وأحمد، لأن الآية خيّرت بشرط العذر، فإن عدم الشرط بطل التخيير. وخالفهم مالك^(٤).
- أوجب الجمهور ذبح فدية الأذى بمكة، وقال مالك: لا يلزم أن يكون بمكة؛ لأن الآية جاءت مطلقة لم تتقيد بمكان^(٥).
- التمتع هو الإحرام بعمرة ثم التحلل منها إلى وقت الإحرام بالحج ويكونا في سفر واحد،

(١) البحر الرائق لابن نجيم الحنفي ٣/ ٥٩، الحاوي الكبير للهاوردي ٤/ ٣٥١.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ١/ ٣٤٢.

(٣) المبسوط للسرخسي ٤/ ٧١، المجموع للنووي ٨/ ٢٢٩، المغني لابن قدامة ٣/ ١٧٥.

(٤) المغني لابن قدامة ٣/ ٢٥٨، الاستذكار لابن عبد البر ٤/ ٣٨٥.

(٥) الاستذكار لابن عبد البر ٤/ ٣٨٩.

- والقران الإحرام بالحج والعمرة معاً، ويأخذ حكم التمتع في وجوب الهدى.
- من لم يجد الهدى فليصم ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة، فإن لم يصم صام أيام منى لقوله تعالى ﴿فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ فإذا رجع بلده صام سبعة أيام.
- دل قوله تعالى ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ على أن من كان من حاضري المسجد الحرام يعني: من أهل مكة فليس عليه دم إذا تمتع أو قرن.
- قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ والجمهور على أن أشهر الحج شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة، وقال المالكية: أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة، وعلى مذهبهم يجوز أداء طواف الإفاضة والتحلل آخر ذي الحجة^(١).
- دل قوله تعالى ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ على حرمة الجماع في الحج؛ فمن فعل فسد حجه. قال ابن المنذر: "وأجمعوا على أن من جامع عامداً في حجه قبل وقوفه بعرفة أن عليه حج قابل والهدى"^(٢).
- تحريم الفسوق في الحج، ومعناه مطلق الخروج عن الطاعة سواء بانتهاك محظورات الإحرام أو بأي معصية، والمعاصي محرمة بكل حال لكنها في الحج أشد تحريماً.
- جواز التجارة مع أداء عبادة الحج.
- استدلال الجمهور بإطلاق قوله تعالى ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ على أن الوقوف بعرفات يجزئ في أي وقت من ليل أو نهار ما دام بعد الزوال، واشترط مالك أخذ جزء من الليل، والحجة للجمهور إطلاق الآية وقوله ﷺ: (من أدرك معنا هذه الصلاة - أي صلاة الفجر بمزدلفة- وأتى عرفات قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه وقضى تفته)^(٣).

(١) المبسوط للسرخسي ٤/٦٠، المجموع للنووي ٧/١٠٥، بداية المجتهد لابن رشد ١/٢٣٨، الكافي لابن قدامة ١/٣٩٠.

(٢) الإجماع لابن المنذر ص ٤٩ رقم/١٤٥.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم/ ١٧٠١ وقال: هذا حديث صحيح على شرط كافة أئمة الحديث، وأبو داود برقم/ ١٩٥٠ وأحمد في مسنده ٤/٢٦١ عن عروة بن مرس. وسنده صحيح. تلخيص الحبير لابن حجر ٢/٢٥٦.

- استدل بعض الفقهاء بإطلاق الأمر في قوله تعالى ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ﴾ على فرضية الوقوف بمزدلفة، ورد جمهور الفقهاء هذا الاستدلال فقالوا: لم يرد في الآية أمر صريح بالوقوف ولا بالمبيت وإنما فيها الأمر بالذكر، وليس فرضاً، فمن لم يذكر الله فحجه صحيح، فكذاك من لم يقف من باب أولى، ولأن المبيت ليس من ضرورة ذكر الله بها^(١).

- الأمر للحجاج بذكر الله في الأيام المعدودات وهي أيام التشريق بمنى، ويتشبه غير الحجاج بالحجاج فيكبرون وبخاصة في أوقات الصلوات.

- يجوز التعجل من منى في اليوم الثاني لمن أراد بشرط أن ينفر قبل غروب الشمس؛ قال ابن المنذر: "وأجمعوا على أن من أراد الخروج من الحج عن منى شاخصاً إلى بلده خارجاً عن الحرم غير مقيم بمكة في النفر الأول أن ينفر بعد زوال الشمس في اليوم الثاني إذا رمى في اليوم الذي يلي يوم النفر قبل أن يمسي"^(٢).

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية :

- يجب عمن عفا عن القاتل أن يتبعه بالمعروف، قال ابن عطية معلقاً على الآية: "وهذا الآية حض من الله تعالى على حسن الاقتضاء من الطالب وحسن القضاء من المؤدي"^(٣).

- وعلى القاتل كذلك إذا عفي عنه أن يؤدي الدية بإحسان، وألا يباطل في أداء ما عليه.

- التيسير والتخفيف منهج إسلامي أصيل؛ قال تعالى: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ وأمثلة ذلك في الصوم كثيرة، ومن أمثله في الحج قوله تعالى ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ فعلق الأمر بما تيسر، ومن التيسير في الحج أن الكفارات جاءت متدرجة من الأخف على الأثقل؛ فبدأ بالصيام وهو أيسر على غالب الناس من الفدية، وثنى

(١) المبسوط للسرخسي ٦٣/٤، مواهب الجليل لمحمد عبدالرحمن المغربي ٨/٣، المغني لابن قدامة ٣/٢١٥.

(٢) الإجماع لابن المنذر ص ٥٦ رقم/٢٠٥.

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية ١/٢٤٦.

بالصدقة وهي أيسر من النسك. ومن التيسير أيضاً: أن من لم يجد الهدي يجزئه صيام عشرة أيام ولا يلزم تتابعها. وكذلك أباح للحاج التعجل من منى لمن شاء.

- إثم التغيير على من قام به دون غيره.

- فضيلة الصلح، وبيان أنه من أفضل الأعمال، لأن نفعه متعدٍ إلى الناس؛ فهو أفضل من العبادة القاصرة غير المتعدية؛ وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة؛ قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين)^(١).

- الحرص على الدعاء، وتحري مواطن الإجابة الزمانية كساعة يوم الجمعة، وبين الأذان والإقامة، ودبر الصلوات المكتوبات، وجوف الليل، وليلة القدر، ويوم عرفة، والمكانية كالدعاء عند الكعبة وكذلك أحوال الإجابة من السفر والمطر والمرض وعند اللقاء وغيره، ومن مواطن الإجابة شهر رمضان؛ فقد جاءت آيات الصوم مقترنة بالدعاء لهذه الحكمة، والدعاء عبادة يؤجر فاعلها، ومن شروط الإجابة: الإخلاص، وإطابة المطعم، وعدم الاستعجال، والعزم في الدعاء، وحضور القلب، وعدم الاعتداء، ومن آداب الدعاء: أن يبدأ الداعي بنفسه، وأن يكرر الدعاء ثلاثاً، وأن يستفتحه بالثناء على الله، والصلاة على رسوله، وأن يرفع يديه مستقبلاً القبلة، وألا يتكلف السجع. ولكل هذه أدلة لا نطيل بذكرها.

- مما يعظم أجر المرء: أن يتبغى بجماعه ما كتب الله له من الولد؛ فإن حسنت نيته في هذا رزقه الله خيرى الدنيا والآخرة.

- إتيان البيوت من أبوابها الحسية والمعنوية؛ وهذه قاعدة عامة تطبق في سبب نزول الآية وفي غيره؛ فالسؤال عن الأهلة لمن لم يكن من أهل المعرفة بها إتيان للبيوت من ظهورها، أما المعرفة والعلم والبحث فهو إتيان للبيوت من أبوابها، فهي منهج دقيق يضبط جوانب العلم

(١) أخرجه ابن حبان برقم/ ٥٠٩٢ والترمذي برقم/ ٢٥٠٩ وقال: صحيح، وأبو داود برقم/ ٤٩١٩ وأحمد/ ٤٤٤. وهو صحيح.

والمعرفة، ويبين كيفية الاستعداد لها حتى يتبوأ المسلمون الرفعة في الدنيا، وعندما حدث التطبيق العملي لهذه القاعدة العظيمة وأتى المسلمون بيوت العلم من أبوابها حازوا منزلة عظيمة وتعلمت منهم الأمم بأسرها.

-عدم الاعتداء من الأخلاق الإسلامية الواجب تطبيقها مع العدو فكيف بغيره.

-من أخلاق الإسلام العدالة والمساواة والمهاتلة في رد الحقوق وغير ذلك، قال تعالى: ﴿ وَحَزَّوْاْ سَنِيَّةً سَنِيَّةً مِّثْلَهَا ﴾ [الشورى/ ٤٠]، وقال: ﴿ فَمَنْ أَعَدَّيْ عَلَيْكُمْ فَأَعِدُّوْاْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّيْ عَلَيْكُمْ ﴾ [١٩٤]، وقال: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوْاْ بِمِثْلِ مَا عُوْقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل/ ١٢٦]، وأمر بالمهاتلة والمقاصة في شأن القتلى. فلا يحق لأحد أن يتجاوز العدل فيأخذ أكثر من حقه أو يتعدى المهاتلة المأمور بها.

- جاء الأمر في الآيات بالإحسان مطلقاً، ﴿ وَأَحْسِنُوْاْ ﴾ . والإحسان يشمل إحسان العمل وإتقانه، ويشمل منزلة الإحسان التي هي من أرفع المنازل، ويشمل كذلك إحسان القول والفعل، والإحسان إلى الناس جميعاً وإلى الوالدين والأهل خصوصاً.

- النهي عن الجدال فيما لا يفيد. ويتأكد البعد عن الجدال في وقت الحج لأنه مناف لمقصود الحج من السكينة والهدوء ومداومة الذكر، ولأن فيه تشويشاً للقلب في وقتٍ هو أحوج من يكون إلى اجتماع قلبه لذكر ربه.

د- الجوانب التربوية:

- سمي الله في كتابه المال خيراً في أكثر من آية، وأمر بحفظه فلا يؤتى السفهاء، وجعل المال قياماً بأمور الناس، وامتن على النبي ﷺ بأنه أغناه، وقال رسول الله ﷺ: (نعم المال الصالح للرجل الصالح)^(١). وهذا دليل على أن المال ليس مذموماً لذاته، وإنما المال أداة يستخدمها الطائعون

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم / ٣٢١٠ وأحمد في مسنده ٤/ ١٩٧ وصحح الحافظ العراقي سنده في المغني عن حمل الأسفار ٢/ ٨٩٢.

في الخير فيقربهم إلى ربهم، وبالعكس.

- الصيام ينمي ملكة المراقبة لله رب العالمين؛ ذلك أن الصوم عبادة سرّية لا يطلع عليها إلا الله، وقد يأكل المرء ويشرب بدون أن يراه أحد، فإذا حافظ على صيامه بعيداً عن أعين الناس أورثه ذلك تقوى لله تعالى.

- التطوع ترق في المقامات، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾ ، والنوافل باب كبير يلج منه المرء إلى محبة ربه، وفي الحديث القدسي: (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه)^(١) فمن رام الوصول إلى محبة ربه حرص على الزيادة في التطوع ليحقق الخير لنفسه.

- قال تعالى ﴿ هُنَّ لِيَاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٍ لَهُنَّ ﴾ فكل من الرجل والمرأة لباس وستر لصاحبه، وهذا من سمو تعبيرات القرآن عن الحياة الزوجية؛ فهي السكن والمودة والرحمة والميثاق الغليظ؛ فالأسرة التي تتكون لبناتها بين الرجل والمرأة هي أساس المجتمع الفاضل والخطوة الأولى لتكوين جيل مسلم، من هنا كان اهتمام الإسلام بالعلاقة الزوجية، والحرص على ربطها بالرباط الديني الأخلاقي المحكم الوثيق.

- حماية أموال الناس، والحفاظ عليها أمر لا يقبل التفريط بحال، وقد نسب الله أموال الناس إلى آكلها فقال: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ قال الطبري: "فجعل تعالى ذكره بذلك آكل مال أخيه بالباطل، كالأكل مال نفسه بالباطل"^(٢). وهذا دليل على وحدة الأمة وتكافلها، وفيه أيضاً تربية للمرء على البعد عن الحرام؛ فإنه إذا استحل مال غيره كان ذلك مدعاة لأن يجترئ الناس على ماله، فحفاظه على مال غيره حفاظ على مال نفسه.

- على المرء إذا طلب أو أمر بشيء أن يذكر ما يعين على الفعل ويحرض عليه، وليكن قدوتنا في ذلك كتاب الله، قال تعالى: ﴿ وَفَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْتَلُونَكَ ﴾ . وهذا ذكر لأسباب

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة برقم/ ٦١٣٧.

(٢) جامع البيان للطبري ٣/ ٥٤٨.

القتال وتحريض عليه بأسلوب حكيم، وفي اقتران ذلك بسبيل الله إرشاد عن التخلي عن حفظ النفس ليكون القتال من أجل إحقاق الحق.

- القصد من الجهاد الإسلامي دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، أو الدخول في ذمة المسلمين وجريان أحكام الإسلام عليهم، لينتهي تعرضهم لبلاد المسلمين، ويتوقف منعهم للدعوة الإسلامية.

- جاء في آيات هذا المقطع قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَعَدَّيْ عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّيْ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [١٩٤]. وهذا نص في أن معية الله بالحفظ والتأييد والنصرة والإعانة إنما تكون مع أهل التقوى، والناظر في آيات القرآن يلاحظ أن معية الله للمتقين جاءت في ثلاث آيات كلها في الجهاد، وهذه أولاها، أما الآخرين فهما قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة/ ٣٦] وقوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة/ ١٢٣] وقريب من هذه الصيغة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل/ ١٢٨] وهي أيضا نازلة في الجهاد كما هو معلوم من الآيات التي قبلها ومن أسباب النزول الواردة فيها. وفي هذا درس تربوي واضح؛ فلا نصر إلا بالتقوى، ولا صلاح للجهاد ولا إصلاح بالجهاد للناس إلا إذا اقترن بالتقوى، والتزم أهله امثال الأوامر واجتناب النواهي، أما إذا كان القتال لدنيا أو على غير منهج الوحي، أو لتكون أمة هي أربى من أمة فإنه لن يجدي على أهله شيئا يوم القيامة، بل يكون عليهم حسرات.

- جاء التأكيد في الأمر بالحج والعمرة أن يكونا لله ولم يأت ذلك في الصلاة والصوم وبقية العبادات، وفي هذا لفظة تربوية طريفة؛ ذكرها القرافي فقال: "لأنها مما يكثر الرياء فيها جداً، ويدل على ذلك الاستقراء؛ حتى إن كثيراً من الحجاج لا يكاد يسمع حديثاً في شيء من ذلك إلا ذكر ما اتفق له أو لغيره في حجه، فلما كانا مظنة الرياء قيل فيهما: لله. اعتناء

بالإخلاص^(١).

- اهتمت التربية الإسلامية بإصلاح الأمرين معاً: الظاهر والباطن، فصالح الباطن بالتقوى والخشية مطلوب وهو المقصود الأعظم، لكن لا يُنسى كذلك إصلاح الظاهر بالأخذ بالأسباب، قال تعالى: ﴿ وَتَكَزُّوْهُا فَاِنَّ خَيْرَ اَزَادٍ اَلتَّقْوٰى ﴾ وهذا جمع بين الزادين، زاد الدنيا بالطعام وزاد الآخرة بالتقوى، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ يَبْنَئْءَآدَمَ قَدْ اَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِيَاسًا يُؤْرِي سَوَءَ تَكْمٍ وَّرِيْشًا وَّلِيَاسَ اَلتَّقْوٰى ذٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف/ ٢٦] فجمع بين زينة الظاهر بالملابس وزينة الباطن بالتقوى، والناظر في الآيات يلحظ بوضوح أن زينة الباطن خير وأحسن، لكن لا يهمل جانب الدنيا، فالتربية الإسلامية قائمة على مبدأ التوازن بين متطلبات الروح والجسد، مع تغليب الأنفع والأبقى. بل إن المسلم يلحظ ذلك في دعائه فيطلب من خيري الدنيا والآخرة أما الذي يهتم بمطالب الدنيا وما له في الآخرة من خلاق فإنه من الخاسرين.

- أصحاب العقول الخالصة الذين وصفهم الله بأنهم أولوا الألباب هم أهل التذكر الحق، قال تعالى ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ اِلَّا اُولُوْا اَلْاَلْبَابِ ﴾ [البقرة/ ٢٦٩]، وهم المأمورون بالتقوى لأنهم الذين يعرفون قدرها وخطرها، قال تعالى: ﴿ وَاَتَّقُوْنَ يَتَاوَلِيْ اَلْاَلْبَابِ ﴾ ، وهم كذلك الذين يفقهون حكم الله في تشريعاته، قال تعالى: ﴿ وَاَتَّقُوْنَ يَتَاوَلِيْ اَلْاَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ ﴾ [١٧٨]. وهذا يبين قيمة العقل الصحيح في الإسلام، وأنه يوصل الإنسان بالتدبر إلى تقوى الله.

(١) الذخيرة للقرافي ٣/ ١٧٣.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة :

- جاء في المقطع وسائل إصلاح الفرد والأسرة والمجتمع الصغير والمجتمع الإسلامي الكبير، وإليك تفصيل ذلك.

أما إصلاح الفرد وتهذيب روحه فإن تشريع الصيام يتكفل بتنقيته من الآثام، وبإبعاده عن الحرام وهذا واضح من سياق الآيات ولحاقها.

والأسرة الصغيرة إنما تصلح بالحب والإيثار والإعطاء من الغني للفقير سواء في حياته كما في آية البر، أو بالإيحاء له كما في آية الوصية، وكذلك المجتمع إنما ينصلح بالعدل والمساواة في أمور القصاص والدية. أما إذا فشت المظالم فإنها تكون سبباً في هلاك المجتمع وفساده.

ولن ينصلح حال المجتمع الإسلامي كله إلا بالجهاد ومقارعة الظالمين، وإذا لم يكن للمسلمين قوة يحمون بها مقدساتهم فإنهم قد يحال بينهم وبينها؛ فقد صُدَّ المسلمون عن البيت الحرام، لكن القرآن رباهم في هذا الدرس على عدم الاستسلام بل عليهم أن يجاهدوا عدوهم إن حال بينهم وبين مقدساتهم.

وقد جاء أمر التقوى في هذا المقطع مرتبطاً بعدة شعائر:

ففي الصوم قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ ﴾ (١٨٣) .

وفي الحج ختمت آية إتمام الحج والعمرة بقوله تعالى: ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [١٩٦]، وفي مناسك الحج الأمر بالتقوى، قال تعالى ﴿ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَكَرَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ أَرْزَادِ التَّقْوَى وَأَتَّقُونَ يَتَأُولَىٰ آلِ أَبِي بَكْرٍ ﴾ [١٩٧] ﴿ وَأذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [٢٠٣].

وكذلك جاءت التقوى في الأمر بالوصية والأمر بالقصاص والأمر بالجهاد. وهذا دليل

على أن التقوى هي الرباط الجامع الذي يصل كل هذه الأمور بالله رب العالمين.

وفي هذه الأمور المذكورة حفاظ على كليات الشريعة الإسلامية؛ فالصوم والحج حفظ للدين، والنهي عن الرشوة حفظ للمال، والجهد حفظ للنفس، وابتغاء ما كتب الله من الولد حفظ للنسل، وهذه أصول وكليات الشريعة الإسلامية، وقد جاء في هذا المقطع تفصيل الحفاظ على الدين لأنه الأهم، وسيأتي في المقاطع اللاحقة تفصيل الحفاظ على النسل والعقل والمال. وبهذا تأتلف مقاطع السورة لتشكّل معاً معالم الشريعة الإسلامية.

المقطع الثاني: نماذج بشرية ومواعظ إلهية (٢٠٤-٢٢٠)

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمُهَادُّ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْعَمَامِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلِّ بِنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا ءَاتَيْنَهُم مِّن آيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَمَن يَدُلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصَرَ اللَّهُ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَاللَّذِينَ الْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ ۗ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۗ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقِتَالِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُم حَتَّىٰ يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۗ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾
 ﴿٢١٩﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْمَفْعُ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٢٠﴾
 فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُوا مِنْهُمْ فَلِاخْوَانِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
 الْمُنْفِسِدَ مِنَ الْمَصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢١﴾ ﴿

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

اختتمت الآيات السابقة بالحديث عن انقسام الناس حيال الموقف من الدنيا والآخرة إلى فريقين، فريق غايته الدنيا وأسقط أمر الآخرة من حسابه، وآخر يطلب للدنيا لكن لا ينسى الآخرة. واستمرت آيات هذا المقطع في وصف الناس إزاء موقفهم ممن حولهم إلى قسمين أيضاً:

الأول: قسم لا يهمه سوى أمر نفسه، وهو في سبيل ذلك يفسد في الأرض ويخرب عامرها، أما الفريق الثاني فإنه على العكس من ذلك، يبذل نفسه وماله ابتغاء رضوان ربه.

فالنموذج الأول يتحدث عن الناس من حيث صلتهم بالله وطلبهم منه، أما النموذج الثاني فإنه يتحدث عن الناس من حيث صلتهم بمن حولهم، وما الذي يحكم هذه الصلة.

وجاء بعد ذلك ذكر نموذج الضلال الذين زينت لهم الحياة الدنيا فانطلقوا يسخرون من المؤمنين، وجاء بعده مباشرة ذكر أهل الإيمان وأنهم أهل العلو الحقيقي. وفي وسط هذه النماذج المتضادة جاء التذكير بأخذ الدين بقوة وعدم اتباع خطوات الشيطان، مع تذكير المؤمنين بحال من بدلوا حتى يتعظوا ولا يقعوا فيها وقعوا فيه.

ثم تبع ذلك آيات تمهد للمؤمنين سبيل الجهاد وتبوءهم له، وهذا مرتبط بما قبله من الحديث عن القتال، بل إن الباعث عن القتال في الموضوعين قد تقارب وذلك في قوله تعالى في المقطع السابق: ﴿ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفِفْتُهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقِتَالِ وَلَا تَقْبَلُوهُمْ

عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوا فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَنْتُمْ لَهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١١٧﴾ [١٩١]. وفي هذا المقطع قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَكُمْ حَتَّى يُرَدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَظَلُّوا ﴾ [٢١٧].

التفسير الإجمالي للمقطع:

لما كانت القلوب هي محل التقوى، وكان العمل شاهداً لما في القلب من التقوى دون الكلام ذكر الله أن الناس في هذا الأمر قسمان: قسم مخادع يظهر خلاف ما يبطن، وقد جاء وصفه بخمس صفات: أولها: أن قوله يروك في الدنيا حيث الأخذ بالظواهر. وثانيها: أنه لا يكتف بمعسول القول وليّن الحديث وإنما يحلف بالله ويقول إنه تعالى شهيد على ما في قلبه من الخير، وثالث أوصافه: أنه رغم قوله وحلفه فإنه في واقع الأمر أشد عداوة ومخاصمة للمؤمنين، قال ﷺ: (إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم)^(١).

ورابع أوصافه: أنه إذا تولى أي أعرض عن المكان وابتعد عنه، أو صار والياً له كلمة وحكم فإنه يبذل وسعه في الفساد في الأرض فساداً معنوياً بنشر الضلال وفساداً حسيماً بإتلاف الزرع والمال والولد، وهذا دليل على فساد باطنه بخلاف ما زعم، والله لا يحب الفساد. وخامس أوصافه: أنه مصرٌّ على ذنبه ويستنكف من قبول النصيحة وتحيط به حمية الجاهلية، وتأخذه العزة لا بالحق بل بالإثم، فهذا تكفيه جهنم مصيراً وبئس الفراش فراشها.

أما القسم الثاني فإنه صادق القلب، ويظهر أثر هذا في تجرده، فهو يبيع نفسه وكل ما يملك طلباً لمرضاة الله تعالى، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر^(٢)، ويجاهد بهاله ويوجد بنفسه والله رؤوف بعباده، يعينهم ويقويمهم.

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم / ٢٣٢٥، ومسلم في صحيحه برقم / ٢٦٦٨ عن عائشة.

(٢) انظر: جامع البيان للطبري ٤ / ٢٥٠.

قيل: نزلت الآية في صهيب، لما أقبل مهاجراً نحو النبي ﷺ فاتبعه نفر من المشركين، فنزل عن راحلته ونثر ما في كنانته، وأخذ قوسه ثم قال: يا معشر قريش، لقد علمتم أني من أركامكم رجلاً وأيم الله لا تصلون إلي حتى أرمي بها في كنانتي ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم فقالوا: دلنا على بيتك ومالك بمكة ونخلي عنك، ففعل. فلما قدم على النبي ﷺ قال: أبا يحيى، ريح البيع، ريح البيع. وتلا له الآية^(١). والنموذج الذي تبينه الآيات يشمل سبب النزول لكنه عام في إبراز ملامح طائفة مخلصمة متجردة لله تعالى.

والآيات السابقة تدل على أن الإفساد في الأرض لا يقوم به أهل الإيثار، وإنما هو دأب المنافقين الذين يظهرون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ودأب شياطينهم من اليهود، أما المؤمنون فإنهم مطالبون بالإيمان الكلي الذي لا يأخذ شيئاً ويدع آخر. وهذا ما بيته الآية حيث ذكرت ما يجمع القلوب نحو مرضاة علام الغيوب وذلك بأمر المؤمنين أن يستسلموا لله تعالى، ويخضعوا له وينقادوا بالكلية لأحكامه، وألا يتبعوا الشيطان فيتفرق بهم عن سبيل الله، ذلك أن الشيطان للإنسان عدو مبين وإن لم يكن مرئياً إلا أن عداوته ظاهرة لا ينكرها عاقل.

فإن اتبعتم طريقه وسلكتم نهجه فأصابكم الزلل بعد ما هداكم الله بالأدلة البينة على طريق الحق فاعلموا أن الله غالب لا يُغلب وقادر لا يُقهر فاحذروا غضبه وانتقامه.

ثم تغير الأسلوب إلى هؤلاء المفسدين وخاطبهم بأسلوب الغائب التفاتاً تخويفاً لهم وبياناً أنهم لا ينتظروا إلا أن يأتيهم الله إتياناً يليق بذاته وتأتيهم الملائكة في قطع السحاب بعد أن تشقق السموات، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٥] عندئذ حق العذاب وقضي الأمر وإلى الله تصير الأمور.

(١) رواه الحاكم في المستدرک برقم/ ٥٧٠٠ عن عكرمة، وصححه على شرط مسلم، وابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم ٣٦٨/٢ برقم/ ١٩٣٩ وأبو نعيم في حلية الأولياء ١٥١/١ وابن عساکر في تاريخ دمشق الكبير ٢٤/٢٢٨، وله طرق عدة. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٣/٤٥١.

وتذكر الآيات بعض إفساد هؤلاء وتحذر المسلمين من سلوك منهجهم، قال الرازي: "وذلك تنبيه هؤلاء الحاضرين على أنهم لو زلوا عن آيات الله لوقعوا في العذاب كما وقع أولئك المتقدمون فيه، والمقصود من ذكر هذه الحكاية أن يعتبروا بغيرهم"^(١).

والمعنى: اسأل يا محمد بني إسرائيل سؤال إنكار لا سؤال استفسار كم من المعجزات والبراهين المتكاثرة قد أتتهم ولكن كانوا عنها معرضين، ولها مبدلين، ثم بين الله سنته الكونية في ذلك وهي أن من بدل نعمة من بعد ما جاءته واتضح له بأن كفر بها فإن الله يعاقبه أشد العقوبة فهو شديد العقاب، ونظير ذلك قوله تعالى في حق المشركين ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَيَنْسُقُونَ إِلَيْهَا ﴿٢٩﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]

ثم أتبع الله ذلك بالسبب الذي لأجله كفر هؤلاء بأنعم الله فبين سبحانه أن حب الدنيا والاعتزاز بزخرفها قد زُين لهم وملك عليهم قلوبهم حتى وصلوا إلى درجة دوام واستمرار السخرية بمن لم يكن على طريقتهم من المؤمنين، فبين القرآن أن أهل التقوى هم الأعلى حتى وإن علا الكفار في الدنيا قليلاً، فإن المتقين فوقهم يوم القيامة، وهذا هو التفاضل الحقيقي إذ لا تفاضل في الدنيا فإن الله يرزق الجميع في الدنيا بغير أن يحتسبوا، وقد يكون التذليل خاصاً بنعيم الآخرة حين يكون المتقون فوق الذين كفروا يوم القيامة^(٢)، قال: الألويسي "ويجوز أن يُراد في الدارين فيكون تذكيراً لكلا الحكيمين"^(٣).

وهذان نموذجان يوجدان في كل زمان ومكان: نموذج الكافر المغرور بدنياه، والمؤمن المستعلي بتقواه.

(١) مفاتيح الغيب للرازي ٦/٤، ٣.

(٢) ورجح الوجه الثاني ابن جرير الطبري في جامع البيان ٤/٢٧٤.

(٣) روح المعاني للألويسي ٢/١٠٠.

وما زال الحديث موصولاً في تقرير هؤلاء الطواغيت وتقوية قلوب المؤمنين لجهادهم؛ فتحدثت الآيات عن سبب اختلاف السابقين من أهل الكتاب على أنبيائهم، وأوضحت أن بغيهم هو علة كفرهم كما ورد في قوله تعالى: ﴿بِسْمَا أَشْرَوْا بِوَيْهٍ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [البقرة/ ٩٠] وقد ذكرت هذه الآية الجامعة أحوال الأمم مع الاهتداء في إيجاز مقنع وأسلوب أخاذ.

ذلك أن بني آدم كانوا على ملة واحدة ودين مستقيم^(١) فاختلّفوا بين ضال ومهتد، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْكَاثِرُ إِلَّا أُمَّتَةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس/ ١٩] فأرسل الله النبيين مبشرين للمهتدي بالثواب ومنذرين للضال بالعذاب، وأنزل معهم الكتب السماوية للحكم بين الناس بالحكم العدل والقول الفصل فيما اختلفوا وتفرقوا فيه.

ثم بين الله الأسباب التي أدت إلى اختلاف الناس في الكتاب الذي أنزله لهدايتهم؛ فما اختلف في شأن الكتاب الهادي إلا الذين علموه، وما كان اختلافهم بسبب التباس الحق عليهم، ولكن كان بسبب البغي والحسد بينهم، فأورثهم هذا الشقاق، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [١٧٦] وإذا كان هذا شأن الضالين المختلفين في الحق فإن الله هدى الذين آمنوا لما اختلف فيه أهل الضلال، والله تعالى يوفق من يشاء بدلالته وإرشاده إلى الطريق القويم والصراط المستقيم.

والآية مرتبطة بقضية الاستخلاف في الأرض؛ فآدم نزل ومعه المنهج كما في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [٣٨] لكن حدث الاختلاف بعد ذلك، والعجب أنه حدث مع

(١) وروى ذلك المعنى الطبري عن أبي وابن عباس ومجاهد وقتادة انظر: جامع البيان للطبري ٤/٢٧٨ واختاره الزمخشري في الكشاف ١/٢٨٣ وابن كثير في تفسير القرآن العظيم ١/٥٦٩ والبغوي في معالم التنزيل ١/١٨٦ وأبو حيان في البحر المحيط ٢/١٤٣ والنسفي في تفسيره ١/١٠١ وبالجملة للإمام الرازي يقول "وهذا قول أكثر المحققين" مفاتيح الغيب ٦/١٠.

وجود الكتاب الذي يعصم من الاختلاف، وما كان الاختلاف إلا بسبب البغي وتحكيم الأهواء ومن هنا تفرق الناس شيعاً تبعاً لأهوائهم، وجاء الأنبياء يوجهونهم، والآية تشير بوضوح إلى سبب ضلال أهل الكتاب مع وجود الحق من عند الله في أيديهم.

وفي تذييل الآية بقوله ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ بيان أن أهل الإيمان اختصوا بالهداية دون غيرهم ممن اختلفوا وتركوا الحق بغيّاً، ولذلك لم يأت بعدها ذكر للقوم الضالين، وإنما جاءت التكاليف الإلهية للمؤمنين لتكتمل لهم الهداية.

وقد جاءت آية القبلة مقارنة لهذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [١٤٢] وذلك لأنها اشتملت على ما تميزت به هذه الأمة من شأن القبلة الوسط التي أظهرت شرف هذه الأمة ومكانتها وقدرها عند ربها.

وبعد هذا البيان لما حدث من السابقين الضالين، جاءت الآية بالمثال الناصع للمؤمنين، وهو مثل المهتدين الذين ثبتوا على الحق، فكما ذكرت الآيات أهل البغي فإنها بينت للمسلمين بعدها منهج أهل الحق كي يقتدوا بهم في مسيرهم لينالوا مصيرهم؛ فالهداية إلى الطريق الحق تحتاج إلى رجال أشداء يصبرون على البأساء والضراء.

وقد ضربت الآية لهم مثلاً بالأمم السابقة قبلهم، و(أم) هنا متصلة تشير إلى محذوف دل عليه الكلام، والمعنى: قد خلت من قبلكم أمم أوتوا الكتاب واهتدوا إلى الحق فأذاهم الناس فصبروا وثبتوا، أفتصبرون مثلهم على المكاره وتثبتون ثباتهم على الشدائد؛ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة دون أن يصبكم ما أصابهم^(١)؟

لقد مستهم الشدة التي تصيب الإنسان في بدنه وماله وانزعجوا واضطربوا، حتى بلغوا الغاية التي قال فيها الرسل وأتباعهم متى نصر الله؟ تمنياً للنصر واستعجالاً له، فيأتيهم الرد

(١) انظر: تفسير القرآن الحكيم لرشيد رضا ٢/٢٩٩.

الإلهي يتردد صداه في الملاء الأعلى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ فرفع الله ما بهم من ضر، وأجزل لهم الأجر، ونظير ذلك قوله تعالى ﴿حَقٌّ إِذَا أَسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف: ١١٠].

قيل: نزلت الآية التي معنا في غزوة الأحزاب، حيث أصاب النبي ﷺ يومئذ وأصحابه بلاء وحصر^(١).

وبعد ذكر هذه النماذج المؤمنة المجاهدة جاء تذكير المؤمنين ببذل المال والنفس، فعاد الحديث إلى الوعظ والتذكير بالإنفاق والجهاد، وقد روي عن ابن جريح قال: سأل المؤمنون رسول الله ﷺ: أين يضعون أموالهم؟ فنزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ قَلِيلًا وَكَثِيرًا﴾^(٢).

وهذا أول سؤال من ستة أسئلة وردت متجاورة في سورة البقرة، والسؤال عن مقدار نفقة التطوع ووجهتها فبينت لهم الآيات أن ما أنفقوا من خير أو مال فأولى الناس به الأبوان والولد ثم الأقرب فالأقرب، واليتامى الذين مات أبأؤهم، والمساكين الذين أسكنهم الفقر فلم يقدروا على الكسب، والمسافرين الذين انقطعوا عن الرجوع إلى بلادهم، ثم عم الأمر ليشمل من لم يرد لهم ذكر فأخبر سبحانه أن كل ما يفعله المرء من خير مطلقاً فإن الله عالم به وسيجازيه عليه الخير.

وبعد أن حضهم على بذل المال حضهم كذلك على بذل الأرواح والأنفس في سبيل الله، وذلك بأن فرض على المؤمنين القتال، مع كونه مكروهاً للنفس لما فيه من المخاطرة بإزهاق الأنفس وإتلاف الأعضاء والممتلكات وغير ذلك، ولكن مع هذا فإن له حكمة تهُون مشقته وتُحقق به خيراً غير ظاهر بالنظرة القاصرة، فعسى أن يتحقق الخير الكثير بما يكره المرء، وعسى

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٨٣/١ والطبري في جامع البيان ٢٨٩/٤ عن قتادة.

(٢) رواه الطبري في تفسيره ٢٩٤/٤ وابن المنذر كما في الدر المنثور ٥٨٥/١.

أن يجب المرء شيئاً مثل القعود عن الجهاد وهو شر له في الواقع لما فيه من الذل وتداعي الأعداء على المسلمين، والله يعلم الأشياء على ما هي عليه أما نحن فتشتبه علينا الأمور فنرى الضار نافعاً والنافع ضاراً، ومقصود الآية تعليم المؤمنين تلقي أمر الله على ثقة أنه الخير والأمنع لهم. والحديث مازال موصولاً عن الجهاد وبداية تشريعه على الأمة، ورد شبهات الأعداء حوله، حيث أثاروا شبهة قتال المسلمين لهم في الأشهر الحرم، مع أنهم لم يراعوا هذه الأشهر يوماً ما! فجاء القرآن ليصوب الفهم، ويوجه المؤمنين إلى كيفية الرد عليهم ومواجهتهم. لأن هذا الموقف الذي حدث في سرية عبد الله بن جحش قد أحدث لغطاً في الصفوف.

وملخص ذلك أن النبي ﷺ بعث عبد الله بن جحش ومعه اثنا عشر رجلاً من المهاجرين وأعطاه كتاباً مختوماً على ألا يفتحه إلا بعد أن يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ولا يستكره أحداً من أصحابه. فسار عبد الله يومين، وخبرهم الخبر وقرأ عليهم الكتاب فرجع رجلاً ومضى بقيتهم، فلحقوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو جمادى فقال المشركون للمسلمين، قتلتم في الشهر الحرام! فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ فقال بعضهم: "إن لم يكونوا أصابوا وزراً فليس لهم أجر، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَؤَلَّئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٧٨) ﴿١﴾.

والسؤال هنا من المشركين سؤال تعيير ونكير أو هو من المؤمنين سؤال تعليم وتذكير وهو عن حكم القتال في الأشهر الحرم، فلَقَّن الله نبيه الرد بأن القتال في الأشهر الحرم الأربعة (ذي القعدة وذي الحجة والمحرم ورجب) محرم وكبير، ولكن جرائم المشركين: من صرف المسلمين عن دينهم وعن حرم الله، وشرك بالله في بيته، وإخراج أهله منه أكبر وزراً وأعظم إثماً عند الله من القتال في الشهر الحرام، والفتنة بالكفر وتعذيب المؤمنين وإلقاء الشبهات أكبر جرماً من

(١) أخرجه ابن جرير في جامع البيان ٤/ ٣١٠ وابن أبي حاتم ٢/ ٣٨٤ والطبراني في المعجم الكبير ٢/ ١٦٢ برقم ١٦٧٠ وصححه إسناده السيوطي في الدر المنثور ١/ ٦٠٠ وقال ابن حجر في العجائب ١/ ٥٣٩: وهذا سنده حسن. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ١٩٨: رجاله ثقات.

القتل، فلما هاجر المسلمون ما انفك المشركون عن قصد قتالهم ولهذا حرص الله المؤمنين الذين كانوا يكرهون القتال وبين لهم أن المشركين لا شاغل لهم إلا قتال المؤمنين ليفتنوهم ويردوهم عن دينهم إن استطاعوا.

وبين حكم الردة التي يبتغيها الكفار وأن من ارتد ومات على رده فقد فسد عمله في الدنيا والآخرة فلم ينتفع به في الدارين وصار من الملازمين للخلود في النار وبئس القرار. ويعد أن توعد الكافرين والمرتدين وعد المؤمنين، "ولا يكاد يوجد وعيد إلا ويعقبه وعد"^(١) فوعد الذين آمنوا بالله وفارقوا أموالهم وأوطانهم نصره لدين الله وجاهدوا في سبيل الله إعلاء كلمته أولئك يرجون ويأملون تعلق رحمة الله بهم فيثيبهم على عملهم، وهو واسع المغفرة عظيم الرحمة للتائبين المؤمنين.

ثم يمضي السياق القرآني متعرضاً لسؤال آخر من أسئلة الصحابة لرسول الله ﷺ وهو السؤال عن الخمر والميسر، والسائل عمر وغيره من الصحابة؛ ففي السنن عن عمر أنه قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فإنها تذهب المال والعقل، فنزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ التي في البقرة، فدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في سورة النساء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ [النساء: ٤٣] فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى ألا يقربن الصلاة سكران فدعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في المائة، فدعي عمر، فقرئت عليه، فلما بلغ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] قال عمر: انتهينا انتهينا.^(٢)

ومن الحديث السابق يتضح لنا أن تحريم الخمر مر بثلاث مراحل، وكانت آية البقرة

(١) التفسير الكبير للرازي ٣٤/٦

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ٣٢٥/٣ والترمذي ٥/٢٥٣ والنحاس في الناسخ والمنسوخ ١٤٩/١، والضياء في المختارة ١/٣٦٨ والحاكم في المستدرک ٢/٣٠٥ وصححه على شرطهما، والنسائي في سننه ٢٨٦/٨ وأحمد ١/٥٣ وصححه ابن المديني كما في الفتح ٨/٢٧٩.

هي المرحلة الأولى في التحريم، ويرى الزمخشري أن أول آية نزلت في تحريم الخمر بمكة قوله تعالى ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل/ ٦٧]^(١) وفي هذا بيان لحكمة التشريع الإسلامي في اقتلاع هذه العادة الذميمة منهم، قال القفال رحمه الله: "والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أن الله تعالى علم أن القوم قد كانوا ألفوا شرب الخمر وكان انتفاعهم بذلك كثيراً، فعلم أنه لو منعهم دفعة واحدة لشق ذلك عليهم، فلا جرم استعمل من التحريم هذا التدرج وهذا الرفق"^(٢).

وأصل الخمر في اللغة السترُ التغطية، وسميت الخمر خمرًا لأنها تخامر العقل أي تخالطه، وقيل: لأنها تستره وتغطية"^(٣) وجمهور الفقهاء على أن الخمر تشمل كل شراب من العنب أو الشعير أو التمر وغيره وذلك لأدلة كثيرة منها قوله ﷺ: (كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام)^(٤).

والميسر: القمار، وهو مشتق إما من اليسر لأنه أخذ المال بدون جهد، وإما من اليسار أي الغنى لأنه سلب للغنى^(٥)، ويشمل كل ما يؤدي إلى كسب مال عن طريق المخاطرة، فيدخل فيه كل ما يدفعه الفرد ليدخل في سحب أو يانصيب أو نحو ذلك ليفوز بمبلغ أكبر أو يخسر ما دفعه.

وقد أجاب الله على سؤالهم وبين أن في الخمر والميسر منافع مادية للناس في التجارة والربح أما الإثم فهو أكبر^(٦)؛ وذلك لأن مفسادهما عظيمة، فهما كما قال ربنا ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ

(١) الكشاف للزمخشري ١/ ٢٨٨.

(٢) نقله الرازي في مفاتيح الغيب ٦/ ٣٥.

(٣) زاد المسير ابن الجوزي ١/ ٢٣٩.

(٤) رواه مسلم في صحيحه عن جابر مرفوعاً ورقمه ٢٠٠٢.

(٥) انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود ١/ ٢١٨.

(٦) وفي قراءة حمزة والكسائي (إثم كثير) وهذه القراءة تفيد بيان الكم أما القراءة الأولى فإنها تفيد الكيف، قال مكّي: وذلك لأن الخمر تحدث مع شربها آثار كثيرة، من لغط وتخليط وسب وأيمان، وعداوة وخيانة، وتفريط في الفرائض وفي ذكر الله وفي غير ذلك، فوصف بالكثرة. الكشاف عن معاني القراءات وعللها وحججها. لمكي بن أبي طالب. ١/ ٢٦١.

يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴿المائدة: ٩١﴾ وقال ﷺ: (الخمير أم الفواحش وأكبر الكبائر، من شربها وقع على أمه وخالته وعمته)^(١).

وللخمير مضارها الصحية على الجهاز الهضمي والعصبي والقلب والكلى والكبد، كما تؤدي إلى الشبهات الخلقية^(٢)، ومضارها المالية معروفة، ولها أضرارها الاجتماعية على الأسر والأبناء وعلى المجتمع بأسره، وأضرار الميسر كثيرة ومنها تعويد النفس على الكسل وخراب المال، وإهمال العمل الجاد.

وإذا كان في الخمر والميسر الإنفاق المحرم فإن السؤال الذي جاء بعده كان عن الإنفاق المشروع والمستحب فكان السؤال عن النفقة وماذا ينفقون؟ فعن ابن عباس أن نقرأ من الصحابة حين أمروا بالنفقة في سبيل الله أتوا النبي ﷺ فقالوا: إنا لا ندري ما هذه النفقة التي أمرنا الله بها في أموالنا فما ننفق منها؟ فأنزل الله الآية^(٣) فكانت الإجابة القرآنية بأن ينفقوا العفو أي ما يفضل عن الحاجة فهذا هو ما يتيسر فعله ولا يتضرر المنفق منه، قال ﷺ: (خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى)^(٤)، ومثل هذا البيان الحكيم الذي بينه الله لكم فيما سألتكم عنه يبين لكم آياته وأحكامه لكي تتفكروا فيما ينفعكم في دنياكم بالعمل الصالح وفي آخرتكم برضوان الله تعالى.

ثم جاء السؤال عن اليتامى ومناسبته لما قبله كما يقول أبو حيان: "أنه ذكر السؤال عن الخمر والميسر وكان تركهما مدعاة إلى تنمية المال، وذكر السؤال أنهم ينفقون ما سهل عليهم، ناسب ذلك النظر في حال اليتيم، وحفظ ماله وتنميته، وإصلاح اليتيم بالنظر في تربيته؛ فالجامع بين الآيتين إن في ترك الخمر والميسر إصلاح أحوالهم أنفسهم، وفي النظر في حال اليتامى إصلاحاً لغيرهم ممن هو عاجز أن يصلح أحوالهم نفسه، فيكون قد جمعوا بين النفع لأنفسهم

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير ٢٠٣/١١ وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣٣٤٥

(٢) الإسلام والطب د/ محمد وصفي/ ١٩٩.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم برقم/ ٢٠٠٦. وانظر العجائب لابن حجر/ ١/ ٥٤٦.

(٤) رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة مرفوعاً ورقمه/ ٥٠٤١.

ولغيرهم^(١).

وكان سبب سؤال الصحابة هو ما ورد في السنن عن ابن عباس قال: "لما نزل قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأَنْعَام: ١٥٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل له الشيء من طعامه وشرابه، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿وَسْتَلُونَا عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾^(٢).

وقد أجابهم القرآن عن سؤالهم وأخبر النبي ﷺ أن يقول لهم: إن المطلوب هو إصلاح أموالهم بالمحافظة عليها وإصلاحهم كذلك بالعناية والترية، فهذا خير من تركهم، وإن خالطتموهم في المطعم أو المسكن أو التجارة أو المشاركة أو المصاهرة فهم إخوانكم في الدين، قال الزمخشري: "وقد حملت المخالطة على المصاهرة"^(٣)، ورجح هذا المعنى أبو حيان فقال: "ورجح هذا القول بأن هذا خلطة لليتيم نفسه، والشركة خلطة لماله، ولأن الشركة داخلية في قوله: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لِّمَنْ خَيْرٌ﴾ ولم يدخل فيه الخلط من جهة النكاح، فحملة على هذا الخلط أقرب"^(٤).

ثم رغبتهم في الإصلاح وخوفهم من الإفساد بأن الله يعلم المفسد من المصلح، ولو شاء الله لضيق عليكم وأصابكم بالمشقة إن حرم عليكم مخالطة اليتامى، فهو غالب لا يعجزه أمر وهو حكيم في كل أفعاله يضع كل شيء في موضعه.

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ١٧٠

(٢) رواه الحاكم في المستدرک رقم ٣١٨٤ والضياء في المختارة رقم ٢٧٣ وأبو داود في سننه رقم ٢٨٧١ والبيهقي في سننه ٦١٢٤٥١ / ٢٨٤ وسنده صحيح.

(٣) الكشف للزمخشري ١/ ٢٩١.

(٤) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ١٧١.

وفي هاتين الآيتين إصلاح أحوال الفرد والمجتمع في طعامهم وشرابهم ونفقتهم، وعلاقتهم مع غيرهم وبالأخص مع الضعفاء واليتامى، وقد ابتدأت الآية بذكر الإصلاح واختتمته كذلك بذكر المصلح، وهذا تأكيد على أمر الإصلاح، وبيان أن المنهج الإسلامي الذي يعمر الدنيا قائم على الإصلاح بخلاف السابقين الذين ادعوا الإصلاح وهم في حقيقة الأمر مفسدون.

الهدايا المستنبطة من المقطع

أولاً: القضايا العقدية:

- من لم تبلغه دعوة الإسلام فلا يعد كافراً، قال تعالى: ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٠٩) فاشترط مجيء الآيات البينات الواضحات ليكون الحساب والعقاب. وقد دلت آيات عدة على هذا الحكم؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء/ ١٥] قال ابن حزم: "فنص تعالى على أن النذارة لا تلزم إلا من بلغته لا من لم تبلغه، وأنه تعالى لا يعذب أحداً حتى يأتيه رسول من عند الله عز وجل، فصح بذلك أن من لم يبلغه الإسلام أصلاً فإنه لا عذاب عليه"^(١).

- الراجح الذي عليه المحققون في قوله تعالى ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أن الناس كانوا في مبدأ أمرهم على التوحيد، وهذا يرد ما ذهب إليه اليهودي فرويد؛ حيث ذهب إلى أن العبادة البشرية الأولى كانت عبادة الأب ثم انتقلت إلى عبادة حيوان يقال له (الطوطم) ثم تطور الأمر بالناس إلى التوحيد. وبذلك تكون (الطوطمية) هي أول صورة للدين في التاريخ البشري بزعمهم^(٢). وهذه النظرية ترددها الآية القرآنية السابقة، وما ورد في الحديث القدسي: (وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم)^(٣). وما ورد

(١) الفصل لابن حزم ٥٠/٤.

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة (الفرويدية).

(٣) سبق تخريجه ص ١٤٠.

عن ابن عباس: "كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين"^(١).

ثانياً: الأحكام الشرعية :

- دل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ﴾ على جواز الانغماس في العدو لتحقيق النكاية فيهم وإن غلب على المرء ظن عدم السلامة، وقد استشهد بها الصحابي الجليل أبو هريرة على قريب من هذا؛ وذلك فيما ورد " جاءت كتيبة من قبل المشرق من كتائب الكفار فلقبهم رجل من الأنصار فحمل عليهم فخرق الصف حتى خرج ثم كبر راجعاً فصنع مثل ذلك مرتين أو ثلاثاً فإذا سعد بن هشام يذكر ذلك لأبي هريرة فتلا هذه الآية ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾"^(٢).

وقال محمد بن الحسن: "إنه لا بأس أن يحمل الرجل وحده وإن ظن أنه يقتل إذا كان يصنع شيئاً يقتل أو بجرح أو بهزم؛ فقد فعل ذلك جماعة من الصحابة بين يدي رسول الله ﷺ يوم أحد ومدحهم على ذلك، فأما إذا علم أنه لا ينكي فيهم فإنه لا يحل له أن يحمل عليهم؛ لأنه لا يحصل بحملته شيء من إعزاز الدين"^(٣).

وقيل: إذا طلب الشهادة وخلصت النية فليحمل؛ لأن مقصده واحد منهم، وذلك بين في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ﴾ .

قال ابن العربي معلقاً: "والصحيح عندي جوازه؛ لأن فيه أربعة أوجه: الأول: طلب الشهادة. الثاني: وجود النكاية. الثالث: تجرية المسلمين عليهم. الرابع: ضعف نفوسهم ليروا أن هذا

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم/ ٣٦٥٤ وصححه على شرط البخاري. ومثله لا يقال بالرأي فله حكم المرفوع. والله أعلم.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم/ ١٩٤٣٩. وابن عبد البر في الاستذكاره/ ١٣٣.

(٣) ذكره ابن عابدين في حاشية رد المحتار ٤/ ١٢٧.

صنع واحد، فما ظنك بالجميع؟^(١).

- قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ وفيه دليل على وجوب النفقة من الولد على الأبوين. وهذا محل اتفاق بين أهل العلم: أن على الولد الموسر أو القادر على الكسب نفقة أبويه المحتاجين. والجمهور على وجوب النفقة للأجداد والجدات أيضاً، ولم يخالف في ذلك إلا المالكية حيث قصرها على الأبوين فقط^(٢).

- أما الأقارب فقد جعل الله حقهم بعد حق الوالدين، وأمر بالإحسان إليهم، ومن جملة الإحسان الإنفاق عليهم. والحنفية والحنابلة يوسعون في النفقة؛ فعند الحنفية تجب لكل ذي رحم محرم، وأما الحنابلة فيوجبونها لكل قريب وراث بالفرض أو التعصيب. أما الشافعية والمالكية فلا يوجبون النفقة إلا للأصول والفروع، والآية تشهد للأولين والله أعلم.

- قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ وكتب يعنى: فرض وأوجب، فالآية تدل بمنطوقها على وجوب القتال. وهو واجب على الكفاية لكن يتعين في ثلاث حالات:

١- إذا التقى الزحفان، قال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فَنِكَةٌ قَائِمَتُوا ﴾ [الأنفال/ ٤٥].

٢- إذا استنفر الإمام قوماً لزمهم الخروج، قال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا نَفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [التوبة/ ٣٨: ٣٩].

٣- إذا نزل العدو ببلد تعين على أهله الخروج لعموم قوله تعالى: ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ١٦٦.

(٢) بدائع الصنائع للكاساني ٤/ ٣٥، المهذب للشيرازي ٢/ ١٦٥، الكافي في فقه ابن حنبل ٣/ ٣٧٣. وشرح

الخرشي على مختصر خليل ٤/ ٢٠٤.

وَتَقَالَا ﴿ [التوبة/ ٤١] ^(١).

- اتفق الفقهاء على أن قتال الدفع جائز في الأشهر الحرم، لكن اختلفوا في قتال الطلب هل هو محرم أم أن التحريم قد نسخ؟

فذهب جمهور الفقهاء إلى أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ ^(٢)، وذهب عطاء إلى عدم النسخ، فيبقى حكم التحريم قائماً. قال الطبري: "والصواب من القول في ذلك ما قاله عطاء ابن مسيرة: من أن النهي عن قتال المشركين في الأشهر الحرم منسوخ بقول الله جل ثناؤه ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كَتَبِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْقَيْتُمْ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ [التوبة: ٣٦]."

وإنما قلنا ذلك ناسخ لقوله: ﴿ يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾، لتظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه غزا هوازن بحنين وثقيفاً بالطائف، وأرسل أبا عامر إلى أوطاس لحرب من بها من المشركين، في الأشهر الحرم، وذلك في شوال وبعض ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم. فكان معلوماً بذلك أنه لو كان القتال فيهن حراماً وفيه معصية، كان أبعد الناس من فعله ﷺ ^(٣).

- اختلف الفقهاء في حكم المرتد هل يجب عمله بالردة أم بالوفاة على الكفر. فذهب الأحناف والمالكية إلى أن الردة كافية لإحباط العمل، وعليه فلو ارتد مسلم حبط عمله كاملاً ولو عاد إلى الإسلام استأنف العمل، وقالوا في الآية التي معنا: "فيها ذكر عملين: أحدهما الردة، والآخر الموت عليها: أي الاستمرار عليها إلى الموت، وذكر جزاءين، لكل عمل جزاء على

(١) انظر: الروض المربع للبهوتي ٣/٢.

(٢) المبسوط للسرخسي ٢٦/١٠، روضة الطالبين للنووي ١٠/٢٠٤، شرح منتهى الإرادات للبهوتي ٣/٣٤٢.

(٣) جامع البيان للطبري ٤/٣١٤.

اللف والنشر المرتب؛ فإحباط الأعمال جزاء الردة، والخلود في النار جزاء الموت عليها، بدليل أنه في الآية الأولى علق حبط العمل على مجرد الكفر بها آمن به، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾ (الأنعام: ٨٨)»^(١).

أما الشافعية فقد ذهبوا إلى أن شرط إحباط العمل أن يموت صاحبه على الردة والعياذ بالله، واستدلوا بهذه الآية الكريمة، قال النووي: "فعلق الحبوط بشرطين الردة والموت عليها والمعلق بشرطين لا يثبت بأحدهما والآية التي احتجوا بها مطلقة وهذه مقيدة فيحمل المطلق على المقيد"^(٢).

والراجح - والله أعلم - قول الشافعية؛ لأن الآيات التي أطلقت الإحباط مقيدة بهذه الآية التي اشترطت الموت على الردة، وقد اتحدت الآيات في السبب وهو الردة، والحكم وهو إحباط العمل فوجب حمل المطلق على المقيد، لما هو مقرر في أصول الفقه من أنه إذا اتحد النصان في الحكم والسبب وجب حمل المطلق على المقيد^(٣).

- أما المرأة فحكمها حكم الرجل إذا ارتدت عند الجمهور خلافاً لأبي حنيفة وجماعة؛ حيث قالوا لا تقتل المرأة^(٤).

- تحريم الخمر حرمة قطعية وكذلك الميسر وكل ما يقاس عليها من المخدرات والتدوير وغير ذلك.

- جواز مخالطة اليتيم بقصد الإصلاح، فللولي أن يخلط طعامه بطعام اليتيم، وإن كان الأفراد أفضل لليتيم أفرد له.

(١) حاشية رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين ٧٦/٢.

(٢) المجموع للنووي ٦/٣.

(٣) انظر: الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ٤/٣ والمحصول للرازي ٣/١٤٢.

(٤) بدائع الصنائع للكاساني ٧/١٣٤.

ثالثاً: الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- من أخلاق المفسدين الاستكفاف عن قبول النصيحة، والعزة بالباطل، وعدم الخضوع للحق. عن عبد الله بن مسعود قال: "إن من أكبر الذنب أن يقول الرجل لأخيه اتق الله فيقول: عليك نفسك أنت تأمرني!"^(١)

- الرجاء في رحمة الله من مدارج السالكين إلى رب العالمين، لكن الرجاء الحق هو الذي يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في خلقه وأمره من عمل الصالحات والسعي في تحصيلها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَآمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴾ . فإن هؤلاء يعملون الطاعات ويرجون الخير بها، أما المفرط والمقصر فلا يرجو وإنما هو مغرور يحسن الظن بلا عمل. قال مسلم بن يسار: "من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه"^(٢).

- أمر الله بإنفاق العفو وهو الزائد عن الحاجة له ولعياله؛ لأن إنفاقه على نفسه وعياله فرض عين، أما الصدقة فهي مستحبة أو فرض كفاية، ولأن النفس تطيب بإخراج ما زاد عن الحاجة، وقد قال رسول الله ﷺ: (خير الصدقة عن ظهر غني)^(٣).

رابعاً: الجوانب التربوية:

- مجال القول غير مجال العمل؛ فقد يزعم كثير من الناس أنهم ذوي نية صادقة وعمل مستقيم، لكن فعالمهم تكذب أقوالهم، والمسلم الحصيف لا يخدعه بهرج القول ولا الإشهاد أو القسم، ولا يقيّم الأشخاص بأقوالهم فقط، وإنما لا بد أن يشهد للقول عمل، وإلا فما قيمة القول الصالح إذا صحبه عمل فاسد ومفسد؟

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإتيان برقم/ ٨٢٤٦.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد ص ٢٥٠، وابن المبارك في الزهد ١/ ١٠٢ وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله ص ٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ١٣٦١ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٠٣٤ عن حكيم بن حزام.

- الدين الإسلامي دين يحرص على عمارة الأرض ونفع الناس، ويحذر من أي إفساد في الأرض يهلك المزروعات وغير ذلك، بل إنه يحث أتباعه على الإصلاح في الأرض، وذلك بشقيه المادي والمعنوي؛ فالنفاق إفساد معنوي، وتخريب الحرث والنسل إفساد مادي، والله لا يجب كليهما.

- اللدد في الخصومة كبيرة من الكبائر^(١)، وقد ذم الله أهل الخصومة بالباطل، ويلحق الذم أيضاً من خاصم بحق لكن فجر في خصومته، وهي من علامات المنافقين، وقد بين النبي ﷺ أن صاحب الخصومة الشديدة مبغوض من الله لأنها تفضي به غالباً إلى فعل المذموم فقال ﷺ: (إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم)^(٢). قال بعضهم: ما رأيت شيئاً أذهب للدين ولا أنقص للمروءة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة^(٣).

- على المسلم أن يأخذ الإسلام بكل أحكامه الاعتقادية والقولية والعملية، وألا يأخذ بعضه ويترك بعضه، فإن الله أمرنا أن ندخل في الإسلام بكليته وألا نترك منه شيئاً، وأن نلتزم أحكامه كلها.

- من بدل نعمة الله بعد أن جاءته استحق أليم العقاب.

- من سنن الله الكونية التي ربي الإسلام أهلها: سنة الابتلاء، والابتلاء سنة الله في جميع خلقه، وبخاصة للأنبياء ومن سلك دربهم ومشى على طريقهم؛ فقد بين الحق تعالى أن السابقين تعرضوا للابتلاء الشديد فما وهنوا لما أصابهم في سبيل وما ضعفوا وما استكانوا، وبعد ذلك جاءهم الفتح المبين من رب العالمين، وقد فقه هذه السنة هرقل لكن ضمن بملكه

(١) ذكره الذهبي في الكبائر. الكبيرة الستون ص ٢٢١، وذكره الهيثمي في الزواجر عن اقتراف الكبائر.

الكبيرة الثلاثون بعد الأربعمئة ٢ / ٨٨٠. وقد استشهد كلاهما بالآية الكريمة (وهو ألد الخصام).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم / ٢٣٢٥ ومسلم في صحيحه برقم / ٢٦٦٨ عن عائشة

(٣) الأذكار للنووي ص ٢٩٦.

الخيث؛ فقد قال لأبي سفيان: "سألتك: هل قاتلتموه وقاتلكم؟ فزعمت أنه قد فعل وأن حربكم وحربه تكون دولاً ويدال عليكم المرة وتداولن عليه الأخرى، وكذلك الرسل تبلى وتكون لها العاقبة"^(١). فالابتلاء في طريق الدعوة والتعرض للأذى من أعلام النبوة، ولأتباعهم من ذلك نصيب.

- لا بأس بأن يضيق صدر المؤمنين وأن يستبطنوا النصر، فقد قص الله من سير الأنبياء ذلك، وقد كان سؤال الأنبياء وأقوامهم عن موعد النصر لا عن تحققه وعدمه ولذلك جاءت الإجابة بقرب تحقق النصر. فقد يتأذى المؤمن من كلام الكفار، وقد قال الله في حق نبيه ﴿وَلَقَدْ نَعَّمْنَا أَنْكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر/ ٩٧]،

- في قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ فوائده تربوية منها: أن الأمر الإلهي وإن كان ظاهره ومبدؤه المشقة فإن عاقبته إلى الخير وبالعكس، فالعاقل ينظر إلى غايات الأمور وعواقبها، أما الجاهل فلا يتعدى نظره موضع قدميه. وإذا كان الإنسان لا يعلم الخير فالأولى به والحال هذه ألا يختار على اختيار ربه، وأن يسلم له في أمره. وأيضاً: نتعلم من الآية أن كل ما أمر الله فهو راجح المصلحة، والشر فيه مغمور في جانب الخير، وأن كل ما نهى عنه فهو راجح المفسدة والخير الذي فيه مغمور في جانب الشر.

- من الأمور التي حرص الإسلام على تربية أهله عليها: اعتبار المصالح والمفاسد، وتغليب المصلحة الكثيرة على المفسدة القليلة فيأمر بالشيء، وتغليب المفسدة الغالبة على المصلحة القليلة فينهى عنه. وفي هذه القاعدة الجليلة يقول العز بن عبد السلام: "إذا اجتمعت مصالح ومفاسد فإن أمكن تحصيل المصالح ودرء المفاسد فعلنا ذلك امتثالاً لأمر الله تعالى فيهما لقوله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم / ٢٧٨٠ واللفظ له ومسلم في صحيحه برقم / ١٧٧٣ عن عبد الله ابن عباس.

سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَنفِقُوا لِلَّهِ مَا أَسْطَقْتُمْ ﴾ [التغابن / ١٦]، وإن تعذر الدرء والتحصيل فإن كانت المفسدة أعظم من المصلحة درأنا المفسدة ولا نبالي بفوات المصلحة، قال الله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ حرمةها لأن مفسدتها أكبر من منفعتها^(١).

- اهتم الإسلام بالعقل، وحافظ عليه، وجعل المحافظة على العقل من الكليات الخمسة التي هي ضروريات للوجود الإنساني ولاستقامة حياته، قال القرافي: "وحفظ العقول من الكليات الخمس المجمع عليها عند أهل الملل"^(٢)، ومن أوجه حفظ الإسلام للعقل تحريم الخمر وكل مسكر يؤدي إلى تغييب العقل الذي هو نعمة الله على بني الإنسان.

- الدين الإسلامي جاء بالتخفيف ورفع الحرج والمشقة عن الناس في أمور معاشهم، قال تعالى: ﴿ وَكَوَشَاءَ اللَّهُ لَا غِنَىٰ لَكُمْ ﴾ وقد كان شيء من العنت موجوداً في الأمم السابقة بسبب ذنوبهم، لكن لرحمة الله بالمسلمين خفف عنهم، وكان من مهام بعثة النبي الخاتم أن يضع عن السابقين إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فعلى المسلم ألا يوقع نفسه ولا إخوانه في شيء من الحرج حتى لا يكون مخالفاً لمقصد عظيم من مقاصد الشريعة الإسلامية.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

- جاء هذا المقطع بمواعظ عدة في ثنايا أحكام وتوجيهات سبقته ولحقته؛ فهو موصول الصلة بما قبله؛ فقد سبقه ذكر المؤمنين ومن ليس لهم في الآخرة خلاق، ثم جاء المقطع ليصل الحديث عن الصنف الثالث وهم أهل النفاق، ثم جاءت الأسئلة لتصله بما بعده؛ ففيها سؤال عن الإنفاق وعن مخالطة الأيتام ومصاهرتهم فجاء الحديث عن الأمور الزوجية في أوانه بعد أن سبق له التمهيد بأمر مصاهرة الأيتام كما مر في التفسير.

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام ١/ ٨٣.

(٢) الفروق للقرافي ١/ ٣٧٦.

والمقطع يتجه في بدايته للحديث عن نموذجين متكررين من النماذج البشرية: نموذج المرائي الذي يفسد ويتظاهر بالإصلاح، ثم يعرض النموذج المقابل للمؤمن الذي يبيع نفسه لمرضاة ربه، ويأمر المؤمنين بالاستسلام بالكلية لأوامر الله تعالى؛ وذلك تمهيد لما سيأتي بعد من تكاليف شاقة مثل الجهاد، ويختتم الحديث عن الطوائف المخالفة بتهديدهم وتخويفهم من عاقبة صنيعهم الذي ذكرته الآيات السابقة تفصيلاً، وبهذا قضى الأمر في حق هؤلاء ولم يعد لهم ذكر في السورة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ إشارة إلى أمر التقوى وهو من الأمور المحورية في السورة، والإشارة إلى العلو والفوقية بيان أن العلو الحقيقي إنما يكون بالتقوى، وفيه إشارة إلى اقتران التقوى بالجهاد الذي هو من وسائل العلو كما ذكرنا في المقطع السابق.

وقد ناسب انتهاء الحديث عن السابقين أن تعرض الآيات سنة جامعة في نشأة الدين واختلاف أهل الكتاب بغياً وعدواناً، وجاء الحديث خالصاً للمؤمنين من دون الناس؛ حيث بينت الآيات أن الله يهب رزقه لأهل طاعته.

وهذه الآية تعتبر مقدمة للحديث الطويل عن الجهاد الذي يمثل حيزاً كبيراً في هذه السورة الطيبة المباركة؛ ذلك أنها تحدثت عن أسباب الاختلاف الديني الذي يؤدي إلى الاقتتال وجاء بعدها مباشرة الحديث عن الثبات ثم الأمر بجهاد المال والنفس.

وقريب من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [٢٥٣]، حيث بينت الآية أن الاختلاف حدث بين أتباع الرسل وأدى ذلك للاقتتال، ثم جاء بعدها الأمر للمؤمنين بجهاد المال ثم جهاد النفس.

إذاً فالحديث عن الاختلاف وما يجره من قتال هو من باب تقوية قلوب المؤمنين، وتوطينهم على احتمال مكاره الجهاد، ولهذا جاء بعدها بيان سنة الله مع السابقين من المؤمنين

الذين تعرضوا للابتلاء في أنفسهم وأموالهم، وبعدها أيضاً جاء التصريح بأن في الجهاد مكاره يلزم أن تحدث لأنها تؤدي إلى خير عظيم في الدنيا والآخرة.

وما بعد الآية مرتبط بحادثة تعد من بواكير الممارسة الفعلية للجهاد في صفوف الجماعة المسلمة الناشئة، وفيها أيضاً بيان لجملة من أسباب القتال مثل الإخراج من الديار والفتنة بالقتل، وهذه بعض دوافع القتال الدفاعي، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج/ ٣٩، ٤٠].

وبعد هذه المواعظ التربوية المتصلة بما بعدها كانت باقي آيات المقطع تمهد لما سيأتي بعد من تفصيل أحكام النساء، وواضح من سياق الأسئلة أنها نزلت تعالج بعض أحداث كانت موجودة في المجتمع المسلم مما يستلزم طهارتهم منها حتى يكونوا من المتقين لكي يستطيعوا أن يقوموا بمهمتهم الكبرى للإنسانية كلها.

المقطع الثالث: تفصيل أحكام الأسرة. (٢٢١-٢٤٢)

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ۖ وَلَا أُمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ حَتَّىٰ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ حَتَّىٰ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَا أُعْجَبُكُمْ ۚ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۚ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْحَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۚ وَبَيْنَ أَيْتِيهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٣١﴾ وَسَأَلُواكَ عَنِ الْمَجِيضِ ۚ قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَجِيضِ ۚ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَظْهَرْنَ ۚ فَإِذَا تَظْهَرْنَ فَأَنذَرْنِي ۚ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ ﴿٣٣٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَثُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۚ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْكُوهُ ۚ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٣٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٣٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ۚ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ ۚ قُلُوبُكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٣٣٥﴾ لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرِيصٌ أَرْبَعَةٌ أَشْهُرٌ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٣٧﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبَعُولَهُنَّ أَحْسَنُ رِزْقٍ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيَنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٣٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۚ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۚ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۚ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۚ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٣٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۚ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا ۚ إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٤٠﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْتُمْ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِيَعْتَدُوا ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا ۚ وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُعْظَمَ عَلَيْكُمْ بِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٤١﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْتُمْ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ زَوْجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ ۚ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَلِكَمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِيَ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَالِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَلْقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٤﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيضَنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَذَكَّرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى اللَّوْصِيقِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصِفْ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٨﴾ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٣٩﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤١﴾ وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٤٢﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

هذا المقطع يتحدث عن شأن الأسرة، ورعاية الإسلام لها في كل أحوالها، وهو يفصل الخصلة الثانية من الخصال العملية التي جاءت مجملة في آية البر، وهي خصلة الوفاء بالعهود والعقود، وأحقها بالعناية والرعاية عقدة الزواج وما يدور حول محورها من شؤون الأسرة^(١).

وإذا كانت المقاطع السابقة تشير إلى خصلة الصبر، فإن هذا المقطع يفصل خصلة الوفاء بالعهد تفصيلاً محكماً دقيقاً.

وختام المقطع السابق يشير إلى أمر المخالطة ومن ضمن معانيها المصاهرة، فيكون المعنى: إن خالطتم اليتامى بالمصاهرة فهم إخوانكم في الدين، وهم خير من الشرك والمشاركة فلا تنكحوا الشركاء ولا تنكحوا المشركين.

التفسير الإجمالي للمقطع:

تفصل آيات هذا المقطع في شأن الأسرة من حيث اتصالها وانفصالها، وابتدأت الآيات بذكر حكم نكاح الشركاء، فنهت عن نكاحهن ما دمن على شركهن، ثم جاءت الآية بصيغة القسم المحذوف والله إن امرأة جارية مؤمنة بالله واليوم الآخر خير من مشركة حرة ولو أعجبكم جمالها أو حسبها أو غير ذلك، ولا تزوجوا المؤمنات للمشركين إلا أن يصيروا أكفاء لمن بالإيمان، ولملوك رقيق مؤمن خير من مشرك حر ولو أعجبكم بهاله أو نسبه.

ثم بين الله تعالى علة النهي عن الزواج بالمشركين والشركاء بأنهم يدعون من يصاهرهم ويعاشرهم إلى الاعتقادات الضالة والأفعال الشركية التي تؤدي بمعتقداتها إلى النار، ثم تغري الآية المؤمنين بالتمسك بتعاليم دينهم فتبين لهم أن الله يدعوهم إلى أسباب المغفرة ودخول الجنة ولا يكون ذلك إلا بأمره وإرادته، ويبين سبحانه للناس أوامره ونواهيه لكي يعتبروا ويتذكروا

(١) انظر: النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز/ ٢٤٧.

وأمره فيعلموا بها ويتذكروا نواهيه فيتركوها.

وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى أن المرأة الكتابية غير داخلة في تحريم المشركات، وذلك اتباعاً لنص الآية القرآنية: ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ [المائدة: ٥] أما المؤمنة فلا يجوز لها الزواج من اليهودي أو النصراني باتفاق؛ ومستند ذلك الإجماع المستند إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ [المتحنة: ١٠] والسنة العملية المتواترة عن الصحابة الكرام، وللعلة الواردة؛ ذلك أنهم يدعون المرأة المؤمنة إلى أسباب النار، ولا يؤمنون بالنبي محمد ﷺ. أما المسلم الذي يتزوج الكتابية فإنه يؤمن برسولها، ويحترم عقيدتها، ويعدل معها، ويتألفها لدخول الدين.

ثم جاء السؤال الثالث من الأسئلة المعطوفة بالواو، وهو يتصل بما قبله وما بعده في أن ذلك من الأحكام المتعلقة بالنساء، وأما الأسئلة التي وردت قبلها مفصولة فلم تكن في موضوع واحد فيعطف بعضها على بعض فجاءت على الأصل في سرد التعدد.^(١) وكان السؤال عن إتيان الحائض؛ وذلك أن المسلمين في المدينة قد خالطوا اليهود وكانوا يتشددون في مسائل الحيض والدم^(٢)، وفي صحيح مسلم عن أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت أي لا يسكنون معهم فسأل أصحاب النبي ﷺ فأُنزل الله تعالى ﴿ وَبَسَّطْنَا لَكَ فِي السَّمَاءِ الْمَسَابِقَ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ وَالْمَاءِ وَالْخَيْلِ وَالْإِبِلِ وَالْأَنْعَامِ وَالْطَّيْرِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ فقال رسول الله ﷺ: (اصنعوا كل شيء إلا النكاح...)^(٣).

(١) تفسير القرآن الحكيم لرشيد رضا ٢ / ٣٥٨.

(٢) في الإصحاح الخامس عشر من سفر اللاويين " إذا كانت امرأة لها سيل دمأ في لحمها فسبعة أيام تكون في طمئتها وكل من مسها يكون نجساً إلى الماء وكل ما تظطجع عليه يكون نجساً وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بياه ويكون نجساً إلى الماء".

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه برقم / ٣٠٢.

ويحتمل أن يكون سبب النزول ما ورد عن مجاهد أنهم كانوا يجتنبون النساء في الحيض ويأتوهن في أدبارهن مدة زمن الحيض فنزلت^(١). وهذا السبب يشير إلى وقوع تجاوز من بعض الناس وهو ما يفيد تذييل الآية بمحبة الله للتوايين والمتطهرين، ولا تعارض بينه وبين سبب النزول الأول لمن تدبر.

والحيض دم يسيل من المرأة البالغة في أوقات مخصوصة، وقد أجملت الآية كل أضرار الجماع وقت الحيض بكلمة هي غاية في الإيجاز والإعجاز، فبينت أنه ﴿أذى﴾ يصيب كلاً من الرجل والمرأة، وهذا ما أثبتته الطب الحديث؛ حيث ثبت أن جماع المرأة الحائض يصيب المرأة بالتهاب حادة في المهبل والرحم ويصيب الرجل بالصدید والتهاب مجرى البول والسيلان وقد يؤدي إلى العقم^(٢). فأمرت الآية الرجال أن يعتزلوا النساء وقت المحيض وألا يجامعوهن حتى ينقطع الدم، فإذا اغتسلن فللرجل أن يأتي امرأته في المكان الذي أمر الله بتجنبه في الحيض والله يحب التوايين لما بدر منهم المتطهرين عن الوقوع في المحظورات.

وجمهور الفقهاء على حل الاستمتاع بالمرأة فيما سوى العورة ما بين السرة والركبة.

وكانت اليهود تقول: إذا أتى الرجل امرأته من دبرها في قبلها ثم حملت كان ولدها أحول فأنزلت ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾^(٣) ففي الآية السابقة إباحة إتيان النساء بعد المحيض وفي هذه الآية حكمة إتيانهن وهي طلب الولد، ومعنى الآية أن نساءكم هن مزدرع لكم ومنبت الولد هيأهن الله لذلك كما هيأ الأرض للنبات، فأتوهن كيف شئتم من الأمام أو من الخلف أو غير ذلك ما دتمت تؤدون ذلك في موطن الحرث، وقد يحتمل توسيع المعنى بأن المرأة حرث لكل ما يقدمه الرجل معها فإنه يجده سواء كان خيراً أو شراً والله أعلم.

(١) جامع البيان للطبري ٤/ ٣٧٣ برقم / ٤٢٣٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/ ٤٧٤.

(٢) انظر: الإعجاز الطبي في القرآن والسنة لحسن ياسين ص ٧٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه برقم / ١٤٣٥ عن جابر.

ثم ختمت الآية بأمر المؤمنين أن يقدموا مستقبلهم من الصالحات مع أرواحهم خاصة وفي عموم حياتهم ما ينفعهم عند الله، وأمرتهم بتقوى الله وعدم فعل المحظور ولتعلموا يقيناً أنهم ملاقوه للمجازاة أو ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بشارة طيبة لمن تلقى أوامر الله بالطاعة والقبول.

وبعد أن تكلمت الآيات عن حكم المباشرة في الحيض، وحل الاستمتاع، ذكرت حكم الحلف بالامتناع عن إتيان النساء وهو الإيلاء، ومهدت لذلك بالحديث عن الأيمان، ولم تقتصر القول على الإيلاء بل شملت الأيمان غير الصحيحة كلها، ومنها كل ما يتعارض مع البر والتقوى، فنهت المؤمنين عن أن يجعلوا الحلف بالله مانعاً ومعتزلاً لهم من عمل البر وأمور الخير، وقد جاءت أحاديث نبوية كثيرة تؤكد هذا المعنى؛ فعن عبد الرحمن بن سمرة أن رسول الله ﷺ قال: (إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك وائت الذي هو خير)^(١).

ويحتمل أن يكون المعنى: ولا تجعلوا اسم الله تعالى هدفاً لأيمانكم فتبتدلوه بكثرة الحلف لأجل البر والتقوى والإصلاح بين الناس، فقد ذم الله من يكثر الحلف، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠] ولا تنافي بين القولين، فالله ينهانا عن أن نجعل الحلف به مانعاً من عمل الخير، وينهانا كذلك عن إكثار الحلف باسمه في كل أمر. والله سميع لأقوال العباد وإيمانهم عليهم بأحوالهم ونياتهم.

ثم بينت الآيات أن اليمين التي جاءت بدون قصد أو فكر فلا مؤاخذه عليها ولا محاسبة عند عدم الوفاء بها، ولكن المؤاخذه بما قصدت به القلوب إيقاع اليمين، والمؤاخذه تكون بالكفارة في المنعقدة وبالإثم في اليمين المغموس والله غفور لعباده حلیم عليهم.

وقد ورد تفصيل كفارة اليمين المنعقدة في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَلْتُمْهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٦٢٤٨ ومسلم في صحيحه ١٦٥٢.

حَلَفْتُمْ^٤ وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ [المائدة: ٨٩] أما اليمين الغموس فلا كفارة لها.

ومن صور اليمين اللغو التي لا كفارة منها ما ورد عن عائشة أن الآية نزلت في قول الرجل لا والله، وبلى والله، وكلا والله.^(١) وورد عنها في اللغو: - هو الشيء يجلف عليه أحدكم لم يرد به إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه.^(٢)

ثم بينت الآيات بعد ذلك حكم الإيلاء وهو يمين خاص، ناسب أن يأتي ذكره بعد اليمين العامة، والإيلاء الحلف، ومعناه في الشرع: الامتناع باليمين من وطء الزوجة^(٣)، فهي يمين تحول بين الإصلاح والبر المأمور به في قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩] وفيه هضم لحق المرأة وإضرار بها. وقد كان الجاهليون يضارون نساءهم فلا يقربوهم ولا يحبون غيرهم أن يقربهن. قال ابن عباس: كان إيلاء أهل الجاهلية السنة والستين وأكثر من ذلك فوقت لهم أربعة أشهر^(٤). وذلك لأن هذه الفترة مما لاتشق على المرأة، ولأنها فترة كافية لتروى الرجل وتمهله في التفكير؛ فإن رجعوا إلى نساءهم وكفروا عن يمينهم وتابوا إلى ربهم فإن الله غفور لمن تاب وأصلح رحيم بعباده في كل ما أمرهم به وكلف.

وإن صمموا القصد وعزموا على عدم العود، فليراقبوا ربهم فإن أرادوا إلحاق الضرر بالنساء فإن الله سميع لكل ما كان منهم عليهم بما يقع منهم من إيذاء ومضارة.

وبهذا الختام حول عزم الطلاق عند نهاية مدة الإيلاء كان مناسباً أن ينتقل الحديث بعد ذلك إلى الطلاق، وهذا التناسب منطقي لاتصال ما بين الأمرين، "كأن خاتمة حكم الإيلاء

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤٣٣٧

(٢) رواه البيهقي في سننه الكبرى ٤٩/١٠.

(٣) سبل السلام للصنعاني ٣/ ١٨٣.

(٤) رواه البيهقي في سننه الكبرى ٣٨١/٧ والطبراني في المعجم الكبير ١١٣٥٦/١ وسعيد بن منصور في سننه ١٨٨٤.

كانت بمثابة عروة مفتوحة تستشرف إلى عروة أخرى تشتبك معها؛ فلما جاءت فتيا الطلاق في إبانها كانت هي العروة المنتظرة، وما هو إلا أن التقت العروتان حتى اعتنقتا وكانت منها حلقة مفرغة.. وهكذا أصبح الحديثان حديثاً واحداً^(١).

أمر الله تعالى المطلقات أن يتربصن ويتنظرن ثلاثة قروء، وهذا خبر في صيغة الأمر، فلا تتزوج المرأة المطلقة حتى يمر عليها ثلاثة قروء، وفي القراء اختلاف بين الفقهاء بسبب وضعه اللغوي، فهو بمعنى الحيض أو الطهر؛ إذ هو من المشرك اللفظي الذي يصلح للمعنيين معاً، والظاهر أن القراء الحيض؛ لحديث: "تدع الصلاة أيام أقرائها التي كانت تحيض فيها"^(٢).

وفي الإتيان بلفظ التربص بالأنفس تلميح لا تصريح فيه، وإيجاز لا إطناب فيه، وفيه أيضاً مراعاة لمشاعر المرأة وإحساسها.

ثم حرمت الآية على المطلقة أن تكتنم ما في رحمها من الحمل أثناء فترة العدة، ولا يحل لها كذلك كتمان موعد الحيض لتطيل فترة العدة. ذلك إن كن يؤمن بالله ويرجون رحمته ويخافون عذابه، فلا ينصاع لأحكام الله إلا مؤمنين جيد الإيمان، وليس من وسيلة لمعرفة ما في رحمها إلا بتذكيرها بالإيمان.

وإذا بدا للزوج أنه أخطأ في حق أهله، وأراد أن يعيد ما بينهما من عرى الزوجية فله أن يراجعها ما لم تكن بائنة، طالما أن دافعه إلى ذلك الإصلاح لا المضارة والإفساد.

ثم تذكر الآية لفظاً موجزاً كل الإيجاز، معجزاً أي أعجاز وهو قوله تعالى ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فلكل من الزوجين حقوق وعليه واجبات، والمرد في ذلك

(١) النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز/ ٢٤٩.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم/ ٢٩٧، والترمذي في سننه برقم/ ١٢٦، وابن ماجه في سننه برقم/ ٦٢٥، عن عدي بن ثابت عن أبيه عن جده. وله شواهد عدة يرتقي بها للصحة. انظر: نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية للزيلعي ١/ ٢٠٢.

إلى العرف الصالح الذي يحفظ لكل حقه، بيد أن للزوج درجة ومنزلة هي مرتبة القوامة التي له؛ وذلك حتى يستطيع أن يقود زمام الأسرة وينظم أمورها.

واستحقاق القوامة بأمرين: كسبي ووهبي، وقد أوضح الأمرين قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا﴾ [النساء: ٣٤] فتفضيل الله للرجال أمر ووهبي، ونفقة الرجل على أهله أمر كسبي.

وليس في هذه الدرجة تسلط من الرجل بالحق والباطل، وإنما هي الرحمة والمودة، والقيادة الحكيمة الرحيمة التي تضع كل شيء في موضعه، والله در ابن عباس حين قال في تفسير هذه الدرجة: "هي إشارة إلى حض الرجال على حسن العشرة والتوسع للنساء في المال والخلق". قال ابن عطية معلقاً: وهو قول حسن بارع^(١).

وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: غالب منتقم ممن خالف أمره في كل ما سبق؛ وذلك بأن أي المرأة الخائض، أو جعل الله عرضة لأيمانه، أو آلى من امرأته ليضارها، أو كتمت المرأة ما في رحمها، وهو سبحانه الحكيم الذي شرع هذه الأمور، لتنصلح بها أحوال العباد جميعهم.

ولما ذكرت الآية السابقة أن للزوج حق مراجعة زوجته قيدت الآية هذا الحق وخصصته بمرتين؛ فالطلاق الذي تصح معه المراجعة طلقتان فقط وليس أمام الزوج بعد ذلك إلا أن يمسك زوجه بمعروف أو يفارقها ويسرحها بإحسان، والتسريح بالإحسان هو الطلقة الثالثة عند جمهور الفقهاء، ويؤيد ذلك ما ورد أن رجلاً سأل النبي ﷺ: سمعت الله يقول ﴿أُطْلِقُ مَرَّتَانٍ﴾ فأين الثالثة؟ فقال ﷺ: (أو تسريح بإحسان)^(٢). وهذا إبطال لما كان عليه العرب

- (١) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٣٠٦، وهذا قريب مما رجحه الطبري في تفسير الدرجة؛ حيث ذهب إلى أنها: تفضلهم عليهن، وصفحهم لهن عن بعض الواجب لهن عليهن. جامع البيان للطبري ٤/ ٥٣٦.
- (٢) رواه البيهقي في سننه ١٤٧٦٨ والدارقطني في سننه ٤/ ٤ وسعيد بن منصور في سننه ١/ ٣٨٤ قال ابن حجر: وسنده حسن لكنه مرسل فتح الباري ٩/ ٣٦٦.

قبل الإسلام؛ فقد ورد عن عائشة قالت: كان الرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها، وإن طلقها مائة أو أكثر إذا ارتجعها قبل أن تنقضي عدتها، حتى قال الرجل لامرأته: والله لا أطلقك فتبيني مني ولا أويك إلي، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك وكلما قاربت عدتك أن تنقضي ارتجعتك ثم أطلقك وأفعل ذلك، فشكت المرأة ذلك إلى عائشة فذكرت ذلك عائشة إلى رسول الله فسكت ولم يقل شيئاً حتى نزل القرآن: ﴿أَطْلَقْ مَرَّتَانِ﴾^(١).

وقد جعل الله الطلاق مرتين، وجعل العدة بعد كلتا الطلقتين ليتروى الزوج في قراره، ولتعرف المرأة وحشة الفراق فلربما تراجع كل منهما إلى الحياة الزوجية مرة أخرى، قال الإمام الرازي رحمه الله: "الحكمة في إثبات حق الرجعة: أن الإنسان ما دام يكون مع صاحبه لا يدري أنه هل تشق عليه مفارقتها أو لا؟ فإذا فارقه فعند ذلك يظهر، فلو جعل الله الطلقة الواحدة مانعة من الرجوع لعظمت المشقة على الإنسان بتقدير أن تظهر المحبة بعد المفارقة، ثم لما كان كمال التجربة لا يحصل بالمرة الواحدة فلا جرم، أثبت الله حق المراجعة بعد المفارقة مرتين، وعند ذلك قد جرب الإنسان نفسه في تلك المفارقة وعرف حال قلبه في ذلك الباب، فإن كان الأصلح إمساكها راجعها وأمسكها بالمعروف، وإن كان الأصلح له تسريحها سرحها على أحسن الوجوه، وهذا التدرج والترتيب يدل على كمال رحمته ورأفته بعبده"^(٢).

فإن أبا الرجل إلا الطلاق فلا يحل له عندئذ أن يأخذ شيئاً مما أعطاه لها سواء كان مهراً أم غيره بل يكون التسريح بإحسان، وكما قال تعالى: ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩] ثم استثنى الآية صورة واحدة يجوز فيها للرجل الأخذ وذلك إذا كانا في حال يخافان معها أن يتجاوزا حدود الله وأحكامه فيما يجب عليهما؛ فإن خاف المتوسطون للإصلاح أو الأحكام ألا يقيم الزوجان حكم الله بأن تجحد المرأة العشرة أو خاف الرجل تجاوز الحد في عقوبتها ونحو ذلك فلا إثم على المرأة إن افتدت نفسها من زوجها، ولا إثم عليه في أخذ ما

(١) رواه الحاكم في المستدرک ٣١٠٦ والترمذي في سننه ١١٩٢ والبيهقي ١٤٧٢٧.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٨٥/٦.

أعطته المرأة مقابل الانفصال، وهذه الآية دليل على مشروعية الخلع.

وقد حدث الخلع في عهد النبي ﷺ؛ فعن عبد الله بن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس، ما أعتب عليه في خلق ولا دين ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: أتردين عليه حديثه؟ قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ: أقبل الحديقة وطلقها تطليقة^(١).

والخلع من التشريعات الحكيمة التي تيسر للمرأة أمر الفراق إن كانت لا تطيق معاشرته زوجها، أو استحکم النفور منه، فقد أعطاها الشرع هذا الحق حتى لا تحيا معه وهي كارهة أشد الكراهة، فلربما أداها ذلك إلى الفتنة، على أن الأحاديث الصحيحة ترهب المرأة من أن تسعى في الخلع بلا سبب قوي، قال ﷺ: (المختلعات هن المنافقات)^(٢) وقال: (أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة)^(٣).

ثم حذر الله من خالف أحكامه وتعدى حدوده الفاصلة بين الحلال والحرام، ومن تجاوز هذه الحدود فهو الظالم، وجاءت الجملة مؤكدة بفاء السببية وباسم الإشارة وبضمير الفصل (هم) وبالجملة، لتمييزهم أكمل تمييز، ولإيقاع وصف الظلم عليهم.

وبعد أن بينت الآيات السابقة حكم الطلاق الرجعي وحكم الخلع ذكرت حكم الطلاق المكمل للثلاث التي تصير به المرأة بائناً، وقد جاء حكم الخلع معترضاً بين حكمين من أحكام الطلاق وذلك لحكمة وهي: "أن الرجعة والخلع لا يصحان إلا قبل الطلقة الثالثة، أما بعدها

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم / ٤٩٧١.

(٢) رواه الترمذي في سننه برقم / ١١٨٦ وقال: حسن غريب، وأخرجه البيهقي في سننه الكبرى برقم / ١٤٦٣٩ وهو حديث حسن انظر: فتح الباري ٩ / ٤٠٣.

(٣) رواه أبو داود في سننه ٢٢٢٦ وابن ماجه في سننه ٢٠٥٥ وأحمد ٥ / ٢٧٧ وصححه ابن خزيمة وابن حبان قال ابن حجر: "الأخبار الواردة في ترهيب المرأة من طلب طلاق زوجها محمولة على ما إذا لم يكن سبب يقضي ذلك" انظر: فيض القدير للمناوي ٣ / ١٣٨.

فلا يبقى شيء من ذلك؛ فلهذا السبب ذكر الله حكم الرجعة، ثم أتبعه بحكم الخلع، ثم ذكر بعد الكل حكم الطلقة الثالثة لأنها كالحاتمة لجميع الأحكام المعتبرة في هذا الباب والله أعلم^(١).

والحكم إن طلق الرجل زوجته طلقة ثالثة بعد الأولين أنها تكون زوجته محرمة عليه، ولا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره نكاحاً صحيحاً ويدخل بها دخولاً حقيقياً ويكون مقصده من الزواج الاستمرار، ويؤكد هذا ما ورد في الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة رفاعة القرظي النبي ﷺ فقالت: كنت عند رفاعة فطلقني، فأبّت طلاقاً فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير، إنما معه مثل هدبة الثوب فقال: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك^(٢) والمقصود بذوق العسيلة الجماع.

فإن طلقها الزوج الثاني وانقضت عدتها، فلا إثم على الزوج الأول أن يرجع إليها بعقد جديد ما دام قد غلب على ظنها أنها سقيمان حدود الله. قال الزمخشري: " ولم يقل: إن علما أنها يقينان؛ لأن اليقين مغيب عنها لا يعلمه إلا الله عز وجل، ومن فسر الظن ههنا بالعلم فقد وهم من طريق اللفظ والمعنى؛ لأنك لا تقول علمت أن يقوم زيد، ولكن: علمت أنه قام، ولأن الإنسان لا يعلم ما في الغد وإنما يظن ظناً"^(٣).

ثم ختم الله الآية ببيان أن هذه الأحكام المذكورة يوضحها الله تعالى ويبينها لقوم يعلمون الحق ويعملون بمقتضى علمهم بلا تحايل أو تغيير، ومن حكم هذا التشريع ردع الأزواج وزجرهم عن التساهل في التطلق؛ فإن الحر الشريف إذا علم أن امرأته لن تحل له بعد الطلقة الثالثة إلا إذا جامعها رجل آخر تريث في إيقاع الطلاق، وعالج أموره بروية وتؤدة.

وقد اتفق جمهور أهل العلم على تحريم نكاح التحليل، وهو أن يتزوج الرجل المرأة المطلقة

(١) التفسير الكبير للرازي ٦/ ٩٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم / ٢٤٩٦ ومسلم في صحيحه برقم / ١٤٣٣.

(٣) الكشاف للزمخشري ١/ ٣٠٤.

ثلاثاً بقصد تحليها لزوجها، لا بقصد الاستمرار، وهو كبيرة من الكبائر لعن رسول الله ﷺ فاعله، عن علي أن رسول الله ﷺ قال: (لعن الله المحلل والمحلل له)^(١).

ثم تعرضت الآيات لحكم جديد من أحكام الطلاق الرجعي؛ فقد تكلمت الآية السابقة على كيفية الطلاق المشروع وعده وجواز الخلع، أما هذه الآية فقد تكلمت عن الواجب في معاملة المطلقات ونهت عن الضرر وأرشدت إلى المصلحة وبينت الحكمة فقال تعالى: وإذا طلقتم أيها المؤمنون النساء طلاقاً رجعياً وقاربت عدتهن على الانتهاء فتمهلوا في أمركم؛ فأنتم بين أمرين: إما أن تبقوا نساءكم معكم بالمعروف الذي يقره الشرع الحكيم والخلق القويم والعقل السليم، وإما أن تفارقوهن بالمعروف أيضاً.

ثم أكدت الآية على عدم المضارة ونهت عن مراجعة النساء لإرادة إلحاق الضرر بهن بتطويل العدة وبالاعتداء حتى تفتدي نفسها بالمال، وبينت أن من فعل ذلك فقد عرض نفسه للظلم، ثم حذر الله المخالفين لشرعه أن يتخذوا أحكامه التي شرعها في الطلاق وغيره مثار سخرية وذلك بالإكثار من الطلاق أو اتخاذ المراجعة وسيلة لإيذاء المرأة، ثم ذكرهم الله تعالى بنعمه عليهم ومنها نعمة الزواج، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١] وذكرهم بما نزل عليهم من الأحكام في القرآن والسنة النبوية لكي يتعظوا به، ثم أمرهم بتقواه صيانة لأنفسهم عن غضب الله، وليعلموا أن الله عليم بكل ما يسرون ويعلمون.

ثم بين سبحانه ما يلزم اتباعه عند وقوع الطلاق حتى لا يحدث ظلم وجور، وذلك إذا طلقت النساء وانقضت عدتهن فلا يجوز للزوج أن يمنع المرأة من الزواج بعد الطلقة الثالثة، ولا يجوز للأولياء كذلك أن يمنعوا المرأة من العودة إلى الزوج بعد الطلقتين الأولى والثانية،

(١) رواه أبو داود في سننه برقم/ ٢٠٧٦ وابن ماجه برقم/ ١٩٣٥ والبيهقي برقم/ ١٣٩٦١ وهو صحيح وله طرق. الدراية في تخريج أحاديث الهداية ٢/ ٧٣، تلخيص الحبير لابن حجر ٣/ ١٧٠.

طالما حصل التراضي بين الأزواج والزوجات على ما يقره الشرع والعرف الصحيح، وكان الخاطب كفوًا.

وقد ورد عن معقل بن يسار أنها نزلت فيه؛ قال: زوجت أختي من رجل فطلقها حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها، فقلت له: زوجتك وفرشتك وأكرمتك فطلقتها ثم جئت تخطبها! لا والله لا تعود إليك أبدًا، وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فقلت: الآن أفعل يا رسول الله، قال: فزوجها إياه. (١)

ثم ذكر الله المؤمنين بعد النهي عن عضل الزوجات بثلاثة أمور:

أولها: أن ذلك القول الحكيم والتوجيه الكريم يستجيب له ويوعظ به من كان مؤمناً بالله وبثوابه وعقابه.

وثانيها: أن ذلك الذي شرعه الله، أعظم بركة ونفعاً وأكثر تطهيراً من دنس المعاصي؛ فإن المرأة إذا هُضمت حقها قد يدفعها ذلك إلى ارتكاب المحظورات.

وثالثها: أن الله يعلم ما فيه النفع والمصلحة للعباد. أما البشر فإنهم لا يعلمون أحداث المستقبل، أو لا يعلمون علماً خالياً من الأهواء.

حكمة الطلاق:

لقد حث الإسلام الرجال والنساء إلى حسن اختيار الشريك والشريكة في الزواج عند الخطبة، إلا أن ذلك قد لا يضمن استمرار السعادة والاستقرار بين الزوجين، فربما قصر أحد الزوجين في الأخذ بما تقدم، وربما جدّ في حياة الزوجين ما يثير بينهما الشقاق مكان الوفاق، كما إذا مرض أحدهما أو لحقه عجز. وربما حدثت عناصر خارجة عن الزوجين، كالأهل وغير ذلك، وربما كان السبب انصراف القلب وتغيّره. ومع هذا فقد أرشد الإسلام إلى نصح الزوجين وندبهما

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٨٣٧.

إلى الصبر والاحتمال، وبخاصة إذا كان التقصير من الزوجة، قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء/ ١٩].

إلا أن مثل هذا الصبر قد لا يتيسر للزوجين أو لا يستطيعانه، فربما كانت أسباب الشقاق فوق الطاقة، أو كانا في ظروف لا تساعدهما على الصبر، وفي هذه الحال: إما أن يتم الإبقاء على الزوجية مع استمرار الشقاق الذي قد يتضاعف وينتج عنه فتنة، أو جريمة، أو تقصير في حقوق الله تعالى، أو على الأقل تفويت حكمة النكاح، وهي المودة والألفة والذرية الصالحة، وإما أن يحدث الطلاق، وهو ما أتجه إليه التشريع في الإسلام، فقد يكون الطلاق طريقاً لإنهاء الشقاق والخلاف بين الزوجين، ليستأنفا بعده حياتهما منفردين أو متزوجين حيث يجد كل منهما من يألفه ويحتمله، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَنْفَرَا بَعْضُ اللَّهِ مِنْ سَعْتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء/ ١٣٠].

ثم ذكرت الآيات بعد ذلك حكم الرضاع، ومناسبته لما قبله ظاهره؛ قال أبو حيان: "لما ذكر جملة في: النكاح، والطلاق، والعدة، والرجعة، والعضل أخذ يذكر حكم ما كان من نتيجة النكاح، وهو ما شرع من حكم: الإرضاع ومدته وحكم الكسوة، والنفقة"^(١). وإن قلنا إن الآية في حكم الرضاع بالنسبة للمطلقات فيكون هذا من تنمة أحكام الطلاق.

والآية جاءت بصيغة الخبر الذي يفيد معنى الأمر، أي ليرضعن، والوالدات قيل: عام لكل أم، وقيل: خاص بالمطلقات^(٢)، وعلى كلا القولين فالحكم يشمل كل أم، لأنه إن شمل المطلقة فسيشمل المتزوجة من باب أولى، والحوالان: العامان، والتقيد بالعامين لرفع توهم أن يكون المراد حوالاً وبعض آخر^(٣)، وليس ذلك للوجوب بدليل: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾،

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٢٢٢.

(٢) وهو اختيار الطبري في جامع البيان ٥/ ٣٠ والطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير والسيد محمد رشيد رضا في تفسير المنار ٢/ ٤٠٩. قال الألوسي في روح المعاني ٢/ ١٤٦: ولا يخفى أن الحمل على العموم أولى.

(٣) انظر: الطبري سابق.

وغايته التحديد عند وقوع الاختلاف، فلو اتفق الأبوان على الفطام قبل تمام الحولين فلا بأس بشرط ألا يتضرر الولد من الفطام، وفي الآية دليل أن الرضاعة بعد الحولين غير معتبرة في التحريم الجاري مجرى النسب.

وفي الآية بيان اهتمام الإسلام بالصغير، وحرصه على أن ينبت نباتاً حسناً بالرضاعة الطبيعية من الأم وهذا مما لا تحفى فوائده الطيبة والنفسية.

من فوائد الرضاعة الطبيعية*:

الرضاعة الطبيعية من لبن الأم تقي الطفل من الميكروبات وتحتوي على مجموعة كبيرة من مضادات الأمراض، وعلى مادة الأنترفيرون التي تقاوم الفيروسات، وتساعد أيضاً على نمو الأسنان وامتصاص الحديد وتقليل الإصابة بالإسهال والإمساك، وتحمي من الكساح ونقص الزنك، وتفيد الرضاعة الأم أيضاً؛ فهي تقيها من حمى النفاس ومن بعض الجلطات وسرطان الثدي، هذا بالإضافة إلى الفوائد النفسية للطفل والأم، والفوائد الاقتصادية للمجتمع.

ثم بينت الآية أن على الوالد أن يقدم للوالدة ما يكفيها من الطعام والكسوة بما تعارف عليه العقلاء وعلى قدر طاقته من حيث الإعسار واليسار، وعلّة ذلك أن الله لا يكلف عباده إلا بما يطيقونه بدون عسر أو حرج.

وعلّة هذه الأحكام السابقة ألا يقع ضرر من أحد الجانبين على الآخر، فلا تضار الأم بسبب ولدها وذلك بأن يمنعها من الإرضاع أو يقصر في النفقة أو يمنعها رؤية الولد، ولا يضار الوالد كذلك بسبب ولده، وذلك بأن تكلفه الأم ما لا يطيق، أو تمتنع عن إرضاع الولد تعجيزاً لأبيه، وأضافت الآية الولد إلى كل منهما للاستعفاف وليعلما أن الولد رزق لهما من الله فليحرصا على رعايته وحمايته، وقدم الأم لأن عاطفتها لولدها أقوى، ولأنها الجانب الأضعف فيكون إلحاق الأذى بها أقرب.

* موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ليوסף الحاج أحمد ص ٧٨٨ وما بعدها.

وكما تجب النفقة على الأب فإنها تجب كذلك على وارث الأب أو وارث الصبي الذي سيرثه بعد موته^(١)، وهذا في حالة فقد الأب أو عجزه عن الإنفاق. وهي دليل على وجوب نفقة الأقارب.

وتحديد المدة بالحوالين إنما هو بيان أقصى مدة عند التنازع، أما إن أراد الأبوان قطع الرضاع وفضام الولد قبل مدة الحولين أو بعدها فلا بأس بشرط التراضي والتشاور. وإن أراد الآباء أن يسترضعوا المراضع لأولادهم بالأجرة، ورضيت الأمهات، فلا بأس بشرط تسليم هؤلاء المراضع أجرهن بالمعروف الذي يناسب أجرة أمثلهن في البلد.

ثم ختمت الآية بما يحث على التزام أحكامها وامتثال أوامرها، وذلك إنما يكون بتقوى الله في كل الأمور ولْيَعْلَمَ كُلُّ امْرِئٍ أَنَّ اللَّهَ بِصِيرِهِ عَمَلُهُ وَسَيَجْزِيهِ عَلَيْهِ إِنْ خَيْرًا وَإِنْ شَرًّا.

”ولما ذكر سبحانه عدة الطلاق واتصل بذكرها الإرضاع، عقب ذلك بذكر عدة الوفاة؛ لثلاث يتوهم أن عدة الوفاة مثل عدة الطلاق“^(٢) فالذين يتوفاهم الله بقبض أرواحهم كما قال تعالى ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢] ويتركون أزواجاً، فعلى أولئك الزوجات أن ينتظرن انقضاء عدتهن؛ فيمنعن أنفسهن عن الزينة وعن التعرض للخطاب وللزواج، وكذلك عن الخروج من المنزل إلا لضرورة.

ومن حَكَمَ العدة معرفة براءة الرحم من الحمل، وتعظيم قدر الزواج، وأيضاً لتخفي مرارة الفراق بين الزوجين الذين ربط الله بينهما برباط المودة والرحمة، ومن مكارم الأخلاق وحسن العشرة ألا تتزين المرأة وتعرض نفسها على الرجال وهي حديثة عهد بوفاة زوجها، قال رسول الله ﷺ: (لا يجلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تحدُّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً)^(٣). وهذا الحكم عام لكل امرأة توفى عنها زوجها سواء كانت مدخولاً بها

(١) قال في تفسير المنار ٢/ ٤١٤: وكلُّ يَحْتَمِلُهُ اللفظ، ولعل الحكمة في هذا التعبير أن يتناول كل ما يصح تناوله إياه.

(٢) فتح القدير للشوكاني ١/ ٢٤٨.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٢٢٢ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٤٨٧ عن أم حبيبة رضي الله عنها.

أو غير مدخول بها، وسواء كانت صغيرة أو كبيرة ولم يستثن من هذا إلا الحامل؛ فعدتها وضع الحمل؛ قال تعالى ﴿ وَأَوْلَتْ الْأَحْمَالُ أَجَلَهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٤] وقد صح عن أم سلمة " أنها قالت: " قُتِلَ زَوْجُ سَبِيْعَةَ الْأَسْلَمِيَّةِ وَهِيَ حَبْلِي، فَوَضَعَتْ بِهِ مَوْتَهُ بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً فَخُطِبَتْ فَانكحها رسول الله ﷺ" (١).

ومن حكم الإحداد بالأشهر في الوفاة: أنه بخلاف الطلاق يشمل الصغيرة والكبيرة مدخولاً بها أو غير مدخول بها، فلزم أن تكون العدة بأمر يشترك فيه الجميع ما دام السبب واحداً في الجميع. ولأن العدة في الوفاة متعلقة بالمرأة فقط وربما كان تحديدها بالحيض مساعاً للكذب، أما في المطلقة فالعدة حق للمطلق ويستطيع أن ينكر عليها، أما في حالة الوفاة فصاحب الحق قد مات وصار الحق خالصاً لله، ومن حكم جعل عدة الوفاة أكثر من الطلاق أن الطلاق كان عن شقاق فمرارة الفراق أخف، وتحديد المدة بأربعة أشهر لأنها أقصى مدة قررها الشرع للحرمان من الرجال كما في حالة الإيلاء، فجاءت مدة الإحداد على الزوج مقارنة لهذه المدة والله أعلم.

ثم بينت الآية الكريمة ما يترتب على انتهاء مدة العدة وبلوغ الأجل، وخاطبت الأولياء بأنه إذا انقضت العدة فلا حرج على الأولياء أو على المسلمين في ترك الأرامل يفعلن ما كان محظوراً عليهن، ولكن بالطريقة التي يقرها الشرع وترتيبها الفطر السليمة والعقول القويمة، والله تعالى محيط بدقائق أعمال الجميع لا يخفى عليه شيء منها.

ثم بينت الآيات حكم الخطبة للمعتدة بأسلوب راق يحفظ المصالح ويراعي المشاعر، فيجوز للرجل أن يعرض للمرأة بالخطبة في أثناء العدة، ولا إثم عليه كذلك إن رغب في زواج المعتدة طالما أضمّر في نفسه وأخفى هذا الأمر، قال ابن عطية: " وأجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو نص في تزويجها وتنبه عليه لا يجوز، وكذلك أجمعت على أن الكلام معها بما هو رفق وذكر جماع أو تحريض عليه لا يجوز، وجوز ما عدا ذلك" (٢).

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/٤٦٢٦ ومسلم في صحيحه برقم/١٤٨٥ عن أم سلمة رضي الله عنها

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ١/٣١٥.

ومن لطيف التعريض ما روي أن رسول الله ﷺ دخل على أم سلمة وهي متأيمة من أبي سلمة فقال: لقد علمت أني رسول الله وخيرته وموضعي في قومي^(١).

ولأن الله تعالى عليم حكيم يعلم من خلق فلقد ذكّر الخاطبين بعلمه أنهم سيذكرونهن في أنفسهن، وهذا مما دخل للإنسان فيه ولا مؤاخذه عليه، وهذا هو القدر المباح، فلا يجوز أن يواعد المرأة مواعدة في السر، فإن هذا مدعاة إلى الفتنة، إلا أن تكون المواعدة بقول معروف، قال البيضاوي " أن تعرضوا ولا تصرحوا"^(٢).

ثم بينت الآية غاية التحريم، فنهت أن يعقد الرجل العزم على إبرام وإتمام عقد النكاح المؤكد حتى ينتهي وقت ما فرض الله وكتب من العدة.

وكعادة القرآن الكريم في قرن الأحكام بالترغيب والترهيب جاء التحذير الإلهي بأن الله يعلم ما تضره النفوس فليحذر المخالفون من قصد الشر أو فعل المنكر، ثم فتح باب الأمل لمن أراد الرجوع. وأعلمهم أنه غفور لمن تاب، حلیم لا يعاجل بالعقوبة من أساء.

و" لما بين تعالى حكم المطلقات المدخول بهن والمتوفى عنهن أزواجهن بين حكم المطلقة غير المدخول بها وغير المسمى لها مدخولاً بها أو غير ذلك"^(٣) فخطب الله تعالى الأزواج ورفع عنهم التبعة، ولم يلزمهم بدفع المهر إذا طلقوا المرأة قبل الدخول ما داموا لم يفرضوا لهن مهراً، لكن يجب عليكم في هذه الحالة أن تعطوهن ما لا يتمتعن ويتفتعن به بما تعارف عليه الناس كل على حسب طاقته فمن وسّع الله عليه فليوسع، ومن ضيق عليه فلا حرج إن أنفق ما في وسعه. وهذه المتعة حق واجب على الذين يحسنون إلى أنفسهم بطاعة الله وإلى النساء.

قال الجصاص: " وجوب المتعة من وجوه؛ أحدها: قوله تعالى ﴿ وَمَتَّعُوهُنَّ ﴾ لأنه أمر،

(١) رواه الدار قطني في سننه ٣/ ٢٢٤ والبيهقي ٧/ ١٧٨.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١/ ٥٣١.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٢٤٠.

والأمر يقتضي الوجوب حتى تقوم الدلالة على الندب، والثاني: قوله تعالى: ﴿مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ تأكيد لإيجابه؛ إذ جعلها من شرط الإحسان، وعلى كل أحد أن يكون من المحسنين.... إلخ»^(١).

ومن حكم هذه المتعة أن في الطلاق قبل الدخول إيهاماً للناس أنه ما طلقها إلا لشيء عرفه في أخلاقها، فإذا متعها متاعاً حسناً كان ذلك بمثابة الاعتراف بأن الطلاق كان لعذر من ناحيته لا لعلة فيها؛ لأن الله يأمرنا بأن نحافظ على الأعراض بقدر الطاقة.^(٢)

ثم ذكرت الآية الحالة الثانية للمطلقة قبل الدخول، وهي إذا كان قد سمى لها الصداق فخاطب الله الأزواج إن طلقوا قبل الدخول وبعد أن قدروا مهراً معلوماً، فلها نصف المهر إلا أن تعفو المرأة عن حقها، أو يعفوا الزوج الذي بيده عقدة النكاح فيعطيها أكثر من النصف أو المهر كاملاً.

وقد ذهب الحنفية والشافعية وجماعة من السلف إلى أن الزوج هو الذي بيده عقدة النكاح، وورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: (وليُّ عقدة النكاح الزوج)^(٣)، وقال الإمام الشافعي رحمه الله: "ويُنَّ عندي في الآية أن الذي بيده عقدة النكاح الزوج، وذلك أنه إنما يعفوه من له ما يعفوه؛ فلما ذكر الله عز وجل عفوها مما ملكت من نصف المهر أشبه أن يكون ذكر عفوه لما له من جنس نصف المهر، والله تعالى أعلم"^(٤). وقيل: هو الولي، وقد جاء اللفظ القرآني مجملاً لكي يحرص كل من الفريقين على العفو، والله أعلم.

(١) أحكام القرآن للجصاص ١٣٨/٢.

(٢) تفسير المنار ٢/ ٤٣٠ بتصرف.

(٣) رواه البيهقي في سننه ٢٥١/٧ والطبراني في الأوسط ٦٣٥٩ قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣٢٠: وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف، ورواه ابن أبي حاتم برقم/٣٥٩، وحسن السيوطي إسناده في الدر المنثور ١/٧٣٩.

(٤) الأم للإمام الشافعي رحمه الله ٥/ ٧٤.

وجاء الأمر بالعفو مطلقاً ليشمل الجميع، فالعفو أقرب لتقوى الله، ثم أمرهم ألا ينسوا الفضل، فطالبهم بالفضل لا بالعدل، ثم ختمت الآية ببيان أن الله بصير بما يفعل العبد ليرغب العباد في الفضل ويرهبهم من الظلم والجهل.

وختم الآية السابقة يغري الناس بقانون البر والفضل ولكي يحولوا أبصارهم إلى شؤون كلية كبرى أولى أن يتوفر لها أولو العزم، ألا وهي الصلاة والإنفاق والجهاد في سبيل الله، والخطاب هنا بالصلاة يتوجه إلى المجاهدين لكي يحسم لهم مسألة الصلاة قبل أن يأمرهم بالقتال صراحة، ويبين لهم أن الجهاد ليس رخصة لإسقاط الصلاة ولا لتأجيلها، وإنما يأمرهم أن يحافظوا على الصلوات جميعاً، ثم أفرد الصلاة الوسطى بالذكر تفخياً لأمرها وإعلاء لشأنها، وذهب جمع من العلماء إلى أنها صلاة العصر؛ لأنها بين صلاتي النهار والليل، ولكونها مظنة التقصير لمجيئها بعد وقت الراحة في الظهيرة، وقد ورد عن علي بن أبي طالب قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب، (شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً)^(١). وقد يقال إن المقصود الاهتمام بالصلوات عموماً دون تحديد واحدة بعينها، والله أعلم.

ثم أمر الله المؤمنين أن يقوموا لله طائعين خاشعين، فهذا دليل حضور القلب وصحة الإيمان. ولأهمية الصلاة فإنها لا تسقط بحال، ولهذا أمر الله عباده أن يحافظوا عليها وقت الأمن والخوف والصحة والمرض والسفر والإقامة، والتخفيف في وقت الخوف يكون بأدائها بكيفية مخصوصة أي كانوا مشاة أو راكبين، فإذا زال الخوف وحل الأمن، فلتؤدى الصلاة كاملة كما علمنا ربنا على لسان نبينا ﷺ، وقد منَّ علينا بهذا العلم الذي ما كنا نعلمه.

قال القاضي أبو بكر بن العربي: "أمر الله سبحانه بالمحافظة على الصلوات في كل حال من صحة ومرض وحضر وسفر وقدرة وعجز وخوف وأمن، لا تسقط عن المكلف بحال ولا يتطرق إلى فرضيتها اختلال"^(٢).

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم / ٦٢٧.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي / ١ / ٣٠٢.

وبين الحديث عن أمور الطلاق والصلاة مناسبة وثيقة:

١- فالصلاة هي أعظم معين على تحمل الأمور، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [١٥٣] وقد توجه الأمر قديماً إلى بني إسرائيل لكن قلوبهم لم تلتن لله وأمره، قال تعالى مخاطباً إياهم: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [٤٥]. فتوجه الأمر بالصلاة إلى الأمة الخاتمة، وهذا دليل على أن الاستجابة لأوامر الله لن تكون إلا بعد تذليل النفس بالصلاة، ف(من حفظها وحافظ عليها حفظ دينه)^(١)، وهي التي تعين على قبول التكليف، وتروض الأخلاق، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلْقٌ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج/ ١٩-٢٢].

٢- وجو الآيات الكريمة كله يأمر بالتقوى ويحض عليها في ثنايا الحديث عن حقوق النساء، وقد تكرر هذا في أكثر من آية؛ قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [٢٣١] وقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [٢٣٣]، وجاء قبل هذه الآية مباشرة قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْقُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [٢٣٧]، ولا شك أن المحافظة على الصلاة من أعظم ما يغرس التقوى في قلب المؤمن، قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ﴾ [الأنعام/ ٧٢] وارتبط بين هذا وبين وصف المتقين في أول السورة بإقامة الصلاة.

٣- ما ذكره سيد قطب رحمه الله حيث قال: "يدس الحديث عن الصلاة في هذا الجو، فيوحي بأن الطاعة لله في كل هذا عبادة كعبادة الصلاة، ومن جنسها، وهو إيجاء لطيف من إيجاءات القرآن. وهو يتسق مع التصور الإسلامي لغاية الوجود الإنساني في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات/ ٥٦]. واعتبار العبادة غير مقصورة على الشعائر، بل شاملة لكل نشاط، الاتجاه فيه إلى الله، والغاية منه طاعة الله"^(٢).

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف ١/ ٥٣٦ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٢٥٧.

٤- أن الحديث السابق كان حول أداء حقوق النساء سواء كانت مطلقة أو توفي زوجها، وانتقل السياق إلى الحديث عن أداء حق الله بالصلاة.

ثم عادت الآيات إلى الحديث عن بعض حقوق المرأة التي توفي عنها زوجها، والمعنى: أن على الزوج قبل أن تحضره الوفاة أن يوصي لزوجته بما تنتفع به لمدة حول كامل من وفاته، ولا يجوز لأحد أن يخرجها من مسكن الزوجية بغير رضاها، فإن خرجت الزوجة من منزل الزوجية برغبتها فلا إثم عليكم حينئذ فيما فعلن في أنفسهن من الأمور التي لا ينكرها الشرع طالما انتهت عدتها وهي الأربعة أشهر وعشرة أيام. والله عزيز في انتقامه لمن تعدى حدوده، حكيم فيما شرع للعباد من أحكام وآداب.

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة؛ فقد كانت عدة الوفاة سنة كاملة ولها الوصية بالنفقة، ثم نسخت الوصية بآية المواريث ونسخ الحول بأربعة أشهر وعشراً.

وذهب جمع من العلماء إلى أن الآية ليست منسوخة؛ فروى البخاري عن مجاهد قال: كانت هذه العدة؛ تعتد عند أهل زوجها واجب فأنزل الله: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ ﴾ قال: جعل الله لها تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية إن شاءت سكنت في وصيتها وإن شاءت خرجت، وهو قول الله تعالى: ﴿ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ فالعدة كما هي^(١). قال ابن عاشور: هذا الذي قاله مجاهد أصرح ما في الباب وهو المقبول^(٢).

وعلى هذا فالراجع ألا نسخ؛ فهذه الآية ليست منسوخة وإنما تتكلم عن حق المرأة في الإقامة ببيت زوجها سنة كاملة إن رغبت، أما الآية الأولى فهي تتكلم عن الواجب على النساء

(١) رواه البخاري في صحيحه ورقمه / ٤٢٥٧.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢ / ٤٧٢.

من الاعتداد أربعة أشهر وعشراً، قال ابن كثير: " وهذا القول له اتجاه، وفي اللفظ مساعدة له، وقد اختاره جماعة منهم: الإمام أبو العباس ابن تيمية"^(١).

ثم بين تعالى حق المطلقات في المتعة وجاء لفظ المطلقات عاماً ليشمل كل مطلقة وذلك لجبر ألم الفراق، ولتخفيف ما بين الزوجين من شقاق، ودرءاً لعدم الوفاق بعد إتمام الطلاق، وهذا حق على المتقين الذين يخافون ربهم. وظاهر الآية يفيد إيجاب المتعة لكل مطلقة.

ثم ختم الله تعالى هذه الآيات المتعلقة بأحكام الأسرة بقوله: ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢٤٢) أي: مثل هذا البيان الواضح الذي بين الله به الأحكام السابقة بين لكم جميع آياته وأحكامه لكي تعقلوا ما فيها وتنفذوه.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أولاً: القضايا العقدية:

- جمهور العلماء على أن لفظ المشرك يندرج فيه الكفار من أهل الكتاب، وإنما أفردوا بالذكر في بعض الآيات تنبيهاً على اختلافهم عن المشركين في جملة من الأحكام؛ منها إباحة الزواج من نسائهم، لكنهم في النهاية يشملهم جميعاً وصف الإشراف بالله.
- قوله ﴿ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ فيه أساس اعتقادي يربط أمور الأحكام بالإيمان المستكن في الضمير، فكيف يعرف الناس إن كانت المطلقة ذات حمل أم لا؟ وكيف يعرف زوجها بعد الطلاق إن كانت حائضاً أو حاملاً؟ لا يستخرج الحق عندئذ إلا إيمانها بالله واليوم الآخر.
- قوله تعالى: ﴿ لَا تَكْفُلُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ يوجب بطلان قول أهل الإجماع في اعتقادهم

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢٩٨ ورجحه أيضاً الفخر الرازي في مفاتيح الغيب ٦/ ١٣٥ فقال: "فكان المصير إلى قول مجاهد أقوى من التزام النسخ من غير دليل"، ورجحه سيد قطب في ظلال القرآن ١/ ٢٥٩ وذهب إلى نفي النسخ: محمد عبده كما في تفسير المنار ٢/ ٤٤٧.

أن الله يكلف عباده ما لا يطيقون، وإكذاب لهم في نسبتهم ذلك إلى الله تعالى عما يقولون وينسبون إليه من السفه والعبث علواً كبيراً^(١).

ثانياً: الأحكام الشرعية :

- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِيْنَ﴾ يفيد حرمة الزواج بالمشركة، وكذلك الملحدة التي لا تؤمن بدين. وكذلك لا يجوز الزواج بالمجوسية التي تعبد النار^(٢)، ولا المرتدة التي عادت للكفر بعد الإيذان، وكذلك التي تنتمي لطائفة أو فرقة ظاهرها الإسلام لكن حكم العلماء بكفرها وردتها وذلك مثل القاديانية والبهائية وغيرهما.

ومعلوم أن تحريم نكاح المشركة ليس مؤبداً كتحریم الأم والأخت، ولكنه مؤقت بغاية وهي الإيذان ﴿حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ فإذا آمنت الكافرة حل نكاحها.

- دلت الآيات على جواز نكاح الكتابية سواء كانت يهودية أو نصرانية، وهذا مذهب جمهور أهل العلم. وذهب عبد الله بن عمر إلى عدم الجواز؛ فكان إذا سئل عن نكاح النصرانية أو اليهودية قال: حرم الله المشركات على المؤمنين، ولا أعلم من الإشراف شيئاً أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى وهو عبد من عباد الله^(٣).

والحق مع رأي الجمهور، لكن يشترط أن تكون المرأة محصنة أي عفيفة لا تتعاطى الزنا، ويشترط كذلك ألا تكون من قوم يحاربون المسلمين، فنكاح نساء المحاربين لا يجوز، وهذا قول ابن عباس وغيره^(٤)، ومما يحتج به لقوله: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة/ ٢٢] قال الجصاص: "فينبغي أن يكون نكاح

(١) أحكام القرآن للجصاص ١٠٦/٢.

(٢) انظر: كشف القناع للبهوتي ٤٤٣/٢، والمبسوط للسرخسي ١٣/١٣٢، وجاء في حاشية العدوي ١/٨٠: ويرجم الزوج في نكاح المجوسية.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٤٩٨١.

(٤) انظر: جامع البيان للطبري ٩/٥٨٨ وأحكام القرآن للقرطبي ٣/٤٥٨.

الحرييات محظورا؛ لأن قوله تعالى: ﴿يُؤَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إنما يقع على أهل الحرب؛ لأنهم في حد غير حدنا؛ وهذا عندنا إنما يدل على الكراهة، وأصحابنا يكرهون مناكحات أهل الحرب من أهل الكتاب^(١).

- لا يجوز للمشرك أن ينكح المؤمنة بأي حال من الأحوال، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ جِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [المتحنة/ ١٠]

- دل قوله تعالى ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ على أنه لا نكاح إلا بولي، قال محمد بن علي بن الحسين: النكاح بولي في كتاب الله، ثم قرأ: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ برفع التاء^(٢)، واشترط الولي في النكاح هو قول الجمهور، وورد عن عمر وعلي وابن عباس وابن مسعود وغيرهم، وهو مذهب الشافعي ومالك وأحمد^(٣)؛ وحثهم قول رسول الله ﷺ: (لا نكاح إلا بولي)^(٤) وغيره من الأحاديث.

- جواز استمتاع الرجل بامرأته وهي حائض طالما ابتعد عن موطن الأذى، قال رسول الله: (اصنعوا كل شيء إلا النكاح)^(٥) وعن عائشة قالت: "كان - أي النبي ﷺ - يأمرني فأترز فيياشرني وأنا حائض"^(٦).

(١) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٢٦.

(٢) رواه عنه الطبري في جامع البيان ٤/ ٣٧٠، وفي سننه راو لم يسم.

(٣) أقوال الصحابة مروية عند البيهقي في سننه ٧/ ١١٢، ١١١، وانظر في المسألة من كتب الفقه: الأم للإمام الشافعي ٥/ ١٢، المغنى لابن قدامة ٧/ ٦، وبداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد ٩/ ٢.

(٤) رواه الترمذي في سننه رقم/ ١١٠١، وأبو داود في سننه رقم/ ٢٠٨٣، وابن ماجه في سننه رقم/ ١٨٨١، وابن حبان في صحيحه ٤٠٧٨، والحاكم في المستدرک رقم/ ٢٧١٣ وله طرق يصير بمجموعها صحيحاً. انظر: الدراية في تحريج أحاديث الهداية لابن حجر ٢/ ٥٥.

(٥) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٣٠٢ وسبق.

(٦) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٩٥.

- إباحة إتيان المرأة بعد التطهر عند جمهور الفقهاء، وبعد انقطاع الدم وقبل التطهر عند الأحناف.
- إن وطأ الرجل امرأته الحائض وهو عالم بالتحريم متعمد فقد أتى كبيرة لمخالفته نص القرآن، ويجب عليه التوبة والاستغفار عند جمهور العلماء. وذهب أحمد بن حنبل وجماعة إلى وجوب الكفارة عليه؛ وذلك لما ورد عن عبد الله بن عباس مرفوعاً في الذي يأتي امرأته وهي حائض يتصدق بدينار أو نصف دينار^(١).

- إباحة الأحوال والهيئات كلها في الجماع إذا كان الإتيان في موضع الحرث.

- تحريم إتيان المرأة في دبرها، وقد شددت الأحاديث النبوية في النهي عن ذلك، ودلالة قوله تعالى: ﴿ فَأَتُوا حَرَثَكُمْ ﴾ وقوله: ﴿ فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ تفيد أن الإتيان لا يكون إلا من موطن الحرث. ومما صح عن رسول الله ﷺ في ذلك قوله: (ملعون من أتى امرأته في دبرها)^(٢).

- دل قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرِيصٌ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ على أن الحلف على مدة دون الأربعة أشهر لا يعد إيلاء، وإنما يكون الإيلاء إذا حلف ألا يقرب زوجته أربعة أشهر فصاعداً عند الأحناف، وأكثر من أربعة أشهر عند غيرهم^(٣).

- الإيلاء يثبت بكل يمين، وقد جاءت الآية عامة بدون تحديد صيغة يمين، فيقع الإيلاء بكل الصيغ، وهذا قول الجمهور خلافاً للشافعية. قال ابن عباس: كل يمين منعت جماعاً فهي إيلاء^(٤).

(١) رواه أبو داود في سننه برقم/ ٢٦٤ والنسائي في الكبرى برقم/ ٩٠٩٨، وابن الجارود في المتقى ١/ ٣٨. وانظر كلام العلماء على هذا الحديث في شرح النووي على صحيح مسلم ٣/ ٢٠٥. وعمدة القاري للعيني ٣/ ٢٦٦.

(٢) رواه أحمد في مسنده ٢/ ٤٤٤ والنسائي في السنن الكبرى برقم/ ٩٠١٥ وأبو داود في سننه برقم/ ٢١٦٢ وسنده حسن. انظر: تلخيص الحبير لابن حجر ٣/ ١٨٠، ومصباح الزجاجة للبوصيري ٢/ ١١٠.

(٣) انظر: بدائع الصنائع ٣/ ١٧٧، الإقناع للخطيب الشربيني ٢/ ٤٥٢، والشرح الكبير ٢/ ٣٤٢ والروض المربع ٣/ ١٩٠.

(٤) أخرجه عنه البيهقي في سنن الكبرى برقم/ ١٥٠١٦ والصغرى برقم/ ٢٧٤١. وانظر لرأي الجمهور: بداية المجتهد ٢/ ٧٦، ولرأي الشافعية: الأم ٥/ ٢٦٥.

- وبدلالة عموم الآية قال جمهور الفقهاء: الإيلاء يقع سواء كانت اليمين في غضب أو غير غضب. وقال ابن عباس: لا إيلاء إلا بغضب^(١).
- قال القرطبي: "ويدل عليه - أي رأي الجمهور - عموم القرآن، وتخصيص حالة الغضب يحتاج إلى دليل، ولا يؤخذ من وجه يلزم. والله أعلم"^(٢).
- لفظ: ﴿ مِنْ نِسَائِهِمْ ﴾ عام؛ فتدخل فيه الحرة والأمة إذا تزوجت، ويدخل فيه أيضا الذمية، ويشمل الصغيرة والكبيرة والمدخول بها وغير المدخول بها على السواء^(٣).
- قال ابن المنذر: "وأجمعوا على أن الفيء الجماع إذا لم يكن له عذر"^(٤).
- إذا جامع المولي زوجته فعليه الكفارة عند جمهور العلماء، قال ابن عبد البر: "وجمهور العلماء على أن المولي إذا فاء بالوطء وحث نفسه فعليه الكفارة إلا رواية عن الحسن وإبراهيم أنه لا كفارة عليه... وهذا مذهب ضعيف ترده السنة الثابتة"^(٥). وقال ابن تيمية: "المولى بالحلف بالله إذا فاء لزمته كفارة الحنث عند جمهور العلماء. وفيه قول شاذ أنه لا شيء عليه بحال. وقول الجمهور أصح؛ فان الله بين في كتابه كفارة اليمين في سورة المائدة"^(٦).
- استدل محمد بن الحسن بآية الإيلاء على امتناع جواز تقديم الكفارة قبل الحنث في اليمين؛ فقال: "لما حكم للمولي بأحد حكمين من فيء أو عزيمة الطلاق، فلو جاز تقديم الكفارة على الحنث لسقط الإيلاء بغير فيء ولا عزيمة طلاق؛ لأنه إن حنث لا يلزمه بالحنث شيء، ومتى

(١) رواه عنه الطبري في تفسيره ٤/٥٩٠ وينحوه عن علي ٤/٤٦٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤/٢٧.

(٣) انظر: المغني لابن قدامة ٧/٤٢٧. وقال الأحناف: إيلاء الأمة شهران على النصف من الحرة، انظر:

البحر الرائق لابن نجيم الحنفي ٤/٧٢.

(٤) الإجماع لابن المنذر ص ٨٣.

(٥) الاستذكار لابن عبد البر ٦/٤٤.

(٦) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٣/٥٣.

لم يلزم الحالف بالحنث شيء لم يكن مولياً، وفي جواز تقديم الكفارة إسقاط حكم الإيلاء بغير ما ذكر الله، وذلك خلاف الكتاب^(١).

- قال تعالى: ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣٧) فإذا انتهت مدة الأربعة أشهر بدون فيئة طلقت منه عند الأحناف، لأنهم قدروا الآية: للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا في هذه المدة فإن الله يغفر لهم ما حلفوا عليه. وإن لم يفئوا كان ذلك عزمًا منهم على الطلاق، فيقع بانتهاء المدة.

- أما الجمهور فقالوا: يوقف المولي بعد انتهاء المدة؛ فإما أن يطلق وإما أن يفيء، فإن لم يطلق رفعت المرأة أمرها للقاضي كي يطلقها.

وتقدير الآية عندهم: للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا بعد انتهاء المدة فإن الله يغفر لهم ما حلفوا عليه، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع لطلاقهم. والاحتمالان متساويان في تقدير الآية؛ ولذلك اختلف الصحابة في تأويلها^(٢).

قال القرطبي: " وإذا تساوى الاحتمال كان قول الكوفيين أقوى، قياساً على المعتدة بالشهور والأقراء، إذ كل ذلك أجل ضربه الله تعالى، فبانقضائه انقضت العصمة وأبينت من غير خلاف، ولم يكن لزوجها سبيل عليها إلا بإذنها، فكذلك الإيلاء، حتى لو نسي الفيء وانقضت المدة لوقع الطلاق، والله أعلم^(٣).

- عدة غير الحامل ثلاث حيضات، هذا هو الراجح في القراء والله أعلم؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَالَّتِي يَلْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرْبَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ ﴾ [الطلاق/ ٤].

(١) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٥٥.

(٢) انظر في المذاهب الأربعة: شرح فتح القدير للكمال بن الهمام ٤/ ١٩٢، والأم للشافعي ٥/ ٢٦٥، وبداية المجتهد لابن رشد ٢/ ٧٥ المغني لابن قدامة ٧/ ٤٢٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٣٥.

فقلهن عند عدم الحيض إلى الاعتداد بالأشهر؛ فدل ذلك على أن الأصل الحيض، ولأن ظاهر قوله تعالى: ﴿يَرْبِّصَنَّ أَنْفُسَهُنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ وجوب التربص ثلاثة كاملة، ومن جعل القروء الأطهار لم يوجب ثلاثة؛ لأنه يكفي بطهرين وبعض الثالث، فيخالف ظاهر النص، ومن جعله الحيض أو جب ثلاثة كاملة، فيوافق ظاهر النص^(١).

- دل عموم قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْبِّصْنَ أَنْفُسَهُنَّ﴾ على أن العدة تجب على الذمية إذا طلقها المسلم. وعدتها كعدة المسلمة^(٢).

- قوله تعالى ﴿وَيُؤَلِّهِنَّ أَحَقُّ بِرِيحَيْنِ﴾ دليل على أن للرجل مراجعة زوجته المدخول بها فيما دون الثلاث طلاقات، سواء رضيت أو لم ترض، فإذا انقضت عدة المرأة صارت أجنبية عنه لا تحل له إلا بعقد ومهر جديدين. وهذا بالاتفاق؛ قال ابن المنذر: "وأجمعوا على أن له الرجعة في المدخول بها ما لم تنقض العدة، فإذا انقضت العدة فهو خاطب من الخطاب"^(٣).

- قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ المعنى: إن قصد بالرجعة إصلاح حاله معها، وإزالة الوحشة بينهما، لا على وجه الإضرار والقطع بها عن الخلاص من ربة النكاح، فذلك له حلال، وإلا لم تحل له^(٤). فإدام قد قصد الإصلاح فهذا مندوب، أما إذا قصد تطويل مدة العدة فيكون قد ظلم نفسه بارتكاب المحرم.

- دل قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ على إيجاب مهر المثل إذا لم يسم الزوج لها مهرًا؛ لأنه قد ملك عليها بضعها بالعقد واستحق عليها تسليم نفسها إليه، فعليه لها مثل ملكه عليها، ومثل البضع هو قيمته وهي مهر المثل^(٥).

(١) انظر: المغني لابن قدامة ٨/ ٨٢

(٢) قال ابن قدامة: قول علماء الأمصار منهم مالك والثوري والشافعي وأبو عبيد وأصحاب الرأي ومن تبعهم. المغني ٨/ ٧٨.

(٣) الإجماع لابن المنذر ص ٨٠ برقم/ ٣٩٧.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٢٥٦.

(٥) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٦٩، ٧٠.

- إذا أراد الرجل أن يراجع زوجته في فترة العدة فله ذلك، سواء كانت الرجعة بالفعل أو بالقول، ويستحب له أن يُشهد على الرجعة؛ لقوله تعالى ﴿ وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [الطلاق/ ٢] وقال بعض الفقهاء باسْتِطَاعَةِ الإِشْهَادِ، والصحيح من مذهب جمهور أهل العلم النذب والله أعلم^(١).

- دل قوله تعالى: ﴿ أَلْطَلَّقُ مَرَّتَانِ ﴾ على أن الطلاق مباح، قال الشافعي رحمه الله: " قال الله عز وجل: ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق/ ١] الآية وقال: ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ [٢٣٦] وقال ﴿ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ ﴾ الآية [الأحزاب/ ٤٩] وقال ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ ﴾ [النساء/ ٢٠] وقال ﴿ أَلْطَلَّقُ مَرَّتَانٍ فَاِمْسَاكُهُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَشْرِيحٍ بِإِحْسَنِ ﴾ [٢٢٩] مع ما ذكرته من الطلاق في غير ما ذكرت ودلت عليه سنة رسول الله ﷺ من إباحت الطلاق، فالطلاق مباح لكل زوج^(٢).

- دل قوله تعالى: ﴿ أَلْطَلَّقُ مَرَّتَانِ ﴾ على حظر إيقاع الطلقتين أو الثلاث في وقت واحد؛ لأنها تضمنت الأمر بإيقاع الاثنتين في مرتين، فمن أوقع الاثنتين في مرة فهو مخالف لحكمها^(٣). وقال ابن تيمية: " بين أن الطلاق الذي ذكره هو الطلاق الرجعي الذي يكون فيه أحق بردها هو مرتان مرة بعد مرة"^(٤).

- جاء في صحيح البخاري كتاب الطلاق: باب " من أجاز الطلاق الثلاث بقوله تعالى ﴿ أَلْطَلَّقُ مَرَّتَانٍ فَاِمْسَاكُهُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَشْرِيحٍ بِإِحْسَنِ ﴾^(٥). وقد أشار بهذا إلى الخلاف الواقع في احتساب

(١) تبين الحقائق للزيلعي ٢/ ٢٥٢، وأسنى المطالب للبيروني ٣/ ٣٤١، والشرح الكبير لابن قدامة ٢/ ٤٢٤، والروض المربع للبهوتي ٣/ ١٨٤.

(٢) الأم للشافعي ٥/ ١٧٩.

(٣) انظر: أحكام القرآن للجصاص ٢/ ٧٥.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٣/ ١١.

(٥) صحيح البخاري ٥/ ٢٠١٣، باب رقم ٤.

الطلقات الثلاث في المجلس الواحد. والظاهر احتساب الطلقات الثلاث في المجلس الواحد طلقة واحدة؛ ويؤيد هذا ما ورد عن ابن عباس قال: " طلق ركانة بن عبد يزيد أخو بني مطلب امرأته ثلاثاً في مجلس واحد فحزن عليها حزناً شديداً. قال: فسأله رسول الله ﷺ: كيف طلقته؟ قال: طلقته ثلاثاً قال: فقال: في مجلس واحد؟ قال: نعم قال: فإنما تلك واحدة، فأرجعها إن شئت. قال: فرجعها^(١).

- استدل جماعة من الفقهاء بقوله تعالى: ﴿ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ على أن لفظ التسريح من ألفاظ الطلاق الصريحة فلا يحتاج إلى نية، بخلاف ألفاظ الطلاق غير الصريحة (الكنائية) التي تحتاج إلى نية^(٢).

- استدل الشافعية والحنابلة بقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا كُؤُومٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ على أن الزوج إذا أعسر بنفقة المعسر فللزوجة فسخ النكاح؛ فقد تعذر الإمساك بالمعروف فيتعين التسريح بإحسان^(٣).

- استدل الفقهاء بقوله تعالى ﴿ فَأَمَّا كُؤُومٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ على حرمة نكاح المتعة،

(١) رواه أحمد في مسنده ١/ ٢٦٥، والبيهقي في سننه الكبرى برقم / ١٤٧٦٤، قال ابن تيمية: وهذا إسناد جيد. مجموع الفتاوى ٣٣/ ٨٥، ومال ابن حجر إلى تصحيحه وترجيح مقتضاه فقال في فتح الباري ٣٦٢/ ٩: وهذا الحديث نص في المسألة لا يقبل التأويل الذي في غيره من الروايات الآتي ذكرها.

(٢) وهذا مذهب الشافعي، انظر الوسيط ٥/ ٣٧٣، وخالف في ذلك الأحناف والمالكية فقالوا: إن لفظ السراح يستعمل في غير الطلاق كثيراً. انظر: بدائع الصنائع للكاساني ٣/ ١٠٦، المغني لابن قدامة ٧/ ٢٩٤. ووافقهم البخاري؛ فقد ترجم في صحيحه باب: إذا قال: فارقتك أو سرحتك أو البرية أو الخلية، أو ما عني به الطلاق فهو على نيته. صحيح البخاري كتاب الطلاق ٥/ ٢٠١٥.

(٣) الأم للشافعي ٥/ ١٠٧، والكافي في فقه ابن حنبل ٣/ ٣٦٧، أما الأحناف فقالوا: لا تطلق، ويلزمها الصبر؛ لقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرٍ فَنظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ فهذا تنصيص على أن المعسر منظر. المبسوط للسرخسي ٥/ ١٩٠، والظاهر رجحان ما ذهب إليه الأحناف؛ لأن الفقر لا يكون سبباً للفرفة، وقد نذب الله إلى تزويج الفقير.

قالوا: "فجعل إلى الأزواج فرقة من عقدوا عليه النكاح مع أحكام ما بين الأزواج، فكان بيننا أن نكاح المتعة منسوخ بالقرآن والسنة لأنه إلى مدة ثم نجاه ينسخ بلا إحداث طلاق فيه ولا فيه أحكام الأزواج"^(١).

- في قوله تعالى ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ دليل على مشروعية الخلع، قال ابن عبد البر: "وأجمع الجمهور منهم أن الخلع والفدية والصلح أن كل جائز بين الزوجين في قطع العصمة بينهما وأن كل ما أعطته على ذلك حلال له إذا كان ذلك من غير إضرار منه بها ولا إساءة إليها"^(٢).

- قرأ حمزة: (إلا أن يخافا) بضم الياء على البناء لما لم يسم فاعله^(٣). قال النحاس: "قيل: المعنى.. إلا أن يخاف السلطان ويكون الخلع إلى السلطان، وقد قال بهذا الحسن.... قال أبو جعفر: وأكثر العلماء على أن ذلك إلى الزوجين"^(٤).

- دل ظاهر قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ على أن للمرأة أن تفدي نفسها بأكثر من المهر ما داما قد تراضيا على ذلك، قال الشافعي: "وأباح لهما إذا انتقلت عن حد اللاتي حرم أموالهن على أزواجهن لخوف أن لا يقيما حدود الله أن يأخذ منها ما افتدت به لم يحدد في ذلك أن لا يأخذ إلا ما أعطاها ولا غيره، وذلك أنه يصير حينئذ كالبيع. والبيع إنما يحل ما تراضى به المتبايعان لا حد في ذلك، بل في كتاب الله عز وجل دلالة على إباحة ما كثر منه وقل؛

(١) الحاوي الكبير للهاوردي ٣٢٨/٩.

(٢) الاستذكار لابن عبد البر ٧٦/٦.

(٣) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص ٩٧.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٢٠٣/١. وقال الجصاص: ولا خلاف بين فقهاء الأمصار في جوازه دون السلطان؛ وكتاب الله يوجب جوازه، وهو قوله تعالى ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهُنَّ لِيَتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَاءِ تَيْسُهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ يَفْجِسَهُنَّ مَيْتَاتٍ﴾ فأباح الأخذ منها بتراضيهما من غير سلطان. أحكام القرآن ٩٤/٢.

لقوله ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيمَا أَفْنَدْتِ بِهِ﴾^(١).

- استدل عبد الله بن عباس بسياق الآيات على أن الخلع فسخ وليس بطلاق؛ فقد سأله إبراهيم سألت إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص عن رجل طلق امرأته تطليقتين، ثم اختلعت منه. أينكحها؟ فقال: نعم، ذكر الله الطلاق في أول الآية وآخرها، والخلع بين ذلك، فلا بأس به^(٢). لكن جمهور العلماء على أن الخلع طلاق لا فسخ؛ فلو نوى به الطلاق وقع، واعتدت المرأة كالملقة ثلاث حيضات. وهذا القول عليه - كما قال الترمذي - : أكثر أهل العلم من أصحاب النبي وغيرهم^(٣).

- أجمع العلماء على أن الرجل إذا طلق زوجته المطلقة الثالثة أنها لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره.
- واتفق جمهور العلماء على أن مجرد العقد لا يكفي في تحليل الزوجة للأول؛ بل لا بد من الوطاء، قال الرازي: "مذهب جمهور المجتهدين أن المطلقة بالثلاث لا تحل لذلك الزوج إلا بخمس شرائط : تعتد منه، وتعتد للثاني، ويطؤها، ثم يطلقها، ثم تعتد منه. وقال سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب : تحل بمجرد العقد، واختلف العلماء في أن شرط الوطاء بالسنة، أو بالكتاب، قال أبو مسلم الأصفهاني : الأمران معلومان بالكتاب وهذا هو المختار"^(٤).

- استدل جمهور الفقهاء من الحنفية والشافعية وغيرهم بعموم قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا

(١) الأم للشافعي ١١٣/٥، قال في المغني: وهذا قول أكثر أهل العلم. روي ذلك عن عثمان وابن عمر وابن عباس وعكرمة ومجاهد وقيصة بن ذؤيب والنخعي ومالك والشافعي وأصحاب الرأي. ويروى عن ابن عباس وابن عمر أنها قالا: لو اختلعت امرأة من زوجها بميراثها، وعقاص رأسها كان ذلك جائزاً. المغني لابن قدامة ٧/٢٤٧.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٦/٤٨٧ برقم/ ١١٧٧١ وسعيد بن منصور في سننه ١/٣٨٤ برقم/ ١٤٥٥.

(٣) سنن الترمذي ٣/٤٩١.

(٤) التفسير الكبير للرازي ٦/٩٠. وجاء في البحر الرائق ٤/٦٢ أن سعيد بن المسيب رجع عن مذهبه هذا.

غَيْرُهُ ﴿ على أن المسلم إذا طلق زوجته الذمية ثلاثاً ونكحها ذمي ودخل بها، ثم طلقها؛ فيجوز أن ترجع إلى زوجها الأول لعموم لفظ الآية. قال الشافعي: "ولو نكحها الذمي نكاحاً صحيحاً فأصابها كان محلها من جماعه للمسلم ما محلها من جماع زوج مسلم لو نال ذلك منها لأنه زوج" (١).

- واستدلوا أيضاً بعموم الآية على أن النكاح الفاسد لا يبيح للمطلقة ثلاثاً أن ترجع إلى زوجها الأول، قال العلماء: لا تحل المرأة لزوجها الأول إلا بعقد صحيح. قال الشافعي: "ولا محلها إلا زوج صحيح النكاح؛ وأصل معرفة هذا أن ينظر إلى كل زوج إذا انعقد نكاحه لا يفسخ بفساد عقد. وإن انفسخ بعد لمعنى فأصابها فهو محلها وإن كان أصل نكاحه غير ثابت عند العقد فلا تحلها إصابته لأنه غير زوج" (٢).

- قوله تعالى: ﴿ إِنْ ظَنَنْتُمْ أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ﴾ يدل على جواز الاجتهاد في أحكام الحوادث؛ لأنه علق الإباحة بالظن (٣).

- قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ دل على وقوع الرجعة، وإن قصد بها مضارتها، فلو لا ذلك ما كان ظالماً لنفسه؛ إذ لم يثبت حكمها وصارت رجعتة لغواً لا حكم لها (٤).

- لا يجوز اتخاذ آيات الله وأحكامه هزواً؛ فمن طلق هازلاً وقع طلاقه باتفاق؛ قال ابن المنذر: "وأجمعوا على أن جد الطلاق وهزله سواء" (٥). ومستندهم في ذلك قوله ﷺ: (ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: النكاح والطلاق والرجعة) (٦).

(١) الأم للشافعي ٢٤٩/٥. وانظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٧٥/٣٢.

(٢) المرجع السابق.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٩٧/٢.

(٤) أحكام القرآن للجصاص ٩٩/٢. وانظر: الحاوي الكبير للماوردي ٣٠٣/١٠.

(٥) الإجماع لابن المنذر ص ٨٠ رقم/٤٠٦.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم/٢٨٠٠ وصححه على شرطها، وأبوداود في سننه برقم/٢١٩٤،

والترمذي في سننه برقم/١١٨٤. قال ابن حجر: حسن. تلخيص الحبير ٢٠٩/٣.

- نهي الأولياء عن منع الزوجات من الزوج إلى أزواجهن طالما تراضيا بعد الطلاق.
- دل قوله تعالى: ﴿ إِذَا تَرَضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ على أنه لا بد في النكاح من رضا الطرفين؛ فيلزم أن ترضى الزوجة بزوجها وإلا لم يصح الزواج، قال رسول الله ﷺ: (لا تنكح البكر حتى تستأذن ولا الثيب حتى تستأمر)^(١). قال العيني: " هذا لفظ عام يتناول البكر والثيب والمطلقة والمتوفى عنها زوجها ويجب العمل بعموم العام وأنه يوجب الحكم فيما يتناوله قطعاً"^(٢).
- دل قوله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ على أن الرضاعة المعتبرة في تحريم المصاهرة هي ما كان في الحولين. قال مالك: الرضاعة قليلها وكثيرها إذا كان في الحولين تحرم. فأما ما كان بعد الحولين فإن قليله وكثيره لا يحرم شيئاً وإنما هو بمنزلة الطعام"^(٣).
- ومما يدل على هذا قوله ﷺ: (إنها الرضاعة من المجاعة)^(٤)، والمعنى كما قال العيني: "أي الجوع يعني الرضاعة التي تثبت بها الحرمة ما تكون في الصغر حين يكون الرضيع طفلاً يسد اللبن جوعته لأن معدته ضعيفة يكفيها اللبن وينبت لحمه بذلك فيصير كجزء من المرصعة فيكون كسائر أولادها"^(٥).
- دل قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الْوَالِدِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ ﴾ على وجوب نفقة الولد على أبيه، قال ابن تيمية: " وهذه الآية توجب رزق المرتضع على أبيه لقوله: ﴿ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَارْتَأُونَهُنَّ أَجُورَهُنَّ ﴾ [الطلاق/ ٦] فأوجب نفقته حملاً ورضيعاً بواسطة الإنفاق على الحامل والمرضع؛ فإنه لا يمكن رزقه بدون رزق حامله ومرضعه. فسئلت

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٦٥٦٧ عن أبي هريرة.

(٢) عمدة القاري بشرح صحيح البخاري للبدر العيني ١١٦/٢٠.

(٣) الموطأ للإمام مالك ٦٠٤/٢ كتاب: الرضاع باب: رضاع الصغير.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٥٠٤ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٤٥٥ عن عائشة.

(٥) عمدة القاري بشرح صحيح البخاري للبدر العيني ٩٧/٢٠.

فأين نفقة الولد على أبيه بعد فطامه؟ فقلت: دل عليه النص تنبيهاً. فإنه إذا كان في حال اختفائه وارتضاعه أو جب نفقة من تحمله وترضعه إذ لا يمكن الإنفاق عليه إلا بذلك، فالإنفاق عليه بعد فصاله إذا كان يباشر الارتراق بنفسه أولى وأحرى وهذا من حسن الاستدلال^(١).

- وفي الآية أيضاً دليل على أن حضانة الطفل لأمه، وهو قول جمهور أهل العلم^(٢)، ويشهد له ما ورد أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن ابني هذا؛ كان بطني له وعاء وئدي له سقاء وحجري له حواء وإن أباه طلقني وأراد أن يتزعه مني. فقال لها رسول الله ﷺ: أنت أحق به ما لم تنكحي^(٣).

- استدل الحنابلة بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ على أن النفقة تجب على كل وارث لمورثه، وقال الأحناف تجب النفقة على كل ذي رحم محرم، وقال الباكون: لا نفقة إلا على المولودين والوالدين^(٤).

- استدل بقوله تعالى ﴿ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ﴾ على وجوب الإنفاق على الجد والجدة وإن علوا، وهو مذهب الجمهور خلافاً للمالك^(٥).

- دل قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ نَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ على جواز استئجار الظئر (المرضعة) لإرضاع الولد. قال ابن المنذر: "وأجمعوا على أن استئجار الظئر جائز"^(٦).

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠٦/٣٤.

(٢) انظر: شرح فتح القدير للكمال بن الهمام ٤/٣٧٥، المهذب للشيرازي ٢/١٦٩، الكافي لابن عبد البر ٢٩٦، المغني لابن قدامة ٨/١٩٠.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم/ ٢٨٣٠ وصححه على شرطهما، وأبو داود في سننه برقم/ ٢٢٧٦، وأحمد في مسنده ٢/١٨٢ عن عبد الله بن عمرو. قال الهيثمي: رجاله ثقات. مجمع الزوائد ٤/٣٢٣.

(٤) انظر: شرح فتح القدير للكمال بن الهمام ٤/٤١٩، نيل الأوطار للشوكاني ٧/١٢٩.

(٥) انظر: الأم للشافعي ٥/١٠٠، المغني لابن قدامة ٨/١٦٩.

(٦) الإجماع لابن المنذر ص ١٠١ برقم/ ٥٤٩.

- عدة الحامل المتوفي عنها زوجها وضع الحمل، وهذا قول جمهور العلماء؛ وذلك لعموم قوله تعالى: ﴿ وَأَوْلَتْ الْأَحْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق/ ٤] ولحديث سبيعة الأسلمية^(١).

- دل قوله تعالى: ﴿ يَرْبِّضَنَّ ﴾ على أن المعتدة من وفاة لا تبيت في غير منزل الزوجية، وقد قال النبي للفريرة بنت مالك وكان زوجها قد قتل: (امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله). قالت: فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشراً^(٢).

قال ابن قدامة: "ومن أوجب على المتوفي عنها زوجها الاعتداد في منزلها: عمر، وعثمان رضي الله عنهما، وروي ذلك عن ابن عمر، وابن مسعود، وأم سلمة، وبه يقول مالك، والثوري، والأوزاعي، وأبو حنيفة، والشافعي، وإسحاق"^(٣).

- الإحداد واجب على من توفي عنها زوجها، ولم يرد له ذكر صريح في كتاب الله، لكن منع التعريض بالزواج يشير إليه، وقد ورد الأمر به في السنة النبوية، واتفق عليه جمهور أهل العلم. قال ابن قدامة: "ولا نعلم بين أهل العلم خلافاً في وجوبه على المتوفي عنها زوجها، إلا عن الحسن، فإنه قال: لا يجب الإحداد. وهو قول شذبه عن أهل العلم وخالف به السنة، فلا يعرج عليه"^(٤).

- قال القرطبي: "أجمع العلماء على أن من طلق زوجته طلاقاً يملك رجعتها، ثم توفي قبل انقضاء العدة أن عليها عدة الوفاة، وترثه"^(٥).

(١) انظر: صفحة رقم: (٢٩) من هذا البحث.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم/ ٢٨٣٣، وابن حبان في صحيحه برقم/ ٤٢٩٢، والنسائي في الكبرى برقم/ ١١٠٤٤، وأبو داود في سننه برقم/ ٢٣٠٠، والترمذي في سنه برقم/ ١٢٠٤. وسنده صحيح. نصب الرأية للزيلعي ٣/ ٢٦٣.

(٣) المغني لابن قدامة ٨/ ١٢٧.

(٤) المغني لابن قدامة ٨/ ١٢٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/ ١٣٧.

- دل مفهوم قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ على أن للأولياء منع النساء من التبرج والنظر للأزواج في وقت العدة.
- قال تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ ﴾ قال ابن التين: "تضمنت الآية أربعة أحكام: اثنان مباحان: التعريض والإكنان، واثنان ممنوعان: النكاح في العدة، والمواعدة فيها"^(١). فدللت الآية على إباحة التعريض بخطبة المعتدة من وفاة، والتعريض معنى يؤخذ من عرض الكلام، أي بطريق غير مباشر. ومن أمثلة ذلك ما علقه البخاري في صحيحه قال: "عن ابن عباس ﴿ فِي مَا عَرَّضْتُمْ ﴾ يقول: إني أريد التزويج، ولوددت أنه تيسر لي امرأة صالحة. وقال القاسم: يقول: إنك علي كريمة، وإني فيك لراغب، وإن الله لسائق إليك خيراً، أو نحو هذا. وقال عطاء: يعرض ولا يبوح يقول: إن لي حاجة وأبشري، وأنت بحمد الله نافقة. وتقول هي: قد أسمع ما تقول. ولا تعد شيئاً ولا يواعد وليها بغير علمها"^(٢).

ودلت الآية بمفهومها على حرمة التصريح بالخطبة؛ لأن التعريض خلاف التصريح من القول كما في كتب أهل اللغة^(٣).

- استدل جماعة من الفقهاء بآية إباحة التعريض للمعتدة على عدم إقامة حد القذف بالتعريض، وهو قول الحنفية والشافعية والحنابلة في رواية والظاهرية وقال به سفيان وابن شبرمة وغيرهم، وخالف في ذلك المالكية^(٤).

- اتفق العلماء على أن النكاح في العدة لا يجوز بحال. فلو عقد على المعتدة فسخ الحاكم العقد، وقال

(١) فتح الباري لابن حجر ١٧٩/٩.

(٢) صحيح البخاري باب: ولا جناح عليكم فيما عرضتم به.

(٣) انظر: المصباح المنير للفيومي ٤٠٣/٢.

(٤) شرح فتح القدير للكمال بن الهمام ٣١٧/٥، والحاوي الكبير للماوردي ١١/١٣٠، والمغني لابن قدامة

٨١/٩، والمحلى لابن حزم ٢٧٩/١١.

مالك لا تحل له أبداً. معاملة له بتقيض مقصوده. لكن الجمهور على خلافه^(١).

- قال ابن رشد: " وأجمعوا على أن نكاح التفويض جائز، وهو أن يعقد النكاح دون صداق لقوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾" ^(٢).

- أقسام المطلقات أربعة :

أحدها: المطلقة المفروض لها المدخول بها، وقد ذكر الله فيما تقدم حكم هذا القسم وهو أنه لا يؤخذ منهن على الفراق شيء على سبيل الظلم وأن عدتهن ثلاثة قروء.

والقسم الثاني: ما لا يكون مفروضاً لها ولا مدخولاً بها وقد ذكره الله تعالى في قوله ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ ، وذكر أنه ليس لها مهر، وأن لها المتعة بالمعروف.

والقسم الثالث: التي يكون مفروضاً لها، ولكن لا يكون مدخولاً بها وهي المذكورة في قوله تعالى ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [٢٣٧] ولا عدة عليها البتة؛ قال تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩].

القسم الرابع: التي تكون مدخولاً بها، ولكن لا يكون مفروضاً لها، وحكم هذا القسم مذكور في قوله: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤]^(٣).

- المهر حق خالص للمرأة لا يشاركها فيه أخ أو أب أو غيرها.

- الظاهر وجوب المتعة لمن طلقت قبل الدخول ولم يكن فرض لها مهر. لقوله تعالى: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ والأمر يقتضي الوجوب.

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد ٣٦/٢.

(٢) بداية المجتهد لابن رشد ١٩/٢.

(٣) التفسير الكبير للرازي ١١٥/٦ بتصرف واختصار.

- لا حد للمتعة، وإنما ترتبط بحال الزوج إيساراً ويساراً؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَىٰ الْمُسَبِّحِ قَدَرُهُ وَعَلَىٰ الْمَقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ ﴾.

- إذا تزوج الرجل امرأة ولم يمسه لكنه خلا بها ولم يطلقها فعند جمهور العلماء من الحنفية والحنابلة وغيرهم أن لها المهر كاملاً؛ لما روى زرارة بن أوفى: "قضى الخلفاء الراشدون المهديون: أنه من أغلق باباً، وأرخصى سترأ، فقد وجب عليه المهر"^(١). وهذه قضايا اشتهرت ولم يخالفهم أحد في عصرهم فكان كالإجماع^(٢). وذهب الشافعي إلى وجوب نصف المهر اتباعاً لظاهر الآية^(٣).

- دل قوله: ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ على تحريم الكلام عمداً في الصلاة؛ فمن فعل ذلك ذاكراً عالماً بطلت صلاته؛ ويشهد لذلك ما ورد عن زيد بن أرقم قال: "كنا نتكلم في الصلاة يكلم الرجل صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت: ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام"^(٤). قال النووي في شرحه للحديث: "وأجمع العلماء على أن الكلام فيها عامداً عالماً بتحريمه بغير مصلحتها وبغير إنقاذها وشبهه مبطل للصلاة. وأما الكلام لمصلحتها فقال الشافعي ومالك وأبو حنيفة وأحمد رضي الله عنهم والجمهور: يبطل الصلاة، وجوزه الأوزاعي وبعض أصحاب مالك وطائفة قليلة"^(٥).

- دل قوله تعالى: ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ على فرضية القيام في صلاة الفريضة ما دام المرء صحيحاً قادراً، وقال النبي ﷺ لعمران بن حصين: (صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً)^(٦).

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٦/ ٢٨٩ برقم/ ١٠٨٧٥ والبيهقي في الكبرى برقم/ ١٤٢٦١ وقال:

هذا مرسل؛ زرارة لم يدركهم، وقد روينا عن عمر وعلي رضي الله عنهما موصولاً. السنن ٧/ ٢٥٥.

(٢) شرح منتهى الإرادات للبهوتي ٣/ ٢١.

(٣) الأم للشافعي ٧/ ٢٠.

(٤) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١١٢٤ ومسلم في صحيحه واللفظ له برقم/ ٥٣٩.

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم ٥/ ٢٧.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ١٠٦٦.

- دل قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ على أنه لا يجوز لمسلم تأخير الصلاة عن وقتها. ومن باب أولى لا تسقط الصلاة عن مسلم إلا إن عجز عجزاً تاماً عن أدائها بأي عضو من أعضاء جسده.

- قوله تعالى ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ دليل على مشروعية صلاة الخوف؛ قال ابن عمر في وصف صلاة الخوف: "...فإن كان خوف هو أشد من ذلك صلوا رجالاً، قياماً على أقدامهم، أو ركباناً مستقبلي القبلة أو غير مستقبلها. قال نافع: لا أرى عبد الله بن عمر ذكر ذلك إلا عن رسول الله ﷺ^(١). وتفاصيل صلاة الخوف وهيئاتها مبسوط في كتب الفقه وشروح الحديث.

- للمرأة أن تعتد في بيت زوجها وتقيم سنة، وهذا حقها، وإلا فالواجب عليها أربعة أشهر وعشرة أيام عدة.

ثالثاً: الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- دل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَعْجَبْتُمْ ﴾ على أن الإعجاب بالكافر من حيث علمه الدنيوي أو تفوقه في عمله ومهنته لا بأس به.

- قوله: ﴿ هُوَ أَذَى فَأَعْتَرِلُوا النِّسَاءَ ﴾، و﴿ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾، و﴿ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْي شِئْتُمْ ﴾ من الكنايات اللطيفة والتعريضات المستحسنة. وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة على المؤمنين أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكلموا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم^(٢).

- من الأخلاق الإسلامية التي أبرزتها الآيات: الإصلاح بين الناس، قال تعالى ﴿ أَنْ تَبْرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ والإصلاح بين الناس داخل في البر، لكن أفرد بالذكر لبيان أهميته.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه واللفظ له برقم/ ٤٢٦١. ومسلم في صحيحه برقم/ ٨٣٩

(٢) الكشاف للزمخشري ١/ ٢٩٤.

- نهي الإسلام عن الإضرار؛ فنهى الزوجة أن تكتنم ما في رحمها لأن في ذلك مضارة للزوج. فإن ادعت أنها حائض ولم تحض فوتت حقه في الرجعة، وإن ادعت العكس ألزمتها النفقة وهي لا تستحقها، وكذلك لو كتمت الحمل، فنهى القرآن على تحريم الكتمان لأنه يؤدي إلى الإضرار.
- للمرأة على الرجل حقوق، كما أن للرجل على المرأة حقوقاً. فالعدالة واحترام كل طرف للآخر أساس العشرة واستمرار الحياة، والدرجة التي للرجال حصص لهم على حسن العشرة والتوسع للنساء في المال والخلق كما سبق عن ابن عباس.
- دل قوله تعالى: ﴿فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ﴾ على أن العشرة الزوجية قائمة على ما تعارف عليه الناس، وأقره الشرع من النفقة والكسوة والمعاملة الحسنة، وليس المعروف في الإمساك فقط وإنما المعروف أيضاً في التراضي بين الزوجين، والعشرة بالمعروف، والتسريح بالمعروف، ولهن وعليهن بالمعروف، والرزق والكسوة بالمعروف. وتأخذ المرأة نفقتها هي وولدها بالمعروف. وبالجملة فأمور الحياة الزوجية قائمة على المعروف الذي يعرفه كافة العقلاء ويقره الشرع.
- نذب الإسلام إلى العفو، أي إسقاط الحق، وذلك عند الطلاق بين الرجل والمرأة قبل الدخول، وجعل الله العفو أقرب للتقوى، وجاء العفو للطرفين، فالمرأة لها أن تعفو وتترك كامل المهر، والرجل له أن يعفو عن نصفه ويترك المهر كاملاً، وجاء لفظ ﴿الَّذِي يَبْدِيهِ عُقْدَةُ التِّكَاخِ﴾ مجملاً، يعني غير واضح الدلالة، ويتردد بين معنيين^(١)، وذلك لكي يحرص كل من الطرفين على العفو، حتى مع انتهاء رابطة الزوجية، وجعل هذا من الفضل وأمر به في صيغة تتوجه للآتين معاً فقال: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ ولذلك قال مجاهد في تفسيرها: "إتمام الزوج الصداق، أو ترك المرأة الشطر"^(٢). فحملها على الآتين معاً، وهذا يبين أن الإحسان والفضل منهج إسلامي حتى مع الفراق.

(١) وهذه الآية يذكرها الأصوليون دليلاً على المجمل المركب. انظر: البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي ٤٧/٣، والإحكام للآمدى ١٣/٣.

(٢) رواه عنه الطبري برقم/ ٥٣٦٥ وسنده صحيح.

رابعاً: الجوانب التربوية:

- يبين الله آياته للناس لكي يتذكروا، وآيات الله إما كونية مشاهدة، وإما شرعية مقروءة، وفي كليهما تذكرة للناس لمن آمن منهم وأعمل فكره واهتدى قلبه.
- محبة الله للتوابين مما يدفع العبد إلى المبادرة إلى التوبة؛ لأنه الجاني الظالم المعتدي، فيكفي بالتوبة أن يقبله ربه، لكن الكريم يحبه إذا رجع عن ذنبه!
- دل قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَمْتَدُّوَهَا ﴾ على أن أحكام الله يجب على المسلم امتثالها، وأن عليه ألا يتعدى المأمور وألا يقرب المحذور، فإن تعدى حدود الله كان من الظالمين.
- دل قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ على أن العلم أمر ضروري لمعرفة حدود الله؛ فالعالم يعرف حدود يفهمها ويسعى في تطبيقها، أما الجاهل فإنه لا يضبط ولا يحفظ فيكون ذلك أدعى إلى الترك.
- من الأمور الخطيرة: اتخاذ آيات الله هزواً. والنهي عن ذلك عام لا يختص بأمور الطلاق وحسب، قال أبو جعفر النحاس: "لأنه يقال لمن سخر من آيات الله: اتخذوها هزواً ويقال ذلك لمن كفر بها، ويقال ذلك لمن أطرحتها ولم يأخذ بها وعمل بغيرها"^(١).
- ما أنزله الله في كتابه إنها هو لوعظ العباد وتذكيرهم بما يجب عليهم، وآيات الأحكام موعظة للمؤمنين؛ يتعظون بما فيها فيستجيبون لأمر الله، قال تعالى ﴿ وَأذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾.
- في اقتران التقوى بأمور الطلاق حكمة بالغة؛ ذلك أن النفوس تكون لينة سخية، فإذا حدث الطلاق أحضرت الأنفس الشح، وضمن كل امرئ بما عنده، وأنكر الرجل حق زوجته، وكفرت المرأة بعشرة زوجها، ولن يصلح اعوجاج النفوس إلا الاستقامة على منهج الله، وتقواه حق تقاه.

(١) معاني القرآن للنحاس ١/ ٢١١.

- لا ينتفع بأحكام الله ولا بوعده ووعيده إلا من أصلح قلبه، ولا يكون ذلك إلا بالإيمان بالله واليوم الآخر.
- أحكام الله كلها أزكى وأطهر.
- يعلمنا القرآن أن نتشاور في كل أمورنا؛ فالتشاور بين الزوجين شرط لحصول الفطام، والتشاور كذلك يكون في كبار الأمور وصغارها. ولأهمية الشورى سميت سورة في القرآن بهذا الاسم، وقرنها الله بالصلاة والإنفاق فقال: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى/ ٣٨] وهذا أوضح دليل على أهميتها سواء في الأسرة التي هي المجتمع الصغير، أو في المجتمع الكبير في أموره العامة. وسيرة الرسول ﷺ خير مثال لتطبيق مبدأ الشورى في كل الأمور.

- المحافظة على الصلوات مما يعين المرء على تلقي أحكام الله بالقبول والتسليم.

- الإسلام دين لا يثقل على أهله، فإذا حدث لأحدهم عذر لا يستطيع معه أداء الصلاة كما يجب فله أن يصلحها بأي كيفية تيسر له.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

- تمضي السورة في محورها الثاني مرتبة المعالم التي يتكون بها الإصلاح وينتفي بها الإفساد. وقد تحدثت المقاطع السابقة في هذا المحور عن الدائرة الأولى للإصلاح وهي دائرة الفرد، واستفاضت في بيان ما يصلح المرء ويجعله من أهل التقوى، وذلك بالصيام والامتنال، وها قد جاء مجال التقوى ليظهر أثرها في العلاقات الإنسانية، وأي علاقة أسمى من علاقة الزوجية؟
- وبعد دائرة الإصلاح الفردي جاءت دائرة إصلاح الأسرة التي تمثل المجتمع الصغير، والأسرة في الإسلام تمثل ركيزة أساسية للإصلاح والإصلاح، وقد اهتم القرآن بشأن الأسرة اهتماماً بالغاً، وأعلى من قدرها، وها هي سورة التشريعات والأحكام التي نزلت في بداية تكوين الدولة في المدينة تهتم بتفاصيل إقامة الأسرة وتضع الضوابط الصارمة لإصلاح البيوت.

وقد ذكر في المقطع السابق حفظ العقل بالبعد عن الخمر، وفي المقطع الذي قبله حفظ الدين بالعبادات، وجاء هذا المقطع ليتحدث عن حفظ النسل.

وابتدأت الآيات ببيان أمور الزوجية، وأولها اختيار الزوجة؛ فلا بد أن تكون مؤمنة، ثم انتقل إلى الخطوة التي تليها وهي ما يحدث بعد الزواج من أمور المعاشرة، وما يحل منها وما يحرم وقرنت ذلك بتقوى الله والتذكير ببقائه.

ثم تحدثت الآيات عن الأيمان وأخذت من ذلك مدخلاً إلى الحديث عن يمين الإيلاء ثم تفصيل أحوال الطلاق والعدة والرجعة والرضاع ثم اختتمت بأحكام المتوفي عنها زوجها فهي نهاية الأمر.

وكل هذه الأحكام موصولة بتقوى الله من أولها لآخرها، وتهدف إلى الإصلاح وتشرطه لعودة الحياة بين الزوجين، وهذا مرتبط بخطب السورة العام الذي يهدف لإصلاح الدنيا بالمسلمين.

والمتدبر في آيات هذا المقطع يلحظ أمراً عجيباً؛ فكل فواصله تقريباً إما أن تكون وصفاً للعلي الحكيم باسمين من أسماؤه؛ فهو العزيز الحكيم، السميع العليم، الغفور الرحيم، الغفور الخليم، الخبير، البصير.. أو تكون وصفاً وتذكيراً للمؤمنين بمعاني التقوى والإيمان الإحسان والتذكر والتفكير والتطهر والعلم والإحسان والقنوت. وهذا يعني ارتباط الأحكام بالإيمان وارتباط التشريع بالعقيدة ارتباطاً محكماً لا ينفصم بحال^(١).

(١) ذهب بعض العلماء المعاصرين إلى أن محوري سورة البقرة هما العقيدة والشريعة، والقسم الأول من آية ٢١-١٦٧ والقسم الثاني ١٦٨-٢٨٣، ثم قال: فكانت الدعوة إلى الجانب الأول للناس كافة في مستهل آيات القسم الأول العقدي. وكانت الدعوة إلى الجانب الآخر للناس كافة في مستهل آيات القسم الثاني التشريعي.

ثم توالى التشريعات؛ ليحقق الأمن من طيب المطعم وأحكام الصيام والجهاد والحج والإنفاق والقتال في الأشهر الحرم والخمر والميسر وأحكام الأسرة وأحكام المعاملات المالية من صدقة وربا وقرض ورهن أفختم آيات هذا القسم بأطول آية: (آية المداينة) آفة الرهن؛ مؤكداً الدعوة إلى الأمانة والقيام بحق الشهادة. منهج البحث البياني عن المعنى القرآني للدكتور محمود توفيق سعد ص ١٣٧ وما بعدها.

المقطع الرابع: قصص الإحياء والإماتة الحسية والمعنوية والعبرة منها

(الآيات ٢٤٣-٢٦٠)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّكَ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيضْعِفُهُ لَهُ أضعافًا كثيرةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ جَاءُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَدْرِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَهُمْ أبعثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِمْ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ النَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَيَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّكَ اللَّهُ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةً غَلَبَتْ فِتْنَةَ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أقدَامُنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ

الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ
 وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَكَلُ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ
 مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلُوا
 وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ
 وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٣﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ
 وَلَا نَوْمٌ ۗ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا
 خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۗ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا
 وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٤﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۗ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۗ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ
 بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٥﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ
 مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ
 أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ
 اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُمَيْتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي ۖ وَأُمِيتُ ۗ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي
 بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٧﴾ أَوْ
 كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ
 ثُمَّ بَعَثَهُ ۗ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۗ قَالَ بَل لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ
 وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۗ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ ۗ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ
 كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لِحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
 ﴿٢٥٨﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَمْ تُؤْمِنُ ۗ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۗ قَالَ
 فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا
 وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٥٩﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

- بعد أن استفاضت الآيات في الحديث عن إصلاح المجتمع الصغير انتقلت الآيات إلى الحديث عن إصلاح المجتمع الأكبر، وإصلاح الدنيا، بالترغيب في الجهاد بالنفس والمال، وجاء المقطع بأسلوب قصصي في مجمله وجاء هذا القصص بعد آيات الأحكام تلويها في الخطاب وتنوعاً في الأسلوب القرآني؛ وفي هذا من تجديد نشاط القارئ والسماع ما فيه.

قال الرازي: «اعلم أن عادته تعالى في القرآن أن يذكر بعد بيان الأحكام القصص ليفيد الاعتبار للسامع، ويحمّله ذلك الاعتبار على ترك التمرد والعناد، ومزيد الخضوع والانقياد فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾»^(١).

التفسير الإجمالي للمقطع:

ذكر الله قصة موجزة تكون مقدمة بين يدي الأمر بالجهاد والإنفاق لتبين للناس أن الله تعالى هو المحيي المميت فلا يجبن إنسان أو يخاف.

وتبدأ القصة بهذا الاستفهام الذي يفيد معنى التعجب والتقدير، والرؤية بمعنى العلم، والمعنى: ألم ينته إلى علم السامع أو الرسول ﷺ حال أولئك القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف مؤلفة وما خرجوا إلا خوفاً من الموت الذي سيلاقيهم، ولهذا كان عاقبة أمرهم أن قال لهم الله موتوا فماتوا ثم أحياهم.

ولم يرد دليل صحيح يبين لنا حال هؤلاء القوم، ولا سبب خروجهم لكن الظاهر أنهم كانوا أكثر من عشرة آلاف، وأنهم فروا خوفاً من قتال الأعداء لهم، وللمفسرين أقوال عديدة في وصف هؤلاء القوم وعددهم قال ابن عطية - بعد أن ذكر بعضاً من هذه الأقوال -: " وهذا القصص كله لين الأسانيد؛ وإنما اللازم من الآية أن الله تعالى أخبر نبيه محمداً أخباراً في عبارة التنبيه والتوقيف عن قوم من البشر خرجوا من ديارهم فراراً من الموت فأماتهم الله تعالى ثم

(١) انظر مفاتيح الغيب للرازي ج ٦، ص ١٦١.

أحياءهم ليرواهم وكل من خلف بعدهم أن الإمامة إنما هي بيد الله لا بيد غيره، فلا معنى لخوف خائف ولا غترار مغتر" (١).

وجمهور المفسرين على أن الموت هنا على حقيقته، وذكر أبو حيان قولاً آخر فقال: « وقيل: معنى إمامتهم تذليلهم تذليلاً يجري مجرى الموت، فلم تغن عن كثرتهم وتظاهروهم من الله شيئاً، ثم أعانهم وخلصهم ليعرفوا قدرة الله في أنه يذل من يشاء ويعز من يشاء» (٢) واعتمد هذا القول في تفسير المنار فقال: « فمعنى موت أولئك القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم، وأزال استقلالهم، حتى صارت لا تعد أمة، بأن تفرق شملها، وذهبت جامعتها، فكان من بقي من أفرادها خاضعين للغالبيين ضائعين فيهم، مدغمين في غمارهم، لا وجود لهم في أنفسهم وإنما وجودهم تابع لوجود غيرهم، ومعنى حياتهم هو عود الاستقلال إليهم» (٣).

وعلى هذا القول يحتل أن تكون هذه القصة إجمالاً للقصة التي أتت بعدها، كما جاء في قصة أهل الكهف؛ حيث أجملت قصة أهل الكهف في الآيات (٩-١١) من سورة الكهف، ثم جاء تفصيل القصة في الآيات (١٢-٢١).

والقول بأن القصتين في حادثة واحدة قد سبق به عبد الله بن عباس؛ حيث روى عنه الطبري قوله ﴿ حَدَرَ الْمَوْتِ ﴾، فراراً من عدوهم، حتى ذاقوا الموت الذي فروا منه. فأمرهم فرجعوا، وأمرهم أن يقاتلوا في سبيل الله، وهم الذين قالوا لنبیهم ﴿ أَبْعَثْ لَنَا مَلَكًا نُقَلِّبَ فِي سَكِينِ اللَّهِ ﴾ (٤).

ثم ختمت الآية ببيان أن الله تعالى صاحب فضل كبير على الناس جميعاً ولكن أكثرهم لا

(١) لتفسير الكبير للرازي ٦/ ١٣٧. والظاهر عدم اطراد هذه القاعدة؛ فقد جاءت آيات الأحكام في سورة النساء ولم تأت بعدها قصص.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٣٢٨.

(٣) البحر المحیط لأبي حيان ٢/ ٢٦٠.

(٤) تفسير القرآن الحكيم لرشيد رضا ٢/ ٤٥٨.

يشكرون هذه النعم.

ثم وجه الله الخطاب للمؤمنين أن يقاتلوا في دين الله لا في طاعة الشيطان ولا يكونوا كالذين فروا من الموت فلم ينجهم فرارهم منه، وليعلموا أن الله سميع لأقوال الجبناء الذين يخافون من القتال عليهم بما جنته صدورهم من النفاق وقلة الشكر.

ولارتباط الجهاد بالإنفاق جاء الأمر بالإنفاق بعد الأمر بالجهاد، قال السعدي: «ولما كان القتال في سبيل الله لا يتم إلا بالنفقة وبذل الأموال في ذلك، أمر تعالى بالإنفاق في سبيله ورغب فيه، وسماه قرصاً»^(١). وجاءت الآية بأسلوب الاستفهام الذي يفيد الحض على الفعل؛ فمن هذا المؤمن القوي في دينه الذي يبذل ماله للجهاد في سبيل الله ولغيره من أبواب البر، فيضاعفه الله له أضعافاً مضاعفة؟

قال القرطبي: «واستدعاء القرص في هذه الآية إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه، والله هو الغني الحميد، ولكنه تعالى شبه عطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو ثوابه في الآخرة بالقرص كما شبه إعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء»^(٢). والقرص الحسن هو المال الحلال الذي تصحبه النية الصادقة، والله سبحانه وتعالى بيده الإعطاء والمنع يضيق على ما يشاء ويوسع على من يشاء حسبما تقتضي الحكمة والمصلحة فلينفق المرء حتى لا ينقطع عنه عطاء ربه، والكل راجع إليه سبحانه.

ثم جاءت قصة طالوت وجالوت بعد الأمر بالقتال، لتبين نموذجاً عملياً لمن أخرجوا من ديارهم وكتب عليهم القتال وذلك لينفع به المسلمون الأوائل، ومن أتى بعدهم.

وتبدأ الآيات بنفس صيغة الاستفهام المنفي لتبين لكل من يتأتى له الخطاب حال هؤلاء الملائ من الأشراف والزعماء الذين يملؤون الأعين مهابة وجلالاً، وقد كانوا من بني إسرائيل

(١) جامع البيان للطبري برقم/ ٥٦١٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن سعدي / ١٠٦

وهذا تذكير لهم بأصل طيب لم يقدره قدره، وقد كان هؤلاء القوم بعد موسى عليه السلام بزم من طويل، بعد أن استقروا في فلسطين ومر عليهم عهد القضاة، ثم جاء ما يعرف في التاريخ بعصر الملوك، وقد ابتدأ من حوالي (١٠٢٠) قبل الميلاد^(١).

ونبيهم: شمويل على الراجح، ولم يذكر القرآن اسمه لعدم وجود فائدة في ذكره، فيكفي أنه نبي ليطيعوه ولا يخالفوه. وقد توجه هؤلاء القوم إلى النبي قائلين: عيّن لنا ملكاً نقاتل من ورائه، قتالاً في سبيل الله وابتغاء مرضاته!

وكان هذا النبي الكريم يتوقع ما يكون منهم بعد ذلك، فقال مستفهماً: هل قاربتم إن كتب عليكم القتال ووجب أن لا تقتلوا عدوكم كما هو المظنون منكم؟ والاستفهام تقرير، يقرر أن المتوقع حاصل، وذلك معلوم من سيرتهم مع أسلافه من الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه.

فرد القوم عليه مؤكدين عزمهم على القتال وحرصهم على البذل فقالوا: وأي شيء يحول بيننا وبين القتال؟^(٢) وكرروا نفس الجملة السابقة: ﴿نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لزيادة التقرير، وليبين أنهم خرجوا في سبيل الله.

ثم بينوا علة حرصهم على القتال واستماتتهم في طلبه وهو أنهم قد أخرجوا من ديارهم التي نشؤوا ودرجوا فيها. وتركوا فلذات أكبادهم نهباً للمحتلين الذين استلبوا ديارهم واستباحوا بيضتهم.

ويحدثنا التاريخ أن العمالقة في هذا الوقت قد استولوا على بيت المقدس وطردوهم منها، وأسروا كثيراً منهم، وعلى هذا يكون قولهم ﴿وَقَدْ أَخْرَجْنَا﴾ من باب العام الذين أريد به الخصوص.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/٢٢٣.

(٢) انظر: تاريخ ابن خلدون ٢/١٠١، والجواهر الحسان للثعالبي ١/١٩١، وموضع الآية في غالب كتب التفسير.

وبعد أن طلبوا القتال نكصوا وتولوا إلا قليلاً منهم، بعد أن رأوا الجيوش الجرارة ولم يثبت إلا القليل ويحتمل أن يكونوا قد تولوا من بداية الأمر بمجرد أن نزل التكليف، والله تعالى عليم بمن ظلم نفسه وأمته بترك الجهاد، وينقض العهد بعد الإبرام مع الله.

أرسل الله تعالى إليهم ملكاً إما بطلب ودعاء من النبي أو بمحض تفضل وابتلاء إلهي، وأبلغهم النبي بهذا قائلاً: إن الله أرسل لكم طالوت ليقودكم إلى القتال في سبيله. وفي هذا حمل لهم على الامتثال ببيان أن الله تعالى هو الذي كلف طالوت بذلك.

ولكن سرعان ما انكشفت سرائرهم فبادروا معترضين متعجبين: كيف يتولى الملك ونحن أولى به وأجدر، وبخاصة أنه لا مال له؟!

قال المفسرون: كانت النبوة في سبط لاوي، والمملك في سبط يهودا، وكان طالوت من سبط بنيامين، فليس من بيت الملك ولا النبوة.

ولكن النبي رد عليهم دعواهم بعدة أمور:-

أولها: أن الله جعله من الصفوة عليكم وهو سبحانه أعلم بما يصلحكم.

والأمر الثاني: أنه تعالى أعطاه وفوراً في العلم، قال الزمخشري: «والظاهر أن المراد بالعلم المعرفة بما طلبوه لأجله من أمر الحرب»^(١) وذلك لكي يستطيع تدبير أمور الحرب وإحكامها، ووهبه أيضاً قوة بدنية تيسر له مكابدة الأعداء والثبات عند الشدة، وقدم العلم على قوة البدن لأن أثره أعظم.

وثالثاً: ليس لاعتراضكم أي وجه، فهذا محض فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده؛ فهو له الحجة البالغة والحكمة النافذة.

ورابعاً: أنه تعالى ذو السعة يبسط على من يشاء من عباده، وهو عليم بالذي يصلح شؤونهم.

(١) انظر: الدر المنثور ١/٧٥١.

ولأنهم قوم اعتادوا اللجاجة والاعتماد على الحس وعدم التسليم الفوري كما سبق في أكثر من موضع بالسورة فقد طلبوا آية تدلهم على ملك طالوت^(١). فقال لهم نبيهم إن هذه الآية هي أن تأتيكم كرامة لهذا القائد من ثلاثة وجوه:

أولها: أن يأتيكم الصندوق والظاهر أنه كان معروفاً لديهم، وكان عندهم وأخذهم منهم العمالقة وقد ذكرت تفاصيل عودته إليهم بدون قتال في بعض أسفار التوراة^(٢).

وثانياً: أن هذا التابوت فيه أمران: سكينه أي رحمة^(٣) تسكن بها نفوسكم من الاضطراب والقلق. وفيه أيضاً: بعض ما ترك لكم موسى وهارون أو أتباعها وعصبتها ومن ذلك ألواح التوراة، وبعض آثار الأنبياء. قال ابن عطية: «والصحيح أن التابوت كانت فيه أشياء فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم، فكانت النفوس تسكن إلى ذلك وتأنس به وتقوى»^(٤).

ثالثها: أن يأتي هذا التابوت بكيفية غير مألوفة لديكم؛ فإنه سيأتي تحمله الملائكة وهذا تعظيم له. وفي كل هذا علامة لكم على اصطفاء طالوت إن كنتم مؤمنين بما تقوم به الحجة عليكم وإن كنتم على ثقة من وعد الله لكم.

ثم تنقلنا الآيات إلى مشهد خروج القوم مع قائدهم طالوت، وعلى عادة القرآن في الإيجاز وإضمار مما يمكن تقديره ابتدأت الآية بالحديث عن خروجه بالجنود ثقة بأن السامع يعلم أن التابوت أتاهاهم وأذعنوا لملكهم بالقيادة واستعدوا للخروج.

انقطع طالوت من بلد بجنوده، قال المفسرون: كان عددهم سبعين ألف مقاتل وقيل:

- (١) الكشف للزمخشري ١/ ٣٢٠.
- (٢) وهذا يحمل في طياته عدم تصديق النبي فيما أبلغهم عن ربه، وهذا أشبه بأخلاق بني إسرائيل مع أنبيائهم. انظر: البحر المحيط لأبي حيان ٢/ ٢٧٠.
- (٣) في سفر صموئيل الأول إصحاح ٤ أرقام ٦ وما بعدها.
- (٤) رواه ابن أبي حاتم في تفسير القرآن العظيم ٢/ ٤٦٩، برقم/ ٢٤٨١ عن عبد الله بن عباس بسند حسن.

كانوا ثمانين ألفاً. وقيل غير ذلك.^(١) وبينما هم في مسيرهم إذ به يبلغهم بهذا الاختبار الشديد الذي سيتعرضون له وهم على حال شديد من العطش، وإخباره هذا إما أن يكون بإلهام من الله له أو بوحي من الله إلى نبيهم ثم إبلاغه به.

وكان هذا الاختبار أنهم سيتعرضون لنهر، هو نهر الأردن، وعليهم ألا يشربوا منه؛ فمن شرب منه فلن يتبعه في الحرب ولن يكون من أهل طاعته أما من لم يطعمه أي: لم يذقه فسيكون من أتباعه^(٢)، وقد استثنى من الجملة الأولى من أخذ بيده غرفة واحدة تروي عطشه.

وهذا اختبار شديد على النفوس، لكنه مفيد ليظهر للقائد قوة جنده ومدى صبرهم على شهوات نفوسهم، فمن قدر عليها كان على العدو أقدر. كان لا بد من هذا البلاء قبل أن يخوضوا هذه الحرب الشديدة مع قوم هم أكثر منهم عدة وعدداً، وأيضاً ليظهر مدى طاعتهم لقائدهم قبل دخول ساحة الوغى.

ماذا كان حال القوم مع هذا الاختبار؟ لقد تهاووا سريعاً، وفي التعبير بالفاء بيان لسرعة السقوط وإجابة داعي الهوى، ولم ينج من هذا البلاء إلا قليل.

خرج هذا القليل مع قائدهم وفور أن تجاوزوا النهر ورأوا قوة عدوهم انخزل ضعفاء الإيوان وقالوا: لا قوة لنا اليوم على محاربة جالوت وجنوده الذين منه^(٣).

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١/٣٣٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٦٦٨، ومعالم التنزيل للبخاري ١/٢٣٠.

(٣) وفي سر التعبير بـ (يطعمه) قال الرازي: إن الإنسان إذا عطش جداً، ثم شرب الماء وأراد وصف ذلك الماء بالطيب واللذة قال: إن هذا الماء كأنه غسل فيصفه بالطعوم اللذيذة، فمعناه أنه وإن بلغ به العطش إلى حيث يكون ذلك الماء في فمه كالموصوف بهذه الطعوم الطيبة فإنه يجب عليه أن لا يشربه وأيضاً: أن من جعل الماء في فمه وتمضمض به ثم أخرجه من الفم، فإنه يصدق عليه أنه طعمه، ولا يصدق عليه أنه شربه، فلو قال: ومن لم يشربه فإنه مني كان المنع مقصوراً على الشرب، ولما قال: (وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ) كان المنع حاصلاً في الشرب وفي المضمضة، ومعلوم أن هذا التكليف أشق. انظر: التفسير الكبير للرازي ٦/١٥٣.

لكن قوماً باعوا أرواحهم، وهانت الدنيا عليهم فلم يبالوا بها بل كانوا على يقين بلقاء الله وحسن ما عنده، وعلى هذا يكون الظن اليقين، ويحتمل أن يكون على معناه ويصير المعنى: الذين يظنون أنهم سينالوا الشهادة في المعركة ويلقوا ربهم وذلك لقوة عزمهم على القتال، وصدق يقينهم في لقاء العدو.

قال هؤلاء المؤمنون الصادقون كلمة صارت قاعدة كلية في بابها ﴿كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِتْنَةٌ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وكم تفيد معنى التكثير، والمعنى أن أمر الكثرة والقلة لا دخل له بالنصر، فكأين من قوم كانوا قليلي عدد لكنهم نصروا الله في أنفسهم فنصرهم، ولا تكون معية الخاصة بالنصر والتأييد والحفظ إلا لهؤلاء الصابرين عند البأس، وهي من تمام قولهم على الأرجح.

وقف هؤلاء المؤمنون في ساحة الوغى وقبل أن ينازلوا عدوهم توجهوا إلى ربهم بدعاء طيب قائلين: يا ربنا وسيدنا اصعب علينا صبراً من عندك يقوي قلوبنا، فإذا تحقق ذلك فاجعل أقدامنا راسخة قوية وقلوبنا ثابتة عند المنازلة حتى لا نزل، وإذا تحقق ذلك فانصرنا على هؤلاء القوم الذين استحقوا الهزيمة لأنهم كفروا بك.

لقد حقق هؤلاء القوم شرط النصر وعندئذ فما أيسر النصر.

هزم القوم الجبارون، وظهر داود بن إيشا فقتل جالوت زعيم الجبارين، ومن الله بعدها على داود فاتاه الملك بعد طالوت وأعظم منه النبوة بعد شمويل وعلمه مما يشاء سبحانه؛ فعلمه صنعة الحديد، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء/ ٨٠] وعلمه الزبور فكان يقرأه بصوت جميل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ/ ١٠] وعلمه منطق الطير كما قال سليمان: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل/ ١٦]. وهذا العلم يشمل داود وسليمان معاً كما ذكر ذلك الطبري وغيره.^(١)

(١) إنما ذهبت إلى هذا القول لأنه الأقرب إلى سياق الآيات لفظاً ومعنى؛ أما لفظاً فلأن الآية نصت على أن

ثم تذكر الآيات سنة كونية في المواجهة بين الحق والباطل وهي سنة المدافعة؛ فإن الله يدفع المؤمنين على الكافرين حتى لا تفسد الأرض ويجرب عامرها من المساجد وأماكن العبادة. وإنما ذلك كله من فضله ورحمته على عباده جميعاً.

ثم تختتم القصة بهذا التعقيب القرآني الذي يبين أن هذا القصص وغيرها مما يقصه الله على نبيه هو القصص الحق والصدق الذي لا يشك فيه عاقل، وذلك ليعتبر به المؤمنون، وهو أيضاً دليل على نبوته عليه السلام وأنه واحد من جملة حملة مشاعل الهداية للبشر جميعاً. والله الموفق.

وبعد أن ذكر الله قصة داود وجالوت وبين الله أن نبيه محمداً من جملة هؤلاء المرسلين ذكرت الآيات أن الله أرسل الرسل لهداية الناس لكنهم اختلفوا وتفرقوا شيعاً، وكفروا ببعض النبيين مع أن الله قد أرسلهم جميعاً، وقد أخذوا جميعهم من معين واحد. فما كان لأقوامهم أن يختلفوا ويقتتلوا ويؤمنوا ببعضهم ويكفروا ببعض.

وبينت الآيات أن جماعة الرسل قد فضل الله بعضهم على بعض مع استوائهم في أصل التبليغ، قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَمَا آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٥]

الذين جاؤا معه كانوا هم المؤمنون، ولا حاجة بنا إلى ما قاله البعض من أن الكل جاوز النهر من شرب ومن لم يشرب، وأيضاً لتتحد الضمائر في (آمنوا) و (قالوا) ولا حاجة أيضاً إلى أن نقول إن هذا قول من شربوا، قالوه وهم وراء النهر. لأنهم استبعدوا بنص كلام طالوت ولا حاجة إلى أن يعتذروا. وأما من حيث المعنى فإن ما ذكرته هو الأقرب؛ فلا يلزم أن يكون كل المؤمنين صادقين في القتال، قال تعالى: ﴿ يَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، فإن النفس قد تتهاون ولكن إذا حضرت الصف وتراءى الجمعان فقد تجبن النفس وتضن بحياتها، وقد تولى بعض الصحابة وهم من هم، وما ذكرته هو ما ذهب إليه قتادة في تفسير الآية حيث قال: ويكون المؤمنون بعضهم أفضل جداً وعزماً من بعض، وهم مؤمنون كلهم. رواه الطبري في جامع البيان ٣٥١/٥ عنه بسند حسن، ومن جنح إلى هذا القول ابن عطية حيث قال: «وأكثر المفسرين على أنه إنما جاوز النهر من لم يشرب إلا غرفة، ومن لم يشرب جملة، ثم اختلفت بصائر هؤلاء فبعض كع وقليل صمم» المحرر الوجيز ١/ ٣٣٦، ونقل كلامه أبو حيان في البحر المحيط ٢/ ٢٧٦ وانظر: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٢٤٤.

وقد بين بعض أوجه التفاضل فيما بينهم، فمنهم من كلمه الله؛ قال تعالى ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْوِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤] ومنهم من رفعه الله درجات وهو نبينا محمد ﷺ فقد رفع الله قدره، وأعلى في العالمين ذكره، ومن الدرجات ما هو في كتابه ومنها ما هو في شرعه، وما هو في أمته وغير ذلك من الخصائص الشريفة والدرجات المنيفة.

ومن فضل الله: عيسى؛ فقد آتاه من الدلائل ما يتبين به الحق الذي معه، وقواه بجبريل روح القدس، قال أبو السعود « وإفراده عليه السلام بما ذكره لرد ما بين أهل الكتابين في شأنه عليه السلام من التفريط والإفراط »^(١).

ولو شاء الله تعالى أن يجعل الهداية فطرية في نفوس العباد لكانوا في الهداية سواء قال تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩] ولكنه خلقهم متبايني الأفكار والعقول فكان هذا سبب اختلافهم، فمنهم من آمن إيماناً صحيحاً، ومنهم من اتخذ إلهه هواه، فاختلفوا واقتتلوا من بعد موسى وعيسى، ولو شاء الله ألا يؤدي بهم الاختلاف إلى الاقتتال لفعل، ولكنه تعالى أراد ذلك لحكمة، وهو سبحانه الفعال لما يريد.

ثم عاد الحديث مرة أخرى إلى الإنفاق بأسلوب آخر فيه تهديد ووعيد، فحذر المؤمنين من أن يكون المال غاية أمرهم كما فعل السابقون الذين قيموا من بعثه الله إليهم تقيماً مادياً. فجاءت الآيات تأمر المؤمنين أن ينفقوا بعض ما رزقهم الله تعالى قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا يمكن تدارك الفائت فيه؛ فلن ينفع فيه بيع ولا صداقة ولا شفاعة إلا بإذن منه تعالى وسيكون الكافرون بالنعم هم أهل الظلم المستحقون له، فاحذروا أن تسلكوا طريقهم، قال تعالى ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧] وقال: ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَنَفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ

(١) انظر: جامع البيان للطبري ١٩/٤٣٧ وزاد المسير لابن الجوزي ٦/١٥٩.

(٢) وهذا باتفاق الجميع. قال الرازي أجمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض، وعلى أن محمداً ﷺ أفضل من الكل. التفسير الكبير ٦/١٦٥.

فِيهِ وَلَا خِلَافٌ ﴿٣١﴾ [إبراهيم: ٣١].

وبعد أن أمر الله بالإنفاق، وحذر من يوم القيامة التي لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة قرر هذا المعنى بوضوح تام حتى يكون الإيعاز في سبيل الله خالصاً عن عقيدة سليمة رجاء مرضاة الله تعالى، وكما بينت الآية السابقة أن يوم القيامة لن تغني فيه الشفاعة جاءت هذه الآية المباركة لتنفي الشفاعة الموهومة عند الكافرين ومن كان على شاكلتهم.

وجاء هذا التقرير في آية هي أعظم آية من كتاب الله كما ورد عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: الله لا إله إلا هو الحي القيوم، قال: فضرب على صدري وقال: والله ليهنك العلم أبا المنذر^(١).

فإن الله سبحانه هو المعبود بحق، لا رب غيره ولا معبود بحق سواه، وهو دائم الحياة لا يفنى ولا يبديد، حي لا يموت فمن أراد الحياة الحققة استمدّها منه سبحانه، وهو القائم على الدوام بتدبير خلقه، وقائم على كل نفس بما كسبت، تنزه عن كل ما يعوق كمال العلم والتدبير فلا يصيبه النعاس والفتور الذي يتقدم النوم ولا ينام؛ عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات. فقال: إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل، حجاب النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه^(٢)، له سبحانه جميع ما في السموات والأرض خلقاً وملكاً وتدبيراً، وهو وحده المتصرف في شؤونهم، لا يجروا أحد منهم أن يشفع للمذنب إلا إن أذن له مولاه، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ ﴿١٠٩﴾ [طه/ ١٠٩].

- (١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ٨١٠ ومعنى ليهنك العلم: ليكن العلم هنيئاً لك، وهذا دعاء بتيسير العلم ورسوخه فيه. انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لملا على القاري ١٩/٥.
- (٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ١٧٩.

يعلم ما قبلهم وما بعدهم، وما كان وما سيكون من أمور الدنيا والآخرة، وما يدرك الخلق وما يجهلون، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر/٧] ولا يجيطون بشيء من معلوماته إلا أن يُطَّلَعَ الله عباده على ما شاء منها بفضلته وجوده وكرمه، قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٣٦﴾ إِلَّا مَن أَرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن/٢٦، ٢٧] وسع علمه السموات والأرض، وقد فسر الكرسي بالعلم جماعة من السلف ورجحه الطبري وغيره، قال ابن عطية: "والذي تقتضيه الأحاديث أن الكرسي مخلوق عظيم بين يدي العرش، والعرش أعظم منه، ...، وقال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت في فلاة من الأرض»^(١)، وهذه الآية منبئة عن عظم مخلوقات الله تعالى، والمستفاد من ذلك عظم قدرته»^(٢). ولا يثقله سبحانه حفظ هذه العوالم الضخمة بما فيها ومن فيها، وهو المتعالي بذاته عن صفات النقص، العلي علوا يليق بكماله وجلاله، العظيم المنتزه بعظمته وعزته عن الاحتياج.

وبعد هذا البيان الناصح لعقيدة المؤمنين في رب العالمين، يمضي السياق مبيناً أن هذا الدين من شأنه أن تقبله العقول السليمة بلا إكراه؛ فالإيمان الواضح والعقيدة الصحيحة تتقبلهما الفطرة المستقيمة بلا قسر أو عدم اقتناع، يقول سيد قطب: «وعندما يصل السياق بهذه الآية إلى إيضاح قواعد التصور الإيماني في أدق جوانبها، وبيان صفة الله وعلاقة الخلق به هذا البيان المنير . . . ينتقل إلى إيضاح طريق المؤمنين وهم يحملون هذا التصور؛ ويقومون بهذه الدعوة؛ وينهضون بواجب القيادة للبشرية الضالة الضائعة»^(٣).

وتبين الآيات أن الدين الإسلامي لا يكره أحداً على الدخول فيه؛ لأن الإيمان الذي

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب العرش ١/ ١١٤ والبيهقي في الأسماء والصفات / ٢٩٠ قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ١٧٤: واعلم أنه لا يصح في صفة الكرسي غير هذا الحديث.

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية ١/ ٣٤٢.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/ ٢٩٠.

يلامس القلوب وتقتنع به العقول لا يكون وليد إكراه، بل هو إذعان قلبي وانقياد بالجوارح لله رب العالمين، قال تعالى ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس/ ٩٩]، فليس في الإسلام إكراه وإنما هو محض اختيار من العبد، وعلّة عدم الإكراه أن الله تعالى قد بين الصواب من الضلال، وأوضح الأدلة وأقام البراهين، وأسفر النور لكل ذي عينين، فمن كفر بعد ذلك فعليه كفره، ومن كفر بالأوثان وبكل ما يدعو إليه الشيطان من عبادة غير الله وآمن بالله إيماناً صادقاً فقد استقام أمره على الطريقة القويمة المثلى التي لا انقطاع لها، واستمسك من دينه بعروة حبل محكم لا يصيبه انحلال والله سميع لأقوال عباده عليم بما يخفون وما يعلنون، قال ابن عطية: "ولما كان الكفر بالطاغوت والإيمان بالله مما ينطق به اللسان، ويعتقده القلب، حُسْنٌ في الصفات ﴿ سَمِيعٌ ﴾ من أجل النطق ﴿ عَلِيمٌ ﴾ من أجل الاعتقاد"^(١).

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس قَالَ: «كانت المرأة من الأنصار لا يكاد يعيش لها ولد، فتحلف: لئن عاش لها ولد لتهودنه، فلما أجليت بنو النضير إذا فيهم ناس من أبناء الأنصار، فقالت الأنصار: يا رسول الله، أبناؤنا، فأنزل الله هذه الآية ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾"^(٢).

وهذا أبلغ رد على من يتهم الإسلام بأنه انتشر بحدّ السيف؛ فالدين الإسلامي لم يكره أي أحد على اعتناقه، ولم يقاتل إلا لرد الاعتداء، وتمكين الناس من معرفة الإسلام بدون تسلط حكاهمهم، فالقتال لإزاحة من يحولون بين الناس وبين الهداية، فإذا أزيح هؤلاء فلا يكره الناس على الدخول في الدين، وبهذا نرجح أن الآية ليست منسوخة بآيات القتال على ما ذهب إليه جمع من المفسرين^(٣)، فليس هناك تعارض؛ إذ القتال للتمكين للدعوة، أما إدخال الناس الإسلام

(١) المحرر الوجيز لأبن عطية ١/ ٣٤٤.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه/ ١٤٠ والنسائي في السنن الكبرى/ ١١٠٤٩ وأبو داود في سننه/ ٢٦٨٢ وسنده صحيح.

(٣) انظر: الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس ٢/ ٩٩. قال القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٤٨١: وروى هذا عن ابن مسعود وكثير من المفسرين.

بالإكراه فلم يحدث مطلقاً في تاريخ الدعوة الإسلامية بخلاف الرسائل السابقة، قال سيد قطب: وكانت المسيحية - آخر الديانات قبل الإسلام - قد فرضت فرضاً بالحديد والنار ووسائل التعذيب والقمع التي زاولتها الدولة الرومانية بمجرد دخول الإمبراطور قسطنطين في المسيحية . بنفس الوحشية والقسوة التي زاولتها الدولة الرومانية من قبل ضد المسيحيين القلائل من رعاياها الذين اعتنقوا المسيحية اقتناعاً وحباً! ولم تقتصر وسائل القمع والقهر على الذين لم يدخلوا في المسيحية؛ بل إنها ظلت تتناول في ضراوة المسيحيين أنفسهم الذين لم يدخلوا في مذهب الدولة؛ وخالفوها في بعض الاعتقاد بطبيعة المسيح! (١).

وإن من كفر بالطاغوت وآمن بالله قد تولى الله فصار الله وليه قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكُفْرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد/ ١١] وهو سبحانه يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ويزيدهم هدى على هدايم، أما الذين كفروا فأولياؤهم الطاغوت والشياطين، وقد ختم الله على قلوبهم فخرجوا من نور الفطرة إلى ظلام الكفر وازدادوا - بسبب ضلالهم - شكاً وكفراً وحيرة ، وجاء التعبير بالمضارع ليفيد الدوام والتجدد، وهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات هم الملازمون للنار كما يلزم الرفيق رفيقه، وأكد خلودهم وبقائهم بأنهم فيها خالدون.

ثم تذكر الآيات مثلاً لهؤلاء الذين انحرفت فطرتهم وخرجوا من ظلمات الهداية إلى نور الغواية وهو النمرود، وقد أتت الآيات بصيغة الاستفهام الذي يفيد التعجب من حال هذا الذي جادل إبراهيم في ربه وكان سبب مجادلته وغروره أن الله قد آتاه الملك فأورثه ذلك استكباراً وعلواً بالباطل، قال المفسرون: اسمه النمرود بن كنعان، وقد أتى برجلين قد استحقا القتل فأمر بقتل أحدهما فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل . فذلك معنى الإحياء والإماتة بزعمه (٢).

(١) في ظلال القرآن/ ١/ ٢٩١.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره/ ٢٦٣٤ عن علي ابن أبي طالب.

وقد قصد نبي الله إبراهيم عليه السلام أن يعلمه أن الله يحيي ويميت بمعنى أنه ينشئ الحياة في جميع العوالم ويزيلها بالموت، فظن النمرود أن معنى الإحياء والإماتة التسبب في أبقاء بعض الناس أحياء والتسبب في قتل البعض الآخر، وهذه غفلة عن المقصد.

ولما علم إبراهيم أن هذا الملك المغرور لم يفقه حجته أو تجاهل مقصده زاد حجته إيضاحاً بقوله: إن الذي يهب الحياة وينزعها بقدرته هو الذي يخرج الشمس من المشرق، فهو مكون الكائنات سبحانه، فإن كنت تزعم أيها المغرور القدرة على الخلق فغير هذا النظام الكوني واثت بالشمس من المشرق فإن الله يأتيها من المغرب، فبهت الكافر وانقطعت حجته وأزيلت شبهته^(١). وهكذا سنة الله مع من ظلم نفسه بالشرك أن الله لا يوفقه للهداية، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ ﴾ [النحل: ١٠٤].

وبعد أن قص الله علينا قصة إبراهيم عليه السلام مع النمرود عطف عليها هذه القصة التي تثبت قدرة الله تعالى على البعث بعد الموت.

والذي مر على القرية وهي خاوية على عروشها أي ساقطة على جدرانها خالية من سكانها. الذي مر هو عزيز. كما هو المشهور في كتب التفسير، والقرية هي بيت المقدس بعد تخريب بختنصر لها.^(٢)

عندما مر عزيز على القرية هاله ما آل إليه أمرها فقال: كيف يحيي هذه الله بعد موتها؟

(١) الصحيح أن هذه الحجة مرتبطة بالحجة التي قبلها، ولم يعدل إبراهيم من محاجته في الإحياء والإماتة إلى دليل أوضح وهو إتيان الله الشمس من المشرق؛ وإنما الدليل واحد في الموضوعين وهو أنا نرى حدوث أشياء لا يقدر الخلق على إحداثها فلا بد من قادر آخر يتولى إحداثها وهو الله سبحانه وتعالى، ثم إن قولنا: نرى حدوث أشياء لا يقدر الخلق على إحداثها له أمثلة منها: الإحياء، والإماتة، ومنها السحاب، والرعد، والبرق، ومنها حركة الشمس. انظر: التفسير الكبير للرازي ٢٢/٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٦٨٦ وتفسير المنار لرشيد رضا ٣/٤٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير سابق.

فأماته الله مائة عام، ليس به حراك، وعمرت البلاد بعد سبعين سنة من موته، ورجع إليها بنو إسرائيل، ثم بعثه الله فقال له: كم لبثت؟ فظن أنه لبث يوماً أو بعض يوم؛ لأنه مات أول النهار وبعث في آخره.

فجاءه الرد عن طريق الملك: بل لبثت مائة عام كاملة وانظر إلى قدرة مولاك على البعث، فهذا طعامك وشرابك الذي كان معك لم يأسن ولم تغير طعمه السنون، وعادة الناس في مثله أن يفسد بعد قليل.

أما حمارك الذي كان معك فقد مات وبلى لطول المدة، لكننا سنرد هذه العظام النخرة إلى أماكنها ثم نكسوها لحماً وعصباً وجلداً وننفخ فيها الروح لكي توقن بقدرة الله على البعث ولا تتعجب من ذلك.

وعند ذلك، وبعد أن بانَتْ له الحقيقة بالأدلة الظاهرة قال: أعلم الآن علم اليقين أن الله على كل شيء قدير.

ثم ذكرت الآيات القصة الثالثة وفيها أيضاً إثبات قدرة الله على البعث بعد الموت؛ وفيها تذكير للسامع أن يستحضر قول إبراهيم عليه السلام لربه أن يريه كيف يحيي الله النفوس الميتة، فخاطبه ربه: أولم تؤمن بقدرتي على الإحياء؟ فردَّ إبراهيم مؤكداً إيمانه، والسؤال والجواب تعليم للسامعين أن إيمان إبراهيم متحقق متيقن، ولكنه طلب أن يطمئن أي يزداد سكوناً وطمأنينة بانضمام علم المشاهدة إلى علم الاستدلال، فأراد بطمأنينة القلب الوصول إلى عين اليقين بالمشاهدة، ودليل ذلك السؤال بكيفية تفيد السؤال عن حال شيء موجود ومتحقق عند السائل والمسؤول، ولنفي أي خاطر سوء قال رسول الله ﷺ: (نحن أحق بالشك من إبراهيم)^(١).

والمعنى: أن لو كان شك لكنا نحن أحقُّ به، ونحن لا نشك، إبراهيم عليه السلام أخرى

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ٣١٩٢، ومسلم في صحيحه برقم/ ٢٣٧٠.

الْأَيْشَكَّ، فالحديث مبني على نفي الشكِّ عن إبراهيم^(١).

ثم قص القرآن ما حدث؛ حيث أمره ربه أن يأخذ أربعة من الطير ثم يقطعهن ويجمعهن ويضمهن إليه، ثم يجعل على كل ناحية من الجهات الأربع جزءاً، ثم يدعهن بإذن الله فإنهن يأتين سراعاً كأنهن لم يمتن، والله غالب على أمره، حكيم في فعله.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقديّة:

- فضل الله يشمل جميع الناس، مؤمنهم وكافرهم، وقد جاء بصيغة تفيد عموم جميع الناس صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم. قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ قال ابن حزم: " فهذا عموم بالخطاب بإنعام الله تعالى على كل من خلق الله تعالى وعموم لمن يشكر من الناس والكفار من جملة ما خلق الله تعالى ... فصح أن نعم الله في الدنيا على الكفار كهي على المؤمنين وربما أكثر في بعضهم في بعض الأوقات"^(٢).

وفي هذا تعليم لنا ألا نطلب الفضل إلا من ذي الفضل سبحانه؛ قال يحيى بن معاذ: «من طلب الفضل من غير ذي الفضل ندم؛ وإن ذا الفضل هو الله عز وجل»^(٣).

- الإرادة في كتاب الله على نوعين:

إرادة كونية قدرية تعني المشيئة الشاملة لجميع الموجودات؛ وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ وقوله تعالى ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام/ ١٢٥].

والنوع الثاني: إرادة شرعية دينية مأمور بها ولا يلزم تحققها؛ وذلك كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ٢٠٧/١.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ١٠٥/٣.

(٣) شعب الإيمان للبيهقي ١١١/٢.

﴿ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء/ ٢٧] وقوله ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة/ ١٨٥]^(١).

- اختلف في نبوة طالوت، وليس في القرآن نص صريح على نبوته، ولا يعده الإسرائيليون من أنبيائهم، واستدل القائلون بنبوته بأن الله أظهر المعجزة على يديه كالتابوت وما فيه. لكن يحتمل أن يكون معجزة للنبي الموجود لا لطالوت ويكون آية لإثبات ملك طالوت. أما كلامه وتبليغه عن الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ﴾ فيحتمل أيضا أن يكون أخبر به عن طريق النبي.

- جواز المفاضلة بين الأنبياء، وما ورد من المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها، فالنبوة نفسها لا تتفاضل، وإنما التفاضل في زيادة الأحوال والخصائص، والمعجزات^(٢).

- استدل المعتزلة بقوله تعالى ﴿ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ على أن الحرام لا يكون رزقا؛ لأن الحرام لا يجوز إنفاقه وأمر بالإنفاق مما رزقنا، فلا يكون الحرام رزقا. لكن رد عليهم بأن ظاهر الآية عام دخله التخصيص بإنفاق الرزق الحلال فقط. وعلى هذا فالله تعالى هو وحده المنفرد بتولي الأرزاق^(٣).

- جواز المجادلة في أمور العقائد؛ وسيرة الأنبياء شاهدة بهذا؛ قال تعالى على لسان قوم نوح ﴿ قَالُوا يَنْتُحُونَ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدْلَانَا ﴾ [هود/ ٣٢]، وقصة إبراهيم مع النمرود شاهد لهذا، بل إن الله أمر به نبيه محمداً فقال: ﴿ وَجَدِلْهُمْ بَلْغِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل/ ١٢٥] وقد يكون مستحبا أو واجبا في بعض الأحوال.

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص ١١٦.

(٢) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ١/ ١٥٧.

(٣) انظر: شرح المقاصد للتفتازاني ٢/ ١٦٢.

أما المنهي عنه فالجدال بالباطل، والجدال بغير علم، والجدال في الحق بعدما تبين، والتعصب والمكابرة.

ب- الأحكام الشرعية :

- استدل بقوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ﴾ بأنه يجب على المستقرض رد القرض؛ لأن الله تعالى بين أن من أنفق في سبيل الله لا يضيع عند الله، بل يرُدُّ الثواب قطعاً، وأبهم الجزاء^(١).

- الجهاد كما يكون بالنفس يكون بالمال. قال رسول الله: (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألستكم)^(٢).

- قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ يدل على أن الإمامة ليست وراثية لإنكار الله تعالى عليهم ما أنكروه من التملك عليهم من ليس من أهل النبوة ولا الملك وبين أن ذلك مستحق بالعلم والقوة لا بالنسب^(٣).

قال الرازي: «هذه الآية تدل على بطلان قول من يقول: إن الإمامة موروثية؛ وذلك لأن بني إسرائيل أنكروا أن يكون ملكهم من لا يكون من بيت المملكة، فأعلمهم الله تعالى أن هذا ساقط، والمستحق لذلك من خصه الله تعالى بذلك وهو نظير قوله: ﴿تُوَفِّي الْمَلَائِكَةَ مَن دَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلَائِكَةَ مِمَّن دَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]»^(٤).

- استنبط أبو حنيفة من قوله تعالى ﴿وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمَهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ أن من حلف لا يشرب من دجلة فشرب منها بإثاء لا يحنث حتى يكرع أي: يشرب بفمه

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/ ٢٢٤.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم/ ٢٤٢٧ وصححه على شرط مسلم، وأبو داود في سننه برقم/ ٢٥٠٤، وأحمد ٣/ ٢٥١ وسنده صحيح. انظر التيسير للمناوي ١/ ٤٨٥.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٢/ ١٦٧.

(٤) التفسير الكبير للرازي ٦/ ١٤٧.

من نفس النهر إذا لم تكن له نية، فإذا نوى بإناء حنث به إجماعاً، وخالفه أصحابه ومالك والشافعي^(١).

- دل قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ على أن الذمي إذا أكره على الدخول في الإسلام فأسلم لم يثبت له حكم الإسلام حتى يوجد منه ما يدل على إسلامه طوعاً، وإن رجع إلى دين الكفر لم يجز قتله ولا إكراهه على الدخول في الإسلام. لأنه أكره على ما لا يجوز إكراهه عليه وهذا مذهب أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد وغيرهم^(٢).

وهذا دليل على أهمية الحرية، حتى في أمور الاعتقاد والإيمان لانلزم أحداً على اعتناق الإسلام إلا برغبته وإرادته الحرة بلا أي درجة من درجات الإكراه، وهذا يبين سمو الإسلام وعظمة تشريعاته في تقديرها للإرادة الإنسانية.

- إذا أخبر الإنسان عما في ظنه فإنه لا يكون كاذباً حتى لو خالف كلامه الواقع، قال الجصاص: «قول هذا القائل لم يكن كذباً، وقد أماته الله مائة عام؛ لأنه أخبر عما عنده فكأنه قال: عندي أني لبت يوماً أو بعض يوم. ونظيره أيضاً ما حكاه الله تعالى عن أصحاب الكهف ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف/ ١٩] وقد كانوا لبثوا ثلاثمائة وتسع سنين ولم يكونوا كاذبين فيما أخبروا عما عندهم، كأنهم قالوا عندنا في ظنوننا إنما لبثنا يوماً أو بعض يوم. ونظيره قول النبي ﷺ حين صلى ركعتين وسلم في إحدى صلاة العشي فقال له ذو اليمين: أقصرت الصلاة أم نسيت؟ فقال: لم تقصر ولم أنس^(٣). وكان ﷺ صادقاً

(١) شرح فتح القدير ١٣٦/٥. قال ابن العربي: وهذا فاسد.. لأن شرب الماء ينطلق على كل هيئة وصفة في لسان العرب من غرف باليد أو كرع بالفم انطلاقاً واحداً. أحكام القرآن ١/٣٠٩. ورد القرطبي كلام ابن العربي فقال: قول أبي حنيفة أصح، فإن أهل اللغة فرقوا بينهما كما فرق الكتاب والسنة. الجامع لأحكام القرآن ٤/٢٤٢.

(٢) الحاوي الكبير للمواردي ١٠/٢٢٩، منح الجليل للشيخ عليش ٧/٨٠، المغني لابن قدامة ٩/٢٩، ٣٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/٦٢٨ ومسلم في صحيحه برقم/٥٧٣ واللفظ له عن أبي هريرة.

لأنه أخبر عما عنده في ظنه وكان عنده أنه قد أتمها. فهذا كلام سائغ جائز غير ملوم عليه قائله إذا أخبر عن اعتقاده وظنه لا عن حقيقة مخبره^(١).

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية

- لا بد للقتال أن يكون مبرئاً من أغراض الدنيا وحفظ النفس، ولا يكون ذلك إلا بإخلاص النية لله فيه، فمن قاتل على عصبية أو تحت راية جاهلية فمات ميتة جاهلية، وعن أبي موسى قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل حمية ويقاقل شجاعة ويقاقل رياء، فأبي ذلك في سبيل الله؟ قال: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله)^(٢).

- السكينة من السكون، وهي سكون يقذفه الله في قلب عباده المؤمنين عند الهلع وشدة الخوف والاضطراب، وقد جاءت السكينة في ستة مواضع في القرآن هذا أولها^(٣)، وكلها تين فضل الله الذي ينزل برداً وطمأنينة على قلوب المؤمنين عند اشتداد المخاوف؛ كما في أمر الهجرة واختفاء الرسول ﷺ وصاحبه في الغار، ويوم الحديبية وما كان فيه من شدة على الصحابة، ويوم حنين إذ ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فتنزل السكينة حينئذ لتصلح القلوب، وتربط عليها برباط الإيمان، ولذلك كان النبي ﷺ يسأل ربه أن ينزل السكينة عليه، والمؤمن المقتدي برسوله ﷺ يسأل ربه السكينة عند الشدائد حتى يهبها إياه.

- لعل في طلب طالوت من جنوده عدم شرب الماء تدريباً لهم على الصبر والاحتمال؛ فهم داخلون على معركة كبيرة، ولا بد لهم من صبر على اللقاء؛ فمن صبر على شهوة نفسه من المطعم والمشرب صبر على ما سواها، ومن جزع فهو لما سواها أشد جزعاً، وقريب من هذا ما قال يوشع عندما أراد أن يسترد بيت المقدس؛ فقد ورد في الحديث: (غزاني من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يني بها ولما بين بها، ولا أحد بني

(١) أحكام القرآن للجصاص ١٧٢/٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٧٠٢٠ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٩٠٤.

(٣) وفي التوبة الآيات ٢٦، ٤٠، والفتح الآيات: ٤، ١٨، ٤٠.

بيوتاً ولم يرفع سقفوها، ولا أحد اشترى غنماً أو خلفات وهو ينتظر ولادها^(١). والغرض من هذا أن يخرج معه من استعد للقتال ولم تشغله دنيا.

- الدعاء عند القتال من أعظم أبواب النصر، ولنا في حال رسول الله ﷺ في غزوة بدر أعظم مثال، وقد قص القرآن حال بعض أتباع الرسل فكان قولهم مطابقاً لأولئك نفر من صالحى بني إسرائيل. فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أقدامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

- من آداب الإسلام العالية: السباحة مع المخالفين، وعدم إكراههم على دخول الدين، اتباعاً للنصوص الواردة في ذلك، ولم يعرف التاريخ الإسلامي أي اضطهاد نال هؤلاء بسبب دينهم، يقول توماس آرنولد: «لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي»^(٢).

د- الجوانب التربوية :

- القصة القرآنية جانب مهم من جوانب العظة والاعتبار، ولحكمة بالغة كان القصص القرآني حوالي ربع القرآن تقريباً؛ وما ذلك إلا لأثر القصة الفعال في توخي الرذائل والحث على الفضائل، وفي قصص هذا المقطع عبر بالغات ووصايا نافعات، تحض على جهاد اللسان بالحجة واللسان وجهاد المعتدين باليد والسنان، وتثبيت اليقين وتبشير المؤمنين.

- لا يغني حذر من قدر، ولن ينفع الفرار أهله، قال تعالى: ﴿ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ ﴾ [الأحزاب/ ١٦].

- طلب القوم القتال، فلما كتبه الله عليهم تولوا؛ وفي هذا درس؛ وهو أن الإنسان لا يطلب القتال والنزال؛ فلربما جبن، وقد قال رسول الله ﷺ: (لا تمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٩٥٦ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٧٤٧ عن أبي هريرة.

(٢) الدعوة إلى الإسلام توماس آرنولد. ص ٩٩.

فاصبروا^(١). وليس هذا الأمر مختصاً بالقتال فقط؛ بل هو عام في كل ما يلزم الإنسان نفسه به ولا يطيقهن ومن هنا كره بعض العلماء النذر.

- على القائد أو المربي أن يبين للناس عاقبة قولهم، حتى يكونوا على بصيرة من أمرهم: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾.

- سنة الابتلاء سنة كونية لتمحيص المحق من المبتل، والطيب من الخبيث؛ فقد كان عدد القوم كبيراً، ولكنهم لم يصلحوا للقتال ولا لنزال، فلما حدثت لهم التصفية، أجرى الله النصر للفتة المؤمنة بوعده حقاً.

- لا دخل للقلّة والكثرة في النصر، فقد كان عدة هؤلاء القوم ثلاثمائة أو يزيدون، عن البراء قال: «كنا نتحدث أن أصحاب بدر كانوا ثلاث مئة وبضعة عشرة على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر وما جاز معه إلا مؤمن»^(٢). ولكن متى كانت الكثرة سبباً للنصر؟

لقد أرست الآيات قاعدة جليلة تنعقد حولها الخناصر، ﴿كَمْ مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

- من سنن الله الكونية: سنة المدافعة، وهذه سنة عظيمة تحكم ناموس الكون؛ ولولا هذه المدافعة لهلك أهل الحق، ولهدمت المساجد ودور العبادة، فأهل الصلاح يدفع الله بهم أهل الفساد؛ فإن الشر لا ينحسم إلا بمدافعة، ولن تنزل الملائكة إلا للمعونة، ولن يهلك المفسدون بصاعقة تبيدهم عن آخرهم إلا في آخر الزمان عند هدم الكعبة، أما في الدنيا فلا بد من مدافعة للباطل بالحق، ودمغ للفساد بالإصلاح حتى يكون زهوقاً.

- استخلص الأستاذ الإمام محمد عبده من قصة طالوت وجالوت سنناً اجتماعية في العمران والاستقلال نوجز معظمها فيما يلي:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٢٨٦٣ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٧٤١ عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم/ ٤٧٩٦ وقال محققه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

- ١- وحدة الأمم أعظم السبل لتحقيق الاستقلال كما حدث مع بني إسرائيل.
- ٢- إذا جاء وقت الحرب انكشف عجز الأعداء المدعين، ولم ينفع إلا صدق الصادقين
- ٣- من الأمور المهمة اختيار قائد ورئيس.
- ٤- الأمم في طور الجهل ترى أن الأحق بالملك أهل الثروة الواسعة والأنساب.
- ٥- طاعة الجند للقائد من أساسيات النصر.
- ٦- الإيمان بالله والتصديق بلقائه من أعظم أسباب الصبر.
- ٧- البقاء في الدنيا للأمثل ولولا ذلك لفسدت الأرض.
- ٨- مشيئته تعالى إنها تنفذ بمقتضى سننه العامة في تغيير أحوال الأمم بتغييرهم ما بأنفسهم، وفي سلب ملك الظالمين وإيراث الأرض للصالحين^(١).
- الاختلاف شر، ولا يأتي لفظ الاختلاف مطلقاً في القرآن إلا ويراد به الذم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِيفِينَ ﴿١٣٨﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ﴾ [هود/ ١١٨] وقوله ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَفَوْا﴾ [يونس/ ١٩] وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة/ ١٧٦]^(٢).
- وقد يأتي الاختلاف في القرآن ويراد به مدح المحقين وذم المبطلين كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فِيهِمْ مِّنْ ءَامِنٍ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ﴾ فهذا لا يذم كل أهله وإنما يذم من كان على الباطل دون أهل الحق.
- فالخلاف الديني بين أهل الحق والباطل فيه الحق والباطل، أما الاختلاف مطلقاً فهو لا يأتي إلا في معرض الذم.

(١) تفسير القرآن الحكيم ٢/ ٤٩٢ بتصريف واختصار كثير.

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٥/ ٢٥٨.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

إن هذا المقطع بكل قصصه ليقدر قضية مهمة، وهي قضية الحياة وقيمتها، وقضية الموت والبعث، وهذا له صلة وثيقة بأمر الجهاد؛ ذلك أن النفس إذا علمت وأيقنت أن الحياة والموت بيد الله دفعها ذلك إلى البذل والتضحية والفداء؛ لأنها تعلم أن نفسها بيد الله، يقبضها متى شاء، ويحييها متى شاء.

ولهذا فإن قصص هذا المقطع كانت تدندن حول هذا الأمر، فالقوم الأولون فروا من الموت فلقيهم، وعندما جنوا عن القتال ما زادهم ذلك شيئاً في أعمارهم، أما المقاتلون فإنهم كانوا على ثقة ويقين من لقاء الله فقاتلوا بيقين حتى فتح الله على أيديهم.

وبعد ذلك جاء الحديث عن واهب الحياة المحيي المميت، لكي يربط قلوب العباد بخالقهم الذي يقوم بأمرهم، مما يوجب عليهم أن يكفروا بالطاغوت ويؤمنوا برب الملك والملكوت.

ثم جاءت ثلاث قصص تثبت كلها أمر البعث والإحياء بمعناه المادي والمعنوي؛ قصة النمرود مع إبراهيم دليل على قدرة الله على الإحياء والإماتة الحسية، وعلى قدرته كذلك على الإحياء والإماتة المعنوية، كما في سيرة الرجلين؛ فقد أبقى الله لخليله إبراهيم الثناء الحسن في الدنيا حتى إن كل الأديان لتدعي نسبتها إليه، وأما ذكر الملك الغاشم الذي ألبس نفسه رداء ليس له بأهل.

ونحيا درس البعث والنشور مع قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وجاء بعدها تجربة الإحياء العملية التي كانت مع إبراهيم عليه السلام.

وفي تناسب هذه القصص يقول البقاعي: «لما كان الإيمان بالبعث بل الإيقان من المقاصد العظمى في هذه السورة وانتهى إلى هذا السياق الذي هو لتثبيت دعائم القدرة على الإحياء مع تباين المناهج واختلاف الطرق فبين أولاً بالرد على الكافر ما يوجب الإيمان وبإشهاد المتعجب ما ختم الإيقان علا عن ذلك البيان في قصة الخليل صلوات الله وسلامه عليه إلى ما ثبت

الطمأنينة،... فكان كأنه قيل: يا منكري البعث ومظهري العجب منه ومقلدي الآباء في أمره بالأخبار التي أكثرها كاذب! اسمعوا قصة أبيكم إبراهيم عليه السلام التي لقاكم بها الاستدلال على البعث وجمع المتفرق وإعادة الروح بإخبار من لا يتهم بشهادة القرآن الذي أعجزكم عن الإتيان بمثل شيء منه فشهادته شهادة الله لتصيروا من ذلك على علم اليقين بل عين اليقين" (١).

وهذا كله لتقرير حقيقة البعث والإحياء، وللرد على اليهود الذين لا يقيمون للأخرة وزناً وحساباً، ولكي يوقن المؤمنون أن الله وحده هو الذي يهب الحياة للأفراد والأمم، وأن الحياة الحقيقية للأمم لن تكون إلا بالقتال في سبيله سبحانه، ولهذا جاء في ثنايا هذا المقطع الأمر بالجهاد بشقيه: جهاد المال وجهاد النفس.

وتتناغم هذه القصص مع محور السورة العام؛ الذي يتحدث في شقه الثاني عن أمة الإسلام ودورها المنوط بها لإحياء الدنيا على منهج الله.

وقد قلنا إن الأحياء والإماتة لا يقصد بها الجانب المادي فقط، وإنما يقصد بها أيضاً الجانب المعنوي الذي يمثله لنا قصة طالوت وجالوت؛ حيث أحيا الله الأمة ببركة الجهاد في سبيله، وهذا متناغم مع أمر الأمة الإسلامية بالقتال في سبيل الله؛ لتحيا بأوامر الله وتحيا بها العالم بلا إكراه في دخول الدين، بعد أن تعرض سابقوهم للموت المعنوي.

وقد أشار بعض الباحثين إلى خيط دقيق يربط أجزاء هذا المقطع مع بعضه البعض فقال: «ولو دققنا في سياق الآيات لوجدنا خيطاً رفيعاً يربط بينها جميعاً. فالسياق هو بيان قدرة الله تعالى من خلال الإحياء والإماتة اللتين زعم نمرود أنه يقدر عليهما وأراد أن يلبس على الناس في ذلك.

فالصورة الأولى: الإحياء والإماتة في الإنسان: ﴿فَأَمَّا اللَّهُ فَمَنْعَهُ عَرْمُؤُهُمْ بِعَثْمِهِ﴾.
والصورة الثانية: الإحياء والإماتة في الحيوان ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي ١/ ٥٠٨.

لِلنَّاسِ^ط وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا ﴿٢٤٣﴾.

والصورة الثالثة: الإحياء والإماتة في الطير ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾.

والصورة الرابعة: الإحياء والإماتة في النبات ﴿كَمْثِلِ حَبَّةَ أَتْبَتَّتْ سَبَعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةً حَبَّةً﴾.

والصورة الخامسة: الإحياء والإماتة في الأعمال (الأعراض) ﴿وَاللَّهُ يَضْعِيفُ لِمَن يَشَاءُ^{هـ} وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صِدْقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾.

إذن الإحياء والإماتة من خصائص الألوهية فهو الحي القيوم، المحيي المميت، وقد عرض لنا هذه الصور الخمس للحياة والموت لهذه المخلوقات المادية والمعنوية، وهي المناسبة التي ربطت بين الآيات جميعها^(١).

أضف إلى هذا أن أول قصة في هذا المقطع وهي قصة طالوت وجالوت فيها نفس خط الإحياء والإماتة بشقيه، وبينت أن الصبر من أهم أسباب النصر، وقد جاء هذا المعنى في عدة مواطن من السورة، ووصف الله به المؤمنين في آية البر.

ومن ارتباط هذا المقطع بخط السورة العام، وهو خط الخلافة والتمكين، أن قصة طالوت وجالوت تحدثت عن الجهاد وبيان أنه الوسيلة المثلى لرفع الفساد من الأرض ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ^و النَّاسِ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾، وهذا الفساد هو الذي تخوفت منه الملائكة حينما قالوا: ﴿أَجْعَلْ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾. فلن يزاح الفساد إلا بالجهاد.

ويؤكد هذا المقطع أن الظالمين لا يستحقون الخلافة بالإمامة في الدين ولا في الدنيا، فقد

(١) بحث: «المناسبات وأثرها على تفسير القرآن الكريم» للدكتورين عبد الله الخطيب ومصطفى مسلم ص ١١، ١٢. منشور في: مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والإنسانية. مجلد ٢. عدد ٢ ربيع الثاني ١٤٢٦، يونيو ٢٠٠٥م.

استبعدتهم الآيات في قصة إبراهيم: ﴿ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ ، ثم جاء المثال العملي على ذلك في قصة طالوت وجالوت ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ، ومثل هؤلاء لا يستحقوا أن يقوموا بأمر الله في دنيا الناس، ونرى كذلك أن الله قد سجل الظلم على بني إسرائيل في أكثر من موطن بالسورة.

وللعلم دوره في الخلافة البشرية في الأرض؛ فهو الأمر الذي فضل الله به آدم على الملائكة ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ ، وهو سبب اختيار طالوت للملك ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ ، وقد تكرر لفظ العلم في هذه السورة الكريمة أكثر من ستين مرة بالفاظ ودلالات متقاربة وصيغ متشابهة. ولذلك كان أول ما قاله العزيز بعد أن رأى آية الله ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، وكان العلم مما أعطاه الله داود ليتولى الخلافة في الأرض، قال تعالى ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَنَّا شَاءَ ﴾ . والعلم بالله وصفاته مما يعين على أداء تكاليف الخلافة: ﴿ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٤٤).

المقطع الخامس: الإنفاق. آدابه والمستحقون له (٢٦١-٢٧٤)

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعَهَا أَدَىٰ وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَمَاتَتْ أُكُلُهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْجَبْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتِمَّمُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِتَاجِرِيهِ إِلَّا أَنْ تُخِصُّوا فِيهِ وَعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِّنْ نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِنْ تَبَدُّوا لَأَصْدَقْتُمْ فَنِعْمًا هِيَ وَإِنْ تُخَفُّوهُا وَتُوْتُوهُا الْفَقْرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ

يَسْمِعُهُمْ لَا يَسْتَلُونَ النَّاسَ إِحْكَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع السابق:

تحدث المقطع السابق حديثاً موجزاً عن الإنفاق وحدثاً مطولاً عن الجهاد، وجاء ذكرهما معاً في قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَعْصَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [٢٤٤، ٢٤٥]. وجاء الأمر بالإنفاق في قوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ [٢٥٤]

فبعد أن جاء الحديث عن الجهاد وبيان قيمة الموت والحياة بشكل تفصيلي عاد الحديث هنا مرة أخرى عن الإنفاق بشكل مفصل، فبدأ بالحض عليه ثم بين آفاته من المن والأذى وغير ذلك.

وقد سبقت الإشارة إلى ذكر المناسبة بين المقطع السابق وبين بداية هذا المقطع؛ حيث اتصل الحديث عن قضية الإحياء والإماتة في أكثر من موطن، وجاء الحديث هنا عن إحياء الصدقات ومضاعفتها بأسلوب ينبض بالحياة ويصور المضاعفة بأسلوب رقيق يستجيش في النفس مشاعر الخير، ويظلل الحدث بجو الحياة الذي سبق ذكر أمثلته المادية ليأتي هنا ذكر الحياة المعنوية والمضاعفة الحسية حتى يعلم المنفق أنه لا يعطي بل يأخذ ولا ينقص بل يزداد.

التفسير الإجمالي للمقطع:

شبه الله تعالى في هذه الآية الكريمة المنفق ونفقته بمثل من زرع حبة في أرض خصبة فأنبت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة، وهذا على سبيل التكاثر وإلا: فالله يضاعف على السبعمائة إلى ما يشاء بغير حد وذلك على قدر إيمان المنفق وإخلاصه ووقوع صدقته موقعها وحسن النفع

بها، فالله تعالى هو الواسع الذي لا ينحصر عطاؤه العليم بمن يستحق المضاعفة.

وجاءت الآية بأسلوب يستجيش العاطفة، ويستثير في النفس مشاعر فياضة من الحب والرضا، ويدفعها دفعاً إلى البذل، فنحن ما نعطي إلا لنأخذ أضعافاً مضاعفة بلا حصر ولا عد، وهذا إحياء ومضاعفة للأعمال مرتبط بجو الحياة الذي ظلل أجواء السورة المباركة.

ثم بينت الآية بعدها أن الإنفاق في سبيل الله يشترط ألا يعقبه ذكر الصدقة على سبيل المن والإيذاء. فمن تحاشى هذين كان له من الله الأجر الجزيل والأمن إذا خاف الناس والسرور إذا حزن الناس، وهذا أعظم جزاء للمنفقين.

ولتأكيد النهي عن المن والأذى بين الحق أن القول المعروف وستر حال الفقير خير من الصدقة التي يعقبها الأذى فالله غني عن صدقة المتصدقين وحليم لا يعاجل المخطئ بالعقوبة.

ثم حذر من إبطال الصدقة بالمن والأذى وضرب لذلك مثلاً محسوساً كحال من ينفق مراثياً للناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فيصير عمله مردوداً عليه فشبهه بالحجر الأملس الذي عليه تراب فنزل عليه المطر الغزير فتركة أملس فكذلك هؤلاء لا يقدر يوم القيامة على ثواب شيء مما كسبوا والله لا يهدي الكافرين للسداد.

أما المؤمنون الذين ينفقون أموالهم طلباً لمرضاة الله وبقلب ثابت عند إخراجه غير جزع ولا هلع^(١) فإن صفتهم وصفة نفقاتهم كصفة بستان في مكان مرتفع من الآفات يربو عطاؤه مضاعفاً إن نزل الوابل الكثير فإن لم يكن كثيراً فالطل القليل ينبتة وكذلك المؤمن في كل أحواله من يسر أو عسر لا ينقطع خيره. والله يعلم المخلص من المراثي، وفي ذكر نوعي الوابل والطل إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير والقليل؛ فمن الناس من يكون إنفاقه ابلاً ومنهم من يكون إنفاقه طلاً والله لا يضيع عمل هذا ولا ذاك.

(١) انظر: الأمثال في القرآن لابن القيم ص ٥٠

ثم تقح الآيات حال من أتلف صدقته وعمله وتفر منه بالمثال المحسوس وهو مثل صاحب جنة نخيل وأعنان فيها من كل الثمرات والمنافع، وأصابه الكبر الذي يقعه عن الكسب وله صبيان ضعفاء لا كسب لهم إلا البستان. فأحيط بثمره وأصابته ريح شديدة فيها نار فأهلكته فكذلك المرائي يفتقد عمله وهو أحوج ما يكون إليه عند عدم الناصر، ومثل هذا البيان يوضح ربنا الآيات لتتفكر فتتعظ ونزجر.

وإذا كانت الآيات السابقة قد تحدثت عن النفقة وحال المنفق فإن الآية التي معنا تحدثت عما يجب مراعاته في المال الذي ينفق من حيث صفته ونوعه فأوصت المؤمنين أن يكون إنفاقهم من كسبهم وما عملته أيديهم وكذلك مما من الله به عليهم من خيرات الأرض من زروع ومعادن، ثم نهتهم أن يقصدوا الخبيث من المال للنفقة وهم لا يرضون بمثله لأنفسهم إلا أن يتساهلوا فيه تساهل من أغمض عينه فلم يبصر، والله لا يأمرنا بالصدقة إلا لنفعا لنا فهو غني عنها محمود بأوصافه وأفعاله.

وقد ورد في أسباب النزول أن الأنصار كانوا يتصدقون برديء التمر فنزلت الآية.^(١)

وإذا علم المرء التضعيف الوارد للصدقة فإن النفس تهفو لها لكن الشيطان يخوف الناس بالفقر إن أنفقوا ويأمرهم بالبخل ويزينه لهم فيمسكوا، وهذان جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان: التخويف من فعل الخير والترغيب والتزين لفعل الشر. والفحشاء صفة لموصوف محذوف ليفيد عموم كل خصلة فاحشة وعلى رأسها البخل. والله يعد المتصدق بالمغفرة التي تقيه الشر وبالفضل الذي يهبه الخير. فهو الواسع العطاء العليم بمن يستحق من فضله فيعطيه ومن يستحق من عدله فيمنعه.

ومن جملة العطاء المعنوي الحكمة التي يهبها من شاء من عباده فلا يلتفتوا لوعيد الشيطان،

(١) رواه مطولاً الحاكم في المستدرک برقم/٣١٢٧ وصححه على شرط مسلم، والترمذي في سننه برقم/٢٩٨٧ عن البراء، وقال الترمذي: حسن صحيح، وابن ماجه في سننه برقم/١٨٢٢، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/٩٠: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

وأعظم بها من نعمة، والظاهر من سياق النص أن الحكمة هبة الله لأولئك الذين يتصدقون من أموالهم، يفيض الله عليهم الحكمة جزاء لهم على صنيعهم، فمن حازها فقد حاز الخير الكثير؛ لأنها تحكم العقل وتمنعه عن الخطأ، وتجعله يصيب الحق بالعلم والعمل، وما ينتفع بالتذكر إلا ذو العقول الخالصة.

وإن كل هذه النفقات سواء كانت خيراً أو شراً وكل نذر معلوم مجازي به عند الله، فمن وضع الشيء في غير موضعه فليس له من الله نصير.

ومن أبدى الصدقات فهو خير، ومن أخفاها وأعطاهم الفقراء فهو خير، قال رسول الله ﷺ: (صدقة السر تطفئ غضب الرب)^(١) ويكفر الله عنه من سيئاته فهو سبحانه خير بأعمال عباده ونياتهم.

ولكل من الصدقتين موقعها؛ قال القاضي أبو بكر بن العربي: «أما صدقة الفرض فلا خلاف أن إظهارها أفضل كصلاة الفرض وسائر فرائض الشريعة؛ لأن الإنسان يحرز بها إسلامه ويعصم ماله.... وأما صدقة النفل.. فالتحقيق فيه أن الحال في الصدقة تختلف بحال المعطي لها والمعطى إياها والناس الشاهدين لها. أما المعطي فله فائدة إظهار السنة وثواب القدوة وأفتها المن والأذى، وأما المعطى إياها فإن السر أسلم له من احتقار الناس.. وأما حال الناس فالسر عندهم أفضل من العلانية»^(٢).

وقد خصصت الآية الإخفاء بالإيتاء للفقراء وفي هذا إشارة إلى أن الأفضل إعطاء الصدقة للفقير سرّاً، أما المصالح العامة فالجهر فيها أفضل للاقتداء، والله أعلم.

ولما تخرج بعض الصحابة من الصدقة على غير المؤمن نزل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ ،

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم/ ٨٠١٤ عن أبي أمامة وله طرق عدة، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١١٥/٣ : وإسناده حسن.

(٢) أحكام القرآن للقاضي أبو بكر بن العربي ١/ ١٣٥.

قال ابن عباس: « كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين فسألوا فنزلت الآية^(١). والمعنى: ليس على النبي ولا على غيره من باب أولى أن يكلف بإجبار الناس على الهداية فالله هو الذي يوفق للهداية، وكل نفقة ينفقها المرء فإن نفعها دنيا وأخرى راجع إليه، ولا ينفق عبد نفقة إلا إذا كانت خالصة وهذا نهي جاء في صيغة الخبر، وكل ما أنفقه المرء فإنه يجزاه يوم القيامة الجزاء الأوفى فلا ينقص منه شيئاً.

ثم بينت الآية أولى الناس بالصدقة وقد وصفتهم الآية بست صفات:

أولها: أنهم فقراء. وثانيها: أنهم حبسوا أنفسهم عن الدنيا في سبيل مرضاة الله، قيل: هم فقراء الصفة^(٢)، والمعنى عام يشملهم ويشمل غيرهم ممن كان على وصفهم، وثالثها: أنهم لا يستطيعون السفر في الأرض لتجارة ونحوها. ورابع صفاتهم: أن غير العارف يظنهم أغنياء لمبالغتهم في التعفف عن السؤال، وخامسها: يعرفهم ذو اللب بعلاماتهم من أثر الحاجة والفاقة. وسادسها: أنهم لا يسألون الناس ولا يلحون أو يستعطفون. فمن أنفق عليهم فالله عليهم بنفقتة، لا يخفى عليه حسن النية وتحري النفع.

وبقي الحديث عن زمان النفقة فيبين القرآن بأن أهل الخير ينفقون في كل وقت ليلاً كان أو نهار وعلى أي حال سراً كان أو علانية وهؤلاء أجرهم عند ربهم المتولي أمرهم فلا يخافون من المتوقع ولا يجزنون على الماضي.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم/ ٣١٢٨ وصححه على شرطهما، والنسائي في الكبرى كتاب التفسير برقم/ ١١٠٥٢، والبيهقي ٤/ ١٩١. قال الهيثمي: ٦/ ٣٢٤ ورجاله ثقات. والرضخ العطية القليلة راجع: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٢/ ٢٢٨.

(٢) فتح القدير للشوكاني ١/ ٢٩٢.

الهدايا المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقدية:

- من اختار الكفر فإن الله لا يوفقه للهداية، قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾.
- هداية التوفيق من الله وحده، قال تعالى ﴿ وَلَئِكَنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾.

ب- الأحكام الشرعية:

- العمل قد يجبط ويبطل ثوابه، ويكون ذلك بالرياء في أوله، وبالمن في آخره.
- استدل الإمام مالك بقوله تعالى: ﴿ لَا بُطْلُوءَ صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ على كراهة إعطاء الرجل زكاته لأقاربه مباشرة، بل الأفضل عنده أن يكون ذلك عن طريق وسيط، وجاء في المدونة: " قلت: رأيت زكاة مالي من لا ينبغي لي أن أعطيها إياه في قول مالك؟ قال: قال مالك: لا تعطها أحداً من أقاربك ممن تلزمك نفقته.

قال: فقلت له: فمن لا تلزمني نفقته من ذوي قرابتي وهو محتاج إليها؟ فقال: ما يعجبني أن يلي ذلك هو بالدفع إليهم، وما يعجبني لأحد أن يلي قسم صدقته لأن المحمدة تدخل فيه والثناء، وعمل السر أفضل. والذي أرى: أن ينظر إلى رجل ممن يثق به فيدفع ذلك إليه فيقسمه له، فإن رأى ذلك الرجل الذي من قرابته الذي لا يلزمه نفقته هو أهل لها أعطاه كما يعطي غيره من غير أن يأمره بشيء من ذلك، ولكن يكون الرجل الذي دفع إليه ليفرق هو الناظر في ذلك على وجه الاجتهاد"^(١).

وهذا نظر دقيق من الإمام مالك يرحمه الله؛ فقد فهم من الآية أن المعطي يجب أن يكون حذراً من أن يبطل ثواب صدقته. ولهذا فإن أعطى أقاربه فلا يكون الإعطاء منه مباشرة حتى لا يعود إليه جزاء ذنوبي منهم.

(١) المدونة الكبرى للمالك ٢/٢٩٧، ٢٩٨.

- دل قوله تعالى: ﴿ أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ على وجوب زكاة عروض التجارة، وتشمل كل ما يباع ويشترى للتجارة والكسب من عقار أو منقول، والزكاة واجبة في كل أنواع التجارة طالما بلغت نصاباً. قال ابن المنذر: "وأجمعوا على أن في العروض التي تدار للتجارة الزكاة إذا حال عليها الحول"^(١).

- قوله تعالى ﴿ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ دليل لما ذهب إليه الأحناف في زكاة الزروع والشمار؛ حيث ذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى وجوب الزكاة في كل ما أخرجت الأرض في كل مزروع ومغروس من الفواكه والبقول والحبوب والخضر. وهذا هو الصواب والله أعلم، لعموم الآية وعموم قوله ﷺ: (فيما سقت السماء والعيون العشر)^(٢) قال ابن العربي معلقاً على قوله تعالى ﴿ وَأَتَاوْا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام/ ١٤١]: "وأبو حنيفة جعل الآية مرآة فأبصر الحق"^(٣).

- وفي الآية دليل على زكاة المعدن والركاز، فهو من جملة ما أخرجت الأرض. وقد اتفقوا على وجوب الزكاة في المعدن على خلاف بينهم في المعادن الواجب فيها الزكاة ومقدار الزكاة الواجبة فيها^(٤).

- في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ دليل على جواز إعطاء الكافر من صدقة التطوع، وقد ورد عن النبي: (تصدقوا على أهل الأديان)^(٥)، وهذا من ساحة الإسلام الدينية؛ فليس معنى كونهم ذميين أو مشركين ألا يعطوا من أموال الصدقات. أما الزكاة

(١) الإجماع لابن المنذر ص ٤٥ برقم/ ١١٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر برقم/ ١٤١٢ ومسلم في صحيحه بنحوه برقم ٩٨٠ عن جابر.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٢/ ٢٨٣.

(٤) وللتفصيل راجع: بدائع الصنائع للكاساني ٢/ ٦٥، روضة الطالبين للنووي ٢/ ٢٨٢، الشرح الكبير لابن قدامة ١/ ٤٨٦، الكافي في فقه ابن حنبل لابن قدامة ١/ ٣١٢.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف برقم/ ١٠٣٩٨ بسند رجاله ثقات لكنه مرسل عن سعيد بن جبير، وأسنده سعيد إلى عبد الله بن عباس عند ابن أبي حاتم برقم/ ٢٨٥٣ وسنده حسن.

المفروضة فلا يعطون منها؛ قال ابن المنذر: «وأجمعوا على أن الذمي لا يعطى من زكاة الأموال شيئاً»^(١). وذلك لوصية النبي ﷺ لمعاذ: (.. فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم)^(٢). قال الأحناف: القياس أن يأخذ الذمي من مال الزكاة لدفع حاجته، ولكن تركنا القياس لحديث معاذ.

وفي صدقة الفطر خلاف؛ فأجاز أبو حنيفة وعمرو بن عمرو بن شراحيل إعطائهم منها، وكلام القرطبي في المسألة يشعر بجواز إعطائهم منها. ومنعها الشافعي وغيره.^(٣)

- يعتبر بالسيا والزبي؛ لأنه حجة، قال الله تعالى: ﴿ تَعْرِفُهُمْ بِسِيْمَتِهِمْ ﴾ ﴿ يُعْرِفُ الْمَجْرِمُونَ بِسِيْمَتِهِمْ ﴾ [الرحمن: ١٤] كما لو اختلط الكفار يعني موتانا بموتاهم الفصل بالزبي والعلامة^(٤).

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية

- المن خلق ذميم يبطل ثواب الصدقة ويمحو فضلها، بالإضافة إلى العقوبة الأخروية التي تنال صاحبه؛ عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة المنان الذي لا يعطي شيئاً إلا منه والمنفق سلعته بالحلف الفاجر والمسبل إزاره)^(٥).

- ويقابله قول المعروف والمغفرة وذلك بالكلمة الطيبة وهي صدقة في حد ذاتها؛ قال رسول الله ﷺ (والكلمة الطيبة صدقة)^(٦).

(١) الإجماع لابن المنذر ص ٤٦ برقم/ ١١٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ١٣٣١ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٩. وانظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/ ٣٦٩.

(٣) المبسوط للسرخسي ٣/ ١١١ المغني لابن قدامة ٢/ ٣٦٥.

(٤) شرح فتح القدير لابن الهمام ٦/ ١١٤، ١١٥.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ١٠٦.

(٦) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه برقم/ ١٠٠٩ عن أبي هريرة.

- من أخلاق الإسلام الحسنة: إخراج الطيب، وعدم إخراج الخبيث صدقة على المساكين؛ فإذا كان الإنسان لا يأكل طعاماً أو لا يلبس ملابساً لرداءته فأجدر به ألا يطعم الفقير منه أو يكسوه، عن عائشة قال: أتى رسول الله ﷺ بضب فلم يأكله ولم يمه عنه. قلت: يا رسول الله، أفلا نطعمه المساكين؟ قال: (لا تطعموهم مما لا تأكلون)^(١). وهذا تقدير عالٍ لنفسية الفقير ولمشاعره، فهي صدقة معنوية قبل أن تكون صدقة حسية.

- لما مدح الله الذين لا يسألون الناس إلحافاً دل ذلك على ذم من يسأل الناس إلحافاً، وقد ورد في السنة ذم الإلحاف والنهي عنه؛ فعن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تلحفوا في المسألة فوالله لا يسألني أحد منكم شيئاً فتخرج له مسألته مني شيئاً وأنا له كاره فيبارك له فيما أعطيته)^(٢).

- وقد تكاثرت النصوص النبوية التي تحث على خلق التعفف وترغب فيه، وتذم المسألة، وتتوعد من اعتادها ليكثر ماله بالنار، وقد بينت السنة ضابط السؤال ومن يجوز له أن يسأل؛ فقد قال رسول الله ﷺ: (من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم. قالوا: يا رسول الله، وما يغنيه؟ قال ما يغديه أو يعشيه)^(٣).

قال الخطابي: «قد اختلف الناس في تأويله؛ فقال بعضهم: من وجد غداء يومه وعشاءه لم تحل له المسألة على ظاهر الحديث، وقال بعضهم إنها هو فيمن وجد غدائه وعشاءه على دائم الأوقات فإذا كان ما يكفيه لقوته المدة الطويلة فقد حرمت عليه المسألة»^(٤).

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١٠٥/٦ والبيهقي في سننه الكبرى ٣٢٥/٩. وقال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى ورجلها رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٣٧/٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/١٠٣٨.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم/٣٣٩٤، وأبوداود بنحوه برقم/١٦٢٩، وأحمد ١٨٠/٤ من حديث سهل بن الخنظلية، قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح. مجمع الزوائد ٩٦/٣.

(٤) نقله العظيم آبادي في عون المعبود شرح سنن أبي داود ٢٥/٥.

- قوله تعالى: ﴿ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ يعد دليلاً على الفراسة الصادقة، وقد مدح الله الفراسة الصادقة وأثنى على أهلها في كتابه الكريم فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴾ (٧٥) [الحجر/ ٥٧]. وقال النبي: (إن لله عبداً يعرفون الناس بالتوسم)^(١). ومنها فراسة إيمانية ومنها فراسة تأتي بالتعلم أو بالرياضة^(٢).

- أهمية الإخلاص في النفقة وفي غيرها من الأمور.

د- الجوانب التربوية :

- على المرء أن يحب للناس ما يحب لنفسه، وأن يعامل الناس بما يجب أن يعاملوه به؛ فإذا كان لا يقبل الخبيث إلا على مضض وكره فعليته في المقابل ألا يعطي الناس الخبيث، وهذا ضابط مهم على المرء أن يقيس أفعاله تجاه الناس عليه، فما يقبله لنفسه فليقبله للناس وإلا فلا، ومن التزم بهذا فإنه يكون قد حقق كمال الإيمان بمحبته لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه وبهذا الأمر ينجو يوم القيامة؛ قال رسول الله ﷺ: (فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يجب أن يؤتى إليه)^(٣).

- لفظ الضرب في الأرض يوحي بدلالة الشدة، والأخذ بقوة، وهذا له دلالة تربوية؛ فالمسلم يتحرك في الأرض وفق منهج الله بلا تكاسل أو توانٍ أو تخاذل، بل يضرب فيها بقوه. يقول الشعراوي رحمه الله: (عليك أن تضربها حرثاً وتضربها بذراً، لا تأخذ الأمر بهوادة؛ إن الأرض مسخرة من الحق سبحانه للإنسان، يسعى فيها ويضرب فيها، ويأكل من رزق الله

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط برقم/ ٢٩٣٥ عن أنس. قال الهيثمي: إسناده حسن. مجمع الزوائد ٢٦٨/١٠.

(٢) وللتفصيل؛ راجع منزلة الفراسة في مدارج السالكين لابن القيم ٤٨٢/٢.

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر برقم/ ١٨٤٤.

الناتج منها»^(١).

- الشيطان له مدخل في تثبيط الإنسان عن النفقة، فهو يحض الناس على البخل ويعددهم بالفقر إن هم أنفقوا، وليس الأمر قاصراً على الإنفاق فقط، بل يشمل الحض على كل شر وسوء؛ قال رسول الله: (إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان؛ فيإعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك؛ فيإعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك؛ فليعلم أنه من الله تعالى فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان. ثم قرأ: (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء)^(٢). وإيعاد الشيطان قد يكون بإلقاء الخاطر في القلب، وبالوسوسة والإلقاء في السمع، وعلى المسلم أن يستعيذ بالله دوماً من شره، وأن يأخذ بأسباب الوقاية.

- قال بعض الحكماء: من أعطي العلم والقرآن ينبغي أن يعرف نفسه، ولا يتواضع لأصحاب الدنيا لأجل دنياهم؛ لأن ما أعطي أفضل مما أعطوا أصحاب الدنيا؛ لأن الله تعالى سمى الدنيا متاعاً قليلاً وقال: ﴿قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء/ ٧٧]، وسمى العلم خيراً كثيراً^(٣). وذلك في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

- الحكمة هبة من الله يهبها من يشاء من عباده، ونور يقذفه الله في القلب والعقل فيفهم به المرء ويدرك ويتعقل، وهي على قسمين: علمية وعملية؛ فالعلمية الإطلاع على بواطن الأمور، أما العملية فهي وضع كل شيء في موضعه، ومن أوتي الحكمة فقد من الله عليه بخير كثير، والكثير من الله له قدره، ولقلة أهلها قال الفضيل بن عياض: «العلماء قليل

(١) تفسير الشعراوي ١٠/ ١١٩٢.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه برقم / ٩٩٧، والنسائي في الكبرى برقم / ١١٠٥١، والترمذي في سننه برقم / ٢٩٨٨. وقال: حسن غريب. وصحح إسناده مرفوعاً وموقوفاً الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على نفس الحديث عند الطبري في جامع البيان برقم ٦١٢٧.

(٣) بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي / ١ / ٢٠٤.

والحكماء كثير»^(١).

- إثبات تفاضل الأعمال عند الله، فإبداء الصدقة خير ولكن إخفائها أفضل، وهكذا؛ فمن كان ذا بصيرة في دين الله أدرك فقه مراتب الأعمال، وعلم أحب الأعمال على ربه فحرص على أدائها، وحرص على فعل خير الخيرين، وهذا من الحكمة التي يؤتيها الله من شاء من عباده.

- كل من فعل معروفًا أو أنفق مالا فإنه في الحقيقة يعطي لنفسه وينفعها؛ لأن ثواب الخير راجع إليه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ ﴾ فأما خير الدنيا فالبركة في الرزق، والوقاية من مصارع السوء، وطهارة المال وغير ذلك. وأما في الآخرة فالثواب العظيم والخير العميم.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

- هذه هي الدائرة الأخيرة من دوائر الإصلاح، وهي دائرة الإصلاح الأكبر، وارتباط النفقة بالجهاد لا يحتاج إلى بيان.

وسورة البقرة اهتمت بشرح مقاصد الإسلام ووكلياته، وقد سبق بيان حفظ الدين بالعبادات وحفظ العقل وحفظ النسل وجاء هذا المقطع ليتحدث عن حفظ المال، وحفظ المال بوجهتين: الأولى تثيره وزيادته، وهذا يكون بالصدقة، والثانية: الحفاظ على أصله وهذا يكون بالبعد عن الربا الذي يمحق المال، وبالحرص على الكتابة والإشهاد. وقد تكفل هذا المقطع بالجانب الأول وتكفل المقطع اللاحق بالجانب الثاني.

وهذا المقطع مرتبط بالسورة كلها من أولها إلى آخرها؛ فقد ابتدأت السورة بوصف المتقين بأنهم ينفقون مما رزقهم الله، وجاء هذا المقطع ليفصّل آداب الإنفاق ومستحقه.

وجاءت واسطة العقد في السورة وهي آية البر لتحدث عن الإنفاق ومن يستحقونه، ثم

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٤٣٤/٨.

جاء الختام التفصيلي في هذا المقطع.

وتحدث هذا المقطع عن أهل الإحسان ثم تحدث المقطع الذي يليه عن أهل الخسران واختتم بالحديث عن أهل العدل؛ فالأولون هم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار وفي السر والعلن ابتغاء مرضات الله وطمعاً في النجاة، وهم السابقون بالخيرات بإذن الله، أما الطائفة الثانية فهم الذين ظلموا أنفسهم بأكل الربا، وختمت السورة بذكر أصحاب العدل الذين استوفوا حقهم ولم يأكلوا حق غيرهم، وبذلك يكون هذا المقطع مع ما بعده قد استوفى مراتب الناس الثلاثة في المال تصرفاً وتديراً.

المقطع السادس: حفظ الأموال عن الحرام وعن الإضاعة.

الآيات (٢٧٥-٢٨٣)

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُؤُوعِرْقَةً فَنظَرٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَإِنْ نَصَدَقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَأَتَقُوا يَوْمَ تُرْجَمُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى اللَّهِ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاتَّكِبُواهُ وَإِيكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبًا بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن رَضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكَمْ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمٌ لِلشُّهَدَةِ وَأَذْنُهَا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَجَدَّرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَلُوا فَإِنَّهُ سَوْفٌ بِكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُوْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشُّهَدَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

المناسبة بين المقطع والمقطع الذي قبله:

بعد أن تحدثت الآيات في المقطع السابق عن أعلى الناس وأعمالهم في الصدقات الذين يعطون بلا عوض جاء التناسب بالتضاد للحديث عن الذين يستغلون حاجة الفقير فيتعاملون معه بالربا.

ويحسن بنا أن ننقل كلام سيد قطب حول المناسبة بين المقطعين، حيث قال: «الوجه الآخر المقابل للصدقة التي عرض دستورها في الدرس الماضي . . الوجه الكالح الطالح هو الربا! الصدقة عطاء وسماحة، وطهارة وزكاة، وتعاون وتكافل . . والربا شح، وقذارة ودنس، وأثرة وفردية . .

والصدقة نزول عن المال بلا عوض ولا رد . والربا استرداد للدين ومعه زيادة حرام مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه . من جهده إن كان قد عمل بالمال الذي استدانه فربح نتيجة لعمله هو وكده . ومن لحمه إن كان لم يربح أو خسر، أو كان قد أخذ المال للنفقة منه على نفسه وأهله ولم يستريحه شيئاً . .

ومن ثم فهو - الربا - الوجه الآخر المقابل للصدقة . . الوجه الكالح الطالح!

لهذا عرضه السياق مباشرة بعد عرض الوجه الطيب السمح الطاهر الجميل الودود! عرضه عرضاً منفراً، يكشف عما في عملية الربا من قبح وشناعة . ومن جفاف في القلب وشر في المجتمع، وفساد في الأرض وهلاك للعباد .

ولم يبلغ من تفضيح أمر أراد الإسلام إبطاله من أمور الجاهلية ما بلغ من تفضيح الربا . ولا بلغ من التهديد في اللفظ والمعنى ما بلغ التهديد في أمر الربا - في هذه الآيات وفي غيرها في مواضع أخرى - والله الحكمة البالغة»^(١).

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٣١٨/١

التفسير الإجمالي للمقطع:

ابتدأ الحديث عن المرابين الذين يأخذون المال بلا عوض ويأكلون الزيادة في مقابل القرض فيبين الحق أمرهم ونفراً من حالهم وأوضح أنهم لا يقومون يوم القيامة من قبورهم إلى نشورهم إلا كما يقوم المتخبط المصروع من مس الشيطان له، وسبب ذلك أنهم جعلوا الربا المحرم الذي هو الزيادة في المال عند حلول أجل الدين مثل البيع الذي أحله الله لأنه لا استغلال فيه، أما الربا فقد حرمه الله لما فيه من الاستغلال لحاجة الفقير، فمن بلغه تحريم الله للربا فانتهى فوراً فله ما أخذ قبل الإسلام وأمره مفوض إلى ربه. أما من عاد لأكل الربا بعد تحريمه فقد استحق المكث الطويل في جهنم.

والربا في اللغة: مطلق الزيادة^(١)، وفي اصطلاح الشرع شيئان: ربا الفضل وربا النسيئة؛ أما ربا النسيئة فهو أن يزيد في المال بسبب الأجل، وقد كان معروفاً عند العرب فكان الواحد يقرض إلى أجل، ويأخذ كل شهر مبلغاً ويبقى رأس المال كما هو، فإذا حل أجل الدين طالبه بالسداد قائلاً: إما أن تقضي أو تربي، فكان المدين يزيد في الأجل وفي المال^(٢).

وهذا هو ربا الجاهلية الذي يجري في غالب المصارف الآن، وقد توعد أهله بأشد العذاب، ولعن الله كل من شارك فيه، عن جابر قال: (لعن رسول الله ﷺ أكل الربا وموكله و كاتبه وشاهديه، وقال: هم سواء)^(٣).

أما ربا الفضل فهو بيع مال مع زيادة أحد العوضين عن الآخر، كمن باع جرام ذهب بجرامين، وهو حرام أيضاً؛ عن عبادة بن الصامت قال: «إني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح

(١) المصباح المنير للفيومي ٢١٧/١.

(٢) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي ٧/٧٥.

(٣) رواه مسلم في صحيحه برقم/١٥٩٨.

إلا سواء بسواء عيناً بعين فمن زاد أو ازداد فقد أربى"^(١).

وجمهور الفقهاء على تحريمه، وقد ورد عن ابن عمر وابن عباس جوازه لكنهما رجعا عن ذلك^(٢). وجمهور الفقهاء أيضاً على أن الحرمة غير مختصة بهذه الأصناف؛ وذلك لوجود علة التحريم فيقاس عليها.

مراحل تحريم الربا:

لقد مر تشريع الربا بعدة مراحل:

١- الموضوع الأول في سورة الروم وهى مكية، قال تعالى ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبَا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ [الروم/ ٣٩] قال في التفسير الوسيط: "ويبدو لنا أن المراد هنا: الربا الذي حرمه الله تعالى بعد ذلك تحريماً قاطعاً، وأن المقصود من الآية التنفير منه على سبيل التدرج، حتى إذا جاء التحريم النهائي له، تقبلته نفوس الناس بدون مفاجأة لهذا التحريم"^(٣).

٢- الموضوع الثاني: التحذير من فعال اليهود واجترائهم على المحرمات ومن أقبحها الربا، قال تعالى: ﴿ وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ﴾ [النساء ١٦١]^(٤)، وهذا تحريم بالتلويح لا بالتصريح.

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ١٥٨٧.

(٢) وقد روى الحاكم في المستدرک برقم/ ٢٢٨٢ أن أبا سعيد الخدري ذكره بالتحريم فقال: جزاك الله يا أبا سعيد الجنة فإنك ذكرتني أمراً كنت نسيته. استغفر الله وأتوب إليه. فكان ينهى عنه بعد ذلك أشد النهي.

(٣) التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي ٩٠/ ١١.

(٤) جاء تحريم الربا في التوراة؛ ففي سفر الخروج ٢٢/ ٢٥: إن أقرضت فضة لشعبي الفقير الذي عندك فلا تكن له كالمرابي لا تضعوا عليه ربا. وفي إنجيل لوقا ٦/ ٣٤، ٣٥: «وإن أقرضتم الذين ترجون أن تستردوا منهم فأى فضل لكم؟ فإن الخطاة أيضاً يقرضون الخطاة لكي يستردوا منهم المثل، بل أحبوا أعداءكم وأحسنوا وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئاً فيكون أجركم عظيماً». وبهذا نعلم أن الربا محرم في كل الشرائع.

٣- الموضع الثالث في سورة آل عمران؛ حيث ورد النهي عن أكل الربا الفاحش، قال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ﴾ [آل عمران/ ١٣٠] وذلك نهي جزئي جاء تمهيداً للتحريم الكلي.

٤- ثم جاءت هذه الآية الكريمة لتقطع كل سبيل يؤدي إلى إباحة شيء من الربا، ويشمل ذلك كل ما زاد على رأس مال المقرض^(١).

حكمة تحريم الربا:

لقد حرم الله الربا تحريماً قاطعاً، والواجب أن يلتزم المؤمن بأوامر ربه ونواهيه؛ فالأصل في الأحكام الشرعية التعبد بها، ومع هذا فإن العلماء قد اجتهدوا في بيان حكمة تحريم الربا، و إظهار آثاره الاجتماعية والاقتصادية، ومن ذلك ما يلي:

- ١- الربا يقتضي أخذ مال الإنسان من غير مقابل، لأن من يبيع الواحد باثنين نقداً أو نسيئة فيحصل له زيادة مال من غير مقابل، ومال الإنسان متعلق حاجته وله حرمة عظيمة، قال ﷺ: (حرمة مال الإنسان كحرمة دمه)^(٢) فوجب أن يكون أخذ ماله من غير عوض محرماً.
- ٢- أنه يمنع الناس عن الاشتغال بالمكاسب، وذلك لأن صاحب المال إذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل المال الزائد نقداً كان أو نسيئة خف عليه اكتساب وجه المعيشة، فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والتجارة والصناعات الشاقة، وذلك يفضي إلى انقطاع منافع الخلق، ومن المعلوم أن مصالح العالم لا تنتظم إلا بالتجارات والحرف والصناعات.
- ٣- أنه يفضي إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض؛ فلو حل الربا لكانت حاجة

(١) انظر: أحكام القرآن للجصاص ١/ ١٨٤. وقد استفاض في شرح هذه المراحل ومقارنتها بمراحل تحريم الخمر: العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز في مؤتمر القانون الإسلامي سنة ١٩٥١م، ونقل نبذة منه الشيخ أحمد مصطفى المراغي في تفسيره ١/ ٢٨٥، ٢٨٤.

(٢) رواه الدارقطني في سننه ٣/ ٢٦، والبزار في مسنده برقم/ ١٦٩٩، وأبونعيم في الحلية ٧/ ٣٣٤ وسنده حسن. انظر: تلخيص الحبير لابن حجر ٣/ ٤٦.

المحتاج تحمله على أخذ الدرهم بدرهمين، فيفضي ذلك إلى انقطاع المواساة والمعروف والإحسان.

٤- أن الغالب أن المقرض يكون غنياً، والمستقرض يكون فقيراً. فالقول بتجوز عقد الربا تمكين للغني من أن يأخذ من الفقير الضعيف مالاً زائداً، وذلك غير جائز برحمة الرحيم^(١).

٥- ومن آثار الربا الاجتماعية: شيوع البغضاء والأحقاد بين الناس، ونزع التراحم، وذهاب المعروف والمروءة بين الناس.

٦- ومن آثاره الاقتصادية: ارتفاع الأسعار؛ ذلك أن المنتج والتاجر يقترض بالربا فيرفع السعر لتعويض ما يدفع، وأيضاً: شيوع البطالة؛ فأصحاب الأموال يفضلون الربا عن الاستثمار، وأيضاً: التضخم، وتعطيل الطاقات البشرية، وتعطيل المال عن الدوران والعمل، وشيوع الكساد والبطالة، وإضعاف القدرة الشرائية عند الطبقة الفقيرة، ووضع مال المسلمين في أيدي الكفار، والتسبب في الأزمات الاقتصادية التي تصيب الدول، وقد حدث هذا مع دول آسيا التي كان يطلق عليها النمرور الآسيوية.

ومنها أيضاً: الإسراف وإنفاق المال فيما لا يفيد، قال المراغي: «والسر في هذا أن المقرضين يسهل عليهم أخذ المال من غير بدل حاضر، ويزين لهم الشيطان إنفاقه في وجوه الكماليات التي كان يمكن الاستغناء عنها، وبغيرهم بالمزيد من الاستدانة، ولا يزال يزداد ثقل الدين على كواهلهم حتى يستغرق أموالهم»^(٢).

وإن من آثار الربا أن الله يمحقه ويذهب بركته قال عليه السلام: (ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قلة)^(٣). أما الصدقات فإن الله يزيدها في الدنيا والآخرة، ومع عقوبة المحق

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي ٧/٧٦، ٧٧.

(٢) تفسير المراغي للشيخ أحمد المراغي ١/ ٢٨٤.

(٣) رواه ابن ماجه برقم / ٢٢٧٩ وأخرجه أحمد / ١ / ٢٩٥ عن عبد الله بن مسعود وقال البوصيري في مصباح الزجاجة ٢/ ٢٤: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

الديوية فإن الله يبغض فاعلها الذي كفر بأنعم الله وفعل الآثام.

قال السرخسي: ذكر الله تعالى لأكل الربا خمساً من العقوبات:

إحداهما: التخبيط قال الله تعالى ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾.

الثانية: المحق، قال الله تعالى ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا ﴾ والمراد الهلاك والاستئصال، وقيل ذهاب البركة والاستمتاع حتى لا ينتفع به، ولا ولده بعده.

الثالثة: الحرب؛ قال الله تعالى ﴿ فَأَذْنُوبًا يَحْرَبِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾.

الرابعة: الكفر؛ قال الله تعالى ﴿ وَذُرُوبًا مَبِيتَى مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾، وقال سبحانه بعد ذكر الربا: ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ أي كفار باستحلال الربا، أثيم فاجر بأكل الربا.

الخامسة: الخلود في النار، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(١).

وكعادة القرآن في المقارنة بين الله تعالى أن الذين صدقوا ما أخبرهم به وقبلوه وعملوا الصالحات التي تصلح نفوسهم وأقاموا الصلاة التي تصلح برهم وأدوا الزكاة التي بها تطهر نفوسهم لهم عند الله الأجر الذي لا ينقطع ولا يخافون من الآتي ولا يجزنون من الفاتت.

وبعد المقارنة بين الجزاءين يأتي الأمر الواضح للمؤمنين بتقوى الله التي تضاد أكل الربا والأمر بترك كل ما بقي من الربا عند الناس إن كان إيمانهم تاماً. وإلا يفعلوا فليعلموا ويوقنوا بغضب وحراب من الله رسوله في الدنيا والآخرة، ولم يأت هذا الوعيد إلا في آكلي الربا وقطاع الطريق لمحاربة الناس. وذلك لأن كليهما يفسد في الأرض ويؤذي الناس بأخذ ما معهم قهراً وقسراً. ولذلك توعد الله أهل الربا بالعقوبة الشديدة؛ قال عليه السلام: (ما ظهر في قوم الربا

(١) المبسوط للسرخسي ١٢/١١٠ باختصار.

والزنا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله عز وجل^(١) فإن عدتم عما فعلتم فلکم ما استحققتم من أموالکم لا تظلمون الغرماء بالزيادة ولا تظلمون أنفسکم بنقص شيء من أموالکم.

وإن كان المقترض معسراً فأخروه وأمهلوه إلى وقت يسار ليتمكن من الأداء، وإن أبرأتموه من الدين فهو خير له ولكم من إمهاله وأعظم عند الله إن كنتم تعلمون ثواب ذلك قال عليه السلام: (من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله في ظله)^(٢).

وفي وسط هذه الأحكام والعظات يأتي الأمر باتقاء وحذر يوم عظيم يرجع العباد إلى ربهم فيجازيهم على ما عملوا في الدنيا جزاء وافياً ولا ينقص من أجر أحد شيئاً، وقد ثبت أن هذه الآية هي آخر ما نزل من القرآن الكريم،

ثم تأتي بعد ذلك الآية الجامعة في كتابة الدين وحفظ الأموال وذلك بعد أن رغبت الآيات في إنفاق المال لله ثم في ترك المال الحرام لله ثم رغبت في تأخير المطالبة بالمال للمعسر تحدثت هذه الآية المباركة عن حفظ المال حتى لا يظن ظان أن الإسلام يجعل أهله يفرطون في حفظ أموالهم.

ابتدأت الآية بالنداء المحبب إلى النفوس المؤمنة؛ يا من تحلّيتم بحلية الإيمان إذا دأبن بعضكم بعضاً إلى وقت محدد فاكتبوا هذه المعاملة وليكتبها فيكم كاتب أمين عادل ولا يمتنع الكاتب أن يكتب إحساناً للناس كما أحسن الله إليه وعلمه؛ فيكتب وليمل الذي عليه الدين حتى يكون إملاؤه حجة عليه، وعليه أن يتقي ربه فيما يملئ وألا ينقص مما عليه شيئاً. فإن كان المدين لا يحسن التصرف في ماله أو ضعيفاً لصغر أو هرم أو عاجزاً عن الإملاء لجهل أو خرس فعلى ولي أمره أن يتولى الإملاء بالحق والعدل.

وظاهر هذه التأكيدات الكثيرة يفيد وجوب كتابة الدين، وهو قول الضحاك وابن جريج

(١) رواه أحمد في مسنده ٤٠٢/١ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ١١٨/٤ بسند جيد.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الزهد والرقائق باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر ٨/٢٣١.

والحسن والشعبي وغيرهم، ورجحه الطبري وغيره^(١)، ومما يشهد له قوله ﷺ: (ثلاثة يدعون فلا يستجاب لهم: رجل كانت تحته امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ورجل كان له على رجل مال فلم يشهد عليه ورجل أتى سفيهاً ماله وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: ٥]^(٢)).

وبعد البيان الوافي عن الكتابة انتقل الحديث إلى الإسهاد، فأمر الله أن يطلب شاهدين مسلمين من الذكور فإن لم يتيسر رجلان فرجل وامرأتان، من المرضيين في الخلق والدين، والعلة في أن المرأتين تقومان مقام الرجل هي قلة ضبط المرأة وكثرة نسيانها لأموال البيع والشراء لأنها لا تعلق لها بذلك^(٣) فتقوم إحداها بتذكير الأخرى، ثم نهى الله الشهود عن الإباء عن الشهادة متى دعوا إليها، ونهى عن التضجر من كتابه الدين إلى وقته المحدد له سواء كان الدين صغيراً أو كبيراً فهذا أعدل في علم الله وأعون على إقامة الشهادة وأقرب إلى زوال الشك والريبة، وتلك فوائد ثلاث لكتابة الديون.

ثم استثنى الله من ذلك التجارة التي يجري فيها التداول والتقابض في المجلس ويكون المبيع والتمن حاضرين فعندئذ لا بأس ولا حرج من عدم الكتابة رحمةً بالمتعاملين وتخفيفاً

(١) جامع البيان للطبري ٥٤/٦ وقال الشوكاني: وظاهر الأمر الوجوب. فتح القدير ١/٣٠٠ وراجع: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٤/١٢٦، وفي ظلال القرآن لسيد قطب ١/٣٣٥؛ حيث ذهب إلى وجوب الإسهاد، وهو مذهب الظاهرية أيضاً، راجع: المحلى لابن حزم الظاهري ٨/٨٠.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم ٣١٨١ وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي في التلخيص، ومن طريقه البيهقي في سننه ١٠/١٤٦ عن أبي موسى الأشعري.

(٣) قال الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله: «المرأة ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوذات، فلذلك تكون ذاكرتها فيها ضعيفة، ولا تكون كذلك في الأمور المنزلية التي هي شغلها؛ فإنها فيها أقوى ذاكرة من الرجل، يعني: أن من طبع البشر ذكراً وإناتاً أن يقوى تذكركم للأموال التي تمهم ويكثر اشتغالهم بها، ولا ينافي ذلك اشتغال بعض نساء الأجانب في هذا العصر بالأعمال المالية؛ فإنه قليل لا يعول عليه. والأحكام العامة إنما تناط بالأكثر في الأشياء وبالأصل فيها» تفسير المنار ٣/١٢٥، ١٢٤.

عليهم؛ فالإسلام لا يقف حجر عثرة أمام التيسير على الناس وإنهاء مصالحتهم بسرعة.
والأولى الإشهاد عند البيع، ولا يضار الكاتب والشهيد غيرهما بالتغيير والتخريف ولا
يتعرضا هم للضرر بحملهما على كتابة أو قول غير الحق بالترغيب والترهيب، وإن فعلتم ما
نهيتم عنه من التحريف والتغيير وغيرهما فتكونوا قد خرجتم عن طاعة الله.

ثم ختم الله الآية بالأمر بتقواه وخشيته وتذكير الناس بنعمه فهو الذي يعلم الناس
ويصلح لهم دينهم ودنياهم والله بكل شيء عليم لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؛
ولذلك فإن تشريعه كله حكمة وعدل لأنه العليم سبحانه.

ثم بين سبحانه ما يجب على المؤمن فعله إن لم يتمكن من كتابة الدين سواء بأن كان مسافراً
ولم يجد كاتباً للكتابة أو لم يتيسر له أمر الكتابة لأي سبب ففي هذه الحالة يقوم الرهن المقبوض مقام
الكتابة، والرهن ضمان لحق الدائن عند تعذر أخذ حقه من الغريم، فإن أمن الدائن المدين ووثق في
ذمته ولم يوثق دينه فعلى المدين أن يكون أهلاً لهذه الثقة وليؤد أمانته كاملة وليتق ربه في مراعاة حقوق
الناس، وعلى المؤمنين الصادقين ألا يمتنعوا عن أداء الشهادة، فمن أخفاها وامتنع عن أدائها فقد أثم
قلبه الذي هو أساس كل خير وشر، والله عليم بكل أعمالكم وأقوالكم وسيحاسبكم عليها.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقدية:

- دل قوله تعالى ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ على أن الخلود في
النار غير الخلود المؤبد؛ فأكل الربا قد يكون مؤمناً، والمؤمن لا يخلد في نار جهنم أبداً، أما
الكافر فإن خلوده في النار مؤبد لا غاية ولا نهاية والله أعلم.

ب- الأحكام الشرعية:

- إباحة كل البيوع ما لم يكن هناك دليل على التحريم، قال تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ ﴾ والألف
واللام هنا للجنس فتفيد معنى العموم؛ فالأصل في البيوع الحل؛ قال الشافعي: "فاحتمل

إحلال الله البيع معينين: أحدهما: أن يكون أحل كل بيع تبايعه المتبايعان، جائزي الأمر فيما تبايعاه عن تراض منهما. وهذا أظهر معانيه .

والثاني: أن يكون الله أحل البيع إذا كان مما لم ينه عنه رسول الله ﷺ المبين عن الله عز وجل معنى ما أراد^(١).

- دلت الآيات الكريمة على تحريم الربا تحريماً قطعياً، ويستفاد ذلك من وجهين: أولهما: أن الله شبه آكلي الربا بتشبيهه يحمل أقبح الصفات وذلك للتحذير من الربا. وثانيهما: قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [٥٧٢] فقد توعدت الآية بالخلود في النار من عاد إلى أكل الربا بعد أن حذر الله منه.
- يجوز إطلاق وصف المحاربة لله ورسوله على من يفعل معصية عظيمة ويجاهر بها، ولا يلزم أن تكون كفراً؛ فقد وصف الله آكلي الربا بذلك، وهم لا يكفروا إلا باستحلاله.
- دل قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ مع قوله ﴿ وَإِنْ تَبَتُّمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ ﴾ على ثبوت المطالبة لصاحب الدين على المدين، وجواز أخذ ماله بغير رضاه، ويدل على أن الغريم متى امتنع من أداء الدين مع الإمكان كان ظالماً؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ ﴾ فجعل له المطالبة برأس ماله. فإذا كان له حق المطالبة، فعلى من عليه الدين لا محالة وجوب قضائه^(٢).
- من كثرت ديونه وطلب غرماؤه ما همم فللحاكم أن يخلعه عن كل ماله ويترك له ما كان من ضرورته. والمشهور عن مالك أنه يترك له كسوته المعتادة ما لم يكن فيها فضل، ولا ينزع منه رداؤه إن كان ذلك مزرباً به. والأصل في هذا قوله تعالى ﴿ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ﴾.

(١) أحكام القرآن للشافعي ١/ ١٣٥.

(٢) أحكام القرآن للكنيا القرطبي ١/ ٢٣٧.

عن أبي سعيد الخدري قال: أصيب رجل في عهد رسول الله ﷺ في ثمار ابتاعها فكثر دينه، فقال رسول الله ﷺ: (تصدقوا عليه) فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه. فقال رسول الله ﷺ لغرمائه: (خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك)^(١). وهذا نص، فلم يأمر رسول الله ﷺ بحبس الرجل^(٢).

- جواز البيع والشراء إلى ميسرة.

- جواز الدين إلى أجل سواء في المال أو المبيع، والدين في المبيع يقال له السلم، ودل قوله تعالى ﴿إِنَّ أَجَلَ مُسَمًّى﴾ على أن السلم إلى الأجل المجهول غير جائز، ويؤكد ما ورد عن ابن عباس قال: "قدم النبي ﷺ المدينة، وهم يسلفون بالتمر الستين والثلاث، فقال: (من أسلف في شيء ففي كيل معلوم ووزن معلوم، إلى أجل معلوم)^(٣).

- قوله تعالى: ﴿وَلِيُمْلِلِ الَّذِينَ عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلِيَتَّقِيَ اللَّهَ رَبَّهُمْ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا﴾ فيه إثبات إقرار الذي عليه الحق وإجازة ما أقر به وإلزامه إياه؛ لأنه لولا جواز إقراره إذا أقر لم يكن إملاء الذي عليه الحق بأولى من إملاء غيره من الناس. فقد تضمن ذلك جواز إقرار كل مقر بحق عليه^(٤).

- قوله عز وجل: ﴿وَلِيَتَّقِيَ اللَّهَ رَبَّهُمْ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا﴾ يدل على أن كل من أقر بشيء لغيره فالقول قوله فيه لأن البخس هو النقص؛ فلما وعظه الله تعالى في ترك البخس دل ذلك على أنه إذا بخس كان قوله مقبولاً^(٥).

- قوله تعالى ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِينَ عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤْمَلَ هُوَ فَيُمْلَلِ وَلِيُّهُ

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم/١٥٥٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٤/٤١٧ بتصرف.

(٣) رواه البخاري في صحيحه برقم/٢٢١٥، ومسلم في صحيحه برقم/١٦٠٤.

(٤) أحكام القرآن للجصاص ٢/٢١٠.

(٥) أحكام القرآن للجصاص ٢/٢١١.

بِالْعَدْلِ ﴿ تنازعه الفقهاء؛ فذهب بعضهم إلى أنه دليل على جواز الحجر على السفية الذي لا يعرف أن يحافظ على ماله؛ حيث أجاز لوليه الإملاء عنه، وهذا مذهب الجمهور، وذهب الإمام أبو حنيفة إلى عدم جواز الحجر على السفية؛ لأن الآية أجازت مداينة السفية وحكمت بصحة إقراره في مدينته؛ وإنما خالفت بينه وبين غيره في إملاء الكتاب لقصور فهمه عن استيفاء ما له وعليه مما يقتضيه شرط الوثيقة^(١).

- في قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ دليل على اشتراط الإسلام في الشهود، لأن الخطاب في الآية كان متوجهاً للمؤمنين، فاقضى ذلك أن يكون الإيذان شرطاً في الشهادة بين المسلمين.

- دلت الآية على جواز شهادة النساء في الأمور المالية، وزاد الأحناف شهادتهن في الطلاق والنكاح والرجعة. قال الجصاص: "ظاهر هذه الآية يقتضي جواز شهادتهن مع الرجل في سائر عقود المداينات؛ وهي كل عقد واقع على دين سواء كان بدله مالاً أو بضعاً أو منفع أو دم عمد لأنه عقد فيه دين.... فاقضى ذلك جواز شهادة النساء مع الرجل على عقد نكاح فيه مهر مؤجل إذا كان ذلك عقد مداينة وكذلك الصلح من دم العمد والخلع على مال والإجازات"^(٢).

- دل قوله تعالى: ﴿مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ﴾ على اشتراط العدالة في الشهود، والعدالة: محافظة دينية تحمل على ملازمة التقوى والمروءة ليس معها بدعة^(٣)، قال في المغني: «الشاهد

(١) لتفصيل رأي الجمهور انظر: المغني لابن قدامة ٢٩٥/٤، والحاوي الكبير للهاوردي ٣٥٥/٦، والكافي لابن عبد البر ٤٢٣/١. وانظر لرأي الإمام: البحر الرائق لابن نجيم الحنفي ٩١/٨ والمبسوط للسرخسي ٢٥٧/٢٤. وقد نظر الجمهور إلى أهمية المال والمحافظة عليه، أما أبو حنيفة رحمه الله فقد رجح الحرية الإنسانية والكرامة البشرية.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٢/٢٣٢.

(٣) سبل السلام للصنعاني ٤/١٢٨.

يعتبر فيه أربعة شروط؛ الإسلام والبلوغ، والعقل، والعدالة، وليس فيها ما يخفى ويحتاج إلى البحث إلا العدالة فيحتاج إلى البحث عنها؛ لقول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ رَضَوْنَ مِنْ الشُّهَدَاءِ ﴾، ولا نعلم أنه مرضي حتى نعرفه، أو نخبر عنه^(١).

وفي كتب الفقه وغيرها ذكر الأمور التي تنخرم بها العدالة.

- قوله: ﴿ وَمَنْ رَضَوْنَ مِنْ الشُّهَدَاءِ ﴾ دليل على تفويض القبول في الشهادة إلى الحاكم؛ لأن الرضا معنى يكون في النفس بما يظهر إليها من الأمارات عليه، ويقوم من الدلائل المبينة له، ولا يكون غير هذا؛ فإننا لو جعلناه لغيره لما وصل إليه إلا بالاجتهاد، واجتهاده أولى من اجتهاد غيره^(٢).

- في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ [٢٨٢] دليل على منع الإباء من أداء الشهادة، فإذا طلب القاضي الشاهد لزمه الأداء.

- قال تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ وهذا دليل على مشروعية الإشهاد على المبيع، وذهب الظاهرية وجماعة إلى الوجوب لظاهر الآية، وذهب الجمهور إلى الندب. قال ابن العربي: «وهو الصحيح؛ فقد باع النبي ﷺ وكتب ونسخة كتابه: (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما اشترى العداء بن خالد بن هوذة من محمد رسول الله ﷺ اشترى منه عبداً أو أمة لا داء ولا خبثة ولا غائلة، بيع المسلم المسلم)^(٣).

- في آية الدين قواعد فقهية عظيمة؛ منها ما توصل إليه القانون الوضعي مؤخراً وعددها من مفاخر تشريعاته وهي موجودة قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، ومن ذلك نظرية الالتزام

(١) المغني لابن قدامة ١٠/١٠٩.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١/٣٣٦.

(٣) أحكام القرآن ١/٣٤٢، والحديث المذكور أخرجه البخاري تعليقاً في البيوع باب رقم ٩ والمراد بالخبثة أي: الحرام، والغائلة: السرقة والإباق. قال النووي في الندب: وبهذا قال جمهور الأمة من السلف والخلف. المجموع للنووي ٩/١٤٦، وانظر لمذهب القائلين بالوجوب: المحلى لابن حزم ٨/٣٤٤.

بالكتابة، وإثبات الدين التجاري، وتحريم الامتناع عن تحمل الشهادات.

ومن هذه القواعد ما لم تصل إليه التشريعات الحديثة رغم كثرة ووفرة المؤسسات التشريعية والاجتماعية، وذلك مثل حق الملتزم في إملء العقد، أي أن يكتب الطرف الضعيف العقد كما قررت الآية؛ فإن في هذا حماية له من الاستغلال، ولم تصل المدنية المعاصرة بعد إلى هذه الدرجة، فإزالت عقود الإذعان هي السائدة في العلاقة بين البائع والمشتري وبين العامل وصاحب العمل وغير ذلك، وهذا مما يدل على سمو هذه التشريعات وعظمتها^(١).

- مشروعية الرهن. وهو الذي يجعل وثيقة بالدين ليستوفي من ثمنه إذا تعذر استيفاء الدين من المدين. وهو مشروع بنص الآية وبالسنة العملية وبالإجماع.

- ذهب جمهور الفقهاء إلى أن الرهن غير واجب؛ قال ابن قدامة: «والرهن غير واجب، لا نعلم فيه مخالفاً، لأنه وثيقة بالدين، فلم يجب كالضمان والكتابة، وقول الله تعالى: ﴿فَرَهْنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ إرشاد لنا، لا إيجاب علينا، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي أَوْتِنَ أَمْنَتَهُ﴾^(٢).

- الرهن جائز في الحضر كما هو جائز في السفر بانفاق، والقيود الذي في الآية خرج مخرج الغالب، فلا مفهوم له.

- الرهن عند جمهور الفقهاء لا بد أن يكون مقبوضاً، قال تعالى: ﴿فَرَهْنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ خلافاً للمالك الذي جعله من شروط التهام لا من شروط الصحة^(٣).

ج - الأخلاق الإسلامية والآداب الشرعية:

- الحرص على الصدقة؛ لأن الله تعالى يريها ويزيدها للمسلم، وفي الصحيح: «من تصدق

(١) التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي للأستاذ عبد القادر عودة ١/ ٥٥ وما بعدها

(٢) المغني لابن قدامة ٤/ ٢١٥.

(٣) المبسوط للسرخسي ٢١/ ٦٨، بداية المجتهد لابن رشد ٢/ ٢٠٦.

بعدل ثمرة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - وإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يريها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل»^(١).

- فضيلة إنظار المعسر، والتجاوز عنه بالخط من دينه أو بتأخير المطالبة، وهذا العمل له من الله الأجر الجزيل، قال رسول الله ﷺ: (من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه)^(٢).

- من الأخلاق الإسلامية التي يجب مراعاتها: العدل. سواء كان في الكتابة أو الإماء، قال تعالى: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبًا بِالْعَدْلِ﴾ [٢٨٢]، وقال: ﴿فَلْيُمْلِلْ وَيُئْتِ بِالْعَدْلِ﴾ [٢٨٢] فبالعدل تُحْفَظُ الحقوق وتُوَدَّى، وبالعدل يمتنع الغش والظلم وأكل أموال الناس بالباطل.

- قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ دليل على أن الشاهد هو الذي يمشي إلى الحاكم، وهذا أمر انبنى عليه الشرع، وعمل به في كل زمن، وفهمته كل أمة، ومن أمثال العرب: "في بيته يؤتى الحكم"^(٣).

- من الآداب الإسلامية العظيمة: عدم المضارة. فيجب إزالة الضرر، وقد نهت الآية عن الضرر وبينت أن فعله فسوق يعني خروج عن طاعة الله، وقد قال النبي: (لا ضرر ولا ضرار)^(٤)، أي لا يضر المرء بقصد أو بدون قصد. وهذا من القواعد الفقهية المهمة، وقد فرعوا عليها

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم/ ١٣٤٤ ومسلم في صحيحه برقم/ ١٠١٤ عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) رواه مسلم في صحيحه برقم/ ١٥٦٣ عن أبي قتادة مرفوعاً.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ٣٣٦ وعنه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٤٥٣. والمثل مما زعمته العرب على ألسن البهائم. انظر: مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٧٢.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم/ ٢٣٤٥ وصححه على شرط مسلم، والبيهقي في سننه الكبرى ٦/ ٦٩ والدارقطني في سننه ٣/ ٧٧ عن أبي سعيد. قال الحافظ العلائي: «للحديث شواهد ينتهي مجموعها إلى درجة الصحة أو الحسن المحتج به». انظر: فيض القدير للمناوي ٦/ ٤٣٢.

عدة قواعد منها: الضرر يزال، الضرر لا يزال بمثله، الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف، الضرر يدفع بقدر الإمكان.

- الحرص على عدم تضييع المال، فإن الله جعله قياماً بأمر الناس.

- الحرص على أداء الأمانة لمن اتتمن أخاه.

د- الجوانب التربوية :

- المعاقبة بنقيض المقصود؛ فالمرابي الذي أراد أن يجمع الأموال الكثيرة يعاقب بضد ما قصد، فيمحق الله ماله.

- إثبات أن الإسلام نظام شامل كامل يتناول كل مظاهر الحياة؛ فأطول آية من آيات القرآن الكريم لم تأت لتقرير الصلاة أو الزكاة وغيرها من العبادات المحضة، وإنما جاءت لتقويم الأمور المالية من البيع والشراء والقرض وغيرها من أمور المعاملات، وهذا برهان واضح على أن الإسلام دين يشمل كل نواحي الحياة ويصبغها بالصبغة الإلهية.

- لعل في التأكيد على كتابة الديون والتشديد في ذلك إشارة إلى ضرورة تعلم أفراد الأمة الكتابة إلا من تعسر عليه ذلك لعجز أو نحوه، والله أعلم.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة :

لهذه الآيات الكريمة صلة قوية ومباشرة بمحور السورة؛ فالحفاظ على المال لا يتم إلا بتحريم الربا تحريماً واضحاً لا لبس فيه، وهو يشير من جانب آخر إلى اليهود الذين استحلوا الربا كما قال تعالى: ﴿ وَأَخَذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْبَهُمْ آمَوالُ النَّاسِ بِالْبِطْلِ ﴾ [النساء/ ١٦١].

كما أن آية الدين التي هي أطول آية في القرآن قد سدت كل أبواب التحايل على الربا، وأغلقت منافذه، فلم يعد هناك مجال للتلاعب بالرهن أو غيره للزيادة على رأس المال.

وفي الآيتين مناسبة جليلة لمحور السورة، لفت النظر إليها بعض الباحثين فقال: " إن النظر في هاتين الآيتين من هذه الناحية يكشف لنا أنها كما تتمتعان بحسن المناسبة وحسن

النظام في إطارهما الخاص، تنسجان تمام الانسجام مع الجو العام لهذه السورة.

وبيانه أن أفضع جريمة اقترفها بنو إسرائيل - كما نعلم من هذه السورة- هي أنهم نقضوا العهد وكتبوا الشهادة. والآيات الصريحة في ذلك كما يلي:

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٦١﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾

[٢٦، ٢٧]

﴿ يَبْنَئِ إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْ يُبْهَدُوا أَوْ يُبْهَدُوا وَإِنِّي فَارِهُونَ ﴾ [٤٠]

﴿ أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [١٠٠]

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ
إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ [٨٣]

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ
وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَتُولَاءُ تُنْقِلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ
تُظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [٨٤، ٨٥]

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ
تَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾
[٦٣، ٦٤]

﴿ أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ
نَصَارَىٰ قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ ﴾ [١٤٠]

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴾ [١٤٦]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴾ [١٥٩]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [١٧٤]

تلك آيات تسجل على بنو إسرائيل نقض العهد والميثاق وتسجل عليهم كتمان الحق وكتمان الشهادة بالنص على هذه الكلمات، وإلا فالآيات التي تفيد هذا المعنى وتشير إلى هذه الجريمة، أكثر منها مرات ومرات.

ثم لما بعثت هذه الأمة لتقوم بدورها في هذا العالم ناداها ربها بتلك الكلمات:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [١٤٣]

وهكذا نرى هذه السورة يسودها جو العهد والميثاق وجو أداء الشهادة والقيام بالحق فامة وصمت بأنها نقضت العهد والميثاق وكتمت الشهادة وكتمت الحق.

وأمة بعثت لتقوم بمهمة الشهادة على الناس، كما أن الرسول بعث ليقوم بمهمة الشهادة على هذه الأمة.

فلنرجع إلى هاتين الآيتين مرة أخرى لنراها كيف تنسجمان تمام الانسجام مع هذا الجوع العام لهذه السورة.

وإن كنا نريد أن ندرك هذا الانسجام التام فلا يكلفنا هذا أكثر من أن نضع في اعتبارنا هذه التوجيهات التي تشتمل عليها هاتان الآيتان.

﴿ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَآمْرُآكَانِ وَمَنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ﴾

﴿ وَلَا يَأْبُ الشَّهَادَةَ إِذَا مَدُعُوا ﴾

﴿ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ ﴾

﴿ وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾

﴿ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾

﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾

﴿ الشَّهَادَةَ ﴾ بمختلف مشتقاتها في آيتين اثنتين ثماني مرات.

وتلك ميزة تتميز بها هاتان الآيتان من بين سائر آيات القرآن، فإننا لا نجد في القرآن آيتين

تكررت فيها لفظه الشهادة كما تكررت في هاتين الآيتين.

وهذا الوضع يكفي لأن يلون جو الآيتين بلون ﴿ الشَّهَادَةَ ﴾ ولكن الأمر لا ينتهي عند

هذا الحد، بل جمع السياق في هاتين الآيتين جميع مقومات الشهادة أو عيون مقومات الشهادة،

فلنتدبر هذه التوجيهات:

﴿ وَلَيَكْتُبَنَّ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ﴾

﴿ فَلْيَمْلِكْ وَلِيُهُ بِالْعَدْلِ ﴾

﴿ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ، وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾

﴿ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا ﴾

﴿ وَأَسْتَشْهَدُوا شَهِدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ وَمَنْ تَرْضَوْنَ

مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضَلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾

- كما نرى - سن الشهادة: وهو أن يكون الشاهد قد بلغ مبلغ الرجال، ونصاب الشهادة: وهو

رجلان أو رجل وامرأتان. ومقومات الشهادة: وهو العدل والقسط والأمانة والتقوى^(١).

(١) البرهان في نظام القرآن للدكتور محمد أسد ٣٨٦-٣٨٨.

وقد نقلت الكلام بطوله لأهميته، ولأنه يكشف عن نظرة عميقة متدبرة لهاتين الآيتين وصلتهما بمحور السورة العام؛ فقد بين أن في هاتين الآيتين سبب سلب الخلافة والقوامة من بني إسرائيل، وفي نفس الوقت فإنه يحذر على أمة الإسلام الخاتمة أن تقع فيما وقع فيها السابقون.

وإننا نلاحظ أن هذه السورة قد حذرت المسلمين من مثالب بني إسرائيل؛ فإذا كانوا لم يتقوا الله بعد أن ذُكِّروا بالتقوى أكثر من مرة فإن المؤمنين جاءهم الأمر بالتقوى في أكثر من موطن، ولما جنبوا عن القتال حذر الله المسلمين من هذا الصنيع في أكثر من موطن. ولما فهموا البر فيها خاطئاً فصل القرآن للمسلمين مفهوم البر الصحيح وهكذا.

خاتمة السورة [٢٨٤-٢٨٦]

دعاء واجابة

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْفِرُ
لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٨١﴾ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ
وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٣٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا
مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا
فَاَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٣٨٦﴾﴾

المناسبة بين الخاتمة والمقطع السابق:

- جاء في ختام سورة البقرة قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (البقرة: ٢٨٤) وهذا تذكير بأن أخذ الديون وردها أو أكلها سحتاً لن يخرج عن ملكوت الله تعالى وتقديراته، وفيه كذلك ترهيب من كتمان الشهادة لأنه سبحانه يحاسب على ما أبدت النفوس وكتمت.

وختام السورة يعرض لما يجول في النفوس، وهذه الخواطر لها علاقة وثيقة بالديون: من حيث نية الأداء أو نية الإلتلاف فالنية وما يدور في النفس هو ما عليه مدار الحساب.

وفي الآيات السابقة تفاصيل لأحكام كثيرة في الدين والرهن مما يناسب التعقيب عليها بالسمع والطاعة، كما في ختام السورة ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

والدين عبء وهم يناسب أن يأتي بعده الدعاء برفع الأثقال التي قد يدخل في جملتها.

ولما ختمت الآيات السابقة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ جاء في أول هذه

الآيات الدليل على ذلك وهو ملك ما في السموات والأرض.

وفي وجه المناسبة بين الآية الأولى وما قبلها من التشريعات المالية يقول الألوسي: "وقوله

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الأمور الداخلة في حقيقتها والخارجة عنها كيف كانت؛ أي كلها ملك له تعالى ومختصة به، فله أن يلزم من شاء من مملوكاته بما شاء من تكليفاته، وليس لأحد أن يقول المال مالي أتصرف به كيف شئت^(١).

وهذه التشريعات المالية أثر من آثار رحمة الله بالأمة والتخفيف عليها وعدم تكليفها ما لا طاقة لها به.

التفسير الإجمالي للمقطع:

تمثل هذه الآيات الثلاث ختام سورة البقرة، وقد جمعهم معاً عدة أحاديث منها ما ورد عن أبي قال: كنت عند النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: يا نبي الله، إن لي أخاً وبه وجع، قال: وما وجعه؟ قال: به لم، قال: فأتني به. فوضعه بين يديه، فعوذته النبي ﷺ بفاتحة الكتاب وأربع آيات من أول سورة البقرة وهاتين الآيتين ﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ إِنَّهُ وَحْدٌ﴾ وآية الكرسي وثلاث آيات من آخر سورة البقرة، وآية من آل عمران ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] وآية من الأعراف ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وآخر سورة المؤمنون ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٦] وآية من سورة الجن ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدًّا رَبَّنَا﴾ [الجن: ٣] وعشر آيات من أول الصافات، وثلاث آيات من آخر سورة الحشر، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين، فقام الرجل كأنه لم يشك قط^(٢). وورد عن ابن مسعود أنه قال: «من قرأ الثلاث الأواخر من سورة البقرة فقد أكثر وأطاب»^(٣).

ومما يؤكد ارتباط الآيات الثلاث أن حديث التخفيف قد وردت فيه الآيات الثلاث متصلة المعاني، فدل ذلك على ارتباطها ووحدة موضوعها. وهذا لا ينفي اختصاص الآيتين

(١) روح المعاني للألوسي ٣/ ٦٤.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ١٢٨، والحاكم برقم/ ٨٢٦٩ وقال: والحديث محفوظ صحيح ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه الخطيب في تلخيص المشابه. الدر المنثور ٢/ ١٣٩. وفيه عدة روايات عن فضل قراءة الآيات

الثلاث من خواتيم سورة البقرة.

الأخيرتين بفضلٍ؛ فإن فيها دعاء وذكرًا وثناءً يحتاج المسلم أن يقرأه ويتدبره ويلهج لسانه به. والآيات تبين أن المولى تبارك وتعالى له جميع ما في السموات وما في الأرض خلقاً وملكاً وتدبيراً، وهذا يتطلب توحيد ربوبيته وألوهيته، ويتضمن أن السؤال والرغبة يكون له فهو المالك لما في السموات والأرض، وبعد أن أخبر الله عن تمام ملكه أخبر عن تمام علمه فيين سبحانه أن كل ما أخفاه الإنسان أو أبداه فإن الله مطلع عليه لا يعزب عن علمه من شيء فيغفر لمن يشاء بفضله ويعذب من شاء بعدله وهو سبحانه على كل شيء قدير.

ولذلك لما نزلت الآية أشفق الصحابة ووجلوا؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « لما نزل على رسول الله ﷺ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم جنوا على الركب فقالوا: يا رسول الله، كلُّنا من الأعمال ما نطيع: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل الله هذه الآية ولا نطيعها، فقال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، آمن الرسول... الآية) فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ الآية^(١).

والنسخ في الآية لا يراد به رفع الحكم الشرعي، وإنما جرى على مصطلح الأولين الذين يطلقون النسخ على كل تغيير في الحكم، قال ابن تيمية: «والنسخ فيها هو رفع فهم من فهم من الآية ما لم تدل عليه؛ فمن فهم أن الله يكلف نفساً ما لا تسعه فقد نسخ الله فهمه وظنه، ومن فهم منها أن المغفرة والعذاب بلا حكمة وعدل فقد نسخ فهمه وظنه؛ فقله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ رد للأول، وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ رد للثاني^(٢).

وعلى هذا فلا نسخ في الآية، وقد رجح الطبري هذا ثم قال في تأويلها: «وإن تبدوا ما في

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم / ١٢٥ عن أبي هريرة.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤/ ١٠٦ وقال القرطبي: «ومما يدفع أمر النسخ أن الآية خبر والأخبار لا يدخلها النسخ». الجامع لحكام القرآن ٤/ ٤٨٨.

أنفسكم أيها الناس فتظهروه، أو تخفوه فتنتوي عليه نفوسكم يحاسبكم به الله، فيعرف مؤمنكم تفضله بعفوه عنه ومغفرته له فيغفره له، ويعذب منافقكم على الشك الذي انطوت عليه نفسه في وحدانية خالقه ونبوة أنبيائه»^(١).

ثم تناغمت خاتمة السورة مع مقدمتها، واتصل آخرها بأولها اتصالاً محكماً وثيقاً، وارتبطت الخاتمة مع المقدمة ارتباطاً محبوكاً يصل بينهما ويحيط بالسورة إحاطة السوار بالمعصم؛ فقد جاء الوعد في أول السورة بالهدى والفلاح لمن أطاع أوامر الله فيها، وها هي نتيجة ذلك الوعد تتحقق، فتذكر الآية جزاء من استمع واتبع، فبينت الآية نجاح الدعوة وأن رسالة النبي ﷺ امتداد للرسالات السماوية السابقة وخاتمة لها؛ فقد صدق الرسول ﷺ وأتباعه من المؤمنين بما أنزل إليه ربه في هذه السورة من عقائد وعبادات وأحكام.

ثم شهد الله بالإيمان الكامل الذي اعتقده الرسول ﷺ فيما أنزل إليه من عند ربه، ثم جمعه هو والمؤمنون في فضيلة الإيمان بالكتاب وبأصول الإيمان الخمسة من التصديق بوحدانية الله وعظمته وبوجود الملائكة الكرام، والكتب المنزلة لهداية البشر، وبالرسل الذين أخرجوا الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم. وهم يقرون بعدم التفريق في الإيمان بين رسول الله، وبذلك باينوا أهل الكفر ومن آمن ببعض الرسل وكفر ببعض.

وهذا ترث الأمة الإسلامية هذا الرصيد الإنساني الطويل، وتعلن بوضوح أنها الأمانة على دين الله وشرعه، والحاملة لمنهجه في الدنيا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ثم أقر المؤمنون بركني الإيمان فقالوا: سمعنا قولك يا ربنا سماع فهم وقبول وإجابة ولم نقل كما قال المغضوب عليهم، بل امثلنا أمرك وأظهرنا انقيادنا لحكمك وشرعك، وإننا مع هذا قد تغلبنا دواعي نفوسنا ولن يصلح أمرنا إلا مغفرتك فاغفر لنا غفرانك، إذ لا بد لنا من الرجوع إليك؛ فإليك وحدك المرجع والمرد والمصير.

(١) جامع البيان للطبري ١٢٣/٦ وقد روي عن ابن عباس ما يؤيد هذا ١١٣/٦.

ثم وفت الآية بالوعد لكل نفس بذلت وسعها في إتباع هذه التكاليف بعد أن بينت أن التكليف لا يكون إلا بما في الوسع المستطاع وما تقدر عليه، دون ما فيه عسر و حرج ومشقة، قال سفيان بن عيينة: "إلا يسرها لا عسرها، ولم يكلفها طاقتها ولو كلفها طاقتها لبلغ المجهود منه". قال الثعلبي: وهذا قول حسن لأنّ الوسع ما دون الطاقة^(١).

ثم أخبر أن ثواب الأعمال إنما يرجع نفعه إلى العباد وحدهم؛ فإن كل نفس لها وحدها ما كسبت من حسنات بسبب الطاعة وعليها عقاب ما كسبت بسبب المعاصي.

وبعد هذا فتحت الآية باب الأمل على مصراعيه لهؤلاء الذين اهتموا، فإنه جملة هذه الأوامر والنواهي في السورة قد يحدث فيها تقصير أو خطأ بمقتضى الطبيعة البشرية، فعلمتهم أن يرفعوا أكف الضراعة لربهم قائلين: أي رب لا تعاقبنا إن نسينا أو امرك أو فعلنا خلاف الصواب جهلاً منا، ربنا لا تكلفنا بما يشق علينا كما كلفت الذين هادوا بسبب ظلمهم، قال الرازي « والمؤمنون إنما طلبوا هذا التخفيف لأن التشديد مظنة التقصير، والتقصير موجب للعقوبة، ولا طاقة لهم بعذاب الله تعالى فلا جرم التمسوا السهولة في التكاليف»^(٢).

وبعد أن سألوا ربهم التخفيف في حكمه وأمره سألوه التخفيف في قضائه وقدره؛ فدعوا ربهم ألا يحملهم ما هو فوق وسعهم وقدرتهم من المصائب والعقوبات وغير ذلك، ثم سألوا ربهم أربعة أمور بها صلاح دنياهم وأخراهم:

أولها: أن يعفوا عنهم بمحو سيئاتهم وإسقاط حقه عليهم، وثانيها: أن يغفرها ويسترها، والمغفرة وقاية، فهم يسألونه أن يقيههم أثر ذنوبهم، فالعفو إسقاط الذنب، والمغفرة تفضل وإحسان. ثم سألوه ثالثاً: أن يرحمهم برحمته التي وسعت كل شيء، فهي زيادة إحسان وعطف. ثم ختموا دعاءهم بهذه الكلمة المعبرة: أنت ولينا ولا مولى لنا سواك، وناصرنا ومعيننا وكافينا

(١) الكشف والبيان للثعلبي ٢/٣٠٦.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي ٧/١٢٧.

وهاديننا، فانصرنا ربنا على القوم الكافرين حتى نتمكن من إظهار دينك وإعلاء كلمتك. والنصر له جانبان: «إقامة الحجّة والغلبة في قتالهم»^(١). وبهذا تختم السورة بهذا الختام الطيب، «إنه الختام الذي يلخص السورة، ويلخص العقيدة، ويلخص تصور المؤمنين، وحالهم مع ربهم في كل حين»^(٢).

وفي الصحيح من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: (أعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيتها)^(٣)، وعن ابن مسعود قال: (لما أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة إليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها قال: (إذ يغشى السدرة ما يغشى) قال: فراش من ذهب، قال: فأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً أعطني الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً المقحّمات)^(٤).

الهدايا المستنبطة من المقطع:

أ- القضايا العقديّة:

- احتج أهل السنة بقوله تعالى ﴿ فَيَعْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ على جواز غفران ذنوب أصحاب الكبائر؛ لأن المؤمن المطيع مقطوع أنه يثاب ولا يعاقب، والكافر مقطوع بأنه يعاقب ولا يثاب، والآية لم تذكر صيغة القطع فدل ذلك على أنها لصنف آخر وهم المؤمنون المذنبون.

- ذهب جمهور الأشاعرة إلى جواز التكليف بما لا يطاق؛ قال الإيجي: "تكليف ما لا يطاق جائز

(١) تفسير الجلالين للمحلي والسيوطي ص ٦٤.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ١ / ٣٤٧.

(٣) سبق تحريجه ص ١٧.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه برقم / ١٧٣. والمقحّمات: الذنوب العظام التي تقحم أصحابها في النار أي تلقيهم فيها. النهاية لابن الأثير ٤ / ١٩.

عندنا، ومنعه المعتزلة لقبحه عقلاً^(١). قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وفي دعاء المؤمنين ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ وقال الله: قد فعلت. وهذا يشهد لعدم جوازه، والصحيح التفصيل: فإن ما لا يطاق يفسر بشيئين: بما لا يطاق للعجز عنه، فهذا لم يكلف الله به أحداً، وما لا يطاق يفسر بالاشتغال بضده، وهذا وقع فيه التكليف.

ب- الأحكام الشرعية :

- اتفق العلماء على أن حديث النفس معفو عنه، أما العزم المصمم فإنه يدخل تحت المجازاة، وقد رتب درجات الدواعي أبو البقاء الكفوي فقال: «السانح ثم الخاطر ثم الفكر ثم الإرادة ثم الهم ثم العزم فالهم اجتباع النفس على الأمر والإزماع عليه. والعزم هو القصد على إمضائه، فالهم فوق الإرادة دون العزم وأول العزيمة، والهم همّان: همّ ثابت؛ وهو ما إذا كان معه عزم وعقد ورضاً؛ مثل همّ امرأة العزيز، والعبد مأخوذ به. وهمّ عارض؛ وهو الخطة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم؛ مثل همّ يوسف عليه السلام، والعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو لم يعمل؛ لأن تصور المعاصي والأخلاق الذميمة لا يعاقب به عليها ما لم توجد في الأعيان، وأما ما حصل في النفس حصولاً أصلياً ووجد فيها وجوداً عينياً فإنه يوجب اتصاف النفس كالصفات النفسانية الردية فقد يؤاخذ بها لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾^(٢). وهو تلخيص جيد لأقوال العلماء في المسألة والله أعلم.

- قال الكيا الهراسي: «قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ يستدل به على أن من قتل غيره بمثقل أو بختق أو تغريق فعليه ضمانه قصاصاً أو دية، خلافاً لمن جعل ديته على العاقلة، وذلك يخالف الظاهر، ويدل على أن سقوط القصاص عن الأب لا يقتضي سقوطه

(١) المواقف لعضد الدين الإيجي ٢٩٢/٣. وانظر للتفصيل: منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٣/٥٣، وشرح

العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص ٤٩٣.

(٢) الكليات لأبي البقاء الكفوي ص ٩٦٠، ٩٦١.

عن شريكه. ويدل على وجوب الحد على العاقلة إذا مكنت مجنوناً من نفسها^(١).

- دل قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ وقول الله: قد فعلت. على أن النسيان مسقط للإثم في الآخرة، قال رسول الله ﷺ: (إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكروها عليه)^(٢). قال الشاطبي: «وهو معنى متفق عليه في الجملة لا يخالف فيه»^(٣). أما في الدنيا فإن وقع النسيان في ترك مأمور لم يسقط ويجب تداركه، ولا يحصل الثواب المترتب عليه لعدم الائتمار كنسيان فرض من فروض الصلاة ونحو ذلك. وإن وقع النسيان في فعل منهي عنه ليس من باب الإلتلاف فلا شيء فيه؛ وذلك كأكل الصائم. أما إن وقع في فعل منهي عنه فيه إلتلاف لم يسقط الضمان، فإن وقع في فعل منهي عنه يوجب عقوبة كان النسيان شبهة في إسقاطها.

- ودلت الآية أيضاً على أن الخطأ معفو عنه؛ قال الشاطبي: « فكل فعل صدر عن غافل، أو ناس، أو مخطئ، فهو مما عفي عنه، وسواء علينا أفرضنا تلك الأفعال مأموراً بها أو منهيّاً عنها أم لا؛ لأنها إن لم تكن منهيّاً عنها ولا مأموراً بها ولا مخيراً فيها فقد رجعت إلى قسم ما لا حكم له في الشرع وهو معنى العفو»^(٤).

واتفق العلماء على أن الخطأ يرفع الإثم عن المجتهد، وأنه شبهة تدرأ الحدود، لكن حقوق العباد لا يرفع فيها الخطأ الإثم، قال الزركشي: « وكل ما أخطأت بينك وبين ربك فغير مؤاخذ به ، وأما الخطأ المتعلق بالعباد فيضمنه»^(٥).

(١) أحكام القرآن للكميا الهراسي ١/ ٢٧٣.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم/ ٢٨٠١ وصححه على شرطها ووافقه الذهبي، وابن حبان في صحيحه برقم/ ٧٢١٩، وابن ماجه في سننه برقم/ ٢٠٤٥، قال ابن حجر: ورجاله ثقات إلا أنه أعل بعله غير قاذحة.

(٣) الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي ٢/ ٣٤٧.

(٤) الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي ١/ ١٦٥.

(٥) البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي ١/ ٢٨٣.

- لا يجوز تصرف أحد على غيره إلا بإذنه.

- قال ابن حزم: «وكل فرض كلفه الله تعالى الإنسان فإن قدر عليه لزمه وإن عجز عن جميعه سقط عنه وإن قوي على بعضه وعجز عن بعضه سقط عنه ما عجز عنه ولزمه ما قدر عليه منه سواء أقله أو أكثره. برهان ذلك قول الله عز وجل: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾»^(١).

ج - الأخلاق الإسلامية والأداب الشرعية :

- من أخلاق الإسلام: اليسر، ورفع الحرج والضيق، وعدم المشقة والإعنات على الناس أو النفس.

- المؤمن يحرص أن يسأل ربه المغفرة في كل وقت وحين، وليكن قدوته في ذلك رسول الله فقد قال: (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة)^(٢).

- كل إنسان مسؤول عن فعله، والتكليف فردي ﴿كُلُّ أَمْرٍ﴾ والجزاء فردي ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾.

د - الجوانب التربوية :

- لقوله تعالى ﴿وإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ دلالة تربوية؛ فالؤمن إذا علم أن الله لا تخفى عليه خافية في نفسه، ويعلم خلجات فؤاده، دفعه ذلك إلى مراقبة الله وألا يخفي شيئاً لا يرضاه.

- من اللفتات الطيبة التي ذكرها الزمخشري قوله: "فإن قلت: لم خص الخير بالكسب، والشر بالاكْتِسَاب؟ قلت: في الاكْتِسَاب اعتمال؛ فلما كان الشر مما تشتهي النفس وهي منجذبة إليه وأمارة به، كانت في تحصيله أعمل وأجدّ، فجعلت لذلك مكتسبة فيه. ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بها لا دلالة فيه على الاعتمال"^(٣).

(١) المحلى لابن حزم ١/ ٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم/ ٥٩٤٨ عن أبي هريرة.

(٣) الكشف للزمخشري ١/ ٣٥٩.

ومعنى كلام الزمخشري رحمه الله أن الخير فطري في النفس، أما الشر فإنه يحتاج إلى تكلف لذلك جاء بصيغة (افتعل) التي تفيد معنى التكلف، وهذا استنباط جيد؛ فالنفس مجبولة على الخير والطاعة، فطرةً من الله أودعت في النفوس، ولا يحتاج الإنسان إلى التكلف في فعل الخير، لأنه منسجم مع نفسه ومع فطرته، ومع ما جبلت عليه النفوس من شكر النعمة ومحبة خالقها، أما الشر فإنه مخالف لأصل فطرة الإنسان، فيحتاج إلى التكلف، والمرابي المسلم يلحظ هذا في تعامله مع الناس؛ فيستجيش نوازع الخير فيهم، ويحبي ما اندرس من معالم الإيثار في نفوسهم حتى يتلقوا أوامر الله بالرضا والقبول.

- من آثار العصيان وعدم الاستجابة لأوامر الله أن يشدد الله على العاصين فيحرم عليهم ما كان قد أحله لهم؛ قال تعالى ﴿ فَيُظَلِّمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحْلَتْ لَهُمْ وَبِصَدْرِهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٦١]، أما الطاعة فمن ثمراتها ألا يحمل الله المرء الأوصار والأثقال والأغلال.

المناسبة بين الخاتمة ومحور السورة:

لخصت هذه الخاتمة أهم مقاصد السورة وبينت أن تشريعات الإسلام مبناها على التخفيف واليسر ودفع الحرج، وقد سبقت أمثله الكثيرة في أبواب الصلاة والصيام والحج وغير ذلك. وقد رفع الله الإصر عن المسلمين بسبب طاعتهم وتسليمهم لأمره، بخلاف من قالوا سمعنا وعصينا وقد جازاهم الله ببيغهم فأمرهم بقتل أنفسهم عند التوبة إلى غير ذلك من الأوصار والأغلال التي كانت عليهم، وقد سبق بيان أحوالهم في المقطع الأول.

وللجهاد بالنفس والمال حديث طويل في السورة، وقد جاء الختام ليشير إلى طلب النصر من الله فهو نعم المولى ونعم النصير.

وفي مناسبة هذه الآيات لختام السورة يقول أبو حيان: «وناسب ذكر هذه الآية خاتمة لهذه السورة لأنه تعالى ضمنها أكثر علم الأصول والفروع من: دلائل التوحيد، والنبوة، والمعاد، والصلاة، والزكاة، والقصاص، والصوم، والحج، والجهاد، والحيض، والطلاق، والعدة،

والخلع ، والإيلاء ، والرضاعة ، والربا ، والبيع ، وكيفية المداينة .
فناسب تكليفه إيانا بهذه الشرائع أن يذكر أنه تعالى مالك لما في السموات وما في الأرض ،
فهو يلزم من شاء من مملوكاته بما شاء من تعبداته وتكليفاته .
ولما كانت هذه التكاليف محل اعتقادها إنما هو الأنفس ، وما تنطوي عليه من النيات ،
وثواب ملتزمها وعقاب تاركها إنما يظهر في الدار الآخرة ، نبه على صفة العلم التي بها تقع
المحاسبة في الدار الآخرة بقوله ﴿ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾
فصفة الملك تدل على القدرة الباهرة ، وذكر المحاسبة يدل على العلم المحيط بالجليل والحقير ،
فحصل بذكر هذين الوصفين غاية الوعد للمطيعين ، وغاية الوعيد للعاصين^(١) .
وختام السورة بالدعاء لتعليم للأمة أن تظل موصولة الصلة بالله كما كان قدوتهم إبراهيم
يدعوه وهو يبدأ عمله وهو ينتهي منه ، فحق لهم كذلك إذا ختمت سورة الأحكام العظيمة
أن يتضرعوا إلى الله بالمغفرة والقبول .

وصلى الله على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(١) البحر المحيط لأبي حيان ٢/٣٧٥ .

سورة آل عمران

أولاً: بين يدي السورة، وفيه:

أ - اسمها:

سورة آل عمران لها أكثر من اسم؛

فاسمها المشهور هو: (آل عمران)، وقد وردت تسميتها بهذا الاسم في عدة أحاديث صحيحة^(١).

وسبب تسميتها بسورة آل عمران لأن فيها ذكر قصة آل عمران من بدايتها، حيث جاء فيها قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣]^(٢)، وجاء فيها بعد ذلك: ﴿ إِذْ قَالَتْ أُمَّرَأْتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [آل عمران: ٣٥]، ولم يرد مثل هذا في غير هذه السورة، فلفظ ﴿ عِمْرَانَ ﴾ الذي في سورة التحريم يتحدث عن مريم عليها السلام ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَنِينِ ﴾ [التحريم: ١٢]. الجدير بالذكر أن هذه السورة هي الوحيدة التي فيها قصة أم مريم، فقصتها ليست مذكورة حتى في سورة مريم عليهم السلام. يضاف إلى ذلك أن هذا الاسم (آل عمران) فيه إشارة عظيمة في الردّ على النصارى الذين ألّهُوا عيسى عليه السلام، فهو يشير إلى أصل عيسى عليه السلام البشري، فهو من (آل عمران)، وسيأتي مزيد بيان لذلك إن شاء الله، والله أعلم.

- (١) فقد جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: (يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلُهُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدَمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ)، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة برقم (٨٠٥)، كما جاء في الصحيح أن النبي ﷺ: (قَرَأَ الْعَشْرَ الْآيَاتِ الْخَوَاتِمَ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ)، البخاري، كتاب الوضوء، باب: قراءة القرآن بعد الحدث وغيره برقم (١٨٣)، وانظر البخاري: (٩٩٢)، (١١٩٨)، (١٧٥٠)، ومسلم (٢٥٦)، (٧٢٧)، (٧٦٣)، وغيرها كثير.
- (٢) جملة (آل عمران) لم ترد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة في هذا الموضع.

وتسمى: (الزهراء)، فهي وسورة البقرة تسميان بالسورتين (الزهرابين)^(١)، وقالوا: سُمِّيَا الزَّهْرَاوَيْنِ لِنُورِهِمَا وَهَدَايَتِهِمَا وَعَظِيمِ أَجْرِهِمَا^(٢)، ويقال لكل مستنير: زاهر^(٣)، أو لهدايتها قارئها بما يزهو له من أنوارها أي: معانيها، أو لما يترتب على قرائتها من النور التام يوم القيامة، أو لاشتراكها في اسم الله الأعظم^(٤).

وتسمى: (الكنز)، كما سماها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، حيث قال: (نِعْمَ كَنْزُ الصُّعْلُوكِ سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ يَقُومُ بِهَا فِي آخِرِ اللَّيْلِ)^(٥).
وقيل: تسمى في التوراة: (طَيِّبَة)^(٦)، ولعله وصف لها^(٧).

وتسمى كذلك: سورة الأمان، والمعينة، والمجادلة، وسورة الاستغفار^(٨).

ب. فضائلها:

سورة آل عمران سورة عظيمة من سور القرآن - وكل سورته عظيمة -، وهي إحدى

(١) ففي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اقْرَأُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقْرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا عَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَّابَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِيَّهِنَّ)، صحيح مسلم (٨٠٤).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٦/٨٩-٩٠).

(٣) لباب التأويل في معاني التنزيل، للبخاري، (١/١٨).

(٤) تفسير القرطبي (٥/٨).

(٥) رواه الدارمي، في كتاب فضائل القرآن، باب: فضل سورة آل عمران، برقم (٣٣٩٨).

(٦) نسبة السيوطي في الدر المنثور (٢/١٤٠) وفي الإتيان (١/١٥١) لسعيد بن منصور في سننه عن أبي عطف، ونسبه ابن عطية في المحرر الوجيز (١/٣٩٦) والقرطبي في الجامع (٤/١) للنقاش.

(٧) جاء في سنن الدارمي، كتاب: فضل القرآن، باب: فضل سورة آل عمران، برقم (٣٣٩٩): (...)
قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: هَلْكَ وَاللَّهِ الرَّجُلُ، قَالَ: فَافْتَتَحَ سُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، قَالَا: فَقَرَأَ سُورَةَ طَيِّبَةً لَعَلَّهُ سَيَنْجُو، (...). فلعل تسميتها بطيبة جاءت من هنا.

(٨) ذكر هذه الأسماء أبو حيان في البحر المحيط (٢/٣٨٩)، والآلوسي في تفسيره روح المعاني (٣/٧٣).

السورتين الزهراوين، اللتين تأتيان يوم القيامة تحاجان عن صاحبهما، وتظلانه يوم القيامة^(١)، وقد وصفها النبي ﷺ بثلاثة أوصاف، فقال: (اقْرَأُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقْرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا عَيَاتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ تَحُجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا)^(٢)، (تقولان: ربنا لا سبيل عليه)^(٣).

وقد روي عن ابن مسعود ؓ أن اسم الله الأعظم في هاتين السورتين الزهراوين، جاء في الأثر: (قَرَأَ رَجُلٌ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ الْبَقْرَةَ وَآلِ عِمْرَانَ فَقَالَ: قَرَأْتُ سُورَتَيْنِ فِيهِمَا اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ)^(٤). وعن أساء بنت يزيد أن النبي ﷺ قال: (اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿وَاللَّهُ كَرِيمٌ﴾ وَ﴿إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٥) وفاتحة آل عمران ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(٦).)^(٥).

كما روي أن النبي ﷺ عوَّذ بعض أصحابه بآيات من سورة آل عمران، فعن أبي ليلى قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ إذ جاءه أعرابي فقال: إن لي أحمأً وجعاً، قال: (ما وجع أخيك؟) قال: به لم، قال: (اذهب فأتني به)، قال: فذهب فجاء به فأجلسه بين يديه، فسمعتة عوذه بفاتحة الكتاب... وآية من آل عمران أحسبه قال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾...، فقام الأعرابي قد برأ ليس به بأس^(٦).

(١) سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب في فضل البقرة وآل عمران، برقم (٣٣٩١).

(٢) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل قراءة القرآن وسورة البقرة برقم (٨٠٤)، وانظر رقم (٨٠٥).

(٣) سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب في فضل البقرة وآل عمران، برقم (٣٣٩٤).

(٤) المرجع السابق، برقم (٣٣٩٣).

(٥) المرجع السابق، كتاب الدعوات، باب جامع الدعوات، برقم (٣٤٧٨)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٦) سنن ابن ماجه، كتاب الطب، باب الفزع والأرق وما يتعوذ منه، برقم (٣٥٤٩)، ومسنَد الإمام أحمد، في مسند الأنصار، برقم (٢٠٦٧٠).

كما أن سورة آل عمران من السور السبع الطوال^(١)، وهي السور التي قام بها النبي ﷺ في صلاة الليل، فقرأ السبع الطوال في سبع ركعات^(٢).

ج- مكية السورة أو مدنيتهما:

سورة آل عمران مدنية باتفاق^(٣)، ومواضيع السورة ومحاورها تدل على ذلك، ولم أقف على خلاف في مدنيتهما. على أن السورة تتناول إثبات وحدانية الله تعالى، وهذا الموضوع من خصائص السور المكية، لكن الجانب الذي تناوله هنا هو من منطلق الحوار مع النصراني من أهل الكتاب خاصة، كما سيأتي بعد قليل.

د- عدد آياتها:

عدد آياتها: مائتا آية باتفاق^(٤)، لكن اختلف في تقسيم سبع آيات، عدّها بعضهم، وعدّ الآخرون غيرها بدلاً منها^(٥).

هـ: محور السورة:

بسبب حجم السورة الكبير فقد تناولت عدداً كبيراً من الموضوعات، كما سيأتي، إلا أن

(١) روي في مسند الإمام أحمد برقم (٢٣٩٢٢) أن النبي ﷺ قال: (مَنْ أَخَذَ السَّبْعَ الْأَوَّلَ فَهُوَ حَبْرٌ)، يعني

السبع الطوال، والحديث فيه مقال، لكن معناه صحيح، ففي السبع الطوال علم وفقه كثير، والله أعلم.

(٢) مسند الإمام أحمد، في باقي مسند الأنصار، باب حديث حذيفة بن اليمان، برقم (٢٢٧٨٩).

(٣) تفسير ابن زمنين (١/ ٢٧٤)، والبيان في عدّ آي القرآن لأبي عمرو الداني (ص ١٣٣-١٣٤)، والمحور

الوجيز لابن عطية (١/ ٣٩٦)، والتسهيل لعلوم التنزيل للكليبي (١/ ٥)، والإتقان في علوم القرآن،

للسيوطي (١/ ٥١).

(٤) البيان في عدّ آي القرآن لأبي عمرو الداني (ص ١٤٣).

(٥) انظر تفصيل ذلك في: البيان في عدّ آي القرآن لأبي عمرو الداني (ص ١٤٣)، وإتحاف فضلاء البشر في

القراءات الأربعة، للدمياطي (ص ٢١٨).

محور السورة العام هو إثبات وحدانية الله تعالى^(١)، وإقامة الأدلة عليه نقلاً وعقلاً.

والحقيقة أن أكثر سور القرآن الكريم تتناول هذا الموضوع من جانب أو آخر، ولا غرو، فإن أسس الخلاف مع أهل الكتاب وغيرهم من الكفار هو ابتداء في هذه الحقيقة، كما سيأتي. وأما سبب اهتمام هذه السورة به فهو لأن مقصود السورة الأعظم تقرير كون عيسى عليه السلام عبد الله^(٢).

وقد تناولت السورة أيضاً جوانب تتعلق بذلك من مناقشة أهل الكتاب - خصوصاً النصارى -، وتحذير الكافرين من الاغترار بالدنيا من أموال وأولاد، وتحذير المسلمين من موالاتهم، وبيان حقيقة الدنيا وتقلبها، والتقليل من شأن مصائبها من موت وجراحات ونقص أموال، وبيان حقيقة الموت والترغيب في أن يكون في سبيل الله تعالى.

وقد ركزت السورة على مسألة التوحيد وما يتعلق بذلك من صفات لله تعالى، بل إن سورة آل عمران هي السورة الوحيدة التي فصل فيها بين الأحرف المقطعة والحديث عن القرآن الكريم، فقد فصل بينهما بالتأكيد على وحدانية الله تعالى وأنه حي قيوم، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّمُ ﴿٢٠٠﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴿٢٠١﴾﴾. بينما في باقي سور المصحف الشريف التي افتتحت بالحروف المقطعة يأتي الحديث عن القرآن الكريم مباشرة بعد الأحرف

(١) ترددت كثيراً في الجزم بهذا، إلى أن وقفت على قول البقاعي بذلك في نظم الدرر (١٩٥/٤-١٩٦) حيث قال ما نصه: (المقاصد التي سبقت لها هذه السورة: إثبات الوجدانية لله سبحانه وتعالى، والإخبار بأن رئاسة الدنيا بالأموال والأولاد وغيرهما مما أثره الكفار على الإسلام غير مغنية عنهم شيئاً في الدنيا ولا في الآخرة، وأن ما أعد للمتقين من الجنة والرضوان هو الذي ينبغي الإقبال عليه والمصارعة إليه وفي وصف المتقين بالإيمان والدعاء والصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار ما يتعطف عليه كثير من أفانين أساليب هذه السورة. هذا ما كان ظهر لي أولاً، وأحسن منه أن نخص القصد الأول وهو التوحيد بالقصد فيها فإن الأمرين الآخرين يرجعان إليه...، وسأها في موضع آخر (١٤٤/٥): {سورة التوحيد}، وانظر كذلك: (١٥٤/٥). وتحدث في أثناء التفسير عن مقاصد أخرى.

(٢) ينظر: قطف الأزهار في كشف الأسرار، للسيوطي (١/٥٤٩).

المقطعة^(١).

- (١) قال ابن كثير: (ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء). تفسير ابن كثير، دار الفتح (١/٢٢٧).
- وهذا صحيح، فقد قال تعالى في سورة البقرة: ﴿الذِّكْرُ ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ. ﴿٢﴾
- وقال في سورة الأعراف: ﴿الْمَعَصَى ١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ فَلَا يُكْفَى فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ. ﴿٢﴾
- وقال في سورة يونس: ﴿الرَّيُّ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ. ﴿٢﴾
- وقال في سورة هود: ﴿الرَّكُوتِ ١﴾ أَحْكَمْتَ آيَاتُهُ، ثُمَّ قُضِلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ. ﴿٢﴾
- وقال في سورة يوسف: ﴿الرَّيُّ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. ﴿٢﴾
- وقال في سورة الرعد: ﴿الْمُرُّ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ. ﴿٢﴾
- وقال في سورة إبراهيم: ﴿الرَّكُوتِ ١﴾ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ. ﴿٢﴾
- وقال في سورة الحجر: ﴿الرَّيُّ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ. ﴿٢﴾
- وقال في سورة طه: ﴿طه ١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى. ﴿٢﴾
- وقال في سورة الشعراء: ﴿طس ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. ﴿٢﴾
- وقال في سورة النمل: ﴿طس ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ. ﴿٢﴾
- وقال في سورة القصص: ﴿طس ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. ﴿٢﴾
- وقال في سورة لقمان: ﴿الذِّكْرُ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ. ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ. ﴿٣﴾
- وقال في سورة السجدة: ﴿الذِّكْرُ ١﴾ نَزِيلٌ أَلَكِ كِتَابٍ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. ﴿٢﴾
- وقال في سورة يس: ﴿يس ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. ﴿٢﴾
- وقال في سورة ص: ﴿ص ١﴾ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. ﴿٢﴾
- وقال في سورة غافر: ﴿حم ١﴾ نَزِيلٌ أَلَكِ كِتَابٍ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. ﴿٢﴾
- وقال في سورة فصلت: ﴿حم ١﴾ نَزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. ﴿٢﴾ كِتَابٌ فَصَّلْتُمْ آيَاتِهِ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. ﴿٣﴾
- وقال في سورة الشورى: ﴿حم ١﴾ عَسَىٰ ٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. ﴿٣﴾
- وقال في سورة الزخرف: ﴿حم ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ. ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. ﴿٣﴾
- وقال في الدخان: ﴿حم ١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ. ﴿٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَتٍ. ﴿٣﴾
- وقال في الجاثية: ﴿حم ١﴾ نَزِيلٌ أَلَكِ كِتَابٍ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ. ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ. ﴿٣﴾ =

والدلائل على هذا المحور في السورة كثيرة جداً؛ فقد ذكرت شهادة توحيد الله تعالى في هذه السورة صراحة خمس مرات، وذلك في قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (آية: ٢)، وقوله: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آية: ٦)، وقوله: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آية: ١٨)، وقوله: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آية: ٦٢)، وهذا الحشد لشهادة التوحيد هو الأكثر تكراراً في القرآن الكريم^(١)، كما أن شهادة التوحيد لم تتكرر مرتين في آية

= وقال في سورة الأحقاف: ﴿ حَمِّمٌ ۝١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾.

وقال في سورة ق: ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾.

وأما سورة مريم - التي تدور حول تنزيه الله تعالى عن الولد - فلا يوجد فيها حديث عن القرآن الكريم بعد الأحرف المقطعة - صراحة -، وإنما تأتي الإشارات إلى القرآن الكريم ضمن السياق، كما في قوله تعالى ﴿ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾، ثم في قوله تعالى ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ ﴾ وتكراره، وقوله سبحانه ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾. ويقال مثل هذا في سورة العنكبوت، والله أعلم.

(١) وردت شهادة التوحيد صراحة في باقي سور القرآن الكريم بتكرار أقل من ذلك، ففي سورة البقرة: ﴿ وَاللَّهُ كَرِيمٌ ۝١ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (آية: ١٦٣)، ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (آية: ٢٥٥)، وربما يدخل قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا وَجَدَآ وَحْنٌ لَّهُنَّ مُسْلِمُونَ ﴾ (آية: ١٣٣). وفي سورة النساء ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ ﴾ (آية: ٨٧)، وفي سورة الأنعام ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (آية: ١٠٢)، ﴿ اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (آية: ١٠٦)، وفي سورة الأعراف ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ (آية: ١٥٨)، وفي سورة التوبة ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَكَ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (آية: ٣١)، ﴿ حَسْبُ اللَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (آية: ١٢٩)، وفي سورة يونس على لسان فرعون - ولعلها لا تدخل فيما نحن بصده - ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ (آية: ٩٠)، وفي سورة هود ﴿ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (آية: ١٤)، وفي سورة الرعد ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (آية: ٣٠)، وفي سورة النحل ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ (آية: ٢)، وفي سورة طه ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ (آية: ٨)، ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي ﴾ (آية: ١٤)، ﴿ إِنكأ إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (آية: ٩٨)، وفي سورة الأنبياء ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (آية: ٢٢)، =

واحدة في القرآن الكريم سوى في سورة آل عمران في آية الشهادة المذكورة سابقاً.

كما ذكر في سورة آل عمران الأمر بعبادة الله وأكد بعدم الإشراف به وعدم اتخاذ البشر آلهة: قال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَّاهِلَ الْكٰفِرِيْنَ تَعٰلَوْا اِلٰى كَلِمٰتِ سَوَآءٍ بَيْنِنَا وَبَيْنَكُمْ اِلَّا نَفْسُ اِلٰهٍ وَّلَا تُشْرِكْ بِوٰهٍ شَيْئًا وَّلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضًا اَرْبَابًا مِّنْ دُوْنِ اِلٰهٍ ﴾ [آية: ٦٤]، وامتازت السورة عن غيرها بهذا، حيث إن الآيات الأخرى التي دعت إلى عبادة الله تعالى وحده في القرآن الكريم ليس فيها تأكيداً بعدم الإشراف به سبحانه وتعالى^(١).

وتكرر في السورة إطلاق المشيئة والإرادة لله تعالى وإسناد الأمور له وحده سبحانه،

= ﴿ لَا اِلٰهَ اِلَّا اَنَا فَاعْبُدُوْنَ ﴾ [آية: ٢٥]، وفيها على لسان ذي النون ﴿ لَا اِلٰهَ اِلَّا اَنْتَ سُبْحٰنَكَ ﴾ [آية: ٨٧]، وفي سورة المؤمنون ﴿ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيْرِ ﴾ [آية: ١١٦]، وفي سورة النمل ﴿ اِلٰهٌ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْمَغْبِيِّ ﴾ [آية: ٢٦]، وفي سورة القصص ﴿ وَهُوَ اِلٰهٌ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ ﴾ [آية: ٧٠]، ﴿ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ اِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [٨٨]، وفي سورة فاطر ﴿ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ فَآَنٓ اَنْ تُوَفَّوْكُنَّ ﴾ [آية: ٣]، وفي سورة الصافات ﴿ اِنَّهُمْ كَانُوْٓا اِذَا قِيْلَ لَهُمْ لَا اِلٰهَ اِلَّا اِلٰهُهُمْ يَسْتَكْبِرُوْنَ ﴾ [آية: ٣٥]، وفي سورة ص ﴿ وَمَا مِنْ اِلٰهٍ اِلَّا اِلٰهُ الَّذِيْ اَلْفَحَاۗءُ ﴾ [آية: ٦٥]، وفي سورة الزمر ﴿ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ فَآَنٓ اَنْ تُصْرَفُوْنَ ﴾ [آية: ٦]، وفي سورة غافر ﴿ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ اِلٰهٌ اِلٰهٌ الْمَصِيْرُ ﴾ [آية: ٣]، ﴿ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ فَآَنٓ اَنْ تُوَفَّوْكُنَّ ﴾ [آية: ٦٢]، ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ فَادْعُوْهُ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ ﴾ [آية: ٦٥]، وفي سورة الدخان ﴿ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ يَحْيِيْ وَيُمِيْتُ ﴾ [آية: ٨]، وفي سورة محمد ﷺ ﴿ فَاعْلَمْتُمْ اَنَّهٗ لَا اِلٰهَ اِلَّا اِلٰهُكُمْ ﴾ [آية: ١٩]، وفي سورة الحشر ﴿ هُوَ اِلٰهُ الَّذِيْ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ عَلِيْمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ [آية: ٢٢]، ﴿ هُوَ اِلٰهُ الَّذِيْ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوْسُ ﴾ [آية: ٢٣]، وفي سورة التغابن ﴿ اِلٰهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ وَعَلَى اِلٰهِهِ فليتوكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ ﴾ [آية: ١٣]، وفي سورة الزمّل ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [آية: ٩].

(١) ورد الأمر بعبادة الله وحده في باقي سور القرآن الكريم كما يأتي؛ قال في سورة البقرة: ﴿ وَاِذْ اَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي اِسْرٰٓءِيْلَ لَا تَعْبُدُوْنَ اِلَّا اِلٰهًا ﴾ [آية: ٨٣]، وفي سورة هود ﴿ اَلَّا تَعْبُدُوْٓا اِلَّا اِلٰهًا اِنِّىْ لَكُمْ رَسُوْلٌ نَّذِيْرٌ وَّبَشِيْرٌ ﴾ [آية: ٢]، ﴿ اَنْ لَا تَعْبُدُوْٓا اِلَّا اِلٰهًا اِنِّىْ اَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ اَلْحِسْرِ ﴾ [آية: ٢٦]، وفي سورة فصلت: ﴿ اِذْ جَاۗءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ اَيْدِيهِمْ وَبِخَلْفِهِمْ اَلَّا تَعْبُدُوْٓا اِلَّا اِلٰهًا ﴾ [آية: ١٤]، وفي سورة الاحقاف ﴿ اَلَّا تَعْبُدُوْٓا اِلَّا اِلٰهًا اِنِّىْ اَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ عَظِيْمٍ ﴾ [آية: ٢١]، والله أعلم.

وذلك بشكل لافت، كما سيأتي ذكره لاحقاً^(١).

كما تكرر في السورة أيضاً لفظ الإسلام والمسلمين والفعل «أَسْلَمَ» ، أكثر من أي سورة أخرى في القرآن الكريم؛ ففيها: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آية: ١٩]، ﴿فَإِنْ حَاجُّوكُمْ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [آية: ٢٠]، وفيها على لسان الخواريين: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آية: ٥٢]، وعلى سبيل الأمر للمسلمين بقوله في حوارهم مع أهل الكتاب: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آية: ٦٤]، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِإِبْرَاهِيمَ يهودياً وَلَا نصرانياً وَلَكِنْ كَانَتْ حَافِيًا مُسْلِمًا﴾ [آية: ٦٧]، وفيها أيضاً: ﴿أَيُّكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آية: ٨٠]، ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ ءَأَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آية: ٨٣]، وعلى سبيل الأمر للنبي ﷺ بقوله: ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آية: ٨٤]، وفي قوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آية: ٨٥]، وعلى سبيل الأمر للمسلمين: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آية: ١٠٢]. كما أن الفعل المشتق من الإسلام لم يتكرر ثلاث مرات في آية واحدة في القرآن الكريم سوى في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكُمْ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [آية: ٢٠]، والله أعلم.

وذكر في السورة أيضاً: إثبات العلم المطلق لله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آية: ٦٦]، وتصرفه في الكون بمشيئته ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَيْتِي هُدَىٰ اللَّهُ أَنْ يُوَفَّقَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُعَاجِزْكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ أَلْفَضَلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِمْ﴾ [آية: ٧٣]، ويخص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم [الآيتان: ٧٣-٧٤]، وتنزيه الأنبياء عن الدعوة إلى الشرك كما يزعم النصارى ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُمْسِكُوا بِعَصِيْبِهِ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ

(١) ينظر: آخر فقرة المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ﴿٨٠﴾ [الآيتان: ٧٩-٨٠].

كما تناولت السورة: تأكيد وحدة الرسالات والدين الحق الذي هو الإسلام، ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آية: ٨١]، ﴿قُلْ ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آية: ٨٤]، ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ [آية: ٨٣]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آية: ٨٥].

وفي السورة أيضاً: ذكر حقيقة الموت، وهذا له علاقة بالمحور الرئيس في السورة الكريمة، لأن أول صفة ذكرت لله تعالى في هذه السورة هي ﴿الْحَيُّ﴾، ولهذا الصفة علاقة مباشرة بالحوار مع النصارى، فعيسى عليه السلام بشر يموت كما يموت البشر^(١)، وكما مات من سبقه ولحقه من الرسل، وقد جاء في هذه السورة النص على وفاة عيسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلَ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ قَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آية: ٥٥]، والله أعلم.

ومن الآيات التي جاءت لبيان حقيقة الموت قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [١٥٦] وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ

(١) اختلف العلماء في وفاة عيسى عليه السلام، وقد ورد نصان صريحان في القرآن الكريم يتنان الوفاة لعيسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]، واختلف العلماء في معنى الوفاة في الآيتين، والذي أميل إليه أنها الوفاة الحقيقية، وأما حياته في السماء فهي حياة الله أعلم بكيفيةها، هذا ما أراه صواباً، وإن كنت لا أزال أدرس هذه المسألة وأبحث فيها، والله أعلم. وأما نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان فهو ثابت بأحاديث صحيحة لا ينكرها إلا جاحد معاند.

﴿ ١٤٤ ﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَنْ يَرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿ ١٤٥ ﴾ [الآيات: ١٤٣-١٤٥]، وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أِطَاعُوا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ ١٦٨ ﴾ [آية: ١٦٨]، وقوله: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿ ١٦٩ ﴾ [آية: ١٦٩]، وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آية: ١٨٥].

كما تناولت السورة المال ودوره الهام؛ من حيث الإنفاق^(١) والحث عليه ﴿ وَالْمُسْتَفْقِينَ ﴾ والمُسْتَفْقِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿ ١٧ ﴾ ، والدعوة إلى الإنفاق من أجود ما يجد ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿ ١٣ ﴾ ، والإنفاق في جميع الأحوال ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ . كما تناولت بيان أن المال لا يغني عن الله شيئاً ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ ﴾ ، وتكرار ذلك في آيتين، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ﴾ ، وبيان تعلق الناس بالأموال المنقولة وغير المنقولة من متاع الحياة الدنيا، وحثهم على التعلق بما هو خير من ذلك. وذم البخل والشح، وأمر المسلمين بالصبر على الأذى الذي سيلاقونه في أموالهم وأنفسهم من أهل الكتاب.

وهكذا، نرى أن آيات السورة الكريمة تتناول محور السورة الرئيس مباشرة، كما تتناول الموضوعات المرتبطة بالمحور الرئيس، والله أعلم.

وقد انقدح في ذهني مقصد مهم امتازت به هذه السورة الكريمة؛ وهو المقارنة بين ظواهر الأمور والمتعلقين بها، وحقائق الأمور وعواقبها، وهذا المقصد له صلة وثيقة بمحور السورة الكريمة، لأن الشبهة في عيسى عليه السلام جاءت بسبب التعلق بظواهر الأمور ونسيان الحقائق الكبرى بكل سذاجة. وأحسب أن هذا المقصد هو من الأغراض الأساسية في سورة آل عمران، وكان في قوله تعالى في أول السورة: ﴿ مِنْهُ ءَاتَيْتُكُمْ مَعْلَمَتًا هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ وَالْأُخْرُ

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/١٣٧).

﴿مُتَشَبِهَاتٌ﴾ إشارة إلى هذا المقصد.

يبدو هذا المقصد واضحاً جلياً في عدة مواضع من السورة الكريمة، منها ما يأتي:

بيان وجود المحكم والمتشابه في القرآن الكريم، وتعلق أهل الزيغ بالمتشابه، في مقابل إيمان الراسخين في العلم.

تعلق أهل الكفر بكثرة الأموال والأولاد، في مقابل حقيقة أنها لا تغني عنهم من الله شيئاً يوم القيامة.

تعلق فرعون بالقوة والسلطان، في مقابل حقيقة القوة المطلقة لله تعالى.

تعلق الناس بالشهوات من النساء والبنين وقناطر الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والزرع، في مقابل ما هو خير من ذلك؛ الجنات ونعيمها، ورضوان الله تعالى الدائم.

تعلق الناس بأسباب الملك والعزة الظاهرة، في مقابل حقيقة أن الله تعالى يؤتيها من يشاء وينزعها انتزاعاً من يشاء.

تعلق امرأة عمران بالذكر وبالذكورة وطلبها ولداً ذكراً، مع أن الأنثى التي ستنجبها هي واحدة من أفضل وأكمل النساء على الإطلاق.

ظاهر كبر زكريا عليه السلام وعجزه وظاهر العقم في زوجته، في مقابل حقيقة أن الله يفعل ما يشاء.

تعلق النصراني بظاهر مخالفة العادة في خلق عيسى عليه السلام، في مقابل حقيقة أنه بشر، ولد لأنثى ولو بلا ذكر، وأنه يأكل ويشرب وينام، وحقيقة أن الله تعالى ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ﴿٤﴾.

المقارنة بين علاقة النصراني الخاطئة بعيسى عليه السلام المبنية على الظواهر، وبين علاقة

المسلمين بالرسول محمد ﷺ، وتنبه المسلمين حتى لا يقعوا في أخطاء من سبقهم؛ ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنِ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ 》 .

تعلق المسلمون بظاهر النصر في أول الأمر في معركة أحد، في مقابل حقيقة أن النصر من عند الله تعالى ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٣٧﴾ 》 .

تعلق اليهود بظاهر الدنيا في قولهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ 》، في مقابل حقيقة ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿١٨٥﴾ 》 .

وليس مجرد التعلق بالظواهر مذموماً، بل المذموم هو التعلق بظواهر الأمور المؤدي إلى الإعراض عن حقائقها. ولما كان الناس متعلقين بالظواهر بفطرتهم، أرشدهم القرآن الكريم إلى التوجه إلى الظواهر والتدبر فيها للوصول إلى الإيوان بالحقائق؛ ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١١١﴾ 》 ، فأولوا الأبواب الذين تفكروا في خلق السماوات والأرض وصلوا سريعاً إلى الإيوان بالخالق سبحانه وتعالى. والله أعلم.

و: المناسبات في السورة :

- المناسبة بين اسم السورة ومحورها :

لم أقف على من فصل المناسبة بين اسم سورة آل عمران ومحورها، وقد اقتصر بعضهم على أن وجه تسميتها بسورة آل عمران أنها ذكرت فيها فضائل آل عمران، وهم زوجه وأختها زوجة زكريا عليه السلام وزكريا عليه السلام كافل مريم عليها السلام بعد وفاة أبيها عمران^(١).

وقد وقع لي في المناسبة بين اسم السورة ومحورها سبب لطيف ظاهر ودقيق في نفس الوقت،

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٥/٣).

وذلك أن معظم الحوار في سورة آل عمران يدور مع النصارى، وأكبر خلاف مع النصارى هو في بشرية عيسى عليه السلام، كما أن معظم الحوار في سورة البقرة يدور مع اليهود، وحادثة ذبح البقرة وتلكؤ اليهود فيه، هي أوضح حادثة تشير إلى طبيعتهم المكذبة المعاندة، وهي طبيعة متكررة في السورة.

وأما تسمية السورة باسم آل عمران فهو لدحض شبهة الألوهية عن عيسى عليه السلام، لأنه لا خلاف في أن مريم عليها السلام هي بنت عمران، وامرأة عمران هي أمها، وبالتالي فإن عيسى عليه السلام هو من آل عمران، إذن فاسم السورة يشير إلى النسب البشري الذي لا خلاف فيه لعيسى عليه السلام، وإن مجرد اسم السورة يكفي في حسم هذا الخلاف. ولهذا جاء في آخر السورة قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَلِصِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَيْتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [آية: ١٩٩]. والله أعلم.

- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

هناك مناسبات كثيرة بين مطلع السورة ومقطعها، ولعل أبرزها ما يأتي:

بدئت السورة بدعاء المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ أَوْهَابٌ ﴾ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ (٩) . واختتمت بمثل ذلك: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ (١١٣) رَبَّنَا وَءَايَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ (١١٤) .

وجاء في أول السورة تهوين شأن الكفار وبيان مصيرهم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ (١٠) كَذَّبَ آلِ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتْغَلِبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْأَلْمَهُادُ (١٢) . ثم اختتمت بمثل ذلك: ﴿ لَا يَغْنَثُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ

كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴿١١٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَهَادُ ﴿١١٧﴾ ﴿١١﴾ .

وبدأت السورة بذكر إنزال القرآن والتوراة والإنجيل من قبل، وختمت بذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ ﴿١١﴾ .

كما بدأت السورة بالحديث عن الوحي المسطور (الكتب المنزلة) من الله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأُنزِلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ ﴿٣﴾ من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ﴿، وختمت بالحديث عن التفكير في الوحي المنظور، والآيات الواضحات في خلق الأرض والسموات: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ﴿١١١﴾ .

وذكر في أول السورة الوعيد بالعذاب الشديد للذين يكفرون بآيات الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ ﴿٤﴾ ، ثم ذكر في آخر السورة الوعد بالجنان والرضوان للذين يتفكرون ويؤمنون بآيات الله تعالى: ﴿ فَأَلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ قُوبًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ ﴿١١٥﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ ﴾ ﴿١١٨﴾ .

وذكر في أول السورة تعلق الناس بشهوات الدنيا والتي منها المال: ﴿ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾ ، ثم ذكر في آخرها الوعيد الشديد للذين يبخلون بأموالهم ولا ينفقونها في سبيل الله: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

(١) كلاهما من: جواهر البيان في تناسب سور القرآن، للغماري (ص ٢٨).

(٢) قطف الأزهار، للسيوطي (١/ ٦٧٥).

ويناسب ذمّ البخلاء في آخرها أيضاً ما ذكره في أول السورة من مدح للمنفقين: ﴿الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشَفِقِينَ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَسْكِينَاتِ﴾ .

وذكر في أول السورة التهديد والوعيد للكافرين، وأن أموالهم وأولادهم لن يغنوا عنهم من الله شيئاً، ثم ذكر في آخرها أن مصيرهم إلى جهنم. وقد سبق ذكر مناسبة مشابهة.

كما ذكر في أول السورة قولهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّكَ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ ، ثم ذكر في آخرها أن تقلبهم في الدنيا هو المعدود، فهو متاع قليل، وأن ما واهم جهنم وبئس المهاد.

وذكر في أولها عدم موالاته المؤمنين للكافرين: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُ وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ ، وهو مناسب لما ذكر في آخرها من الوعد بالجنة للذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيل الله.

وذكر في أولها الأمر بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ ، ثم مدح في آخرها المستجيبين لنداء الرسول: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ .

ونكتفي بهذا القدر من المناسبات بين المطلع والمقطع خشية الإطالة، والله أعلم.

المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها:

مقاطع السورة تتناسب مع محورها بوضوح تام، لأن محور السورة العام هو: إثبات وحدانية الله تعالى، وما يتعلق بذلك من تقرير بشرية عيسى عليه السلام، ووحدانية الدين والرسالات، وأهمية طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ.

فبدأت السورة بمقدمات مهمة قبل الحوار مع النصارى في حقيقة عيسى عليه السلام، تناولت تلك المقدمات إنزال الكتب من عند الله تعالى لغرض هداية وامتحان الناس، وبيان

حقيقة الدنيا، ثم الإعلام بانتقال الرسالة إلى أمة الإسلام.

ثم تناولت السورة بيان اصطفاء الله تعالى لرسوله عليهم السلام، وبيان حقيقة عيسى عليه السلام. ثم تأكيد حقيقة تاريخية هي أن الإسلام هو الدين الحق وهو دين جميع الأنبياء، وهم أولاد علات، واشتمل ذلك على بيان أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفاً مسلماً، وبيان فرق أهل الكتاب وحقيقتهم، والتصريح بوحدة الرسالات والدين الحق الذي هو الإسلام، وتأكيد صلة المسلمين بإبراهيم عليه السلام، وافتراء أهل الكتاب في ادّعائهم الصلة به.

وبعد هذا التصريح والتأكيد، جاء بيان خيرية هذه الأمة واصطفاؤها وفضلها على سائر الأمم، وتحذيرها من الوقوع في أخطاء الأمم السابقة، وتحذيرها من أعدائها ومن المنافقين خصوصاً. وكان هذا التحذير مدخلاً للحديث عن المواجهة مع الأعداء، فتحدثت الآيات عن معركة أحد، وشمل ذلك هدايات ومواعظ في الطاعة وأهميتها، وتعزية المسلمين في مصابهم، والدروس المستفادة من الهزيمة.

وختمت السورة بالحديث عن الاستفادة من الآيات الكونية في الوصول إلى الله تعالى، وبيان حقيقة أن الأمور بخواتيمها وعواقبها.

وهكذا نرى مقاطع السورة تتناسب مع محورها بوضوح وجلاء، بل إن الآيات في المقاطع نفسها تكاد تصرّح بهذه المناسبات بين المقطع ومحور السورة في مواضع عدّة، وهذه أمثلة على الآيات التي تؤدي هذا المعنى:

﴿ وَمَا يَسْلَمُ تَأْوِيلُهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [٧]، ﴿ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [١٣]، ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُوتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [٢٦]، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [٣٧]، ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [٤٠]، ﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ [٤٧]، ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُو الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [٦٢]، ﴿ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [٧٣]، ﴿ يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [٧٤]، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنَ

تُنْفِي عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴿١١٦﴾، ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا مَنْ عِنْدَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ ﴿١٢٩﴾، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ﴿١٤٥﴾، ﴿قُلْ إِنَّا أَلَمْرُكَلُهُ لِلَّهِ﴾ ﴿١٥٤﴾، ﴿إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذَلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ ﴿١٦٠﴾، ﴿إِنَّهُمْ لَن يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ ﴿١٧٦﴾، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ ﴿١٧٩﴾، ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿١٨٠﴾، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿١٨٩﴾، ﴿ثَوَابًا مِّن عِنْدِ اللَّهِ﴾ ﴿١٩٥﴾، ﴿نُزُلًا مِّن عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ ﴿١٩٨﴾.

ويمكن الاستزادة بالرجوع إلى ما ذكرناه سابقاً في محور السورة، والله أعلم.

- المناسبة بين مقاطع السورة مع بعضها :

يأتي في بداية كل مقطع أثناء التفسير إن شاء الله تعالى.

- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها :

مناسبة أول سورة آل عمران لآخر سورة البقرة ظاهرة من عدة وجوه؛ أولها: أن فاتحة سورة آل عمران هي في الإيمان بالله تعالى وبالكتب السماوية المنزلة من عنده، وآخر سورة البقرة هي في إيمان الرسول ﷺ بما أنزل عليه من ربه وإيمان المؤمنين معه، كلهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله.

قال أبو حيان: لما ذكر في آخر سورة البقرة: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آية: ٢٨٦]، ناسب أن يذكر نصرة الله تعالى على الكافرين حيث ناظرهم رسول الله ﷺ، وردّ عليهم بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة، فقصّ تعالى أحوالهم وردّ عليهم في اعتقادهم وذكر تنزيهه تعالى عما يقولون وبداءة خلق مريم وابنها المسيح إلى آخر ما ردّ عليهم. ولما كان متفتح آية آخر البقرة: ﴿ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ [آية: ٢٨٥] فكأن في ذلك الإيمان بالله وبالكتب، ناسب ذكر أوصاف الله تعالى وذكر ما أنزل على رسوله

وذكر المنزّل على غيره صلى الله عليهم^(١).

- المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها :

سورة البقرة وسورة آل عمران مديتان، وترتيبها في النزول كترتيبها في المصحف، لكن نزلت بينهما سورة الأنفال^(٢).

والسورتان متلازمتان من حيث المضمون، كأنهما سورة واحدة، وقد جمع رسول الله ﷺ بينهما في الفضل والذكر - كما سبق بيانه - . يضاف إلى ذلك أن سورة آل عمران شارحة لكثير مما أجمل في سورة البقرة^(٣)، كما سيأتي تفصيله بعد قليل.

ويدخل في المناسبة بين مضمون السورتين - أيضاً - ما سبق ذكره من المناسبة بين ما ورد في آخر سورة البقرة وما جاء في أول سورة آل عمران، فلا نعيده هنا.

ويمكن إجمال المناسبات بين مضمون السورتين فيما يأتي:

افتتحت كلتا السورتين بالأحرف المقطعة (ألم)^(٤).

سورة البقرة تضمنت قواعد الدين فكأنها بمثابة إقامة الدليل على الحكم، وجاءت سورة آل عمران مكتملة لمقصودها فكأنها بمثابة الجواب عن شبهات الخصوم^(٥).

ذكرت كلتا السورتين خلقاً معجزاً جاء على غير المعتاد، فذكرت سورة البقرة خلق آدم عليه السلام، وذكرت سورة آل عمران خلق عيسى عليه السلام، وسبب تقديم ذكر آدم عليه

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢/٣٨٩).

(٢) ينظر: تنزيل القرآن، لابن شهاب الزهري، (ص ٢٩-٣٠).

(٣) ينظر: أسرار ترتيب القرآن للسيوطي (ص ٨٣).

(٤) ينظر: المرجع السابق (ص ١٠٦).

(٥) قطوف الأزهار في كشف الأسرار، للسيوطي (١/١٥٣).

السلام ظاهر؛ فهو أقدم في الوجود، وأغرب في الخلق من عيسى عليه السلام^(١).
 شرحت سورة آل عمران كثيراً مما أجمل في سورة البقرة (ينظر: الجدول الأول في آخر هذه
 الفقرة).

تكرّر الحديث في سورة آل عمران عن مواضع جاءت في سورة البقرة، وذلك للتأكيد
 واستكمال الحديث. (ينظر: الجدول الثاني في آخر هذه الفقرة).

ويوضح الجدول الآتي المواضع التي وردت جملة في سورة البقرة، ومفصلة في سورة
 آل عمران^(٢):

في سورة آل عمران	في سورة البقرة
﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ وذلك بسط وإطناب لنفي الريب عنه.	وصف الكتاب بأنه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾
قسّمه إلى آيات محكمات وأخر متشابهات	ذكر إنزال الكتاب مجملاً
﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۚ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلِ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾	قال تعالى: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ﴾ مفصلاً
صرح بذكر الإنجيل أيضاً لأن السورة خطاب للنصارى، والإنجيل فرع للتوراة	صرح بذكر التوراة خاصة لأن السورة خطاب لليهود، والتوراة هي الأصل
فصّلت قصة أحد بكاملها	ذكر القتال وقع مجملاً: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [١٩٠، ٢٤٤]، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ [٢١٦].

(١) وينظر: البرهان في ترتيب سور القرآن، لابن الزبير الغرناطي (ص ١٩٦)، وينظر: أسرار ترتيب سور
القرآن، للسيوطي (ص ٨٧).

(٢) ينظر: أسرار ترتيب سور القرآن، للسيوطي (ص ٨٣-٨٦)، وقارن بقطف الأزهار في كشف الأسرار،
للسيوطي كذلك (١/١٥٣).

في سورة البقرة	في سورة آل عمران
حذّر من الربا ولم يزد على لفظ الربا إيجازاً.	زاد قوله: ﴿أَضْعَفًا مُضْعَفَةً﴾ [١٣٠].
أوجب الحجّ إجمالاً، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأْتِمُوا الْحَجَّ﴾ [١٩٦].	فضّله بقوله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ﴾ [٩٧]، وزاد بيان شرط الوجوب بقوله ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، ثم زاد تكفير من جحد وجوبه بقوله ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.
قال تعالى بإيجاز: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ، مَنْ يَشَاءُ﴾ [٢٤٧].	فضّل ذلك فقال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٢٦].
قال في أهل الكتاب ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾ [٨٣] فأجمل القليل من أهل الكتاب.	فضّله بقوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ قَلِيلًا مِّنْكُمْ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ عِثَانًا لِّئَلَّا يَحْقُقُوا بِهِمْ﴾ [١١٣].
أوجز ذكر القتولين في سبيل الله بقوله ﴿أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [١٥٤].	زاد: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [١٦٩-١٧٠].
عرّض ولم يصرّح بتفضيل الأمة على اليهود، فقال: ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [١٩٣].	صرّح بتفضيل هذه الأمة فقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [١١٠]. فقوله ﴿كُنْتُمْ﴾ أصرح في قديم ذلك من ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾.
وفضّل الأمة على سائر الأمم بلفظ فيه سير إبهام فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [١٤٣].	ثم زاد وجه الخيرية بقوله ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

في سورة البقرة	في سورة آل عمران
حذر من أكل الحرام فقال: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ ﴾ [١٨٨].	بسط الوعيد بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ﴾ [٧٧].

وقد ذكر السيوطي أن بين السورتين اتحاداً وتلاحماً متأكداً، وقد تكرر في سورة آل عمران بيان حقيقة الكتاب من إنزال الكتاب وتصديقه للكتب قبله والهدى إلى الصراط المستقيم، وتكررت هنا آية {قولوا آمنا بالله وما أنزل} [البقرة: ١٣٦]، بكمالها^(١).

ويوضح الجدول الآتي المواضع التي تشابهت في السورتين، بغرض استكمال الحديث أو ذكر ما هو لازم له^(٢):

في سورة البقرة	في سورة آل عمران
ذكر خلق الناس	ذكر تصويرهم في الأرحام
ذكر مبدأ خلق آدم	ذكر مبدأ خلق أولاده
ذكر قصة آدم حيث خلقه من غير أب ولا أم	ذكر قصة نظيره في الخلق من غير أب وهو عيسى عليه السلام، وضرب له المثل بآدم
قال في صفة النار ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [٢٤]، ولم يقل في الجنة ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ مع افتتاحها بذكر المتقين والكافرين معاً.	قال ذلك في آخر آل عمران في قوله ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [١٣٣]. فكان السورتين بمنزلة سورة واحدة

(١) ينظر: أسرار ترتيب سور القرآن، للسيوطي (ص ٨٦).

(٢) انظر: أسرار ترتيب سور القرآن، للسيوطي (ص ٨٦-٨٨).

في سورة البقرة	في سورة آل عمران
افتتحت بذكر المتقين وأنهم المفلحون	ختمت ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٢٠٠]
افتتحت بقوله ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ { [٤]	ختمت بقوله ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [١٩٩]
رغب في الإنفاق فقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].	حذر المستهزئين بقوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [١٨١].
ذكر دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ [١٢٩].	ذكر استجابة الدعوة: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ [١٦٤].

ونشر بعد هذه المقدمات في التفسير الموضوعي لمقاطع هذه السورة الكريمة، وقد رأيت تقسيمها إلى ثمانية مقاطع، وبعض المقاطع يشتمل على عدد من المواضيع، كما سيأتي، والله الموفق.

المقطع الأول : مقدمات للحوار مع النصارى

يندرج تحت هذا المقطع عدة نقاط، رأيت جمعها معاً واعتبارها مقدمات للحوار مع النصارى الذي سيستغرق نصف السورة الكريمة تقريباً، وهو سبب تسمية السورة الكريمة بآل عمران. وأكثر الآيات في هذا المقطع فيها تعريض بأهل الكتاب عموماً، وبالنصارى خصوصاً، وإن كان بعضها يعرض باليهود.

والمقدمات الرئيسة في هذا المقطع ثلاث؛ هي ما يأتي:

المقدمة الأولى : إنزال الكتب هداية وامتحاناً للناس :

قال تعالى: ﴿الذِّكْرُ ۝١ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝٣ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْقُرْآنَ إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝٤ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ۝٥ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝٦ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٧ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۚ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهٖ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۝٨ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝٩ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْعَاهِدَ ۝١٠﴾ [آل عمران: ١-٩].

التفسير الإجمالي :

تبدأ السورة الكريمة بالأحرف المقطعة، وقد سبق الحديث عنها في أول هذا التفسير. ثم تنتقل إلى التعريض بأهل الكتاب، خصوصاً النصارى منهم، عبر تقرير حقيقة وحدانية الله تعالى واتصافه بصفات الكمال، وختمت هذه الآية بقوله تعالى ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وفي اختيار هاتين الصفتين إشارة إلى الرد على النصارى في ادعائهم أن عيسى عليه السلام إله، وابن إله،

لأنهم زعموا أنه صلب فليس بحي وليس بقيوم^(١).

ثم تقرر الآيات حقيقة إنزال الله تعالى للكتب السماوية، وبدأت الآية بإنزال القرآن الكريم، لأنه آخر الكتب وخاتمها نزولاً، وهو أهمها وأعظمها وأدومها. وفي قوله تعالى ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ إشارة إلى صدق النبي ﷺ في نزول القرآن عليه، بخلاف زعم أهل الكتاب، وتفصيل ذلك مبثوث في آيات القرآن الكريم، كما في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقوله تعالى ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحِطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَا تَرْتَابَ الْمُبْتَلُونَ﴾ [٤٨] [العنكبوت: ٤٨]، وقوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]، فكون النبي ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب يبعد عنه شبهة النقل عن أهل الكتاب أو أساطير غيرهم، وكون القرآن الكريم ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يبعد عن النبي ﷺ شبهة الاختراع والتأليف.

ثم تذكر الآية والتي بعدها إنزال التوراة والإنجيل من قبلها وكان فيها هداية للناس، فما العجب إذاً من إنزال القرآن؟، وفي الآيتين تلميح إلى كفر اليهود والنصارى بالنبي ﷺ وبالقرآن الكريم، ودليل هذا التلميح هو خاتمة الآية الثانية كما سيأتي. فلماذا يطالب اليهود والنصارى غيرهم بتصديق إنزال الكتب عليهم ويرفضون أن يصدقوا إنزال القرآن على النبي ﷺ؟، هذا هو الكفر بعينه، ولذا ختمت الآية الثانية بقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [٤]، كما قال تعالى عن تفريقهم بين الرسل ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [١٥٠] أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١].

وعدم وصف القرآن الكريم في هذه السورة بالهدى مع وصفه بأنه حق، لأن المناظرة

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، للكلبى (٩٩/١)، والتفسير الكبير للرازي (٧/١٣٥).

مع النصارى، وهم لا يهتدون بالقرآن. ووصف التوراة والإنجيل بالهدى في هذا المقام لأنهم يعتقدون صحة التوراة والإنجيل، ويدعون أنهم يعولون في دينهم عليها^(١). ولهذا أشار إليهما في أكثر من موضع في هذا السورة.

وأما ذكر القيد في قوله تعالى ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ فلكي لا يُتوهم أن هدى التوراة والإنجيل مستمر بعد نزول القرآن الكريم^(٢).

وقد عبّر عن القرآن الكريم في هذه السورة بلفظ: ﴿ الْفُرْقَانِ ﴾، ولم ترد لفظة القرآن الكريم في السورة إطلاقاً، ربما لأن آيات السورة الكريمة قد حسمت الصراع وفرقت بشكل قاطع بين الحق والباطل في الجدل القائم بين الأديان السماوية الكبرى، الواردة في آخر سورة الفاتحة وفي سورة البقرة وفي افتتاح سورة آل عمران، فيكون لفظ ﴿ الْفُرْقَانِ ﴾ ألصق الألفاظ وأصدق الأوصاف^(٣)، والله أعلم. وفي هذا السياق من دقة التعبير وكثرة المعاني والإشارات مع قلة الألفاظ الشيء العجائب.

الآية التالية تؤكد علم الله تعالى بكل شيء في الكون، ومناسبتها للسياق وللآية السابقة أن فيها إشارة إلى محاولة أهل الكتاب إخفاء ما عندهم في التوراة والإنجيل من ذكر صريح للنبي محمد ﷺ، ووصية لأهل الكتابين باتباعه، كما قال تعالى ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَإِنِجِيلٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وكما قال على لسان عيسى عليه السلام ﴿ وَمُبَشِّرًا رَسُولًا يُاتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦]، فقد حاول أهل الكتاب إخفاء هذا الذكر وهذه

(١) ينظر: قطف الأزهار في كشف الأستار، للسيوطي (١/ ٥٥٢)، نقله عن الأصهباني.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ١٠).

(٣) وقد اختار الطبري في تفسيره أن الفرقان هو: (الفضل بين الحق والباطل فيما اختلفت فيه الأحزاب وأهل الملل في أمر عيسى وغيره). جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري)، لابن جرير الطبري، بتحقيق أحمد ومحمود محمد شاكر، (٦/ ١٦٢). ط ١. (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م)، مؤسسة الرسالة.

الوصية، ولا يزالون يحاولون^(١)، وقد قاموا بذلك عبر إخفاء بعض القراطيس من الكتب، وطمس بعضها الآخر، وتحريف بعضها، بالإضافة إلى ما نسوه منها، قال تعالى ﴿قَرَأْتِيسَ بُعْدُوهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]، وقال عن اليهود: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال عنهم أيضاً: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال عن النصارى وبعض اليهود: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تَوْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٤١]، وفي هذا دليل على كفرهم بآيات الله تعالى، وكفرهم بالآيات التي أنزلت إليهم، متناسين أن تحريفهم لا يخفى على الله تعالى.

كما أن الآية مناسبة لما بعدها أيضاً، فيما أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فإنه يعلم ما يكون في الأرحام، فإن مما اختص الله تعالى به علم ما يكون في الأرحام

(١) على الرغم من هذه المحاولات المتواصلة فقد بقي ذكر النبي ﷺ والإشارة إليه في أكثر من موضع من التوراة ومن الإنجيل، مصداقاً للفعل المضارع في قوله تعالى ﴿يَجِدُونَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فمثلاً: جاء في التوراة (جاء الرب من سيناء واشرق لهم من سعير وتلاً من جبل فاران)، (سفر التثنية: ٣٣/٢)، وهي تشير إلى نبوة موسى عليه السلام بدلالة كلمة (سيناء). كما تشير كلمة (سعير)، وهي المنطقة الجبلية من جنوب البحر الميت إلى العقبة، إلى نبوة عيسى عليه السلام. وتشير جملة (جبل فاران) إلى نبوة محمد ﷺ، فسلسلة جبال فاران هي في الجزيرة العربية بمحاذاة البحر الأحمر. وهذا التعبير يشبه إلى حد ما قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ وَالزَّيْتُونَ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾، والله أعلم. وهناك إشارات كثيرة يفهم منها مثل هذا، فقد جاء في سفر التكوين (٢٠/١٧): (وأما إساعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً. اثني عشر رئيساً يلد، وأجعله أمة كبيرة). فهذه الجملة تشير إلى استجابة الله تعالى لإبراهيم في طلبه الذي طلبه من أجل إساعيل، دون تحديد هذا الطلب، إلا أن العبارة التالية بالمباركة والإثارة والتكثير، وجعله أمة كبيرة، قد يشير إلى جعل النبوة في نسله، ومن المتفق عليه أنه لم يظهر من نسل إساعيل عليه السلام غير نبينا محمد ﷺ. وينظر: الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة للإمام شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، (مخطوط) (ص ١٢٤ أ - ١٣٩ أ)، فقد ذكر إحدى وخمسين بشارة بالنبي ﷺ في كتب أهل الكتاب.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]^(١).

أما سبب إيراد آية تصوير الأرحام هنا فهو: الإشارة إلى خلق عيسى عليه السلام وتصويره في رحم أمه مريم عليها السلام^(٢)، ففي الآية إشارة إلى الطبيعة البشرية لعيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام، وهي إشارة بديعة في الحوار مع النصارى، ولهذا ختمت الآية بإثبات وحدانية الله تعالى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وحكمته فيما يقضي سبحانه وتعالى.

كما أن في الآية تعريضا - بل تصريحاً - بالردّ على النصارى في اعتقادهم بألوهية عيسى عليه السلام لأن الله خلقه وصوره بكيفية تختلف عن غيره من البشر، فيبين لهم أنه عبد مخلوق، وكل ذلك من صنع الله وتصويره، سواء الكيفية المعتادة أو غير المعتادة^(٣).

وهذه الآية والتي قبلها جاءت استطراداً أثناء الحديث عن إنزال القرآن الكريم، ثم تابعت الآيات استكمال الحديث عن القرآن الكريم^(٤). فبيّنت أن الله سبحانه وتعالى اختار بحكمته أن يجعل آيات القرآن الكريم على قسمين؛ آيات محكمات هن أم الكتاب وأصله وأساس تعاليمه،

(١) وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ: (مفتاح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم أحد ما يكون في غد ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت وما يدري أحد متى يجيء المطر). أخرجه البخاري في كتاب الجمعة، باب: لا يدري متى يجيء المطر إلا الله، برقم (١٠٣٩)، وفي تفسير سورة لقمان من وجه آخر برقم (٤٦٢٧)، وبرقم (٤٧٧٨)، وفي تفسير سورة الرعد برقم (٤٦٩٧)، وفي كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾، برقم (٧٣٧٩).

(٢) قارن بالمرحور الوجيز لابن عاشور (١/٤٠٠)، وتفسير القرطبي (٥/١٣-١٤).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير دار الفتح (٧/٢)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي (٣/١٢-١٣).

(٤) ولعل بين الآية ولاحتتها مناسبة من وجه آخر، وهو أن الاشتباه الذي حصل بسبب خلق عيسى عليه السلام المخالف للعادة، والذي ضل بسببه أصحاب الهوى، يوجد اشتباه مثله في القرآن الكريم، وهي الآيات المتشابهات، والتي قد يضل بسببها أصحاب الزيغ كذلك، والله أعلم.

وآيات متشابهات لا يعلمهن إلا الله تعالى وحده^(١)، وربما أطلع الله سبحانه بعض عباده على شيء من أسرارها.

وللعلماء أقوال كثيرة في المراد بالآيات المحكمة والآيات المتشابهة، وتفصيل هذا يطول، وأفضل ما قيل فيها ما نقل عن محمد بن إسحاق بن يسار أنه قال في قوله تعالى ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ قال: (فَهِنَّ حُجَّةُ الرَّبِّ وَعِصْمَةُ الْعِبَادِ، وَدَمْعُ الْخُصُومِ وَالْبَاطِلِ لَيْسَ هُنَّ تَضْرِيفٌ وَلَا تَحْرِيفٌ عَمَّا وُضِعْنَ عَلَيْهِ)، وقال في قوله تعالى: ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾: (لَمْ يَفْصَلْ فِيهِنَّ الْقَوْلَ كَفَضْلِهِ فِي الْمُحْكَمَاتِ، تَشَابَهُهُ فِي عُقُولِ الرِّجَالِ وَيَتَخَالَجُهَا التَّأْوِيلُ، فَابْتَلَى اللَّهُ فِيهَا الْعِبَادَ كَابْتِلَانِهِمْ فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ)^(٢).

وحذرت الآية من اتباع المتشابهات، كما يفعل الذين في قلوبهم زيغ^(٣)، بعضهم طلباً للفتنة عمدًا، وبعضهم طلباً لمعرفة تأويل ما لا طاقة لعقولهم به، ولا يحيط بتأويل القرآن الكريم كله ولا يعلم تأويل المتشابه منه إلا الله تعالى. فالراسخون في العلم لا يعلمون تأويله، ولكنهم يقولون: آمننا به كل من عند ربنا^(٤).

(١) هناك رأيان في قراءة الآية وتفسيرها، الأول يقف على لفظ الجلالة، فيكون المعنى أن معرفة المتشابهة مما اختص الله بعلمه، ولا سبيل إلى معرفة المراد منه، والرأي الثاني، لا يقف على لفظ الجلالة، والمعنى عنده أن المتشابه لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم. وسياق الآية يحتمل المعنيين. فيما يرى الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى أن المعنيين يؤولان إلى أمر واحد، فهما متساويان. ينظر: تفسيره (٢/١٢٨٠ - ١٢٨١). والله أعلم.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في أثريين برقم (٣١٧١)، وبرقم (٣١٧٧)، والطبري (٦/١٧٧).

(٣) وكما يحتج بعض النصارى بأن القرآن الكريم قد نطق بأن عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، ويتركون الاحتجاج بقوله تعالى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف: ٥٩]، وبقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مِثْلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَا كُنَّا مَادَّمْ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وغيرها من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله. ينظر: تفسير ابن كثير، دار الفتح (٢/٩).

(٤) كتاب تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، (١/٦٤).

وقد حذر النبي ﷺ من اتباع هؤلاء، فقد صح عنه ﷺ أنه: تلا هذه الآية: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ ﴾ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَأَحْذَرُوهُمْ)^(١).

وليس مجرد طلب التأويل هو المذموم، وإنما المراد هنا: التأويل بحسب الهوى وطلباً للفتنة، فالذين في قلوبهم زيغ ﴿ يَتَّبِعُونَ ﴾ قاصدين ما تشابه من القرآن طلباً للفتنة^(٢)، فعلم من السياق أن هذا هو المذموم، لأنهم يطلبون تأويلاً ليسوا أهلاً له، فيؤولونه بما يوافق أهواءهم، وهذا ديدن الملاحدة وأهل الأهواء^(٣). وهذه الآية تشمل كل أهل الزيغ والضلال، من كافر وزنديق وجاهل وصاحب بدعة، وإن كانت الإشارة وقت النزول إلى نصارى نجران^(٤).

وحثت الآية على التأسى بالراسخين في العلم الذين يؤمنون بجميع القرآن الكريم، لأنه كله من عند الله تعالى. وختمت الآية بمدح هؤلاء الراسخين في العلم ومن تبعهم في إيمانهم وتسليمهم، فوصفتهم بأنهم ﴿ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ والعقول. ففي السياق أمر ضمني باتباع الآيات المحكمة من القرآن الكريم والإيمان بالمتشابهات.

وسبب وجود المتشابهة في القرآن الكريم أن الدعوة عامة والشريعة دائمة، وذلك يقتضي فتح أبواب عبارات القرآن الكريم لاستنباط العلماء في كل عصر، وتعويد علماء الأمة على

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: {منه آيات محكمات}، برقم (٤٥٤٧)، واللفظ له،

وأخرجه مسلم، في كتاب العلم، باب: النهي عن اتباع متشابه القرآن، برقم (٢٦٦٥).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، (٣/٢٣).

(٣) ينظر: المرجع السابق، (٣/٢٢).

(٤) تفسير القرطبي (٥/٢٢).

البحث والتنقيب واستنباط الأحكام، فتناسب العبارات فهم الأولين والآخرين^(١). بالإضافة إلى أن وجود التشابه يعد امتحاناً يميز الله به المؤمن الصادق الراسخ في إيمانه من غيره.

وختمت هذه المقدمة بدعاء وتضرع من الراسخين في العلم وأولي الألباب، طالبين الثبوت على الهداية؛ ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَيِّسْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ (٩) . وهذا الدعاء يأتي بعد الدعاء في سورة الفاتحة طلباً للهداية ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، كما يأتي بعد الدعاء في سورة البقرة طلباً للعفو وعدم المؤاخذه ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۗ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا إِنَّكَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وفي ختام هذه المقدمة بالتأكيد على يوم الحشر وجمع الناس للحساب والثواب والعقاب حثٌ على اتباع الحق والمحكم من الآيات التي أنزلها الله على رسوله ﷺ، وتحذيرٌ من الزيغ عن الحق واتباع الهوى، استعداداً ليوم الحساب.

(١) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، (٣/١٨).

المقدمة الثانية : تحذير الكافرين، وبيان حقيقة الدنيا :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَّ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَيَسَّ السَّيِّئَاتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْفَصِينُ ۖ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّكَ فِي ذَٰلِكَ لَلذِّكْرُ ۗ لَأُولَى الْأَبْصَارِ ﴿١٢﴾ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِحَيْثُ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٤﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّاكُنَا فَاعْفُرْنَا وَدُونَنَا وَفِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٥﴾ الصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠-١٨].

التفسير الإجمالي :

بعد أن ختمت المقدمة الأولى بالتأكيد على البعث والحشر، حذرت الآيات الكافرين من الاغترار بأموالهم وأولادهم، وبينت أنها لن تغني عنهم من الله شيئاً، يوم القيامة، حيث سيكونون وقوداً للنار، وضربت مثلاً لهم بآل فرعون والأقوام السابقة، حيث ملكوا المال والمنصب، واستعبدوا الناس، وكذبوا بآيات الله تعالى، حتى إن فرعون ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٧]، فعاقبهم الله تعالى، ﴿ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ . ثم انتقلت الآيات من التحذير إلى التهديد؛ ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۖ وَيَسَّ السَّيِّئَاتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْفَصِينُ ۖ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّكَ فِي ذَٰلِكَ لَلذِّكْرُ ۗ لَأُولَى الْأَبْصَارِ ﴾ ، وقد سبق التهديد بالنار في الآية السابقة، وأما التهديد بالهزيمة فقد بينته الآية التالية، حيث خاطبت عقول الكافرين وضربت لهم مثلاً بما حصل للمشركين

في غزوة بدر، على كثرتهم وعدتهم، حيث تدخلت القدرة الإلهية لنصرة المسلمين، فكان أحد الفريقين يرى الآخر مثليه ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾، وهكذا أيد المسلمين بنصره^(١)، ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ﴾، كيف شاء، سبحانه وتعالى. فالآيات تقرّر مصير الكافرين وتذكر سنة الله التي لا تتخلف في أخذهم بذنوبهم، وتهديدهم على جرائمهم، وتذكّرهم بما رأوه بأعينهم في غزوة بدر من نصر القلة المؤمنة على حشود الكافرين^(٢).

وبعد أن بيّن الآيات عدم منفعة المال والعيال مع الكفر، بيّن حقيقة الدنيا، وأنها زينت للناس لدرجة الحب^(٣)، وذكرت الآية من الشهوات المزينة: النساء والبنين، والذهب والفضة ويشمل ذلك سائر الأموال المبنية عليهما، والخيّل المسومة للحُسن^(٤)، والأنعام، والحراث وأنواع الزرع^(٥)، وهذا كله مما يستمتع به في الحياة الدنيا، وهي قصيرة مهمل طالت، وفي مقابل ذلك، فإن الله تعالى عنده حسن العاقبة والمرجع في الدنيا والآخرة.

والتزيين هو من الله تعالى عن طريق الخلق والإيجاد والتهيئة للانتفاع وإنشاء الجبلّة على

(١) الخطاب في قوله تعالى ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ يحتمل أن يكون للكافرين، وهو أقرب للسياق، كما يحتمل أن يكون للمسلمين، ومثلها قوله تعالى ﴿يَرَوْنَهُمْ﴾. والظاهر أن الكفار رأوا المسلمين يوم بدر عند اللقاء والتلاحم مثل عددهم، رأوا ذلك رأي العين، فوقع الرعب في قلوبهم فكان سبباً في هزيمتهم. وأما قوله تعالى ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: ٤٤]، فالظاهر أنها كانت قبل التلاحم، حتى يستخف المشركون بالمسلمين، فلا يستعدوا للقتال. وهكذا كانت رؤية القلة ورؤية الكثرة سببين لنصر المسلمين بعجيب تدبير الله تعالى. ينظر: التحرير والتنوير (٣/٣٦).

(٢) ينظر: في ظلال القرآن، لسيد قطب (١/٣٧١).

(٣) لابن عاشور في تفسيره (٣/٣٨) لهذه الآية لفظة لطيفة، قال: تعليق التزيين بالحب جرى على خلاف مقتضى الظاهر، لأن المزّين هو الشهوات وليس حبه، فإذا زينت لهم أحبوا، وفي الآية إيجاز يغني عن أن يقال: (زينت للناس للشهوات فأحبوا).

(٤) كتاب تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، (١/١٢٥).

(٥) نرى الآن أن البشرية قد عادت إلى الأنعام والزرع والمنتجات الطبيعية، بعد ثورة التصنيع والتعليب، وبدأت اللحوم والنباتات العضوية تعود إلى محلات البيع بقوة.

الميل إلى هذه الأشياء. وقال بعضهم هو: من الشيطان بالسوسة والإغراء، وهو بعيد^(١)، لأن تزيين الشهوات في ذاته قد يوافق وجه الإباحة والطاعة، فقد قال النبي ﷺ: (وفي بضع أحدكم صدقة)، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟، قال: (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجراً)^(٢). فالراجع أن التزيين هو من الله تعالى، على سبيل الاختبار، كما قال عز وجل: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ ﴾ [الكهف: ٧]^(٣).

وفي الآيات عظة للمسلمين حتى لا يفتروا بالحياة الدنيا وزينتها التي حبيت للناس فتلهيهم عن الآخرة، كما حصل للكافرين^(٤). ولهذا جاءت الآية التالية بخطاب النبي ﷺ أن يسأل على سبيل التشويق إن كانوا يريدون أن يدهم على ما هو خير من كل ما ذكر من زينة الحياة الدنيا، وهو النعيم المقيم في جنات الخلد، ﴿ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِأَلْوَابِدِ ﴾ فهو يعطي كلاً ما يستحقه من العطاء^(٥). (وقد ألغى ما يقابل شهوات الدنيا في ذكر نعيم الآخرة؛ لأن لذة البنين ولذة المال هنالك مفقودة، للاستغناء عنها، وكذلك لذة الخيل والأنعام، إذ لا دواب في الجنة، فبقي ما يقابل النساء والحراث، وهو الجنات والأزواج، لأن بهما تمام النعيم والتأنس، وزيد عليهما رضوان الله الذي حُرّمه من جعل حظه لذات الدنيا وأعرض عن الآخرة)^(٦). ووصف الأزواج بأنها ﴿ مُطَهَّرَةٌ ﴾ أي منزهة عن جميع المنغصات التي تعتري البشر سواء

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٥/٤٢)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٣/٣٨-٣٩)، وزاد: «أو من الإنسان بالطبع والرغبة».

(٢) رواه مسلم في كتاب الزكاة، باب: بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، برقم (١٠٠٦).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العزيز، لابن أبي زمنين (١/٢٥٥).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/٣٧).

(٥) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار الفتح (٢/٢٩).

(٦) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/٤٢).

أكانت حسية أم معنوية^(١).

وقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا﴾ عطف بيان على قوله ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، وصفتهم الآية بالتقوى والتوجه إلى الله تعالى بطلب المغفرة، قولاً وعملاً^(٢). ثم وصفت الآيات المتقين بخمس صفات أخرى؛ ﴿الصَّالِحِينَ﴾ على أداء الطاعات واجتناب المحرمات، {والصادقين} في قولهم ﴿إِنَّا أَمْنَا﴾^(٣) وفي جميع شؤونهم، ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ الطائعين الخاضعين لله تعالى وأوامره، ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ مما رزقهم الله تعالى في مختلف الطاعات، ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾، إذ الاستغفار بالأسحار من أعمال الأبرار، كما قال تعالى ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٨]، والسحر هو: آخر الليل قبيل الصبح^(٤)، وقد وردت في فضائل آخر الليل أحاديث كثيرة، أشهرها حديث النزول؛ قال رسول الله ﷺ: (إذا مضى شطر الليل أو ثلثاه ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائل يعطى، هل من داع يستجاب له، هل من مستغفر يغفر له، حتى ينفجر الصبح)^(٥).

بعد هذه الآية كانت آية شهادة التوحيد؛ وفيها شهادة من الله سبحانه لنفسه بالوحدانية، ﴿وَالْمَلَكُ وَالْوَلُوءُ الْعَلِيمُ﴾ عطف على لفظ الجلالة، أي: هم شهداء بالوحدانية، ﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ هم العارفون بالله الذين يقيمون البراهين على وحدانيته^(٦)، ﴿قَائِمًا﴾ حال الضمير ﴿هُوَ﴾

- (١) جزم ابن عاشور في التحرير والتنوير (٤٢/٣) أن الطهارة هنا حسية لا معنوية، ولا أرى سبباً لهذا التحديد، والله أعلم.
- (٢) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٤٢/٣).
- (٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣٠/٢).
- (٤) لسان العرب، لابن منظور، مادة سحر.
- (٥) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب التوحيد برقم (٧٤٩٤)، ومسلم واللفظ له في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل برقم (٧٥٨).
- (٦) التسهيل لعلوم التنزيل، للغرناطي (١٠٢/١).

أي شهد بوحدانيتها وقيامه بالعدل^(١)، أو حال من اسم الجلالة ﴿الله﴾ للتأكيد^(٢)، كما يحتمل أن يكون لفظ ﴿قَائِمًا﴾ منصوب على المدح^(٣)، والقسط هو العدل، معرب.

ثم كرر شهادة التوحيد ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لوجهين؛ أحدهما: أنه ذكر أولاً الشهادة بالوحدانية ثم ذكرها ثانياً بعد ثبوتها بالشهادة المتقدمة، والآخر: أن ذلك تعليم لعباده ليكثرُوا من قولها^(٤).

والشهادة بالشيء: الإخبار به عن علم إما بالمشاهدة الحسية، وإما بالمشاهدة المعنوية وهي الحججة والبرهان^(٥).

والآية مرتبطة بمحور السورة الأساسي ارتباطاً وثيقاً، بل هي خير دليل على محور هذه السورة الكريمة، كما ترتبط الآية بما قبلها من حديث عن المؤمنين وصفاتهم والشهادة أول أركان الإيمان، وترتبط الآية بما بعدها من حصر الدين الذي يرضيه الله تعالى في الإسلام، وهو دين التوحيد.

(١) في هذه الآية إشارة إلى أنه لا محابة في الدين والحساب والجزاء، تعريضاً بأهل الكتاب الذين قالوا ﴿مَنْحُنْ أَبْتَنُوا اللَّهَ وَأَجَبْتُوهُ﴾ [المائدة: ١٨]، وقالوا ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَيَّامًا مَقْدُودَةً﴾ ، كما سيأتي بعد قليل، وتحذير لأمثالهم من أهل الأهواء. ففي الآية تنبيه إلى أن المجازاة ستكون على الأعمال بلا محابة، كما سيأتي في الآيات: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، (٣/٤٤)، والتسهيل لعلوم التنزيل، للغرناطي (١/١٠٢).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، للغرناطي (١/١٠٢)، وقيل: منصوب على الحال، وقيل غير ذلك، ينظر: تفسير ابن أبي زمنين (١/٢٥٧)، والبحر المحيط (٢/٤٢٠-٤٢٣).

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، للغرناطي (١/١٠٢). وهناك أوجه أخرى، ينظر: البحر المحيط (٢/٤٢٣-٤٢٤).

(٥) تفسير المراغي (٣/١١٣).

المقدمة الثالثة : الإعلام بانتقال الرسالة والريادة إلى أمة الإسلام :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ
 الْعِلْمُ بَيْنًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ إِلَهَهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُمْ
 وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ أَتَّبَعِي وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسَلْتُمْ إِنْ أَسَلْتُمْ فَعَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ
 تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ
 بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾
 أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى
 الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فِرْقًا مِّنْهُمُ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ
 ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ نَمَسَّكَ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾
 فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ
 اللَّهُمَّ مَلَكَ الْمَلَائِكَةِ تُوْفِّي الْمَلَائِكَةَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلَائِكَةَ مَعَن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ
 بِيَدِكَ الْخَبِيرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ
 الْمَمَاتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ
 دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُ وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ
 نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُشِرُوا بِعَلْمِ اللَّهِ وَيَسْأَلُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
 وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا
 عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾
 قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ
 وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [آل عمران ١٩-٣٢].

التفسير الإجمالي :

تعود الآيات تأكيد وحدانية الله تعالى وتفرد، تعريضا مرة أخرى بأهل الكتاب وشركهم،
 خصوصا النصارى منهم، لتضيف أن أصل الديانات واحد، وهو الإسلام دين التوحيد، وهو

الدين الذي يرتضيه الله تعالى، ولا يجادل من يحترم عقله في كمال الإسلام وعظمته وفضله على سائر الأديان، ولهذا جاءت تكملة الآية للإخبار عن حال أهل الكتاب من سوء تلقيهم للإسلام ورسوله، ومن سوء فهمهم وعدم اتباعهم لتعاليم دينهم^(١). وإنما اختلف أهل الكتاب بعد ما جاءهم العلم بغياً وحسداً وتباغضاً بينهم^(٢)، فيخالفون خصومهم في جميع أقوالهم وأفعالهم وإن كانت حقاً^(٣). وختمت الآية بالوعيد ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعٌ الْحِسَابِ ﴾، ففي الآية تحذير لأهل الكتاب من أن يختلفوا في القرآن اختلف فهم في كتبهم، وتحذير للمسلمين من أن يقعوا فيما وقع فيه أهل الكتاب من قبل^(٤).

وبعد هذه الحقائق المذكورة في هذه المقدمات من إرسال الرسل وإنزال الكتب، والأمر بعبادة الله وحده وعدم اتباع الشهوات والمتشابهات وعدم إنكار آيات الله تعالى، وهي حقائق ثابتة لا ينبغي المخالفة فيها ولا المكابرة برفضها، ومن فعل ذلك فليس له حظ من الإيمان ولا يستحق مزيداً من النقاش، ولذا يأتي التعليم الإلهي للنبي ﷺ بترك من جادل بعد أن عرف الحق وإعلان الإسلام، فقال تعالى ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ وحده أنا ومن تبعني وكان على ديني. كما أمره الله تعالى بأن يدعو أهل الكتاب وغيرهم إلى دين الإسلام، ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْأَعْيَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ فهو يتولى جزاءهم ويعلم أنك دعوتهم إلى الإسلام. فتوجيه الآية إلى دفع المجادلة، وترك محاجتهم مع القيام بدعوتهم^(٥). وفي

(١) نظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/٥٣).

(٢) كأن في هذه الآية مع آية الشهادة التي سبقتها إشارة إلى الفريقين المختلفين في التعامل مع محكم الكتاب ومتشابهه، فأولوا العلم يؤمنون به فأكرمهم بذكر شهادتهم على وحدانيته، والضالون من أهل الكتاب يتبعون المتشابه فذكروهم في هذه الآية: ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ أَوْلَاهُمْ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾، والله أعلم.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/٣٣).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/٥٦).

(٥) ينظر: البحر المحيط (٢/٤٢٧)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/٥٧).

الآية دليل صريح على عموم بعثة النبي ﷺ للناس كافة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَأَيَّمَهَا النَّاسُ
إِنِّي رَسُولٌ لِّأَللّهِ لِيَتَّكُم بِجَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨] ^(١).

ثم تشير الآيات إلى كفر اليهود وقتلهم الأنبياء والدعاة، وتهددهم بالعذاب الأليم يوم
القيامة جزاء جرائمهم، فهم الذين خسروا الحياة الطيبة في الدنيا، والثواب والنعيم في الآخرة،
﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ نُصْرَةٍ ﴾ يمنعون عنهم العذاب الأليم. ففي الآية ثلاثة أصناف من
الوعيد، هي: اجتماع أصناف الآلام والمكاره وهو العذاب الأليم، وزوال أسباب المنافع في
الدنيا والآخرة، ودوام هذا العذاب إذ لا ناصر يدفعه ^(٢).

وجاء فعل ﴿ يَقْتُلُونَ ﴾ بصيغة المضارع لبيان أنهم على طريقة أسلافهم وراضون
بأفعالهم، ومعتقدون صحتها ^(٣)، ولو تمكنوا الفعلوا مثل فعل أسلافهم، ولأنهم أرادوا قتل النبي
ﷺ وقتل أتباعه، فأطلق ذلك عليهم مجازاً، أي: من شأنهم وإرادتهم ذلك ^(٤).

وقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ استفهام للتقرير والتعجب من إعراض بعض من ﴿ الَّذِينَ
أَوْثُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ عن كتاب الله وعن الحكم بما فيه، وكان الأولى بهم أن يكونوا
أحرص الناس على اتباعه والعمل به، وبالتالي فلا عجب إذا عرضوا عن القرآن أو كفروا
برسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، فهذا دينهم وتلك عاداتهم.

وفي قوله تعالى ﴿ نَصِيبًا ﴾ تعريض بأنهم لا يعلمون من كتبهم إلا الشيء اليسير ^(٥). وفي
قوله تعالى ﴿ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ مصداق لقوله تعالى فيما سبق ﴿ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ ، حيث لم

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤).

(٢) تفسير المراغي (٣/ ١٢١).

(٣) ينظر: البحر المحيط (٢/ ٤٢٩)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٦٢).

(٤) البحر المحيط النسخة المحققة (٢/ ٤٢٩-٤٣٠)، والأخرى (٢/ ٤١٣)، وفي كليهما: (فقتل أتباعه)،
ولعلها مبنية للمجهول. لكن ما أثبتته أقرب للسياق، والله أعلم.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٦٤-٦٥).

يعمم التولي والإعراض.

ثم بينت الآيات سبب كفرهم وجرائمهم وهو قولهم كذباً واقتراء: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَنْتِكُمْ مَا مَعْدُودَةٌ﴾، وقد تقدم قولهم هذا في سورة البقرة [آية: ٨٠]. وقد خدعوا أنفسهم بزعمهم الكاذب هذا، ﴿وَعَزَّمْ﴾ وثبتهم هذا الاقتراء ﴿فِي دِينِهِمْ﴾ الباطل، وهم الذين افتروه واختلقوه.

ثم حذرهم الله تعالى من يوم الحساب فقال سبحانه ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي: كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه والعلماء من قومهم، والله جامعهم ومحاسبهم ومجازيهم^(١)، وفي الاستفهام بقوله تعالى ﴿فَكَيْفَ﴾ تهويل لما سيلاقونه يوم القيامة^(٢).

وقد جاء في الصحيح أن النبي ﷺ سأله: (من أهل النار)، قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: (اخسئوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبداً)^(٣).

وبعد هذه المقدمات في الحوار مع أهل الكتاب تشير الآيات إلى انتقال الراية من الأمم السابقة إلى أمة الإسلام؛ فتقرر الآيات حقيقة تفرد الله تعالى بالملك وتصرفه فيه، فهو سبحانه مالك الملك، يؤتیه من يشاء وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، وهو على كل شيء قدير، وفي الآية إشارة إلى أن الله تعالى يختار من يشاء من عباده لحمل رسالته، كما قال تعالى ردّاً على اعتراضهم إرسال النبي ﷺ: ﴿أَهْمُرُّ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢].

وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة، لأن الله

(١) ينظر: تفسير ابن أبي زمنين (١/٢٥٩)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/٣٧).

(٢) ينظر: تفسير المراغي (٣/١٢٥).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجزية، باب: إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم، برقم (٣١٦٩).

حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكي الأمي ﷺ^(١). وفيها تعريض بأن أهل الكتاب أعرضوا عن الإسلام حسداً على زوال النبوة والملك منهم^(٢).

وقوله تعالى ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ نَشَاءُ بِعَيْنِ حِسَابٍ ﴾^(٣٧) متصل بالآية السابقة، فهذه كلها دلائل الملك والإرادة، ولا أحد يجادل الله تعالى في ملكه وتصرفه في الليل والنهار والحياة والمات^(٣)، فيجب أن لا يجادلوا في انتقال النبوة والملك من بني إسرائيل إلى أمة الإسلام^(٤).

وفي استخدام ألفاظ الليل والموت، والنهار والحياة إشارة إلى ما في الديانات الباطلة المحرفة من ظلمات الجهالة والشرك، وإلى ما حدث بظهور الإسلام من إبطال تلك الضلالات^(٥).

وبعد هذه الآيات كلها، تأتي النتيجة المنطقية في قوله تعالى ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، فبعد بيان بغى أهل الكتاب وإعراضهم عن الحق، نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن موالاته الكافرين، كما قال تعالى ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [الممتحنة: ١].

ومن اتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فليس من الله في شيء، كما قال تعالى ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾^(٥١) [المائدة: ٥١].

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣٧/٢).

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٦٧/٣).

(٣) يرى المرحوم عبد العزيز باشا إسماعيل في كتابه الإسلام والطب الحديث أن المراد بإخراج الحي من الميت هو ما يحصل يومياً من أن الحي ينمو جسمه بأكل أشياء ميتة، وأما إخراج الميت من الحي فهو الإفرازات من الجسم كاللبن مثلاً. ينظر: تفسير المراغي حيث نقل ذلك (٣/١٢٩-١٣٠).

(٤) ينظر: تفسير المراغي (٣/١٢٨-١٢٩).

(٥) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٦٩/٣).

وكيف يمكن للمؤمن بالله تعالى أن يوالي أعداء الله، والله تعالى هو مالك الملك المتصرف فيه بما يشاء؟، كما سيأتي في وسط السورة الكريمة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا ءَأَرْبَابًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ ءِإِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَد هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠١]. وقوله تعالى ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، إما أن يكون تقييداً للنهي كما هو ظاهر الآية، فيكون المنهي عنه اتخاذ الكافرين أولياءً دون المؤمنين، أي: ولاية الكافر التي تنافي ولاية المؤمنين، وذلك عندما يكون في تولي الكافرين إضرار بالمؤمنين، وإما أن يكون النهي عن الموالاتة مطلقاً بدون قيد، كما ورد في آيات كثيرة، وهناك أحوال وأحكام كثيرة في الموالاتة، ليس هذا مجال تفصيلها، فالنهي ليس على عمومته^(١). واستثنى من هذا النهي حالة تجنب المكروه، بسبب الخوف ونحوه، والتقية تكون بالقول لا بالعمل وبقدر الضرورة، فقد صح عن ابن عباس ؓ ما أنه قال: التقاة: التكلم باللسان^(٢).

وذكر المفعول المطلق في الآية ﴿إِلَّا أَن تَكْتَفُوا مِنْهُنَّ نَفْسَةً﴾، ليشير إلى وجوب أن تكون الحالة حالة ضرورة لا يمكن معها عدم الموالاتة ظاهراً، كما كان عليه المستضعفون من المؤمنين الذين لم يتمكنوا من الهجرة في سبيل الله، كما قال تعالى ﴿إِلَّا مَن أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِءِإِيمَانٍ﴾ [النحل: ١٠٦]^(٣)، فظاهر الآية يقتضي جواز موالاتهم عند الخوف منهم^(٤).

وختمت الآية بالتحذير من فعل المنهي عنه في الآية من موالاتة الكافرين ومعاودة المؤمنين، فقال تعالى ﴿وَيَحذِرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾، وأكد ذلك بالتذكير بأن المرجع والمصير إليه وحده لا

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/٧١-٧٤)، والبحر المحيط لأبي حيان (٢/٤٤١).

(٢) أخرجه الحاكم وصححه في المستدرک، (٢/٣١٩) برقم (٣١٤٩)، وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/٧٥).

(٤) البحر المحيط لأبي حيان (٢/٤٤٣).

شريك له، فيجازي كل إنسان بعمله، ففي الآية تهديد ووعيد شديد وتحذير من المخالفة ومن التساهل في دعوى التقية واستمرارها أو طول زمانها^(١).

وفي قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٩) إخبار وتنبية على سبيل التحذير والتخويف، فهو سبحانه ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (٧) [طه، آية: ٧].

والآية مرتبطة بما قبلها وبالسياق والمحور العام ارتباطاً وثيقاً^(٢)؛ لأن الآية السابقة تتحدث عن تحريم موالات الكافرين إلا أن يكون ذلك على سبيل التقية خشية الضرر، وهذا أمر يقدر بقدره وهو يتعلق بالسرائر، فجاءت هذه الآية للتنبيه على إحاطة علم الله تعالى بما في الصدور، وكمال قدرته على المواخذة على ذلك.

كما أن الآية مرتبطة بالسياق والمحور العام ارتباطاً وثيقاً كذلك، فالسياق في الحوار مع النصارى الذين يخفون كثيراً مما جاء في الكتب المقدسة، والآية هنا تنبه على إحاطة علم الله تعالى بما يخفون وما يبدون، وبكل ما في السموات وما في الأرض.

وقدم الإخفاء على الإبداء هنا فقال تعالى ﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ ﴾ ، لأن المقام مقام محاوره مع أهل الكتاب من يهود ونصارى - حيث بدأت الآية بقوله تعالى ﴿ قُلْ ﴾ -، وهم قد أخفوا كثيراً مما أنزل الله عليهم من الكتاب، كما قال تعالى: ﴿ يَكْتُمُونَ الْأَكْتَابَ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْأَكْتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [المائدة، آية: ١٥]، ولذا استخدم لفظة العلم فقال ﴿ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٧٥)، والبحر المحيط لأبي حيان (٢/ ٤٤٣).

(٢) قال الدكتور فاضل السامرائي في أسرار البيان في التعبير القرآني حول السياقين: (المحاسبة في سورة البقرة هي على ما يُبدي الإنسان وليس ما يُخفي ففي سياق المحاسبة قَدَم الإبداء، أما في سورة آل عمران فالآية في سياق العلم لذا قَدَم الإخفاء لأنه سبحانه يعلم السر وأخفى).

أما في سورة البقرة فقدم الإبداء على الإخفاء فقال تعالى ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [البقرة، آية: ٢٨٤]، لأن السياق هناك يتحدث عن أنواع من المعاملات بين البشر من أنواع الإنفاق والقروض وتحريم الربا وكتابة الدين والرهن وختمت الآيات بتحريم كتمان الشهادة، والمعاملات بين البشر تقوم عادة على الإبداء وليس على الإخفاء^(١).

ثم قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَعْدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ، وَاللَّهُ زَوْفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٣٠)، وهذه الآية مرتبطة بالتحذير المذكور سابقاً في السياق من الحشر والحساب والجزاء، والتحذير من عذاب الله وغضبه، وكون المصير إلى الله، فين ما يكون حيثنذ، من الحسرة والندامة وتمني المستحيل. والتحذير في هذه الآية يمكن أن يكون تكراراً للتحذير السابق، زيادة في التأكيد والتهديد والوعيد^(٢)، ويمكن أن يكون الأول تحذيراً من موالة الكافرين، والثاني تحذيراً من أن يجدوا يوم القيامة ما عملوا من سوء محضراً^(٣). والتخويف الثاني موجه للمؤمنين بدلالة قوله تعالى في آخر الآية: ﴿ وَاللَّهُ زَوْفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٣٠)، قال الحسن البصري: من رأفته بهم حذرهم نفسه^(٤).

(١) وهناك لفظة أخرى في آية البقرة وهي استخدام لفظة الحساب ﴿ يَخَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ بدل لفظة العلم ﴿ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ﴾، لأن السياق كما ذكرنا سياق معاملات. والله أعلم.
وثمة لفظة أخرى فيها، حيث قال تعالى ﴿ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾، على سبيل الملك والحكم والتصرف المطلق، لأن السياق في المعاملات وهذا التعبير يناسبه كما لا يخفى.
أما في آية آل عمران فقال تعالى ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾، لأن السياق في الحوار معهم والتنديد عليهم بإخفاء الحق الذي أنزل إليهم، فاستخدم التعبير الدال على كمال العلم بكامل الكون، والله أعلم.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٤١)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ٧٨).

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٣/ ٧٨).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم برقم (٣٣٩٨)، والطبري في تفسيره (٦/ ٣٢١)، برقم (٦٨٤٤).

ونظم الكلام في الآية يحتمل عدة أوجه؛ فيمكن أن يكون: تود كل نفس لو أن بينها وبين ما عملت من سوء أمداً بعيداً يوم تجد ما عملت من خير محضراً. ويمكن أن يكون: يحضر لكل نفس في يوم الإحضار ما عملت من خير وما عملت من سوء، فتود في ذلك اليوم لو أن بينها وبين ما عملت من سوء أمداً بعيداً. ويمكن أن يكون أصل النظم: يوم تجد كل نفس ما عملت من خير ومن شر محضراً، تود لو أن بينها وبين ذلك اليوم أمداً بعيداً^(١).

وفي قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ دليل على عدم القبول ممن ادّعى محبة الله ولم يلتزم بما جاء به رسول الله ﷺ، أو زعم إمكان الوصول إلى الله تعالى عبر سنن وطرائق لم يأت بها رسوله ﷺ^(٢)، وهو ما حذر منه عليه الصلاة والسلام بقوله (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)^(٣). قال الحسن: جعل محبة رسوله محبته، وطاعته طاعته^(٤).

وفي الآية تعريض بأهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين يظهرون حب الله ويزعمون حب الله لهم، ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة، آية: ١٨]، ثم لا يتبعون الرسول محمداً ﷺ ﴿ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ [الأعراف، آية: ١٥٧]، بل لا يتبعون رسولهم ولا ما أنزل عليه. فيجب على كل من يزعم حب الله تعالى وحب رسله عليهم السلام أن يتبع رسوله الخاتم رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام.

ثم ختمت الآيات بالأمر بطاعة الله تعالى ورسوله محمد ﷺ، وحذرت من الإعراض عن

(١) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور (٧٧/٣).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤٢/٢)، والتحرير والتنوير، لابن عاشور (٨١/٣).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الأفضية، باب: نقض الأحكام الباطلة وردّ محدثات الأمور، برقم (١٧١٨)، وأخرجه البخاري في كتاب الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود برقم (٢٦٩٧) ومسلم في الموضوع المذكور أعلاه بلفظ آخر: (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد).

(٤) تفسير ابن أبي زمنين (٢٦١/١).

ذلك لأنه كفر، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٣)، وإن زعموا أنهم يحبون الله ويتقربون إليه. وفي قوله تعالى ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ دون الفصل بينهما بتكرار الفعل إشارة إلى عدم القبول ممن زعم أنه يطيع الله تعالى دون طاعة الرسول، بل إن ذلك من الكفر، لذا ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٣).

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع:

- الدلائل على وحدانية الله تعالى كثيرة، فهو الحي القيوم، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو مالك الملك، والمتصرف في هذا الكون، كالليل والنهار والحياة والموت، وما سوى ذلك مما لا قدرة للمخلوقات عليه.
- صفتا الحياة والقيومية لله تعالى كافيتان للرد على شبهة إلهوية عيسى عليه السلام، ففيها رد على ادعاء النصارى أن عيسى عليه السلام إله، وابن إله، لأنهم زعموا أنه صلب فليس بحي وليس بقيوم^(١).
- أنزل الله تعالى الكتب لهداية البشر، والقرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية، وهم مصدق لها، ومهيمن عليها.
- كون النبي ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب يُبعد عنه شبهة النقل عن أهل الكتاب أو أساطير غيرهم، وكون القرآن الكريم ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يبعد عن النبي ﷺ شبهة الاختراع والتأليف.
- إحاطة علم الله تعالى بكل ما في الأرض والسماء، يعلم بما يخفيه أهل الكتاب من صفة الرسول ﷺ، وما يقوله أهل الزيغ والضلال، وأعداء الإسلام مما سيأتي في آيات السورة الكريمة.

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، للكليبي (١/٩٩)، والتفسير الكبير للرازي (٧/١٣٥).

- في آية تصوير الأرحام إشارة إلى خلق عيسى عليه السلام وتصويره في رحم أمه مريم عليها السلام، ففيها إشارة إلى طبيعته وطبيعة أمه البشرية عليهما السلام، وهي إشارة بديعة في الحوار مع النصارى، ولهذا جاء بعدها إثبات وحدانية الله تعالى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.
- في آية تصوير الأرحام كذلك ردّ على القائلين بنظرية التطور (النشوء والارتقاء)، الذين يجعلون المخلوقات فاعلة مستبدّة^(١).
- يجب على المؤمن العمل بمحكم الكتاب الكريم، والإيمان بالمتشابه منه، ودعاء الله تعالى بالهداية والاستقامة، وعدم تتبع الشبهات كما يفعل أهل الزيغ والضلالات.
- ليس مجرد طلب تأويل الآيات المتشابهة هو المذموم، وإنما المذموم هو التأويل بحسب الهوى وطلباً للفتنة.
- سبب وجود المتشابهة في القرآن الكريم أن الدعوة عامة والشريعة دائمة، وذلك يقتضي فتح أبواب عبارات القرآن الكريم لاستنباط العلماء في كل عصر^(٢). بالإضافة إلى أن وجود المتشابهة يعد امتحاناً يميّز الله به المؤمن الصادق الراسخ في إيمانه من غيره.
- كثرة الأموال والأولاد لا تغني من حساب الله يوم القيامة شيئاً، وإنما النجاة هناك متعلقة بعد توفيق الله تعالى ورحمته بالعمل الصالح المنبثق عن الإيمان بجميع ما في كتاب الله تعالى، وطاعة الله ورسوله ﷺ.
- إن ما يحبه الناس من الشهوات إنما هو متاع الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى.
- الإسلام هو دين الله تعالى، وهو الدين الذي جاء به الرسل جميعهم، على اختلاف شرائعهم وتشريعاتهم.
- كفر أهل الكتاب، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقتلهم العلماء والدعاة، وسائر جرائمهم

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١٤/٥).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور، (٣/١٨).

- الأخرى هي التي تسببت في نقل الرسالة منهم إلى أمة الإسلام.
- زعم أهل الكتاب أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة هو الذي شجعهم ويشجعهم على ارتكاب جرائمهم.
 - الملك الله تعالى يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء.
 - لا يجوز للمؤمنين موالاة الكافرين على حساب إخوانهم المؤمنين إلا في حال الخوف الشديد تجنباً للمكروه، وتكون بالقول لا بالعمل وبقدر الضرورة.
 - عدم القبول ممن ادّعى محبة الله ولم يلتزم بما جاء به الرسول ﷺ.
 - وعدم القبول ممن زعم إمكان الوصول إلى الله تعالى عبر سنن وطرائق لم يأت بها الرسول ﷺ.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المناسبة ظاهرة جداً، بل إن هذا المقطع لخص النقاش العام في السورة، حيث بدأ بإقرار وحدانية الله تعالى وأنه ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ، وأثبت إنزال الكتب على رسله، وبين أن الأموال والأولاد لن ينفعوا الكفار شيئاً، وبين حقيقة الدنيا، واستخدم التهيب والترغيب في ذلك، وقطع باب الجدل الذي لا يفضي إلى نتيجة، ثم دعت الآيات إلى مقاطعة أهل الكفر وعدم موالاتهم، وختمت بتوضيح حقيقة الحب والاتباع، وحذرت الكافرين من أن الله تعالى لا يحبهم. والآيات في كل ذلك تعرض بأهل الكتاب من اليهود والنصارى.

المقطع الثاني: اصطفاء الله تعالى لرسله عليهم السلام

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتْ أَمْرَاتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُومُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ رَزَقُكَ مِنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا لِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي عُقْلٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَاتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَأَذْكُرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَيِّحَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُومُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرُومُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَزْكِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الآيات: ٣٣-٤٤].

مناسبة هذا المقطع لما قبله:

لما تقدم قبل: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ، ووليه: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ ، وختمها بأنه ﴿ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ ، ذكر المصطفين الذين يجب اتباعهم فبدأ أولاً بأولهم وجوداً وأصلهم وثنى بنوح عليه السلام إذ هو آدم الأصغر ليس أحد على وجه الأرض إلا من نسله ثم أتى ثالثاً بآل إبراهيم فاندرج فيهم رسول الله ﷺ المأمور باتباعه وطاعته وموسى عليه السلام ثم أتى رابعاً بآل عمران فاندرج في آلهم مريم وعيسى عليهما السلام، ونص على آل إبراهيم لخصوصية اليهود بهم، وعلى آل عمران لخصوصية النصارى بهم، فذكر تعالى جعل

هؤلاء صفوة أي مختارين^(١). وبعبارة أخرى: لما بين سبحانه أن محبته منوطة باتباع الرسول، فمن اتبعه كان صادقاً في دعوى حبه لله تعالى، اتبع ذلك ذكر من أحبهم واصطفاهم، وجعل منهم الرسل الذين يبينون طريق محبته، وهي الإيمان به مع طاعته^(٢).

كما أن هذا المقطع نزل ردّاً على نصارى نجران لما غلوا في عيسى، وجعلوه ابن الله تعالى، واتخذوه إلهاً، ففيه إعلام لهم أن عيسى عليه السلام من ذرية البشر المتنقلين في الأطوار المستحيلة على الإله، واستطرد من ذلك إلى ولادة أمه، ثم إلى ولادته هو^(٣)، ففيه تفصيل لبعض ما أجمل في سابقه.

التفسير الإجمالي:

يرجع الحديث في هذه الآيات إلى تاريخ اصطفاء واختيار الأنبياء والمرسلين، من آدم عليه السلام إلى سيد الأولين والآخرين، مصداقاً لما أخبر به الله تعالى في الآيات السابقة من وحدانيته وتفرد به بالملك والتصرف فيه.

فيخبر تعالى أنه اصطفى واختار آدم عليه السلام وهو أبو البشر كلهم، ونوحاً عليه السلام وهو الأب الثاني للبشر، وآل إبراهيم عليه السلام، وهو أبو الأنبياء، ولذا جعل الاصطفاء للآل ولم يقصره على إبراهيم عليه السلام، إذ جعل في ذريته النبوة والكتاب، ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]^(٤).

(١) البحر المحيط، لأبي حيان (٢/٤٥٢)، وينظر: تفسير المراغي (٣/١٣٨). وينظر في أوجه اصطفاء هؤلاء الأنبياء عليهم السلام: البحر المحيط لأبي حيان (٢/٤٥٢-٤٥٣)، وتفسير ابن كثير (٢/٤٣-٤٤)، ونظم الدرر للبقاعي (٤/٣٤٢-٣٤٨).

(٢) ينظر: تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، للشيخ محمد عبده، (٣/٢٨٧-٢٨٨).

(٣) البحر المحيط، لأبي حيان (٢/٤٥٢).

(٤) وقد وردت نفس العبارة عنه وعن نوح عليها السلام، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٦]، ووجه ذلك أن نوحاً عليه السلام هو أبو البشر الثاني، وبالتالي أبو الأنبياء أيضاً، والله أعلم.

واصطفاء هؤلاء إنما هو اصطفاء لدينهم، وهو دين الإسلام، اصطفاه الله على سائر الأديان^(١)، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ .

والمقصود بآل إبراهيم وآل عمران: المؤمنون، لأن آل الرجل هم أتباعه وقومه ومن هم على دينه^(٢)، كما سيأتي قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَرَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٨].

وقوله تعالى ﴿ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ، إشارة إلى أنهم من جنس البشر، يسري عليهم ما يسري على البشر، وفي هذا تعريض بضلال النصارى في دعواهم. ثم أكد هذا المعنى بقوله تعالى ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضًا مِنْ بَعْضٍ ﴾ ، فهم كلهم من بني آدم^(٣)، كما أن بعضهم من بعض في الموالاة في الدين، والموازرة على الإسلام والحق^(٤)، ومشركون في توحيد الله تعالى والإخلاص له^(٥)، ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، اصطفاهم على تمام العلم، ويسمع أقوال الناس فيهم ويعلم أحوالهم معهم^(٦).

تتجه الآيات بعد ذلك للحديث عن آل عمران^(٧)، وقيل إن عمران هو أبو موسى عليه السلام، أو هو عمران أبو مريم عليها السلام، والثاني ألصق بالسياق^(٨)، أما عمران الثاني

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري (٦/٣٢٦).

(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري (٦/٣٢٦).

(٣) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤/٣٤٥).

(٤) تفسير الطبري (٦/٣٢٧).

(٥) أخرج الطبري معناه بسنده الحسن عن قتادة (٦/٣٢٨).

(٦) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤/٣٤٨-٣٤٩).

(٧) متجاوزة الحديث عن آدم ونوح وآل إبراهيم عليهم السلام، حيث تقدم الحديث عن آدم عليه السلام في سورة البقرة، كما تقدم الحديث عن اصطفاء إبراهيم وآله عليهم السلام، وطوى ذكر نوح عليه السلام لأن المقصود من ذكره عليه السلام كونه في عمود النسب، وليس في أمر ولادته ما هو خارج عن العادة. ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤/٣٤٩).

(٨) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٢/٤٥٣). وينظر: التفسير المنير لوهبة الزحيلي (٣/٢١٣)، حيث جزم

المذكورة امرأته فهو أبو مريم عليها السلام قولاً واحداً.

كانت امرأة عمران عاقراً لم يقدر لها الولد، واشتاقت بفطرتها للأمومة، فدعت الله تعالى فرزقها الله بالحمل. وتبدأ الآيات سرد الأحداث من نذر امرأة عمران بعد تحققها الحمل، حيث قالت ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ خالصاً لخدمة بيت المقدس، ﴿ فَتَقَبَّلَ مِنِّي ﴾ هذا النذر، ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ ﴾ لقولي ﴿ أَلْعَلِيمُ ﴾ بنيتي وقصدي.

فلما وضعت امرأة عمران حملها تحسرت لأن المولودة أنثى، وهي قد نذرت حملها لخدمة بيت المقدس، والأنثى لا تصلح لذلك بسبب ما يجري عليها من أمور الطبيعة، ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ ﴾ ، إشارة إلى كمال علم الله تعالى من جهة، وبيان مكانة مريم عليها السلام من جهة أخرى، حيث إنها بمن كَمُل من النساء، وهي مكانة لا يصلها أكثر الرجال، كما قال النبي ﷺ: (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون)^(١).

وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ الذِّكْرُ كَالْأُنْثَى ﴾ ، إما أن يكون من كلام امرأة عمران خوفاً من أن لا تكون الأنثى التي وضعتها كافية للوفاء بالنذر. كما يمكن أن يكون من كلام الله سبحانه وتعالى؛ أي: وليس الذكر الذي أرادته للنذر كالأنثى التي وضعتها، إبرازاً لمكانة مريم عليها السلام^(٢). ثم تابعت مناجاتها قائلة: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ ، وفي الآية إشعار بأن الله تعالى أوحى إليها أن هذه المولودة سيكون لها ولذريتها شأن عظيم^(٣). وقد استجاب الله تعالى دعائها وتضرعها، وأعادها وابنها من الشيطان الرجيم،

أنه أبو موسى عليه السلام في الموضع الأول، مخالفاً لما قاله قبل ذلك من الجزم بأنه والد مريم أم عيسى عليها السلام (٣/ ٢١١).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب: قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ ﴾ ، برقم (٣٤٣٤)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب: فضل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، برقم (٢٤٣١).

(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٣٥٣).

(٣) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٣٥٥).

كما قال النبي ﷺ: (ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مسّ الشيطان إياه، إلا مريم وابنها)^(١).

تقبل الله تعالى نذر امرأة عمران ﴿يَقْبُولُ حَسَنًا﴾ ، وحفظ مريم ورعاها، ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ ، والحسن في الموضوعين عام، فيشمل كل ما يطلق عليه هذا الاسم، من شكل مليح ومنظر بهيج، وتيسير أسباب القبول، والصحة الصالحة الدالة على الخير والعلم والدين^(٢)، وكان من تمام ذلك أن جعل نبيه زكريا عليه السلام كافلاً لها، لتقتبس من علمه وصلاحه، ولأنه كان زوج خالتها، وقيل زوج أختها^(٣)، كما ورد في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة)^(٤). وقد كانوا اختلفوا في كفالتها، كلهم يريد ذلك، حتى اقتصروا وألقوا أقلامهم، كما قال تعالى ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، فكانت الكفالة من نصيب زكريا عليه السلام، فكانت بركة لكليهما؛ حسن إنبات لمريم عليها السلام، وسبباً في دعاء زكريا وإيتائه ولداً يكون نبياً هو يحيى عليها السلام.

تنتقل الآيات لتخبر عن أحد أوجه الإكرام والاصطفاء لمريم عليها السلام، حيث أنه ﴿كَلَّمَآ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ ، تتغذى به، قيل: كان يجد عندها فاكهة

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، في تفسير هذه الآية، برقم (٤٥٤٨)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب: فضائل عيسى عليه السلام، برقم (٢٣٦٦).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤٦/٢).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤٦/٢-٤٧). والقول الثاني بعيد جداً، لأنه من غير المعروف أنه كان لمريم عليها السلام أخت، ليتزوجها زكريا عليه السلام. بالإضافة إلى أنه لو كان لها أخت فستكون أصغر منها، لأنها أول مولودة لأمها التي كانت عاقراً حسب الظاهر. وبالتالي لا يمكن أن تكون زوجة لزكريا عليه السلام الذي استبطأ الولد وقد بلغ من الكبر عتياً.

وأما ما جاء في الحديث الشريف فيمكن حمله على زوج الخالة أيضاً حيث (الخالة بمنزلة الأم)، وينظر: تفسير ابن كثير (٤٧/٢)، والله أعلم.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب: المعراج، برقم (٣٨٨٧).

الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء^(١)، وهذا من الكرامات التي يكرم بها الله تعالى من شاء من عباده^(٢).

عندما يرى زكريا عليه السلام هذا الأمر يسأل مريم عليها السلام عنه ﴿يَعْرِمُ أَيُّ لَدِّ هَذَا﴾، فتجيبه قائلة: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، الرزاق الكريم، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، والجملة الأخيرة تحتل أن تكون من كلام مريم عليها السلام، كما تحتل أن تكون كلاماً مستأنفاً تأكيداً للحقيقة التي سبقت في السورة ﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٧) [آل عمران: ٢٧].

لما شاهد زكريا عليه السلام هذا الرزق معاناة رجا الولد من الله تعالى، وكانت الأسباب المعتادة من البشر غير متوفرة له ولزوجه؛ إذ كان شيخاً كبيراً وهن عظمه وشاب رأسه، وامرأته عاقراً، لكن رؤية رزق الله تعالى أطمعه في مناجاته طالباً الذرية الطيبة، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

استجاب الله تعالى لدعاء عبده زكريا عليه السلام، ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى﴾ ناقلة البشارة من الله تعالى له بولد من صلبه اسمه يحيى.

ثم ذكرت في البشارة ما يكون عليه يحيى عليه السلام من صفات وخصائص، وهي: أنه يكون ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ والمقصود عيسى عليه السلام^(٣)، كما قال تعالى:

(١) ينظر في ذلك: تفسير الطبري (٦/٣٥٣-٣٥٦)، وتفسير ابن أبي حاتم (٣٤٤٥).

(٢) تقديم شبه الجملة ﴿عَلَيْهَا ذُرِّيَّتًا﴾ في الآية لأن الكلام في الآية والآيات التي سبقتها عن مريم عليها السلام وليس عن زكريا عليه السلام ولا المحراب لذا قدم ﴿عَلَيْهَا﴾ لأن الكلام كله عن مريم عليها السلام، يقول سيويه في التقديم والتأخير: يقدمون الذي هو أهم لهم، وهم أعنى به. تراجع محاضرة: أسرار البيان في التعبير القرآني، ألقاها الدكتور فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢م.

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٦/٣٧١-٣٧٣).

﴿يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وأطلق عليه ذلك لأن الله تعالى خلقه بكلمة ﴿كُن﴾، كما قال تعالى عن خلق عيسى عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

وأنه يكون {سيداً}، أي: سيداً في الخلق والدين والعلم والفقه، وعدم تمكن الغضب منه^(١).

وأنه يكون {حضوراً}، أي: لا يأتي النساء، ولا يولد له^(٢). ومدح يحیی عليه السلام بأنه حضور ليس مجرد أنه لا يأتي النساء^(٣)، إذ هو ليس مقصوداً لذاته؛ بل معناه أنه معصوم عن الفواحش والمعاصي.

وأنه يكون ﴿نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، أي: أن الله سيصطفيه ليكون نبياً من أنبيائه الصالحين. والبخارة نبوة يحیی عليه السلام زيادة على مجرد البشارة الأولى بحصول الولد.

ولما سمع زكريا عليه السلام بهذه البشارة، تعجب من كيفية حصول ذلك، لا من مجرد حصوله؛ أي تعجب هل سيكون بالطريقة المعتادة وهو شيخ طاعن في السن وامرأته عاقر، أم سيكون بمعجزة لا تعرف أسبابها كما في الرزق الذي يأتي لمريم عليها السلام. فأجابته الملائكة بالقول: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

فرح زكريا عليه السلام بهذه البشارة، وطلب علامة ليعرف بها حصول الحمل والولد، فكانت الآية عدم استطاعته النطق بدون مرض ولا علة، كما قال تعالى: ﴿ءَايَاتِكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ تِلْكَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠]، وواضح أن هذه الآية هي آية خاصة له لا يتحقق

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦/٣٧٤-٣٧٦).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٦/٣٧٦-٣٨٠)، وابن أبي حاتم في عدة آثار (٣٤٦٤-٣٤٦٨).

(٣) يرى بعض العلماء أنه يفهم من دعاء زكريا عليه السلام بقوله ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أن يحیی عليه السلام ربما يكون تزوج ووجد له نسل وذرية وعقب. ينظر: تفسير ابن كثير (٢/٥٢).

منها إلا هو.

ثم أمره الله تعالى بكثرة الذكر والتسبيح آناء الليل وأطراف النهار ﴿وَأذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ ، وهو ما قام به زكريا عليه السلام خير قيام، بل زاد على ذلك أن أمر قومه بفعل ما أمر هو به ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

وهنا تتوقف السورة عن ذكر المزيد من قصة يحيى عليه السلام، وتنتقل إلى ما هو أهم في هذا السياق، وهو متابعة قصة مريم عليها السلام، لتكون مدخلا إلى قصة ولدها عيسى عليه السلام، وهي أساس في الحوار مع النصارى.

وتتابع الآيات من مخاطبة الملائكة لمريم عليها السلام، وبيان اصطفاء الله تعالى لها وتفضيلها على نساء العالمين، فتقول لها الملائكة ﴿يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ لكثرة عبادتك وزهدك وشرفك، ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من الأكدار والوسواس ﴿وَأَصْطَفَاكِ﴾ مرة أخرى لجلالتك وفضلك ﴿عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾^(١). وقد قال ﷺ: (خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة)^(٢). ثم أمرتها الملائكة بكثرة العبادة والخشوع والخضوع والسجود والركوع لله تعالى؛ ﴿يَمْرَيْمُ اقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَزْكِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾^(٣)، وهو ما قامت به مريم عليها السلام التي أنبتها الله نباتاً حسناً. وهذا الخطاب من الملائكة تمهيد ضروري لما سيكون بعد ذلك من بشارة بعيسى عليه السلام، وهو أمر مهول جداً على المرأة الحرة الشريفة، فكيف

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/٥٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: تفسير قوله تعالى ﴿وَلَوْ قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ يَمْرَيْمُ﴾، برقم (٣٤٣٢)، وفي كتاب المناقب، باب: تزويج النبي ﷺ خديجة، برقم (٣٨١٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، برقم (٢٤٣٠).

(٣) وفي الآية تدرج من الكثرة إلى القلة، فبدأ بالقنوت وهو عموم العبادة ثم السجود وهو أخص وأقل ثم الركوع وهو أقل وأخص. تراجع: محاضرة: أسرار البيان في التعبير القرآني، ألقاها الدكتور فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢م..

بامرأة هي من أكمل النساء كمريم عليها السلام.

ثم وصلت الآيات إلى نتيجة حتمية بأن ﴿ ذَلِكَ ﴾ المذكور من الأخبار هو ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ الماضي، ﴿ تُوجِبُ إِلَيْكَ ﴾ ؛ أوحاه الله تعالى إلى نبيه ﷺ، وهو من دلائل نبوته ﷺ، ومن دلائل إعجاز القرآن الكريم^(١)؛ لأن النبي ﷺ ما كان هناك، ولا عاش هذه الحوادث، ولا سمعها من أحد، ولا عرفها أحد من قومه، ولذا قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ ﴾ وهم يستهمون ويقترعون ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ ويتولى تربيتها والعناية بها، ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ في ذلك.

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع:

- مرتبة النبوة والرسالة اصطفاء محض من الله تعالى لمن يشاء من عباده.
- اصطفاء الأنبياء إنما هو اصطفاء لدينهم، وهو دين الإسلام، اصطفاه الله على سائر الأديان^(٢)، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ ﴾.
- الأنبياء بعضهم من بعض، جاءوا بتوحيد الله تعالى وإخلاص العبادة له.
- لا خلاف في وجود فارق خلقي بين الرجل والمرأة، وأنها لا يستويان في ذلك، ولكن هذا لا يعني إطلاق تفضيل جنس الرجل على جنس المرأة، فمريم عليها السلام كانت خيراً لأمتها من الذكر الذي أرادته.
- استحباب تعويد الأولاد والذرية، والدعاء لهم بالحفظ والرعاية والخير والبركة، لما له من أثر عظيم في مستقبلهم.
- أهمية الصحبة الصالحة في تربية الناشئة، لتربيتهم على الخير والعلم والدين، وليقتبسوا من علمهم وصلاتهم.

(١) ينظر: الباب الثالث من كتاب إعجاز القرآن الكريم لغير العرب، د. محمد عيادة الكبيسي.

(٢) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري (٦/٣٢٦).

- مشروعية القرعة لحلّ بعض الاختلافات.
- مشروعية الدعاء حتى في الأمور التي يستبعد وقوعها في الطبيعة.
- إخبار النبي ﷺ بالأمور الغيبية الماضية هي وحي أوحاه الله تعالى إليه، وهو من دلائل نبوته ﷺ، ومن دلائل إعجاز القرآن الكريم.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

هذا المقطع يتناسب مع محور السورة الذي هو توحيد الله تعالى، حيث تناول هذا المقطع اصطفاء الله تعالى لأنبيائه، ووحدة دينهم ودعوتهم، وفيه بيان أن قدسية هؤلاء وتكريمهم إنما هو باصطفاء الله واختياره لهم، وما يجري لهم من كرامات ومعجزات إنما هو من عند الله تعالى، ولا دخل لأشخاصهم فيه.

المقطع الثالث: بيان حقيقة عيسى عليه السلام

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمَرِيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدَىٰ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴿ فَمَا أَحْسَنَ عِيسَىٰ مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَأَمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرُوهًا اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمُنْكَرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَّبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَأَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَبَنَاتَكُمْ وَرِسَاءَنَا وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَهُكَ اللَّهُ لَهُ الْعَرْشُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴿ [الآيات: ٤٥-٦٣].

مناسبة المقطع لسابقه :

يتواصل الحديث من المقطع السابق، فبعد أن بين الله تعالى اصطفاء من شاء من عباده وأهم وذريتهم على العالمين، وذكر أنّ منهم آل عمران، وذكر اصطفاء وإكرام مريم عليها السلام، شرع في ذكر حقيقة عيسى ابن مريم عليه السلام، وما ظهر على يديه من معجزات خارقة، ثم وفاته من هذه الدنيا.

التفسير الإجمالي :

تنتقل القصة إلى حادثة البشارة بعيسى عليه السلام. وفيها إخبار من الملائكة لمريم عليها السلام بالبشارة العظيمة من الله تعالى أنه سيكون منها ولد له شأن عظيم في الدنيا والآخرة، ومكانة عند الله تعالى.

والمراد بالملائكة هنا جبريل عليه السلام جاءها على هيئة البشر، كما قال تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم: ١٧]. وقوله تعالى ﴿ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ﴾ أي: بكلمة من الله تعالى، كما مرّ في الآيات، وأطلق هذا الوصف على عيسى عليه السلام لأن الله تعالى خلقه بكلمة ﴿ كُنْ ﴾ ، وأما اسمه فهو المسيح عيسى ابن مريم عليها السلام، وتسميته بالمسيح: قيل لكثرة سياحته، وقيل: لأنه كان مسيح القدمين: أي لا أخصّس لها. وقيل: لأنه كان إذا مسح أحدًا من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى^(١). وهذه التسمية جمعت بين الاصطفاء وبيان الطبيعة البشرية، فهو المسيح، وهو ابن مريم عليها السلام. وبالإضافة إلى ذلك فإنه ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ ﴾ أي: وهو صغير رضيع، كما قال ﷺ: (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى...)^(٢). ويكلّمهم ﴿ وَكَهَلًا ﴾ ، أي: يدعو إلى عبادة الله تعالى والعمل الصالح صغيراً

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/٥٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب: قول الله تعالى ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ ، برقم (٣٤٣٦)، ومسلم في كتاب البر والصلوة والآداب، باب: تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة، برقم (٢٥٥٠).

في مهده، وكبيراً بعد بعثته. والكهل: منتهى الحلم^(١). وهو ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ في قوله وعلمه وعمله، كما قال تعالى على لسانه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ﴾ [مريم: ٣٠-٣١].

ولما سمعت مريم عليها السلام بهذه البشارة العجيبة، قالت تناجي ربها عز وجل وهي متعجبة: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾، أي: كيف يكون لي ولد ولم أتزوج أحداً، فأجابها جبريل عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وقد خلق آدم عليه السلام من تراب من غير أب ولا أم، كما سيأتي: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُم مِّن تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وعبر هنا (بالخلق) ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، بدلاً من التعبير (بالفعل) الذي مرّ في قصة زكريا عليه السلام ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾، لأن ولادة العذراء من غير أن يمسهما بشر أبداع وأغرب في الخلق من ولادة عجوز عاقر من شيخ طاعن بالطريقة المعتادة وإن كان ذلك نادراً، فكان لفظ (الخلق) الدالّ على الاختراع أنسب بهذا المقام من لفظ (الفعل)^(٢).

ثم تواصل الآيات البشارة بذكر المزيد عن عيسى عليه السلام، وذلك أن الله سيعلمه ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ أي: الكتابة والخط، ﴿الْحِكْمَةَ﴾ وهي: السنة التي يوحىها إليه في غير كتاب، ﴿وَالتَّوْرَةَ﴾، وهي: التي أنزلت على موسى عليه السلام، ﴿الْإِنْجِيلَ﴾، وهو إنجيل عيسى عليه السلام الذي سيوحى إليه^(٣). ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: سيبعث رسولاً إلى بني إسرائيل، قائلاً لهم: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: معجزات دالة على صدقي في رسالتي، وهي: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ﴾، فقد كان

(١) كتاب تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، (١/١١٠).

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود (٢/٣٧)، وتفسير ابن عطية (١/٤٣٧)، والبحر المحيط لأبي حيان (٢/٤٨٤)، وقطف الأزهار للسيوطي (١/٥٩٣)، والتفسير المنير لوهبة الزحيلي (٣/٢٣١).

(٣) تفسير الطبري، (٦/٤٢٢).

عليه السلام بصور تماثلاً من الطين على شكل طير، ثم ينفخ في هذا التمثال فيصير طيراً حياً بإذن الله تعالى، الذي جعلها معجزة لعيسى عليه السلام. ﴿وَأُتِيَ الْأَكْمَةَ﴾ وهو: الذي يولد أعمى^(١)، وأبري ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ المصاب بالمرض الجلدي المعروف، ﴿وَأُخِي الْمَوْتَى﴾ وهي أشهر معجزات عيسى عليه السلام الذي بعث في قوم اشتهروا بالطب فكانت المعجزات من جنس ما اشتهروا به، لتكون أبلغ في الدلالة وأقوى في التحدي. وكل هذه المعجزات هي ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الخالق الواحد سبحانه وتعالى، ﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ من طعام. وفي هذه المعجزات ما هو كفاية لمن آمن ولمن أراد الإيمان.

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾، فإن عيسى عليه السلام لم يأت بدين جديد بالكلية، كما أنه لم يبلغ التوراة، بل كان مصدقاً لما جاء فيها، ناسخاً لبعض ما فيها^(٢)، مخففاً لبعض ما فيها من أحكام، كما قال: ﴿وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ مما حرم على بني إسرائيل بظلمهم، كما قال تعالى: ﴿فَيُظَاهِرُ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبَعَتْ أُجُلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٦٠]. وقوله: ﴿جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ تأكيد لقوله السابق، وتأكيد على مصدر هذه المعجزات أنها من عند الله تعالى، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَوْيَاكُمْ﴾ فيما أرسلت به، وهو: توحيد الله تعالى وعبادته، ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ فكلنا في العبودية له سواء، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، وطريق قويم، اتفق عليه المرسلون عليهم السلام.

(١) وقيل: هو الذي يبصر نهاراً ولا يبصر ليلاً، وقيل بالعكس، وقيل هو الأعشى، وقيل هو الأعمش. والقول المختار أعلاه أشبه بالصواب، لأنه أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي. ينظر: تفسير ابن كثير (٥٩/٢). وهذا القول يناسب ما أوتي من معجزات فيها خوارق طيبة من النفخ في صور الطين، وإحياء الموتى، والله أعلم.

(٢) هذا أصح القولين في المسألة، ومن العلماء من قال: لم ينسخ من التوراة شيئاً، بل أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه فأخطئوا فكشف لهم عن المغطى في ذلك، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَأُيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف: ٦٣]. ينظر: تفسير ابن كثير (٦٠/٢).

لم تكن استجابة بني إسرائيل لعيسى عليه السلام جيدة، بل لقد ﴿ أَحَسَّ عَيْسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ ﴾ ، وهنا قال لهم حاسماً لتلاعاتهم: ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ، فأجاب ﴿ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ الصادقون الذين آمنوا به قائلين: ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ . والحواريون جمع حواري، وهو الناصر^(١) . وناجى الحواريون ربهم صادقين: ﴿ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ من أولي العلم الذين شهدوا بوحدانيتك.

ثم تنتقل الآيات إلى الحديث عن بقية بني إسرائيل الذين تأمروا على عيسى عليه السلام ﴿ وَمَكُرُوا ﴾ ووشوا به إلى ملكهم الكافر ليقته، ﴿ وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ بهم ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ وذلك كما قال تعالى ﴿ وَمَا قُلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ حيث ألقى الله تعالى شبه عيسى عليه السلام على أحد المتأمرين، أو شبه لهم أنهم قتلوه أو صلبوه، ودفع الله كيدهم عن نبيه عيسى عليه السلام، وخلصه منهم^(٢) .

ذهب جمهور أهل السنة والجماعة إلى أن الله رفع المسيح عليه السلام إلى السماء بجسده وروحه، سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن رجلين تنازعا في أمر نبي الله عيسى عليه السلام فقال أحدهما: إن عيسى ابن مريم توفاه الله ثم رفعه إليه، وقال الآخر: بل رفعه الله إليه حياً فما الصواب في ذلك؟ وهل رفعه بجسده أو روحه أم لا؟ وما الدليل على هذا وهذا؟ وما تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ .

(١) كما قال النبي ﷺ: (إن لكل نبي حوارياً وإن حوارياً الزبير)، أخرجه البخاري (٤١١٣)، ومسلم (٢٤١٥). وقيل سمي الحواريون: لبياض ثيابهم، ويطلق الحواري على: الخالص والخليل والمخلص والناصح والخصيص والمجاهد والفضل ومن يصحب الكبير ومن يصلح لخلافة كبيرة. ينظر: هدي الساري مقدمة فتح الباري، لابن حجر (ص ١٠٩).

(٢) العجب أن النصارى يسمون عيسى عليه السلام (المخلص) بالكسر. وجدير أن يسمى عيسى عليه السلام (المخلص) بالفتح، إذ أنه ما خلص أحداً، ولكن الله خلصه، والله أعلم.

فأجاب: الحمد لله، عيسى عليه السلام حي، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً وإماماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية)، وثبت في الصحيح عنه أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق، وأنه يقتل الدجال، ومن فارقت روحه جسده ولم ينزل جسده من السماء، وإذا أحبي فإنه يقوم من قبره، وأما قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فهذا دليل على أنه لم يعنِ بذلك الموت، إذ لو أراد بذلك الموت لكان عيسى في ذلك كسائر المؤمنين، فإن الله يقبض أرواحهم ويعرج بها إلى السماء فعلم أن ليس في ذلك خاصية، وكذلك قوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ولو كانت قد فارقت روحه جسده لكان بدنه في الأرض كبदन سائر الأنبياء أو غيره من الأنبياء، وقد قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ بل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴿فَقَوْلُهُ هُنَا: ﴿بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ يبين أنه رفع بدنه وروحه كما ثبت في الصحيح أنه ينزل بدنه وروحه، إذ لو أريد موته لقال: وما قتلوه وما صلبوه بل مات. ا.هـ كلام ابن تيمية رحمه الله^(١).

وقوله تعالى ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بأن أقتلتك منهم ومن كيدهم ومكرهم، وخلصتك من القتل والصلب، ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ آلِ قِيَامَةٍ﴾ أي: اتباعك الصادقون، وذلك أن بني إسرائيل اختلفوا في عيسى عليه السلام كما سيأتي، وهذا التفضيل خاص بهم في وقتهم، وبمن اتبع النبي محمداً ﷺ بعد بعثته، إذ أن صدق اتباع عيسى عليه السلام يقتضي اتباع النبي محمد ﷺ الذي بشر به عيسى عليه السلام، ولأن من آمن بمحمد ﷺ فقد آمن بجميع الأنبياء ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من صدق

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، المجلد الرابع ص ٣٢٢، ٣٢٣. ط وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية.

عيسى عليه السلام خلافاً لمن كفر به، وخلافاً لمن ادعوا ألوهيته وغير ذلك، ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (٥٦) وهذا وعيد بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة لمن كفر به واتهمه من اليهود، وللذين غلوا فيه وادعوا ألوهيته من النصارى. ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ ﴾ الله تعالى ﴿ أَجْرَهُمْ ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ ، وإيراد الظلم للإشعار بأنهم بكفرهم متعدون متجاوزون على الحدود واضعون للكفر مكان الشكر والإيمان، والجملته تذييل وتقرير وتفسير للحكم المذكور^(١).

وفي الآية التفات، حيث جاء التعبير بضمير الغائب ﴿ فَيُوَفِّيهِمْ ﴾ وكان الظاهر أن يقول (فأوفيهم) كما قال قبلها ﴿ فَأَعَذِبْنَاهُمْ ﴾ ، ولعل المراد من هذا التعبير التخفيف من وقع التهديد السابق بالعذاب، فجاء بصيغة مغايرة تطميناً وتسكيناً لقلوب السامعين، والله أعلم.

وأما على القراءة بنون العظمة {فنوفيهم} فإن الغاية من الالتفات فيها هو إظهار عظمة الله تعالى وبالتالي تعظيم أوليائه، وبيان تمام الاعتناء بهم^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ نَتَلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾ (٥٨) أي: هذا الذي مرّ من أمر عيسى عليه السلام وأمر ولادته ومعجزاته هو من قول الله تعالى الذي أوحاه وأنزله عليك يا نبي الله عليك الصلاة والسلام، وهو الحق لا مرية فيه، كما قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ (٢٤) [مريم: ٣٤].

ثم تعود الآيات للمناقشة بشأن خلق عيسى عليه السلام المعجز، ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي: في قدرة الله تعالى حيث خلقه من غير أب، ﴿ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ إذ خلقه الله تعالى من غير أب ولا أم، بل ﴿ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ والذي خلق آدم قادر على

(١) تفسير أبو السعود (٢/ ٤٥)، وينظر: تفسير النسفي (١/ ١٥٧)، وفتح القدير للشوكاني (١/ ٣٤٥).

(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٤٢٢-٤٢٣).

خلق عيسى عليه السلام بطريق الأولى والأحرى، وإن جاز ادعاء النبوة في عيسى عليه السلام فجواز ذلك في آدم عليه السلام بطريق الأولى^(١)، وهذا هو القول ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ في أمر عيسى عليه السلام ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، وفي الآية والسياق تعريض بالنصارى الشاكين في أمر وحقيقة عيسى عليه السلام، ولا يزالون مختلفين إلى زماننا هذا.

بعد هذا البيان والتوضيح تأتي آية المباهلة الشهيرة، حيث أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يباهل من جادل وحاج في أمر عيسى عليه السلام بعد ما تبين الحق، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ من الطرفين، فأيهما استحق هذا الوصف استحق اللعنة من الله تعالى. وقصة المباهلة ووفد نجران مبثوثة في كتب السيرة والتاريخ^(٢)، وعندما جاء العاقب والسيد صاحبنا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناهما قال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لئن كان نبيا فلاعنا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا^(٣). وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (لو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا)^(٤).

ثم كانت خاتمة الآيات والمقطع بقوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي قصصناه عليك وبيناه لك من أمر عيسى السلام ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾، وعيسى عليه السلام عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وهو ليس بإله، ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾، وحده لا شريك له، ﴿وَإِلَى اللَّهِ لَهْوُ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وقد اقتضت حكمته خلق عيسى عليه السلام من غير أب، ليكون

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/٦٥-٦٦).

(٢) ينظر: سيرة ابن هشام (٣/١٢٥-١٢٦)، وتاريخ المدينة لابن شبة (٢/٥٨٥)، والبداية والنهاية لابن كثير (٢/٦٩)، و (٥/٥٢-٥٥)، ودلائل النبوة للبيهقي (٥/٣٨٢-٣٩٢)، وتاريخ الإسلام للذهبي (٢/٦٩٨-٦٩٥)، وغيرها.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب: قصة أهل نجران (٤٣٨٠).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده برقم (٢٢٢٦).

آية للناس وليظهر الله تعالى قدرته لخلقته كما قال ﴿وَلَنَجْعَلَنَّهَا آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]؛ فخلق آدم عليه السلام من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر، وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى^(١). ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن هذا الحق بعد أن عرفوه فأولئك هم المفسدون، والله ﴿عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ وسيجازيهم على أفعالهم وأقوالهم.

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع:

- مكانة عيسى عليه السلام في الدنيا والآخرة تستدعي بشارة أمه بمولده.
- قدرة الله تعالى على خلق ما شاء كيفما شاء، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، سبحانه وتعالى.
- المعجزات والخوارق التي تظهر على أيدي الأنبياء، والكرامات التي تظهر على أيدي بعض الأولياء إنما هي بأمر الله وإذنه، وفعله وقدرته، يظهرها لحكم عظيمة.
- لم يأت عيسى عليه السلام بدين جديد، كما أنه لم يبلغ التوراة، بل كان مصدقاً لما جاء فيها، ناسخاً ومخففاً لبعض ما فيها من أحكام.
- لم يستجب بنو إسرائيل لعيسى عليه السلام، بل كانوا يتلاعبون ويرأون، حتى ﴿أَحْسَ عَيْسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾.
- دعوى صلب عيسى عليه السلام قد تكون أكبر خدعة وكذبة في تاريخ البشرية، فقد خلص الله تعالى نبيه عيسى عليه السلام من مكر بني إسرائيل، فلم يتمكنوا من قتله أو صلبه.
- عجز عيسى عليه السلام عن الدفاع نفسه أو الهروب ممن أرادوا قتله أو صلبه دليل على بشريته.

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٦٦/٢).

- إن ادعاء البنوة أو الألوهية في عيسى عليه السلام بسبب خلقه المخالف للعادة غير مُسَلَّم، لأن خلق عيسى ليس بأغرب من خلق آدم عليهما السلام.
- ما مرّ من بيان للأصل البشري لعيسى عليه السلام وأمه، وأنها ممن اصطفى الله تعالى، وأن عيسى عبد الله ورسوله، كل ذلك يكفي لتفنيد شبه النصارى فيما ادّعوه. وهنا تنتهي الحاجة معهم، ومن لم يستجب منهم بعد ذلك فلا طريق أمامه سوى المبالغة لمن يرى استمرارها.
- مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:**

هذا المقطع مناسب لمحور السورة، ففيه بيان حقيقة عيسى عليه السلام والأصل البشري له، وبيان أن خلقه غير المعتاد ليس دليلاً على أنه إله أو ابن إله، فخلق آدم عليه السلام أغرب وأعجب.

المقطع الرابع: حقيقة تاريخية هي أن الإسلام هو الدين الحق وهو دين جميع الأنبياء، وهم أولاد علات

مناسبة المقطع لسابقه :

بعد أن ذكر الله تعالى اصطفاء من شاء من عباده، وذكر أنهم ذرية بعضها من بعض، شرع هنا في بيان وحدة الدين الذي جاءوا به وهو الإسلام، وأنه دين جميع الأنبياء، وتأكيد إسلام إبراهيم عليه السلام، والصلة الوثيقة بينه وبين أمة الإسلام، وبين دينه ودين الإسلام.

وبعد بيان حقائق تاريخية حول إبراهيم عليه السلام، وتكذيب أهل الكتاب في دعواهم الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام وملته الحنيفية، تنتقل الآيات إلى الحديث عن أهل الكتاب مبينة حقائق عنهم تتعلق بضلالهم وإضلالهم ومحاولاتهم ردّ أتباع إبراهيم الخليل عليه السلام - وهم المسلمون - عن دينهم عبر وسائل مختلفة ملتوية، حسداً من عند أنفسهم لأن الله اختص هذه الأمة بالرسالة الخاتمة. فتحدث الآيات عن مكائدهم، وتزويرهم للحقائق وتزويرهم لكلام الله وعهده، وقولهم على مريم وعيسى عليهما السلام الكذب. ثم أكدت الآيات وحدة الرسالات، والدين الحق، الذي هو الإسلام، وتأكيد صلة المسلمين بإبراهيم عليه السلام، وافتراء أهل الكتاب في دعواهم أنه منهم، وتذكر دليلاً مشاهداً ماثلاً للعيان على صدق المسلمين وكذب أهل الكتاب المدّعين، وهو البيت الحرام بمكة المكرمة.

وهذا المقطع هو ختام القسم الأول من السورة الكريمة، وهو القسم الذي يتناول نقاش أهل الكتاب ومحاجتهم.

ينقسم هذا المقطع إلى ثلاثة مواضع:

يمتد هذا المقطع عبر الآيات (٦٤-٩٩) من السورة، وقد رأيت تقسيمه إلى أربع مواضع

كما يأتي:

الموضوع الأول: إبراهيم عليه السلام كان حنيفاً مسلماً:

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَآأَنْتُمْ هَتُّؤَلَاءِ حَبَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مَسْلَمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٤-٦٨].

التفسير الإجمالي:

توجه الآيات بالخطاب إلى أهل الكتاب ودعوتهم إلى الإتفاق على الحق والعدل؛ ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ وهي دعوة إلى الحق والعدل الذي يعرفونه في كتبهم، والذي جاء به أنبياءهم، وهو توحيد الله تعالى، وعدم الإشراف به، وعدم تأليه البشر أو صرف أنواع العبادة لهم، وعدم ادعاء الولد لله تعالى، كما فعلت اليهود والنصارى، ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَرِيزُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠]، ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ عن هذه الدعوة الصادقة المنصفة ﴿ فَقُولُوا ﴾ أيها المسلمون لهم: ﴿ اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾، الله تعالى وحده، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تُجْدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَجِدْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقد استخدم النبي ﷺ هذه الآية في رسالته لهرقل عظيم الروم؛ فكان في كتابه ﷺ: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن

عليك إثم الأريسين، و ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَقُودَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٦٤) ^(١).

ثم تواصل الآيات دعوة أهل الكتاب، وهذه المرة على سبيل الإنكار، حيث تنكر عليهم محاجتهم في إبراهيم عليه السلام؛ وقولهم هو يهودي أو نصراني، رغم بعد المدة بينهم وبينه، ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ إِلَّا نَجِيلًا إِلَّا مَنْ بَعْدَهُ﴾ بزمن طويل لا يعمل قدره إلا الله، ولهذا ختم الآية بقوله ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. وهذه الآية مناسبة للسياق ولما سبق؛ فإن السياق في مخاطبة أهل الكتاب، وهذا جزء منها، وقد سبق الحديث عن خطأ اليهود الفطيع وخطأ النصراني الشنيع في عيسى عليه السلام، وهم قريبو العهد به، فناسب أن يعقب بالتنبيه على خطأهم في إبراهيم عليه السلام مع تباعد الأزمان والدهور، من باب الأولى والأخرى.

﴿هَتَانِمْ هُنُورًا حَجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ في صفة محمد ﷺ، حيث تجدونه مكتوباً في كتبكم، ﴿فَلَمْ تُحَاجِرُونِ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ مما ليس في كتبكم من أمر إبراهيم عليه السلام،

(١) أخرجه البخاري في كتاب ويا ببدء الوحي، برقم (٧).

وقد أورد ابن كثير في تفسيره (٧٤/٢) إشكالات؛ وذلك أن محمد بن إسحاق وغيره ذكروا أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران، وقال الزهري: هم أول من بدّل الجزية. ولا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح، والنبى ﷺ كتب هذه الآية قبل الفتح، فكيف يكون ذلك؟ وحاول أن يجمع بين القولين من وجوه: أحدها: احتمال نزول الآية مرتين، مرة قبل الحديبية، ومرة بعد الفتح. والثاني: يحتمل أن صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران إلى عند هذه الآية، وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك، ويكون قول ابن إسحاق: «إلى بضع وثمانين آية» ليس بمحفوظ، لدلالة حديث أبي سفيان. والثالث: يحتمل أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية، وأن الذي بذلوه مُصالحة عن المباهلة لا على وجه الجزية، ووافق نزول آية الجزية بعد ذلك. والرابع: يحتمل أن رسول الله ﷺ لما أمر بكتب هذه الآية في كتابه إلى هرقل لم تكن أنزلت بعد، ثم نزل القرآن موافقة له.

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ أن إبراهيم كان على دين الإسلام ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(١).

وفي الآية إنكار عليهم في محاجتهم في أمر لا علم لهم به.

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(١٧)،
كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا
وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾^(١٨) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(١٩) وَوَصَّى
بِهَآ إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنَى إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾^(٢٠)
[البقرة: ١٣٠-١٣٢].

﴿ إِنَّكَ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٢١)،
وسايتي في السورة لاحقاً إشارة إلى ذلك في قوله تعالى ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ
مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾^(٢٢) فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ
الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَنِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٢٣) [آل عمران: ٩٦-٩٧]،
والرسول محمد ﷺ دعا إلى ملة إبراهيم عليه السلام ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(٢٤) [الأنعام: ١٦١]، ودعا إلى الصلاة
إلى الكعبة التي بناها في أول بيت وضع للناس، وعند مقام إبراهيم عليه السلام، والحج إلى
المناطق نفسها، والمسلمون مدعون إلى اتباع ملة إبراهيم عليه السلام الذي استخدم تسمية
المسلمين ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ
أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [الحج: ٧٨]. إذن فمن أولى الناس بإبراهيم
عليه السلام؟.

(١) بحر العلوم، المسمى: تفسير السمرقندي، (١/٢٧٦)، وقطف الأزهار، للسيوطي (١/٦٠٢).

الموضوع الثاني: مخاطبة فرق أهل الكتاب وبيان حقائقهم:

﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٤﴾
يَتَأَهَّلِ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٦٥﴾ يَتَأَهَّلِ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ
بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفِّرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَا تَتُومِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ
الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٨﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٦٩﴾ وَمِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِعِطَافِ بُرُودِهِ لِيَكُونَ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دَمَّتْ عَلَيْهِ
فَإِيمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى
مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَأَتَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا
أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُونَ لَأَسْنَتِهِمْ بِالْكِتَابِ لِيُحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ
وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا
عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ بِيَمَانِكُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾
وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَوْلِيَاءَ أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الآيات:

[٦٩-٨٠].

التفسير الإجمالي:

قبل أن نشعر في التفسير الإجمالي لهذه الآيات نشير إلى عظمة القرآن الكريم في إنصافه
لأعدائه وذكر الحقيقة دون مبالغة أو إجحاف، حتى في معرض الرد عليهم وتكذيبهم، فنرى
القرآن الكريم يقول في هذا الجزء من المقطع: ﴿ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾، وليس (ودد
أهل الكتاب)، ونراه يقول: ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾، ويقول: ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾،

ويقول: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا ﴾ ، وسيأتي في الآيات الأخرى مثل ذلك. ف سبحانه الله الحكيم العدل.

يخبر الله تعالى أن طائفة من أهل الكتاب تتمنى أن تصد المسلمين عن دينهم، وتضلهم عن الحق الذي أنزل إليهم، ويخبر القرآن الكريم أنهم في الحقيقة إنما يضلون أنفسهم، لأنهم اقرءوا ذنباً بالإعراض عما أنزل إليهم وسيتحملون وزر من يضل متأثراً بشبهاتهم، ولذا قال تعالى: ﴿ وَمَا يُضِلُّوْا إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ ﴾ (٦٤) ، فهم ﴿ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُوْنَ ﴾ ، رغم أنهم من أهل الكتاب، فكان الأجدر بهم أن يكونوا داعين إلى الحق دالين عليهم، ولهذا خاطبهم بعدها بقوله: ﴿ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ ﴾ الذي أنزل عليكم من الله هدايتكم ﴿ لِمَ تَكْفُرُوْنَ بِآيٰتِ اَللّٰهِ وَاَنْتُمْ تَشْهَدُوْنَ ﴾ أنها آيات منزلة من عند الله تعالى، وبشهادة التوراة والإنجيل وأنتم تزعمون أنكم تؤمنون بها، كما قال تعالى: ﴿ اَلَّذِيْنَ ءَاتَيْنٰهُمْ الْكِتٰبَ يَعْرِفُوْنَهٗ كَمَا يَعْرِفُوْنَ اَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُوْنَ اَلْحَقَّ وَهُمْ يٰٓمَلْمُوْنَ ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وبعد أن ذكر هذا الكفر، ذكر نوعاً آخر من الكفر والمكر، وهو خلط الحق بالباطل، ﴿ يٰٓأَهْلَ الْكِتٰبِ لِمَ تَلْبِسُوْنَ اَلْحَقَّ بِالْبٰطِلِ ﴾ ، وذلك أنهم كانوا يظهرون بألستهم التصديق بالنبي محمد ﷺ وما جاء به من عند الله، وهو غير الذي في قلوبهم من اليهودية والنصرانية^(١)، ويا أهل الكتاب لم ﴿ وَتَكْتُمُوْنَ اَلْحَقَّ وَاَنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ ﴾ ، حيث كنتموا ما في كتبهم من نعت رسول الله محمد ﷺ ومبعثه ونبوته^(٢).

ثم فصل خلطهم الحق بالباطل ومكرهم بالمؤمنين، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَتْ طٰٓئِفَةٌ مِّنْ اَهْلِ الْكِتٰبِ ءَامِنُوْا بِالَّذِيْٓ اُنزِلَ عَلٰى الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَجِهَ النَّهَارِ ﴾ أي: أظهروا تصديقكم للنبي محمد ﷺ وما جاء به من ربه، هذا في بداية النهار، ثم ﴿ وَاكْفُرُوْا ءَاخِرَهٗ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُوْنَ ﴾ عن الحق

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦/٥٠٣-٥٠٤).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٦/٥٠٥).

ويرتدون عن دين الإسلام، فتصديقهم إنما هو نفاق ومكر وخداع، وإلا فإنهم كانوا يتواصون فيما بينهم قائلين: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، وما أنتم عليه من يهودية أو نصرانية. وهنا يقطع حديثهم أمر الله تعالى لرسوله ﷺ أن يجيبهم، ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَى اللَّهُ فِئْتَانًا مِنْ نَحْنِهِمْ فَمَا يَسْبِغْ لَهُمْ دِينًا فَمَا يَتَّبِعُونَ إِلَّا مَا آوَيْنَاهُمْ بِهِ فَلْيَضْحَكُوا وَلَا بُكَوْا﴾، وقد هدى الله المسلمين إلى الحق المبين والصرط المستقيم. ثم يتابع نقل حديثهم لبعضهم أن ما يفعلونه هو خشية ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ قالوا ذلك حسداً منهم أن تكون النبوة في غيرهم، وحذر بعضهم بعضاً من أن يركنوا إلى المسلمين أو أن يظهرها لهم أسرارهم فيتعلموها منهم فيحاجوهم بها ويغلبوهم بالحجة والبرهان. ويأمر الله تعالى رسوله بأن يجيبهم على هذا الوهم فقال: ﴿قُلْ إِنْ أَلْفَضَلْ يَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ بمن يستحقه، ﴿يَخْنُصُ بِرَحْمَتِهِ﴾ وبفضله ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من خلقه، فكما اختص اليهود عندما اتبعوا موسى عليه السلام، ثم اختص النصارى عندما اتبعوا عيسى عليه السلام، فكذلك اختص المسلمين باتباع رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

وهذه الطائفة من أهل الكتاب التي تكتنم الحق عمداً لم تؤد الأمانة ولم تحفظ عهد الله لهم باتباع الرسول محمد ﷺ الذي جاء مصداقاً لما معهم من التوراة والإنجيل. وقبل الدخول في التفصيل ينصف القرآن الكريم أهل الكتاب قائلًا: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دَمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾، فهم ليسوا سواء في خيانة الأمانة، فبعضهم يؤديها ويوفيها ولو بلغت قنطاراً، وبعضهم يجحدها ويخونها ولو كانت ديناراً، إلا إذا كانت عليه مستمسكات لا تمكنه من الخيانة!

وسبب فعلهم هذا هو زعمهم بأن ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِينَ﴾ من غير اليهود ﴿سَكِينٌ﴾ ولا حرج ولا إثم، ونسبوا ذلك إلى التوراة كذباً وافتراءً على الله، وقد يراد بالأميين العرب^(١)، لأنهم كانوا أمة أمية. وهم في فعلهم هذا عامدون، فهم ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ

(١) وهو الذي قال به ابن كثير في تفسيره (٢/٨٠).

يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ .

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ﴾ ، أي: لكن من أوفى منكم يا أهل الكتاب بالعهد الذي عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بعث، ﴿وَأَتَقَىٰ﴾ محارم الله تعالى وحقوق الآخرين واتباع شريعة خاتم المرسلين ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ الذي عاهدهم به من اتباع محمد ﷺ إذا بعث، ﴿وَأَيْمَنِيهِمْ﴾ التي يخلفونها ويعطونها، يشترون بهذا ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من متاع الدنيا الزائل، ﴿أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ﴾ ولا نصيب ولا حظ ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ ، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ بكلام لطيف رحيم، ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بعين الرحمة والرأفة، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ من الذنوب والآثام، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في نار الجحيم.

وقد وردت أحاديث كثيرة في التحذير من الحلف الكاذب؛ فعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكّيهم وهم عذاب أليم)، قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاثاً مراراً، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟، قال: (المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب) (٢).

ثم يخبر الله تعالى عن تحريفهم للكتب السماوية التي أنزلت عليهم، ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ﴾ فيحرفونه ويزيدون فيه وينقصون منه حسب الحاجة، ويعمدون إلى تقليد أساليب الكتاب الصحيح ﴿لِيُحَسِّبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الصحيح، ﴿وَيَقُولُونَ﴾ بكل جرأة ووقاحة وصلافة: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ كذباً وافتراءً، ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩]، ثم أخبر بأنهم يفعلون ذلك عن

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٨١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية برقم (١٠٦).

عمد وقصد، فقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٥). وقد أثبتت هذه الآية صفتين شنيعتين لأهل الكتاب وهما تحريف الكتب السماوية، والكذب والافتراء على الله تعالى بوضع كتب من عند أنفسهم ونسبتها إلى الله تعالى^(١). وهاتان الصفتان يصدر عنهما عادة أسوأ أنواع الأفعال وأخس المؤامرات، وأخطر أنواع التضليل والتدليس والخداع الذي يمارسونه في حق البشرية^(٢).

وبعد أن ذكر تحريف اليهود للتوراة وليّ ألسنتهم بها، انتقل إلى تحريف مشابه له^(٣)، وهو ما تسبب به كذبهم وافتراؤهم هذا في أنهم عبدوا عيسى وعزير عليهما السلام، ولهذا قال تعالى ردّاً عليهم: ﴿ مَا كَانَ ﴾ ولا ينبغي ﴿ لِيَسِّرَ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ فيصبح ذا علم وحكمة وقرب من الله تعالى ﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾، وقصد بهذا القيد ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ تشنيع أمر الناس بعبودية البشر بأن ذلك يقتضي أنهم انسلخوا عن العبودية لله تعالى، لأن حقيقة العبودية لا تقبل التجزئة لمعبودين^(٤)، ولهذا لم يقل: (عباداً لي مع الله) رغم زعمهم هذا. ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾، أي: ولكن كونوا علماء عاملين تخلصون العبادة لله تعالى^(٥)، ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تُكَلِّمُونَ الْكُفَّارَ ﴾ للناس ﴿ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ الكتاب

(١) ولا ننس أن نشير هنا إلى الافتراء الجديد الذي اقترفوه في زماننا هذا، حيث افترروا كتاباً زعموا أنه وحي جديد على لسان نبي جديد، وسمّوه: الفرقان الحق. ظهر الإصدار الأول منه في بداية عام ٢٠٠٢. ثم ظهرت النسخة المعدلة في آخر عام ٢٠٠٤، وفيها زيادة سور. وقد طبع هذا الكتاب ووزع في بعض الدول الإسلامية، وهو باللغة العربية، ومليء بالأخطاء والترهات. ولعلي أفرد له ردّاً مفصلاً.

(٢) التفسير المنير، أ.د. وهبة الزحيلي (٣/٢٧٣).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/١٣٨).

(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/١٤٠).

(٥) قال الطبري في تفسيره (٦/٥٤٤): الربانيون: هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا. ولذلك قال مجاهد: «وهم فوق الأخبار»، لأن «الأخبار» هم العلماء، و«الرباني» الجامع إلى العلم والفقه، البصر بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دنياهم ودينهم.

وتحفظون ألفاظه. كما قال تعالى: ﴿ أَفَنظَمُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥].

{ولا} يمكن لهذا النبي الصادق أن ﴿يَأْمُرَكُمْ﴾ بأن ﴿تَتَّخِذُوا الْمَلٰٓئِكَةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا﴾ من دون الله تعالى، لأن هذا من الكفر، فهل ﴿يَأْمُرَكُمْ﴾ النبي الصادق ﴿بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، هذا لا يكون.

الموضوع الثالث: وحدة الرسالات والدين الحق الذي هو الإسلام:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُۥ قَالَ ؕأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذٰلِكُمْ ؕإِسْرَآءِي قَالُوا ؕأَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰٓئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَغْيَرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ؕأَمِنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرٰهِيْمَ وَإِسْمٰعِيْلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نَفِرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لِلَّهِ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمٰنِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنٰتُ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولٰٓئِكَ جَزَّأُوهُمْ أَن عٰلِيَهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلٰٓئِكَةِ وَالنَّٰسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيْمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمٰنِهِمْ ثُمَّ أَدَّأُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولٰٓئِكَ هُمُ الضَّٰلِمُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَرًا فَلَن يُقْبَلَ مِن أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَقْتَدَىٰ بِهِ ؕ أُولٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن نَّأْتُوا الْبَرَحَ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا حُبِبْتُمْ ؕ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [الآيات: ٨١-٩٢].

التفسير الإجمالي:

بعد أن بين الله تعالى كذب أهل الكتاب وافتراءهم وتحريفهم للكتب السماوية، وخيانتهم للعهد والميثاق، أخبر تعالى أنه أخذ ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ أي: أنه مهما أتى الله تعالى أحدهم من كتاب وحكمة ثم جاءه رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه، ولا يمنعه ما آتاه الله تعالى من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته^(١). ﴿قَالَ أَأَقْرَضْتَهُ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ وعهدي وميثاقي، ﴿قَالُوا أَأَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^(٨١) ﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ العهد والميثاق ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

والمقصود من ذكر ميثاق الأنبياء إعلام أهمهم بذلك ليكون هذا الميثاق محفوظاً لدى سائر الأجيال^(٢).

ومسألة اتباع السابق القديم للاحق الجديد ظاهرة لا تحتاج إلى نقاش، وبخلافها لا تستقيم الأمور، وهذا مشاهد في حياة الناس، فمن المعلوم أن القانون اللاحق يعمل به بدلاً من القانون السابق، ويكون للقانون الجديد السلطة والهيمنة على القانون القديم. وقد قال الله تعالى بخصوص القرآن الكريم مع الكتب السماوية: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. والنبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمقدم عليهم أجمعين، وإمامهم في ليلة الإسراء، وشفيع الناس في يوم الدين، فيكون هو ﷺ المخصوص بهذه الآية^(٣)، وهو الرسول المصدق لما معهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَدَأَ فِرْقٌ مِنَ الَّذِينَ آوَتْهُمُ الْكُتُبَ كِتَابَ اللَّهِ وِرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا

(١) تفسير ابن كثير (٢/٨٨).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢/١٤٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/٨٩).

يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ [البقرة: ١٠١]، والقرآن الكريم مصدق لما قبله، كما قال تعالى: ﴿زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣].

هذا هو دين الله الحق الذي أنزله على أنبيائه جميعاً، وأولئك الذين خانوا عهد الله تعالى ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ وهو دين جميع المرسلين، والله وحده إله هذا الكون ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي: استسلم له من فيها طوعية باختيارهم وهم المؤمنون، وكرهية بانقيادهم لقوانين الكون ونواميسه وهم الكافرون^(١). كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥]. وجميعهم ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ فيحاسبون على أعمالهم يجازون. وقيل المعنى: أطاعوه فيما أحبوا أو كرهوا^(٢).

ثم أمر الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام أن يعلن لهم إسلامه طوعاً واختياراً، مبيناً حقيقة وحدة الدين من الله تعالى والرسالات؛ ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ وهو القرآن الكريم، ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَا نَسْتَعِينُ﴾ من التوراة والإنجيل ﴿وَالنَّبِيِّينَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ من الوحي، ﴿وَمَا أَوْقَىٰ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ من الإيثار فنحن نؤمن بهم جميعاً ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ مصدقون^(٣). وهذه الآية قطع للجدال العقيم معهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ

(١) ذكر ابن عاشور في التحرير والتنوير (٣/ ١٤٦) عدة توجيهات للآية، فقال: ومعنى ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾: أن من العقلاء من أسلم عن اختيار لظهور الحق له، ومنهم من أسلم بالجبلية والفترة كالملائكة، أو الإسلام كرهاً هو الإسلام بعد الامتناع، أي: أكرهته الأدلة والآيات، أو هو إسلام الكافرين عند الموت ورؤية سوء العاقبة، أو هو الإكراه على الإسلام قبل نزول آية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

(٢) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٢/ ١٢٤).

(٣) وقد مرّ مثل هذه الآية وهو قوله تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَا نَسْتَعِينُ﴾ من التوراة والإنجيل ﴿وَالنَّبِيِّينَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، والخطاب فيها للمسلمين، ولهذا قال فيها ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ لأن القرآن الكريم لم ينزل عليهم وإنما أنزل على الرسول ﷺ ووصل عن طريقه إليهم.

أَلَمْ يَكْتُبْ إِلَّا يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقَوْلُوا ءَأَمَّا بِاللَّيْلِ أَنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٦٦﴾ [العنكبوت: ٤٦]، لأنهم لا يبحثون عن الحق وإنما يطلبون ديناً خاصاً بهم مفضلاً على هواهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ ﴿٨٥﴾، استكمالاً لما قاله تعالى في صدر السورة: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾.

ولما كان الضلال بعد الهدى دليل على اتباع الهوى وعدم الرغبة في الحق والهدى قال تعالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ ﴾. وهذه الآية وما بعدها في المرتدين من أمة الإسلام، ويدخل فيها أهل الضلال من أهل الكتاب الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه. وقوله تعالى: ﴿ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ أي: قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول، ووضح لهم الأمر، ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية^(١)، ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾، لأنهم لا يبحثون عن الحق ولا يريدون الهداية، ولهذا توعدهم الله تعالى باللعة والعذاب، فقال عز وجل: ﴿ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٨٧﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾، وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿١١١﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١١٢﴾ [البقرة: ١٦١-١٦٢]، فحقت عليهم لعنة الله تعالى ولعنة خلقهم، كما قال: ﴿ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّانِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩].

وترك باب التوبة والعودة مفتوحاً، فقال تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿٨٩﴾، يتوب على من تاب، واشترط هنا مع التوبة الإصلاح، لأن كفرهم بعد إيمانهم قد يوقع بعض الناس في الفساد والغواية، بخلاف الكافر ابتداءً، لذا طالبهم

(١) تفسير ابن كثير (٢/٩٣).

بالإصلاح مع التوبة^(١)، والله أعلم.

وبعد الترغيب في التوبة، هدد وحذر من الكفر وعدم الرجوع، وحذر من الإمعان في الكفر والازدياد من الإثم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نُجِيبَ تَوْبَتَهُمْ وَأَوْلِيَّتِكَ هُمْ أَضْمَالُونَ ﴿١٠﴾﴾، عن طريق الحق، كما قال عز وجل: ﴿وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنِّ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٨].

وبما أن الكافرين غرتهم أموالهم وأولادهم وغرتهم الحياة الدنيا، فربما ظن بعضهم أن هذا سيشفع له يوم القيامة، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿١١﴾﴾، تأكيداً لما قاله في صدر السورة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾﴾ [الآية: ١٠]، وكما سيأتي فيها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الآية: ١١٦]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا نَقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [المائدة: ٣٦]. وقد قال النبي ﷺ: (يقول الله تعالى لأهل النار عذاباً يوم القيامة: لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به. فيقول: نعم، فيقول: أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم؛ أن لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلا أن تشرك بي)^(٢).

والسياق يحتمل معنى آخر وجيهاً؛ وهو أنه لن يقبل من أحدهم جميع ما أنفقه من أموال

(١) قارن بتفسير السمرقندي (١/٢٨٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، برقم (٦٥٥٧)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب: طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً، برقم (٢٨٠٥).

مناسبة هذا الموضوع لسابقه :

بعد أن رغب الله تعالى في الإنفاق مما يحب الإنسان، ذكر كيف أن إسرائيل عليه السلام ترك أحب الطعام إليه لله سبحانه وتعالى، ففي الموضوعين ترك ما يحبه الإنسان^(١).

وأيضاً لما تقدم السياق في الردّ على النصارى في اعتقادهم في عيسى عليه السلام، شرع في الردّ على اليهود في إنكارهم النسخ، وذلك بذكر تحريم يعقوب عليه السلام لأحب الطعام والشراب إليه، ولم يكن قبل حراماً، ثم نزل تحريمه في التوراة بعد ذلك، وهذا من النسخ، ففيه ردّ عليهم في عدم اتباعهم لعيسى عليه السلام بدعوى إنكار النسخ، وكذلك في عدم اتباعهم لمحمد ﷺ^(٢).

فالآيات المتقدمة في تقرير الدلائل الدالة على نبوة محمد ﷺ، في توجيه الإلزامات الواردة على أهل الكتاب في هذا الباب، وأما هذه الآية فهي في بيان الجواب عن شبهات القوم، فإن ظاهر الآية يدل على أنه ﷺ كان يقول إن كل الطعام كان حلالاً ثم صار البعض حراماً، والقوم نازعوه في ذلك وزعموا أن الذي هو الآن حرام كان حراماً أبداً^(٣).

فالغرض من الآيات بيان أن محمداً صلوات الله عليه على دين إبراهيم عليه السلام في الفروع والأصول، أما في الفروع فلما ثبت أن الحكم بحله كان إبراهيم قد حكم بحله أيضاً، وأما في الأصول فلأن محمداً صلوات الله وسلامه عليه لا يدعو إلا إلى التوحيد والبراءة عن كل معبود سوى الله تعالى وما كان إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه إلا على هذا الدين^(٤). ولما كان

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٣/٣)، وتفسير ابن كثير (٩٨/٢)، ونظم الدرر للبقاعي (١/٥).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٩٨-٩٩).

(٣) التفسير الكبير، للرازي (٨/١١٩)، وينظر: قطف الأزهار للسيوطي (١/٦١٣)، نسبها للأصبهاني، ولعله محمود بن عبد الرحمن الشافعي (ت ٧٤٩هـ)، في كتابه أنوار الحقائق الربانية في تفسير اللطائف القرآنية. ينظر: هدية العارفين (٦/٤٠٩). فإن كان هو فهو متأخر عن الرازي بكثير.

(٤) التفسير الكبير، للرازي (٨/١٢٤).

من أعظم شعائر ملة إبراهيم الحج، عَقِبَ هنا بذكره، لبيان كذب اليهود والنصارى في دعواهم أنهم على دينه، وهم لا يحجون^(١).

التفسير الإجمالي:

يخبر الله تعالى أن جميع الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل قبل نزول التوراة، إلا ما حرّم يعقوب عليه السلام على نفسه، واتبعه بنوه في ذلك. ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّورَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ فإنها ناطقة بما تقدم من أمور من بداية السورة الكريمة، والمقصود تعدد الرسل والكتب والرسالات، وهو ما أنكروه. ﴿ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ أي: فمن كذب على الله تعالى وافتري وزاد ونقص كما يفعل أهل الكتاب ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾.

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ﴾ أي: قل يا محمد لهم: صدق الله تعالى فيما أخبر به عن أهل الكتاب وفيما شرعه من أحكام وشرائع، ﴿ فَأَتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾، فملته عليه السلام هي الطريق المستقيم، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠]، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

ثم تواصل الآيات الردّ على أهل الكتاب، وتنتقل إلى طريقة أخرى في الردّ حيث يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس ليقوم بأمور العبادة والنسك هو البيت الحرام المبارك الذي بيكة، وهي مكة المكرمة؛ أي: الكعبة التي بناها إبراهيم عليه السلام، أو المراد بيكة: البيت

(١) قطف الأزهار، للسيوطي (١/٦١٤)، وانظر ما بعدها فيه فوائد.

والمسجد فقط^(١). وأهل الكتاب الذين يزعمون أنهم على ملة إبراهيم عليه السلام لماذا لا يصلّون إلى هذا البيت ولا يحجّون إليه.

وبني بعده المسجد الأقصى، وقد وردّ النص في الحديث الشريف على المدة بين بنائهما، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: (المسجد الحرام) قال: قلت: ثم أي؟ قال: (المسجد الأقصى)، قلت: كم كان بينهما؟ قال: (أربعون سنة، ثم أينما أدركتكم الصلاة بعد فصله فإن الفضل فيه)^(٢).

ثم اتجهت الآيات إلى وصف المسجد الحرام فوصف بأنه مبارك كثير البركات والخيرات، ﴿يُحْجُّونَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧]. ووصف بأنه ﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾، فهو مصدر هداية للناس، يصلّون ويتوجهون ويحجون إليه ويتعلقون به. ووصف بأنه ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾، وهو دليل قاطع على أن هذه الأمة أولى بإبراهيم عليه السلام من غيرها، فهي التي حفظت آثاره واتبعت آثاره. ووصف بأنه أمان لمن دخله، كما وصف بذلك في عدة مواضع من القرآن الكريم؛ ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آلِيبَتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا﴾ [البقرة: ١٢٥]، ﴿أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا﴾ [القصص: ٥٧]، ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَكَمًا ءَامِنًا وَبِئْخَاطِفُ النَّاسِ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]. ووصف بأنه مكان الحج، فجاء بآية الحج ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، فأوجب الله تعالى الحج على من استطاعه من عباده المؤمنين، فوجد الزاد والراحلة. والاستطاعة أقسام؛ فتارة يكون الشخص مستطيعاً بنفسه، وتارة بغيره^(٣).

والحج ركن ثابت من أركان الإسلام؛ فعن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا) فقال رجل: أكل عام يا رسول الله، فسكت،

(١) كتاب تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، (١/٣١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى ﴿وَأَتَّخِذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ حَبِيلًا﴾، برقم (٣٣٦٦)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، برقم (٥٢٠).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/١٠٧).

حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: (لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم) ثم قال (ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)^(١). ومن أنكر فريضة الحج فقد كفر، ولهذا ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

ثم ختم المقطع بتعنيف أهل الكتاب وهز كيانهم بسبب كفرهم وعنادهم ومكابرتهم، وصددهم عن سبيل الله تعالى رغم علمهم ومعرفتهم بالحق، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾^(٣) وسوف يحاسبكم على كل صغيرة وكبيرة، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مِن مَّأْمَنٍ﴾ وهو ما سبق من حيلهم ومكرهم حتى يرتد المسلمون عن دينهم، ﴿تَبَغُّوهَا عِوَجًا﴾ عن الطريق المستقيم وعن الملة الحنيفية، ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ تعرفون الحق وتعرفون صدق النبي محمد ﷺ، ثم قمتم بتحريف الكتب والكذب على الله ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وهذه الآية تحتتم القسم الأول من السورة الكريمة، وهو القسم المخصص لمناقشة أهل الكتاب والرد على شبهاتهم وبيان دسائسهم ومكرهم.

الدروس والعبر من هذا المقطع:

- توحيد الله تعالى هو أصل الدين، وهو الذي جاء به جميع الأنبياء، ومن مستلزمات هذا التوحيد أفراد الله تعالى بالعبودية والربوبية، وعدم ادعاء الربوبية لأحد من خلق الله تعالى.
- الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي امتاز بالالتزام بالتوحيد ومقتضياته في هذا الزمان،

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب: فرض الحج مرة في العمر، برقم (١٣٣٧).

(٢) وجاءت الجملة {وَمَنْ كَفَرَ} باستخدام صيغة الماضي، بدلاً من {وإن تكفروا} بصيغة المضارع، لأن فعل الماضي بعد أداة الشرط مع المستقبل يفترض الحدث مرة واحدة، أما فعل المضارع فيدل على تكرار الحدث، فالفعل الماضي يناسب السياق هنا. تراجع: محاضرة: أسرار البيان في التعبير القرآني، ألقاها الدكتور فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢م.

- ومدّ يده إلى أهل الكتاب بدعوة صادقة إلى الحق والعدل وتوحيد الكلمة عبر كلمة التوحيد التي جاء بها أنبياءهم أيضاً.
- بيان كذب أهل الكتاب في زعمهم أن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً أو نصرانياً؛ لأن التوراة والإنجيل واليهودية والنصرانية ما وجدت إلا بعده.
- المسلمون أولى الناس بإبراهيم عليه السلام، وألصق الناس بدينه وشريعته، والقائمون بتطبيق ما جاء به، والتوجه إلى قبلته، والعبادة في أماكن العبادة التي بناها، وتتبع آثاره الدينية في الحجّ والعمرة وغيرها، كما أمرهم نبيهم محمد ﷺ، فلا يستطيع أحد أن يزعم أنه أولى به منهم.
- يعرف كثير من أهل الكتاب أن الذي جاء به محمد ﷺ هو الحق ولكنهم يكتُمونه لأسباب مختلفة.
- يسعى بعض أهل الكتاب إلى إضلال المسلمين، رغم علمهم بالحق، حسداً ليس إلا، كما قال تعالى: ﴿ وَذَكَرْنَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِمَّنْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَأَعْفُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ [البقرة: ١٠٩].
- من الطرق الخبيثة التي يتتبعها أعداء الإسلام ادعاء الدخول في الإسلام، ثم إظهار ونشر وإعلان الرجوع عنه، من أجل تشكيك ضعاف المسلمين، حتى يتفرد أعداء الله بقيادة البشرية بحجة أنهم وحدهم أهل الكتاب السماوي.
- أنصف القرآن الكريم أهل الكتاب أيما إنصاف، وقد أنصفهم حتى في معرض الردّ على ضلالتهم ودسائسهم ومكائدهم، فنسب ذلك كله إلى بعض أهل الكتاب، ولم يعتم الحكم عليهم.
- الحلف الكاذب من كبائر الذنوب.

- الإسلام هو دين الله تعالى، ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾، فعلى العاقل أن يسلم وجهه لله تعالى طوعاً وعبادة للحصول على مرضاته.
- الكفر بعد الإيمان جريمة كبرى تستوجب العقوبة في الدنيا والآخرة، وتكرار هذه الجريمة يدل على تجذّر الكفر وتغلغل النفاق عند صاحبه.
- باب التوبة مفتوح لكل المذنبين، حتى مرتكبي الكبائر مهما عظمت.
- إنفاق المسلم في سبيل الله تعالى من أحبّ أمواله إليه يوصله إلى البرّ، (وإن البر يهدي إلى الجنة)^(١).
- فريضة الحج ثابتة بالكتاب والسنة، وهو من أركان الإسلام التي أوجبها الله على عباده المؤمنين، ومن جحدتها فقد كفر، ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.
- رفض الحق بعد معرفته أقبح وأشنع عند الله تعالى وعند الناس.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

هناك عدد من المناسبات بين هذا المقطع بمواضيعه وبين محور السورة الرئيس وهو التوحيد؛ حيث تناول هذا المقطع بيان الدين الحق الذي جاء به جميع الأنبياء، وهو الإسلام القائم على التوحيد، كما تناول إسلام إبراهيم الخليل عليه السلام، وكذب أهل الكتاب في زعمهم أنهم على ملته بسبب الشرك الذي عندهم، وتحلّل ذلك تحذير الكافرين من أهل الكتاب، ودعوات متكررة لهم إلى الدين الحق وعبادة الله تعالى، والرجوع عن كذبهم وافتراءهم.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وما ينهى عن الكذب، برقم (٦٠٩٤)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، برقم (٢٦٠٧).

المقطع الخامس: بيان خيرية هذه الأمة، وتحذيرها من الوقوع في أخطاء الأمم السابقة، وتحذيرها من أعدائها

مناسبة المقطع لسابقه:

بعد أن ناقش القرآن الكريم شبهات أهل الكتاب، وفضح كذبهم وافتراءهم على الله تعالى، وبيّن تعمدهم لبس الحق بالباطل وكتمان الحق عمداً، وخيانة الأمانة، انتقل إلى تحذير المسلمين من الوقوع في أخطائهم، وجاء هذا التحذير بطرق مختلفة، صريحة وباطنة؛ فمن ذلك أنه حذّر المسلمين من طاعة أهل الكتاب لئلا يردوهم عن دينهم، كما دعا القرآن الكريم المسلمين إلى الاعتصام وعدم التفرق، وحذّره من الاختلاف بعد نزول القرآن الكريم كما تفرقت واختلفت الأمم السابقة بعد ما جاءهم البينات وقامت عليهم الحجج والبراهين، ثم ذكر تفرّق الناس يوم القيامة إلى أهل العذاب وأهل الرحمة، وفيه إشارة إلى الابتعاد عن أفعال أهل العذاب الذين ذكرهم قبلها وتوعدهم بقوله: ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . ثم أمر الأمة بتحمّل مسؤولياتها بعد اختيارها لتكون خاتمة الأمم وخير أمة أخرجت للناس، وكرر تحذيرها من الوقوع في أخطاء الأمم السابقة، ومن الخوف من أعدائهم من أهل الكتاب خاصة، ومن العدو عامة، ثم حذّرها من المنافقين خصوصاً، وأمرهم بالصبر والتقوى للتخلص من أخطار الأعداء والمنافقين وكيدهم.

ينقسم هذا المقطع إلى ثلاثة مواضيع:

يندرج تحت هذا المقطع عدة مواضيع متداخلة، رأيت تقسيمها إلى ما يأتي:

الموضوع الأول: التحذير من الوقوع في أخطاء السابقين:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ. وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَد هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ. وَلَا تَمُونَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾

وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ ﴿ [الآيات: ١٠٠-١٠٩].

التفسير الإجمالي:

تبدأ الآيات بتحذير المسلمين من الوقوع في أخطاء الأمم السابقة، وجاء هذا التحذير بطرق مختلفة، فبدأ أولاً بالنهي عن طاعة فريق من أهل الكتاب، ويبدو أن هذا الفريق هو الطائفة المذكورة من قبل، وهم الذين قالوا: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿١٠٣﴾ [آية: ٧٢]، لأن هذا الفريق سيردهم عن إيمانهم فيصبحوا كافرين، والعياذ بالله. ولما كان الكفر غير متصور مع وجود الرسول ﷺ يهدي الناس إلى الحق ومع وجود القرآن الكريم الذي أنزل هداية للناس وفرقاً بين الحق والباطل كما سماه الله تعالى في أول السورة، قال تعالى بصيغة الاستفهام الدال على الاستبعاد لهذا الأمر: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ يعني: "أن الكفر بعيد منكم وحاشاكم منه، فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلاً ونهاراً، وهو يتلوها عليكم، ويبلغها لكم" (١). ثم بين طريق الخلاص من المكائد والدسائس وطريق الهداية الذي لا اعجواج فيه فقال: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿١٠٩﴾، وهي دعوة إلى الاعتصام، سيأتي التصريح بها بعد قليل.

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١١١).

ثم توجه من التحذير بالإشارة والذكر إلى التوجيه بالنهي والأمر فقال: **يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا** **أَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** ﴿١٠٢﴾ **وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا...** ﴿١٠٣﴾ الآيات الأربع. فأمر أولاً بتقوى الله تعالى حق تقاته بالخوف منه ومراقبته وطاعته واجتناب معاصيه^(١)، كما ينبغي لجلاله سبحانه وتعالى، قال ابن مسعود: في تفسيرها: "أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى"، وفي رواية زيادة: "ويشكر فلا يكفر"^(٢). ومثل هذا لا يتأتى من البشر، ولهذا اختلف المفسرون في هذه الآية هل هي منسوخة أم لا؟ فمن رأى أنها غير منسوخة فسر قوله تعالى ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ بأن يجاهدوا في الله حق جهاده، ولا يأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وأبائهم وأبنائهم^(٣)، أو فسرتها خاتمة الآية وهي قوله تعالى ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، أي: ﴿أَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ فإن لم تفعلوا ولم تستطيعوا، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون^(٤). ومن رأى أنها منسوخة قال: نسخها قوله تعالى: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]^(٥)، ويمكن الجمع بين الرأيين بسهولة، فالمطلوب تقوى الله تعالى حق تقاته، فإن لم تستطيعوا ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

وقد وقع النهي في ظاهر قوله تعالى ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ على الموت، وإنما نهوا في الحقيقة عن ترك الإسلام، ومعنى الآية: داوموا على الإسلام وحافظوا عليه في حال الصحة والسلامة حتى لا يصادفكم الموت إلا وأنتم مسلمون، لأن من عاش على شيء مات عليه،

(١) ينظر: تفسير الطبري (٦٠/٧).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک، برقم (٣١٥٩)، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. والزيادة عند الطبري (٦٥/٧)، وابن وهب في كتاب التفسير من الجامع (١٢٢/١) و (٨٥/٢).

(٣) أخرجه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما (٦٧/٧)، وينظر: (٦٨/٧).

(٤) ينظر: المرجع السابق (٦٨/٧).

(٥) ينظر: تفسير الطبري (٦٨/٧-٦٩).

ومن مات على شيء بعث عليه^(١).

﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ أي: عهده وميثاقه، أو: القرآن الكريم ﴿ وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾، أمرهم بالجماعة ونهاهم عن الفرقة^(٢)،^(٣).

ثم ذكّرهم بنعمة الله تعالى عليهم عندما أَلَفَ بين قلوبهم ووحد صفوفهم فأصبحوا إخواناً على قلب رجل واحد، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَلَمَّكَ بِبَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١٦) وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣]، وأنقذهم من الكفر والنار، إلى جنات الأبرار. وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج وكانت بينهم عداوات وحروب، فأنقذهم الله تعالى بالإسلام من النار، وألف بين قلوبهم. وكان الآية تحذّر وتشير إلى أن الاختلاف كفر يؤدي إلى النار، والعياذ بالله،

(١) ينظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب، ط الثانية، ١٤١٥ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، (٦/١٠٩)، و تفسير ابن كثير (٢/١١٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/١١٤-١١٥).

(٣) قال الله تعالى: ﴿ تَفَرَّقُوا ﴾، بينما في سورة الشورى: ولا ﴿ تَتَفَرَّقُوا ﴾؛ لأن الآية في سورة الشورى فيها الوصية خالدة من زمن سيدنا نوح، إلى خاتم الأنبياء، فجاء الفعل (تتفرقوا) أما في سورة آل عمران فهي خاصة بالمسلمين لذا جاء الفعل (تفرقوا)، والأمة المحمدية هي جزء من الأمم المذكورة في الآية الأولى. وكذلك فالحدث تمتد في الأولى (تتفرقوا) والحدث محدد في الثانية (تفرقوا). فالأولى وصية خالدة على زمن الأزمان (ولا تتفرقوا فيه) لأن هذا هو المآتي الذي يدخل إليه أعداء الإسلام فيتفرقون به لذا جاءت الوصية خالدة مستمرة، وصى تعالى الأمم مرة ووصى الأمة الإسلامية مرتين. والآية الأولى أشد تحذيراً للأمة الإسلامية ﴿ شَرَحَ لَكُمْ مِنَ الَّذِينَ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾. شرع لنا في الوصية العامة لنوح وخصّ بالذي أوحينا إليك ثم خصّ الأمة الإسلامية في الآية الثانية. والحذف له سببان هنا الأول لأن الأمة المحمدية أصغر، ونهانا عن التفرّق مهما كان قليلاً وأراد ربنا تعالى أن نلتزم بهذا الأمر (لا تفرقوا) وقال ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾. تراجع: محاضرة: أسرار البيان في التعبير القرآني، ألقاها الدكتور فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢م.

وسياتي التصريح بذلك في سياق الآيات، وختمت الآية بقوله تعالى ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى ما فيه صلاحكم وفلاحكم في الدنيا والآخرة.

ثم أمر تعالى بأن تتصدى طائفة من المسلمين للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كان هذا الأمر واجباً على كل فرد من الأمة بحسب استطاعته^(١)؛ كما أمر النبي ﷺ بقوله: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيذان)^(٢)، وأكد بأسلوب القصر أنهم هم المفلحون دون غيرهم، والمراد أن من لم يفعل ذلك من الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده أن بلسانه أو بقلبه فليس من المفلحين، وكيف يفلح من لم ينكر بقلبه؟، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيذان حبة خردل)^(٣).

ثم نبى الله تبارك وتعالى هذه الأمة عن مشابهة الأمم السابقة التي اختلفت وتفرقت وتركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي: مع قيام الحججة عليهم بمجيء البيّنات والأدلة الواضحات، وجاء الفعل مذكراً مع لفظة البيّنات لأن المراد بالبيّنات هنا: الأمر والنهي^(٤). وأعرض عن الحق بعد البيان فقد عرض نفسه للتحذير الذي

(١) تفسير ابن كثير (١١٧/٢).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيذان، باب: كون النهي عن المنكر من الإيذان، برقم (٤٩).

(٣) صحيح مسلم في كتاب الإيذان، باب: كون النهي عن المنكر من الإيذان، برقم (٥٠).

(٤) وحشياً وردت كلمة البيّنات بمعنى الأمر والنهي فإن الفعل يُذكر، كما مرّ في هذه السورة ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آية: ٨٦]، وفي هذه الآية أعلاه، وفي قوله تعالى ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّي الْعَلِيمِ﴾، [غافر، الآية: ٦٦]، والله أعلم. تراجع: محاضرة: أسرار البيان في التعبير =

ختمت به الآية ﴿ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، في يوم الدين، ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾ وهي وجوه المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴾ [القيامة، آية: ٢٢]، وقال: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ [عبس، آية: ٣٨]. ﴿ وَنَسُودٌ وَوُجُوهٌ ﴾ وهي وجوه الكافرين والمنافقين، كما قال تعالى: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ [القيامة، آية: ٢٤]، وقال: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَابِرَةٌ ﴾ [عبس، آية: ٤٠]. ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [١٦] يقال هذا للكافرين والمنافقين، وفي سياق الآية تعريض بكفر أهل الكتاب بعد إيمانهم، ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ وهم المؤمنون ﴿ فَنفى ﴾ الجنة ﴿ رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ ومكان نزول رحماته ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [١٧] خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨].

ثم قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ ﴾ وبيّناته وحججه وبراهينه الواضحة، ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ يا أيها الرسول ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ المبين لأمر الدنيا والدين، ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾ بإرسال الرسل وإنزال الكتب ومجيء البينات، وإنما يريد هداية الخلق إلى ما فيه خيرهم في الدارين، كما قال في صدر السورة ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾. وما يدل على عدم احتياج الله لظلم أحد من خلقه: أن جميع ما في السموات والأرض من مخلوقات ملك له وعبيد له، وأنهم إليه راجعون، فهو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة^(١)، وهو ما ختم به المقطع بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾.

= القرآني، ألقاها الدكتور فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢م.

(١) التفسير المنير لوهبة الزحيلي (٤/ ٣٥).

الموضوع الثاني: خيرية هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم:

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُعْتَدِلُوكُمْ يُلُوكُمْ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا بُدَّ لَهُمْ ﴿١١١﴾ ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الدِّيلَةَ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا يَحْبِلُ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءَ وَبَعْضٌ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُوا سَوَاءً مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَالِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ الْيَلِّ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الآيات: ١١٠-١١٥]

التفسير الإجمالي:

يذكر الله تعالى الأمة بواجبها بعد أن اختارها سبحانه وتعالى لتحمل الرسالة ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾، مقيداً هذه الخيرية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله تعالى ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾. وخيرية هذه الأمة تقتضي أن يصل خيرها إلى غيرها، فيكون المعنى: كنتم خير الناس للناس^(١).

ولعل في تقديم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله إشارة إلى ارتباط الأمرين بالإيمان وانتشاره، وإشارة إلى تقصير أهل الكتاب في ذلك كما أخبر النبي ﷺ في قوله: "إنها أهلكت الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد"^(٢).

(١) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٢/ ٤٩).

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب: أحاديث الغار، برقم (٣٤٧٥)، ومسلم في كتاب الحدود، باب: قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة، برقم (١٦٨٨).

والأحاديث في فضل هذه الأمة وتكريمها واصطفائها كثيرة جداً، وذكر هنا صفات هذه الخيرية، فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذه الخيرية وهذا الثناء والمدح، ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله تعالى^(١)، لذا أعقب هذه الآية بذكر حال أهل الكتاب تحذيراً للمسلمين من أفعالهم، ودعوة لهم إلى الرجوع إلى الحق ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾، وكما تكرر في السورة فإن القرآن الكريم لم يعمم الحكم عليهم بالفسق والكفر فقال: ﴿مِنَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الذين يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل إليكم، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الضالون المكذبون.

وانتقال السيادة والريادة من أمة إلى أخرى سيؤدي إلى عداوة هذه الأمة، فقال تعالى مطمئناً للمسلمين ومهيناً لهم للمواجهة إذا وقعت ومبشراً لهم بالنصر عليهم: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ الاستثناء منقطع، أي: لن يضر وكم ولكن يسمعونكم ما تكرهون بكفرهم وتكذيبهم بنبيكم ﷺ وقولهم في عيسى ابن مريم عليهما السلام^(٢)، ﴿وَإِنْ يَفْتَرُوا لَكُمْ يُولُوكُمُ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يُبْصَرُونَ﴾ عليكم، وهو متصل بما قبله من شروط الخيرية، فإذا وفّت الأمة بوعداها لربها وقامت بما اشترطه عليها من الإيثار به والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعدم التفرق والاختلاف فإنهم سيتصرون على أعدائهم، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ نَضُرُّوهُمُ اللَّهُ يَضُرُّكُمْ وَيَلْبَسُ أَقْدَامَكُمْ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلَ أَعْمَالِهِمْ ۗ﴾ [سورة محمد ﷺ، آية: ٧-٨]. ثم ذكر تعالى سبب ذلك وأنه بسبب كفرهم وفسقهم وقتلهم واعتدائهم، وهو ما أدى إلى غضب الله عليهم ولعنه لهم، ونقل الرسالة منهم، وابتلائهم بالدلة والمسكنة، فقال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا يُقْبَلُوا﴾ ووجدوا فهم يعيشون في ذلة وهوان، ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مَنَ اللَّهِ ۗ﴾^(٣) وعهد منه، وقيل هي الجزية والعهد بينهم وبين المسلمين، ﴿وَحَبْلِ مَنَ النَّاسِ﴾ وعهود

(١) تفسير ابن كثير (٢/١٣١).

(٢) تفسير الطبري (٧/١٠٨).

(٣) أفاض الإمام ابن جرير الطبري في مناقشة دخول الباء في لفظة ﴿بِحَبْلِ﴾، وهو كلام مهم، يرجع =

ومواثيق بينهم وبين غيرهم، ﴿وَبَاءُوا﴾ وألزموا فالتزموا ﴿بِعَضْبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وهم يستحقونه بسبب أفعالهم التي ستذكر، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ قدراً وشرعاً^(١)، وكل ﴿ذَلِكَ﴾ الذل واللعن والمسكنة بسبب ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍ﴾، ﴿ذَلِكَ﴾ يَمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿ أي: إنما حملهم على ذلك كثرة معاصيهم واعتدائهم على حرمان الله تعالى فأدى ذلك بهم إلى الكفر بآيات الله ورسله.

وأهل الكتاب ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾، فإن ﴿مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ بحق الله تعالى مستقيمة على شرعه^(٢)، فهم ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يقومون الليل في صلاة وتلاوة، والمراد بآناء الليل: ما بين المغرب والعشاء^(٣). ﴿يَوْمُئِذٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾، كما قال تعالى في آخر السورة ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١١٣﴾﴾ [آية: ١١٩٩]، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ يجزي كل عامل بعمله، ويجزل العطاء بكرمه.

الموضوع الثالث: تحذير الأمة من المنافقين خصوصاً:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٣﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِن أَفْوَاهِهِمْ وَمَا

= إليه في تفسيره (١١٣-١١٦).

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (١٣٢/٢).

(٢) ينظر: تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (١٣٣-١٣٤).

(٣) كتاب تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، (٣٥/١).

تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَتَأْتُمْ أَزْوَاجَهُمْ لَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتَاوَا بَغْيِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً سَوْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ نَصَبُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ [الآيات:

[١١٦-١٢٠]

التفسير الإجمالي:

بعد أن حذر الله تعالى المسلمين من أخطاء أهل الكتاب، وحذرهما من أعدائهما من غيرها، انتقل إلى التحذير من أعدائهما من الداخل، وهم المنافقون، ومهد للدخول في هذا الموضوع ببيان أن الأموال والأولاد لن تنفع الكافرين ولن تنقدهم من عذاب الله تعالى، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾، وإنما خصّ أولادهم وأموالهم، لأن أولاد الرجل أقرب أنسابه إليه، وهو على ماله أقدر منه على مال غيره، وأمره فيه أجوز من أمره في مال غيره، فإذا لم يغن عنه ولده لصلبه، وماله الذي هو نافذ الأمر فيه، فغير ذلك من أقربائه وسائر أنسابه وأموالهم، أبعدهم من أن تغني عنه من الله شيئاً^(١). ﴿وَأَوْلَادِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ لا يفارقونها، بل ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ثم ضرب الله تعالى مثلاً لبطلان أعمالهم وعدم نفعها، فقال: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ما يبذلونه من أموال ويفعلونه من أعمال حقيقة، أو ما يقولونه من أقوال بلا أفعال، فكل تلك لا ثمره لها ولا ثواب لهم عليها، لأن كفرهم وذنوبهم قد أفسدتها فهي ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ أي: كمثال ريح فيها برّد شديد أو فيها برّد أو جليد، والصر: شدة البرد، وذلك بعُصوف من الشمال في إعصار الطلّ والأنداء، في صبيحة مُعتمة بعقب ليلة مصحية^(٢)، فأصحاب الزرع غافلون ساهون سامدون، غير متوقعين لما سيكون، فجاءت هذه

(١) تفسير الطبري (٧/١٣٣).

(٢) هذا الشرح الدقيق لمعنى الصر من الطبري في تفسيره (٧/١٣٦). قال محققه: هذا البيان عن معنى =

الريح على هذا الوصف و﴿ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ ﴾ أي أصابت زرعهم الذي حان أو ان حصاده فأهلكته. وشدة البرد تقتل كثيراً من النباتات بما يشبه الحرق، ويعبر بالحرق عنه. ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾، بل هو بكفر أصحابه وذنوبهم.

وأمثال هؤلاء الناس الذين يضيعون حرثهم بعد تعبهم ويندبون حظهم بعد تضييع فرصهم لا يمكن أن يحرصوا على مصلحة غيرهم ولا أن يجوبوا الخير لغيرهم، لذا انتقل إلى التحذير من مخاطر فئة أخرى منهم وهم المنافقون، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً ﴾ ^(١) وأولياء وأصدقاء وأهل سرٍّ ﴿ مِّن دُونِكُمْ ﴾ أي: من غيركم وليسوا على دينكم، فنهى الله تعالى المؤمنين أن يتخذوا من الكفار به أصدقاء وأصفياء، ثم عرّفهم ما هم عليه من العش والخيانة وطلب الأذى لهم، فقال: ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ أي: لا يتركون جهداً في طلب ما يورثكم الخبال والفساد ^(٢). ﴿ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾ فهم يتمنون لكم العنت والشر في دينكم ويتمنون ما يسوءكم ولا يسركم ^(٣)، كما سيأتي بعد قليل ﴿ وَإِن تَصَبَّحْتُمْ سِنَّةً يَفْرَحُوا بِهَا ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِن أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أي: قد بدت عداوتهم لكم وبغضهم إياكم من أقوالهم وأفعالهم وقلبات ألسنتهم، كما يظهر لكم، وكما يتناقلونه بينهم ^(٤)، ﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ ﴾ من البغضاء والعداوة والكرامية ﴿ أَكْبَرُ ﴾ من ما يظهره، ومن لم يقبل بمثل هذا البيان من الخالق الديان فليس لعقله رجحان، ولذا ختم الآية بقوله تعالى: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الظاهرات والبيانات الواضحات ﴿ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ما أنزلته لكم

= «الصر» قلما تصيب مثله في كتب اللغة.

(١) قال الطبري في تفسيره (١٣٨/٧) في بيان ذلك: وإنما جعل «البطانة» مثلاً لخليل الرجل، فشبّهه بما ولي بطنه من ثيابه، لخلوله منه - في اطلاعه على أسراره وما يطويه عن أبعاده وكثير من أقاربه - محلّ ما ولي جسده من ثيابه.

(٢) ينظر: تفسير الطبري (١٤٠/٧)، وما قبله، وينظر تعليق المحقق في حاشية رقم (١).

(٣) تفسير الطبري (١٤٠/٧)، وانظر (١٤٣-١٤٤).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (١٤٥-١٤٦)، وتفسير ابن كثير (١٣٧/٢).

من قرآن وما بينته من برهان. وهذا هو الخطاب الوحيد بهذه الصيغة الموجه للمؤمنين ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ولم يقل ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أو نحوه، وفي هذا من الدلالة على خطورة هذا الأمر ما فيه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولهذا أتبع ذلك بذكر أحوال غير العاقلين من المؤمنين الذين لا يدركون خطورة ما يفعلون، فقال:

﴿هَاتَتْكُمْ آيَاتُ﴾ أيها المؤمنون ﴿مُحِبُّوهُمْ﴾ وتصدقون الود لهم حقيقة ﴿وَلَا يُحِبُّوكُمْ﴾ ولا يخلصون لكم النصيح ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ كتابكم وكتب من قبلكم، وفي هذه الجملة إشارة إلى أهل الكتاب. ﴿وَإِذَا لَقَوُكُمْ قَالُوا﴾ نفاقاً وكذباً وخداعاً: ﴿ءَأَمَّنَّا﴾ وما هم بمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨-٩]، وقال: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَأَمَّنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨-٩]، وقال: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَأَمَّنُوا قَالُوا ءَأَمَّنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤]. ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي: وإذا هم خلوا فصاروا في خلاء حيث لا يراهم المؤمنون، عضوا - على ما يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم وصلاح ذات بينهم - أناملهم، وهي أطراف أصابعهم، تعيظاً مما بهم، ولو وجدوا من يحميهم لأظهروا العداوة والمحاربة^(١). ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء الذين وصفت لك صفتهم، وأخبرتكم بحقدهم وكرهيتهم للحق وأهلها، ﴿مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ الذي بكم على المؤمنين لاجتماع كلمتهم وائتلاف جماعتهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بالذي في صدور هؤلاء الأعداء، وما ينطوون عليه من الغل والحقد، وبيطنون من العداوة والبغضاء، وبها في صدور جميع خلقه من خير وشر، وسيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان أو كفر، ومن حب أو بغض^(٢).

ثم زاد بيان هذه العداوة المتأصلة في جذور هؤلاء الحاقدين فقال: ﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ﴾ أي ﴿حَسَنَةً﴾ مهما صغر شأنها وضعف أثرها ﴿سَوَّوْهُمْ﴾، فيسوّوهم ما يحصل للمؤمنين من نصر

(١) تفسير الطبري (٧/ ١٥١-١٥٢).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ١٥٤-١٥٥).

أو خير أو مال أو رزق أو أي حسنة، ﴿وَلِإِنْ تُصِيبَكُمْ﴾ أي ﴿سَيِّئَةٌ﴾ مها كانت ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾، وهذه درجة في العداوة تبعد الإنسان عن صنف الإنسان والحيوان، إلى صنف الشيطان. ثم أرشد الله تعالى عباده إلى طريق النجاة من كيد الأعداء ومكر الدخلاء وهو طريق الصبر والتقوى، فقال: ﴿وَلِإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ وينجيكم الله تعالى من شرورهم، فدعاهم إلى الصبر على طاعة الله واتباع أمره فيما أمركم به، واجتناب ما نهاكم عنه من اتخاذ بطانة لأنفسكم من هؤلاء الأعداء، وغير ذلك من سائر ما نهاكم، ﴿وَتَتَّقُوا﴾ ربكم، ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾، أي: لا يضركم كيد هؤلاء الذين وصف صفتهم^(١). ﴿اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، أي: إن الله محيط بجميع ما يعمل هؤلاء الكفار في عباده وبلاده من الفساد والصدّ عن سبيله، والعداوة لأهل دينه، وغير ذلك من معاصي الله، وسيوفهم جزاءهم ويعاقبهم على ذلك كله^(٢).

الدروس والعبر من هذا المقطع:

- يسعى بعض أهل الكتاب إلى الإيقاع بالمسلمين عبر الدسائس والمكائد، وقد بيّنت الآيات أن طاعة المسلم لأمثال هؤلاء لتحقيق جرائمهم يعتبر ردة عن الإسلام.
- دعوة المسلمين إلى الثبات على الإيمان حتى الموت.
- دعوة المسلمين إلى الوحدة والاتلاف، وتحذيرهم من الفرقة والاختلاف.
- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي مسؤولية كل مسلم، ودعت الآيات كذلك إلى تفرغ أناس لهذا العمل مما يساهم في حفظ الأمن والانسجام في المجتمع.
- التحذير من مشابهة أهل الكتاب في التفرق والاختلاف بعد ظهور الحقائق والبيّنات.
- الله تعالى غني عن عباده وعن عقابهم، ولا يريد الظلم لهم، بل يريد خيرهم وسعادتهم لأنه

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ١٥٦).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ١٥٨).

رحيم بهم.

- خيرية أمة الإسلام مشروطة بتحقيق شروط هذه الخيرية، وهي الإيمان بالله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- رعاية الله تعالى لهذه الأمة لا تعني عدم إصابتها بالأذى، لأن ذلك خلاف سنن الله تعالى في الكون، بل تصاب بالأذى، لكن النصر لها في آخر المدى.
- غضب الله تعالى على أهل الكتاب بسبب كفرهم وعصيانهم وجرائمهم واعتداءاتهم.
- وامتح الله تعالى المؤمنين الصادقين العابدين من أهل الكتاب، الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسعون في سبيل الخير.
- الأموال والأولاد لا تنفع شيئاً من دون الله تعالى.
- ما يصرفه بعض الناس من مساعدات على سبيل الدعاية والسمعة لا ينفعهم عند الله تعالى؛ لأنهم لم يبتغوا به وجهه الكريم.
- التحذير من المنافقين، وتحريم إطلاعهم وإطلاع غير المسلمين على أسرار الأمة الإسلامية.
- أهل النفاق يفرحون بمصائب المسلمين، ويتمنون لهم العنت في جميع أمورهم.
- تمتلئ قلوب أهل النفاق بالحقد والبغضاء على أهل الإسلام، وبعض ملامح هذا الحقده تظهر من زلات ألسنتهم وقلبات أقوالهم، ﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ ﴾ من البغضاء والعداوة والكراهية ﴿ أَكْبَرُ ﴾ .
- قد يغفل بعض المؤمنين عن مثل هذه التنبيهات من الله تعالى، وقد لا يتصورون وجود مثل هذه العداوة المتأصلة عند بعض أعدائهم، وهذا بسبب جهلهم من جهة، وطيبة قلوبهم من جهة أخرى.
- تبلغ العداوة ببعض الكفار إلى كراهية أي خير للمسلمين مهما قل، والفرح بأي شر يصيبهم مها ذل، والصبر هو خير علاج لمثل هذه الدرجة من الكراهية.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

يتناسب هذا المقطع مع محور السورة العام وهو التوحيد؛ لأن الأمة المؤمنة بالله تعالى هي خير الأمم، وهذه الخيرية مشروطة بالإيمان والدعوة إليه والاستقامة عليه، والتوحيد هو أساس الإيمان بالله تعالى. كما تناولت الآيات مواضيع متعلقة بهذه المناسبة، مثل التحذير من الأعداء ومن طاعتهم وموالاتهم، والتحذير من أعداء الداخل من المنافقين، والتنبيه إلى أن الحساب والجزاء يكونان يوم القيامة، عندما يرجع الناس لرب العالمين.

المقطع السادس: عندما يواجه الأعداء (معركة أحد)

مناسبة المقطع لسابقه:

بعد أن حذر الله تعالى من كيد الأعداء، وأكد استمرارهم على العداء، وبين إظهارهم وإضرارهم للبعضاء، وأمر بالصبر والتقوى، - ويشير ذلك كله إلى حتمية الصراع والمواجهة-، انتقل إلى الحديث عن معركة أحد، والاختبار الذي حصل فيها، والتميز الذي حصل بين المسلمين والمنافقين، والدروس والعبر المستفادة منها.

ينقسم هذا المقطع إلى ثلاث مواضيع، وهي كما يأتي:

الموضوع الأول: مقدمات معركة أحد (وأن الأمر كله لله):

﴿ وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَآئِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُعِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلِينَ ﴿١٣٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٣٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنَطْمِئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٣٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٣٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٣٨﴾ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الآيات: ١٢١-١٢٩].

التفسير الإجمالي:

بدأت الآيات بذكر الاستعداد لمواجهة العدو القادم إلى المدينة، فذكرت أن النبي ﷺ غدا صباحاً من أهله ومن منزله، لينزل المجاهدين في منازلهم، ويرتب أوضاعهم، فيضع أناساً في الميمنة وأناساً في الميسرة، وآخرين على الجبل كل في موقعه المناسب، وفي قوله تعالى ﴿مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ﴾ إشارة واضحة إلى أن إنزال النبي ﷺ لهؤلاء في أماكنهم كان مصحوباً بتعليقات واضحة

بعدم الانتقال منها، ولذا قال ﴿مَقْعِدَ﴾؛ كأنهم قاعدون فيها أو عليها، لا يتزحزون عنها^(١)، وختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ومناقشاتكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في صدوركم وضمايركم. وفيها إشارة إلى ما حصل أثناء ذلك من نقاش وكلام كثير خفي وجلي^(٢).

وواضح أن لهذا التعبير بالمقاعد وختم الآية بالاسمين الجليلين ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ علاقة بها حصل لاحقاً من انتقال الرماة عن مواقعهم، والنقاشات التي حصلت بينهم، والأغراض التي من أجلها تركوا مواقعهم، وحصول الهزيمة بسبب ذلك، فتكون إشارة في بداية القصة لأهم درس مستفاد منها، وسيأتي التصريح به والتأكيد عليه لاحقاً.

ولعل في التقييد بقوله تعالى ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾، إشارة إلى أن المواجهة وقرار الحرب والمعركة كان مفاجئاً. كما قد يفهم في قصة المراجعة قبل الحرب، حيث ندم الناس وقالوا استكرهنا رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: (ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل)^(٣)، والله أعلم.

ثم انتقل الحديث إلى الحرب والمؤثرات النفسية التي حصلت قبل الحرب^(٤)، فأشار إلى ما كان من تردد وهمّ بالانسحاب وشعور بالجبن من قبل طائفتين من المؤمنين، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: فينا نزلت ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾، قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل لقول الله ﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾^(٥). قال

(١) قارن بنظم الدرر للبقاعي (٤٢/٥).

(٢) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٤٢-٤٣).

(٣) ذكره ابن هشام في السيرة (٩/٤).

(٤) وأغفل ذكر جزء مهم منها؛ وهو رجوع ثلث الجيش وهم المنافقون بزعامة رأسهم عبد الله بن أبي، حيث أصر ذكرهم إلى آخر القصة، تحقيراً لشأنهم، وقلة تأثيرهم، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧]، وقد مرّ هنا قبل آيات التحذير من اتخاذهم بطانة تكشف لها الأسرار.

(٥) أخرجه البخاري في تفسير هذه الآية من كتاب التفسير، برقم (٤٥٥٨)، ومسلم في كتاب فضائل =

ابن حجر: والآية وإن كان في ظاهرها غض منهم لكن في آخرها غاية الشرف لهم^(١)، حيث تكفل الله بهما وتولاها. قال الطبري: وكان هُمَّها الذي هَمَّ به من الفشل الانصرافَ عن رسول الله ﷺ والمؤمنين حين انصرف عنهم عبد الله بن أبي ابن سلول بمن معه، جنباً منهم، من غير شك منهم في الإسلام ولا نفاق، فعصمهم الله مما هموا به من ذلك، ومضوا مع رسول الله ﷺ لوجهه الذي مضى له، وتركوا عبد الله بن أبي ابن سلول والمنافقين معه، فأثنى الله عز وجل عليهما بثبوتها على الحق، وأخبر أنه وليُّهما وناصرهما على أعدائهما من الكفار^(٢). قال محمد بن إسحاق في قوله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: المدافع عنهما ما هَمَّتْ به من فشلها^(٣). قال ابن حجر: لأن ذلك كان من وسوسة الشيطان من غير وهن منهم^(٤). وختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إذا أحسوا بالخوف أو الفشل، فإذا توكلوا على الله تعالى فإنه سيذهب عنهم ما أحسوا به.

ثم ذكَّروهم بما كان في معركة بدر فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾ على أعدائكم ﴿وَأَنْتُمْ﴾ يومئذ ﴿أَذَلَّةٌ﴾ قليلون، في غير منعة من الناس، حتى أظهركم الله على عدوكم، مع كثرة عددهم وقلة عددكم، وأنتم اليوم أكثر عدداً منكم حينئذ، فإن تصبروا لأمر الله ينصركم كما نصركم ذلك اليوم، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ربكم بطاعته واجتناب محارمه ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ربكم على ما منَّ به عليكم من النصر على أعدائكم وإظهار دينكم، ولما هداكم له من الحق الذي ضلَّ عنه مخالفوكم^(٥).

ثم ذكر ما وعدهم رسول الله ﷺ في بدر من المدد بثلاثة آلاف من الملائكة، وبخمسة آلاف

= الصحابة، باب: فضائل الأنصار رضي الله عنهم، برقم (٢٥٠٥).

(١) فتح الباري لابن حجر (٧/٣٥٧).

(٢) تفسير الطبري (٧/١٦٨).

(٣) المرجع السابق.

(٤) فتح الباري لابن حجر (٧/٣٥٧).

(٥) تفسير الطبري (٧/١٦٩).

من الملائكة عند المعركة إذا صبروا واتقوا، ولا توجد دلالة على حصول هذا المدد بأحد هذين العددين، لكن جاء في موضع آخر أن الله تعالى أمدهم بألف: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنفال: ٩]، ولا يوجد نص على وجود مثل هذا الوعد في أحد، أو حصول مدد بأي عدد، فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها في أنهم أمدوا؛ وذلك أنهم لو أمدوا لم يهزموا، ويُنال منهم ما نيل منهم^(١). ولذا فإن سياق الوعد متعلق بقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾.

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ أي: وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالها إلا بشارة لكم وتطيباً لقلوبكم وتطميناً^(٢). ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ولو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم، وبدون الحاجة إلى قتالكم^(٣)، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَنُنَزِّلَ اللَّهُ الْكُفْرَ بَدْرًا وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بَشْرَىٰ لِقَوْمٍ غَافِلِينَ﴾.

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ١٨٠-١٨١).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٥). وقدم القلب على الجار والمجرور هنا فقال: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ وأخره في [الأنفال: ١٠] فقال ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم﴾ علماً بأن الكلام في الوطنين على معركة بدر غير أن الموقف مختلف؛ ففي آل عمران ذكر معركة بدر تمهيداً لذكر موقعة أحد وما أصابهم فيها من قرح وحزن والمقام مقام مسح على القلوب وطمأنة لها، فقال ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾، فذكر أن البشري (هم) وقدم (قلوبهم) على الإمداد بالملائكة، من قبيل المواساة والتبشير والطمأنة. وأما المقام في الأنفال فهو مقام ذكر موقعة بدر وانتصارهم فيها ودور الإمداد الساوي في هذا النصر، وقد فصل في ذلك أكثر مما ذكر هنا، كما قال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩١﴾﴾ ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ ﴿إِذْ يُغِيثُكُمُ الْعَصَا أَمَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبُ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿٩٣﴾﴾ ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاصْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنفال: ٩-١٢]. فلما كان المقام مختلفاً خالف في التعبير. تراجع: محاضرة: أسرار البيان في التعبير القرآني، للدكتور فاضل السامرائي. وقارن بأسرار التكرار للكرماني (ص ٩٢-٩٣)، وكشف المعاني لابن جماعة (ص ١٣٢-١٣٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٥-١٤٦).

لَأَنْصَرَنَّهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴿٤﴾ [سورة محمد، آية: ٤]، وهو سبحانه العزيز الغالب، الحكيم فيما شرع لخلقهم، وإنما شرع لكم القتال والجهاد لأسباب هي:

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ويهلكهم، ﴿ أَوْ يَكْتُمَهُمْ ﴾ ويذلهم ويجزئهم^(١)، ﴿ فَيَنْقَلِبُوا ﴾ ويرجعوا ﴿ خَائِبِينَ ﴾ خاسرين فاشلين. ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم في الدنيا والآخرة لله وحده لا شريك له، فقال: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ أي: بل الأمر كله إلى الله تعالى^(٢)، ونزلت هذه الآية لسبيين؛ الأول: أن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الآخرة من الفجر يقول: (اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا)، بعد ما يقول: (سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد)، فأنزل الله ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ إلى قوله ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾^(٣). والثاني: أن رسول الله ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد وشج في رأسه فجعل يسלט الدم عنه ويقول: (كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله)، فأنزل الله عز وجل ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾^(٤). وعلى كل فهي تدل على ما سبق ذكره في تفسيرها.

﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ وهم القسم الثالث، بأن يهديهم إلى الإيمان، ويغفر لهم ما كان، ﴿ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة، ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ مستحقون للعذاب. وهذا هو القسم الرابع والأخير المذكور هنا.

وختم هذا الموضوع بقوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ يتصرف في ملكه كيف يشاء ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ برحمته ﴿ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ بعدله، ﴿ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾،

(١) ينظر: لسان العرب، مادة ك ب ت.

(٢) تفسير ابن كثير (١٤٦/٢).

(٣) أخرجه البخاري في تفسير الآية في كتاب التفسير برقم (٤٥٥٩).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب: غزوة أحد، برقم (١٧٩١).

سبقت رحمته غضبه كما كتب سبحانه فوق عرشه^(١). وهذه الآية تأكيد لما تكرر من بداية هذا الموضوع، حيث جاء فيه: ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّهَا ﴾، ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾، ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ ﴾، ﴿ يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ ﴾، ﴿ يُنَادِكُمْ رَبُّكُمْ ﴾، ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾، ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾، فناسب ختمه بقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾.

الموضوع الثاني: أهمية الطاعة، ومواعظ وهدايات في الطاعات:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ * وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرَ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ أَن يَغْفِرَ لِمَن يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ يُغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُ مَن يُتَّقَىٰ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ [الآيات: ١٣٠-١٣٨]

مناسبة الموضوع لسابقه:

لما مرّ في المقطع السابق أن الأمر كله لله تعالى وحده، وليس لأحد من خلقه شيء في ذلك، ولما كان العصيان هو السبب الأساس في حصول الهزيمة في معركة أحد، ذكر هنا مواعظ وهدايات للمتقين المصدقين، ليستحقوا نصر الله تعالى.

التفسير الإجمالي:

بدأت هذه المواعظ والهدايات بالتحذير من أكل الربا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾، برقم (٧٤٢٢).

الرِّبَا أضعفًا مُضْعَفَةً وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ، ﴿ وَأَتَّقُوا النَّارَ ﴾ لأن أكل الربا يؤدي إلى استحقاق النار، كما قال تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [البقرة، آية: ٢٧٥]. والنار ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ولم تعد للمؤمنين، لكن كل من عصى وطغى ولم يترك الربا فقد استحق النار والعنا، والعياذ بالله، كما قال تعالى في آكلي الربا: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الْمَصْدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [البقرة، آية: ٢٧٦].

وذكر الربا هنا له مناسبة عظيمة دقيقة، لم أقف على من أشار إليها؛ وهي أنه لما كان الكلام في معركة أحد، وسبق ذكر أن النصر من عند الله تعالى، وأن ما سوى ذلك فهو بشرى وتطمين فقط، وأن ملك السموات والأرض لله تعالى، ناسب التحذير من الربا الذي يؤذن بحرب من الله ورسوله؛ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ - [البقرة: ٢٧٨-٢٧٩]، وبالتالي فهو حكم بالهزيمة والخسارة في الدنيا والآخرة، فناسب التحذير منه هنا.

وأما ذكر التقوى هنا فلما سبق من الأمر بالتقوى للخلاص من مكائد الأعداء، ﴿ وَإِن تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ ، ولنزول المدد من الله تعالى ﴿ بَلَىٰ إِن تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ ﴾ .

وبعد هذا النهي والتحذير من النار، انتقلت الآيات إلى الأمر والحث على الخيرات، فأرشدت إلى طاعة رب السموات ورسول الخيرات لاستحقاق الرحمات؛ ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ في الدنيا والآخرة.

والأمر بطاعة الله وطاعة الرسول مناسب لأحداث معركة أحد، وما وقع فيها من مخالفة لأمر الرسول ﷺ وتسببها في الهزيمة، ومناسب أيضاً لما حصل من عدم استجابة لأمر الرسول أثناء الهزيمة كما سيأتي ﴿ إِذْ تَضَعُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ ﴾ ، ومناسب لما حصل من استجابة لأمر الرسول ﷺ بعد المعركة مما تسبب في انسحاب

الكفار وردّهم خائبين كما سيأتي ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ﴾ .

ثم حثت على المسارعة إلى نيل المغفرة، والفوز بالجنة التي أعدت للمتقين، والنجاة من النار التي أعدت للكافرين، ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٣٣) ، ثم شرعت الآيات في ذكر صفات أهل هذه الجنة ترغيباً في العمل بعملهم لنيل مكافأتهم؛ ﴿ الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي ﴾ جميع أحوالهم من ﴿ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾، والمعنى أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مرضيه، والإحسان إلى خلقه (٢)، ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ إذا جهل عليهم أحد (٣)، أي: إذا غضبوا سيطروا على غضبهم وكظموا (٤) غيظهم ولم يظهروه، والأحاديث في التحذير من الغضب والحث على كظم الغيظ كثيرة، أشهرها قول النبي ﷺ: (ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) (٥). ثم ذكرت الآيات مرتبة أعلى في صفات هؤلاء؛ ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ فهم بعد كظمهم الغيظ يعفون عمن أساء إليهم فلا يبقى في أنفسهم شيء من الغل عليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى، ٣٧]، وجاء في الصحيح (وما زاد الله عبداً

(١) قال ابن كثير في تفسيره (١٤٩/٢-١٥٠): قيل: إن وصف سعة العرض تنبيه على اتساع طولها، أي: فكيف بطولها؟، كما قال في صفة فرش الجنة: ﴿ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الرحمن: ٥٤] أي: فما ظنك بالظواهر؟، وقيل: بل عرضها كطولها؛ لأنها قبة تحت العرش، والشيء المُقَبَّب والمستدير عَرْضُهُ كطولُه. وقد دلّ على ذلك ما ثبت في صحيح البخاري (برقم: ٧٤٢٣): (إذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة).

(٢) تفسير ابن كثير (١٥٢/٢).

(٣) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٥٤/٢).

(٤) أصل الكظم: الإمساك على غيظ وغم، والاستخدام اللغوي لمشتقات (كظم) لطيف جداً، وهو من رباط القرية الممتلئة، تربط بعد أن تملأ حتى لا يتسرب منها شيء، ينظر: تفسير الطبري (٧/٢١٤)، ولسان العرب، مادة (ك ظ م).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: التحذير من الغضب، برقم (٦١١٤)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: فضل من يملك نفسه عند الغضب، برقم (٢٦٠٩).

بعضو إلا عزاً^(١)، ثم ذكرت الآيات أن هذا هو مقام الإحسان ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢)، ويحتمل أن تكون الآيات ذكرت مقاماً أعلى وأرفع من سابقه، أي: ويحسنون إلى من أساء إليهم، والله أعلم.

ولم تغفل الآيات الطبيعة البشرية فبعد ذكر النهي والتحذير، ثم الأمر والحث، انتقلت الآيات إلى الحديث عن حال هؤلاء الأخيار عند وقوعهم في المعصية وارتكابهم للخطأ؛ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ لَا يَأْتِيهِمْ إِلَّا اللَّهُ وَكَمْ يُصِرُّوْنَ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٣) أي: أنهم إذا أذنبوا لم يصروا على الذنب بل سارعوا إلى الاستغفار وبادروا إلى التوب، وهم يعلمون خطورة الذنب وسوء عاقبته، وأهمية التوبة وحسن عاقبتها^(٤)، ويعلمون أن الله يغفر الذنوب، فغفر الله لهم ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ لَا يَأْتِيهِمْ إِلَّا اللَّهُ﴾، كما جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: (إن عبداً أصاب ذنباً فقال: رب أذنبت فاغفر لي، فقال ربه: {أَعْلَمَ عَبْدِي أَنْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي} ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنباً، فقال: رب أذنبت آخر فاغفره، فقال: {أَعْلَمَ عَبْدِي أَنْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي}، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنباً، فقال: رب أذنبت آخر فاغفره لي، فقال: {أَعْلَمَ عَبْدِي أَنْ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي} ثلاثاً {فليعمل ما شاء})^(٥). ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٥) أنهم قد أذنبوا، وأن

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: استحباب العفو والتواضع، برقم (٢٥٨٨).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٢١٤)، وابن كثير (٢/ ١٥٦)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ٢٢٢).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣/ ٢٢٤).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾، برقم (٧٥٠٧)، وفيه ألفاظ متقاربة. ومسلم في كتاب التوبة، باب: قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت، برقم (٢٧٥٨).

(٥) وأحسب أن جملة {وهم يعلمون} يمكن أن تتعلق أيضاً بأحد الفعلين: {يصروا} أو {فعلوا}، ويكون المعنى على هذا أوسع، والله أعلم.

الذي أتوا معصية الله تعالى^(١).

وهذه الهدايات كلها تناسب ما حصل في معركة أحد؛ فإن ذكر الأمر بالمسارعة إلى الآخرة، والأمر بالإنفاق في السراء والضراء، والأمر بالاستغفار من الذنوب، إن ذكر هذا كله يناسب ما حصل في معركة أحد، حيث كانت المعصية وحب الدنيا السبب في الهزيمة كما سيأتي ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ تَحِبُّونَ ۗ مِّنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿ذَكُرُوا اللَّهَ﴾ دليل على أن المعصية تنتج عن الغفلة،

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُبْصِرُوا﴾ دليل على عظم الإصرار على الذنب،

وفي قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ دليل على أن المؤاخذة هي على الذنب العمدة^(٢)، وأنه لا

مؤاخذة على الذنب بالخطأ، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ دليل على أن عدم المؤاخذة لمن وقع في الذنب عن جهل من غير تقصير. والله أعلم.

ثم ذكر تعالى قبوله لاستغفارهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم﴾، وذكر أنه زادهم بعد المغفرة بالجنة؛ فلهم: ﴿وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾، وذلك هو جزاؤهم على التقوى وحسن العمل ﴿وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾.

ثم ختم الموضوع بالتأكيد على الاعتبار من أحوال الأمم الماضية، وضرب المثل بعاقبة العصاة والمكذبين؛ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ في الأمم التي ﴿مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ وأحوال معهودة من

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/٢٢٦).

(٢) الأصل في الفعل أنه عام لما كان بقصد أو بغير قصد. ينظر: المفردات (ص ٣٨٢). لكن السياق هنا يشير إلى الفعل العمدة، والله أعلم.

تكذيب أعدائهم ومحاربتهم إياهم ﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ وكيف عاقبة المتقين. وإن ﴿ هَذَا ﴾ القرآن ﴿ بَيَانٌ ﴾ لحقائق الأمور ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ كي يتعظ ويعتبر أولوا الألباب، والقرآن كذلك ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يهدي به الله المتقين إلى أحسن الأحوال والأخلاق.

وهاتان الآيتان يمكن أن ترتبطا بهذا الموضوع والمواعظ والهدايات، ويمكن أن ترتبطا بالموضوع الذي بعده والمتعلق بمعركة أحد، فهما كالتمهيد للعودة إلى الحديث عن معركة أحد، وهما توضحان المناسبة بين الموضوعين.

الموضوع الثالث: تعزية المسلمين والنهي عن الهوان والخوف من الموت:

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَجْءٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَجْءٌ مِّثْلُهُ وَذَلِكَ الْآيَاتُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣٧﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٣٨﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٣٩﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٠﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۗ أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۗ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤١﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِنَبَأًا مُّوجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصّٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٤﴾ فَكَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً مِنْ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

[الآيات: ١٣٩-١٤٨]

التفسير الإجمالي:

بدأت الآيات بتعزية المسلمين على ما أصابهم يوم أحد، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ ولا تضعفوا بسبب ما نالكم من الأذى، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾^(١) الحزن الذي يؤدي إلى اليأس والإحباط^(٢). وفي الآية تحذير للمسلمين من أسباب الهزيمة. ثم بشرهم بالنصر والظفر، فقال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ المنتصرون على أعدائكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مصدقين بما يجبركم ويعدكم به نبيكم محمد ﷺ^(٣).

وجملة ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يمكن أن تتعلق بالنهي في أول الآية ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾، أو متعلق بالبشارة في آخرها ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾^(٤).

وتواصل الآيات تسليتها وتعزيتها للمسلمين؛ ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ﴾ ويصيبكم ﴿فَرَجٌ﴾ ألم وجراح وقتل ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَجٌ مِّثْلُهُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ تَأْمُونُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء، ١٠٤]. وهي سنة الله تعالى في خلقه، ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾، ولولا هذه المداولة لما عادت الدنيا دار اختبار، إذ لو انتصر أهل الحق دائماً كيفما كان لما بقي للباطل سلطان، ولأمن

(١) وأسلوب القرآن الكريم في البشارة والتطمين في أمور الدنيا والدين يشتمل على الأمن من الخوف ومن الحزن؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَشِيرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران، ١٧٠]، ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس، ٦٢]، ﴿فَإِنَّ أَلَيْسَ لَنَا خَافِيًا وَلَا يَحْزَنِي﴾ [القصص، ٧]، ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر، ٦١]، ﴿تَنْزِيلٌ عَلَيْهِمُ الْمَلَكُوتُ كَأَلَّا يَخَافُوا وَلَا يَحْزَنُوا﴾ [فصلت، ٣٠]، ﴿يَنْعَبِدُونَ إِلَّا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف، ٦٨].

(٢) وهو منهي عنه شرعاً، بخلاف الحزن الذي يدفع إلى اللجوء إلى الله تعالى والاجتهاد في العمل؛ كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحَزَنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف، ٨٦].

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٢٣٤).

(٤) ينظر: تفسير البيضاوي (٢/ ٩٥).

الإنس والجان. ولكن الله تعالى جعل الدنيا دار امتحان؛ ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ العلم الذي يترتب عليه الجزاء.

والظاهر أن الجملة متعلقة بأول الآية، كأنه جواب لسؤال: فلماذا مسنا القرع؟، فقال: ومسكم القرع ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(١). ﴿وَيَتَّخِذَ﴾ ويصطنفي ويختار ﴿مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ يكرمهم بالشهادة وحسن ثوابها. ثم ختمت الآية بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، حتى لا يتوهم أن انتصار الكافرين في بعض المعارك دليل على حب الله تعالى لهم، بل هو كما قال تعالى في أول الآية: ﴿وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ جميعهم مسلمهم وكافرهم. وفيه إشارة إلى أن ظلم الكافرين هو سبب قيام المسلمين بالجهاد، والله أعلم.

وتواصل الآيات الحديث عن حِكْمِ الأمر بالقتال؛ ﴿وَلِيَمَّحَصَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، والتمحيص هو الابتلاء والاختبار^(٢)، أي: يختبرهم ليمتازوا من غيرهم من الكفار والمنافقين وأهل الأهواء والأغراض^(٣). أو المراد بالتمحيص التخليص؛ أي: ليخلصهم من ذنوبهم بما يقع عليهم من قتل وجرح وذهاب مال^(٤). ﴿وَيَمَّحَقَ الْكٰفِرِينَ﴾ أي: يستأصلهم إذا أدال عليهم، يعني: أنه يدل على المؤمنين لتخليصهم من ذنوبهم، ويدل على الكافرين لإهلاكهم بذنوبهم^(٥).

- (١) اختار الإمام الطبري (٢٤٢/٧) أن يكون المعنى: (وليعلم الله الذين آمنوا منكم، أيها القوم، من الذين نافقوا منكم، نداول بين الناس. فاستغنى بقوله: {وليعلم الله الذين آمنوا منكم}، عن ذكر قوله: (من الذين نافقوا)، لدلالة الكلام عليه).
- (٢) زاد المسير لابن الجوزي (٤٦٧/١).
- (٣) وينظر: المحرر الوجيز لابن عطية (٥١٥/١)، وتفسير السمرقندي (٢٧٨/١).
- (٤) تفسير الواحدي (٢٣٤/١)، وزاد المسير لابن الجوزي (٤٦٧/١).
- (٥) ينظر: تفسير الواحدي (٢٣٤/١).
- (٦) في قوله تعالى ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِّثْلُهُ وَذٰلِكَ الْآيٰتُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾^(١٤) وليمحص الله الذين آمنوا=

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ يا من انهزم يوم أحد ﴿ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ كما دخل الذين قتلوا وصبروا على ألم الجراح والقتل من غير أن تسلكوا طريقهم وتصبروا صبرهم، كلا، حتى ﴿ يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾، علم شهادة، حتى يقع عليه الجزاء^(١).

﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ ﴾ شهادة في سبيل الله، أي: كنت تمنون لقاء أسباب الموت^(٢)، والمقصود الثبات في القتال ولو أدى إلى القتل^(٣)، ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ ﴾ وتلاقوه مشاهدة، ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴾، يعني: قد رأيتموه بمرأى منكم ومنظر، أي: بقرب منكم^(٤)، أو هو تكرر لتأكيد الرؤية، أي: فقد رأيتموه رؤية حقيقية. وقال بعضهم المراد: وأنتم تنظرون إلى محمد ﷺ، فلم انهزمت^(٥)، وسيأتي في السياق: ﴿ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ

= وَيَمْحَوِ الْكُفْرِيْنَ ﴾ [آل عمران، الآيتان: ١٤٠-١٤١]، لفتات بلاغية، فاللام في (ليعلم) هي لام التعليل ثم قال تعالى (يتخذ) عطف بدون لام ثم قال (ليمحص) عطف وذكر اللام ثم قال (يمحق) عطف بدون ذكر اللام، لماذا؟ قلنا أن الذكر للتوكيد وما حذف أقل توكيداً وإذا استعرضنا الأفعال في الآية فهل كلها بدرجة واحدة من التوكيد والحذف؟ (وليعلم) الله تعالى يريد ذلك من كل شخص علماً يتحقق منه الجزاء لكل شخص. إذن هو أمر عام لجميع الذين آمنوا ومن غير الذين آمنوا فهو أمر ثابت مطلق لكل فرد من الأفراد. (يتخذ) لا يتخذ كل المؤمنين شهداء فهذا الفعل ليس بدرجة اتساع الفعل الأول وهو ليس متعلقاً بكل فرد. (ليمحص) متعلق بكل فرد وهذا يتعلق به الجزاء. (يمحق) لم يمحق كل الكافرين محقاً تاماً فالكفر والإيمان موجودان. إذن عندما يذكر اللام على وجه العموم والمقصود يكون كل فرد من الأفراد والحذف عكس ذلك. تراجع: محاضرة: أسرار البيان في التعبير القرآني، ألقاها الدكتور فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢م.

(١) تفسير القرطبي (٤/٢٢٠).

(٢) الطبري (٧/٢٤٨).

(٣) قال القرطبي (٤/٢٢١): (وتمني الموت يرجع من المسلمين إلى تمني الشهادة المبنية على الثبات والصبر على الجهاد لا إلى قتل الكفار لهم؛ لأنه معصية وكفر، ولا يجوز إرادة المعصية، وعلى هذا يحمل سؤال المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة فيسألون الصبر على الجهاد وإن أدى إلى القتل).

(٤) تفسير الطبري (٧/٢٤٨).

(٥) تفسير القرطبي (٤/٢٢١).

أَكْبَرُ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ ﴿١﴾. وقد جاء في الحديث الصحيح التوجيه بعدم تمني لقاء العدو؛ قال رسول الله ﷺ: (لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)^(١).

وتواصل الآيات عتاب المنهزمين من المسلمين، والذين تخاذلوا عندما سمعوا إشاعة قتل النبي ﷺ وموته: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ وقد مات من قبله من الرسل، وسيلحق به عليهم السلام، ﴿أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ كما مات أو قتل من قبله ﴿أَنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ عن دعوته ونصرة دينه، ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنَ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا﴾ بل الخسران له والضرر عليه، ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾، أي: وسيثيب الله من شكره على توفيقه وهدايته إياه لدينه، بثبوته على ما جاء به محمد ﷺ إن هو مات أو قتل، واستقامته على منهجه، وتمسكه بدينه وملته بعده^(٢). أو الشاكرين: الذين صبروا وجاهدوا واستشهدوا^(٣).

وهذه الآية من تتمة العتاب مع المنهزمين أي لم يكن لهم الانهزام وإن قتل محمد ﷺ، فالنبوة لا تدرأ الموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء^(٤).

وقد استدل أبو بكر رضي الله عنه بهذه الآية على موت النبي ﷺ حقيقة عندما اختلف الناس في ذلك، فقام فيهم خطيباً فقال: (أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب: ... تأخير القتال حتى تزول الشمس، برقم (٢٩٦٦)،

ومسلم في نفس الكتاب، باب: كراهية تمني لقاء العدو والأمر بالصبر، برقم (١٧٤٢).

(٢) تفسير الطبري (٧/٢٥٢).

(٣) تفسير القرطبي (٤/٢٢٦).

(٤) تفسير القرطبي (٤/٢٢٢).

الرُّسُلُ﴾ إلى قوله ﴿الشُّكْرِينَ﴾^(١)، وفي هذا دليل على ثبات أبي بكر ﷺ وشجاعته^(٢). ثم أخبر تعالى أن الأجل بيده سبحانه وتعالى تثبيتاً لعباده؛ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَذَبًا مُوَجَّلًا﴾، ولن تموت نفس حتى تستكمل أجلها. والآية تشير إلى عدم التأثر بإشاعة الموت؛ لأنه إن وقع فإنما وقع في أجله الذي كتبه الله تعالى ويأذنه عز وجل، فيجب عدم التخاذل عند وقوعه. وفي الآية تحريض وتشجيع للجبناء على القتال، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه^(٣)، ووعد للرسول ﷺ بالحفظ وتأخير الأجل^(٤).

ولما كان التخاذل والنكوص عند وقوع الهزيمة أو الإصابة بالقرح أو مقتل النبي ﷺ مظنة أن القتال لم يكن في سبيل الله تعالى بل كان في سبيل الدنيا، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ ما كتبنا له فيها كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَدْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨]، وكما قال تعالى: ﴿فَمِنَ النَّكَاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]. وفيه تعريض لمن شغلتهم الغنائم يوم أحد^(٥).

(١) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، برقم (٤٤٥٤). قال راوي الحديث بعده: (والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها، فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها علمت أن النبي ﷺ قد مات).

(٢) قال القرطبي (٢٢٢/٤): (هذه الآية أدل دليل على شجاعة الصديق وجراسته؛ فإن الشجاعة والجرأة حدّهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي ﷺ، فظهرت عنده شجاعته وعلمه، قال الناس: لم يمّت رسول الله ﷺ منهم عمر وخرس عثمان واستخفى علي واضطرب الأمر، فكشفه الصديق ﷺ بهذه الآية).

(٣) ابن كثير (١٦٦/٢).

(٤) البيضاوي (٩٩/٢).

(٥) البيضاوي (٩٩/٢).

﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُوْتِهِ مِنْهَا ﴾ ولا نحرمه خير الدنيا كما قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [البقرة: ٢٠٢]، ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ الذين شكروا نعمة الله فلم يشغلهم شيء عن الجهاد^(١)، أي: نؤتيهم الثواب الأبدي جزاء لهم على ترك الانهماك، وقيل: ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ من الرزق في الدنيا، لثلاثتهم أن الشاكر يجرم ما قسم له مما يناله الكافر^(٢).

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ ﴾ أي: وكم من نبي قاتل معه ربايون علماء أتقياء عابدون لربهم، أو قاتل معه جماعات، والربى منسوب إلى الربة وهي الجماعة للمبالغة^(٣)، وقرئت ﴿ قَاتَلَ ﴾^(٤)، وقراءة ﴿ قَاتَلَ ﴾ أعم وأمدح^(٥). ﴿ فَمَا وَهَنُوا ﴾ ولا ضعفوا ولا

(١) البيضاوي (٢/١٠٠)، وينظر ما ذكرته في تفسير قوله تعالى ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ في الآية السابقة.

(٢) القرطبي (٤/٢٢٧).

(٣) البيضاوي (٢/١٠٠)، وينظر: القرطبي (٤/٢٣٠).

(٤) وهذه القراءة تحتمل معنيين: أحدهما: أن يكون {قتل} واقعاً على النبي وحده، وحينئذ يكون تمام الكلام عند قوله {قتل}، ويكون في الكلام إضمار أي: {ومعه ربيون كثير}. والثاني: أن يكون القتلى نال النبي ومن معه من الربيين، ويكون وجه الكلام: قتل بعض من كان معه، تقول العرب: قتلنا بني تميم وبني سليم، وإنما قتلوا بعضهم، ويكون قوله {فما وهنوا} راجعاً إلى من بقي منهم. وهو الذي اختاره القرطبي فقال: وهذا القول أشبه بنزول الآية وأنسب، فإن النبي ﷺ لم يقتل وقتل معه جماعة من أصحابه. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤/٢٢٩).

(٥) اختار أبو عبيد قراءة {قاتل}، وقال: إن الله إذا حمد من قاتل كان من قتل داخلياً فيه، وإذا حمد من قتل لم يدخل فيه غيرهم، فقاتل أعم وأمدح. نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (٤/٢٣٠). بينما اختار الطبري قراءة {قتل}، قال: لأن الله عز وجل إنما عاتب بهذه الآية والآيات التي قبلها الذين انهزموا يوم أحد، وتركوا القتال، أو سمعوا الصائح يصيح: (إن محمداً قد قتل). فعذبه الله عز وجل على فرارهم وتركهم القتال، فقال: أفائن مات محمد أو قتل، أيها المؤمنون، ارتددتم عن دينكم وانقلبتم على أعقابكم؟. الطبري (٧/٢٦٤).

فتروا ﴿لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ من قرح وقتل لبعضهم أو لنيهم^(١)، ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ عن العدو، أو في الدين^(٢)، أو عن الجهاد، ﴿وَمَا اسْتَكَاثُوا﴾ ولا خضعوا ولا ذلوا، بل صبروا وصابروا ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ على الجهاد في سبيله.

ومعنى الآية: تشجيع المؤمنين والأمر بالاعتداء بمن تقدم من خيار أتباع الأنبياء، أي: كثير من الأنبياء قتل معه ربيون كثير، أو كثير من الأنبياء قتلوا، فيما ارتد أممهم^(٣).

ثم أخبر تعالى عنهم بعد أن قتل بعضهم أو قتل نبيهم بأنهم صبروا ولم يفروا، واستغفروا ليكون موتهم على التوبة من الذنوب إن رزقوا الشهادة^(٤)؛ ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾، ثم سألوا الثبات في القتال ﴿وَوَقَّيْتِ أَقْدَامَنَا﴾^(٥) وسألوا النصر على الأعداء ﴿وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٦)، أي: وما كان قولهم مع ثباتهم وقوتهم في الدين وكونهم ربابيين إلا هذا القول، وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم والاستغفار عنها، ثم طلب الثبوت في مواطن الحرب والنصر على العدو ليكون الدعاء والتوجه عن خضوع وطهارة فيكون أقرب إلى الإجابة^(٧).

﴿فَقَاتِلْهُمْ اللَّهُ تَوَّابٌ أَلَدُنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابٍ الْآخِرَةِ﴾، أي: فأجاب الله دعاءهم، وأعطاهم النصر والظفر والغنيمة في الدنيا والمغفرة في الآخرة، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهكذا يفعل

(١) ينظر: البيضاوي (١٠١/٢).

(٢) البيضاوي (١٠١/٢).

(٣) القرطبي (٢٢٩/٤).

(٤) القرطبي (٢٣١/٤).

(٥) قال القرطبي (٢٣١/٤): خصوا الأقدام بالثبات دون غيرها من الجوارح لأن الاعتماد عليها.

(٦) يرى القرطبي الالتزام بالدعاء المأثور، فقد قال بعد هذه الآية: (فعل) الإنسان أن يستعمل ما في كتاب الله وصحيح السنة من الدعاء ويدع ما سواه، ولا يقول أختار كذا، فإن الله تعالى قد اختار لنبه وأوليائه وعلمهم كيف يدعون). الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٣١/٤).

(٧) البيضاوي (١٠١/٢).

الله مع عباده المخلصين التائبين الصادقين الناصرين لدينه الثابتين عند لقاء عدوه بوعده الحق وقوله الصدق. وفي الآية توجيه لأصحاب النبي ﷺ، أي: فهلا فعلتم وقلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد ﷺ^(١).

الدروس والعبر المستفادة من هذا المقطع بجميع مواضعه :

- ضرورة الاستعداد للقاء العدو، فالإسلام وإن كان دين سلام، إلا أنه أيضاً دين قوة وحكمة، وأعداء الإسلام لا يريدون له السلام، لذا وجب الاستعداد لهم، خشية أن يباغتوا المسلمين في أراضيهم ويصيبوهم في أهلهم.
- الهزيمة النفسية خطيرة جداً، وتؤدي في الغالب إلى الهزيمة في باقي الجوانب، لذا يجب التوكل على الله تعالى، واستلهم القدوة في مواضع القوة، لردّ وساوس الضعف والخوف.
- النصر من عند الله تعالى وحده، وما غير ذلك فإنها هي أسباب وضعها الله تعالى. ورغم ذلك فإن للنصر شروطاً ومتطلبات يجب الأخذ بها لينزل نصر الله تعالى، ومن أهمها الاستعداد لردّ العدوان، وعدم الخوف والهوان، وعدم التفرق والخذلان، والتوكل على الملك الديان.
- شرع القتال في الإسلام لحكم عظيمة جليلة ذكرت في عدد من المواضع في هذه السورة الكريمة.
- طاعة الله تعالى هي السبيل إلى نزول رحمته وتوفيقه، وفي ذكر الطاعة أثناء آيات القتال إشارة واضحة إلى ارتباط نزول النصر بلزوم الطاعة، لأن المعصية وحب الدنيا هما سبب الهزيمة.
- المعصية تنتج عن الغفلة.
- الإصرار على الذنب كبيرة من الكبائر.
- المؤاخذة تكون على الذنوب التي يرتكبها العبد متعمداً وهو عالم بحرمتها.

(١) القرطبي (٤/ ٢٣١).

- الإسلام دين واقعي، يفترض وقوع الذنب من الإنسان، ويرسم له الطريق للخلاص من الذنوب ومن آثارها.
- العاقل من اتعظ بغيره، واستفاد من تجارب من سبقه.
- طبيعة الاختبار والامتحان في الدنيا تقتضي استمرار الصراع بين الخير والشر، وتداول الأيام بينهما، وحصول الأذى لكلا الفريقين، وإنما العبرة بالثبات والاستقامة وخواتيم الأمور.
- حصول الصراع والأذى له حكم عديدة حتى يمتاز الخير عن الشر، والمؤمن عن المنافق، والصادق عن الكاذب، وحتى يحصل الصادقون على درجات الشهداء والمقرّبين، ويتطهر المجتمع من الأعداء والكاذبين، ويتنصر أهل الحق ويكسروا الكافرين أعداء الدين.
- حقّت الجنة بالمكارة، ولا يمكن الوصول إليها دون مشاق وصعوبات وتضحيات.
- الرسل عليهم السلام بشر، وهم في بشريتهم كسائر البشر، يسري عليهم ما يسري على غيرهم من الأذى والمرض والموت. فالنبوة لا تدرأ الموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء^(١).
- لكل نفس أجل في هذه الدنيا، فالإقدام والشجاعة لا تقدم الموت، كما أن الجبن والتخاذل والهرب لا يؤخره.
- المؤمن الصادق لا يتعلق بالأفراد، حتى لو كانوا رسلاً من عند الله تعالى؛ لأن علاقته مع الله وحده لا شريك له.
- الرجوع إلى الله تعالى في الأزمات واللجوء إليه في الملمات هو السبيل إلى نزول الرحمات، وحصول الخيرات، والنجاة في الحياة وبعد الممات.

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٢).

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

هذا المقطع شديد الصلة بمحور السورة الكريمة، لأن المعركة والمواجهة هي أشد امتحان للإيمان، وفيها تظهر حقيقة كل إنسان، وهل هو متعلق بالدنيا أم بالآخرة. كما أن ساحة القتال تستلزم صدق الطاعة والتوكل على الله تعالى، والاستغفار والاستبشار، والصبر على ما يحصل من أذى، والرضا بالقضاء والتقوى. كما أن من مقتضيات توحيد الله تعالى التعلق به وحده، وعدم التعلق بالأعداد ولا بالأفراد ولا بأحد من الخلق، ولو كان رسولاً من عند الله تعالى.

المقطع السادس: دروس مستفادة من الهزيمة

بعد الهزيمة في معركة أحد، يأتي هذا المقطع ليقرر حقائق وتوجيهات مختلفة، رأيت تقسيمها على شكل دروس مستفادة من نتيجة هذه المعركة، وهي أربعة دروس، كما يأتي:

الدرس الأول: التحذير من طاعة الأعداء، ومن التنازع والتخذيل:

قال الله تعالى: ﴿يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أُرْسِلْتُمْ بِهِ تَحِجُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تَضَعُونَ عَلَىٰ آخُدٍ وَالرَّسُولَ يَدْعُوكُمْ فِي أَحْرَابِكُمْ فَاتَّبَعَكُمُ عَمَّا بَعَثَ لِكَيْلًا تَحَزِنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَتَّيِبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكُمْ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الآيات: ١٤٩-١٥٨].

التفسير الإجمالي:

بدأت الآيات بتحذير المسلمين من طاعة الكافرين، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْفُرُوا يَرُدُّوكُمْ﴾ إلى الكفر^(١) ﴿عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَسِرِينَ﴾ للدنيا والآخرة. والمراد طاعتهم في ما يخالف أوامر الله تعالى^(٢).

ثم أمرت الآيات بطاعة الله تعالى وموالاته، ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَانِكُمْ﴾ وهو خير لكم من أعدائكم، ينصر عباده على أعدائه ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾^(٣)، أي: فاستغنوا عن موالاته الكفار فأنا ناصركم فلا تستنصروهم^(٤).

ثم بشرهم الله تعالى بالحفظ وبالنصر بقوله: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ والخوف حتى لا يرجعوا إليكم^(٥)، والنصر بالرعب مما اختص الله به نبيه ﷺ؛ (نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مسيرة شهر)^(٦). وإلقاء الرعب فيهم كان ﴿بِمَا أَشْرَكُوا﴾ أي: بسبب إشراكهم ﴿يَاللَّهُ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ ولا حجة ولا برهاناً، وإشراكهم كان عبادتهم للأصنام، وتأليههم للأنعام، ﴿وَمَاؤُنْهُمُ﴾ ومرجعهم ومثوهم ﴿النَّارُ وَيُنْسُ مَثْوَى﴾ وماوى ومقام ﴿الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بإشراكهم بربهم.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ﴾ يا أصحاب محمد ﷺ ﴿وَعَدَهُ﴾ الذي وعدكم إياه في

(١) البيضاوي (١٠١/٢).

(٢) ينظر: كتاب تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، (١١٨/١).

(٣) وفي ختام الآية هذه العبارة إشارة إلى حقيقة طلب النصرة عند الحاجة.

(٤) تفسير الواحدي (٢٣٦/١).

(٥) تفسير الواحدي (٢٣٦/١).

(٦) أخرجه البخاري في التيمم، باب: وقول الله تعالى ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾،

برقم (٣٣٥)، ومسلم في أول كتاب المساجد والصلاة، برقم (٥٢١).

أُخِذَ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿إِذْ تَحْسَبُوهُمْ﴾ وحين تقتلونهم^(١) ﴿بِأَذْنِهِ﴾، وكان وعدهم رسول الله ﷺ النصر يومئذ إن انتهوا إلى أمره^(٢). ﴿حَقَّ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ وجبتكم وضعفتكم ﴿وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ واختلقتكم في أمر الله ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ وخالفتكم نبيكم، فتركتكم أمره وما عهد إليكم، وإنما يعني بذلك الرماة الذين كان أمرهم ﷺ بلزوم مركزهم. ﴿بَعْدَ مَا أَرْبَبْتُمْ﴾ الله ﴿مَا تُحِبُّونَ﴾ من النصر والظفر بالمشركين، وذلك هو الهزيمة التي كانوا هزموهم عن نسائهم وأموالهم قبل ترك الرماة مقاعدهم^(٣).

﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ وهم الرماة الذين تركوا أماكنهم، ولحقوا بالمسلمين من أجل الغنيمة عندما رأوا هزيمة المشركين. ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وهم الذين ثبتوا من الرماة في أماكنهم^(٤)، ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ﴾ الله أيها المسلمون ﴿عَنْهُمْ﴾ أي: عن المشركين وعن قتالهم بعد أن كنتم المتصرين ﴿لِبَتْلَيْكُمْ﴾ ويختبركم، كما سبق قوله تعالى ﴿وَلِيُمَخِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾. ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ أيها المخالفون لأمر رسول الله ﷺ، ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ لا يستأصلهم بمعاصيهم، وقد يعاقبهم ببعض الذنوب في عاجل الدنيا أدبًا وموعظة^(٥).

وتواصل الآيات الامتنان على المؤمنين بالعمو رغم عظم الذنب، وفداحة العواقب، فيقول تعالى: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُ عَلَى أَحَدٍ﴾، فهذه الآية مرتبطة بسابقتها، والمعنى: ولقد عفا عنكم، أيها المؤمنون، إذ لم يستأصلكم بسبب ذنوبكم وهربكم ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ﴾

(١) تفسير الطبري (٧/ ٢٨٧-٢٨٨)، وتفسير الواحدي (١/ ٢٣٧)، وابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٤٧٥).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٢٨١).

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٢٨٩).

(٤) تفسير الطبري (٧/ ٢٩٣).

(٥) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٤/ ٦٧)، وينظر: تفسير الطبري (٧/ ٢٩٩) والحاشية ٣.

وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ ﴿١١﴾. ﴿إِذْ تَضَعُودُونَ﴾: الإصعاد: هو السير والذهاب في الأرض، بخلاف الصعود الذي هي السير في مرتفع^(١١)، والمراد هربهم في الوادي، ﴿وَلَا تَكُونُوا عَلَىٰ أَحَدٍ﴾: لا تعطفون ولا تنتظرون، يقال: لويت عليه: عطفته، وانتظرت^(١٢)، و (مرّ لا يلوي على أحد)، أي: لا يقف ولا ينتظر^(١٣). ﴿وَأَلْرُسُوءُ يَدْعُوكُمْ﴾ ويناديكم ﴿فِي أَخْرَانِكُمْ﴾ أي: من خلفكم، قائلًا: (إليّ عباد الله)، (إليّ عباد الله، ارجعوا)، وهم لا ينتظرون ولا يلتفتون. وفي قوله تعالى ﴿فِي أَخْرَانِكُمْ﴾ تنبيه إلى ثبات رسول الله ﷺ، حيث كان في آخر الجيش، وأقرب شيء إلى العدو^(١٤).

﴿فَأَتَيْنَكُمُ﴾ وجازاكم ﴿عَمَّا﴾ وهو ما تحدّث به القوم أنّ نبيهم ﷺ قد قتل {بِعَمِّ} وهو ما ناله من القتل والجراح^(١٥)، تسلية لهم في مصابهم، حتى ينسيهم الغم الجديد المصاب الأول، ثم بعد أن يتبين كذب الغم الجديد وعدم صدق الشائعة حول مقتل النبي ﷺ يفرحون بذلك، وينسون ما كانوا فيه من غم الهزيمة وفقدان الغنيمة^(١٦)، ولذا قال بعدها: ﴿لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من نصر وغنيمة ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من قتل وقرح وجراحات، فالمثوبة بالغم لم تكن عقوبة^(١٧). وقيل غير ذلك في المراد بالغم الأول والثاني،

(١) تفسير الطبري (٧/٢٩٩).

(٢) ينظر: لسان العرب، مادة (ص ع د)، وقد يقال (أصعد) لمن ارتقى في أرض تعلق. ينظر: المعجم الوسيط، نفس المادة. وعلى هذا يحمل أن يكون هروبهم كان باتجاه الجبل، كما في قراءة: {تَضَعُدُونَ}.

(٣) المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، مادة (اللام والياء والواو).

(٤) المصباح المنير للفيومي (٢/٥٦١)، وأساس البلاغة للزمخشري، وتاج العروس للزبيدي، مادة (ل و ي).

(٥) قال أبو حيان في البحر المحيط (٣/٩٠): في قوله: ﴿فِي أَخْرَانِكُمْ﴾ دلالة عظيمة على شجاعة رسول الله ﷺ، فإن الوقوف على أعقاب الشجعان وهم فرار والثبات فيه إنما هو للأبطال الأجداد، وكان رسول الله ﷺ أشجع الناس.

(٦) تفسير الطبري (٧/٣٠٣).

(٧) ينظر: تفسير الطبري (٧/٣٠٦).

(٨) اختار الإمام الطبري (٧/٣٠٣) أن يكون المعنى: فجازاكم بفراكم عن نبيكم، وفشلكم عن عدوكم، =

والمراد بما فاتهم وما أصابهم^(١). ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وبأسباب فشلكم وتنازعكم، وبعضيانكم، وإرادة بعضكم للدنيا، وقد عفا عن المؤمنين بمته وكرمه وفضله. فجملة ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ متعلقة بالسياق كله، وليس بهذه الآية فقط، ولها تعلق ظاهر بالآية الأولى في هذا المقطع، وهي التي تحذر من طاعة الكافرين التي ستسبب النكوص والخسران، فالله خير بمن يعمل ذلك، وما يعمل من ذلك. والله أعلم.

وفي هذه الآية تصوير لمدى البلبلة التي حصلت لجيش المسلمين بسبب الهجوم المفاجئ من خلفهم، فإنهم حين انهزموا عن عدوهم أخذوا في الوادي هارين من عدوهم، لا يعطفون على أحد منهم، ولا ينتظر بعضهم بعضاً، ولا يلتفت بعضهم إلى بعض^(٢)، ورسول الله ﷺ يناديهم من خلفهم (إلى عباد الله)، (إلى عباد الله، ارجعوا)، وهم لا يرجعون ولا ينتظرون ولا يلتفتون.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا﴾ أي: أماناً وطمأنينة جاءت على شكل نعاس يؤدي إلى الراحة والاسترخاء، ويدل على الهدوء وراحة البال، وهذا الأمان ﴿يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ هم الصادقون الصابرون، بخلاف المنافقين والشاكين وهم الطائفة الثانية^(٣)؛ ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ وشغلتهن عن دينهم ورسولهم، ﴿يَطَّوُّنَ بِاللَّهِ﴾ ورسوله ووعدهما ظنوناً كاذبة باطلة ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ تشبه ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ والمشركين بالله تعالى^(٤)، كما

= ومعصيتكم ريبكم غماً على غم. وأرى أنه بعيد عن السياق، فقد ذكر الله تعالى قبلها أنه امتن عليهم بالعمو والمغفرة، فيبعد أن يذكر بعدها أنه عاقبهم. والله أعلم. وقارن بما قاله الطبري بعد ذلك في (٧/ ٣١٤) وفي (٧/ ٣١٥)، فكانه يفهم منه تراجع عن هذا القول شيئاً ما، أو عدم جزمه به، والله أعلم.

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري (٧/ ٣٠٣-٣١٥)، والبحر المحيظ لأبي حيان (٣/ ٩٠-٩١)، وابن كثير (٢/ ١٨٤-١٨٥).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٠٢).

(٣) ينظر ما ذكره الطبري من سبب افتراق الطائفتين وحصول هذا النعاس وكيفيته (٧/ ٣١٦-٣١٩).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٢٠-٣٢١).

قال تعالى: ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَتْ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ [الفتح: ١٢]، فهؤلاء اعتقدوا أن انتصار المشركين هو نهاية الإسلام والمسلمين، وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة^(١)، فهم يقاتلون في صفوف المسلمين وقلوبهم مع قلوب مَنْ يقاتلون من المشركين.

ثم أخبرت الآيات أنهم تراجعوا عن فكرة القتال أصلاً، وتصلوا منها، فكانوا ﴿ يَقُولُونَ ﴾ هل لنا من الأمر؟ بالقتال من رأي أو قرار، لم يكن لنا فيه ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾، وقولهم هذا دليل على عدم إيمانهم، ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا رسول الله: ﴿ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ تعالى وحده، ولو كنتم مؤمنين لعلمتم ذلك. ولكنهم منافقون، ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾ يا رسول الله، ومما يخفون أنهم كانوا ﴿ يَقُولُونَ ﴾ لبعضهم: ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا ﴾ خرجنا للقتال، ولا ﴿ قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾ في أحد^(٢). ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا رسول الله مبيّناً ما يجب أن يعتقده المؤمنون: ﴿ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ وجاء أجلكم ﴿ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾ التي كتب الله أنهم يموتون فيها^(٣).

وتختتم الآية باستكمال ما سبق من حكم الأمر بالقتال في قوله تعالى ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا ﴾ وما بعدها^(٤)؛ ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ﴾ ويختبر ﴿ مَا فِي صُدُورِكُمْ ﴾ من إيمان أو

(١) تفسير ابن كثير (١٨٧/٢).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٣٢٢٢-٣٢٢٣/٧).

(٣) وللفظ المضاجع معنى المصارع التي يصرعون فيها لاشتغالها على معنى الاستلقاء على الأرض. ينظر في معنى المضجع: لسان العرب لابن منظور، مادة (ض ج ع)، وينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٨٧/٣).

(٤) اختار الإمام الطبري (٣٢٤/٧) أن ختام الآية مرتبط بالحديث عن المنافقين في الجملة السابقة فقط، فالمنعنى عنده: (وليتلي الله ما في صدوركم، أي المنافقون، كنتم تبرزون من بيوتكم إلى مضاجعكم). ويشكل على هذا المعنى وجود حرف الواو في قوله ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ﴾. والله أعلم. وينظر: روح المعاني للآلوسي (٩٧/٤) في الآراء حول ارتباط هذه الجملة، ولم يذكر ما كتب أعلاه.

نفاق^(١). ﴿وَلِيُمَجِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من وساوس وفتن، وخالف بينهما لأن متعلق الابتلاء ما انطوت عليه الصدور وهي القلوب^(٢)، ومتعلق التمحيص وهو التصفية والتطهير ما انطوت عليه القلوب من النيات والعقائد^(٣). ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وبها انطوت عليه، وبها يخرج فيها من السرائر، وما فيها من العقائد في الضمائر، فهو يمحص منها ما أراد تمحيصه^(٤).

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا مِنكُمُ﴾ عن القتال والمواجهة ﴿يَوْمَ اتَّقَى الْجَمْعَانِ﴾ في أحد والتفاف العدو عليكم ﴿إِنَّمَا أَسْرَلَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ ودعاهم إلى الخطيئة والزلل، ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ من ذنوب ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وتجاوز عن ذنوبهم وغفر لهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يغفر للمذنبين من المؤمنين، ولا يعجل العقوبة على العاصين^(٥).

وتواصل الآيات بيان حقيقة الأجل والموت؛ ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وناقفوا من أمثال عبد الله بن أبي ابن سلول وأصحابه ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ في الكفر ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ في سفر أو تجارة ﴿أَوْ كَانُوا غُرًى﴾ في معركة وقاتل، فماتوا في سفرهم، أو قتلوا في المعركة: ﴿لَوْ كَانُوا﴾ باقين ﴿عِنْدَنَا﴾ ولم يخرجوا من بلادهم ﴿مَا مَاتُوا﴾ في سفرهم ﴿وَمَا قُتِلُوا﴾ في المعركة، ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ﴾ قولهم ﴿ذَلِكَ حَسْرَةً﴾ وحرناً وغماً ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾. والحق أن الأمر كله بيد الله تعالى ﴿وَاللَّهُ يُخَيِّرُ وَيُمَيِّتُ﴾ وحده لا شريك له^(٦)، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شرّ ﴿بَصِيرٌ﴾، يحصي ذلك، ويجازي عليه^(٧). وهذا ترغيب من الله عز وجل لعباده المؤمنين على جهاد عدوه والصبر على قتالهم،

(١) اختار الطبري (٧/ ٣٢٥) أن يكون الخطاب للمنافقين فقط.

(٢) كما قال تعالى: ﴿وَلَكِن تَمَسُّ الْقُلُوبُ الْآثِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وهذا الاستدلال من أبي حيان.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ٩٧).

(٤) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ٩٧).

(٥) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٢٧).

(٦) تفسير الطبري (٧/ ٣٣١).

(٧) تفسير الطبري (٧/ ٣٣٦).

وإخراج هيبتهم من صدورهم، وإن قل عددهم وكثر عدد أعدائهم وأعداء الله، ونبي لهم أن يجزوا الموت من مات أو قتل في حرب المشركين^(١).

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (١٥٧)

وعدهم على جهادهم في سبيله المغفرة والرحمة، وأخبرهم أن القتل والموت^(٢) في سبيل الله خير لهم مما يجمعون في الدنيا من حطامها ورغيد عيشها الذي من أجله يتناقلون عن الجهاد في سبيل الله، ويتأخرون عن لقاء العدو^(٣).

﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ ﴾ أيها المؤمنون، ﴿ لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾، إليه مرجعكم ومحشركم، فيجازيكم بأعمالكم، فالآية حث على ما يقرب من الله تعالى، ويوجب مغفرته ورحمته، وتحذير من الركون إلى الدنيا وملذاتها^(٤)، فليس في مقدور الإنسان دفع الموت أو القتل إذا جاء الأجل، وليس في مقدوره دفع يوم المحشر، لكن في مقدوره دفع هول المحشر بطاعة الله تعالى وعمل ما يستجلب رحمته ومغفرته^(٥)، فمعنى الآية: فاستعدوا لما بعد الموت أو القتل.

(١) تفسير الطبري (٧/ ٣٣٦).

(٢) لما ذكر الجهاد في هذه الآية قدم القتل على الموت إذ هو المناسب لأن الجهاد مظنة القتل، ثم هو الأفضل أيضاً ولذا ختمها بقوله (لمغفرة من الله ورحمة) فهذا جزاء الشهيد ومن مات في سبيل الله. وقدم الموت في الآية التي تليها لأنه الحالة الطبيعية، ولم يذكر فيه قوله تعالى (في سبيل الله)، ولذا ختمها بقوله (إلى الله تحشرون)، إذ الميت والمقتول كلاهما يحشره الله إليه، فوضع كل لفظة الموضوع الذي يقتضيه السياق. تراجع: محاضرة: أسرار البيان في التعبير القرآني، ألقاها الدكتور فاضل صالح السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام ٢٠٠٢م.

(٣) تفسير الطبري (٧/ ٣٣٧).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٣٩).

(٥) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٠٥).

الدرس الثاني: أهمية الشورى ووجوب طاعة رسول الرحمة:

﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجْتُم مِّنَ الْبَيْتِ وَمِنَ الْمَسْجِدِ مُخْرَجِينَ مُنْجِبِينَ لَكُمْ مِنَ الْمَكْرِ كَيْفَ تُحِبُّونَ ۗ إِنَّ رَبَّكُمْ لَخَبِيرٌ بِّمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ ﴿١٥٩﴾ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ النُّجُومِ نَسُوا مَا كَانُوا يَشْعُرُونَ ۗ إِنَّ رَبَّكُمْ لَخَبِيرٌ بِّمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۗ ﴿١٦١﴾ أَفَمَن أَتَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۗ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرَاتِهِم بِصِيرٌ ۗ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۗ ﴿١٦٤﴾ [الآيات: ١٥٩-١٦٤].

التفسير الإجمالي:

لما فرغ من وعظ الصحابة رضي الله تعالى عنهم أتبعه تحبيب النبي ﷺ فيما فعل بهم من الرفق واللين، بدلاً من العنف والسطوة، مع وجود أسبابها؛ من اعتراض من اعترض على ما أشار به، ثم مخالفتهم لأمره في حفظ المركز والصبر والتقوى، ثم خذلانهم له وتقديم أنفسهم على نفسه الشريفة، ثم عدم العطف عليه وهو يدعوهم إليه ويأمر بإقبالهم عليه، ثم اتهام من اتهمه بالغل كما سيأتي. إلى غير ذلك من الأمور التي توجب لرؤساء الجيوش وقادة الجنود اتهام أتباعهم والإيقاع ببعضهم ليكون ذلك زاجراً لهم^(١).

﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجْتُم مِّنَ الْبَيْتِ وَمِنَ الْمَسْجِدِ مُخْرَجِينَ مُنْجِبِينَ لَكُمْ مِنَ الْمَكْرِ كَيْفَ تُحِبُّونَ ۗ إِنَّ رَبَّكُمْ لَخَبِيرٌ بِّمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ ﴿١٥٩﴾ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ النُّجُومِ نَسُوا مَا كَانُوا يَشْعُرُونَ ۗ إِنَّ رَبَّكُمْ لَخَبِيرٌ بِّمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغْلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۗ ﴿١٦١﴾ أَفَمَن أَتَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۗ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرَاتِهِم بِصِيرٌ ۗ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۗ ﴿١٦٤﴾ [الآيات: ١٥٩-١٦٤].

(١) نظم الدرر للبقاعي (١٠٦/٥).

كانوا سبباً لاستخراجك للقتال^(١). ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا﴾ سبب الأفعال ﴿عَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ قاسي القلب من غير رحمة ولا رأفة ﴿لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ وتفرقوا عنك، ثم أمر الله نبيه ﷺ بحسن معاملتهم، فقال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ وتجاوز عن خطئهم ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ على ما اقترفوه، ثم أمره بمشاوره أصحابه بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ واستمع لأرائهم ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ من الحرب وغيره، تطيياً وتأليفاً لقلوبهم، وتعليماً لأمته من بعده، ليقتدوا به في ذلك عند النوازل التي تنزل بهم، فيتشاوروا فيما بينهم ليسددهم الله ويوفقههم^(٢). ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ أمرك على أمر بعد المشاورة^(٣) ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وثق به في كل ذلك، وارض بقضائه في جميعه، وامض لما أمرناك به على ما أمرناك به، وافق ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك، أو خالفها^(٤)، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه، والراضين بقضائه، والمستسلمين لحكمه فيهم، وإن خالف هواهم^(٥). ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، ولذا قال بعدها: ﴿إِنْ يَضُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ من الناس، سواء أكان رسول الله ﷺ حياً بينكم أو لا^(٦)، ﴿وَإِنْ يَخْذُ لَكُمْ﴾ ابتلاء لكم أو بسبب معاصيكم فلا ناصر لكم ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَضُرْكُمُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ سبحانه وتعالى، فلا ينفعكم وجود نبي أو غيره^(٧)، ولهذا فتوكلوا عليه وثقوا بوعده ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ﴾، فيكون ذلك أمانة صحة إيمانهم^(٨).

(١) نظم الدرر للبقاعي (١٠٦/٥-١٠٧).

(٢) تفسير الطبري (٣٤٥/٧-٣٤٦).

(٣) ذكر هذا القيد - قيد المشاورة - ابن كثير في تفسيره (١٩٤/٢)، وجلال الدين السيوطي في تفسيره (ص ٨٨)، وغيرهما.

(٤) تفسير الطبري (٣٤٦/٧).

(٥) تفسير الطبري (٣٤٦/٧).

(٦) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (١٠٩/٥).

(٧) انظر: نظم الدرر للبقاعي (١٠٩/٥).

(٨) نظم الدرر للبقاعي (١٠٩/٥).

ثم أتبع هذه الآية بالحديث عن أحد أعظم موجبات الخذلان وهو الغلول؛ لأنه كان سبب هزيمتهم في هذه الغزوة، فهو من أعظم الذنوب الموجبة للخذلان^(١)، وبدأت الآية بتنزيه النبي ﷺ عن الغلول، وسبب ورود هذا التنزيه: أن فعلهم هذا قد يتطرق منه احتمال لسوء الظن بالنبي ﷺ^(٢) بالغلول أو سوء القسمة، وحاشاه؛ لأن إقبالهم على نهب الغنائم قبل وقته إما أن يكون لقصد أن يغلوا بإخفاء ما انتهبوه أو بعضه، وإما أن يكون للخوف من أن يغلّ رئيسهم وحاشاه!، وإما أن يكون للخوف من مطلق الخيانة بأن لا يقسمه ﷺ بينهم على السواء، وحاشاه من كل من ذلك!^(٣)، كيف، وهو الذي أخبرهم بتحريم الغلول وبأنه سبب للخذلان، وما نهى ﷺ قط عن شيء إلا كان أول تارك له، وما كان ينبغي لهم أن يفتحوا طريقاً إلى هذا الاحتمال^(٤).

﴿ وَمَا كَانَ ﴾ ولا صحّ في أي وقت وعلى أي حال ﴿ لِئَنِّي ﴾ من الأنبياء فضلاً عن سيدهم وإمامهم ﴿ أَن يَغْلَى ﴾ ويخون في الغنيمة أو يظنّ به ذلك ﴿ وَمَن يَغْلُلْ ﴾ أي شيء مهما قلّ ولو كان مخيطاً وهي الإبرة ﴿ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ، حاملاً له على عنقه، كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: (من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطاً فما فوقه كان غلولاً يأتي به يوم القيامة)^(٥). ﴿ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾^(٦) من غلّ أو شرّ أو غيره ﴿ وَهُمْ لَا

(١) نظم الدرر للبقاعي (١٠٩/٥-١١٠).

(٢) وقد يفتح الطريق أمام المنافقين لنشر الافتراءات والتهم، كما روي أن الذي اتهم النبي ﷺ بالغلول هم المنافقون. نسبه ابن كثير (١٩٥/٢) لابن مردويه.

(٣) نظم الدرر للبقاعي (١١٠/٥).

(٤) نظم الدرر للبقاعي (١١٠/٥).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: تحريم هدايا العمال، برقم (١٨٣٣).

(٦) ظاهر السياق يقتضي أن يقال: (ثم يوفى ما كسب)، وإنما عدل عنه وعمّم الحكم ليكون كالبرهان على المقصود والمبالغة فيه، فإنه إذا كان كل كاسب مجزياً بعمله مهما قلّ فالغالب مع عظم جرمه بذلك أولى. قاله البيضاوي (١١٠/٢). وينظر: روح المعاني للآلوسي (١١١/٤)، وتفسير المراغي (١٢١/٤).

يُظَلَمُونَ ﴿ وإنما يجازون على ما كانوا يعملون، وهناك يفترون ولا يستون، وكيف يستون؟، ولهذا أردف الله تعالى هذه الآية بالتفصيل الآتي لبيان أن جزاء المطيعين ليس كجزاء المسيئين^(١)، فقال تعالى: ﴿ أَفَمَن أَتَّبَعَ ﴾ وطلب ﴿ رِضْوَانَ اللَّهِ ﴾ في أقواله وأفعاله فقام بالجهاد^(٢) ولم يغل^(٣)، فنال الجنة والنعيم^(٤)، ﴿ كَمَن بَاءَ ﴾ ورجع بتصرفاته وأعماله ﴿ بِسَخَطٍ ﴾ وغضب ﴿ مِّنَ اللَّهِ ﴾ بسبب ذنوبه وأثامه وتقاعسه عن الجهاد أو أخذه الغلول، ﴿ وَمَأْوَهُ ﴾ ومرجعه ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ خالداً فيها ﴿ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ ﴾ الذي يصير إليه من باء بسخط من الله وباء بجهنم^(٥). فهم لا يستون، كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ ﴿ ١٨ ﴾ [السجدة: ١٨]، بل ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ ﴾ ومقامات متفاوتة في الاستعداد والعمل والجزاء، ليس التفاوت في ميزان الناس^(٦)، إنما التفاوت ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ في الجزاء يوم القيامة؛ من أعلى عليين إلى أسفل سافلين، ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا من طاعات ومعاصي، يخصيها عليهم، ويجازي كلاً بما سعى، فكيف يتصور أنهم يتساوون.

وبعد هذه الإرشادات والتنبيهات، تبه سبحانه وتعالى على عظم المنّة على المسلمين بنبي الرحمة للعالمين، ليهتدوا بهديه وينهلوا من علمه ويقدره حق قدره، فقال سبحانه وتعالى مؤكداً تنزيه نبيه ﷺ عما قد يفهم منه النسبة إلى الغلول^(٧): ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ منّة

(١) تفسير المراغي (٤/ ١٢١).

(٢) ينظر: روح المعاني للألوسي (٤/ ١١١).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٦٥-٣٦٦).

(٤) قال الألوسي في روح المعاني (٤/ ١١١): لم يذكر مع الرضوان الجنة لأن رضوان الله تعالى أكبر وهو مستلزم لكل نعيم، وكون السخط مستلزماً لكل عقاب فيقتضي أن تذكر معه جهنم في حيز المنع لسبق الجمال للجلال.

(٥) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٦٦).

(٦) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١١٤).

(٧) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١١٥)، وتفسير المراغي (٤/ ١٢٢).

عظيمة ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ عربياً يفهمون كلامه، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]، وقد عُرف أمره وصدقه وأمانته، أو ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ إنساناً بشراً مثلهم يأنسون به بجامع البشرية، وليس ملكاً، ولا أحداً من غير بني آدم^(١)، ولو كان كذلك لم يحصل كمال الأُنس به لاختلاف الجنس^(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩]. والمثة الثانية أن هذا الرسول الكريم ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ وقرآنه، والمثة الثالثة في قوله ﴿وَيُرَكِّبُهُمْ﴾^(٣) أي: يطهرهم من الكفر والذنوب والآثام، والمثة الرابعة في قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو القرآن ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ وهي السنة^(٤)، تفسيراً وإبانة وتحريراً^(٥)، ﴿وَلِإِن كَانُوا مِن قَبْلُ﴾^(٦) أن يرسل إليهم ويعلمهم ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ واضح.

وفي هذه الآية إشارة إلى أنه عليه السلام علّمهم من الحكمة في هذه المعركة ما أوجب نصرتهم في أول النهار، فلما خالفوه حصل الخذلان والانزمام^(٧). ثم انتقل الحديث إلى أسباب حصول الهزيمة، والفوائد المستفادة منها.

(١) ينظر: تفسير الواحدي (١/٢٤١)، وتفسير البغوي (١/٣٨٦)، وتفسير ابن كثير (٢/٢٠٤).

(٢) ينظر: فتح القدير للشوكاني (١/٣٩٤).

(٣) قال البقاعي في نظم الدرر (٥/١١٥): (قدم التزكية لاقتضاء مقام المعاتبة على الإقبال على الغنيمة ذلك).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٧/٣٧٠).

(٥) نظم الدرر للبقاعي (٥/١١٥). وقارن بتفسير المراغي (٤/١٢٤)، فقد قال: (تعليم الكتاب إشارة إلى معرفة ظواهر الشريعة، وتعليم الحكمة إشارة إلى فهم أسرارها وعللها وبيان منافعها). ولعل السياق، وواقع الحال من فعل النبي ﷺ لا يدلّ على هذا، والله أعلم.

(٦) قال البقاعي في نظم الدرر (٥/١١٥): (لما كانوا قد مرت لهم أزمان وهم على دين أبيهم إسماعيل عليه الصلاة والسلام نبه على ذلك بإدخال الجار فقال {من قبل}).

(٧) نظم الدرر للبقاعي (٥/١١٥).

الدرس الثالث: أسباب الهزيمة، وهوانها، والفرق بين الخبيث والطيب:

﴿ أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدِ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَيُتْلَوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَدْعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَأَتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ قَادِرَةٌ عَنَّا أَنْفُسُكُمْ الْمَوْتُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا لَهُمْ يَا نَاسُ إِنَّا نَاسٌ قَدْ جَعَلْنَا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزَنَكَ الَّذِينَ يُسْأَرُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَلِّقُ لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطَلِّقُ لَهُمْ لِيُزَادُوا إِسْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ لِيُذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَأْمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾

[الآيات: ١٦٥-١٧٩].

التفسير الإجمالي:

بعد أن امتنَّ الله تعالى على المؤمنين ببعثة نبيه ﷺ، ذكَّرهـم هنا بالنصر الذي منَّ به عليهم في بدر، حتى لا ينسوه بسبب الهزيمة في أحد، وفي هذا ردٌّ على شبهة المنافقين القائلين: لو كان رسولاً ما انهزم أصحابه عنه^(١)، كما ذكَّرهـم بأن فعلهم هو سبب هزيمتهم، كما مرَّ في الدرس السابق، ثم ذكر فوائد من الهزيمة وأهمها التمييز بين الحق والباطل؛ ولهذا أبرز موقف الشهداء المؤمنين الصادقين، وموقف المنافقين الكاذبين، وختم بالتصريح بإرادة التمييز بين الخبيث من الطيب.

﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿مُصِيبَةٌ﴾ وهي الهزيمة يوم أحد وما نالكم من قرح وقتل وجراحات، حيث قتل من المسلمين سبعون، ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ﴾ من عدوكم ﴿مِثْلَيْهَا﴾ أي: ضعفها، وذلك في معركة بدر، حيث قتلوا من المشركين سبعين وأسروا سبعين، ﴿قُلْتُمْ﴾ على سبيل التعجب: ﴿أَنَّى﴾ وبسبب ماذا أصابنا ﴿هَذَا﴾؟، ونحن مسلمون وهم مشركون، وبيننا رسول الله ﷺ يأتيه الوحي من السماء^(٢)، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: هذا الذي أصابكم ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ وبسبب عصيانكم ومخالفتكم لما أمرتكم به؛ حيث اخترتم الخروج لقتالهم، ثم فشلتم وتنازعتم وعصيتهم أمري^(٣)، ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ قادر على أن ينصركم ويتنصر لكم على كل حال، فهو سبحانه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ولكنه أراد أن يعلمكم ويهديكم ويرشدكم، ففي هذه الهزيمة حكَمَ ظاهرة وخفية، مرَّ بعضها، ويأتي بعضها.

(١) نظم الدرر للبقاعي (١١٦/٥).

(٢) تفسير الطبري (٣٧١/٧)، وينظر: تفسير المراغي (١٢٦/٤).

(٣) اقتضت حكمة الله تعالى أن يربط الأسباب بمسبباتها، فكل جيش يخطئ الرأي ويعصي قائده يصاب بالهزيمة والخسران. ينظر: نظم الدرر للبقاعي (١١٧/٥)، وتفسير المراغي، والعبارة له (١٢٧/٤)، وتفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٢٢٦/٤). وقيل: المراد: بأخذكم الفداء يوم بدر، كما جاء في بعض = الروايات، وهو بعيد عن السياق، وإن كان يحتمله، والله أعلم.

وهذه الهزيمة وإن كانت بسبب معصيتكم إلا أنها لا تخرج عن مراد الله تعالى وإذنه^(١)، {و} لهذا، آمنوا وأيقنوا أن كل ﴿ وَمَا أَصْبَحْتُمْ يَوْمَ التَّفَاقُحِ الْجَمْعَانِ ﴾ جمع المؤمنين وجمع الكافرين في أحد ﴿ فَيَاذِنِ اللَّهُ ﴾ الذي لا يكون شيء في الكون إلا بإذنه. ثم شرع في ذكر الحكم والفوائد من الهزيمة والشدائد والمصائب؛ وأهمها التمييز بين الطيب والخبيث، فقال: ﴿ وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الصادقين منكم، ﴿ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَاقَبُوا ﴾ وكذبوا، {و} عندما ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ﴾ على سبيل الأمر: ﴿ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أعداء الله إن كنتم صادقين في إيمانكم، ﴿ أَوْ ادْفَعُوا ﴾ ضررهم عن بلدكم وأهلكم وأموالكم، أو: كثروا سواد المسلمين بأن تكونوا معهم، ﴿ قَاتِلُوا ﴾ تهرباً وتعللاً بالباطل: ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قَاتِلًا ﴾ يكون بينكم وبين أعدائكم ﴿ لَا تَتَّبِعْتُمْ ﴾ إلى ساحة القتال، ولكننا لا نظن أنه يكون قتال. ولما كان محك الإيثار هو الطاعة في جميع الأزمان، وكان التراجع عن المبادئ وقت المصاعب أشدّ ضرراً وخطراً، تأكد أنهم غير صادقين في إيمانهم وغير مخلصين في طاعتهم، ولهذا قال: ﴿ هُمْ لِلْكَافِرِ ﴾ الظاهر عليهم ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ وفي ذلك اليوم العظيم^(٢) ﴿ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ الذي يزعمونه^(٣)، وإنما هم ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾^(٤) تعللاً وكذباً وزوراً، ﴿ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾، وما لا يعتقدون صحته^(٥)، إذ أضمرنا في قلوبهم

(١) نظم الدرر للبقاعي (١١٨/٥).

(٢) لفظ {يومئذ} ليس للاحتراس، بل هو لرفع شأن ذلك اليوم الذي حصل فيه التمييز والتفريق بين أهل الإيثار وأهل النفاق. تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٢٢٨/٤).

(٣) قال الله تعالى {أقرب} للكفر، ولم يقل: إنهم كفار مع علمه بحالهم تأديباً لهم، ومنعاً للتهجم على التكفير بالعلامات والقرائن، وذلك أن هذا الذي صدر منهم وإن كان من شأنه ألا يصدر إلا من الكافرين، فإنه لا يعدّ بحدّ ذاته كفراً صريحاً في حكم الظاهر، لاحتمال العذر والتأويل. تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٢٢٨-٢٢٩/٤).

(٤) وعبر بالأفواه بدلاً من اللسان لكونهم منافقين، فقولهم إلى أصوات الحيوان أقرب منه إلى كلام الإنسان = ذي العقل واللسان. نظم الدرر للبقاعي (١١٩/٥).

(٥) تفسير ابن كثير (٢٠٧/٢).

النفاق وعداوة النبي ﷺ وأصحابه، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من العداوة والبغضاء، وأنهم لو علموا قتالاً ما قاتلوا معهم ولا دافعوا عنهم^(١)، فالله سبحانه يكشف من أسرارهم وسرائرهم في كل حين حسب تقتضيه المصلحة^(٢). ومن المتفق عليه أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبي وأتباعه الذين رجعوا قبل القتال^(٣).

وهؤلاء المنافقون القاعدون عن الجهاد وقت الصعاب والشداد، أضافوا إلى نفاقهم قلة المروءة^(٤)، فهم ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ من عشائرتهم وقومهم الذين أصيبوا وقتلوا في معركة أحد مع المسلمين ﴿وَقَعَدُوا﴾ هم عن القتال، قالوا عن إخوانهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ في عدم الخروج ﴿مَا قُتِلُوا﴾ في المعركة، ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله هؤلاء المنافقين: ﴿فَادْرَأُوا﴾ وادفعوا ﴿عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ﴾ والهلاك ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنهم لو لم يخرجوا ما ماتوا ولا قتلوا، بل الحق أن الجميع سيموت، وأنتم ستموتون، لا تستطيعون دفع الموت عنكم^(٥).

ولما بين الله تعالى أنه لا مفر من الموت والقدر، ردّ على قول أهل النفاق عن مقتل إخوانهم، وبشّر أهل الإيمان بحياة من فقدوا من الإخوان^(٦)، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا﴾ في هذه المعركة أو غيرها، وكان قتالهم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لا تحسبتهم ﴿أَمْواتاً﴾ هامدين، ﴿بَلْ﴾ هم ﴿أَحْيَاءُ﴾ مكرمون ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وهم في حياتهم هذه ﴿يُرْزَقُونَ﴾ بكيفية يعلمها الله تعالى، وتليق بحياتهم عنده سبحانه، ﴿فَرِحِينَ﴾ لا يمسه

(١) ينظر: تفسير الطبري (٧/ ٣٧٨-٣٨١).

(٢) ينظر: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٤/ ٢٢٩).

(٣) العجّاب في بيان الأسباب لابن حجر (٢/ ٧٨٣)، برقم (٢٥٣).

(٤) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٢٠).

(٥) تفسير الطبري (٧/ ٣٨٢).

(٦) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٢٠-١٢١).

السوء والأذى، راضين مسرورين ﴿يَمَاءَ آتَنَّهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهو ذو الفضل العظيم، ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي: بالشهادة للذين لم ينالوها في هذه الغزوة ﴿مَنْ خَلَفَهُمْ﴾^(١) في الدنيا، بأنهم على نفس طريقهم وأنهم إذا استشهدوا نالوا الكرامة عند الله تعالى^(٢)، وبشراهم هذه هي: ﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: من العقاب، ولا على إخوانهم الذين استشهدوا، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أصلاً، على ما تركوا خلفهم في الدنيا^(٣)، بل هم فرحين مستبشرين، كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال عن الشهداء: ﴿أَرْوَاهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضِرَ لَهَا قَنَادِيلٌ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اِطْلَاعَةً فَقَالَ: {هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا} قَالُوا: أَى شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ، نُزِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى. فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرْكُوا^(٤). فالشهداء والذين بقوا من بعدهم كلهم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ في حياة الشهداء ﴿وَفَضْلٍ﴾ منه في أنهم فرحين مستبشرين يرزقون، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الشهداء منهم والذين لم ينالوا الشهادة، وهم البقية من المؤمنين الطائعين كما سيأتي^(٥).

وبعد أن ذم المنافقين برجعهم من غير أن يصيبهم قرح، ومدح أحوال الشهداء ترغيباً في الشهادة، وأحوال من كان على مثل حالهم ترغيباً في النسج على منوالهم، أخذ يذكر ما أثمر لهم

(١) وإنما قال {من خلفهم} للدلالة على أنهم يقتفون أثرهم ويجذون حذوهم. تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (٢٣٥/٤).

(٢) تفسير الطبري (٣٩٥/٧).

(٣) تفسير الطبري (٣٩٦/٧).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: أن أرواح الشهداء في الجنة..، برقم (١٨٨٧).

(٥) وينظر: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير الآية، برقم (٤٥٠٥).

إيمانهم من المبادرة إلى الإجابة إلى ما يهديهم إليه ﷺ إشارة إلى أنه لم يحمل على التخلف عن أمره من غير عذر إلا صريح النفاق^(١)، فقال عن المؤمنين إنهم: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ في دعوة الجهاد بعد معركة أحد، لا لغرض المغنم أو غيره^(٢)، بل إن ذلك كان ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ والأذى في المعركة، وهم الذين اتبعوا رسول الله ﷺ إلى حَمْرَاءِ الْأَسَدِ في طلب العدو بعد أحد، ليرى الناس أن به وأصحابه قوة على عدوهم^(٣)، منهم الزبير وأبو بكر في سبعين من أصحاب النبي ﷺ، كما جاء في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ قالت لعروة: يا ابن أختي، كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، قال: (من يذهب في إثرهم)، فانتدب منهم سبعون رجلاً، قال: كان فيهم أبو بكر والزبير^(٤). ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾ فيما بقي من أعمارهم ﴿وَاتَّقُوا﴾ ربهم وأدوا فرائضة وأطاعوه فلهم ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وثواب جليل، لاستجابتهم وجهادهم وصبرهم وتقواهم^(٥). ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ وهم ركب عبد قيس، أو نعيم، أو أعرابي غير محدد، قالوا لرسول الله ﷺ وأصحابه: ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ أي: أبا سفيان وأصحابه مشركوا قريش ﴿قَدْ جَمَعُوا﴾ الجموع ﴿لَكُمْ﴾ يريدون الكرّة عليكم واستئصالكم ﴿فَأَخَشَوْهُمْ﴾ وخافوهم، ﴿فَزَادَهُمْ﴾ هذا التهديد والتخويف والوعيد ﴿إِيْمَانًا﴾ بالله تعالى وبنصره ووعدته، ﴿وَقَالُوا﴾ مؤمنين بالله واثقين بوعدته متوكلين عليه: ﴿حَسْبُنَا﴾ ويكفينا ﴿اللَّهُ﴾ جمعهم ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ هو

(١) نظم الدرر للبقاعي (١٢٣/٥).

(٢) نظم الدرر للبقاعي (١٢٣/٥).

(٣) تفسير الطبري (٣٩٩/٧).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب: {الذين استجابوا لله والرسول}، برقم (٤٠٧٧)، ومسلم في

فضائل الصحابة، باب: فضائل طلحة والزبير رضي الله عنهما، برقم (٢٤١٨).

(٥) تفسير الطبري (٤٠٤/٧).

سبحانه وتعالى، أي: الموكول^(١) الذي تفوّض إليه جميع الأمور^(٢). ﴿فَأَنْقَلِبُوا﴾ ورجعوا من خروجهم هذا ﴿بِنِعْمَةِ مَنِ اللَّهُ﴾ وسلامة حيث خافهم العدو، ﴿وَفَضَّلِ﴾ وهو الزيادة في الأجر أو الربح في التجارة^(٣)، ﴿لَمْ يَمَسَّسَهُمْ سُوءٌ﴾ من قتل أو جراحات وما يكون في الحرب من أذى^(٤)، ﴿وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ عندما استجابوا لله وللرسول، فأثابهم الله بأن صرف عنهم عدوهم، ورضي عنهم، وأنعم عليهم ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ في الدارين على من استجاب له وأطاعه^(٥). وفي هذا إلقاء للحسرة في قلوب المتخلفين منهم، وإظهار لفساد رأيهم، إذ حرموا أنفسهم هذا الفضل العظيم الذي فاز به المستجيبون^(٦).

ثم أتبع ذلك بثبوت المؤمنين، وبيان ضعف العدو، وأن الأمر بيد الله تعالى، فعليهم أن يستجيبوا له ويتبعوا أوامره، ولا يلتفتوا إلى المشطين الذين يخوفونهم من أعدائهم، فقال: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ﴾ الذي يخوفكم من عدوكم هو ﴿الشَّيْطَانُ﴾، وهو ضعيف الكيد، لا يستطيع أن يخوف أولياء الله، وإنما ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ لأن تخوفه ينقلب على أتباعه الذين يغترون بوساوسه، فهم الذين يخافون بسبب ثبات المسلمين^(٧)، أو المعنى: يخوفكم من أوليائه وأنصاره

(١) قال الطبري (٧/٤٠٥): (الوكيل) في كلام العرب هو المسند إليه القيام بأمر من أسند إليه القيام بأمره. فلما كان القوم الذين وصفهم الله بها وصفهم به في هذه الآيات، قد كانوا فوّضوا أمرهم إلى الله، ووثقوا به، وأسندوا ذلك إليه، وصف نفسه بقيامه لهم بذلك، وتفويضهم أمرهم إليه بالوكالة فقال: ونعم الوكيل الله تعالى لهم.

(٢) ينظر في هذه الآية: تفسير الطبري (٧/٤٠٥)، والبحر المحيط لأبي حيان (٣/٤٦٤)، ونظم الدرر للبقاعي (٥/١٢٩-١٣٠).

(٣) ينظر: تفسير الطبري (٧/٤١٤)، والبحر المحيط لأبي حيان (٣/٤٦٦).

(٤) ينظر: تفسير الطبري (٧/٤١٤).

(٥) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/١٣١).

(٦) تفسير المراعي (٤/١٣٦).

(٧) نظم الدرر للبقاعي (٥/١٣٢).

المشركين، ويوهمكم أنهم أولو قوة وذوو بأس وشدة وعددهم كثير، وأن من مصلحتكم أن تفعدوا عن لقاءهم، وتجنبوا عن مدافعتهم^(١)، ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ لأن أمرهم بيدي، ﴿وَخَافُونَ﴾ حق الخوف، فلا تعصوا أمري، ولا تتخلفوا عن رسولي، وتوكلوا عليّ، كما قال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاحْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠]، وكما قال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤]، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ [النازعات: ٤٠]، فهو سبحانه المستحق أن يخاف منه ويخشى، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أولياء الله تعالى، مباعدين لأولياء الشيطان^(٢).

وبعد أن مدح سبحانه وتعالى المسارعين في طاعته وطاعة رسوله ﷺ، وختم ذلك بالنهي عن الخوف من أولياء الشيطان، أعقبه بدم المسارعين في الكفر والنهي عن الحزن من أجلهم^(٣)، إذ كان النبي ﷺ من شدة حرصه على الناس يجزئه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق^(٤)، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ فهم يسرعون إسراع من يسابق خصماً^(٥)، ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَصُرُوا﴾ دين وعباد وأولياء ﴿اللَّهُ شَيْئًا﴾ مهما قلّ، لأن الأمر كله بيد الله تعالى، والحكمة في إمهالهم على جرائمهم هي أنه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِزْبًا﴾ مهما كان يسيراً ﴿فِي الْأَخِرَةِ﴾ حيث يجاسبون وبالعدل يجزون ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بسبب مسارعتهم في الكفر، لأن المسارعة دلت على أن الكفر قد ملأ أبدانهم ونفوسهم وأرواحهم^(٦). ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ﴾ فأطاعوا أهل الشرك، ووافقوا على تخويف المسلمين مقابل أموال ضئيلة، ظناً منهم أنهم سيتخلصون بهذا من المسلمين، ولن تقوم لهم قائمة بعدها، والحق أنهم

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٢)، وتفسير المراغي (٤/ ١٣٦)، وتفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٢/ ٤٧).

(٢) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٢).

(٣) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٢-١٣٣).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٣).

(٥) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٣).

(٦) نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٤).

﴿ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ ﴾ ودينه وعباده ﴿ شَيْئًا ﴾ مهما قلّ إلا بإرادته وحكمته سبحانه وتعالى، وهم لن ينجوا من عذاب الله، بل سيحاسبون ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بدلاً عن لذة الدنيا التي اشتروا لأجلها الكفر بالإيمان^(١). ولما سبق الحديث عن الإمهال، والإمهال قد يظن معه أهل الكفر أنهم على خير، أو أنهم قد نجوا من العذاب في الدنيا والآخرة، ذكر خطأ رأيهم بقوله: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ﴾ أو يظننَّ ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وحاربوا أهل الإسلام، وأذوهم، وأمهلناهم فلما يصبهم العذاب ﴿ أَنَّمَا نُكَلِّمُ لَهُمْ ﴾ ونمهل هو ﴿ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ﴾، كلا، ﴿ إِنَّمَا نُكَلِّمُ لَهُمْ لِيَزِدُوا إِثْمًا ﴾ على آثامهم، حتى لا يكون لهم حظ في الآخرة كما سبق، فهو شرّ لهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ جزاء ما أهانوا عباد الله وأذوهم بالقول والفعل والتأمر^(٢)، وفي هذه الآية مكر بهم، كما قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ۙ ﴿٥٥﴾ سَارِعٌ لَهُمْ فِي الْفِتْرَةِ ۗ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

ثم ختم هذا الدرر ببيان حكمة الله تعالى البالغة في جريان هذه الأمور، وإرادته سبحانه وتعالى لهذا التمحيص والتمييز، فقال: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ ﴾ ويترك ﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الصادقين المخلصين، ﴿ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ من الاختلاط بالمنافقين^(٣)، وضعاف المؤمنين، والمتردددين والمتشككين ﴿ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾، بالتكاليف الشاقة والمواقف الصعبة التي لا يصبر عليها إلا الصادقون المخلصون^(٤)، ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ الذي اختصّ به، فيكشف لكم خبايا قلوبهم وأسرارهم التي هي خلاف ظواهرهم، ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي ﴾ ويختار ﴿ مِنْ رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ فيطلعه على ما يشاء من الغيب، فيفضح على لسانه من شاء من المنافقين، كما

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (١٣٤/٥).

(٢) ذهب الإمام البقاعي في نظم الدرر (١٣٤/٥-١٣٥) إلى أن هذه الآية تتحدث عن رجوع المنافقين عن أحد، ولما كان الرجوع المسفر عن السلامة مظنة لعزمهم في هذه الدار الفانية عوضوا عن ذلك بالإهانة الدائمة بقوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾.

(٣) نظم الدرر للبقاعي (١٣٥/٥).

(٤) نظم الدرر للبقاعي (١٣٦/٥).

ذكر هنا قربهم من الكفر، ونفاقهم بالستهم، وغيرها^(١)، ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ﴾ واستسلموا لحكمته وقضائه ﴿وَرُسُلِهِ﴾ الذين اصطفاهم، وأطيعوهم وصدقوهم فيما يخبرونكم به، ﴿وَإِن تَوَمَّنُوا﴾ حق الإيمان بالله ورسله ﴿وَتَخَفُوا﴾ ربكم، ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ على ذلك، من نصر في الدنيا وفوز في الآخرة.

الدرس الرابع: تحذير المنافقين والبخلاء، وفيها أن المال من أهم أسباب النصر، والتحذير من المال الذي كان سبباً في الهزيمة:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُرُوقِ الْعَذَابِ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَاهِدُ لَنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَقًّا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا نَأْكُلُ النَّارَ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكُمْ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكُمْ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ رُحِجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَعُ الْعُرُورِ ﴿١٨٥﴾ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِنْ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ [الآيات: ١٨٠-١٨٩].

(١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (١٣٦/٥)، وينظر: تفسير ابن كثير (٢/٢٢٤).

مناسبة المقطع لسابقه :

هذا المقطع بكل دروسه شديد الصلة بسابقه، فقد جاء بعد الهزيمة في معركة أحد، ليقرر حقائق وتوجيهات مختلفة، بدأت بالتحذير من طاعة الأعداء وموالاتهم لأنها سبب الخسارة في الدنيا والآخرة، ودعت إلى موالاته الله تعالى، كما حذرت من التنازع والاختلاف، وفضحت المنافقين والمخذلين، وأكدت أن النصر من عند الله تعالى، فإذا نصرهم الله تعالى فلا غالب لهم، وإذا خذلهم فلا ناصر لهم، ثم تحدثت الآيات عن أسباب حصول الهزيمة وأولها العصيان، والحكم البليغة والفوائد المستفادة منها، مع التفريق بين الطيب المطيع والخبيث العاصي. وختم المقطع بالتحذير من البخل، وحبّ الأموال والدنيا، وهما من أسباب النفاق والخيانة^(١)، كما دعت الآيات المسلمين إلى الصبر على الأذى الذي سيلاقونه من اليهود والنصارى بالقول والفعل.

التفسير الإجمالي :

لعب المال دوراً هاماً في معركة أحد، حيث بذله المشركون لحرب الإسلام، وطلبه بعض الرماة عندما انتصر المسلمون أول الأمر، ثم خسرهم المسلمون بسبب طمع بعض الرماة، ثم قام ركب عبد قيس أو نعيم أو بعض الأعراب بتخويف المسلمين مقابل وعد بالأموال، ثم كانت العاقبة للمؤمنين عندما انقلبوا آمنين مطمئنين وتاجروا وربحوا، كما أن الإنفاق من مواضيع السورة المهمة كما سبق بيانه في محور السورة، ولهذا فقد تناول هذا الدرس موضوع البخل، والرياء والادعاء في الإنفاق، والأمر بالصبر على الأذى الحاصل في الأموال من نقص وخسارة وغيرها.

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَآءِ ﴾ لا يملكون ملكاً استقلالياً حقيقة بل هو مما ﴿ءَاتَهُمْ

(١) اختار الشيخ محمد عبده مناسبة أخرى بين هذا الدرس وما سبقه، تنظر في تفسير المنار (٤/٢٥٦-

اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) وكرمه على عباده. وما دام الله أعطاهم إياه، فعليهم أن ينفقوه فيما يرضاه، وعليهم ألا يظنوا أن بخلهم ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ﴾ باعتبار الظاهر حيث لم تنقص أموالهم، ﴿بَلْ﴾ في الحقيقة ﴿هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾، لأنهم بالإضافة إلى فقدان البركة وضياع المال واستحقاق دعاء الملائكة بتلف المال كما ثبت في الصحيح: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً)^(١)، ﴿سَيَطُوفُونَ مَا بِحُلُوقِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، والذي سيتولى تطويقهم في أعناقهم ثعبان أقرع، وهو مخلوق من مخلوقات الله تعالى، كما ثبت في الصحيح: (من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه يعني بشدقيه، ثم يقول: أنا مالك أنا كنزك) ثم تلا رسول الله ﷺ^(٢)، أو راوي الحديث^(٣): ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ الآية^(٤)، ويستمر ذلك العقاب حتى يلقى الحساب^(٥).

وهؤلاء البخلاء لن يأخذوا معهم شيئاً مما بخلوا به، وكان الأولى بهم ما دام كذلك أن ينفقوا من أموالهم لأن يبخلوا بها، وهي وكل ما في الوجود ملك لله تعالى، وهو مستغن عنهم وعن أموالهم^(٦)، ﴿وَاللَّهُ مِيرَاثُ﴾ كل ما في ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وهو الذي أمر بالإنفاق، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، يعلم بحقيقة بخل البخلاء وخبايا قلوبهم.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب: قوله تعالى {فأما من أعطى واتقى}، برقم (١٤٤٢)، ومسلم

في كتاب الزكاة، باب: المنفق والممسك، برقم (١٠١٠).

(٢) ينظر: فتح الباري (٣/ ٢٧٠)، حيث ذكر أن في حديث ابن مسعود عند الشافعي والحميدي: (ثم قرأ رسول الله ﷺ).

(٣) ينظر: أحمد في مسند ابن مسعود ﷺ، برقم (٣٥٦٧)، والترمذي في التفسير برقم (٣٠١٢)، والنسائي في الزكاة، برقم (٢٤٤١).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب: إثم مانع الزكاة، برقم (١٤٠٣).

(٥) ينظر: كتاب تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، (١/ ١٠٠).

(٦) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٣٨).

ثم انتقل الحديث من حضيض البخل إلى درك القبح والجهل^(١)، إذ اجترؤوا على مقام الجلال، فقالوا قولة الكفر، ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ بكل دناءة نفس وسوء سريرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ لأنه يطلب الصدقة والتبرع والإنفاق، ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، ولذا يريد أن يأخذ من أموالنا، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]، وكان قولهم هذا بعد نزول قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَمْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٥٤]، قالت اليهود: يا محمد، افتقر ربك، يسأل عباده القرض؟، فأنزل الله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ الآية^(٢). فتوعدهم الله تعالى بقوله: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾، بالإضافة إلى جرائمهم الأخرى، ﴿وَقَتَلَهُمُ الْاُنْبِيَاءَ﴾ وقتلهم جريمة كبرى، فكيف إذا كان قتلهم ﴿بِعَيْرِ حَقِّ﴾ أصلاً، ﴿وَنَقُولُ﴾ تبكيئاً لهم وتعنيفاً: ﴿ذُوقُوا﴾ الهوان في الدنيا وفي الأخرى ﴿عَذَابَ اَلْحَرِيقِ﴾^(٣)، و﴿ذَلِكَ﴾ الهوان والعذاب هو ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ اَيْدِيكُمْ﴾ واقترفت جوارحكم من الكذب والافتراء وقتل الأنبياء، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ الحكم العدل ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَمِيدِ﴾.

وعبر بلفظ "الذوق" الذي هو لإدراك الطعوم وقد يستعمل لإدراك المحسوسات والحالات، وذكره ها هنا لأن العذاب مرتب على قولهم الناشئ عن البخل والتهالك على المال، وغالب حاجة الإنسان إلى المال لتحصيل المطاعم، ومعظم بخله به للخوف من فقدانه، ولذلك كثر ذكر الأكل مع المال^(٤).

والحريق: النار الملتهبة، وهو بمعنى المَحْرَق، كما يقال: عذاب أليم وضرب وجيع^(٥).

- (١) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (١٣٩/٥).
- (٢) العجائب في بيان الأسباب لابن حجر (٨٠٤/٢). ويقال: نزلت في المنافقين. ينظر: التفسير من كتاب الجامع لابن وهب (٩١/٢).
- (٣) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (١٤١/٥).
- (٤) تفسير البيضاوي (١٢٤/٢).
- (٥) ينظر: تفسير الثعالبي (٢٢٣/٣).

ولعل في استخدام لفظ "الحريق" إشارة إلى عقاب البخيل الذي يكون بالكفي، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥].

وبعد الاستطراد في ذكر جرائمهم وتذكيرهم بطبائعهم تذكر الآيات قولاً آخر افتروه حتى لا يؤمنوا بنبوته محمد ﷺ، فهم ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ كذباً من عند أنفسهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَاهَدَ لَنَا﴾ في التوراة^(١)، ﴿أَلَا نؤمن لِرَسُولٍ﴾ جديد ﴿حَقٌّ يَأْتِينَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾، حتى تكون معجزة مشاهدة تؤمن بها، ﴿قُلْ﴾ لهم يا رسول الله لبيان كذبهم وافترائهم: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وبالأدلة الواضحات على صدقهم ونبوتهم، وبمختلف المعجزات، ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ وطلبت من الآيات، ولكنكم قتلتموهم بغير حق، ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ قتلهم أسلافكم ورضيتم أنتم بذلك فشاركتموهم فيه^(٢)، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أن الذي يمنعكم من الإيمان هو انتظار الإتيان بقرآن تأكله النار^(٣)، أو في أن الله عهد إليكم بذلك.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ في رسالتك ونبوتك بعد كل ما سبق من بيان لصدقك فاصبر على تكذيبهم، ﴿فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ عبر العصور والشعور، مع أنهم كلهم ﴿جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والأدلة على صدقهم، {و} جاءوا بهدايات وتعاليم من عند الله تعالى؛ ﴿وَالرُّبُوبِ﴾ والصحف المتضمنة للمواعظ والحكم والزواجر والرفائق^(٤)، ﴿وَالكِتَابِ﴾ الجامع لكل صنوف الخير ﴿الْمُنِيرِ﴾ والهادي إلى طريق الحق. فعلى العاقل أن يتبع هذه الهدايا ويلتزم

(١) تفسير البيضاوي (١٢٥/٢)، وينظر: تفسير القرطبي، ط. مؤسسة الرسالة (٥/٤٤٤-٤٤٥).

(٢) نظم الدرر للبقاعي (٥/١٤٣).

(٣) نظم الدرر للبقاعي (٥/١٤٣).

(٤) نظم الدرر للبقاعي (٥/١٤٤).

بتعاليم الآيات، لأن الدنيا فانية غير باقية، والحساب سيكون يوم القيامة، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ في أجلها، فلماذا الهروب والخوف والبخل. والموت هو: المعنى الذي يبطل معه تصرف الروح في البدن، وتكون هي باقية بعد موته، لأن الذائق لا بد أن يكون حال ذوقه حياً حساساً، ومن يجوز عليه ذوق الموت يجوز عليه ذوق النار، وهو عبد محتاج، فالعاقل من سعى في النجاة منها والإنجاء، كما فعل الخلص الذين منهم عيسى ومحمد عليهما أفضل الصلاة وأزكى السلام^(١)، ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ﴾ وتحاسبون على أعمالكم، وتجاوزون على أفعالكم الجزاء الأوفى ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ﴿فَمَنْ رُحِّحَ﴾ وأبعد إبعاداً سريعاً^(٢) ﴿عَنِ النَّارِ﴾ في ذلك اليوم ﴿وَأُدْخِلَ﴾ بفضل الله ورحمته ﴿الْجَنَّةَ﴾ والرضوان ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ فوزاً عظيماً، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بكل ما فيها ﴿إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ﴾ أي: المتاع الذي يدلّس الشيطان أمره على الناس حتى يغتروا به فيغبنوا بترك الباقي وأخذ الأشياء الزائلة بانقضاء لذاتها والندم على شهواتها بالخوف من تبعاتها^(٣).

﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ على سبيل الاختبار ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ بالأمر بالإنفاق والبذل والجهاد بها، وبحلول الخسارة بسبب أو غيره، ﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾ بالقتل في الجهاد وغيره، كما سيكون هناك ابتلاء معنوي أيضاً، فقال: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من اليهود والنصارى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ سوى أهل الكتاب، ستمسمعون من هؤلاء جميعاً ﴿أَذْمَى كَثِيرًا﴾ من الطعن في الدين وغيره^(٤)، ﴿وَلِإِنْ نَصَبُوا﴾ على الأذى ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله في المعاملة بما يأمر الله به وبما يرضي الله تعالى ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: الأمور التي تستحق أن يعزم الإنسان على فعلها. وما أحسن مناسبة هذه الآية وذكرها بعد قصة أحد

(١) العبارة كلها من نظم الدرر للبقاعي (١٤٥/٥).

(٢) رُحِّحَ أي: نُحِّيَ وُبُعِدَ، يقال: رَحَّ الشَّيْءُ يَرْحُهُ رَحًّا جَذَبَهُ فِي عَجَلَةٍ، وَرَحَّحَهُ فَتَرَحَّحَ: دَفَعَهُ وَنَحَّاهُ عَنْ مَوْضِعِهِ فَتَنَحَّى وَبَاعَدَهُ مِنْهُ. ينظر: لسان العرب، مادة: (رح ح).

(٣) نظم الدرر للبقاعي (١٤٧/٥).

(٤) نظم الدرر للبقاعي (١٥٠/٥).

التي وقع فيها القتل بسبب الإقبال على المال^(١).

وفعل هؤلاء ليس بمستغرب، فقد سبق أن خانوا الله وكفروا برسله من قبل؛ ﴿وَلَاذَّ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ﴾ العلماء ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من ربهم ﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ﴾ ولهذا أنزل عليكم، ﴿وَلَا تَكْفُرُوا﴾ ، فبعد أن أمروا بالبيان أمروا بعدم الكتمان، والكتمان جرم أكبر من عدم البيان، ﴿فَتَبَدَّوْهُ وَرَأَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ نبدوا الكتاب ونبدوا الميثاق، نبد من لا يريد منها شيئاً، ولا يلقي بالاً، وكتموا ما جاء من البشارة بنبوة محمد ﷺ، ﴿وَأَشْتَرُوا بِهِمُ مَمْنًَا﴾ وزاد في بيان سفههم أن الثمن كان ﴿قَلِيلًا﴾^(٢)، ﴿فَقَسَّ مَا يَشْتَرُونَ﴾ لأنهم إلى النار صائرون^(٣). ويفهم من السياق تحذير المسلمين من موالة الكافرين الذين يفترون على الله الكذب، ويكفرون برسله ويقتلونهم، ويؤذون المسلمين^(٤).

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرُحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ من غير استحقاق، لا تحسبنهم أي الناظر لمكرهم، ورواجهم بسببه في الدنيا، لا تحسبنهم واصلين إلى خير^(٥)، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَقَارِفِ﴾ وبعد ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ ، بل هو واقع بهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ سينالهم يوم الدين. وقد ورد في سبب نزول الآيات ما أخرجه البخاري عن ابن أبي مليكة أن علقمة بن وقاص أخبره أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذبن أجمعون، فقال ابن عباس:

(١) نظم الدرر للبقاعي (١٤٩/٥).

(٢) نظم الدرر للبقاعي (١٥٢/٥).

(٣) وقد يدخل في وعيد هذه الآية علماء الدين الذين اشتروا الدنيا بالتملق لأهلها. والعياذ بالله عما عم به البلاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال ابن كثير في تفسيره (٢٣٤/٢): وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئاً.

(٤) ينظر: نظم الدرر للبقاعي (١٥٢/٥).

(٥) نظم الدرر للبقاعي (١٥٣/٥).

وما لكم ولهذه، إنما دعا النبي ﷺ يهود فسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم وفرحوا بما أوتوا من كتبهم، ثم قرأ ابن عباس ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ كذلك حتى قوله ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾^(١). كما ورد أنها نزلت في رجال من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج النبي ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم النبي ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدا بما لم يفعلوا فنزلت ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾^(٢). والآية عامة تشمل هذا وغيره^(٣).

ثم ختم المقطع ببيان تفرد الله تعالى بالملك والأمر في السموات والأرض، وبمقدرته المطلقة على كل شيء؛ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٤)، أي: هو مالك كل شيء والقادر على كل شيء فلا يعجزه شيء، فهابوه ولا تخالفوه، واحذروا نعمته وغضبه، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه، القدير الذي لا أقدر منه، سبحانه وتعالى^(٥).

وقد ناسب أن يكون هذا التعبير بعد قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، لأن التعبير بالميراث لا يفهم منه أن الملك حاصل الآن، لذا ناسب أن يكون التعبير في الآية الثانية بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

(١) البخاري في كتاب التفسير، باب: تفسير {لا يحسبن الذين يفرحون} الآية برقم (٤٥٦٨)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم برقم (٢٧٧٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم برقم (٢٧٧٧). وينظر: تفسير القرآن من كتاب الجامع لابن وهب (٢/٣٧-٣٨).

(٣) ينظر تفسير ابن كثير (٢/٢٣٥-٢٣٦)، والعجاب لابن حجر (٢/٨١٣-٨١٦).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/٢٣٧).

الدروس والعبر من هذا المقطع:

- موالاة غير المسلمين عاقبتها الخسران، ولو طال الزمان، أما المسلم الصادق فموالاته لله، والله مولاة، والله خير الناصرين.
- من لم يؤمن بالله تعالى فإنه يعيش في صراع مع نفسه، مما يؤدي به إلى العيش في خوف وهلع من الآخرين.
- الفشل والخور، والتنازع والاختلاف، والمعصية وحب الدنيا، كلها من أسباب الهزيمة والخسران.
- النعاس وقت الشدائد دليل على الطمأنينة والاستقرار النفسي، مما يؤدي إلى اختطاف دقائق من الراحة الضرورية.
- شدة الهول قد تذهل الإنسان عن أقرب الأقربين إليه.
- التحسّر والندم على فعل الصواب عند حصول الألم بسبب ذلك الفعل من علامات النفاق، فالخذر لا يدفع القدر، والدنيا دار امتحان واختبار.
- يحرص الشيطان على أن يغوي أهل الإيمان بتحييب الدنيا لهم، وتخويفهم من المصاعب والمصائب إذا هم فعلوا الصواب.
- من صفات الكافرين ربطهم الأحداث من حياة وموت وغيرهما بكلمة (لو).
- الحسرة والندامة والشعور باليأس والإحباط عقاب من الله تعالى، يصيب به غير الملتزمين بأوامره، والعياذ بالله.
- الموت حق لازب على كل إنسان، وعلى المسلم العاقل أن يحرص أن يكون موته في سبيل الله تعالى؛ ليحصل على المغفرة والرحمة من الله تعالى.
- الرحمة والرأفة من أهم صفات القيادة؛ لأن سياسة الناس بالشدّة والغلظة والفظاظة تؤدي

- إلى النفور وعدم الاستجابة.
- الشورى في أمور الدولة والأمور الخاصة والعامة مبدأ إسلامي أصيل، وقد أمر الله تعالى أولياء الأمور بالعمل به وحثهم على تطبيقه.
 - على المؤمن أن يطلب النصرة من الله تعالى ويتوكل عليه بعد الأخذ بكل الأسباب المطلوبة، وبعد المشاورة والعزم.
 - عظم رحمة الرسول ﷺ بأتباعه، ويظهر ذلك من موقفه ﷺ معهم بعد الهزيمة في هذه المعركة بسبب عصيانهم ومخالفتهم.
 - عظيم المنة على هذه الأمة بنبي الرحمة.
 - من أكبر فوائد الهزيمة التمييز بين الحق والباطل، والطيب والخبيث.
 - المخالفة والعصيان من أسباب الخسران.
 - كل إنسان مسؤول عن أفعاله وتصرفاته وما ينجم عن ذلك من توفيق أو خذلان ونصر أو انهزام، ولكن ذلك لا يخرج عن قدرة الله تعالى وتقديره.
 - استدلوا بقوله تعالى ﴿ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال، فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان^(١).
 - تحريم الغلول مهما كان قليلاً، والغالّ مذنب بحق نفسه وبحق المجتمع. وقد ذهب جمهور الفقهاء إلى تعزيز الغالّ، أما الإمام أحمد فقد ذهب إلى أن متاع الغالّ يجمع ويحرق^(٢).
 - في قوله تعالى: ﴿ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ نعمة ورحمة، وإلا لدخل كثير

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢٠٧).

(٢) ينظر: المغني لابن قدامة (٩/٢٤٥-٢٤٧)، والنسخة المحققة (١٣/١٦٨-١٧١)، والجامع للقرطبي

(٤/٢٥٩-٢٦٠).

- من المسلمين في مسمى الكفر، والعياذ بالله تعالى، لكن رحمة الله تعالى اقتضت عدم إطلاق مسمى الكفر على كل من ارتكب شيئاً من مسيئاته لاحتمال التأويل، وغيره، والله أعلم.
- من عقيدة المؤمن أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، ولا يعلم تفاصيل ذلك إلا الله تعالى، وهي حياة تليق بهم، وتختلف عن حياة غيرهم من الأموات.
- من ثمرات الإيمان سرعة الاستجابة لأوامر الله تعالى وأوامر رسوله ﷺ.
- يحاول الشيطان وأتباعه تخويف المسلمين من الكافرين بمختلف الوسائل، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالألّا يخافوا منهم، فالمؤمن الصادق لا يخاف إلا الله تعالى. وإن قلة من المؤمنين الصادقين يمكنها بتوفيق الله ونصره أن تحبط مخططات أهل الظلم والفساد والعدوان، كما هو مشاهد في جميع الأزمان.
- كل من أعان أعداء الله على عباد الله وأطاع أهل الكفر ووافق على تخويف المسلمين وإرهابهم فقد اشترى الكفر بالإيمان، وخسر الآخرة بسبب الدنيا.
- تحذير الكافرين من الاغترار بإمهال الله تعالى لهم، لأن عقابهم سيتضاعف بسبب استمرارهم على جرائمهم.
- على المؤمن أن يلجأ إلى الله تعالى عند اشتداد الأمور، ويدعو بالدعاء المأثور: (حسبنا الله ونعم الوكيل)، والله ذو فضل عظيم.
- الإيمان والتقوى متلازمان، وتقوى الله تعالى مفتاح النصر وتفريج الكرب وتيسير الأمور.
- البخل بهال الله تعالى وعدم الإنفاق فيما شرع الله وبال على الإنسان في دينه ودنياه، وسيلقى عقوبته عند الله.
- الله سبحانه وتعالى غني عن عباده وعن أموالهم، والأمر بالإنفاق هو من أجل البشر أنفسهم في دنيا الابتلاء.
- الموت حق على جميع الخلق، لا فرق بين ملك أو بشر، والرسول عليهم السلام في ذلك كسائر

بني آدم.

- الأصل في الحساب والجزاء أنه في يوم القيامة، فهناك تجزى كل نفس ما كسبت.
- الابتلاء في الأموال والأنفس من سنن هذا الكون، ومن طبيعة أهل الضلال أنهم يتهجمون على أهل الحق ويؤذونهم ويفرحون بأذاهم، وعلى المسلم أن يصبر ويتقي الله تعالى في معاملتهم امتثالاً لأوامر الله تعالى.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

المواضيع المتناولة في هذا المقطع بدروسه الأربعة شديدة المناسبة لمحور السورة، فقد تناول هذا المقطع مواضيع من أركان وشعب الإيمان بالله تعالى ولوازم توحيده عز وجل، منها: وجوب طاعة الله وحده وموالاته، وعدم موالاته أعدائه، والتوكل عليه، والإيمان باليوم الآخر والبعث والنشور والحساب والجزاء، والإيمان بأن الأمور كلها بيد الله تعالى وحده لا شريك له، وهو الذي يعلم ما في القلوب وما في الصدور، وهو الذي يحيي ويميت، والإيمان بأن النصر من عند الله تعالى، والإيمان بإرسال الرسل، وإنزال الكتب هداية للناس، واعتقاد أن النفع والضّرّ بيد الله تعالى، وأنه على كل شيء قدير، وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وأنه لا يعلم الغيب إلا الله تعالى، وأن الأمور كلها عائدة إلى الله تعالى، وأن ملك وميراث السموات والأرض إليه عز وجل، وأن الموت حق على جميع الخلق. وهكذا نجد أن هذا المقطع قد حشد بالإيانيات حشداً. والله أعلم بأسرار كلامه.

المقطع السابع: أولو الألباب يستفيدون من الآيات الكونية

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا رَبَّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْآتِرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَايَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّتِ بَحْرِي مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَوَابًا مِّن عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ [الآيات: ١٩٥-١٩٠].

مناسبة المقطع لسابقه:

لما ذكر الله تعالى أن له ملك السموات والأرض، وأنه على كل شيء قدير، ذكر هنا ما في خلق السموات والأرض من دلالات واضحة لذوي العقول^(١)، وأرشد إلى التفكير في هذا الخلق العظيم، تفكراً يؤدي إلى الإيمان بالله تعالى واللجوء إليه^(٢).

بعد أن تحدثت الآيات عن افتراء بعض أهل الكتاب على الله تعالى وعلى عباده، وتكذيبهم لرسوله ﷺ، وزعمهم أن الله عهد إليهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بآية هي قربان تأكله النار، ذكرت هنا ما في خلق السموات والأرض من آيات ودلالات ووضحات لذوي العقول -وليس آية واحدة بسيطة-، ترشدهم إلى الإيمان بالله تعالى.

وأيضاً، لما ذم الله تعالى البخلاء والمرائين، ذكر هنا العاملين الصادقين، وضمن لهم الأجر

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٤٥).

(٢) قارن بنظم الدرر للبقاعي (٥/ ١٥٤).

على أعمالهم. وكذلك، لما ذم الله تعالى علماء أهل الكتاب الذين نبذوه وراء ظهورهم، مدح هنا ذوي العقول من أهل الإيثار الذين آمنوا وتابوا، وعملوا وأتابوا.

قال الرازي: اعلم أن المقصود من هذا الكتاب الكريم جذب القلوب والأرواح عن الاشتغال بالخلق إلى الاستغراق في معرفة الحق، فلما طال الكلام في تقرير الأحكام والجواب عن شبهات المبطلين عاد إلى إنارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد والإلهية والكبرياء والجلال فذكر هذه الآية^(١).

التفسير الإجمالي:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ذلك الخلق العظيم، والذي هو أكبر من خلق الناس، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧]، وفي ما ينتج عنهما ويتعلق بهما من آيات وظواهر ﴿وَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ وتعاقبها وزيادتها ونقصانها، ﴿لَا يَنْتَرِ﴾ ودلالات واضحات ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وأصحاب العقول، ﴿الَّذِينَ﴾ يؤمنون بالله تعالى و﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ على كل أحوالهم؛ ﴿فِي سَكَنٍ مَّا خَلَقْتَهُمْ﴾، ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيزيدهم التفكير يقيناً، فيقولون ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا﴾ الكون ﴿بِطُلًّا﴾ وعبثاً، ﴿سُبْحَانَكَ﴾، ما خلقت هذا إلا بالحق. ثم بدؤوا بالابتهاج والدعاء فقالوا: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ التي أعدتها للمنكرين الكافرين الغافلين، ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ﴾ بسبب كفرهم وطغيانهم وافتراءه ﴿فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾، فعذاب الآخرة أخزى من عذاب الدنيا، ﴿إِنَّ الْآخِرَةَ الْيَوْمَ وَالسَّوَاءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧]، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ المشركين ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ينصرونهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٦].

ثم ذكروا مبادرتهم إلى الإيثار بخلاف أهل الزيغ والضلال الذين مرّ ذكرهم، أما هؤلاء

(١) التفسير الكبير للرازي (١٠٩/٩).

فقالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا﴾ رسولاً ﴿مُنَادِيًا﴾ أو: سمعنا القرآن ﴿يُنَادِي﴾ ويدعو الناس ﴿لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ الذي خلقكم وخلق كل شيء، ﴿فَقَامْنَا﴾ مسرعين مستجيبين، ﴿رَبَّنَا فَاعْرِفْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾^(١). ﴿وَنُؤْفِقْ مَعَ الْأَبْرَارِ﴾، بإيماننا بك وتصديقنا لرسولك. ﴿رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ من النعيم والرضوان، وباعد بيننا وبين النار، ﴿وَلَا نُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، و﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٦٣]، ﴿إِنَّكَ لَا تُخَلِّفُ الْمِيعَادَ﴾^(٢)، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥].

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ الذي خلقهم وهداهم ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ عمله خالصاً لوجهي، ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾، أي: أصل ذكوركم وإناثكم واحد،

(١) الفرق بين الذنب والسيئة: قال ابن عباس: الذنوب هي الكبائر، والسيئات هي الصغائر. ويؤيده قول الله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، وقيل: الذنوب: ترك الطاعات، والسيئات: فعل المعاصي. وقيل: غفران الذنوب وتكفير السيئات أمر قريب بعضه من بعض، لكنه كثر للتأكيد والمبالغة، وقيل: في التكفير معنى، وهو: التغطية، ليأمنوا الفضيحة. ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٣/١٤٨).

(٢) قال في البحر المحيط (٣/١٤٩-١٥٠): وانظر إلى حسن محاوره هؤلاء الذاكرين المتفكرين، فإنهم خاطبوا الله تعالى بلفظة ربنا، وهي إشارة إلى أنه ربهم، أصلحهم وهياهم للعبادة، فأخبروا أولاً بنتيجة الفكر وهو قولهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾ ثم سأله أن يقيمهم النار بعد تنزيهه عن النقائص، وأخبروا عن حال من يدخل النار، وهم الظالمون الذين لا يذكرون الله ولا يتفكرون في مصنوعاته، ثم ذكروا أيضاً ما أنتج لهم الفكر من إجابة الداعي إلى الإيثار، إذ ذاك مترتب على أنه تعالى ما خلق هذا الخلق العجيب باطلاً، ثم سأله غفران ذنوبهم ووفاتهم على الإيثار الذي أخبروا به في قولهم: ﴿فَقَامْنَا﴾، ثم سأله الله الجنة وأن لا يفضحهم يوم القيامة، وذلك هو غاية ما سأله. وتكرر لفظ ﴿رَبَّنَا﴾ خمس مرات، كل ذلك على سبيل الاستعطاف وتطلب رحمة الله تعالى ببدائه بهذا الاسم الشريف الدال على التربية والملك والإصلاح. وكذلك تكرر هذا الاسم في قصة آدم ونوح وغيرهما. وفي تكرار ﴿رَبَّنَا﴾ دلالة على جواز الإلحاح في المسألة، واعتماد كثرة الطلب من الله تعالى. وفي الحديث: «الطَّوَابِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» [الترمذي: ٣٥٢٤]، وقال الحسن: ما زالوا يقولون ربنا ربنا حتى استجاب لهم.

فكل واحد منكم من الآخر، أي: من أصله، وكما أنتم مشتركون في الأصل، فكذلك أنتم مشتركون في الأجر وقبول العمل^(١).

ثم ذكر بعض الأعمال التي لا يضيعها؛ كالهجرة وتحمل الأذى والجهاد والاستشهاد في سبيل الله، فقال: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ من بلادهم لعدم تمكنهم من إقامة دينهم، ﴿وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ إجباراً بظلم أعدائهم، كما نراه حاصل اليوم في بعض بلاد المسلمين التي تسلط عليها أهل الكتاب، وفي السياق إلزام الذنب للكفار، لأن المهاجرين إنما أخرجهم سوء عشرة الكفار وقبيح أفعالهم معهم^(٢). ﴿وَأُودُوا فِي سَبِيلِي﴾ بأي نوع من الأذى؛ القولي والفعلية والمعنوي.

وبعد أن ذكر هذه الأنواع من الأعمال، وهي كلها أعمال تشير إلى الصبر والتحمل وعدم المواجهة، انتقل بعدها إلى ذكر الجهاد في سبيل الله تعالى، المقتضي دفع البلاء ومواجهة الأعداء والثبات في اللقاء، وأتبعه بذكر الاستشهاد المستلزم للتسليم بالقضاء والصبر على الابتلاء، فقال: ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾، وهذا أعلى المقامات؛ أن يقاتل ويقتل في سبيل الله^(٣).

فهذه الأعمال تشير إلى مراتب التضحية في سبيل الله تعالى، بدءاً من تنقيص الأحوال في الحياة لأجل دين الله بالمهاجرة، والإخراج من الديار والأذى في سبيل الله، وأخيراً الفناء بالقتل في سبيل الله^(٤).

ثم ذكر ما وعدهم وتكفل بحفظه لهم وعدم إضاعته، فقال: ﴿لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وصغائر ذنوبهم. ولعله استغنى بذكر تكفير صغائر السيئات عن ذكر غفران كبائر الذنوب من باب الأولى، والله أعلم.

(١) ينظر: الكشاف، للزمخشري (١/٤٨٥)، والبحر المحيط لأبي حيان (٣/١٥١).

(٢) البحر المحيط لأبي حيان (٣/١٥٢).

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٢/٢٤٧).

(٤) البحر المحيط لأبي حيان (٣/١٥٢).

ثم واصل البشارة لهم فقال: ﴿وَلَاذِخْلَهُمْ جَنَّتْ بَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيكون هذا ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لهم، ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾، الذي تهون لأجله الصعاب، ومفارقة الوطن والأحباب، وتحمل الأذى والعذاب، والجهاد والاستشهاد والمصاب.

وذكر هذه الأعمال مناسبة للمقطع السابق الذي جاء فيه الإخبار عن الأذى والأمر بالصبر عليه، ومناسب لسياق السورة التي جاء فيها الأمر بمحاربة الأعداء وردّ عدوانهم، والصبر في القتال، وتحمل ما يكون فيه. وبالعموم فقد جيء بها لتبيين شركة النساء مع الرجال فيها وعد الله به عباده العاملين^(١).

وفي هذه الآية: عود على بدء، حيث فيها تفصيل لدعاء أولي الألباب الوارد في أول السورة، أو هو استمرار له. والله أعلم.

الدروس والعبر من هذا المقطع:

- آيات الله في الظواهر الكونية كثيرة ماثلة للعيان، متكررة مدى الأزمان، لكن غفلة الإنسان واعتياده عليها ينسيه أن يعتبر بها، ولا يستفيد من تلك الآيات الواضحات ولا يتذكر إلا أصحاب النهى والعقول.
- لا ينفك العاقل عن ذكر الله تعالى على كل حال من أحواله، فقد مدح الله تعالى أولي الألباب بذكرهم الله تعالى قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم.
- التفكير في الخلق وما فيه من آيات ودلالات مطلب شرعي.
- على المسلم أن يستغل كل فرصة متاحة للتقرب إلى الله تعالى بالعلم والعمل، كما يفعل أولوا الألباب الذين يدفعهم التفكير في خلق الله إلى مناجاته ودعائه.
- في تكرار لفظة ﴿رَبَّنَا﴾ في الدعاء دلالة على جواز الإلحاح في المسألة، واعتقاد كثرة الطلب

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٣/١٥١).

من الله تعالى^(١).

- لا فرق بين الذكر والأنثى في أصل التكليف والحساب والجزاء والثواب.
- عظم أجر المؤمن الذي يتحمل الأذى المادي والمعنوي في سبيل الله تعالى.
- عظم أجر الجهاد في سبيل الله تعالى لتكون كلمة الله هي العليا.
- التضحية في سبيل الله تعالى مراتب ودرجات، تبدأ من الابتلاء الحاصل من ترك الأوطان هجرة في سبيل الله تعالى، والإخراج من الديار والأذى في سبيل الله، وأخيراً الفناء بالقتل في سبيل الله^(٢).
- ثواب الله تعالى يستحق أن تواجهه لأجله الصعاب، ويُفارق الوطن والأحباب، ويتحمل الأذى والعذاب، والاستشهاد والمصاب.
- يستحب لمن انتبه من نومه أن يمسح على وجهه، ويستفتح قيامه بقراءة هذه العشر آيات اقتداء بالنبي ﷺ، كما ثبت ذلك في الصحيح^(٣)، ثم يصلي ما كتب له، فيجمع بين التفكير والعمل^(٤).

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

يرتبط هذا المقطع بمحور السورة ارتباطاً وثيقاً، حيث أنه يرشد إلى التفكير في الخلق للوصول إلى الخالق سبحانه وتعالى، والقيام بحق العبادة والدعاء، والخوف والرجاء، والإيمان بيوم الجزاء، وما فيه من سعادة وشقاء، والتأكيد على بذل الجهد وتحمل الصعاب في سبيل الله تعالى.

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥٠).

(٢) ينظر: البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥١-١٥٢).

(٣) أخرجه البخاري في تفسير هذه الآية في كتاب التفسير، عن ابن عباس برقم (٤٥٦٩).

(٤) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥٠).

المقطع الثامن: الأمور بخواتيمها وعواقبها

قال تعالى: ﴿لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَيَسَّسُ آلِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ جَنَّتْ حَتَّىٰ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُنزِلُ أَمَّا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّنْ آيَاتِهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [الآيات: ١٩٦-٢٠٠].

مناسبة المقطع لسابقه:

لما ذكر الله تعالى حسن عاقبة أهل الإيمان به يوم القيامة، انتقل إلى الإجابة عن سؤال مفترض أو متوقع من السامع يتعلق بالحال في الدنيا، فنبه إلى عدم الاغترار بحال الكفار في الدنيا، لأن متاع الدنيا قليل، وسيعاقبون بعده في دار البوار.

ولما ذكر في المقطع قبل السابق أن بعض علماء أهل الكتاب خانوا العهد الذي عندهم، وكتبوا الحق، ونبدوا الكتاب، واشتروا به ثمناً قليلاً، ذكر هنا أن من أهل الكتاب من يؤمن بالله وبما أنزل من الكتب، لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً. ولما ذكر هناك أن أهل الكتاب سيؤذون المسلمين بالقول والفعل، ذكر هنا الخاشعين منهم، الذين يخافون الله تعالى فلا يؤذون أحداً.

ولما ذكر قبل المقطع السابق الابتلاء الذي سيكون في أموال المسلمين وأنفسهم، والأذى الذي سيصلهم من أهل الكتاب، ذكر هنا أن تقلب الكفار في البلاد هو لفترة قصيرة، وأن عقابهم الحقيقي سيكون يوم القيامة، وكما أمرهم هناك بالصبر أمرهم هنا بالصبر، وزاد بالأمر بالمصابرة والمرابطة.

وفي هذا المقطع إشارة إلى ختم الرسل والرسالات بخير الرسل والرسالات، واصطفاء هذه الأمة لتكون خير أمة، فالحمد لله على هذه المنة، وتمام النعمة.

التفسير الإجمالي :

﴿ لَا يُغْرَنَّاكَ ﴾ يا رسول الله صلى الله عليك وسلم، ولا يغرنَّ أمتك ﴿ تَقَلَّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي أَلْبَانِهِ ﴾ وتمتعهم في الدنيا، فإنما هو ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ ، والعمر في الدنيا قليل مهما طال، والدنيا كلها مهما طالت فهي قليل مقارنة بالآخرة الباقية، هذا بخصوص الزمان، وهي بخصوص الكَمِّ والكيف كذلك، ﴿ تُعْرَأُ مَاؤُوهُمْ ﴾ ومصيرهم، وآخر تقلب لهم هو ﴿ جَهَنَّمَ وَيَسَّسَ أَلْمَهَادُ ﴾ والمصير، وعبر بالماوى إشعاراً بانتقالهم عن الأماكن التي تقلبوا فيها، وكأن البلاد التي تقلبوا فيها إنما كانت لهم أماكن انتقال من مكان إلى مكان، لا قرار لهم ولا خلود، ثم المأوى الذي يأوون إليه ويستقرون فيه هو جهنم، والعياذ بالله^(١).

واستخدم لفظة ﴿ لَا يُغْرَنَّاكَ ﴾ في هذه الآية بمعنى: (لا تظن) أن حال الكفار حسنة فتهتم لذلك، وذلك أن المغترَّ فارح بالشيء الذي يغتر به. فالكفار مغترّون بتقلبهم، والمؤمنون مهتمون به. لكنه ربما يقع في نفس مؤمن أن هذا الإملاء للكفار إنما هو خير لهم، فيجيء هذا جنوحاً إلى حالهم، ونوعاً من الاغترار، ولذلك حسنت ﴿ لَا يُغْرَنَّاكَ ﴾^(٢).

واقصر على ذكر تقلب الكفار في البلاد والسيطرة عليها، ولم يذكر انتقال السيطرة إلى المسلمين، لأن الحديث في السورة عن الهزيمة في أحد، فناسب التعزية بهذا. والله أعلم.

ثم ذكر المقابل لحال الكافرين وهو مأوى المتقين، ومتاعهم يوم الدين، ووقتهم وكمه وكيفه، فقال: ﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ ﴾^(١٧٨) ، فبدلاً من التقلب للكافرين، ذكر الخلود للمتقين، وبدلاً عن جنهم، ذكر الجنات، وبدلاً من كونه متاع في الدنيا، ذكر كونه من عند الله للمتقين، وبدلاً من كونه مأوى، ذكر كونه نزلاً ومستقراً مهيباً لهم، وبدلاً من قوله ﴿ وَيَسَّسَ أَلْمَهَادُ ﴾ ،

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥٤).

(٢) المحرر الوجيز، لابن عطية (١/ ٥٥٨).

ذكر قوله: ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾^(١).

ولما كان أكثر الحديث عن أهل الكتاب، وذكر أصنافهم السيئة والجيدة، ختم هنا بذكر صنف مؤمن منهم، فقال مؤكداً: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ وحده لا يشرك به شيئاً ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ﴾ من كتاب على رسوله محمد ﷺ، ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ ﴾ من كتب من عند الله تعالى على أنبيائه، ﴿ خَشِيعِينَ لِلَّهِ ﴾ مطيعين، لا يتكبرون ولا يؤذون، يؤمنون بكتب الله تعالى و﴿ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ كما يفعل أهل الضلال من علماء أهل الكتاب، ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الذين آمنوا منهم ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ﴾ والجزاء الجميل ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾، ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾، وسيجازي كل عامل بما عمل. وجزاء المؤمنين من أهل الكتاب أنهم يؤتون أجرهم مرتين^(٢)، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ أَنْبَأْنَا عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤]، وكما قال رسول الله ﷺ: {ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي} الحديث^(٣).

ثم ختمت المقطع والسورة بوصية جمعت خير الدنيا والآخرة، وهي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾^(٤)، حيث أمر سبحانه وتعالى المؤمنين بالصبر والمصابرة والرباط والتقوى، من أجل الفلاح في الدنيا

(١) قارن بما في البحر المحيط لأبي حيان (٣/ ١٥٤): حيث قال: (فقابل جهنم بالجنات، وقابل قلة متاعهم بالخلود الذي هو الديمومة في النعيم، فوفقت لكن هنا أحسن موقع).

(٢) وسبب ذلك أنهم آمنوا بالكتابين التوراة والقرآن، أو لأنهم آمنوا بالنبي ﷺ إيماناً غيبياً قبل مجيئه، ثم آمنوا به عندما شاهدوه، أو لأنهم صبروا على ما عانوه جراء تبديل الكتاب والرسول والتشريع أو غير ذلك. التفسير الموضوعي لسورة القصص، د. محمد عيادة الكبيسي (ص ٤٦).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب العلم، برقم (٩٧)، ومسلم في كتاب الإيمان برقم (١٥٤).

والأخرى، فقد جمعت هذه الوصية الظهور على العدو في الدنيا، والفوز بنعيم الآخرة^(١). وقيل الصبر والمصابرة بمعنى واحد، والراجح أن الصبر غير المصابرة؛ فقد مرّ في السورة ما يقتضي المصابرة ويحثّ عليها، بخلاف ما فعله أهل النفاق من تشييط وتخذيل، وندم على ما فات من أموال وأنفس في سبيل الله، وهذا كله يقتضي المصابرة، والله أعلم. فيكون المعنى: ﴿أَصْبِرُوا﴾ على طاعة الله في تكاليفه، ﴿وَصَابِرُوا﴾ أعداء الله في الجهاد، وقيل: هي مصابرة وعد الله بالنصر، أي: لا تسأموا وانتظروا الفرج^(٢).

وأما المراد بالمرابطة فهي: المداومة في مكان العبادة والثبات^(٣)، كما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: (ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات)، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط، فذلك الرباط)^(٤). أو: المراد بالمرابطة: مرابطة الغزو في سبيل الله تعالى، وحفظ ثغور الإسلام من الأعداء^(٥)، وقد وردت في فضل ذلك أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ: (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها)^(٦)، وقوله عليه الصلاة والسلام: (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتنة)^(٧).

وختمت السورة بقوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أي: واتقوا الله فيما بيني

(١) البحر المحيط لأبي حيان (١٥٦/٣).

(٢) ينظر: البحر المحيط (١٥٦/٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٢٥٤/٢). وقارن بتفسير القرآن من الجامع لابن وهب (١٥٤-١٥٥).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، باب: فضل إسباغ الوضوء على المكاره، برقم (٢٥١).

(٥) تفسير ابن كثير (٢٥٦/٢).

(٦) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب: فضل رباط يوم في سبيل الله، برقم (٢٨٩٢).

(٧) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب: فضل الرباط في سبيل الله عز وجل، برقم (١٩١٣).

وبينكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ غداً إذا لقيتموني^(١)، والله أعلم.

اللهم اجعلنا من المؤمنين الصابرين المصابرين المرابطين المتقين المفلحين. آمين.

الدروس والعبر من هذا المقطع:

- متاع الدنيا مهما كثر فهو بالنسبة للآخرة قليل، ولقلة قيمته وحقارته لم يجرم الله الكافرين منه، بل لعلمهم يتمتعون فيه أكثر من تمتع المؤمنين. فيا خسارة من اغترّ بالدنيا ونسي الآخرة.
- العبرة بعاقبة الأمور وخاتمتها، نسأل الله تعالى حسنها في أمور الدنيا والآخرة.
- في هذا المقطع تشجيع لأهل الكتاب على اتباع الحق الذي جاء به الرسول محمد ﷺ، لأن الإيمان بذلك لا يتنافى مع الأصول الصحيحة لدينهم، مع الاعتراف بفضل النبي عيسى عليه السلام وما جاء به من عند الله تعالى.
- عظم فضيلة الصبر والمصابرة في سبيل الله تعالى.
- عظم فضل الرباط في سبيل الله تعالى.
- الصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى هي أركان الفلاح عند الله تعالى.

مناسبة هذا المقطع لمحور السورة:

يرتبط هذا المقطع بمحور السورة ومقاصدها، حيث اشتمل على أمور غيبية في الدنيا والأخرى، والإيمان بمثل هذا مبني على الإيمان بالله تعالى وحده لا شريك له.

فقد اشتمل المقطع على نصح وإرشاد، وحكم وأوامر، ووعد ووعيد، وبيان حقيقة الدنيا والأخرى، وعاقبة المتقين، ومصير الكافرين في يوم الدين، كما تحدثت الآيات عن المؤمنين من أهل الكتاب بالله وحده وبكتبه ورسله، وأمرت المؤمنين بالصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى

(١) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب (٧٠/٢)، وتفسير الطبري (٥١٠/٧)، كلاهما عن محمد بن كعب القرظي.

من أجل الفلاح في الدنيا والأخرى.

وهكذا يختتم المقطع والسورة بخاتمة قصيرة وخلاصة حكيمة، هي بيان عاقبة أهل الإيمان ومثواهم، وعقوبة أهل الطغيان ومأواهم، وإرشاد المؤمنين إلى سبيل فلاحهم في دنياهم وأخراتهم. والله أعلم.

تم ما يسهه الله تعالى من تفسير سورة آل عمران، والله الحمد والمنة،
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



الفهرس

الصفحة	السورة
أ	مقدمة الكتاب
١	الاستعاذة
٥	البسمة
٧	الفاتحة
١٩	البقرة
٤٠٣	آل عمران



مطبعة المعارف
AL-MAARIF
PRINTING PRESS

Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O.Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com

